الأيوبيون بعد صلاح الدين

والحملات الصليبية من الرابعة إلى السابعة



تأليف

د/ علي محمد الصلابي

دار ابن الجوزي
القاهرة

الأيوبيون

بعد صلاح الدين

الصلابي، علي محمد
الأيوبيون بعد صلاح الدين
/ تأليف علي محمد الصلابي .
ط ١ . القاهرة : دار ابن الجوزي، ٢٠٠٨ .
٥٦٠ ص ؛ ٢٤ سم . - (موسوعة الحروب الصليبية ؛ الحملات الصليبية الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة)
تدمك : ٧ - ١١٧ - ٦٣٠٧ - ٩٧٧ - ٩٧٨

١ - الدولة الأيوبية
٢ - الفقهاء أ - العنوان
٩٥٣.٠٧٣٩٣

رقم الإيداع : ١٦٩١٨ / ٢٠٠٨

دار ابن الجوزي

جمهورية مصر العربية - القاهرة
١٢ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر
ت: ٠٠٢٠٢٢٥٠٦١٩٠٣/تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٥٠٦١٦٢٠
E-mail:dar_ebnelgawzy@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

موسوعة الحروب الصليبية "٤"

الحملات الصليبية

الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة

الأيوبيون

بعد صلاح الدين

تأليف

الدكتور علي محمد الصلابي

دار ابن الجوزي

القاهرة

الإهداء

إلى كل مسلم حريص على إعزاز دين الله تعالى أهدي هذا الكتاب، سائلًا المولى عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا أن يكون خالصًا لوجه الكريم.

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١١].

د/ علي محمد محمد الصَّلَّابي

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: يا رب لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا، هذا الكتاب امتداد لما سبقه من كتب درست عهد النبوة وعهد الخلافة الراشدة وعهد الدولة الأموية، وعهد السلاجقة وعصر الدولة الزنكية، ودولة المرابطين والموحدين، وعهد صلاح الدين الأيوبي، والدولة العثمانية، وقد صدر منها: السيرة النبوية وأبو بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب والحسن بن علي، ومعاوية بن أبي سفيان وعمر بن عبد العزيز، وفقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، والوسطية في القرآن الكريم، والثمار الزكية للحركة السنوسية، والسلطان محمد الفاتح، والشيخ عبد القادر الجيلاني، والإمام الغزالي، وحقيقة الخلاف بين الصحابة، وفكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة، وعقيدة المسلمين في صفات رب العالمين، وقد سميت هذا الكتاب: «**الحملات الصليبية الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، والأيوبيون بعد صلاح الدين**» ويعتبر حلقة مهمة في سلسلة الحروب الصليبية والتي خرج منها: السلاجقة والزنكيون وصلاح الدين، والتي أسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا أن تكون لوجهه خالصة ولعباده نافعة، ويطرح فيها القبول والبركة، ويرزقنا حسن القصد وإخلاص النية لوجهه الكريم، ويوفقنا لإكمال الموسوعة التاريخية التي نسعى لإخراجها.

وهذا الكتاب يتحدث عن استمرار صراع المشروعات بين المشروع الصليبي والمشروع الإسلامي، وظهور المشروع المغولي على مسرح الأحداث، فقد لخص الفصل الأول الأيوبيين بعد صلاح الدين، فتحدث عن أقاليم الدولة والنزاع بين خلفاء صلاح الدين وبين الأخوين

الأفضل والعزيز، وتآمر الملك العادل على الأفضل، وجهود القاضي الفاضل في الإصلاح بين البيت الأيوبي والتحالف بين الملك العادل والعزيز بن صلاح الدين، وجهاد الملك العادل للصليبيين، وتشجيع القاضي الفاضل له على التصدي للغزاة.

وتعرض الكتاب لعهد الملك العادل بالتفصيل، فذكر الأحلاف السياسية ضد الأيوبيين في الجزيرة، والعلاقات مع الزنكيين في عهد الملك العادل، والعلاقات السلجوقية الأيوبية في عهد العادل، والعلاقات بين الخوارزميين والأيوبيين، وبين الأيوبيين والفرقة الإسماعيلية، والعلاقات مع الخلافة العباسية، وأثار الكتاب الحديث عن الحملة الصليبية الرابعة وسقوط القسطنطينية، وإلى جذور الصراع بين الإمبراطورية البيزنطية وبابا الفتيكان، ومقتل الإمبراطور ميخائيل الثالث، وتجدد العداء بين البابوية وبيزنطة والمشكلة الأنطاكية، وجهود البابا أنوسنت الثالث في الحملة الصليبية الرابعة، وبعض المصاعب والمشاكل التي أثرت في مسيرة الحملة، وسقوط القسطنطينية وإقامة إمبراطورية لاتينية، والسياسة الخارجية للبابوية والحملات الصليبية، ومسئولية سقوط القسطنطينية، ونتائج الحملة الصليبية الرابعة، ومحاولة الصليبيين السيطرة على بلاد الشام، وفصَّل الكتاب مجريات الحملة الصليبية الخامسة وموقف أباطرة وملوك أوربا من الحملة واستعدادات التجهيز، ونزول الصليبيين لدمياط، وبداية العمليات العسكرية والصراع على برج السلسلة ووفاة الملك العادل أخو صلاح الدين.

وتحدثت عن دور العلماء والفقهاء في الجهاد في عهد الملك العادل، وعن أهم معاهدات الملك العادل مع الفرنج، وعن سياسة دول المدن الإيطالية تجاه الأيوبيين، وعن أهم الدروس والعبر والفوائد والوفيات في عهد الملك العادل والتي من أهمها؛ غلاء وفناء ووباء بمصر عام ٥٩٧هـ، وزلزلة عظيمة في سنة ٥٩٧هـ في بلاد الشام والجزيرة والروم والعراق، ووفاة الشيخ أبو الفرج بن الجوزي، ووفاة العماد الكاتب الأصبهاني والحافظ عبد الغني المقدسي وفخر الدين الرازي ومحمد بن أحمد بن قدامة وإبراهيم عبد الواحد المقدسي، وطبيعة البيت الأيوبي في الصراع الداخلي، وإعلان الباطنية رجوعهم إلى الإسلام عام ٦٠٨هـ، وعمارة قلعة الطور عام ٦٠٩هـ، وتخلل عهد الملك العادل وقفات تربوية وعلمية وتأملات في بعض سنن الله في طبيعة الصراع بين المشروعات.

وفي الفصل الثاني كان الحديث عن عهد الملك الكامل بن العادل الأيوبي، وجهوده للتصدي للغزاة الصليبيين في الحملة الصليبية الخامسة ومرابطته في العادلية، ومساومات الملك الكامل على القدس، وإعداده لمصر والشام لقتال الصليبيين، وسقوط مدينة دمياط واضطرار الصليبيين للصلح، وأسباب فشل الحملة الخامسة؛ منها توفيق الله للمسلمين ثم الخطط العسكرية الجيدة التي وضعها الكامل محمد ونفذها جنوده، وتعاون الملوك الأيوبيين، ودعم

الجبهة الإسلامية بالمال والرجال والعتاد، وإقامة التحصينات الكافية في الأماكن المناسبة، والاختلاف بين الصليبيين، واعتدادهم بالنفس وجهلهم بالوضع الطبيعي لأرض مصر، وعدم استغلال عامل الوقت، والخلافات التي نشبت بين أفراد الجيش الصليبي وغيرها.

وتكلمت عن السياسة الأيوبية الداخلية في عهد الملك الكامل ابن الملك العادل، وكيف تولى السلطة؟ وما هي المحاولات التي بذلت لخلعه؟ كمؤامرة ابن المشطوب وتخوف الملك الكامل من الأمراء، وشرحت سياسة الملك الكامل الإدارية والأمنية والقضائية والاقتصادية والمالية، وإصلاح النظام النقدي وسياسته التعليمية وأصول ثقافته الدينية، وترجمت لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة من مشاهير عصر الدولة الأيوبية في عهد الملك العادل والملك الكامل، فذكرت علمه ومصنفاته وجهوده في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد النصارى، ومكانته وثناء الناس عليه، ومنهجه في باب الأسماء والصفات والمحبة عند ابن قدامة والنذر، ومسألة الإمامة والجهاد والغزو معهم والصلاة خلفهم وتحريم الخروج عليهم والصحابة، ووصية ابن قدامة.

وأشرت إلى الملك الكامل وسياسته العمرانية والحياة الاجتماعية وبعض رجالاته في الدولة وسياسته الخارجية مع الخوارزميين وسلاجقة الروم والأراتقة والتتار والخلافة العباسية، ثمّ ترجمت للخليفة العباسي الناصر لدين الله وسياسته المالية والاقتصادية ونظام الفُتُوّة وصحوة الخلافة وتصديها للنفوذ السلجوقي وعلاقته بالخوارزميين والإسماعيلية الشيعية، وعلاقته بحكام بلاد الشام، وترجمت للخليفة الظاهر بن الناصر، والخليفة المستنصر بالله، في المبحث الرابع من الفصل الثالث تحدثت حديثًا مستفيضًا عن الحملة الصليبية السادسة، وعن شخصية الإمبراطور فردريك الثاني وطموحاته وسير الحملة الصليبية السادسة والمفاوضات بين الملك الكامل والإمبراطور فردريك الثاني، وصلح يافا، وزيارة الإمبراطور بيت المقدس، وردود فعل الأمة الإسلامية من تسليم بيت المقدس، ومعالجة الملك الكامل لموقف المسلمين الرافضين للصلح، وموقف الصليبيين من صلح يافا وذكرت نتائج الحملة السادسة.

وفي الفصل الثالث تكلمت عن عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب، وماذا حدث بعد وفاة الملك الكامل، وعن الأحلاف بين بعض الأيوبيين والصليبيين والخوارزمية، واسترداد بيت المقدس، والصالح أيوب وتوحيد الدولة الأيوبية، وعلاقة الملك الصالح أيوب بالخلافة العباسية، وتطوير الملك الصالح أيوب للجيش الأيوبي واهتمامه بتربية المماليك على تعاليم الدين الإسلامي، ودخلت في المبحث الثاني من الفصل الثالث وتركت القارئ وجهًا لوجه مع الحملة الصليبية السابعة، وسردت أحداثها بشيء من التفصيل مع وقفات تربوية واستخراج دروس وعبر وفوائد من هذا الحدث الكبير؛ كوقوع لويس التاسع في الأسر وشروط الصلح

وأسباب هزيمة الحملة الصليبية السابعة، كالتطوير العسكري في الجيش الأيوبي ووحدة الصف الإسلامي وأهمية القيادة في إحراز النصر، ونزول العلماء والفقهاء أرض الجهاد، وجهل الفرنجة بجغرافية البلاد الإسلامية، وخطئهم في تقدير العامل الزمني والعصيان وعدم الطاعة في صفوفهم، وانحلال الحملة السابعة خلقيًا، وفتور الروح الدينية عند الصليبيين، والتهور وقصر النظر، ولخصت أهم نتائج الحملة الصليبية السابعة التي كانت؛ عجز فرنسا عن تحقيق أهدافها، وأهمية دور المماليك في إفشال الحملة وسندهم التاريخي للوصول للحكم، تميز شجرة الدّر في قيادة الأحداث، تضرر الاقتصاد الأوربي، والحزن العظيم الذي أصاب الأوروبيين واضطرابات سياسية في أوربا، تخريب مدينة دمياط، عدم الاستجابة للبابا أنوسنت الرابع، انقطاع الإمدادات، ضعف الروح الصليبية، وذكرت مقتل توران شاه وزوال الدولة الأيوبية.

وفي المبحث الثالث من الفصل الثالث كان الحديث عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام من مشاهير عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب، فتحدثت عن اسمه ونشأته وشيوخه في طلب العلم وتلاميذه ومؤلفاته وسمات التأليف عنده، وأعماله في التدريس والإفتاء والقضاء والخطابة وأهم صفاته؛ كالشجاعة والزهد والقناعة والورع والتقوى والبلاغة والفصاحة، وأهم محاور التجديد عنده؛ كسعيه لتقنين أصول الفقه، ومجالات التربية والآداب والتصوف وإبداعاته الجميلة فيها وجهاده، ثم وفاته وثناء العلماء عليه قديمًا وحديثًا.

وفي المبحث الرابع كان الحديث عن الجدل الثقافي بين المسلمين والنصارى في عهد الحروب الصليبية، فتكلمت عن أهم موضوعات دعوة المسلمين للنصارى؛ كالدعوة إلى التوحيد، واعتناق الإسلام والإيمان بالقرآن الكريم، ومناقشة عقائد النصارى؛ كنقض الأمانة، واختلاف الأناجيل، ومناقشة قولهم في المسيح عليه السلام، وإبطال التثليث، ونفي الألوهية عن المسيح، ونفي بنوة المسيح لله سبحانه وتعالى، وإبطال الصلب، ومناقشة شعائر النصارى وطقوسهم؛ كالتعميد والاعتراف وصكوك الغفران وأعياد النصارى، وصلاة النصارى وصيامهم، وتشريع النصارى في الزواج، ومناقشة النصارى في تركهم الختان، وتعظيم النصارى للصور والتماثيل، وحقيقة خوارق العادات لدى النصارى، وأهم الشبه التي أثارها النصارى في عصر الحروب الصليبية؛ كدعوى خصوصية رسالة النبي ﷺ بالعرب، ودعوى أن القرآن ورد بتعظيم النصارى والثناء عليهم، وشبهات تعدد الزوجات في الإسلام، ودعوى انتشار الإسلام بالسيف، ودعوى عدم جزم المسلمين بصحة القرآن الكريم لاختلاف الصحابة في جمعه وتعدد قراءاته، وانتقادهم للطلاق في الإسلام، ودعوى أن المسلمين وثنيون كفار.

وذكرت جهود القائمين على دعوى النصارى في عصر الحروب الصليبية، من القادة والولاة، وجهود صلاح الدين ونور الدين والملك العادل، ويوسف بن تاشفين في دعوى النصارى، ودور

العلماء مثل: صالح بن الحسين بن طلحة الجعفري، وأحمد بن إدريس القرافي، ومحمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي في قيادة المعركة الثقافية ضد الصليبيين، ووضحت وسائل الدعوة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية من الكتب؛ كالإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام للقرطبي، والأجوبة الفاخرة للقرافي، ووسيلة الجهاد كالتي قام بها عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين والملك العادل والمرابطون والموحدون، ووسيلة الرسل، والمسجد، والرسائل، وشرحت أساليب المسلمين في دعوى النصارى؛ كالأساليب العقلية من السبر والتقسيم، وقياس الأولى، والقياس المساوي والمحاكمات العقلية، وأسلوب القلب وتناقض الخصوم، وأسلوب المقاربة والاستدلال بمسلمات الخصم، والأساليب العاطفية؛ كأسلوب الترهيب، وأسلوب الاستهزاء والتهكم، وأسلوب اللين والتلطف بالخطاب، وأسلوب القسم، والأساليب الفنية؛ كأسلوب ضرب الأمثال، وأسلوب، القصة وأسلوب التكرار، وأسلوب الاستفهام، وأسلوب التعجب، وأسلوب استخدام الشعر في تأدية بعض المعاني.

وبينت آثار دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية؛ كدخول أعداد كبيرة من النصارى في الإسلام، وتأثر النصارى بعادات المسلمين وأخلاقهم وتقاليدهم، وتحسن نظرة كثير من النصارى للإسلام والمسلمين، ونجاح المسلمين في كسب بعض النصارى، وحسن معاملة النصارى لمن تحت أيديهم من المسلمين، وظهور عزة الإسلام وتغير التكتيك الصليبي، وإعجاب بعض القادة الأوربيين بالحضارة الإسلامية، واهتمام كثير من علماء الغرب بثقافة الشرق، وتأثر النصارى باللغة العربية، وفقدان الثقة بالبابا ورجال الدين، ولخصت أهم الدروس والعبر والفوائد من دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية والتي من أهمها:

١- وجوب الحذر من خصوم الإسلام في كل زمان ومكان وإن تغيرت الوسائل وتنوعت الأساليب.

٢- وجوب الدعوة إلى الله على بصيرة، ولا يكون ذلك إلا بوجود العلماء الربانيين.

٣- أهمية التدرج في الدعوة وعدم استعجال النتائج خاصة في المجال الدعوي.

٤- إن المقاومة الهادئة للغزاة على منهج سليم أساس النجاح والانتصار على الأعداء وتحصين الصف الداخلي.

٥- للأقليات الإسلامية في ديار الغرب رسالة مهمة، ولذلك علينا الاتصال بها وتقوية العلاقة بيننا وبينها لتحقيق المقاصد المرجوة على المدى الطويل.

٦- إن ثبات المسلمين في ديارهم لمقاومة الغزاة من أهم أسباب بقاء الإسلام فيها، ومن ثم دحر العدو وهزيمته.

٧- كان لحركة التأليف التي قام بها علماء المسلمين أثر كبير في تقرير عقيدة الإسلام وبيان السنة، وإبراز محاسن الدين، وإبطال شبهات الأعداء حوله بمختلف اللغات.

٨- ظهر مبدأ التخصص في دعوة النصارى والتصدي لشبهاتهم، وكان من أبرز العلماء: القرافي والقرطبي.

٩- إن الالتزام بالإسلام وأحكامه له تأثير في نشر الإسلام وقبوله عند الآخرين.

١٠- خطورة الاختلاف والتناحر على الأمة، وأثر الوحدة في عزتها وقوتها وهزيمة أعدائها.

١١- عدم القنوط واليأس مهما كبرت الرزايا وكثرت الفتن، ونحب أن نبين أنه في الوقت الذي كانت تجري فيه رُحى المعارك الحربية بين المسلمين والصليبيين، كان هناك معارك أخرى بين الطرفين في صورة السجال الديني والجدل الثقافي والردود المتبادلة، ومحاولة كل طرف إثبات أفضلية معتقده الديني، وقد برز في هذا الجدال والسجال أعلام وقادة من أشهرهم: القرطبي والخزرجي والقرافي، وغيرهم، فدافعوا عن ثقافة الأمة وعقيدتها، وخلَّد الله ذكر مساعيهم الحضارية الرائعة التي لا تزال آثارها إلى يومنا هذا، ونصر الله بهم الإسلام في المجال الفكري والدعوي، وتحقق بهم قول الله تعالى: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]، وقول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف: ٩].

وقد لفت نظري أسلوب علماء الأمة في مناصرة الإسلام ورسول الله ﷺ في عهد الحروب الصليبية، ونحن في أشد الحاجة إليه بحيث تكون مناصرتنا لرسول الله شاملة وفق رؤية استراتيجية متكاملة، ونخرج من موقع المدافع إلى الهجوم؛ حيث إنه خير وسيلة للدفاع، فلنشغل القوم بأنفسهم، وندعوهم إلى الدين الصحيح، والعقيدة السليمة وخاتم النبيين والمرسلين، إن لدى أمتنا رصيدًا زاخرًا وتراثًا كبيرًا مما كتبه القرطبي والقرافي والخزرجي وابن تيمية وابن القيم، والجهد المشكور الذي قام به الداعية أحمد ديدات رحمه الله، وغير ذلك كثير.

إذن فلتكن رؤيتنا واستراتيجيتنا لنصرة رسول الله ﷺ وديننا العظيم، يقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه «قذائف الحق»: إن القوم لو شغلوا بترهات دينهم، ومضحكات عقيدتهم، لأجهدناهم أي جهد، وشغلناهم كل مشغل[١]. وهذا الكلام صحيح، ولكنني أذهب إلى دعوتهم والحرص على سلامتهم، والأخذ بأيدي الباحثين عن الحقيقة منهم إلى بر السلام، وعلينا أن نترك أسلوب الدفاع ولننتقل إلى الهجوم على عقائدهم الفاسدة، يقول أبو الحسن

(١) التنصير، الشيخ/ أكرم كساب ص٣٨١ .

الندوي في تقديمه لكتاب العلامة رحمه الله الكيرانوي «إظهار الحق» مادحًا أسلوبه وخطته الهجومية: وهكذا ظهر هذا الكتاب إلى حيز الوجود، ويمتاز بعدة ميزات منها: أن المؤلف آثر خطة الهجوم على خطة الدفاع، التي لا تزال أقوى وأكثر تأثيرًا في النفس؛ فإنها تلجئ الخصم إلى أن يتخذ موقف الدفاع وأن يقف في قفص الاتهام ويدافع عن نفسه وينفي التهمة، لذلك لما طبع كتاب العلامة رحمه الله الكيرانوي أثار ضجة كبرى في الأوساط النصرانية والأوربية، ناهيك عما كتبته صحف إنجلترا تعليقًا على هذا الكتاب: لو دام الناس يقرءون هذا الكتاب لوقف تقدم المسيحية في العالم[1]. وقد اشترى القساوسة كميات كبيرة من طبعات الكتاب، وأتلفوها إحراقًا وإبادة، ليتغيب الكتاب عن السوق[2].

إننا اليوم في حاجة ماسة إلى إعادة النظر في التعامل مع المشروعات الغازية، سواء صليبية، أو غيرها، ولا بد من المواجهة الشاملة وترتيب الأولويات في ذلك، فالمشروع الصليبي الفكري والسياسي والاقتصادي والعسكري والثقافي والأعلامي ... إلخ بداية هزيمته في تحقيق انتصارات ساحقة في المجال الفكري والعقدي والثقافي، وهذا يسبق الانتصار العسكري والسياسي، كما بينا في كتبنا السابقة.

هذا، وفي المبحث الخامس والأخير وقفت متأملًا ومتدبرًا في أسباب سقوط الدولة الأيوبية والتي كان جامعها الابتعاد عن شرع الله في أمور الحكم، فقد وقع الظلم على الأفراد وتورط بعض السلاطين في الترف، وحدث بينهم نزاع عظيم، سفكت فيه الدماء بين المسلمين، وأدى ذلك إلى زوالهم، فعندما يغيب شرع الله تعالى في أمور الحكم -كما حدث للدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين- يجلب للأفراد والدولة تعاسة وضنكًا في الدنيا، وإن آثار الابتعاد عن شرع الله لتبدو على الحياة في وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وإن الفتن تظل تتوالى وتترى على الناس حتى تمس جميع شئون حياتهم، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

لقد كان في ابتعاد سلاطين الأيوبيين بعد وفاة صلاح الدين عن تحكيم الشرع والعقل الذي يقود إليه في نزعاتهم وخلافاتهم آثار على أفراد البيت الأيوبي والأمراء والملوك والدولة، فقد أصيبوا بالقلق والجزع والخوف والشقاق والخلاف، ونُزع منهم الأمن وأصبحوا في ضنك من الحياة.

إن هلاك الأمم وسقوط الدول وزوال الحضارات لا يحدث عبثًا في حركة التاريخ، بل نتيجة لممارسة هذه الأسرة الحاكمة، أو الدولة الظالمة، وأصناف الظلم والجور والانحراف وبعد أن

(١) إظهار الحق (١/١٦، ١٧) التنصير ص٣٨٢.
(٢) التنصير ص٣٨٢.

يعطوا الفرصة الكافية حتى تحق عليهم الكلمة فيدفعوا ثمن انحرافهم وإجرامهم وطغيانهم وفسقهم، والآيات صريحة في ذلك، فالله إذا أنعم على دولة نعمة أيًا كانت فهو لا يسلبها حتى يكفر بها أصحابها، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

والآيات في هذا كثيرة سواء ما يخص الفرد أو الأمة، بل إن القرآن الكريم ليذكر أن بعض ما يصيب الأمم والأفراد من استدراج حين يمهلهم الله تعالى وتواتيهم الدنيا وتفتح عليهم خيراتها، فينسوا مهمتهم وما خلقوا له، بل ينسون المنعم جل جلاله وينسبون ما عندهم لجهدهم وذكائهم وقد يفلسفون الأمر فيقولون: لو لم نكن نستحق هذه النعم لما مُنحت لنا، وفي هؤلاء يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

لقد نسي هؤلاء أن الله يمنح خيرات الدنيا لمن يطلبها ويجدّ فيها، قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٤٥]، ولكن هناك من يريد الآخرة بحق ويسعى لذلك فهو الفائز: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ١٨-٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [النحل: ١١٢، ١١٣]، ولنستمع لهذه الدعوة الكريمة: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود: ٥٢]، فكل إنسان وكل مجتمع وكل أمة مسئولة عما يصدر عنها، ولا يتحمل أحد جريمة غيره[١] ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة: ١٣٤].

والمهم أن الله تعالى لا يحجب نعمة عن أحد، بل يوزعها على المؤمن والكافر، ثم يراقب تصرف الكل فيها، فمن طغى وظلم وكفر بها واستعملها استعمالًا سيئًا فإن العقاب العادل سينزل به في الوقت المناسب، وقد يطول ذلك العهد قبل نزول العقاب ولكنه يكون في الطريق، وبعد هذا وذلك فإنه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٨٦]، ومثل هذا في الأمم والمجتمعات وعلى مستوى الأفراد، فإن الله خلق النفوس ملهمًا إياها طريق الخير

(١) التفسير الإسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل ص٤٧ .

والشر، يقول تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّنْهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَنْهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّنْهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّنْهَا ۞﴾ [الشمس: ٧-١٠]، وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۞﴾ [البلد: ١٠].

ومن الملاحظ في دراسة أسباب سقوط الدول والحضارات بأنها لا تسقط بسبب واحد، كما لا تقوم بسبب واحد، بل تتجمع عدة أسباب لقيامها، وعدة أسباب لتدهورها وسقوطها، بعضها يعمل ببطء بينما يعمل البعض بسرعة أكبر، ولا تسقط الدولة أو الحضارة بضربة واحدة، بل تتظافر جملة من العوامل، وهذا ما حدث للدولة الأيوبية التي زالت من الوجود في مصر عام ٦٤٨هـ، **وأهم هذه الأسباب في نظري:**

١- توقف منهج التجديد الإصلاحي.

٢- الظلم.

٣- الترف والانغماس في الشهوات.

٤- تعطيل الخيار الشوري.

٥- النزاع الداخلي في الأسرة الأيوبية.

٦- موالاة بعض الأيوبيين للنصارى.

٧- فشل الأيوبيين في إيجاد تيار حضاري.

٨- ضعف الحكومة المركزية.

٩- ضعف النظام الاستخباراتي.

١٠- غياب العلماء الربانيين عن القرار السياسي.

١١- وفاة الملك الصالح أيوب وعدم كفاءة وريثه.

وقد شرحت كل سبب من هذه الأسباب في هذا الكتاب، وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم الخميس الساعة السابعة إلا خمس دقائق ليلًا من تاريخ ٢٥ من ربيع الآخر ١٤٢٩هـ-١/ ٥/ ٢٠٠٨م بالدوحة، والفضل لله من قبل ومن بعد، وأسأله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا أن يجعل عملي لوجهه خالصًا ولعباده نافعًا، ويشرح صدور العباد للانتفاع به ويبارك فيه بمنّه وكرمه وجوده، وأن يثيب إخواني الذين أعانوني من أجل إتمام هذا الجهد المتواضع، ونرجو من كل مسلم يصله هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

وقال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ [فاطر: ٢].

وقال تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

«سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك».

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الإخوة الكرام: يسرني أن تصل ملاحظاتكم وانطباعاتكم حول هذا الكتاب وغيره من كتبي من خلال دور النشر، وأطلب من إخواني الدعاء في ظهر الغيب بالإخلاص لله رب العالمين، والصواب للوصول للحقائق ومواصلة المسيرة في خدمة تاريخ أمتنا.

Mail: abumohamed2@maktoob.com

الفصل الأول

الأيوبيون بعد صلاح الدين

المبحث الأول

خلفاء صلاح الدين

عندما توفي صلاح الدين وأصبح في ظل رحمة الله، كانت الظروف التي أفرزته لا تزال قائمة، وكانت الأمة الإسلامية في مسيس الحاجة إلى شخصيته المتميزة، وإيمانه الكبير، وعبقريته العسكرية[١] الفذة، وقد ترك دولة مترامية الأطراف تشمل مصر والجزيرة العربية وبلاد الشام والجزيرة الفراتية، وخلّف فراغًا لم يستطع أحد من أبنائه السبعة عشر أو إخوانه أن يملأه[٢]، وظهر خلفاء صلاح الدين الأيوبي على مسرح الأحداث التاريخية، وكانوا مختلفين عنه سلوكًا وخلقًا، وكان مستواهم العسكري والسياسي لا يرقي إلى مستواه، ومن هنا ترك صلاح الدين الأيوبي فراغًا سياسيًا كبيرًا بموته[٣].

أولًا: تقسيم أقاليم الدولة:

اتسعت شقة الخلاف بين أبناء صلاح الدين الأيوبي على السلطة، وتدخل بينهم أصحاب الرأي والمشورة لإصلاح ذات البين، واستقر الأمر في البداية على تقسيم الأقاليم على النحو التالي:

١- مَلِك الملك الأفضل بن صلاح الدين دمشق والقدس وبعلبك وصرخد وتبنين وبصرى إلى الداروم[٤] (دير البلح) حتى حدود مصر[٥].

٢- استولى الظاهر غياث غازي بن صلاح الدين على حلب وجميع أعمالها وشمال سوريا كحارم وتل باشر واعزاز ومنبج[٦].

٤- أخذ الملك العادل سيف الدين أبو بكر شقيق صلاح الدين الكرك والجزيرة الفراتية[٧]؛

---

(١) صلاح الدين والصليبيون، د/ أحمد الشامي ص١٦١ .
(٢) القدس بين أطماع الصليبيين وتفريط الملك الكامل ص٣٠ .
(٣) الداروم: قلعة قرب غزة على الطريق المؤدي إلى مصر.
(٤) الكامل لابن الأثير (٩/ ٢٢٧).
(٥) النجوم الزاهرة (٦/ ١٠٣).
(٦) القدس بين أطماع الصليبيين وتفريط الملك الكامل ص٣٠ .
(٧) مرآة الزمان (٨/ ٢٧٩) القدس بين أطماع الصليبيين ص٣٠ .

أي حران والرها وسميساط وقلعة جعبر وميافارقين وديار بكر، وكانت هذه المنطقة لا تتناسب مع مكانته وقدراته[١].

٥- احتفظ سيف الإسلام طغتكين أخو صلاح الدين باليمن وجزيرة العرب[٢].

٦- أخذ الملك الأمجد مجد الدين بهرامشاه بن فرخشاه بعلبك وأعمالها.

٧- استمر الملك المنصور الأول محمد بن تقي الدين عمر في حكم حماه.

٨- تولي الملك الظافر خضر بن صلاح الدين بصرى من قبل أخيه الملك الأفضل، وكان ثمة بعض البلدان والحصون بأيدي جماعة من أمراء الدولة فاحتفظ كل بولاية، إذ استمر عز الدين مسعود الأول الزنكي في حكم الموصل، كما احتفظ أخوه عماد الدين زنكي الثاني في حكم سنجار[٣]، وقطب الدين سقمان الثاني الأرتقي في حكم حصن كيفا وآمد[٤]، وكذلك تولى ناصر الدين منكوريوس منطقة صهيون[٥].

ثانيًا: النزاع بين خلفاء صلاح الدين:

عندما توفي صلاح الدين حضر أخوه الملك العادل وشارك في تقبل التعازي مع أبناء أخيه، وكان صلاح الدين قد قدَّم ابنه الملك الأفضل لتولي السلطنة من بعده، وبعد انتهاء العزاء طلب الملك الأفضل من بعض الأمراء والمماليك أن يجددوا مبايعته ويحلفوا له يمين الولاء والطاعة، فاشترط بعضهم[٦] أن يكون له خبز يرضيه، وامتنع قسم آخر عن البيعة قائلًا: أنا ليس لي خبز (إقطاع) فعلى أي شيء أحلف؟ وكان بعض العلماء ممن نشئوا في ظل الدولة الصلاحية يتخوفون من أن تصير حال الدولة بعد صلاح الدين إلى الشقاق والنزاع، وممن أوجس خيفة من ذلك القاضي الفاضل، فقد كتب إلى الملك الظاهر غياث صاحب حلب، إثر وفاة السلطان كتاب تعزية جاء فيه: إن وقع اتفاق بينكم، فما عدمتم شخصه الكريم، وإن غير ذلك فالمصائب المستقبلية أهونها موته وهو الهول العظيم[٧]، ولم تنفع وصية القاضي وأمنية الأصدقاء المخلصين، كما لم تنفع الملك الأفضل تلك المبايعة التي دعا إليها القادة والأمراء في دمشق، بينما كان أبوه يعاني سكرات الموت معتذرًا بأن المرض قد اشتد وما يعلم ما يكون، وما يفعل هذا إلا احتياطًا على جاري عادة الملوك[٨]، وتهيأت فرص النزاع بين خلفاء صلاح الدين، وتتابعت مقدماتها فكان من الواضح أن يصيب الملك العادل من ذلك الإرث العظيم، فقد كان

(١) مفرج الكروب (٢/٣٧٨) القدس بين أطماع الصليبيين ص٣٠.
(٢) الفتح القسي ص١٣٦، القدس بين أطماع الصليبيين ص٣٠.
(٣) الكامل في التاريخ (٩/٢٤٣)، القدس بين أطماع الصليبيين ص٣١.
(٤) القدس بين أطماع الصليبيين ص٣١.
(٥) المصدر نفسه ص٣١، أبو الفداء: المختصر (٣/٦٣).
(٦) المصدر نفسه ص٣١.
(٧) خطط الشام (٢/٧٣) القدس بين أطماع الصليبيين ص٣١.
(٨) النوادر السلطانية ص١٤٨.

داهية وليس في البيت الأيوبي من يدانيه في حسن السياسة وكثرة التجربة وبعد النظر[١]، واغتنم الفرنج وفاة صلاح الدين وانشغال الأيوبيين بالعزاء فقاموا بخطوة استطلاعية جريئة للتعرف على مدى قدرة خلفاء صلاح الدين على الاحتفاظ بوحدتهم، واستولوا على مدينة جبيل وقلعتها عام ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م[٢]، وخرج الملك الأفضل وخيم على البقاع ليستخلصه فتعذر ذلك عليه.

فقالت الأمراء للملك العزيز: توانيت، فطُرقت البلاد واستولى عليها الفرنج، فحينئذ صمم على الحركة وخرج بمضاربه وجحافله لقصد الشام[٣]، وانتهز صاحب الموصل عز الدين مسعود بن مودود زنكي فرصة موت صلاح الدين فتحرك لاحتلال البلاد الشرقية، وعندما علم الملك العادل بذلك اتجه إلى الشرق، وأقام في قلعة جعبر، لشل أي حركة يحاول صاحب الموصل القيام بها[٤] في تقسيم أقاليم الدولة.

ثالثًا: النزاع بين الأخوين الأفضل والعزيز:

خالف الملك الأفضل سيرة أبيه، وأقدم على عدة إجراءات أساءت إليه فكرهه الناس، ومن هذه الإجراءات:

١- خالف نهج والده صلاح الدين في الحكم، فأقصى أمراء والده ومستشاريه بتأثير الوزير ضياء الدين ابن الأثير أخي المؤرخ المشهور، فهربوا إلى القاهرة مستنجدين بالعزيز عثمان الذي رفعهم وأعزهم، فالتفوا من حوله، واعترفوا به زعيمًا على الأيوبيين، وزيَّنوا له الاستيلاء على دمشق.

٢- بعد اختياره ضياء الدين ابن الأثير وزيرًا، تركه يسيء التصرف في أمور الرعية وقد أثار سخط الأمراء بسوء تصرفاته ومضايقاته لهم، كما زيَّن للأفضل التنازل عن بيت المقدس لأخيه العزيز عثمان بذلك وشكر للأفضل علي، ولكن الأمراء ولاة القدس خشوا من محاسبة العزيز لهم، فاتفقوا مع الأفضل علي على بقاء القدس بأيديهم دون الحاجة إلى أمواله، فوافق وكتب إلى أخيه بذلك، فتغير لذلك الملك العزيز عثمان وتكدَّر باطنه وبدأت العلاقة تسوء بين الأخوين.

٣- عجز الأفضل علي عن مجابهة الصليبيين الذين أخذوا جبيل[٥].

---

(١) القدس بين أطماع الصليبيين ص٣٢ .
(٢) مفرج الكروب (٣/٢٦).
(٣) المصدر نفسه (٣/٢٦).
(٤) الكامل لابن الأثير (٩/٢٢٩) القدس بين أطماع الصليبيين ص٣٢ .
(٥) موسوعة تاريخ العرب -العصر الأيوبي ص٢٤٦ .

ويبدو أن الأفضل ساءت سيرته، وضعفت إرادته ولا يصلح أن يتولى السلطنة بعد والده؛ إذ أقبل على اللعب وسماع الأغاني وتظاهر بلذاته[١].

استاء الملك العزيز لسوء تصرف الملك الأفضل وتركه أمر الدولة في يد وزيره[٢]، وهمَّ بانتزاع الشام منه إثر تشجيع الأمراء الصلاحية له، وعندما علم الملك الأفضل بذلك همَّ بمراسلة أخيه العزيز يستعطفه فمنعه وزيره ضياء الدين ابن الأثير وحسَّن له محاربته، فمال الأفضل لرأي وزيره[٣] وزادت الوحشة بين الأخوين[٤].

قصد الملك العزيز الشام عام ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م فنزل بالقصير من الغور ثم حاصر دمشق، وضيق الخناق عليها، فاستنجد الملك الأفضل بعمه الملك العادل[٥]، والواضح أن هذا الأخير لم يكن راضيًا عن وضعه، ولا سيما وأن نصيبه من الإرث الصلاحي لم يتناسب مع أهمية الدور الذي أدّاه في خدمة الدولة الأيوبية، كما لم يشأ أن يتعجَّل الأحداث عقب وفاة أخيه صلاح الدين بإعادة توحيد الدولة الأيوبية تحت حكمه، وهو الهدف الذي وضعه نصب عينيه، لذلك اتجه بتمهل إلى تحقيق هذا الهدف، وأخذ يتصرف بأناة ريثما تتضح الأمور، وفعلًا أُتيحت له الفرصة باستغاثة الأفضل علي، فاستجاب لنداء الاستغاثة، وساند كل من الظاهر غازي صاحب حلب، وناصر الدين محمد صاحب حماة، وأسد الدين شيركوه الثاني صاحب حمص، والأمجد صاحب بعلبك، وكلهم ساندوا الأفضل علي، واتفق الجميع على منع العزيز عثمان من الاستيلاء على دمشق[٦]، علمًا منهم أن العزيز عثمان إن ملكها أخذ بلادهم[٧].

وهكذا تكَّون حِلْف أيوبي مناهض لحركة التفرد التي قادها العزيز عثمان انطلاقًا من مصر، عندئذ أدرك العزيز عثمان أنه لا قِبَلَ له بمواجهة قوى التحالف فمال إلى التفاهم، واجتمع بعمه العادل في صحراء المزة غربي دمشق في ٢٤ من شعبان سنة ٥٩٠هـ/ ١٥ آب عام ١١٩٤م، وقد نصحه عمه بالعودة إلى مصر قائلًا له: لا تخرِّب البيت وتُدخل الآفة، والعدوّ وراءنا من كل جانب وقد أخذوا جَبَلَة، فارجع إلى مصر واحفظ عهد أبيك، وأيضًا فلا تكسر حرمة دمشق وتُطمع فيها كل أحد، وعاد الملك العادل عنه إلى دمشق، وأقام في منزلته، وبعث العادل إلى العزيز في منزلته، وقدمت العساكر على الأفضل، وبعث العادل إلى العزيز يقول له: ارْحل إلى مرج الصُّفَّرة، فرحل وهو مريض وكان قصد العادل أن يبُعده عن البلد. . . واشتد مرض العزيز فاحتاج إلى المصالحة، ولولا المرض ما صالح، فأرسل الملك العزيز كبراء دولته فخر الدين

---

(١) السلوك للمقريزي (١/ ٣٦) القدس بين أطماع الصليبيين ص٣٣ .

(٢) كتاب الروضتين (٢/ ٢٢٧) القدس بين أطماع الصليبيين ص٣٣ .

(٣) القدس بين أطماع الصليبيين ص٣٣ .

(٤) القدس بين أطماع الصليبيين وتفريط الملك الكامل ص٣٤ .

(٥) المصدر نفسه ص٣٣ .

(٦) الكامل في التاريخ نقلًا عن القدس بين أطماع الصليبيين ص٣٣ .

(٧) مفرج الكروب (٣/ ٢٩، ٣٠).

بياز جَهَاركس وغيره يحلّف الملوك، وطلب مصاهرة عمّه العادل فزوَّجه ابنته الخاتون، ورجع كل واحد إلى بلده وذلك في شعبان سنة تسع وثمانين(١).

وقال العماد الكاتب الأصفهاني: خرج الملوك لتوديع الملك العزيز إلى مرج الصُّفَّرة واحد بعد واحد، وأوّل من خرج إليه أخوه الملك الظاهر غازي صاحب حلب، فبات عنده ليلة وعاد، فخرج إليه أخوه الأفضل صاحب الواقعة، فقام إليه واعتنقا وبكيا، وأقام عنده أيضًا يومًا وكان قد فارقه منذ تسع سنين، فلما عاد كتب إلى العزيز عدة أبيات من إنشائه:

نَظَرْتُك نظرة من بعد تِسع ... تقضَّت بالتفرُّق من سنين
وغَضَّ الدَّهر عنها طرفَ غَدْرٍ ... مسافة قُرب طَرْف من جبين
وعاد إلى سَجيَّته فأجرى ... بفرقَتنا العيون من العيُون
فويح الدَّهرِ لم يَسْمَحْ بِوَصْلٍ ... يُعيدُ به الهُجوعَ إلى الجُفُون
فراقًا ثم يُعقِبهُ ببَيْنٍ ... يُعيدُ إلى الحَشا عَدمَ السُّكون
ولا يُبْدي جيُوشَ القُرب حتى ... يُرتب جَيْشَ بُعدٍ في الكمين
ولا يُدْني محلي منك إلا ... إذا دارت رحى الحرب الزَّبون
فليت الدهرَ يَسْمحُ لي بأخرى ... ولو أمضى بها حُكم المَنُون(٢)

وقد تقرر وضع ترتيب جديد لحكم الأسرة الأيوبية ويقضي بأن:

- يحتفظ الأفضل علي بدمشق وطبرية وأعمال الغور.
- يتخلى الأفضل علي عن بيت المقدس وما جاوره لأخيه العزيز عثمان.
- يتخلىَّ الأفضل علي عن جبلة واللاذقية لأخيه الظاهر غازي.
- يعترف العزيز عثمان بسيادة الأفضل علي.

ولم يحظ العادل من الصفقة بشيء سوى ما جازه من مكانة بأن أصبح الحكم بين أفراد الأسرة الأيوبية(٣).

ولما انفصل العساكر عن دمشق شرع الأفضل على عادته في اللهو واللعب، فاحتجب عن الرعية فسُمّي «الملك النّوام» وفوض الأمر إلى وزيره ضياء الدين الجَزَري وحاجبه الجمال محاسن بن العجميّ، فأفسد عليه الأحوال، وكانا سببًا لزوال دولته، وهذا الأمر من الآفات التي تصيب بعض الملوك، واستمر الملك العزيز هذا بمصر وأمره ينمو ويزداد إلى سنة

(١) النجوم الزاهرة (٦/ ١٢٢).
(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (٣/ ٢٣٩).
(٣) الكامل في التاريخ نقلًا عن تاريخ الأيوبيين في مصر ص٢٣٣.

تسعين[١]، وفيها عاد الاختلاف ثانيًا وسببه إغراء الجند والوسائط وكان أكبر المحرضين الأمير عز الدين أسامة -صاحب عجلون وكوكب- الذي فارق الأفضل وانضمّ للعزيز وهو من أجلاء الأمراء الصلاحية، فإنه لما رأى من الأحوال ما لا يعجبه فارق الأفضل وتوجه إلى الملك العزيز، ففرح بوصوله إليه وأكرمه غاية الإكرام، ولما استقر عز الدين أسامة عند الملك العزيزَ أخذ في تحريضه على الملك الأفضل، وتقوية عزمه على قصده وأخذ دمشق منه، قال له: إن لم تَنصر الدولة الصلاحية خُذلت، وإن لم تصُنها ابتذلت، وأخوك (الملك الأفضل) قد غُلب على اختياره وحكم عليه وزيره الضياء الجزري، وقد أفسد أحوال الدولة، فهو يتصرف فيها برأيه الفاسد، ويحمل أخاك على مقاطعتك ومباينتك، فإن أغفيت أُغفلت، وإن أمهلت أهملت، وإن لنت غلظوا، وإن نمت تيقظوا، ولا تلتزم باليمين فإن من شرطها صفو الوداد وصحة النيَّة، ولم يوجد ذلك، فحنثهم في أيمانهم قد تحقق، وبَرِئت أنت من العهدة، فاقصد البلاد فإنها في يدك قبل أن يحصل للدولة من الفساد ما لا يمكن تلافيه[٢].

ثم فارق الملك الأفضل الأمير شمس الدين ابن السلار وهو من أكابر الدولة الصلاحية، وتوجَّه إلى الملك العزيز، فساعد عز الدين أسامة على التحريض على الملك الأفضل، وتقوية عزم الملك العزيز على قصده، ثم وصل إلى الملك العزيز القاضي محي الدين ابن الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، فاحترمه الملك العزيز وولاه القضاء بالديار المصرية، وضم إليه النظر في أوقافها[٣]، وحث القاضي ابن أبي عصرون العزيز على ضم دمشق وقال له: لا تسلم يوم القيامة[٤]. وبلغ الأفضل قول أسامة وابن أبي عصرون فأقلع عمّا كان عليه وتاب وندم على تفريطه وعاشر العلماء والصلحاء، وشرع يكتب مصحفًا بخطّه وخطّه في النهاية، فلم يُغن عنه ذلك وتحّرك العزيز يقصده، فسار الأفضل إلى عمه العادل[٥].

رابعًا: تآمر الملك العادل على الأفضل:

استغل العادل هذه الفرصة للتدخل في شئون أبناء أخيه، لتعزيز وضعه على الأرض، فغادر قلعة جعبر إلى دمشق ودخلها قبل عودة الأفضل علي من حلب[٦]، وبما عُرف عنه من مكر ودهاء راح يبذر بذور الشقاق بين صاحب مصر وأمرائه من الأكراد والأسدية الذين كانوا على جفاء معه بسبب ميله إلى الصلاحية، واتفق معهم على نبذ طاعته والدخول في طاعة حكام بلاد الشام[٧]، كاتب الملك العزيز سرًّا يخوفه من الأسدية ويغريه بإبعادهم، وكاتب الأسدية بالتنفير

(١) النجوم الزاهرة (٦/ ١٢٢).
(٢) مفرج الكروب (٣/ ٣٩).
(٣) مفرج الكروب (٣/ ٤٠).
(٤) النجوم الزاهرة (٦/ ١٢٣).
(٥) المصدر نفسه (٦/ ١٢٣).
(٦) الكامل لابن الأثير (٩/ ٤٩٢).
(٧) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص٢٣٤ .

من الملك العزيز وتخويفهم منه واستمالهم إليه، فاستوحش الملك العزيز من الأسدية واستوحشوا منه، فكانوا إذا لقوه عرفوا في وجهه التنكر، وعرف في وجوههم بمثله، وتمادى الأمر إلى أن تمكن الخوف منه في قلوبهم والخوف منهم في قلبه، ولما تمكن الاستيحاش منهم، عزموا على مفارقته وحسَّنوا ذلك للأكراد المهرانية فوافقوهم عليه[١]، فلما علم الملك العزيز بذلك، فما تحلل ولا تزعزع من مكانه، ولا أظهر ارتياعًا لما وقع من هذه الحادثة، بل ثبت مكانه، فقالت الأمراء الصلاحية: دعنا نتبعهم ونقاتلهم ونتركهم عبرة للمعتبر[٢].

فقال لهم الملك العزيز: لا تُرهبُوهم واتركوهم يذهبوا أين شاءوا لعلنا نصفو من كدرهم، وهذا ليل، ولا يُؤمَنُ فيه الاختلاط، ولا يَعرف الإنسان فيه صديقه من عدوه، والأولى الأخذ بالحزم والاحتياط[٣].

وكان المفارقون للملك العزيز معظم العسكر وثبت الملك العزيز في معسكره بالفَّوار ومعه خواص أصحابه على الخطر، وبات تلك الليلة ثابت الجأش والجَنان، وما أظهر أسفًا على فراق مَن فارقه من عسكره، واستدعى رُسل الملوك الذي عنده وأجاب كُلًّا منهم عن رسالته وخلع عليهم وسَّرحهم[٤]، وأصبح الملك العزيز راحلًا بمن بقي معه من عساكر إلى الديار المصرية وسار إليها على تيقظ وتحفظ وحذر، وسلك طريق اللجون والرملة، وخاف من الأسدية المقيمين بالقاهرة أن يوافقوا أصحابهم الغادرين ويسلكوا سيرتهم في الغَدر به، فقدم بين يديه أمراء على النجُب وكان نائبه بالقاهرة الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي، فبقي على الصفاء للملك العزيز وخلوص النيّة وتبعه على ذلك من بقي من الأسدية، ووصل الملك العزيز إلى البلاد وأمّن كلَّ من وجده من مُخلفي الخارجين عليه وطيب قلوبهم وأكرمهم وأحسن إليهم واستقر في كرسي مُلكه، ومدحه القاضي السعيد ابن سناء الملك بقصيدة ذكر فيها نفاق الأسدية وفراقهم له[٥]، منها:

من فرَّ منك فلا يُلامُ	وشَرِيُد بأسِكَ مَا يَنامُ
وجنابُ عِزِّك ما يُرام	من الخطوب وما يُضَامُ
فرت لخوفك غِلمةٌ	ولربما خاف الغلام
هابوا مَقَامك ذا العظيم	فلم يكن لهم مقام
وهُمُ الأسُودُ فما لهم	طاروا كما طار النعام
سَخرت بهم أوهامُهُم	هُزوًا وبالأوهام هاموا

(١) مفرج الكروب (٣/ ٤٧).
(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (٣/ ٤٨).
(٣) المصدر نفسه (٣/ ٤٨).
(٤) المصدر نفسه (٣/ ٤٨).
(٥) المصدر نفسه (٣/ ٤٩).

لا يـنـفـعـون ولـن يَـضُـرُّوا | إن مـضـوا أو إن أقـامـوا
فـلـئـن عـفـوتَ فـإنمـا يـعـفـو | عـن الـذنـب الـكـرام
وإن انـتـقـمـت فـإنّ | أيـسـر مـا اسـتـحـقـوا الانـتـقـام
مـا دراهـم حَـرَمُ ولا في | الـشـام صَـيْـدُهُـم حـرام
وهـم بـه سـكـرى ولـيـس | سـوى الـهُـمـوم لـهـم مُـدَامُ

إلى أن قال:

ونـزيـل راحـتـك الـنـدَّى | وحـلـيـفُ دولـتـك الـدَّوام[١]

١- رحيل الملك العادل والأفضل إلى مصر: قرَّر العادل والأفضل علي المضي في خطتهما القاضية في الاستيلاء على مصر، واتفقا على أن يملك الأفضل في مصر ويتخلَّى عن دمشق إلى عمه العادل، وهذا مطمح طالما تطلع العادل إلى تحقيقه؛ لأن دمشق كانت آنذاك قلب الدولة الأيوبية، ومحور العلاقات العامة في الشرق الأدنى الإسلامي، فاستوليا على بيت المقدس، وتابعا زحفهما إلى مصر بمن معهما من الأكراد والأسدية، فوصلا إلى بلبيس وحاصراها[٢] وهنا توضحت نوايا العادل بشكل جليّ، فهو الذي شجع الصراعات بين ولدي أخيه، ويبدو أنه خشي في هذا الدور أن يأخذ الأفضل علي مصر ولا يسلِّمه دمشق وفقًا لبنود الاتفاق المُبرم بينهما وبخاصة أنه كان يشك في نواياه، لذلك أرسل إلى العزيز عثمان سرًّا يشجعه على الثبات في موقفه، ويتعهد بأن يمنع الأفضل علي من دخول مصر[٣]، وتنفيذًا لهذا التوجه السياسي رفض العادل ما عرضه عليه الأفضل علي من مقاتلة الأمراء الصلاحية في بلبيس، أو تركهم والرحيل إلى مصر للاستيلاء عليها معتذرًا بأنه قد ينتج عن ذلك تشتيت القوى الإسلامية وإضعافها، فيطمع فيها الأعداء، ثم تدخل القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني في التوفيق بين الأخوين بإيعاز من العادل[٤].

٢- جهود القاضي الفاضل في الإصلاح: استمر الفقهاء والعلماء في دورهم القيادي البارز في الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين ولم ينقطعوا عن العطاء، وواصلوا مسيرتهم لمساندة أبناء صلاح الدين وتأييدهم ونصحهم لتخطي العقبات التي تعترض طريقهم؛ حفاظًا على وحدة الدولة الأيوبية وسلامتها لتقف صامدة متماسكة أمام التحدي الصليبي بعد فقد عاهلها وقائدها صلاح الدين، فقد ظل القاضي ابن شداد بدمشق مع الملك الأفضل يشاوره في جليل الأمور ودقيقها[٥]، ويعتمد عليه اعتمادًا كبيرًا، ولكنه تنازل عنه إلى أخيه الملك الظاهر غازي الذي أخذ يرجوه أن يتحفه بالقاضي ابن شداد ليكون عنده بحلب ويتيمن برأيه ويستفيد من خبرته.

---

(١) مفرج الكروب (٣/ ٥٠).
(٢) المصدر نفسه (٣/ ٥٢).
(٣) الكامل في التاريخ (٩/ ٤٩٣).
(٤) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص٢٣٤.
(٥) مفرج الكروب (٣/ ٨٠٣).

ولما وصل ابن شداد إلى حلب استقبله الملك الظاهر أحسن استقبال، وفوض إليه قضاء بلاده، وصار أقرب الناس إليه منزلةً، وأعظمهم مكانةً عنده وأصبح له الإقطاع الجليل، والحرمة التي لم يصل إليها أحد من المعممين[١]، وكان ابن شداد طوال إقامته بحلب يعتني بترتيب أمورها وتنظيمها، وجمع بها الفقهاء، واهتم ببناء المدارس الكثيرة بها، حتى أصبحت حلب مقصد الفقهاء والعلماء من البلاد[٢]، وكان القاضي الفاضل آنذاك مقيمًا بدمشق عند الملك الأفضل، وقد رأى في تصرفاته ما استنكره، مثل وضعه لكل ثقته في وزيره الجديد القاضي ضياء بن الأثير[٣]، الذي حسَّن للملك الأفضل إبعاد أمراء أبيه وأكابر أصحابه[٤]، ولكن الملك الأفضل لم يستجب لنصح القاضي الفاضل، وعندئذ عزم القاضي الفاضل عن ترك دمشق والتوجه إلى الديار المصرية، فاستأذنه وتوجه إلى الملك العزيز عثمان بمصر الذي أحسن استقباله وجعله عنده في محل والده؛ احترامًا وتعظيمًا له، لما يعرفه من مكانته، وصار الملك العزيز لا يصدر أمرًا إلا عن رأيه ومشورته[٥]، وعلى عكس ما كان الملك الأفضل يفعل من استبعاد أمراء الدولة أصحابه، قام الملك العزيز بتقريبهم إليه وأحسن إليهم، فعظم بذلك شأنه، وأجمعوا كلمتهم على نصرته وتقرير قواعد ملكه[٦]، بل شجعوه على أخيه الأفضل الذي وقف عاجزًا أمام تسلم الفرنج لثغر جبيل من بعض مستحفظيه[٧].

وكان للقاضي الفاضل دور كبير في فض منازعات البيت الأيوبي في كثير من الأحيان، فكان يخشى عليهم من أطماع الأعداء فيهم، ويصف لنا ابن واصل حالة القاضي الفاضل قائلًا: وكان القاضي الفاضل قد تنزه عن ملابستهم ومخالطتهم، واعتزل بنفسه عنهم لما رأى من اختلال أحوالهم وفساد أمورهم، وأحوجه الملك العزيز أن يلبي دعوة عمه الملك العادل ويخرج إليه ليفرج هذه الغمة[٨]، فركب من القاهرة وخرج إليه ولما علم بذلك الملك العادل ركب وتلقاه أحسن تلقٍّ، واجتمع به، واتفق معه على ما فيه المصلحة الشاملة للكل[٩]، واستقر الصلح على الشكل التالي:

- أن يقيم العادل بمصر عند العزيز ليقرر قواعد ملكه، وأن يرجع الأفضل إلى دمشق، وتعاهد الجميع على ذلك[١٠].

وفي الوقت نفسه كان للقاضي بهاء الدين بن شداد دور كبير في تهدئة الأمور وفض كثير من المنازعات بين العزيز عثمان صاحب مصر، والملك العادل من جانب والملك الأفضل من

(١) مفرج الكروب نقلًا عن دور الفقهاء والعلماء ص١٧٢ .
(٢) دور الفقهاء والعلماء في الشرق الأدنى ص١٧٢ .
(٣) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص١٧٢ .
(٤) مفرج الكروب (٣/ ١٠).
(٥) المصدر نفسه (٣/ ١٢) دور الفقهاء والعلماء ص١٧٣ .
(٦) كتاب الروضتين نقلًا عن دور الفقهاء ص١٧٣ .
(٧) مفرج الكروب (٣/ ٥٣) دور الفقهاء ص١٧٣ .
(٨) المصدر نفسه (٣/ ٥٣).
(٩) المصدر نفسه (٣/ ٥٤).
(١٠) المصدر نفسه (٣/ ٥٤).

جانب آخر[١]، ومما يؤكد استياء القاضي الفاضل وتألمه من هذه الأوضاع وتلك المنازعات التي انجرف فيها أبناء البيت الأيوبي، ذلك الكتاب الفاضلي الذي ذكره أبو شامة، والذي جاء فيه: أما هذا البيت، فإن الآباء منه اتفقوا فملكوا، وإن الأبناء منهم اختلفوا فهلكوا، وإذ غرب نجم فما الحيلة في تشريقه، وإذا بدأ تخريق في ثوب فما يليه إلا تمزيقه، وهيهات أن يسد على قدر طريقه وقد قدر طروقه، وإذا كان الله مع خصم على خصم فمن كان الله معه فمن يقدر عليه[٢].

ويتضح مما تقدم أن الفقهاء والعلماء كانوا أكثر من اهتم بتصفية الخلافات والمنازعات بين أبناء البيت الأيوبي ليتفرغوا لقضية الجهاد ويكملوا ما بدأه والدهم الناصر صلاح الدين خاصة، وأن هؤلاء الفقهاء والعلماء كانوا يدركون بثاقب بصرهم وبسريرتهم النافذة أن العدو الصليبي يراقب بكل دقة وبكل شغف ما يجري على الساحة الإسلامية من منازعات بعد وفاة صلاح الدين، ويترقب اللحظة المناسبة كي ينقض ليسترد البلاد وينتقم من المسلمين[٣].

٣- التحالف بين الملك العادل والعزيز: عاد الأفضل علي إلى دمشق واستقر العادل في مصر، وقد جعل من نفسه حكمًا بين الأخوين المتنازعين، ممّا ممكنه من فرض كلمته عليهما ليصبح سيد الموقف[٤]، ونزل الملك العادل بإحدى قصور القاهرة وأمر ونهى وحكم وتصرف في كبير الأمور وحقيرها، وعزل القاضي محي الدين بن أبي عصرون عن قضاء الديار المصرية وولى القضاء زين الدين يوسف الدمشقي[٥].

وأما الأفضل علي فقد لزم الزهد والقناعة، وأقبل على العبادة ولكنه للأسف لم يصحح الخطأ القاتل الذي وقع فيه سابقًا وضيع ملكه؛ حيث إن الأمور كلها بقيت مفوضة إلى وزيره ضياء الدين بن الأثير الجزري، وقد اختلت الأحوال به غاية الاختلال، وكثر شاكوه وقل شاكروه، وبلغ ذلك الملك العادل فأنكره وتقرر بينه وبين الملك العزيز الخروج إلى الشام لتمهيد العزيز الملك بمصر، وعيَّن الإقطاعات وثمَّن الارتفاعات وعمَّر الأعمال ووفَّر الأموال[٦]، وكان الملك العادل يؤثر مسير الملك العزيز ليتمكن من أغراضه، ولأن العساكر مع اختلافها تجتمع مع الملك العزيز لعلو همته، وسمو قدره، وسماحة يده وسعة صدره، فاجتمع الملك العادل والملك العزيز وأشار عليه أن يسافر بنفسه وقال له ما معناه: إن الدولة الصلاحية بإدارتك صلاحها، وبفلاحك فلاحها، وبنهضتك ينهض جناحها، وبسعدك يسعد نجاحها، وإن لم تجتمع الكلمة عليك لم تجتمع كلمة الإسلام، ولم تستقر العصمة من الكفر بالشام، وفي كل بلد

---

(١) دور الفقهاء والعلماء في المشرق الأدنى ص١٧٤ .
(٢) كتاب الروضتين نقلًا عن دور الفقهاء والعلماء ص١٧٤ .
(٣) دور الفقهاء والعلماء في الشرق الأدنى ص١٧٥ .
(٤) مفردات في عهد الأيوبيين (٢/ ٩١٦).
(٥) مفرج الكروب (٣/ ٥٤).
(٦) مفرج الكروب (٣/ ٥٤، ٥٥).

من إخوتك سلطان، ما منه لأمرك إذعان، وغدًا عند الحاجة إلى الاستنفار والاستنفار، وكلٌّ منهم على سِمَةِ النفار، تنزل النوازل والدوائر بالديار، فاستخر الله تعالى وانشط ولدولتك احتط، وسر مستقبل النصر سارًا، وللجحفل المجرّ جارًّا وللدولة الناصرية ناصرًا، ولأيدي المتعدي عنها قاصرًا، وأنت سلطاننا ونحن الأتباع، والأنصار والأشياع(١).

وسار الملكان: العادل والعزيز إلى دمشق فنازلاها ولم يحدث قتالًا، والملك العادل مظهر أنه على عهده وميثاقه، لم يتغير عنه ولم يَحُلْ، وأنه ليس مقصوده إلا إصلاح ذات البين وانتظام الشمل وكُتب الأمراء بدمشق والأكابر متواصلة إلى الملك العادل والملك العزيز؛ لأن بعضهم كانت قد حصلت عنده نفرة من الملك الأفضل لأسباب وقعت منه ومن وزيره توجب الاستيحاش، وبعضهم كوتبوا من جهة الملك العادل والملك العزيز بما طيَّب به قلوبهم وبسط في آمالهم، فكتبوا يحثونهما على معالجة الزحف إلى البلد وانتهاز الفرصة، ويعدون من أنفسهم المساعدة وفتح الأبواب لهم(٢).

٤- **استيلاء الملك العزيز على دمشق**: ولما جرى ما ذكرناه من المخابرة من الأمراء المقيمين بدمشق وتوثق منهم الملك العزيز والملك العادل، ولم يشعر الملك الأفضل إلا وقد دخل الملك العزيز وعمه داخل المدينة، فاضطر إلى قبول ما فرضه عمه وأخوه عليه بحيث:

- يأخذ الأفضل صرخد الواقعة شرقي بصرى(٣).
- ويملك الملك العادل دمشق وأواسط الشام(٤).
- يتولى الملك العزيز السلطنة ويُذكر اسمه في الخطبة ويُنقش على السكة وتبقى له مصر وبيت المقدس(٥).

ثم تحايل العادل على العزيز عثمان فأخلى له دمشق وأواسط الشام مقابل:

- حصوله على لقب سلطان بني أيوب.
- يستمر في حكمه في مصر وبيت المقدس.
- يُذكر اسمه في الخطبة في البلاد الواقعة تحت سيطرة العادل، ويُنقش اسمه على السكة(٦).

كان قرار الملك العادل مع الملك العزيز أن يقيم الملك العزيز بدمشق، وأن يكون الملك العادل نائبًا عنه بمصر، ويفوّض تدبيرها إليه، فلما ملك العزيز دمشق، وظهرت الأمور وانكشف

(١) المصدر نفسه (٣/ ٥٥).
(٢) المصدر نفسه (٣/ ٦٢).
(٣) مفرج الكروب (٣/ ٦٢).
(٤) كتاب الروضتين نقلًا عن القدس بين أطماع الصليبيين ص٣٧.
(٥) السلوك (١/ ١٦٦) النجوم الزاهرة (٦/ ١٢٦).
(٦) الكامل في التاريخ نقلًا عن موسوعة تاريخ العرب -العصر الأيوبي ص٢٥٣.

المستور ندم على ما كان قرَّره مع عمه، فبعث إلى أخيه الملك الأفضل في السر وقال: إذا طلبناك فاثبت على الامتناع، ولا تبذل الرضا لنا إلا بإقامة الخطبة والسكَّة ولا تنزل عن رتبتك، فإني لك الرضا وأفعل ما تريد ويكون امتناعك عذرًا عند عمي(١).

فلما وصلت الرسالة بذلك إلى الملك الأفضل أظهر هذا السّر لنصحائه المختصين؛ فقالوا: لا تنخدع بهذا القول، فربما كان هذا خديعة من أخيك .. وهلا كان هذا القول منه قَبلُ في أول الأمر؛ والمصلحة أن تطلع عمّك الملك العادل على هذا السر، فإنه كأبيك في الشفقة، وعلى كل حال لا يترك بِرَّك، فإذا استشرته أشار عليك بالمصلحة، وقد جاء لك من السعادة ما لم يكن لك في حساب، فإن الملك العادل يحصل له بإطلاعه على هذا الارتياب في الملك العزيز، وتتأكد نفاره منه(٢)، فأرسل الملك الأفضل الحاجب جمال الدين محاسن بن عجم الموصلي إلى الملك العادل، فأعاد عليه ما ذكره الملك العزيز، فقامت قيامته وغضب غضبًا شديدًا، واجتمع بالملك العزيز، وعاتبه أشَّد العتب وقرَّعه أشد التقريع، وقال: أنا أبني وأنت تهدم، وذكر له ما أنهى إليه، فأنكر الملك العزيز ذلك، وحقَّق عند عمه بطلان هذا القول، وأنه لم يرسل إلى الملك الأفضل، ولم يقل له من هذا القول حرفًا، وانحرف عن أخيه الملك الأفضل، وبعث إليه من أزعجه وأحرجه وإلى صَرْخَد أحوجه، وأخذ من الملك الظافر بُصْرى -وكانت بيده- فرحل إلى حلب، فأقبل إليه الملك الظاهر وأحسن إليه، وسار الملك الأفضل إلى صَرْخَد بأهله وحريمه(٣)، ومعه أخوه الملك المفضل قطب الدين موسى فتسلموها واستوطنوها، وعندما دخل الملك العزيز دمشق، أظهر العدل وأبطل المكوس، وأزال المظالم، واعتقد الناس أن مقامه عندهم يطول، وفرحوا به لما كانوا يعرفونه به من الكرم والبذل، وإقامة منار العدل، ولم يشعروا به إلا وقد تقدم بالتبريز وأجمع على الرحيل إلى الديار المصرية(٤).

وكان الملك الأفضل عندما خرج من دمشق بأهله وأصحابه أخرج معه وزيره ضياء الدين بن الأثير مختفيًا في صندوق من بعض صناديقه، خوفًا عليه من القتل، وكان قد ترقبه أقوام ليقتلوه فلم يظفروا به(٥). وقال عماد الدين الأصفهاني الكاتب: وكنا نظن أن للملك الأفضل مالًا مجموعًا فلم يظهر شيء لسوء تدبير وزيره، فأقام الملك الأفضل بعد خروجه من القلعة نازلًا بمسجد خاتون ووزيره مختفٍ عنده إلى أن هرب إلى الموصل(٦)، وقال: ومن العجب أن الملك الأفضل مع علمه بشؤم وزيره وأن كل ما هو فيه من النقص بإدباره وسوء تدبيره، ضمه إليه وترفرف بجناحه عليه، فأخرجه في قماشه، وسّرحه بريشه ورياشه، وكان أدعى عليه بمال فأقر

(١) مفرج الكروب (٣/ ٦٦).
(٢) مفرج الكروب (٣/ ٦٦).
(٣) المصدر نفسه (٣/ ٦٧).
(٤) المصدر نفسه (٣/ ٦٧).
(٥) المصدر نفسه (٣/ ٦٤).
(٦) المصدر نفسه (٣/ ٦٤).

الملك الأفضل بوصوله إلى خزانته، وبرّأه من حسابه وخيانته، وانفصل إلى الموصل بمال دمشق وأعمالها ثلاث سنين، وجمع آلافًا مؤلفة ولم يُفرّق الأفضل منها مائتين[١]. وقال: وعهدي بقوم دخلوا عليّ متأسفين على سلامته واستقامة أمره في ظعنه وإقامته، فقلت: إنما سألنا الله تعالى كفاية شره وسوءه لا سواه، فقد أبعده الله فلا قرَّب نواه[٢].

٥- رجوع العزيز إلى مصر: سلّم الملك العزيز دمشق إلى عمّه الملك العادل، ورحل من دمشق عشية يوم الاثنين تاسع شعبان من هذه السنة (٥٩٢هـ) فنزل بمسجد القدم ثم ارتحل إلى الكسوة[٣]، وسافر بالعساكر إلى الديار المصرية وخرج الملك العادل لوداع الملك العزيز، ولما عاد من وداعه أمر فقُرئ منشوره بالجامع بتفويض دمشق وأعمالها إليه، وكانت مدة مقام الملك العزيز بدمشق بعد أخذها أربعة عشر يومًا، وكانت مدة مُلك الأفضل لها ثلاث سنين وأشهرًا، وأبقى الملك العادل السكة بدمشق والخطبة للملك العزيز وأشاع أنه نائبه[٤].

وفي سنة (٥٩٣هـ) تحركت الفرنج لقصد بلاد الشام، فخرج الملك العادل بالعساكر، فخيم بالقصبة، وهي قريب من صور، وجهَّز إلى بيروت جماعة من العسكر ومعهم الحجارون والنقَّابون، وأمرهم بهدم رَبض بيروت ففعلوا وحصَّن عز الدين أسامة القلعة وترك فيها جماعة من الأجناد ليحفظوها[٥].

٦- منازلة الأيوبيين للفرنج: كان عز الدين أسامة قد ترك جماعة من الأجناد في قلعة بيروت يحفظونها، وذلك بعد أن خرَّب رَبَضها، فخافوا من الفرنج وانهزموا، وبقيت القلعة خالية ليس فيها من يذبُّ عنها، وعلم الفرنج بذلك فملكوها واستولوا عليها، فلعن الناس أسامة لتفريطه فيها وقال عماد الدين الكاتب:

إن بيع الحصون من غير حرب ... سُنَّةٌ سنَّها ببيروت سامة
لعن الله كلَّ من باع ذا البيع ... وأخزى بخِزْيه من سَامَه[٦]

وسير الملك العادل إلى الملك العزيز يطلب منه النجدة فوصلت إليه العساكر من مصر، ووصل إليه سنقر الكبير -صاحب القدس- وميمون القصري -صاحب نابلس- ونزل بهم على تل العجول بالقرب من غزة، وكان قبل ذلك قد وقع جمع من الفرنج بأجناد في أطراف بلد القدس قتلوا منهم جماعة، وأسروا جماعة، ورجعوا بغنائم[٧] كثيرة ثم قصد الملك العادل بالعساكر يافا، فدخلها عنوة بالسيف وقتل مقاتلتها وأعيان من بها من الفرنج، فامتلأت أيدي المسلمين

(١) مفرج الكروب (٣/ ٦٥).
(٢) المصدر نفسه (٣/ ٦٥).
(٣) قرية هي أول منازل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر.
(٤) المصدر نفسه (٣/ ٦٩).
(٥) المصدر نفسه (٣/ ٧١).
(٦) مفرج الكروب (٣/ ٧٤).
(٧) المصدر نفسه (٣/ ٧٤).

بالسبي والغنائم وكان هذا الفتح ثالث فتح لها؛ لأنها فتحت أولًا في أول الفتوح وثانيًا وجاء ملك الانكلتير في جموعه فاسترجعها وهذا الفتح في الأيام الناصرية، وفتحت هذا الفتح الثالث على يد الملك، وفتحت في زمن جمال الدين محمد بن سالم بن واصل صاحب كتاب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب في سنة أربع وستين وستمائة على يد الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، صاحب الديار المصرية والشام.

ولما جرى ما قام به الملك العادل من فتح يافا عظم ذلك على الفرنج، فقصدوا تِبْنين، وكانت بيد حسام الدين بشارة، فنازلوها بفارسهم وراجلهم وأحدقوا بها وضايقوها ونزل الملك العادل قبالتهم، وبعث إلى الملك العزيز يحثه على الخروج إليه بنفسه، فتقدم الملك العزيز إلى من عنده من العساكر بالخروج وسار في آخرهم لا يلوي على شيء حتى وصل إلى تِبْنين واجتمع بعمه الملك العادل على مناجزتهم ساعة وصوله، فمنعه من ذلك عمّه الملك العادل، فلما جُنَّ الليل رحل الفرنج عن تبنين عائدين إلى صور وسار في أثرهم الملك العزيز والملك العادل بالعساكر يلتقطون من ظفروا به منهم وغنموا شيئًا كثيرًا من عسكرهم، وأمر الملك العزيز بنقل الغلال إلى تبنين وإصلاح ما تهدم بالمنجنيقات من أسوارها[(١)]، ثم أبقى الملك العزيز العساكر برمتها عند عمه الملك العادل، وجعل إليه أمر الحرب والصلح، وعاد إلى مصر في جمع قليل، ولما قدم الملك العزيز مصر مدحه القاضي السعيد بن سناء الملك بقصيدة هنأه فيها بالنصر والقدوم أولها:

قدمت بالسعدِ وبالمغنم ... كذا قدوم الملك المقدَّم
يا قاتل الكُفر وأحزابه ... بالسيف والدينار والدرهم
قميصك الموروث عن يوسف ... ما جاء إلا صادقًا في الدم
أغثتَ تِبْنين وخلَّصتها ... فريسة من مَاضِغي ضَيْغَم[(٢)]

ومنها:

ولا عدم الإسلام عثمانه ... مُصْطلَى الداهية الصَّيْلَمِ
شِنْشِنَةٌ تُعرف من يُوسُفٍ ... في النصرِ لا تعرفُ من أخزمِ
ثم انثنى من وجهه ظافرًا ... والسيف لم يُثْلَب ولم يُثْلَمِ
وجاء لما جاءنا بالحَيَا ... وعاد لما عاد بالأنعُمْ
مَقْدِمُهُ صار جُمادى به ... كمثل ذي الحجة ذا موسم[(٣)]

---

(١) مفرج الكروب (٣/ ٧٦).
(٢) المصدر نفسه (٣/ ٧٧).
(٣) المصدر نفسه (٣/ ٧٧).

وأقام الملك العادل يوالي الغارات على الفرنج، ويقصدهم بنفسه وجموعه مرة بعد أخرى، إلى أن أضجرهم وأسأمهم فراسلوه في طلب الصلح فأجاب إليه وحلّف أمراء عسكره لهم، وأنفذ إلى مقدمي الفرنج من استحلفهم واستقرت الهدنة ثلاث سنين، وأمن الناس شرَّهم، ورجع الملك العادل إلى دمشق، وتفرقت الجند جميعها إلى بلادها[1].

٧- القاضي الفاضل يحث الملك العادل على الجهاد: عندما أعاد الصليبيون سيطرتهم على بيروت للمرة الثانية عام (٥٩٣هـ/ ١١٩٧م) مما ترتب عليه إغارات شديدة ضدهم من قِبَل المسلمين بقيادة العادل سيف الدين انتقامًا مما فعلوه في بيروت -كما مرّ معنا- نجد القاضي الفاضل يبادر بإرسال رسالة من مصر إلى الملك العادل في دمشق يحثه فيها على مواصلة القتال ضد الصليبيين، ويشكره في نفس الوقت على جهوده في محاربتهم في البلاد الساحلية، وهنا نرى القاضي الفاضل يقوم بدور تحريضي وتعبئوي، فقال: وقد تجدد من وصول العدو اللعين وحركته إلى جانب بيروت وخطر البلاد ما أذهل كل مرضعة، وأوقع في ضائقة نتفق الأفكار فيها من سعة، وللإسلام اليوم قدم، إن زلت زل، وهمة إن ملت فإن النصر منه مل، وتلك القدم القدم العادلية، وتلك الهمة الهمة المسابقة السيفية، فالله الله ثبتوا ذلك الفؤاد، ودمثوا ذلك المهاد، واسهروا في الله فليست بليلة رقاد، ولا ينظر في حديث زيد ولا عمرو، ولا أن فلانًا نفع ولا ضر، ولا أن من الجماعة من جاء ولا أن فيهم من مر، انظروا إلى أنكم الإسلام كله قد برز إلى الشرك كله، وإنكم ظل الله فإن صححتم تلك النسبة فإن الله لا ناسخ لظله، واصبروا إن الله مع الصابرين، ولا تهونوا وإن ذهب الناصر فإن الله خير الناصرين، فما هي إلا غمرة وتنجلي، وهيعة وتنقضي وليلة وتصبح، وتجار وتربح[2].

ثم أعاد القاضي الفاضل وأرسل رسالة أخرى إلى الملك العادل يحثه فيها على عدم الملل من المرابطة أمام العدو، ويهون عليه مشقة الحرب ضد الصليبيين، وما ينفقه من تكاليف على هذه الحرب مبشرًا إياه بأن الله سوف يجزي خيرًا المحسنين الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله قال له: فلا يسأم مولانا نية الرِّباط وفعلها، وتجشُّمَ الكُلفِ وحملها، فهو إذا صرف وجهه إلى وجه واحد هو وجه الله صرف الله إليه الوجوه كُلَّها: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ومن كتاب له آخر إلى الملك العادل يحثه على قتال الفرنج ويشكره على ما هو بصدده من محاربتهم، وحفظ حوزة الإسلام ويذكره بالله واليوم الآخر، ويرغّبه بالأجر والثواب من الله فمن ذلك قوله: هذه الأوقات التي أنتم فيها عرائس الأعمار، وهذه النفقات التي تجري على

---

(١) مفرج الكروب (٣/ ٧٨).
(٢) كتاب الروضتين (٤/ ٤٣٨).

أيديكم مهور الحور في دار القرار، وما أسعد من أودع يد الله ما في يديه، فتلك نعم الله عليه، وتوفيقه الذي ما كلُّ من طلبه وصل إليه، وسواد العَجاج في هذه المواقف بياض ما سوّدته الذنوب من الصَّحائف، فما أسعد تلك الوقعات، وما أعود بالطّمأنينة تلك الرّجفات[١]. فقد كان القاضي الفاضل حاضرًا في تلك المشاهد بقلمه وتوجيهاته وحثه وتذكيره للملك العادل.

٨- **وصف القاضي لسحاب فيه ظلمات متكاثفة وبروق خاطفة:** في عام (٥٩٣هـ) ورد كتاب من القاضي الفاضل إلى ابن الزكي يخبره فيه أن في ليلة الجمعة التاسع من جمادى الآخرة أتى عارض فيه ظلمات متكاثفة وبروق خاطفة، ورياح عاصفة، فقوي لهُوبُها، واشتَّد هبُوُبها، فتدافعت لها أعنَّةٌ مطلقات وارتفعت لها صَعَقات فرجفت لها الجُدران واصطفقت، وتلافت على بُعدها واعتنقت وثار بين السماء والأرض عجاج فقيل: لعلّ هذه على هذه قد انطبقت، ولا تحسب إلا أن جهنّم سال منها وادٍ وعدا منها عادٍ، وزاد عصف الريح إلى أن أطفأ سُرُجَ النُّجوم، ومزقت أدِيَم السماء ومحت ما فوقه من الرقوم، فكنّا كما قال الله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ [البقرة: ١٩].

وكما قلنا: يَردُّون أيديهم على أعينهم من البوارق لا عاصم من الخطف للأبصار ولا ملجأ من الخطب إلا معاقل الاستغفار، وفرَّ الناس نساءً ورجالًا وأطفالًا ونفروا من دورهم خِفَافًا وثقالًا لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا، فاعتصموا بالمساجد الجامعة، وأذعنوا للنازلة بأعناق خاضعة بوجوه عانية ونفوس عن الأهل والمال سالية، ينظرون من طرفٍ خفي ويتوقعون أيّ خطب جَلي، قد انقطعت من الحياة عُلقَهم[٢]، وعميت عن النجاة طرقهم ووقعت الفكرة فيما هم عليه قادِمون، وقاموا إلى صلاتهم، وودُّوا لو كانوا من الذين هم عليها دائمون، إلى أن أذن الله في الركود وأسعف الهاجدين بالهجود، وأصبح كلّ يُسَلِّمُ على رفيقه، ويُهنِّيه بسلامة طريقه ويرى أنه قد بُعث بعد النفخة وأفاق بعد الصيحة والصرخة، وأن الله قد ردّ له الكرة، وأحياه بعد أن كاد يأخذه على غِرة، ووردت الأخبار بأنها قد كسرتِ المراكب في البحار والأشجار في القفِار، وأتلفت خلقًا كثيرًا من السُّفَّار، ومنهم من فرَّ فلم ينفعه الفرار.

إلى أن قال: ولا يحسب المجْلِسُ أنِّي أرسلتُ القلم مُحَرِّفا والقول مُجرِّفًا فالأمر أعظم، ولكنّ الله سلَّم، ونرجو أن الله قد أيقظنا بما وعظنا ونبَّهنا بما وَلَّهنا، فما من عباده من رأى القيامة عيانًا ولم يلتمس عليها من بعد ذلك بُرهانًا إلا أهل بلدنا، فما قصَّ الأوَّلون مثلها في المثلات، ولا سبقت لها سابقة في المعضلات، والحمد لله الذي من فضله أن جعلنا نُخبرُ عنها ولا تُخبُر عنَّا، ونسأل الله أن يصرف عنا عارِض الحرص وَالغرور إذا عنَّا[٣].

---

(١) البداية والنهاية (١٦/ ٦٧٦).

(٢) العُلَقُ: جمع علقة وهي ما يتبلغ به.

(٣) البداية والنهاية (١٦/ ٦٧٥).

٩- وفاة ملك اليمن سيف الإسلام طغتكين: في عام (٥٩٣هـ) تُوفي سيف الإسلام أخو السلطان صلاح الدين، وكان قد جمع أموالًا جزيلة جدًّا وكان يسبك الذَّهب مثل الطواحين ويدَّخره كذلك[1]، وكان ملكًا جوادًا ممُدَّحًا، وممن مدحه من الشعراء شرف الدين بن عُنَيْن، ومن مدائحه فيه قصيدة منها:

دمشق وبي شوق إليها مُبرِّحُ ... وإن لام واشٍ أو ألَحَّ عذولُ
بلاد بها الحصباء دُرٌّ وتربها ... عبير وأنفاس الشمال شَمُولُ
تسلل منها ماؤها وهو مطلق ... وصَحَّ نسيم الروْضِ وهو عليل

ومنها:

وكيف أخاف الفقرَ أو أُحرَم الغنى ... ورأي ظهير الدين فيَّ جميل
مِنَ القَوْمِ أما أحنفٌ فمُسفَّه ... لديهم وأما حاتم فبخيل
فتى المجد أما جارُه فممنعٌ ... عزيزٌ وأما جندهُ فذليل
وأما عطايا ماله فمباحة ... عِذابٌ وأما ظِلُّه فظليل[2]

وقد قام في الملك بعده ولده إسماعيل وكان أهوج قليل التدبير، فحمله جهلهُ على أن ادَّعى أنه قرشي أمويّ وتلقب بالهادي، فكتب إليه عمه العادل ينهاه عن ذلك ويتهدده بسبب ذلك، فلم يقبل منه ولا التفتَ إليه، بل تمادى في ذلك وأساء إلى الأمراء والرَّعيّة، فقُتِل وتولّى بعده مملوك من مماليك أبيه[3].

١٠- محاصرة الفرنج لتِبْنين عام (٥٩٤هـ): في هذا العام جمعت الفرنج جمُوعها وأقبلوا فحاصروا تِبْنين، فاستدعى العادل بني أخيه لقتالهم، فجاءه العزيز من مصر والأفضل من صرخد، فأقلعتِ الفرنج عن الحصن وبلغهم موت ملك الألمان فطلبوا من العادل الهُدنة والأمان فهادنهم ورجعت الملوكُ إلى أماكنها، وقد عظم المعُظَّم عيسى بن العادل في هذه المدة واستنابه أبوه على دمشق وسار إلى ملكه بالجزيرة، فأحسن فيهم السيرة[4].

١١- وفاة عماد الدين زنكي بن مودود صاحب الموصل (٥٩٤هـ): كان من خيار الملوك وأحسنهم شكلًا وسيرة، وأجودهم طوية وسريرة، وكان شديد المحبة للعلماء ولا سيما الحنفية وقد ابتنى لهم مدرسة بسنجار وشرط لهم طعامًا يطبخ لكل واحد منهم في كل يوم، وهذا نظر حسنٌ، والفقيه أولى بهذه الحسنة من الفقير، لاشتغال الفقيه بتكراره ومُطالعته عن الفكر فيما يقيه، فغدا على أولاده ابن عمِّه صاحب الموصل، فأخذ المُلْك منهم، فاستغاث بنوه بالملك

(١) المصدر نفسه (١٦/ ٦٧٧).
(٢) مفرج الكروب (٣/ ٧٢).
(٣) البداية والنهاية (١٦/ ٦٧٨).
(٤) المصدر نفسه (١٦/ ٦٨٠).

العادل، فَرَدَّ فيهم المُلك، ودرأ عنهم الضَّيْمَ واستقرت المملكة لولده قطب الدين محمد، ثم سار العادل إلى ماردين، فحاصَرها في شهر رمضان فاستولى على رَبَضِها ومُعَامَلَتِها وأعجزته قلعتها، فصاف عليها وشتا وما ظن أحدٌ أنه تَملَّكها، حتى هنَّته الشعراء بذلك؛ لأن ذلك لم يكُن مثبوتًا ولا مقدَّرًا(١).

١٢- وفاة الأمير عزّ الدين جُرْديك عام (٥٩٤هـ): كان من أكابر الأمراء في زمان نور الدين وكان ممَّن شَرِكَ في قتل شاور وحظي عند صلاح الدين، وقد استنابه على القدس حين افتَتَحها، وكان يَسْتَنِد به للمُهّمات الكبِار فيسدُّها بنهضته وشجاعته، ولما ولي الأفضل عَزله عن بيت المقدس، فترك بلاد الشام وانتقل إلى الموصل، فمات بها في هذه السنة(٢).

خامسًا: وفاة الملك العزيز بن صلاح الدين:

هو السلطان الملك العزيز، أبو الفتح، عماد الدين عثمان ابن السلطان صلاح الدين بن أيوب صاحب مصر، ولد في سنة سبع وستين وخمسمائة في جُمادى الأولى، وحدّث عن: أبي طاهر السِّلفي، وابن عوف، عاش ثمانيًا وعشرين سنة، مات في العشرين من المحرَّم سنة خمس وتسعين وخمسمائة(٣) وكان العزيز شابًّا، حسن الصورة، ظريف الشمائل، قويًّا، ذا بطشٍ وأيدٍ وخفة حركة، حَيِيًّا، كريمًا، عفيفًا عن الأموال والفروج، بلغ من كرمه أنه لم تبق له خزانة ولا خاص ولا فرس وبيوت أمرائه تفيض بالخيرات، وكان شجاعًا مقدامًا(٤)، وكانت مدة حكمه لمصر أقل من ست سنين بست وثلاثين يومًا(٥).

ومن المعروف أن العزيز عثمان ولد بالقاهرة، فهو يمثل أول حاكم من البيت الأيوبي يولد بمصر ويتولى حكمها، ومع أن مصر بقيت في عهد العزيز عثمان، كما كانت على عهد أبيه صلاح الدين الأيوبي، من حيث كونها قلب الأمة الإسلامية، إلا أنها تأثرت في أحوالها الاقتصادية إلى حد كبير لعدة أسباب من أهمها:

- انخفاض فيضان النيل (٥٩٢هـ/ ١١٩٤م) وما ترتب على ذلك من نقص في الغلال، وكثر الزحام في الأسواق طلبًا للخبز ولكنه كان قليلًا.

- فشت الأوبئة والأمراض، فهلكت المواشي، وكثرت الأموات طرحى على الطرقات، وزاد عددهم في القاهرة في كل يوم عن مائتي نفس، وبقي بمصر من لم يوجد من يقوم على كفنه ودفنه، وكان أكثرهم يموت جوعًا(٦)، ويبدو لنا أن ما حدث من نزاع في البيت الأيوبي بين

(١) البداية والنهاية (١٦/ ٦٨١).
(٢) البداية والنهاية (١٦/ ٦٨٣).
(٣) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٢٩٢).
(٤) المصدر نفسه (٢١/ ٢٩٣).
(٥) كتاب الروضتين نقلًا عن صلاح الدين والصليبيين ص١٧١.
(٦) صلاح الدين والصليبيون ص١٧٢.

العزيز عثمان وأخيه الأفضل علي، ومكائد ودسائس عمهما الملك العادل التي زادت من شقة الخلاف بينهما لصالحه الذاتي، شغلت العزيز عثمان عن وضع حد لتلك الضائقة الاقتصادية، ولم تساعده على تفادي هذه الكارثة التي أثرت تأثيرًا كبيرًا في حياة المصريين اجتماعيًّا واقتصاديًّا[١].

١- **سبب وفاته**: تُوفي الملك العزيز بداره بالقاهرة وكان على عَزْم الصَّيد في أعمال الفيُّوم، فخيَّم تلك الليلة عند الأهرام فقيل: إنه أصبح وركض خلف صيد، فكبابه الفرس مرّة بعد أخرى، ... فتفاقم ألمه، وأقام يومين أو ثلاثة لا يستطيع له مخلوق إعانة ولا إغاثة ثم حُمَّ حِمامُهُ، وأظلمت بفجيعته أيامه، وقبر في دار، لينقلَ منها إلى دار قراره[٢].

٢- **تعزية الملك العادل من القاضي الفاضل**: ورد كتاب القاضي الفاضل تعزية به للملك العادل: أدام الله سُلْطان مولانا الملك العادل، وبارك في عمره، وأعلى أمره بأمره، وأعزَّ نصر الإسلام بنصره، وفدت الأنفس نفسه الكريمة، وأصغر الله العظائم بنعمته فيه العظيمة، وأحياه الله حياة طيبة، يقف هو فيها والإسلام في مواقف الفتوح الجسيمة، وينقلب عنها بالأمور المسلَّمة والعواقب السَّليمة، ولا نقَّص له رجالًا ولا عددًا، ولا أعدمه نفسًا ولا ولدًا، ولا قَصَّر له نيلًا ولا يدًا، ولا أسْخَنَ له قلبًا ولا كبدًا، ولا كدَّر له خاطرًا ولا موردًا، ولما قدّر الله ما قدَّر في الملك العزيز رحمة الله عليه وتحيَّاته مكرَّرة إليه من انقضاء مَهلِهِ، وحضور أَجَلِه، كانت جهة المُصاب عظيمة، وطالعة المكروه أليمة، فرحم الله ذلك الوجه ونضَّره، ثم السَّبيل إلى الجنة يسره.

وإذا محاسنُ أوجه بليتْ   فعفا الثَّرى عن وجهه الحَسَنِ

فأعزز على الملوك وعلى الأولياء، بل على قلب مولانا -لاَ سلبه الله ثواب العزاء- بسرعة صرعه وانقلابه إلى مضجعه ولباسه ثوب البِلَى قبل أن يَبْلَى ثوبُ الشباب، وزفِّه إلى التراب، وكانت مدة المرض بعد العود من الفيُّوم أسبوعين، وكانت في الساعة السابعة من ليلة الأحد العشرين من المحرَّم، ووجع أطراف وغليل كَبِدٍ، وقد فجع بهذا المولى والعهد بوالده رحمه الله غير بعيد، والأسى عليه في كل يوم جديد[٣].

وقد وصل قبل هذا إلى العماد كتاب من القاضي الفاضل فيه: وأنا على ما يعلمه من العُزلة إلا أنها بلا سكون، وفي الزاوية المسنونة لأهل العافية إلا أني على مثل حدِّ المنون، وكيف يعيش العاقل في الزَّمان المجنون؟ ونحن على انتظار البرق الشامي أن يُمطر، وحاش ذِمَّةِ الوعد

(١) المصدر نفسه ص١٧٢ .
(٢) كتاب الروضتين (٤/٤٤٤).
(٣) كتاب الروضتين (٤/٤٤٥).

به أن تُخْفَر واشتغال سَيدنا في هذا الوقت بالدَّرس والتدريس والتصوير والتكييف والتصانيف التي تُصرف فيها البلاغة أحسن التصاريف، نعمة عين شُكرها على العلماء، ويختص باللَّذة بها سادتهم من الفُقهاء[١].

٢- **الملك العزيز والقاضي الفاضل**: لما قصد الملك العادل والملك الفاضل الملك العزيز ونازلا بلبيس وحاصراها، وأشرف ملكه على الزوال بذلت له الرعية أموالًا ليذبَّ بها عن نفسه، فامتنع مع شدة حاجته في ذلك الوقت إلى الملك وأشير عليه بأن يقترض من القاضي الفاضل، فإن أمواله عظيمة، وهو غير محتاج إليها، فامتنع من مخاطبة القاضي الفاضل في ذلك، فألحوا عليه في ذلك حتى أجاب وأرسل إلى القاضي الفاضل يستدعيه، فحَضر وكان الملك العزيز في منظره من دار الوزارة مطلة على الطريق، فلما رأى القاضي الفاضل مقبلًا لم يتمالك من شدة الحياء ودخل إلى دار الحرم فراسلت الأمراء الملك العزيز وشجعوه حتى خرج واستدعى القاضي الفاضل وقال له -بعد أن أطنب في الثناء عليه والتقريظ له-: قد علمت أن الأمور قد ضاقت عليّ وقلَّت الأموال عندي، وليس لي إلا حسن نظرك وإصلاح الأمر لنا بمالك أو برأيك أو بنفسك.

فقال له القاضي الفاضل: جميع ما أنا فيه من نعمتكم، ونحن نقدم أولًا الرأي والحيلة ومتى احتيج إلى المال فهو بين يديك[٢]. ولقد حُكي عنه ما هو أبلغ من هذا وأحسن، وهو أن عبد الكريم البيساني أخا القاضي الفاضل كان يتولى الحكم والإشراف بالبحيرة مدة طويلة، وحصَّل من ذلك أموالًا جليلة وكان الناس يحترمونه لأجل القاضي الفاضل، فجرت بينه وبين أخيه نَبْوةٌ أوجبت اتضاع حاله عند الناس، فصرف عن عمله وكان متزوجًا بامرأة من قومٍ ذوي قدر ويسار، يُعرفون ببني ميسَّر، فلما صُرف عن عمله انتقل إلى الإسكندرية ومعه زوجته، فضايقها وأساء عشرته معها لسوء خلق كان فيه واتصل ذلك بأبيها، فتوجه نحو الإسكندرية، وأثبت عند حاكمها ضررها، وأنه قد حصرها في محل ضيق من داره، فمضى القاضي بنفسه إلى الدار التي فيها الزوجة، ورام فتح الباب الذي هي فيه فلم يقدر عليه، فأحضر شهودًا، وأحضر نقَّابا، فنقب جانب الدار، واستخرج المرأة وسُلمت إلى أبيها ثم أحضر بنَّاءً فسد ذلك النقب واتصل ذلك بعبد الكريم فاهتاج إلى قاضي الإسكندرية بسببه وعزم على أن يبذل بذلًا، ويأخذ منه قضاء الإسكندرية، فقصد الأمير فخر الدين جهاركس ومعه خمسة وأربعون ألف دينار مصرية، وقال له: هذه خمسة آلاف دينار لخزانتك وهذه أربعون ألف دينار برسم خزانة السلطان، وأُوَلَّى قضاء الإسكندرية، فأخذ جهاركس المال ووعده بقضاء الشغل، واجتمع بالملك العزيز ليلًا وأحضر المال بين يديه، والملك العزيز حينئذ في غاية الضرورة إلى بعض

(١) المصدر نفسه (٤/ ٤٤٥).

(٢) مفرج الكروب (٣/ ٨٥).

تلك المال وقال: هذه خزانة مال أتيتك بها من غير طلب ولا تعب. فقال: من أي الجهات؟ فذكر له الحال فأطرق مليًّا، ثم هز رأسه وقال: أعد المال إلى صاحبه وقل له: إياك والعود إلى مثلها، فما كل ملك يكون عادلًا وعرِّفه أنني إذا قبلت هذا القدر منه إنما أكون بعت به أهل الإسكندرية وهذا لا أفعله أبدًا.

قال فخر الدين جهاركس: فلما سمعت ذلك منه وجمت وجمةً ظهرت سِمَتُها في وجهي، فقال لي: أراك واجمًا، وأظنك أخذت شيئًا على الوساطة له؟ فقلت: نعم. فقال: كم أخذت؟ فقلت له: أخذَتُ خمسة آلاف دينار. فأطرق كإطراقه أولًا، ثم قال: أعطاك ما لا تنتفع به إلا مرة واحدة، وأنا أعطيك ما تنتفع به مرات عديدة، ثم أخذ القلم، ووقَّع لي بخط يده بإطلاق جهة تعرف بطنبذا، كنت أستغلها في السنة سبعة آلاف دينار[1].

٣- تمليك الملك المنصور ابن الملك العزيز: لما مات الملك العزيز اتفقت كلمة الأمراء على تنفيذ ما وصَّى به الملك العزيز وهو إقامة الملك المنصور في الملك وقيام بهاء الدين قراقوش بأتابكيته، فأجلسوا الملك المنصور في مرتبة أبيه، وترتب بين يديه قراقوش، وحلفت الأمراء كلهم للملك المنصور وامتنع عمّاه: الملك المؤيد، والملك المعز من الحلف إلا بشرط أن تكون الأتابكية لهما، وجرت بينهما منازعة ومشاققة كثيرة وأجابا بعد ذلك إلى الحلف وحلفا، ثم وقع الاختلاف بين أمراء الدولة فقال قوم منهم: لا بد لهذا الملك من رجل فحل مهيب يدبره، وقراقوش مضطرب الآراء، ضيق العطن لا يصلح لهذا الأمر. وقال قوم: نرضى بهذا الخادم، فإنه أطوع وأساس مقادة ولا نُحضر من يستطيل بسطوته وقدرته، وقال آخرون: لا تحفظ هذه الديار إلا بملك مرهوب مخوف، وإن فيها بقايا من جند المصريين الذين انتزعت البلاد من أيديهم قهرًا، ويقصدها أعداء الدين من جهة البحر، فمتى لم يقم بأمرها ملك قاهر لا تحفظ، وطال النزاع بينهم في ذلك ففزعوا إلى رأى القاضي الفاضل فقال لهم القاضي الفاضل: إني لا أشير عليكم بعزل أحد ولا ولاية أحد، إن ذلك مما لا يوافق بعضكم فأستجلب عداوته، ولكن اجتمعوا بعضكم ببعض وامخضوا بينكم الرأي، فإذا رضيتم أمرًا فاعرضوه عليّ، ففعلوا ما أشار به، وتحاولوا بينهم الآراء ثلاثة أيام، فاتفقت كلمتهم على مكاتبة الملك الأفضل على أن يقدم البلاد، ويكون أتابكًا للملك المنصور سبع سنين، فإذا انتهى هذا الأجل سُلِّم الأمر إليه والصغير، ويشترط على الملك الأفضل أن لا يرفع فوق رأسه سنجق، ولا يذكر اسمه في خطبة ولا سِكَّة، ولما اتفقوا على ذلك عرضوه على القاضي الفاضل، فقال: قد أصبتم الرأي، واخترتم الذي اختاره السلطان الناصر رحمه الله لكم، وهو ألين عريكة، وأسهل تناولًا من غيره، فأرسلوا القُصّاد إلى الملك الأفضل يستدعونه، فلما وصلته القُصَّادُ توجه إليهم مجدًّا[2].

---

(١) مفرج الكروب (٣/ ٨٦).

(٢) مفرج الكروب (٣/ ٩٠).

فلما حصل عندهم مُنع رفدهم، ووجدوا الكلمة مختلفة عليه، ولم يتمَّ له ما صار إليه وخامر عليه أكابر الأمراء النَّاصرية وخرجوا من ديار مصر فأقاموا في بيت المقدس وأرسلوا يستحثُون الجيوش العادلية[١]، وكتب الملك الأفضل إلى عمه الملك العادل بأنه غير خارج عن الذي يأمره به، وأنه تحت حكمه ويستطلع أوامره ونواهيه فيما يعتمده، فورد جوابه عليه بأن الملك العزيز إن كان قد مات عن غير وصية فليكتب الأعيان خطوطهم له بذلك وشهادتهم له حتى يرى رأيه، وإن كان قد مات عن وصية فلا يعدل عنها، ولا ينبغي له التعرض إلى ديار مصر[٢].

٥- **تحالف الأخوين الأفضل والظاهر ضد العادل:** يبدو أن الملك الظاهر غازي صاحب حلب كان قد أدرك أهداف عمه الملك العادل في إبقاء الخلاف بين أخويه الملك الأفضل والملك العزيز، فقرر معاندة عمه ومحاولة التخلص منه، ولذلك غضب الظاهر غازي على أخيه الأفضل؛ لأنه كتب لعمه أنه وصل مصر، ولن يخرج عن أمره، فكتب إلى الأفضل يقول: أخرج عمنا من بيننا، فإنه لا يجيء علينا منه خير، وأنا أعرف به منك، وأقرب إليه، فإنه عمي كما هو عمك، وأنا زوج ابنته، ولو علمت أنه يريد لنا خيرًا لكنت أولى به منك[٣]، وأشار عليه بقصد دمشق وأخذها من عمه العادل وأن ينتهز الفرصة لانشغال عمه بحصار ماردين، وارتاح الملك الأفضل لرسالة أخيه السابقة، واتفق الأخوان على القضاء على سيادة عمهما الملك العادل[٤]، وتعاون معهما أسد الدين شيركوه بن محمد صاحب حمص، واغتنم الأفضل بُعد عمهما عن دمشق، وانشغاله في محاصرة ماردين، فسار بعساكر مصر إلى الشام، بعد ما استناب بمصر الأمير سيف الدين أركش وحاصر دمشق وسرعان ما وصلت عساكر حلب لدعم جند مصر، فضيقوا الخناق على المدينة، ولكنهم لم يحاولوا اقتحامها، وعندما علم الملك العادل بالأمر، ترك ابنه الملك الكامل على حصار ماردين، واندفع مسرعًا إلى دمشق، وأخذ يبذر بذور الشك والخوف بين الأخوين، فأرسل إلى الملك الظاهر غازي وقال له: أنا أسلم إليك دمشق وأنت السلطان، فطمع الظاهر واختلف الأخوان، ورحل الملك الأفضل إلى مصر[٥]، والظاهر إلى حلب بعد ما حرقوا ما عجزوا عن حمله[٦].

٦- **عزل الملك الأفضل:** ولما سافر الملك الأفضل راجعًا إلى مصر لحقه عمّه الملك العادل، ووصل الملك العادل وضرب مع الملك الأفضل مصافًا فانكسر عسكر الملك الأفضل وولوا منهزمين لا يلوون على شيء، ثم سار الملك العادل بالعساكر ونزل بركة الجُبّ، وسيَّر إلى الملك الأفضل يقول له: أنا لا أحب أن أكسر ناموس القاهرة؛ لأنها أعظم معاقل الإسلام ولا تحوجني إلى أخذها بالسيف، واذهب إلى صرخد وأنت آمن على نفسك، فأستشار الملك

(١) البداية والنهاية (١٦/٦٨٦).
(٢) مفرج الكروب (٣/٩٣).
(٣) النجوم الزاهرة (٦/١٤٧) القدس بين أطماع الصليبيين ص٣٩ .
(٤) المختصر لأبي الغداء (٣/٩٧) القدس بين أطماع الصليبيين ص٣٩ .
(٥) السلوك للمقريزي (١/٨١).
(٦) القدس بين أطماع الصليبيين وتفريط الملك الكامل ص٤٠ .

الأفضل الأمراء فرأى منهم تخاذلًا، فأرسل إلى عمه يطلب منه أن يعوِّضه عن الديار المصرية بالشام فامتنع من ذلك، فطلب أن أن يعوِّضه حران والرُّها فامتنع، فطلب منه جاني وجبل حور وميافارقين وسميساط فأجابه إلى ذلك وتسلم القاهرة(١) منه.

٧- **استقلال الملك العادل بالسلطنة الأيوبية**: أصبح الملك العادل أتابكًا لابن الملك العزيز المنصور، ولكنه بعد مدة قصيرة كان قد أحضر جماعة من الفقهاء والقُضاء والولاة وقال لهم قول المستفتي المستثير: هل تصح ولاية الصغير؟ فقالوا: هذا مولًى عليه فلا يلي، وغيابات الحوادث بنظره لا تنجاب ولا تنجلي، فقال: فهل يجوز للمولًى الكبير أن ينوب عنه إلى أن يكبر، ويرتب الأمور بحكم النّيابة ويدبر؟ فقالوا: إذا كانت الولاية غير صحيحة فلا تصح النيابة، ومن رآه صوابًا أخطأ به الإصابة لا سيما في السلطنة التي هي خلافة الخليفة، فلا حق منها إلا للكبير الذي يعيَّنُ على الحقيقة، وجرى منهم في هذا المعنى الإمعان، فلما عرف الشرع أحضر الأمراء، والتمس منهم الطاعة والسمع، وخاطبهم في اليمين له والميثاق وألزمهم بالوفاء والوفاق . . . وقال لهم: قد علمتم ما هو الواجب من التظافر على حفظ ثغور الإسلام وتدبير الممالك بمصر والشام، وما هذا أمر يناط بالصبيان أو يُحاط بغير ذي القدرة والسلطان، فأذعنوا وأطاعوا وحصل الائتلاف ورفع الخلاف(٢).

وأحضر الأمر وقال لهم: إنه قبيح بي أن أكون أتابكًا مع الشيخوخة والتقدم، مع أن المُلْكَ ليس هو بالميراث، وإنما هو لمن غلب، ولقد كان يجب أن أكون بعد أخي السلطان الملك الناصر رحمه الله صاحبَ الأمر، غير أني تركتُ ذلك إكرامًا لأخي ورعاية لحقه، فلما حصل من الاختلاف ما حصل خفت أن يخرج المُلْكُ من يدي ويد أولاد أخي، فمشيت الأمر إلى آخره، فلم أرَ الأمر يصلح إلا بقيامي فيه ونهوضي بأعبائه، ولما ملكت هذا البلد وطنَّت نفسي على القيام بأتابكية هذا الصبي حتى يبلغ أشدَّه، فرأيت العصيان غير مقلعة والفتى ليست زائلة، فخشيت أن يطرأ عليَّ ما طرأ على الأفضل، ولا آمن أن يجتمع جماعة ويطلبون إقامة آخر، وما أعلم ما يكون عاقبة ذلك وأنا أرى أن هذا الصبي يمضي إلى الكُتَّاب وأقيم له من يؤدبه ويعلِّمه، فإذا بلغ أشده نظرت في أمره وقمت(٣) بمصالحه.

ولما استقر المُلْك بمصر للملك العادل استدعى ابنه الملك الكامل ناصر الدين محمدًا من الشرق وجعله نائبًا عنه بالديار المصرية، ولم يزل الملك الكامل ينوب عن أبيه بالديار المصرية إلى أن توفي أبوه وذلك قريب من عشرين سنة، واستقل بالملك بعده عشرين سنة وكسرًا فملكها نائبًا ومستقلًّا قريبًا من أربعين سنة(٤).

---

(١) مفرج الكروب (٣/ ١٠٩).
(٢) كتاب الروضتين (٤/ ٤٦٠، ٤٦١).
(٣) المصدر نفسه (٣/ ١١١).
(٤) المصدر نفسه (٣/ ١١٣).

٨- دخول الملك المنصور صاحب حماة تحت سيادة العادل:

أرسل الملك المنصور صاحب حماة إلى عمه الملك العادل يعتذر إليه من مساعدته الأفضل والظاهر ويطلب رضاه عنه، وكان رسوله إليه زين الدين المعروف (بالمهيطليّة) فلما قدم عليه تلقاه بالترحيب والإكرام وخلع عليه وأحسن إليه، وأظهر الرضا عن الملك المنصور وكتب إليه هذه الأبيات الشعرية:

أتظنني من جفوةٍ أتعتّبُ ... قلبي عليك أرقُّ مما تحْسَبُ
لا يُوحِشَنَّك ما جنيت فتنثني ... مُتَجَنِّيًا وهواك لا يُتجنَّبُ
ما أنت إلا مُهجتي وهي التي ... أحيا بها فتُرى عليها أغضب
أنت البريء من الإساءة كلِّها ... ولك الرضا وأنا المسيء المذنبُ

وقال لزين الدين: هذا المولى الملك المنصور إن كان قد صدرت منه هذه الزلة الواحدة فله من الحسنات ما يمحوها ويمحقها:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد ... جاءت محاسنه بألف شفيع

ثم حلف الملك المنصور، ووقعت الوُصلة بعد ذلك بين الملك المنصور وعمه الملك العادل، فتزوج ابنته عصمة الدين ملكة خاتون والدة الملك المظفر[(١)] رحمه الله، وفي هذه السنة (٥٩٦هـ) وصل إلى مصر الأمير شمس الدين محمد بن قِلج، ونظام الدين محمد بن الحسين الأصفهاني -وزير الملك الظاهر- رسولين منه إلى الملك العادل في أن يحلف للملك الظاهر على ما بيده من البلاد ويقيم الملك الظاهرُ للملك العادل بحلب الخطبة والسكّة، فركب الملك العادل إلى لقائهما وأكرمهما إكرامًا تامًّا، وقرَّر الملك العادل للملك الظاهر على ما بيده وحلف له عليه وألزمه خمسمائة فارس تكون في خدمة الملك العادل في كل سنة من خيار عسكر حلب، فرجع الرسولان إلى الملك الظاهر، فأقيمت الخطبة والسِّكّة بحلب وبلادها للملك العادل[(٢)].

٩- وفاة الحاجب لؤلؤ في عام (٥٩٦هـ):

توفي في هذا العام الحاجب لؤلؤ، وكان في الأيام الصلاحية أشجع الشجعان وأفرس الفُرسان، وله مقامات في الغزاة، ومواقف مع العُدَاة، وهو الذي نهض وراء مراكب الفرنج النّاهضة في بحر أَيْلَة إلى بَرِّ الحجاز، وأتى في كسرهم وأسرهم بالإعجاب والإعجاز، وكانوا قطعوا الطريق في بحر عيذاب على التجار وحصلت أموالهم تحت الاستيلاء بعد حصولهم تحت الإسار فأنقذ واستنقذ، وما نزل حتى أخذ، وساق إلى القاهرة أولئك الكُفَّار مقهورين واعتقلهم بها مأسورين.

---

(١) مفرج الكروب (٣/ ١١٤).
(٢) المصدر نفسه (٣/ ١١٥).

وقد قال فيه الرَّضي بن أبي حِصينة المِصري يخاطب الفرنج:

عَدوُّكم لؤلؤ والبحر مَسكنُه والدُّرُّ مُذ كان منسوبٌ إلى النُّحُرِ(١)

وقال العماد الأصفهاني: ومن دلائل سماحه ما شاهدته بالقاهرة في سنة إحدى وتسعين من مبرَّاته الظَّاهرة أنه لما حطَّ القَحْط رَحْلَه ووصل المَحْلُ مَحَلَّه، وتمَّ الغلاء، وعمّ البلاء، ابتكر هذا الحاجب الكبير مَكْرُمة لم يُسبق إليها، وذلك أنَّه كان يَخبزُ كل ليلةٍ اثني عشر ألف رغيف، فإذا أصبح جلس على باب الموضع الذي فيه حُشِرَ الفقراء ثم يفتح من الباب مقدار ما يخرج منه واحد، ويعلم أنه غير عائد، فيتناول كلٌّ منهم قُرصَة ويرى ذلك من خيراته فُرصة، فما يزال قاعدًا حتى يفرق الألوف على الألوف، وكان هذا دأبه في هذا الغلاء حتى هبَّ رخاءُ الرخاء، فحينئذ تنوَّعت صدقاته، واستغرقت بالصّلات أوقاته، وكان بهيَّ الشَّيب، نقيَّ الجيب، قد جعل الله البركة في عمره، وخصَّه مُدَّة حياته بإمرار أمره، فأنجده في أوان ضعفه بتضعيف بِرّه(٢).

١٠- **وفاة القاضي الفاضل (٥٩٦هـ)**: أبو علي عبد الرحيم بن علي بن الحسن اللخمي البيساني ثم العسقلاني ثم المصري، محي الدين، صاحب ديوان الإنشاء وشيخ البلاغة، ولد سنة تسع وعشرين وخمسمائة، أصله من بيسان وكان يحب الكتابة، فقصد مصر ليشتغل بالأدب، فاشتغل به، وحفظ القرآن، وقال الشعر والمراسلات، وخدم الأكابر، فلما ملك أسد الدين احتاج إلى كاتب فأُحضر إليه فأعجبه نفاده وسمته ودينه ونصحه، فلما تملَّك صلاح الدين استخلصه لنفسه، وحسَّنَ اعتقاده فيه ووجد البركة في رأيه، ولذلك لم يكن أحد في منزلته وكان نزيهًا عفيفًا نظيفًا، وقليل اللذات، كثير الحسنات، دائم التهجد، ملازم القرآن، والاشتغال بعلوم الأدب، غير أنه كان خفيف البضاعة من النحو لا عريًّا منه، لكن قوة الدُّربة توجب له عدم اللحن، وكتب ما لم يكتبه أحد، ولما عظم شأنه أَنِفَ من قول الشعر، وكان لباسه لا يُساوي دينارين، وثيابه البياض، ولا يركب معه أحد ولا يصحبه سوى غلام له، ويكثر زيارة القبور، وُيَشيِّعُ الجنائز ويعود المرضى، وكان له صدقات ومعروف كثير في الباطن، وكان ضعيف البنية رقيق الصورة، له حدبة يسترها الطيلسان، وكان لأصحاب الفضائل عنده موقع، يحسن إليهم ولا يمنُّ عليهم، ويؤثر أرباب البيوت ومن كان خملًا من ذوي النباهة، ويحب الغرباء، ولم يكن له انتقام من أعدائه بل يحسن إليهم، وكان دخله كل سنة من إقطاعه ورباعه وضياعه خمسون ألف دينار، هذا سوى التجارات من الهند والمغرب، وغير ذلك، وسوى ضيعة من السلطان تسمَّى تُرُنجة تعمل اثني عشر ألف دينار، وكان يقتني الكتب من كل فنٍّ ويجتلبها من كل جهة، وله نُسَّاخ لا يفترون ومجلدون لا يَسأمون(٣).

---

(١) كتاب الروضتين (٤/٤٦٦).

(٢) المصدر نفسه (٤/٤٦٧).

(٣) شذرات الذهب (٦/٥٣٢).

قد ذكر عبد اللطيف البغدادي في تاريخه: قال لي بعض من يخدمه في الكتب: إن عدد كتبه قد بلغ مائة ألف وأربعة عشر ألف كتاب، هذا قبل أن يموت بعشرين سنة [(١)]، ولم يزل معظَّمًا بعد موت صلاح الدِّين عند ولده العزيز، ثم الأفضل، ومات فجأة أحوج ما كان إلى الموت عند تولي الإقبال واستيلاء الإدبار، كان أمر بإصلاح الحمَّام وقت السحر، فأصلح وجاءته ابنته تخبره بذلك فوجدته جالسًا ساكتًا فهابته؛ لأنه كان مُهَابًا، فطال سكوته حتى ارتابت فقدمت قليلًا قليلًا فلم تَرَ عليه أثر حركةٍ، فوضعت يدها عليه فخرَّ صريعًا وأخذ في النزع، وقبض وقت الظهر، وقت رجوع عسكر مصر مهزومًا، ودخل الملك الأفضل فصلىّ عليه ودُفن بالقُرافة وكان له يوم مشهود[(٢)] .

قال العماد الأصفهاني عنه: ثم قضى سعيدًا، ومضى شهيدًا حميدًا، فوقاه الله تعالى الوصية، فكانت له بسيد الأولين والآخرين أُسوة، وأن يُعَرَّى عن رداء العمر فله من حُلل البقاء في عليين كُسْوَة، ولأنه لم يُبْقِ في مُدَّة حياته عملًا صالحًا إلا قدمه، ولا عهدًا في الجنة إلا أحكمه، ولا عقدًا في البِّر إلا أبرمه، فإن صنائعه في الرقاب، وأوقافه على سبيل الخيرات متجاوزة عن الحساب، لا سيما أوقافه لفكاك أسارى المسلمين إلى يوم الحساب، وأعان طلبة العلم الشافعية والمالكية عند داره بالمدرسة والأيتام بالكُتَّاب والخيرات الدَّارَّة على الأيام، فكانت حياة له ثانية إلى يوم البعث وإعادة حياة الأنام. . . وكنت من حسناته محسوبًا . . وكانت كتابته كتائب النّصر، وبراعته رائعة الدَّهر، وبراعته بارية للبر وعبارته نافشة في عُقَد السّحْر، وكانت بلاغته للدَّولَة مُجمّلة، وللمملكة مُكمّلة، وللعصر الصَّلاحي على سائر الأعصار مَفَضّلة [(٣)] ومفتتحاته في الفتوحات البديعة بديعة، ومخترعاته في الصنّائع المخترعة صنيعة، وإنما نسجت على منْواله ومزجت من جِرْياله[(٤)] ورويت بزُلاله وهو الذي نسخ أساليب القدماء بما أقدمه من الأساليب وأغربه في الإبداع وأبدعه من الغريب، وما ألفيته كرّر دعاء ذكره في مكاتبة، ولاردَّدَ لفظًا في مخاطبة، بل تأتي فصوله مبتكرة مُبتدعة[(٥)]، وكانت الدولة بإدالته تُدال والزّلة بإزالته تُزال، والكرام في ظله يقيلون، ومن عثرات النَّوائب بفضله يستقيلون، وبعزِّ حمى حمايته يَعِزُّون، ولهَزِّ عطف عطفه يهتزون، فإلى من الوفادة بعده؟ وممن الإفادة؟ وفيمن السِّيادة ؟ ولمن السعادة ؟ والحمد لله الذي له الغيب والشهادة و﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ ولأمره منقادون[(٦)] ، وللقاضي السعيد هبة الله بن سناء الملك فيه من قصيدة:

عبد الرحيم على البَرِيَّةِ رحمة أَمِنَت بصُحْبَتِها حلولَ عقابها

(١) المصدر نفسه (٦/ ٥٣٢).
(٢) شذرات الذهب (٦/ ٥٣٢).
(٣) كتاب الروضتين (٤/ ٤٧٤).
(٤) الجريال: الخمر الشديدة الحمرة. معجم متن اللغة (١/ ٥١٤).
(٥) كتاب الروضتين (٤/ ٤٧٤).
(٦) كتاب الروضتين (٤/ ٤٧٥).

يا سائلًا عنه وعن أسبابه ... نال السَّماء فَسَلْهُ عن أسبابها
والدهر يعلمُ أن فيصلَ خطبه ... بخُطا يراعته وفصل خطابها
ولقد عَلَتْ رتبُ الأجلِّ على الورى ... بسموِّ منصبها وطيب نصابها
وأتته خاطبة إليه وزارة ... ولطالما أعْيَتْ على خُطَّابها
ما لقَّبُوه بها لأن يعلوُ بها ... أسماؤه أغْنَتْه عن ألقابها
قال الزمان لغيره إذ رامها ... تربَت يمينُك لست من أترابها
اذهب طريقك لست مَن أربابها ... وارجع وراءك لست من أصحابها
وبعز سيدنا وسيد غيرنا ... ذلت من الأيام شمسُ صعابها
وأتت سعادته إلى أبوابه ... لا كالذي يسعى إلى أبوابها
تعنُو الملوكُ لوجهه بُوجوهها ... لا بل تساق لبابه برِقابها
شُغِلَ الملوكُ بما يزول ونفسه ... مشغولة بالذكر من محرابها
في الصَّوم والصَّلوات أتعب نفسه ... وضمان راحته على إتعابها
وتعجل الإقلاع عن لذّاته ... ثقة بحسن مالَها ومآبها
فلتفخر الدنيا بسائس مُلْكِها ... منه ودارس عِلْمها وكتابها
صوّامها قوّامها وعلّامها ... عمّالها بذّالها وهّابها[١]

وكان السلطان صلاح الدين يقول: لا تظنُّوا أني ملكت البلاد بسيوفكم، بل بقلم الفاضل[٢]، وقد اتفق يوم مات القاضي الفاضل دخول السلطان العادل إلى مصر وأخذها من ين أخيه الأفضل، وقد دخل العادل من باب وخرج بجنازته من باب آخر[٣]، وقال الملك المحسن أحمد ابن السلطان صلاح الدين: سمعت قاضي القضاة ضياء الدين القاسم بن يحيى الشهرزوري ببغداد أيام ولايته يحدِّث أن القاضي الفاضل لما سمع أن العادل أخذ الديار المصرية دعا على نفسه بالموت خشية أن يستدعيه وزيره صفي الدين بن شكر إليه، أو يجري في حقه إهانة، وكان بينهما مقارضة، فأصبح ميتًا وكانت له معاملة حسنة مع الله تعالى وصلاة الليل كما ذكروا [٤]. وقال أبو شامة: وأخبرني القاضي الشهيد ضياء الدين بن أبي الحجّاج صاحب ديوان الجيش رحمه الله أن القاضي الفاضل بعد صلاح الدين لم يخدم أحدًا من أولاده، وكانت الدولة بأسرها تأتي إلى خدمته إلى أن توفي[٥] وفضل الفاضل وبلاغته وفصاحته أشهر من أن يذكر، ومن شعره قوله:

وإذا السعادة لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن آمان

---

(١) كتاب الروضتين (٤/ ٤٨١).
(٢) النجوم الزاهرة (٦/ ١٥٧).
(٣) كتاب الروضتين (٤/ ٤٨٢).
(٤) المصدر نفسه (٤/ ٤٨٣).
(٥) المصدر نفسه (٤/ ٤٨٣).

واصطد بها العنقاء فهي حبائل … واقتد بها الجوزاء فهي عِنَانُ

وقد استشهد علماء البديع بكثير من شعره، كقوله:

أهذي كَفُّه أم غوثُ غَيثِ … ولا بلغ السحاب ولا كرامة
وهذا بُشره أم لمع برق … ومَن للبرق فينا بالإقامة
وهذا الجيش أم صرف الليالي … ولا سبقت حوادثها زِحامة
وهذا الدهر أم عبدٌ لديه … يُصَرِّف عن عزيمته زمامه
وهذا نصل غمد أم هلال … إذا أمسى كنُونٍ أم قُلَامه[١]

وكقوله:

وهذا الدرُّ منثور ولكن … أروني غير أقلامي نِظامه
وهذي روضة تندى وسطري … بها غصنٌ وقافيتي حمامة
وهذا الكأس رُوِّق من بَنَاني … وذكرك كان من مسك ختامه[٢]

وكقوله:

سبقتم بإسداءِ الجميل تكرُّمًا … وما مثلكم فيمن تحدَّث أو حكى
وقد كان ظنٌّ أن أسابتكم به … ولكن بكت قبلي فهيجَ لي البكا[٣]

وله في بُدوِّ أمره:

أرى الكتّاب كلهُمُ جميعًا … بأرزاقٍ تعُمّهُم سِنينا
وما لي بينهم رزق كأنّي … خُلِقتُ من الكرام الكاتبينا[٤]

وذات يوم سأله الملك العزيز عثمان بن الناصر عن جارية من حظاياه أرسلت إليه زِرًّا من ذهب مُغلَّف أسود، فأنشأ الفاضل يقول:

أهدت لك العنبر في وسطه … زرّ من التِّبرِ رقيق اللِّحام
فالزِّرُّ في العَنْبَرِ مغناها … زُرْ هكذا مختفيًا في الظلام[٥]

والقاضي الفاضل له من الصدقات الجارية الشيء الكثير؛ منها أنه كان له بمصر[٦] ربع عظيم يؤجَّر بمبلغ كثير، فلما عزم على الحج ركب ومرّ به ووقف وقال: اللهمَّ إنك تعلم أن هذا الرَّبْعَ ليس شيء أحب إليَّ منه، اللهم فأشهد أني وقفته على فكاك الأسرى، يقول ابن شهبه في تاريخه: وهو إلى يومنا هذا وقف[٧].

---

(١) النجوم الزاهرة (٦/١٥٨).
(٢) المصدر نفسه (٦/١٥٨).
(٣) البداية والنهاية (١٦/ ٧٠٠).
(٤) المصدر نفسه (١٦/ ٧٠١).
(٥) البداية والنهاية (١٦/ ٧٠٢).
(٦) شذرات الذهب (٦/ ٥٣٣). الربع: الدار وجمعها رِبَاع. انظر: مختار الصحاح.
(٧) شذرات الذهب (٦/ ٥٣٣).

المبحث الثاني

عهد الملك العادل

السلطان الكبير العادل سيف الدين أبو الملوك وأخو الملوك، أبو بكر محمد ابن الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي بن مروان بن يعقوب الدُّويني الأصل التكريتي ثم البعلبكي المولد، كان أصغر من أخيه صلاح الدين بعامين[١]، نشأ في خدمة الملك نور الدين، ثم شهد المغازي مع أخيه، وكان ذا عقل ودهاء وشجاعة وتؤدة وخبرة بالأمور، وكان أخوه يعتمد عليه ويحترمه، استنابه بمصر مدة ثم ملَّكَهُ حلب، ثم عوَّضه عنها بالكَرك وحرّان وأعطى حلب لولده الظاهر[٢]، قال عنه الذهبي: وكان سائسًا، صائب الرأي، سعيدًا، استولى على البلاد، وامتدت أيامه، وحكم على الحجاز، ومصر والشام، واليمن، وكثير من الجزيرة وديار بكر، وأرمينية، وكان خليقًا للملك، حسن الشكل، مهيبًا حليمًا، ديِّنًا، فيه عِفَّة وصفح وإيثار في الجُملة.

أزال الخمور والفاحشة في بعض أيام دولته، وتصدق بذهب كثير في قحط مصر حتى قيل: إنه كفَّن من الموتى ثلاث مائة ألف، والعُهدة على سبط الجوزي في هذه[٣] وسيرته مع أولاد أخيه مشهورة، ثم لم يزل يراوغهم ويلقي بينهم حتى دَحاهم، وتمكن واستولى على ممالك أخيه . . ثم إنه قسم الملك بين أولاده وكان يصيِّف بالشام غالبًا ويشتو بمصر[٤]، نجب له عدة أولاد سلطنهم وزوّج بناته بملوك الأطراف، وقد احتيل على الفتك به مرات، ويسلِّمُه الله[٥]، وحدّث العادل عن السِّلفي وكان مائلًا إلى العلماء حتى صنف له الرازي كتاب «تأسيس التقديس» فذكر اسمه في خطبته[٦].

أولًا: الأحلاف السياسية ضد الأيوبيين في الجزيرة:

بعد وفاة السلطان صلاح الدين انتقض الأمراء والملوك المعاهدين على خلفائه وكان أوّلهم بكتمر صاحب خِلاط، ثم أيّده صاحب ماردين وراسلوا أتابكة الموصل وسنجار وتحالفوا، وأصبحت المناطق الأيوبية مهّددة من الشمال ومن الشَّرق وتحركت الجيوش صوبها، وأرسلوا للعادل: أن اخرُج من بلادنا. وباتت السيطرة الأيوبية في الجزيرة مهّددة تمامًا، وكان امتحانًا مُبكرًا يتعرَّض له العادل، بل الدولة الأيُوبيَّة بكاملها بعد موت مُؤسِّسها، لكن الإرادة الإلهية أوَّلًا، وعزيمة العادل والتفاف الأيوبيَّة حوله ثانيًا، حوَّل كل ذلك إلى نصر كبير للأيوبية وتأكيد على إحكام قبضتها في الجزيرة[٧].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٢/١١٦).
(٢) المصدر نفسه (٢٢/١١٦).
(٣) المصدر نفسه (٢٢/١١٧).
(٤) المصدر نفسه (٢٢/١١٧).
(٥) المصدر نفسه (٢٢/١١٨).
(٦) المصدر نفسه (٢٢/١٢٠).
(٧) العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (١/٢١٩).

١- **في معسكر الحُلفاء**: كانت الضربة الأولى التي وجُهِّت للحُلفاء هي مقتل بكتمر صاحب خلاط، إذ اغتالته الباطنية وهو في أوج تنمُّره وشماتته بموت صلاح الدِّين، فقد ظهر شعار السَّلطنة، وتلقَّب بالملك النّاصر وراسل الأمراء والملوك، وعندما بدا وكأن السعد يجاريه، سقط بخناجر الباطنية، لتنهار دعامة قويّة من الحلف المناوي للأيوبية[١].

تردَّد عز الدِّين مسعود صاحب الموصل وتلكَّأ في التحرك العسكري ضدَّ الأيوبيَّة لاحتلال بلادهم الجزرية، وعندما تحرّك في الجيش داهمه المرض، فعاد محمولًا في محفة إلى الموصل وتبعه جيش التحالف الأتابكي بدُون أن يحرز أيَّ نتيجة، وجد صاحب ماردين نفسه وحيدًا في الميدان فتضرَّع، وتدرَّع وتشفع، حتى عفا عنه العادل.

تحرك العادل بسرعة فكتب إلى بني أخيه يستنجدهم، فأنجدوه وتحرَّكت الفرق الأيوبية نحو الجزيرة من كُلِّ مكان وأوَّلها وأقربها نجدة حلب، ثم حمص وبعلبك ودمشق.

ولم يعد هذا التجمع الأيوبي بلا مكسب، فقد استغلَّ العادل تجمَّع النجدات، وتراجع الأتابكة، فأمر ابنه الظافر بقيادة الجُند، واحتلال مدينة سروج، وكانت لعماد الدين، فاحتلَّها ثم احتلّ الرَّقة، واستولى على بلاد الخابور[٢]، وتبلور الوضع السياسي بعد هذا الاختبار للدولة الأيوبية بتأكيد سلطنة العادل على كامل أراضي الجزيرة، كما تأكدت على الشام فملوك الجزيرة وأمراؤها إمَّا يتبعون مباشرة لولاة العادل أو مُحالفون له خاضعون، يخطبون له على منابرهم ويسكُّون اسمه على نقودهم[٣].

٢- **موقف حلب**: وفي عام (٥٩٤هـ/ ١١٩٨م)، أنجد الظّاهر عمَّه العادل في هجومه على ماردين، ولمّا وقع الخلاف بينه وبين عمِّه إثر وفاة العزيز وتحرّك الظاهر مع أخيه الأفضل لأخذ دمشق، دعم الظاهر تحالف أتابكة سنجار والموصل، فهزموا جيش العادل، وأجلوه عن ماردين[٤]، وبعد فشل خُطَّة الظَّاهر بأخذ دمشق من عمِّه العادل راسل حسام الدين يولق صاحب ماردين وحاول تأليف حلف معه ومع أمراء الجزيرة بمن فيهم أخوه الأفضل، وعندما عاد العادل للهُجُوم على ماردين عام (٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م) تدخَّل الظَّاهر إنما هذه المرّة بوساطة سلمية، كانت لمصلحة كل الأطراف فقد، سار الأشرف نائب والده العادل في حَرَّان إلى ماردين وحاصرها عام (٥٩٩هـ) فأدرك صاحبها أنَّه سيكون الخاسر الأكبر باعتماده على حلف مُتفكِّك أصلًا، لا يجمعه إلا المصلحة، وتفرِّقه المصلحة، فأرسل للظاهر صاحب حلب، الذي وافق على السعي بالصُّلح.

---

(١) المصدر نفسه (١/ ٢٢٠).
(٢) الموسوعة الشاملة (١٣/ ٤٣٦).
(٣) العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٢٠).
(٤) تاريخ ابن خلدون (٥/ ٥٨٨).

موافقة العادل تدلُّ على عدم تأكُّده من النجاح العسكري، فقد فشل ابنه الأشراف بتحقيق نصر عسكري تجاه ماردين[١]، وربَّما لا العادل ولا الأشراف كانا يتوقَّعان نصرًا عسكريًا ضدَّ بلدة محصنة كماردين، وقلعتها الشهيرة[٢]، وبالمقابل ضمن العادل حُصُوله على ١٥٠ ألف دينار نقدًا، والخطبة والسِّكة في ماردين مع نجدة عساكر له عند الطلب، وحصل الظَّاهر على عمولة هي ٢٠ ألف دينار، وإقطاع قرية القرادي[٣] من صاحب ماردين[٤].

٣- **القوى السِّياسية في الجزيرة الشَّامية (مشكلة خلاط)[٥]**: لم يتمكَّن صلاح الدين من ضمِّ أخلاط إلى مملكته، فقد كانت حكم سيف الدِّين بكتمر، الذي استولى على السُّلطة بها بعد موت شاهر -من شاه أرمن- ابن سكمان ملك أخلاط، واستطاع بكتمر حفظ مملكته من توسُّع السلطان صلاح الدين في الجزيرة، وعرف نواياه تجاه خِلاط لذلك حقد عليه، وعند وفاة السلطان أظهر الابتهاج، وتلقب بالملك النَّاصر، وهو لقب صلاح الدين[٦]، وتحالف مع أتابك الموصل، ويُقال: إن بكتمر هُو مَن شَكَّل الحلف ضدَّ الأيوبية ولكن قتله المفاجئ عام (٥٨٩هـ/ ١١٩٣م) بعد شهرين من وفاة صلاح الدين بأيدي الإسماعيليَّة، أنهى كُلَّ خطر كان يشكله بكتمر على الأيوبيين[٧]، ومقتله وفرّ على الأيوبيَّة الكثير من المتاعب، وفكّك -فعليًا- تحالف ملوك الأطراف ضدهم بعد قتل المحرِّك والمدبر والأشد حقدًا عليهم، فملك خِلاط بعده مملوكه آق سنقر ولقبه هزاز ديناري، وتسمَّى: الملك بدر الدِّين، لكنه لم يعش طويلًا بعدها فقد توفي عام (٥٩٥هـ)، فتولَّى الأمير محمد ابن صاحب خلاط السابق بكتمر وكان شابًا قاسدًا[٨] جاهلًا قتل أتابكة شجاع الدين قتلغ، الذي كان حسن السيرة مع الجند والرعية واشتغل هو باللهو والشراب، فانتقض عليه الناس، وملَّكوا سيف الدِّين بلبان، وكان مملوكًا لشاه أرمن وتسلم خلاط[٩]، فكتب جماعة ابن بكتمر للملك الأوحد ابن العادل صاحب مَيَّافارقين يستدعونه إلى خِلاط، فسار إليه[١٠]، وكان قد طلب النجدة من أبيه العادل، فأرسل له جيشًا كبيرًا[١١]، وتمكّن بواسطته الأوحد من هزيمة بلبان[١٢]، لكن بلبان استنجد بمغيث الدِّين طغرل شاه بن قلج أرسلان السلجوقي[١٣]، صاحب أرزن الروم، فسار إليه بنفسه ومعه العسكر،

---

(١) العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٢٠).
(٢) الإمارات الأرتقية، عماد الدين خليل ص١٦٤ .
(٣) القرادي: قرية من أعمال شيختان.
(٤) مفرج الكروب (٣/ ١٣٩)، شفاء القلوب ص٢١٣، العلاقات الدولية (١/ ٢٢٠).
(٥) يُفسِّر ناصر خسرو سبب تسميتها، فيقول: هي بين بلاد المسلمين والأرمن ويتكلمون بها ثلاث لغات؛ العربية والفارسية والأرمينية، وأظن أنها سميت أخلاط لهذا السبب.
(٦) الموسوعة الشاملة للحروب الصليبية (١٣/ ٤٣٦).
(٧) الفتح القِسي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة (١٣/ ٤٣٦).
(٨) تاريخ البغدادي ورحلته، الموفق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د/ سهيل زكار (١٤/ ٨٤).
(٩) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٩/ ٥١٧، ٥١٨).
(١٠) مفرج الكروب (٣/ ١٧٦).
(١١) المصدر نفسه.
(١٢) العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٢٢).
(١٣) مفرج الكروب (٣/ ١٧٦) العلاقات الدولية (١/ ٢٢٢).

فهزموا الأوحد[١]، فعاد إلى ميَّافارقين وطمع طغرل شاه بأخلاط، وغدر بلبان، فقتله، ليملك خلاط، لكنَّ أهلها لم يُسلِّموها له، وقاوموه، فعاد إلى بلاده، واستدعوا الملك الأوحد، وسلَّموه المدينة سنة (٦٠٤هـ)[٢] وتخَّوف أصحاب المدن المجاورة من قوة الأوحد التي تُعدُّ امتدادًا لقوة والده العادل وأخيه الأشرف، وهي أكبر القوى العسكّرية والسياسية في الجزيرة، فحاولوا النيل منه، ولكنّ دعم أخيه الأشرف جعلهم يتراجعون [٣]، واستفاد الأوحد من وجود قوات أخيه الأشرف، فهاجم قلعة أوان وهي للكرج فملكها[٤]، فخاف ملوك المدن المجاورة واتفقوا على ترك طاعة العادل، وأعلنوا طاعة خسرو شاه بن قلج أرسلان سُلطان سلاجقة الرّوم، وخطبوا له، وراسلوا الكرج يُحرِّضونهم ضدَّ الأوحد[٥]، فتحرك ملك الكرج (٦٠٧هـ/ ١٢١٠م) إلى خلاط وحاصرها بقُوَّاته، وفي إحدى الهجمات جيش الكرج على أبواب خلاط سقط ملكهم عن جواده، فأسرع المدافعون عن الباب وأسروا الملك واقتادوه إلى الأوحد الذي فاوضه على إطلاق سراحه مقابل عدة شروط، منها: تسليم بعض القلاع، وإطلاق خمسة آلاف أسير مسلم، ودفع مائة ألف دينار، وتزويج ابنة الملك الكرج للملك الأوحد، وإقامة هُدنة بينهما مُدَّتها ثلاث سنوات[٦].

فتخاذل مُلُوك المُدُن المجاورة لِخلاط المتُحالفين ضدَّ الأوحد وأبيه العادل، وقصدوا العادل وهو في حَرَّان، واعتذروا إليه، وعادوا إلى طاعته[٧]، وبعد مرض عُضال تُوفي الملك الأوحد نجم الدِّين أيوب بن العادل في مدينة ملاذكُرد، ودفن بها [٨] سنة (٦٠٥هـ/ ١٢٠٨م)[٩] ، فتسلَّمها أخوه الملك الأشرف صاحب الجزيرة، واستقرَّت في ملكه[١٠]، وأُضيفت ميَّافارقين إلى المُظفَّر شهاب الدين غازي[١١]، فعظم شأن الأشرف بمُلكه خِلاَط وهي قصبة أرمينيا[١٢] ، فعظم أمره، وتلقَّب شاهر من بعد أن ملكها[١٣].

٤- **الملك الأفضل في الجزيرة:** كان الأفضل أكبر أولاد صلاح الدين وولي عهده، وبعد وفاة والده كوَّن مملكة دمشق التي كانت إقطاعًا له في حياة والده السُّلطان، وهي تمتد من حدود حمص شمالًا إلى حدود العريش جنوبًا يفصلها عن بعض السواحل المناطق المحتلة من قبل

(١) المصدر نفسه (٣/ ١٧٦) المصدر نفسه (١/ ٢٢٢).
(٢) المصدر نفسه (٣/ ١٧٦) المصدر نفسه (١/ ٢٢٢).
(٣) المصدر نفسه (٣/ ١٧٦) المصدر نفسه (١/ ٢٢٢).
(٤) المصدر نفسه (٣/ ١٧٦) المصدر نفسه (١/ ٨٢٢).
(٥) شفاء القلوب ص٢٧٤، المصدر نفسه (١/ ٢٢٢).
(٦) العلاقات الدولية (١/ ٢٢٢).
(٧) المصدر نفسه (١/ ٢٢٣).
(٨) مفرج الكروب (٣/ ١٧٥) العلاقات الدولية، منذر الجايك (٧/ ٢٢٣).
(٩) الموسوعة الشاملة (٢٠/ ١٥٨) العلاقات الدولية (١/ ٢٢٣).
(١٠) تاريخ البغدادي ورحلته نقلًا عن العلاقات الدولية (١/ ٢٢٣).
(١١) مفرج الكروب (٣/ ٢٠٨) العلاقات الدولية (١/ ٢٢٣).
(١٢) العلاقات الدولية (١/ ٢٢٣).
(١٣) المصدر نفسه (١/ ٢٢٣).

الفرنج، وفي عام (٥٩٢هـ) تمكَّن الملك العادل من إخراج ابن أخيه الأفضل من دمشق إلى صرخد، وبعد موت العزيز بن صلاح الدين صاحب مصر تمكّن الأفضل من الوصول إلى حُكم مصر عام (٥٩٥هـ)، لكن نتيجة التحاسد بين الإخوة أبناء صلاح الدِّين وشخصية الأفضل غير القيادية فقد طُرد الأفضل من مصر -كما مرّ معنا- وعاد إلى صرخد، ثم خسرها أيضًا بعد مُغامرته الفاشلة لأخذ دمشق (٥٩٧هـ/ ١٢٠١م).

وأثناء حصار الأفضل وأخيه الظاهر للعادل بدمشق، راسل العادل الأفضل، ووعده بالبلاد الشرقية، فانسحب من الحصار وعمل على تفشيله وسلَّمه العادل مَيَّافارقين، وسُميساط وسروج وقلعة نجم[١]، ويبدو أن العادل كان يُدرك تمامًا ما يفعل، فقد وضع الأفضل في الجزيرة، ليبعده أولًا عن مراكز القوى في دمشق ومصر وليضعه تحت إشراف ومراقبة ولده الأشرف صاحب إقطاع الجزيرة، وكانت لدى العادل مخططات أخرى تتعلَّق بالأفضل، ربَّما لم يطلع عليها سوى ابنه الأشرف صاحب إقطاع الجزيرة الذي سيُنفذها لاحقًا، ففي عام (٥٩٩هـ) طلب الأشرف من الأفضل القدوم بعساكره للتوجه معه في الحملة ضدَّ ماردين، وبالفعل وصل الأفضل إلى حرَّان ورافقه الأشرف الذي كان يظهر الود والاحترام للأفضل، حتى إنَّه عندما استولى على رأس عين الخابور سلمها له، وبعد الصلح مع ماردين والعودة إلى حرّان بلغ كرم الأشرف غايته مع ابن عمه؛ حيث أعطاه بلدة جملين[٢]، إلا أن الملك العادل أرسل عسكره ونوابه واستعاد جملين من الأفضل وانتزع منه سروج وشبختان والموزر والسن[٣]، ثم تابع الملك العادل وابنه الأشرف تنفيذ مخططهما ضدَّ الأفضل فأخذوا رأس عين الخابور من الملك الأفضل وكذلك جملين بكذبة كذبوها عليه لاستعادة البلاد منه، ولم يُبقوا عليه سوى سُميساط[٤].

كانت محاولة الأفضل الأخيرة قبل أن يفقد كُلَّ أمل له ضمن أسرته الأيوبيَّة، هي التذلُّل لعمِّه العادل واستعطافه، فأرسل والدته إلى حماة، لتشفع صاحبها المنصور عند العادل لإبقاء بلاده عليه، لكن العادل لم يلتفت إلى ذلك[٥]، عندما وجد الأفضل نفسه وحيدًا ضمن البيت الأيوبي فأعداؤه هم أخوه وعمّه وأبناء عمِّه، مما زاد الأفضل حنقًا ودفعه باتجاه معاكس، فالتفت خارج البيت ليجد كيكاوس[٦] سلطان سلاجقة الروم قريبًا منه، ومرحبًا به وربما لأنه عدو البيت الأيوبي انتمى إليه وخطب له على منابر سُمَيساط[٧]، فكان انتقام الضعيف من القوي[٨]،

---

(١) زبدة حلب لابن العديم ص٤٤٤، العلاقات الدولية (١/ ٢٢٥).
(٢) العلاقات الدولية (١/ ٢٢٦) المنصوري، ابن نظيف ص٣٨.
(٣) العلاقات الدولية (١/ ٢٢٦).
(٤) العلاقات الدولية (١/ ٢٢٦) المختصر، أبو الفداء (٣/ ١٠٤)
(٥) المصدر نفسه (١/ ٢٢٧).
(٦) هو السلطان عز الدين سليمان بن قلج أرسلان صاحب الروم.
(٧) العلاقات الدولية (١/ ٢٢٧).
(٨) المصدر نفسه (١/ ٢٢٧).

وعندما تُوفي الملك الظاهر صاحب حلب في عام (٦١٣هـ/ ١٢١٦م) وجد كيكاوس في الأفضل ضالَّته، فهو وسيلته للسيطرة على الجزيرة، ومن ثمَّ الدخول إلى الشام[١]، فأثار مطامع الأفضل ووعده بأخذ حلب، وتسليمها له.

وكان كيكاوس يُريد المُلك لنفسه ويجعل الأفضل ذريعة للتوصل إليه[٢]، ففي عام (٦١٥هـ) طالب كيكاوس من الأفضل أن يكاتب أمراء حلب الذين يميلون إليه، فكاتبهم، ووعدوه[٣]، وكان عدد من مستشاري عز الدين كيكاوس قد حسَّنوا له قصد حلب وقالوا: المصلحة أن تستعين بالأفضل، فإنه في طاعتك، ويخطب لك، والناس مائلون إليه، فاستدعاه وأكرمه واتَّفقا على قصد البلاد، وأن حلب وأعمالها للأفضل وبلاد الأشرف لعز الدِّين[٤]، وساند الأفضل كيكاوس ورافقه في هجومه على ممتلكات حلب وساروا فملكوا رعبان، وسُلِّمت للأفضل، لكن لمَّا مُلكت تل باشر أخذها عز الدين كيكاوس لنفسه، وكذلك منبج، فنفر الأفضل وقال: هذا أول الغدر، ونفرت أهل البلاد، فقد كانوا فرحين بمُلك الأفضل[٥]، ولما تحقق الأفضل من سوء نيَّة كيكاوس أشار عليه بقصد البلاد، وتأخير حلب، لمرور الزمن في غير فائدة، لئلا يتحصل لعزّ الدين مقصوده[٦]، وكان تراجع الأفضل عن دعم كيكاوس من الأسباب القويَّة لهزيمته أمام قوات حلب والأشرف موسى[٧]، فقد تراجع منهزمًا واستردوا كُلَّ ما استولى عليه، وعاد الأفضل ليقبع في سُمَيساط ولم يتحرك بعدها في طلب مُلك إلى أن مات عام (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م)[٨]، وكان موته فجأة وله من العمر سبع وخمسين سنة[٩].

وهكذا أكمل العادل مُخطَّطه تجاه الأفضل الذي كان يتصوَّره الأقوى بين أبناء صلاح الدين، ولكنه كان -على ما يبدو- بعيدًا عن مغاور السياسية وألاعيبها بسيطًا مع أنه جمع الفضائل والأخلاق الحسنة، وعلَّل أبو الفداء بأنه كان قليل الحظّ[١٠]، لكن الأرجح أنه سوء تدبير أكثر منه قلّة حظّ، فله من الخبرة والتجربة في دولة أبيه، وربما ما يفوق ما كان لأخيه الظاهر غازي أو العزيز، ونلاحظ أن العادل قد تجاوز صلاح الدين بحسن التدبير لتدريب أبنائه، وربما كان ذلك بسبب انشغال صلاح الدين الدائم بالجهاد، فقد أمضى جُلَّ عمره على صهوة جواده، وكان يرى أن تحرير ديار المسلمين رسالة عليه أن يُؤدِّيها، فلم يلتفت إلى ما سواها، بينما التفت العادل لترتيب شُئون أولاده بعد موت صلاح الدين، وساعده على ذلك توقف الأعمال الحربية الكبرى مع الفرنج[١١].

---

(١) العلاقات الدولية (١/ ٢٢٧).
(٢) زبدة حلب (٢/ ٦٤٤) العلاقات الدولية (١/ ٢٢٧).
(٣) زبدة حلب (٢/ ٦٤٤) العلاقات الدولية (١/ ٢٢٨).
(٤) مفرج الكروب (٣/ ٢٦٣) العلاقات الدولية (١/ ٢٢٨).
(٥) مفرج الكروب (٣/ ٢٦٣) العلاقات الدولية (١/ ٢٢٨).
(٦) مفرج الكروب (٣/ ٢٦٥) العلاقات الدولية (١/ ٢٢٨).
(٧) العلاقات الدولية (١/ ٢٢٨).
(٨) المختصر، أبو الفداء (٣/ ١١٩).
(٩) العلاقات الدولية (١/ ٢٢٨).
(١٠) المختصر، أبو الفداء (٣/ ١٣٥).
(١١) العلاقات الدولية (١/ ٢٢٩).

ويعتبر النزاع الداخلي في الأسرة الأيوبية من أسباب ضعفها واضمحلالها وزوالها، فمن سنة الله تعالى في الشعوب والأمم وأسباب زوالها وهلاكها الاختلاف، قال رسول الله ﷺ: «**فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا**»، وفي رواية: «**فأهلكوا**»[١]. وعند ابن حيان عن ابن مسعود ﷺ: «**فإنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف**»[٢].

إن من الدروس المهمة في هذه الدراسة التاريخية أن نتوقى الهلاك بتوقي أسباب الاختلاف المذموم؛ لأن الاختلاف كان سببًا من الأسباب التي ساهمت في ضياع الدولة الأيوبية، وكان لهذا الاختلاف الذي وقع في البيت الأيوبي أسبابه منها: الوازع الديني عند بعض أمراء الأيوبيين والأنانية وحب الذات والتكالب على المصالح الدنيوية، والتناحر من أجلها، والحرص على السلطان والجاه والمناصب، وتحكيم بعض الملوك أهواءهم في الأمور، فهذه الأسباب كانت وقودًا للمنازعات والخلافات التي وقعت بين أفراد البيت الأيوبي، فكانت من أكبر معاول الهدم وأسباب الضعف وتلاشي الدولة وقصر عمرها، وقد استقرأ هذه الحقيقة ابن خلدون حيث ذكر أن من آثار الهِرَم في الدولة انقسامها، وأن التنازع بين القرابة يقلص نطاقها كما يؤدي إلى قسمتها ثم اضمحلالها[٣].

إن حوادث الخلاف والمنازعات الداخلية بين أبناء البيت الأيوبي -حول تقسيم التركة التي خلفها صلاح الدين- لتملأ معظم تاريخ الدولة الأيوبية، ويرجع ذلك إلى تطبيق مبدأ اعتبار المملكة إرثًا خاصًا يقسم أنصبة متساوية وغير متساوية بين أبناء البيت المالك، كما يرجع إلى صلاح الدين نفسه الذي فضَّل أبناءه، وأثرهم على أخيه العادل على الرغم من أنه أقدر القادرين على امتلاك ناصية الدولة بعده، فبينما حرص صلاح الدين على أن تكون أهم أقاليم المملكة لأبنائه، عين أخاه العادل على أطراف مبعثرة مثل الكرك والشوبك، على أن عوامل الانقسام والشقاق ما لبثت أن دبت بين أبناء صلاح الدين أنفسهم -كما رأينا- ولقد انتهز العادل تلك الفرصة ورأى أن يجمع هذا الشتات تحت إمرته، فلم يتردد في فرض سلطانه على مصر إلى جانب أملاكه في الشام.

وهكذا لم يمضِ على وفاة صلاح الدين سوى سبع سنوات حتى طوى العادل معظم أولئك الأبناء، فحلَّ محلهم في دولة موحدة[٤]، وقد سلك العادل في سبيل تحقيق هذا الهدف الطرق المشروعة وغير المشروعة، ولم يعدم وسيلة إلا اتخذها ما دامت توصله إلى مأربه، وتظهر لنا سياسته بوضوح في تصريحه الخطير الذي ألقاه على من حوله من أمراء الدولة الأيوبية بمصر،

---

(١) صحيح البخاري بشرح العسقلاني (٩/١٠١، ١٠٢).

(٢) المصدر نفسه (٩/١٠٢)، الدولة الأموية للصَّلَّابي (٢/٥٨٢).

(٣) العبر (١/٥١٧)، الضعف المعنوي وأثره في سقوط الأمم ص١١٨.

(٤) قيام دولة المماليك الأولى في مصر، د/ أحمد العبادي ص٨٨

مبررًا خلعه الملك منصور بن العزيز بن صلاح الدين: إنه قبيح بي أن أكون أتابك صبي مع الشيخوخة والتقدم، والمُلك ليس هو بالإرث وإنما هو لمن غلب[(١)].

٥- العلاقات الأيوبية الزنكية في عهد العادل: دخلت العلاقات الأيوبية الزنكية مرحلة جديدة عقب وفاة صلاح الدين في عام (٥٨٩هـ/ ١١٩٣م) استغل خلالها حكام الموصل الصراع الداخلي بين ورثته لاستعادة نفوذهم المسلوب، وقضت مصلحتهم التحالف مع طرف ضد الطرف الآخر أثار تقسيم المملكة الأيوبية مطامع عز الدين مسعود الأول، فاستغل الفرصة وراسل أمراء الأطراف، وحكام المدن للتنسيق معهم، فلم يستجب له منهم سوى أخيه عماد الدين زنكي الثاني صاحب سنجار[(٢)]، ويبدو أن هؤلاء الأمراء لا سيما مظفر الدين كوكبوري صاحب إربل، وسنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر، خشوا من طموحاته، ووجدوا أنه ليس من مصلحتهم أن يستعيد نفوذه وقوته، والأفضل أن يظل ضعيفًا حتى يستمر الوضع كما هو، فلا يطمع بما في أيديهم من البلاد التي كانت تابعة للنفوذ الزنكي من قبل[(٣)]، ورأى عز الدين مسعود الأول أن يجتمع مع أخيه لوضع خطة مشتركة تهدف إلى استعادة ما كان صلاح الدين قد اقتطعه من دولة الموصل لا سيما حران والرُّها، وكان بيد العادل، فخرج إلى نصيبين واجتمع بأخيه فيها[(٤)]، لكن المرض سرعان ما داهم عز الدين وأجبره على العودة نحو الموصل، تاركًا جيشه مع أخيه عماد الدين لإكمال المهمَّة التي خرجا من أجلها وهي احتلال الجزيرة، لكنّ عماد الدين قرر الصلح مع الملك العادل رُبَّما لأنه كان مسالمًا في طبعه، ليِّن العريكة يؤثر السلامة، أو لأن مرض أخيه جعله يفكر في مشاكل البيت الزنكي، ورأى أن عودته نحو سنجار غدت ضرورية، ومهما كان الأمر فقد قرَّر الصلح[(٥)].

(أ) الاصطدام الأيوبي الزنكي في ماردين: تراوحت العلاقات الأيوبية الزنكية في عهد أرسلان شاه الأول (٥٨٩هـ-٦٠٧هـ/ ١١٩٣-١٢١١م) والعادل بين التعاون والعداء، وقد تابع العادل زحفه باتجاه الجزيرة بعد أن استدعاه قطب الدين محمد صاحب سنجار لمساعدته ضد ابن عمه أرسلان شاه الأول صاحب الموصل الذي هاجم نصيبين وانتزعها منه، وفي نيَّته (العادل) إخضاع المنطقة وتأديب بلك أرسلان الأرتقي صاحب ماردين الذي أوشك أن يحطم ما للأيوبيين من سلطان عليه، فحاصر المدينة واستولى على ربضها، وكادت تسقط في يده لولا أن تغيرت الظروف السياسية فجأة لغير صالحه، ذلك أنه حدث أن توفي العزيز عثمان صاحب مصر، فسارع أخوه الأفضل علي إلى مصر وضمَّها إلى أملاكه، وكان بين الأفضل علي والعادل وحشة، فعمل الأول على عرقلة مشروعات الثاني في الجزيرة وتصرَّف على محورين:

---

(١) المغول في التاريخ ص٨٧، السلوك (١/ ١٥٥).
(٢) مفرج الكروب (٣/ ١٦، ١٧)، تاريخ الأيوبيين، طقوس ص٢٤٣.
(٣) دولة الأتابكة في الموصل، رشيد الجميلي ص١٧٠، ١٧١.
(٤) الكامل في التاريخ نقلًا عن تاريخ الأيوبيين ص٢٤٣.
(٥) العلاقات الدولية (١/ ٢٧٣).

الأول: استدعى العسكر المصري الذي كان يرافق العادل في مهمته في الجزيرة.

الثاني: كتب إلى صاحب الموصل، وصاحبي سنجار، وجزيرة ابن عمر، عارضًا عليهم التحالف معه لطرد العادل من الجزيرة[١]. الواقع أن هؤلاء الأمراء كان يخشون من أن يغلبهم العادل على أمرهم، ويتمكن من بلادهم بعد ما رأوا قواته تجوب المنطقة، فأجابوه إلى طلبه وتحرك الأفضل علي باتجاه دمشق، في حين تأهب آل زنكي في الجزيرة لمساعدته[٢]، ونتيجة لهذه التطورات غادر العادل ماردين باتجاه دمشق مع بعض قواته لقطع الطريق على الأفضل علي تاركًا ابنه الكامل محمد على حصارها[٣]، وتوالت الأحداث سريعة بعد ذلك، فقد انتهز نور الدين أرسلان شاه الأول صاحب الموصل انهماك العادل بمشكلة دمشق فخرج بعساكره في (شهر شعبان عام ٥٩٥هـ/ شهر حزيران عام ١١٩٩م) قاصدًا ماردين فنزل دُنيْسِر حيث وافته قوات صاحبي سنجار وجزيرة ابن عمر، وبعد أن نسَّقوا فيما بينهم ساروا إلى بلدة حرزم[٤]، وعسكروا فيها استعدادًا لبدء القتال مع جيش الكامل محمد، وإجباره على فك الحصار عن ماردين[٥].

وكان أهل ماردين قد أجهدهم الحصار حتى أوشكوا على التسليم لولا وصول القوات الزنكية، فقويت نفوسهم وامتنعوا عن الدخول في الصلح، واشتبك الجانبان في رحى معركة شديدة انتهت بهزيمة الكامل محمد، وأسر عدد كبير من عسكره، وانسحب بمن معه إلى ميافارقين ومنها إلى حرَّان حيث استدعاه والده إلى دمشق، وعاد صاحب الموصل إلى دُنَسير، ثم رحل عنها إلى رأس عين وفي نيته مهاجمة حرّان لانتزاعها من يد الفائز إبراهيم بن العادل، لكنه فوجئ برسل الظاهر غازي صاحب حلب يطلب منه أن يخطب باسمه في الموصل وأعمالها، وأن يضرب السكة باسمه فيها[٦]، فنفر من هذا الطلب، وتوقف عن مواصلة الزحف، وكان قد أصيب بمرض فقرَّر العودة إلى الموصل في (شهر ذي الحجة عام ٥٩٦هـ/ شهر تشرين الأول عام ١٢٠٠م) وأرسل إلى كل من الظاهر غازي والأفضل علي يعتذر لهما عن عودته[٧].

(ب) التكتل الرباعي ضد العادل: شجع اشتداد حدة النزاعات داخل الأسرة الأيوبية أمراء الجزيرة على خلع طاعة العادل وإخراج نوابه من ديارهم، وقد أثارت سيطرة هذا الأخير على مصر خوف الظاهر غازي صاحب حلب، فأراد أن يدعم موقفه بتكتل ثلاثي يضمه مع كل من صاحب الموصل وماردين على أن يكونا جميعًا يدًا واحدة لمواجهة مطامع العادل، وما لبث أن

---

(١) تاريخ الزمان ص٢٣١ لابن العنبري، تاريخ الأيوبيين ص٢٤٥ .
(٢) الكامل في التاريخ نقلًا عن تاريخ الأيوبيين ص٢٤٥ .
(٣) تاريخ الأيوبيين ص٢٤٥ .
(٤) المصدر نفسه ص٢٤٥ . اسم بليدة في واد ذات نهر جار وبساتين بين ماردين ودُنسير.
(٥) تاريخ الأيوبيين ص٢٤٥ نقلًا عن الكامل في التاريخ.
(٦) التاريخ الباهر ص١٩٥، تاريخ الأيوبيين ص٢٤٦ .
(٧) تاريخ الأيوبيين ص٢٤٦ نقلًا عن الكامل في التاريخ.

انضم الأفضل علي إلى هذا التحالف بعد أن أزاحه العادل عن الحكم في دمشق، ولما توجه الأخوان؛ الظاهر غازي والأفضل علي لحصار دمشق لانتزاعها من يد العادل، أرسلا إلى نور الدين أرسلان شاه الأول يحثَّانه على مهاجمة البلاد الجزرية التابعة للعادل وهي الرُّها وحرَّان، حتى يخفِّفا الضغط عنهما، أثناء مدة الحصار[١].

وفعلًا سار صاحب الموصل في (شهر شعبان عام ٥٩٧هـ/ شهر أيار ١٢٠١م) إلى مدينة حرَّان، وكان يحكمها الفائز إبراهيم بن العادل، وسانده ابن عمِّه صاحب سنجار ونصيبين، وصاحب ماردين، ونزل في رأس عين [٢] وكان الفائز عاجزًا عن الوقوف في وجه الحشود الضخمة التي حشدها الحلفاء، فمال إلى الصالح، وكان المتحالفون قد تلقوا أنباء عن قرب عقد صلح بين الأمراء الأيوبيين المتنازعين، كما تفشَّت الأمراض في صفوفهم، فحصدت كثيرًا من جندهم وكان الوقت صيفًا، فأصابهم الإرهاق، واضطروا إلى الموافقة على عقد الصلح [٣]، وكانت هذه الاستجابة نابعة من قناعتهم في إبقاء العلاقات الطيبة مع أولاد صلاح الدين لمناوأة مطامع العادل من جهة، والتخلص من المعاناة التي أصيبوا بها نتيجة تفشِّي الأمراض والإرهاق من جهة أخرى[٤]، وتقرَّر الصلح على أساس احتفاظ الفائز إبراهيم بما في يده من البلاد الجزرية. وافق العادل على هذا المبدأ وعاد نور الدين أرسلان شاه الأول إلى الموصل في شهر ذي القعدة/ شهر آب[٥].

(ج) **التعاون الأيوبي الزنكي في حصار ماردين**: اتسمت سياسة نور الدين أرسلان شاه الأول تجاه الأيوبيين بالتقلبات السريعة وفقًا للمصالح المتبادلة بين الجانبين، وتطبيقًا للمبدأ السياسي الذي يقول بأنه لا توجد سياسات دائمة بل مصالح دائمة، وهذا مبدأ قديم عند الكثير من السياسيين كما نرى وليس اكتشاف غربي كما يرى البعض، وتعاون صاحب الموصل مع العادل في مهاجمة الأراتقة في ماردين في (شهر محرم عام ٥٩٩هـ/ شهر أيلول عام ١٢٠٢م) ذلك أن العادل لم ينس الهزيمة التي مُنيت بها قواته في ماردين في عام (٥٩٥هـ/ ١١٩٩)، ولم يغفر للماردينيين جرائمهم بحق جنده؛ لذا قرر الانتقام، وكان قد حصَّن موقفه نتيجة اتفاق الصلح الذي عقده مع ابني أخيه الأفضل علي والظاهر غازي من جهة، واستقطاب صاحبي الموصل وسنجار من جهة أخرى، والراجح أن انضمام نور الدين أرسلان شاه الأول إلى جانب العادل من شأنه أن يكسبه بعض المغانم، وقد يؤدي إلى التوسع على الأرض على حساب الأراتقة، وأرسل العادل عساكره إلى ماردين بقيادة ابنه الأشرف موسى، فحاصرت المدينة، وانضمت

(١) المصدر نفسه ص٢٤٦ .
(٢) الكامل في التاريخ نقلًا عن تاريخ الأيوبيين ص٢٤٦ .
(٣) ابن العبري ص٢٣٣، تاريخ الأيوبيين ص٢٤٦ .
(٤) تاريخ الأيوبيين ص٢٤٧ .
(٥) التاريخ الباهر ص١٩٦، مفرج الكروب (٨/ ١٢٧).

إليهم عساكر من الموصل وسنجار، ويبدو أن الحصار استغرق وقتًا طويلًا دون أن يحصل المتحالفون على مكاسب، فتدخل الظاهر غازي في الصلح الذي تمَّ على الأسس التالية:

- يدفع صاحب ماردين مائة ألف دينار إلى العادل.
- يضرب السِّكَّة باسم العادل، ويخطب له في بلاده.
- يتعهد بإرسال العساكر إلى العادل متى طلب منه ذلك[1].

(ح) **تجدُّد الصراع مع العادل**: لم يكُف العادل عن محاولاته لعزل الموصل عن بقية الإمارات الجزرية، ومنع أي تحالف ينشأ بينها، وذلك بهدف السيطرة عليها، وقد أثاره ذلك الاتفاق الذي تم بين نور الدين أرسلان شاه الأول وبين ابن عمه قطب الدين محمد صاحب سنجار ونصيبين في المدة الواقعة ما بين (٥٩٥-٦٠٠هـ/ ١١٩٩-١٢٠٣م) فسعى إلى فصمه، وتمكَّن من استقطاب قطب الدين محمد واتفق معه بأن تكون الخطبة له في بلاده[2] مما أدّى إلى تدهور العلاقات مع الموصل، وبدأ نور الدين أرسلان شاه الأول أعماله العسكرية ضد ابن عمه بمهاجمة نصيبين، وما كاد يستولي عليها ويتأهب لدخولها حتى جاءته الأنباء بقيام مظفر الدين كوكبوري صاحب إربل بمهاجمة بلاده مستغلًّا فرصة غيابه عنها، فاضطر إلى رفع الحصار عن نصيبين وعاد إلى بلاده للدفاع عنها، فلما وصل إلى مدينة بَلَد[3] علم أن كوكبوري عاد إلى إربل وأن ما بلغه من أخبار مبالغ فيها[4]، وواجه نور الدين أرسلان الأول في عام (٦٠٠هـ/ ١٢٠٤م) تكتلًا عسكريًّا ضمَّ الأشرف موسى بن العادل الذي عيَّنه والده نائبًا عنه على شمالي الجزيرة، وأخاه الأوحد نجم الدين أيوب صاحب ميافارقين، وقطب الدين محمد صاحب سنجار، ومظفر الدين كوكبوري صاحب إربل، وصاحب جزيرة ابن عمر، وصاحب كيفا وآمد ودارا، وكان هدف هذا التكتل مساعدة صاحب سنجار[5]، ومُني نور الدين أرسلان شاه الأول بهزيمة قاسية أمام الحلف، وكان لذلك أثر كبير في إضعاف قوته، فلم يَسْعَ إلى استئناف القتال، وجنح إلى السلم، وتقرَّب من العادل، ومن مظاهر هذه السياسة اشتراكه مع قوات العادل في عام (٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م) في قتال الصليبيين في إمارة طرابلس[6].

وحدث في العام التالي أن توثَّقت العلاقات بين الطرفين بالتقارب الأسري فقد زوَّج العادل أحد أبنائه من ابنة صاحب الموصل[7]، وظن نور الدين أرسلان شاه الأول أنه في ظل هذا التقارب يمكنه أن يستعيد قوته ونفوذه على حساب قطب الدين محمد صاحب سنجار، ومحمود

---

(١) تاريخ الأيوبيين ص٢٤٧ .
(٢) المصدر نفسه ص٢٤٨، مفرج الكروب (٣/ ١٥٦).
(٣) بَلَد: مدينة قديمة على دجلة وفوق الموصل.
(٤) مفرج الكروب (٣/ ١٥٣).
(٥) الكامل في التاريخ، تاريخ الأيوبيين ص٢٤٨ .
(٦) مفرج الكروب (٣/ ١٧٢، ١٧٣)، تاريخ الأيوبيين ص٢٤٩ .
(٧) تاريخ الأيوبيين ص٤٩، سبط بن الجوزي ص٢٤٩ .

سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر الذين تربطه بهما علاقات عدائية، وتأثر بآراء بعض مستشاريه، فأجرى مباحثات مع العادل وعرض عليه اقتسام أملاكهما، على أن يأخذ هو جزيرة ابن عمر، ويأخذ العادل سنجار[(١)]، وجاءت الفُرصة للعادل تسعى، فقد هاجم الكرج مملكة خِلاط واحتلُّوا أرجيش[(٢)] وكانت للأوحد بن العادل الذي استصرخ أباه[(٣)]، فأعلن العادل التعبئة ضدَّ الكرج، وكتب إلى البلاد يطلب العساكر وأظهر أنه يريد قَصْد الكُرج، فوصل إليه الملك المنصور صاحب حماة والملك المجاهد صاحب حمص والملك الأمجد صاحب بعلبك، وعسكر من الملك الظاهر صاحب حلب ونزل بحرَّان ووصل إليه ولده الملك الأوحد صاحب خلاط وميّافارقين والملك الأشرف والملك الصالح محمود بن محمد بن قرا أرسلان الأرتقي صاحب آمد وحصن كيفا، ووصل إليه صاحب السويداء وصاحب دارا[(٤)] وعندما وصل العادل رأس عين بلغه انسحاب الكرج[(٥)]، وذلك أن الكرج لمّا عرفوا بحركته، خافوا وكرُّوا عائدين إلى بلادهم[(٦)].

(س) قصد الملك العادل سنجار وحصارها: عندما رجع الكرج إلى بلادهم خائفين، التفت العادل لتحقيق هدفه الرئيسي ولا بد أنه قد حار في أمره، فكيف يتوجَّه نحو سنجار لأخذها وقوات أميرها قطب الدين معه في حملته؟ وكيف يُبرِّر ذلك أمام الملوك والأمراء من آل بيته؟ فلم يجد أفضل من إعلان الغضب على قطب الدِّين؛ لأنَّه تخلَّف عن الحُضور بنفسه واكتفى بإرسال قواته، وقال: إنه تجدد له قصد سنجار لتخلُّف صاحبها عن وصوله بنفسه[(٧)]، مع أن الظاهر غازي -أيضًا- لم يصل بنفسه فالأمر مُبيَّت، وأساس جميع الجيوش هو قصد سنجار، وعلى الغالب فإن تحرُّك الكرج جاء عَرَضًا فأحسن العادل استغلاله، وأعلن العادل أنه سيتوجَّه لمعاقبة صاحب سنجار أوّلًا، وأرسل إليه يطلب تسليم سنجار مقابل عوض، فرفض ذلك، وفي عام (٦٠٥هـ/ ١٢٠٨م) كان العادل يتحرك صوب سنجار، وفي طريقه أخذ نصيبين والخابور ثم نصب المجانيق وقاتل سنجار وأشرف على أخذها عنوة[(٨)]، وأرسل صاحبها قطب الدين نساءه وحرمه يضرعن إليه ويسألنه إبقاء المدينة عليهن، فلما حصل النسوة عنده أمر باعتقالهن إلا بتسليم سنجار، فاضطر قطب الدين إلى إلقاء المقاليد إليه، وأجاب إلى تسليم البلد على أن يعوض عنها الرقة وسروج وضياع من بلد حرَّان، وأطلق الملك العادل النسوة، وأمر بإدخال علمه إلى البلد.

فلما حصلت النسوة بالبلد ودخل عَلَمُ الملك العادل أمر قطب الدين بكسر العلم، وغُلِّق على الباب واستعد للحصار، وأرسل إلى الملك العادل يقول له: غدرة بغدرة والبادي أظلم، فجدَّ الملك العادل

---

(١) تاريخ ابن خلدون (٥/ ٥٩٣) تاريخ الأيوبيين ص٢٤٩.
(٢) مفرج الكروب (٣/ ١٨٣) العلاقات الدولية (١/ ٢٧٨).
(٣) العلاقات الدولية (١/ ٢٧٨).
(٤) مفرج الكروب (٣/ ١٩٠، ١٩١).
(٥) زبدة حلب (٢/ ٦٣٠).
(٦) مفرج الكروب (٣/ ١٩٢) العلاقات الدولية (١/ ٢٧٩).
(٧) العلاقات الدولية (١/ ٢٧٨).
(٨) مفرج الكروب (٣/ ١٩٣).

في مضايقة البلد ومحاصرته، واصطلى أهلُ سنجار الحرب بأنفسهم وصبروا أحسن صبر، وأمر الملك العادل بقطع ما على البلد من البساتين والجواسيق، ونصب على البلد عدة مجانيق، وأخذ قطب الدين في مكاتبة الملوك والاستنجاد بالخليفة الناصر لدين الله، وكان نور الدين صاحب الموصل قد عزم على تسيير عسكر نجدة للملك العادل مع ولده الملك الظاهر عز الدين مسعود[(١)]، لتنفيذ الاتفاق المسبق بينهما، وإذ برسول مظفَّر الدين كوكبوري صاحب إربل، الذي كانت له وجهة نظر أخرى، فقد شعر بأن العادل قوّة كُبرى في مجاورتها خطر شديد عليه وعلى الموصل، فأنفذ رسوله إلى صاحب الموصل، وشرح وجهة نظره، وعرض عليه التحالف لإنقاذ سنجار، التي ستكون حاجزًا أمام أطماع العادل بممالكهم هُنا، وخاف نور الدين مغبة ما بعد سيطرة العادل على سنجار، فوافق على طلب مظفر الدين كوكبوري وراسلا الظاهر في حلب فوافق وانضم إليهم[(٢)]، ونقض ما كان بينه وبين العادل، وكانت للملك الظاهر في عمل ماردين ضيعة يقال لها: القرادي أعطاه إياها صاحب ماردين لما أصلح بينه وبين الملك العادل، فصارت في يد الملك الظاهر يستغلها.

فلما كانت هذه السنة والملك العادل على سنجار أقطعها الملك العادل للملك الصالح محمود الأرتقي صاحب آمد، فجعل الملك الظاهر ذلك حجة في نقض ما بينه وبين الملك العادل، وأحضر فقهاء حلب عنده، وقال: ما تقولون في رجل حلف لرجل يمينًا على أشياء فخان أحد الرجلين في بعض تلك الأشياء، أينحل عقد تلك اليمين ويبطل حكمها؟ فأظهر لهم صورة الحال، فأفتوه بأن اليمين قد بطلت، ولا يلزمه إذا نقض ما بينه وبينه حنث، وأجابهما سلطان سلاجقة الروم وأخوه إلى ذلك[(٣)]، وكان الملك الظاهر لديه شك دائم بنوايا عمّه خاصة بعد ما فعله بأخويه الأفضل والعزيز، وراسل الحلفاء الخليفة ليشفع لدى العادل بصاحب سنجار، وما ذلك إلا لزيادة الضغط على العادل، وعزله سياسيًا[(٤)] وأرسل مظفر الدين إلى العادل يشفع في صاحب سنجار، فلم يقبل، وقال: لا يجوز لي في الشرع تمكين هؤلاء من أخذ أموال بيت المال في الفساد وترك خدمة الأجناد وفي مصلحة الجهاد[(٥)]، فكانت حُجته هي المصلحة العامة التي لا يراعيها صاحب سنجار وفساده وإتلافه للأموال العامة، كما اتّهمه بالتقصير بحقِّ الجيش، وبواجب الجهاد، إنَّها تهمة كبيرة وحُجَّة مسوغة في ذلك الزمان، وكان ردُّ مظفر الدين أن أفسد جماعة من عسكر العادل[(٦)]، بأن استمالهم بالأموال والوعود والإقطاعات، ففسدت نيّاتهم عن مناصحة العادل بالقتال معه، وهذه طريقة للتعامل كانت شائعة جدًا، فمعظم الجند جاهز للاتفاق مع من يدفع أكثر[(٧)].

---

(١) المصدر نفسه (٣/ ١٩٣، ١٩٤).
(٢) العلاقات الدولية (١/ ٢٨٠).
(٣) مفرج الكروب (٣/ ١٩٥).
(٤) العلاقات الدولية (١/ ٢٨٠).
(٥) المصدر نفسه (١/ ٢٨٠).
(٦) زبدة حلب (٢/ ٦٣٠).
(٧) العلاقات الدولية (١/ ٢٨١).

واستمر حصار العادل لسنجار حتى عام (٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م) فطلب صاحبها قطب الدِّين مساعدة ابن عمِّه نور الدِّين بعساكرها نحوه[١]، كذلك خرج الظاهر في حلب بقوّاته وأرسل للعادل يشفع بصاحب سنجار وقال لرسوليه: إن لم يقبل الشفاعة، فاعلما أني خارج إلى بلاده، وأن يأمرا عسكر حلب أن يفارقوه إلى الموصل، أو إلى حلب[٢]، وأرسل يُغري المجاهد صاحب حمص والمنصور صاحب حماة بالعادل، فكانت الضربة القاسمة لوحدة البيت الأيوبي واجتماعه في القتال على سنجار، فتخاذل قوَّاد العادل على القتال، وتآمر ملوك الأيوبية الذين معه، لا سيما المجاهد الذي كان يُدْخِل من جانبه الأقوَات إلى سنجار[٣]، وغالبًا فقد كانت للمُجاهد دوافعه الخاصّة ضدَّ العادل، ولم يتصرَّف بذلك من أجل الأتابكة، أو بتحريض الظاهر له[٤].

وفي هذه الأثناء أرسل الخليفة الناصر رسوله أبو نصر هبة الله بن المبارك بن الضّحاك وهو أستاذ داره، والأمير أقباش وهو من خواص مماليك الخليفة، للشفاعة بصاحب سنجار، وترك حصارها[٥]، فلاحت فرصة الخلاص من هذا المأزق للعادل، فأظهر قبول وساطة الخليفة ووافق شريطة احتفاظه بنصيبين والخابور[٦].

(ك) وقفة مع تحركات الحلفاء ضد العادل في حصار سنجار: إن قبول العادل لوساطة الخليفة ما هو إلا مخرج حفظ به ماء وجهه، فقد أيقن بفشل الحصار وتأكد من تخاذل بني أيوب من حوله، وأن الأمور تكاد أن تنقلب عليه، فكانت وساطة الخليفة إنقاذًا له بالدرجة الأولى، ونستنتج من كل ذلك أن البيت الأتابكي (الزنكي) بعلاقاته السياسية والعسكرية لم يكن مُكافئًا للبيت الأيوبي، لا من حيث القوة والتأثير، ولا من حيث وحدة البيت الأتابكي، فلم يكن لهم وزن إقليمي مؤثِّر قادر على إحداث تغيُّرات جذرية في شمال العراق والجزيرة، حتى في حال استغلالهم خلافات البيت الأيوبي، ونجد -على الدوام- أن مُعظم أمراء الأتابكة يخضعون لسلطان الأيوبية ويدعمونهم بالنجدات ويخطبون لهم وينقشون اسمهم على السّكة في بلادهم في معظم هذه المرحلة من الزمن، إلا أن عهد التفوق الأيوبي الكامل، والانفراد بالزعامة قد تم بوفاة نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل عام (٦٠٧هـ/ ١٢١٠م) واقتسام طفليه الصغيرين مملكته[٧]، وبدء وصاية بدر الدِّين لؤلؤ مملوك أرسلان شاه[٨] على الموصل، وبأبسط الطُّرُق زالت عقبة كَأْدَاء من أمام الملك العادل، وتحقَّق له الاطمئنان والراحة على حدوده الشَّرقيَّة[٩].

---

(١) مفرج الكروب، ابن واصل (٣/ ١٩٦).
(٢) المصدر نفسه (٣/ ١٩٦).
(٣) مملكة حمص الأيوبية، منذر الحايك ص١٦٧ .
(٤) الموسوعة الشاملة (١٤/ ٣٥٥).
(٥) مفرج الكروب (٣/ ١٩٧) العلاقات الدولية (١/ ٢٨١).
(٦) المصدر نفسه .
(٧) العلاقات الدولية (١/ ٢٨٣).
(٨) المصدر نفسه (١/ ٢٨٣).
(٩) المصدر نفسه (١/ ٢٨٣)، الأيوبيون في شمال الشام للتكريني ص١٥٢ .

(ل) وفاة نور الدين صاحب الموصل: في سنة (٦٠٧هـ) تُوفي نور الدين أرسلان بن مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل في آخر رجب، وكان مرضه قد طال ومزاجه قد فسد، وكانت مدة ملكه بالموصل سبع عشر سنة وأحد عشر شهرًا(١). كان رحمه الله أسمر خفيف اللحية والعارضين جدًّا، مليح الوجه، قد أسرع إليه الشيب، وكان شهمًا شجاعًا عادلًا، ذا سياسة للرعية، شديدًا على أصحابه يمنع بعضهم أن يتعدى على بعض، وكانوا يخافونه خوفًا شديدًا، فلا يجسرون بسبب الخوف منه على الظلم والتعدي، وكانت همته عالية، أعاد ناموس البيت الأتابكي ووجاهته وحرمته بعد أن كان قد ذهب، وخافته الملوك، وكان سريع الحركة في طلب الملك، إلا أنه لم يكن له صبر، فلهذا لم يتسع ملكه.

ومن محاسن ما يُنقل عنه أنه لما توجه من الموصل في نجدة صاحب ماردين حين كان الملك الكامل قد ملك رَبضَها وكاد يستولي على قلعتها وضرب المصاف مع الملك الكامل وكسره كسرة قبيحة، وسافر الملك الكامل إلى حرَّان، ولم يبق من عسكره بالمكان أحد، قال أصحاب نور الدين له: اصعد بعسكرك إلى رَبَض ماردين فما دونه مانع، واملكه، واملك القلعة، ويكون هذا موضع المثل السائر: رب ساعٍ لقاعد. فقال حاشا لله أن يتحدث الناس أن ناسًا اعتقدوا بي واستنفروا بي أغدر بهم، ثم قالَ لمجد الدين بن الأثير -وكان من أكبر أصحابه-: ما تقول يا مجد الدين؟ فقال: الغادرون كثير، وقد أوعت غدراتهم الكتب، وهي باقية إلى الآن، ولم يؤرخ عن أحد أنه قدر على مثل ماردين وتركها وفاء وإنعامًا وإحسانًا.

وقال لمجد الدين: أرسل إلى صاحب ماردين ليرسل نوابه إلى ولاياته، وكان قد أقطعها للعساكر التي معه، وأمر بكفِّ أيديهم عنها، وتسليمها إلى صاحبها، فقال مجد الدين: إن أصحابنا لم يأخذوا درهمًا واحدًا لتأخر إدراك الغلات، فلو بقي الإقطاع في أيديهم إلى أن يأخذوا ما ينفقون عليهم في بيكارهم(٢). فقال رحمه الله: لا نكدر إنعامنا وإحساننا إليهم، ونحن نكفي أصحابنا.

قال مجد الدين: ما قلت له عن شيء قط من عدل وبذل مال وغير ذلك من الصلاح، فقال لا، وكنت معه في بعض أسفاره وله سرادار، قد سَرقَ ولده من داره قماشًا، وكانت مفاتيح الدارِ مع السرادار، فأرسل إليَّ ليلًا فأمرني أن أكتب كتابًا إلى الموصل بقطع يده، فأعدت الجواب: أنني ما أكتب هذا الكتاب الليلة، وإذا اجتمعت به غدًا عرفته في هذا، فأعاد مرة ثانية وثالثة وأنا امتنع، فاستدعاني وقال لي: لِمَ لا تكتب الكتاب؟ فقلت له: عادتي معكم أنني لا أكتب إلا ما تجيزه الشريعة، فقال لي: هذا سارق، توجب الشريعة المطهرة قطع يده، قلت: لا قطع عليه؛ لأنه سرق من غير حرز، ولأن المفاتيح بيده(٣).

---

(١) مفرج الكروب (٣/ ٢٠٣).
(٢) بيكارهم: في الحرب (٣/ ٢٠٤).
(٣) مفرج الكروب (٣/ ٢٠٥).

٦- العلاقات الأيوبية -السلجوقية في عهد العادل: عندما كان السُّلطان صلاح الدين يُوحِّد مصر والشَّام ويُركِّز اهتمامه على محاربة الفرنج وتحرير الأرض، كان سلطان سلاجقة الروم في الأناضول؛ قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان[١] يوزع مملكته على بنيه العشرة: فقوي كل منهم في ثغره، واستقل بأمره، ودبَّ في طبعه حُبّ الاستيلاء والاستبداد، ومدّ عينيه إلى ما في يد صاحبه من البلاد[٢]، وكان أكبر هؤلاء الأنباء قطب الدين ملكشاه وهو صاحب سواس، فهاجم قونية عاصمة أبيه وقتل أمره، وأبقاه معه كالمعتقل، واستكتبه أنّه ولي عهده، والقائم بالسلطنة معه ومن بعده، وذهب لحصار أخيه سلطان شاه في قيسارية، فتمكَّن الأب من الفرار إلى غياث الدين كيخسرو صاحب يرغلو، فجمع له وحشد، وسار معه إلى قونية، فدخلها، ثم مات، فتولى غياث الدِّين فيها[٣].

ويبدو أن أبناء البيت السلجوقي -أثناء صراعهم- قد طلبوا تدخل السلطان صلاح الدين، فأرسل قاضي العسكر ابن الفرَّاش يتوسط بين السلطان قلج أرسلان وأولاده، فتردد، يُسفر بينهم سنة[٤]، وبعد وفاة صلاح الدين، كان يلوح في أفق الشام أن ابنه الظاهر غازي صاحب حلب سيشكل أكبر قوَّة أيوبية شمالية، وفي عهده تطابقت السياستان الحلبية والسلجوقية، وغلب على علاقتهما التحالف والتعاون، وعندما هدَّد ليون ملك الأرمن أمن مملكة السلاجقة بقوته العسكرية وحصونه المنيعة، والأهم من ذلك تمكُّنه من فتح ميناء بحري على المتوسط لاستقطاب التجارة العالمية[٥]، وقدم الظّاهر غازي نجدة عسكرية قويّة فيها عدد من كبار أمراء حلب دعمت الجيش السلجوقي في هجومه على مملكة الأرمن[٦]، وإزاء هذا التحالف سارع ليون ملك الأرمن -الذي لم يكن غريبًا عن معرفة توزع القوى السياسية في المنطقة وتناقصاتها- فاتَّصل بالملك العادل صاحب القُوَّة الأيوبية الأكبر، فوجد العادل بهذا الطلب إقرار بقوَّته وبفاعليَّتها على مختلف الساحات فأجابه، وراسل كخسرو الذي لبّى طلب العادل وعقد صلح مع ليون بشروط يستفيد منها كل الأطراف[٧].

وفي عام (٦٠٨هـ/ ١٢١١م) قُتل غياث الدين كخسرو في معركة الآشهر ضد تيودور لاسكاريس إمبراطور نيقية[٨]، فتنازع ولداه عز الدين كيكاوس وعلاء الدين كيقباذ فيمن يخلفه، فاستنجد الأول بالعادل، لمساعدته ضد أخيه وضد عمه طغرل شاه الذي دخل في غمرة الصراع على العرش، وقد هاجم هذا الأخير أملاك عز الدين كيكاوس في سيواس، ورحَّب العادل

---

(١) الكامل في التاريخ (٩/ ٥٥٣) العلاقات الدولية (١/ ٤١٠).
(٢) الموسوعة الشاملة (١٣/ ٤٢٦) العلاقات الدولية (١/ ٤١٠).
(٣) العلاقات الدولية (١/ ٤١٠).
(٤) المصدر نفسه (١/ ٤١٠).
(٥) هو ميناء إياس على البحر المتوسط.
(٦) مفرج الكروب (٣/ ١٨٧) العلاقات الدولية (١/ ٤١٠).
(٧) العلاقات الدولية (١/ ٤١١).
(٨) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص٢٥٤ .

طلب المساعدة، ولما اقترب من حدود سيواس، خشي طغرل شاه، واضطر إلى فك الحصار عن المدينة[١]، بعد أن استقر عز الدين كيكاوس في الحكم حاول التوسع في منطقة كيلكية، فاصطدم بليون الثاني صاحب أرمينية الصغرى وحتى يقوّي موقفه جدَّد الحلف السابق، وإذ لا زالت أسباب التحالف مع الأيوبيين قائمة عرض الظاهر غازي القيام بعمل مشترك ضد ليون الثاني، وانتزاع أنطاكية منه، وكان هذا قد نجح في الاستيلاء على أنطاكية في عام (٦١٣هـ/ ١٢١٦م) ونصَّب ريموند روبين، حفيد بوهيموند الثالث أميرًا عليها، واتصل ببوهيموند الرابع صاحب طرابلس لتقديم يد العون على أن يأخذ أنطاكية[٢]، واتفق الحلفاء على أن يدخل عز الدين كيكاوس إلى بلاد الأرمن من ناحية مرعش، ويدخل الظاهر غازي من جهة درساك، أما بوهيموند الرابع فيهاجم أنطاكية ومعه قوات من دمشق وحماة وحمص لإغلاق الممرات الجبلية على قواته[٣].

أخذ الظاهر غازي يستعد للحملة وأرسل في الوقت نفسه رسالة جوابية إلى عز الدين كيكاوس حملها عبد الرحمن المنجي، فأدى الرسالة وحرّف فيها وزاد فيها شروطًا تضر الملك الظاهر وتوافق عز الدين لعدم كفايته، فسير الملك الظاهر إلى الملك العادل يستثيره في ذلك، فهجّن عليه الملك العادل رأيه، وأشار إليه بأن لا يجتمع إليه أصلًا، وعرّفه ما في ذلك من المفاسد، فوقع الملك الظاهر في حيرة عظيمة، بين أن يغدر بما وعد به عز الدين وبين أن يخالف عمَّه الملك العادل، وترددت الرسل من عز الدين تستحثه على سرعة الحركة، ووصل ابن لاون إلى الملك الظاهر برسالة مضمونها: إلى مملوك السلطان وغرس دولته وقد دخلتُ عليه دخول العرب، وأطلب منه إنقاذي من هذه الورطة، وأكون مملوكه ما عشتُ، وقد حفظت بلاد السلطان غير مرة وخدمته، ومنها أن السلطان لما حاصر دمشق المرة الأولى وبقيت البلاد شاغرة من العساكر، ما شغلتُ قلبه ولا أذيت بلده، بل ساعدته وعاونته بمالي ورجالي[٤]، وكذلك لما حاصر دمشق المرة الثانية، وقد بُذلت لي الأموال كلها لأشغل قلبه ويفتر عن الحصار فلم أفعل، وإن كان الإبرنس قد خدم السلطان، فخدمتي أكثر من خدمته، وسوف يبصر السلطان خدمتي وملازمتي بابه الشريف، وقد أوصيت ابن أختي الذي نصبته بأنطاكية بملازمة خدمته[٥].

وبعث ابن لاون مع هذه الرسالة هدية عظيمة فاخرة، فمال الملك الظاهر إلى قوله، وبقي مترددًا[٦] وأبطأ الظاهر غازي في الخروج من حلب، وأرسل إليه كيكاوس قاضيًا آخر يحثه على

---

(١) مفرج الكروب (٣/ ٢١٧).
(٢) المصدر نفسه (٣/ ٢٣٤) تاريخ الأيوبيين ص٢٥٤ .
(٣) مفرج الكروب (٣/ ٢٣٤).
(٤) مفرج الكروب (٣/ ٢٣٥).
(٥) المصدر نفسه (٣/ ٢٣٥).
(٦) المصدر نفسه (٣/ ٢٣٥).

الإسراع بالخروج، وفي الوقت الذي كان فيه القاضي مجتمعًا به، وصلت إليه أخبار بأن القوات السلجوقية المعسكرة في مرعش أغارت على البلاط وهي من أعمال حلب وقتلت جماعة من الأرمن وأسرت جماعة أخرى، فأدرك عندئذ نصيحة عمه العادل، فانسحب من الحلف وامتنع عن مساعدة السلاجقة(١) وقال للرسول: أول الدية دُرْدي؟(٢) لعجب أنكم تطلبون منا المعاونة وتخربون بلادنا(٣).

واهتم الملك الظاهر بتقوية علاقاته مع عمِّه، وفي سنة (٦١٣هـ) سيّر الملك الظاهر القاضي بهاء الدين بن شداد إلى السلطان الملك العادل، وكان قبل ذلك قد أرسل القاضي نجم الدين بن الحجاج -نائب القاضي بهاء الدين في الحكم بحلب- فوجد من الملك العادل قبولًا عظيمًا، طيَّب قلبَ الملك الظاهر، وبسط أمله، فأنفذ الملك الظاهر القاضي بهاء الدين شاكرًا لإنعامه وطلب منه أمورًا ثلاثة:

أحدها: أن يكون الملك العزيز محمد ولده وليّ عهد أبيه وقائمًا بمُلك حلب وبلادها بعده.

وثانيها: أن يزوّج الملك العزيز ابنة الملك الكامل.

وثالثها: أن يكون صُلح الملك الظاهر وصُلح الملك العادل مع الفرنج واحدًا، وفكسهما(٤) معهم واحدًا(٥).

قال القاضي بهاء الدين رحمه الله: فتوجهت إلى الديار المصرية، فأنهيت إلى السلطان الملك العادل هذه الفصول، فأجاب إلى تولية الملك العزيز عهد أبيه، وإلى الموافقة في الصلح والفكس مع الفرنج، وأما فصل الترويج فقال: هذا لا يتعلق بي، فاجتمع بالملك الكامل وتحدث معه فيه قال: فاجتمعت بالسلطان الملك الكامل وخاطبته فيه، فأجابني إليه وأخذت يده على ذلك(٦).

(أ) محاولة عز الدين كيكاوس التوسع باتجاه حلب: بعد أن أخضع مملكة أرمينية الصغرى، التفت عز الدين كيكاوس للتوسع باتجاه حلب وضمِّ إمارتها إلى أملاكه، وجاءته الفرصة التي طالما انتظرها بوفاة الظاهر غازي في عام (٦١٣هـ/ ١٢١٦م) واعتلاء ابنه العزيز غياث الدين، البالغ من العمر سنتين وبضعة أشهر عرش الإمارة بوصاية والدته ضيفة خاتون بنت العادل وأتابكة شهاب الدين طغرل(٧)، وتحركت رغبة التوسع في نفس عز الدين كيكاوس، وقرر

---

(١) تاريخ الأيوبيين ص٢٥٥ .
(٢) الدردي: هو السم.
(٣) مفرج الكروب (٣/ ٢٣٦).
(٤) فكسهما: نكثهما.
(٥) مفرج الكروب (٣/ ٢٣٧).
(٦) المصدر نفسه (٣/ ٢٣٧).
(٧) المصدر نفسه (٣/ ٢٣٧) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص٢٥٦ .

الاستيلاء على حلب قبل ترسيخ الحكام الجدد أقدامهم في الحكم، مدَّعيًا بأن المدينة كانت يومًا تحت حكم أعمامه[١]، وحتى يحكم الطوق على المدينة استغل عز الدين كيكاوس النزاع الذي نشب آنذاك بين أمراء شمالي الشام لاقتسام تركة عز الدين مسعود صاحب الموصل الذي توفي في عام (٦١٥هـ/١٢١٨م)، وكان قد أوصى بالملك من بعده لابنه الأكبر نور الدين أرسلان شاه الذي لم يكن يتجاوز آنذاك العاشرة من عمره، على أن يقوم بالوصاية عليه بدر الدين لؤلؤ، غير أن عمه عماد الدين طمع بالملك وبخاصة بعد وفاة نور الدين أرسلان شاه المبكرة، واعتلاء أخيه ناصر الدين محمود سدة الحكم في الموصل، فهاجم بعض قلاعه بمساعدة مظفر الدين كوكبوري صاحب إربل، فاستنجد بدر الدين لؤلؤ بالأشرف موسى بن العادل، بينما طلب مظفر الدين كوكبوري مساعدة كل من عز الدين كيكاوس وناصر الدين محمود بن محمد بن قرا أرسلان الأرتقي صاحب آمد وحصن كيفا، وصاحب ماردين، واتفق الجميع على الانضواء تحت راية عز الدين كيكاوس، وخطبوا باسمه في بلادهم تعبيرًا عن هذه التبعية[٢]، وسنحت لصاحب قونية فرصة البدء بالتحرك، فالأشرف موسى كان منهمكًا في محاربة الصليبيين في إمارة طرابلس حيث أغار على حصن صافيتا وحصن الأكراد، وأشار عليه بعض أتباعه بأن يصحب معه أحد ملوك الأيوبيين حتى يسهل انقياد الناس والعسكر فلا يشعروا بالتغيير، فاستدعى الأفضل علي صاحب سميساط، وكان في طاعته ويخطب باسمه، فلما قدم عليه أكرمه وأهداه الكثير من الخيل والسلاح وتحالفا على التعاون والمسير إلى حلب، واتفقا على أن ما يستولي عليه عز الدين كيكاوس من حلب وأعمالها يكون للأفضل علي وهو في طاعته والخطبة له والسكة باسمه، وما يستولى عليه من إقليم الجزيرة مما في يد الأشرف موسى مثل حران والرها وغيرها، يكون لعز الدين كيكاوس[٣]، واستدعى عز الدين كيكاوس أمراء الأطراف وأقام لهم احتفالًا عامًّا سمَّى خلاله لكل أمير بلدة بالشام تكون إقطاعًا له وذلك تشجيعًا لهم[٤]، ثم عقد مجلسًا حربيًّا لاختيار أنجع السبل للتحرك نحو حلب، فتقرَّر سلوك طريق راوندان (رعبان حلب) نظرًا لسهولة طبيعة الأرض[٥].

والواقع أن صاحب قونية، عزم على ضم كافة الأراضي التي سيستولي عليها إلى مملكته، وإنما جعل الأفضل علي ذريعة لتحصيل غرضه على الرغم من أنه كان قد راسل جماعة من أمراء حلب يستميلهم واعدًا إياهم بمنحهم إقطاعات[٦]، وتحرَّك الجيش السلجوقي باتجاه قلعة رعبان واستولى عليها، ومنحها عز الدين كيكاوس إلى صهره نصر الدين صاحب مرعش، بينما ذكر ابن

---

(١) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص٢٥٦ .
(٢) مفرج الكروب (٣/ ٢٦١-٢٦٣).
(٣) الكامل في التاريخ نقلًا عن تاريخ الأيوبيين ص٥٧ .
(٤) تاريخ الأيوبيين ص٢٥٧ .
(٥) المصدر نفسه ص٢٥٧ .
(٦) ابن العديم (٢/ ٦٤٤)، تاريخ الأيوبيين ص٢٥٧ .

الأثير أنه سلَّمها إلى الأفضل علي حسب الاتفاق المبْرم بينهما[(١)]، وتابع الجيش زحفه فوصل إلى تل باشر وحاصرها حتى استسلمت وضمَّها إلى أملاكه ولم يسلمها إلى الأفضل علي، فقلق عندئذ هذا الأخير وفترت همته وقال: هذا أول الغدر، وخشي إن ملك عز الدين كيكاوس مدينة حلب أن يحرمه منها فيكون بذلك قد سعى إلى نقل الحكم من الأيوبيين إلى السلاجقة، لذلك أخذ يسعى لإبعاده عن بلوغ هدفه[(٢)] ، فاقترح عليه أن يهاجم بعض المدن والقلاع مثل منبج وغيرها، قبل مهاجمة حلب حتى يُؤمِّن خطوطه الخلفية وهو بذلك يريد أن يشتّت جهوده ويُضعف قواه[(٣)] ، وحتى يقطع الطريق عليه سار إلى منبج ودخلها سلمًا، وشرع في ترميم سورها استعدادًا لمواجهة محتملة معه[(٤)].

ولما علمت الملكة والأتابك طغرل بمسير السلاجقة اضطربا نظرًا إلى أن القوات الحلبية ضعيفة لا تقوى على مواجهة الجيش السلجوقي القوي، كما خشي الأتابك أن يسلم أهل حلب مدينتهم إلى الأفضل علي لميلهم إليه[(٥)] ، لذلك كتب إلى الأشرف موسى يستدعيه لنجدة ابن أخته العزيز وكان يعسكر على بحيرة قُدس في مقابلة الصليبيين ونصحه بالتعاون مع أخته لمواجهة الخطر السلجوقي؛ لأن السلاجقة سوف لا يقفون عند حلب، ووعده بأن يجعل الخطبة والسكة باسمه، ويعطيه ما يختار من أعمال حلب.

وفي رواية لابن العديم: أن الأتابك أرسل إلى القاضي زين الدين إلى العادل يستصرخه على عز الدين كيكاوس والأفضل علي، فكتب العادل إلى ابنه الأشرف موسى يأمره بأن يرحل إلى حلب مع قواته، وأحلَّ مكانه المجاهد أسد الدين شيركوه الثاني صاحب حمص في مقابلة الصليبيين[(٦)]، جمع الأشرف موسى قواته وسار بهم إلى حلب، وخيَّم بالميدان الأخضر واجتمع مع الأمراء والأعيان واستوثق منهم، ثم تابع طريقه فنزل وادي بزاعة[(٧)]، وانضمَّ إليه الأمير العربي مانع بن حُدَيثة مع قواته وهو من عرب طي[(٨)]، وحارب الحلبيون على جبهتين عسكرية وسياسية، وقاد الجبهة العسكرية الأشرف موسى، بينما قادت الملكة الجبهة السياسية بالدهاء والحيلة، فبذرت بذور الشقاق بين عز الدين كيكاوس وأمرائه[(٩)]، واصطدمت طليعة الجيش السلجوقي بالجيش الأيوبي في رحى معركة انتهت بخسارتها وأسر قادتها، ولما وصل عز الدين كيكاوس إلى ساحة المعركة على رأس الجيش السلجوقي البالغ أربعة عشر ألفًا، هاله انهزام طليعة جيشه، فتردَّد في خوض المعركة وأمر الجيش بالانسحاب وانسحب عز الدين كيكاوس

---

(١) الكامل في التاريخ نقلًا عن تاريخ الأيوبيين ص٢٥٧ .
(٢) تاريخ الأيوبيين ص٢٥٧ .
(٣) المصدر نفسه ص٢٥٧ .
(٤) المصدر نفسه ص٢٥٧ .
(٥) الكامل في التاريخ نقلًا عن تاريخ الأيوبيين ص٢٥٨ .
(٦) زبدة حلب (٢/ ٦٤٤) تاريخ الأيوبيين ص٢٥٨ .
(٧) بزاعة: بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان.
(٨) تاريخ الأيوبيين ص٢٥٨ .
(٩) المصدر نفسه ص٢٥٨ .

إلى البستان وهو يطوي المراحل هاربًا لا يلوي على شيء خائفًا يترقب، وطارد الأشرف موسى قواته المنسحبة يتخطف أطرافها حتى وصل إلى تل باشر فحاصرها واستولى عليها، كما استولى على رعبان، وتل خالد، وبرج الرصاص، ثم عاد إلى حلب(١).

(ب) **وفاة الملك الظاهر صاحب حلب في عام (٦١٣هـ)**: هو سلطان حلب، الملك الظاهر، غياث الدين، أبو منصور، غازي ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، مولده بمصر في سنة ثمان وستين وخمس مائة، وسمع من: أبي الطاهر بن عوف، وعبد الله بن برّي النحويّ والفضل بن البانياسي، تملك حلب ثلاثين سنة وكان بديع الحسن في صباه، مليح الشكل في رجوليَّته، له عقل ودهاء وفكر صائب، كان يصادق الملوك الأطراف ويباطنهم ويُوهمهم أنه لولاه لقصدهم عمه العادل، ويوهم عمّه أنه لولاه لتعامل عليه الملوك، ولشقُّوا العصا، وكان كريمًا معطاءً يتحف الملوك بالهدايا السنيَّة، ويكرم الرُّسُل والشعراء والقُصَّاد، وكان عمُّه يرعَى له بمكان بنته، فماتت، فزوَّجه بأختها والدة ابنه الملك العزيز، فلما ولدت زُيِّنت حلب مدة شهرين، وأنفق على ولادته كرائم الأموال، وكان قد انضمَّ إليه إخوته وأولادهم فزوَّج ذكرانهم بإناثهم، بحيث إنه عقد بينهم في يوم نيفًا وعشرين عقدًا، وعمَّر أسوار حلب أكمل عمارة.

وكان مهيبًا سائسًا، فطنًا، دولته معمورة بالعلماء مزينة بالملوك والأمراء، وكان محسنًا إلى الرعية، وشهد معظم غزوات والده، وكان يزور الصالحين ويتفقدهم، وله ذكاء مفرط، وأوصى في موته بالملك لولده من بنت العادل، وأراد أن يُراعيها أخوتُها، ثم من بعده لأحمد، ثم للمنصور محمد ابن أخيه الملك العزيز، وفوَّض القلعة إلى طغرل الخادم الرومي، توفي سنة ثلاث عشرة وست مائة عن خمس وأربعين سنة، وكان في سكرات موته يفيق ويتشهد ويقول: اللهم بك أستجير(٢)، وفي رواية: واشتد مرضه جدًّا، فذُكر أنه كان يفيق في بعض الأوقات، ويستشهد ويقرأ قوله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩﴾ ثم يقول: اللهم بك أستجير وبرحمتك أثق(٣)، رحمه الله ورثاه شاعره راجح الحليّ فقال:

سل الخطب إن أصغى إلى من يخاطبه ... بمن علقت أنيابه ومخالبه
نشدتُك عاتبه على نائباته ... وإن كان لا يلوي على من يعاتبه
إلى الله أرمي بطرفي ضلالة ... إلى أُفق مجد قد تهاوت كواكبه(٤)

وفي قصيدة أخرى قال:

منع التأسف قلبي المتبولا ... أن يستطيع إلى السُّلو سبيلا

---

(١) تاريخ الأيوبيين ص٢٥٩ .
(٢) سير أعلام النبلاء (٢١/٢٩٧، ٢٩٨).
(٣) مفرج الكروب (٣/ ٢٤٠).
(٤) سير أعلام النبلاء (٣/٢٩٨).

ومنها :

يا دهر قد أسرفت فيما ساءني عمدًا فخفِّف من أذاك قليلا
ألبستني ثوب الأسى وسلبتني عزًّا عدمت له العزاء ذليلا
وضعفتُ من نكبات صرفك بعدما قد كنت جلدًا للخطوب حَمُولا
غازي بن يوسف لا وحقِّك ما خبت نازي ولا نقع البكاء غليلا
أبقيت لي من بعد فقدك أنَّة تفري الضلوع ورنة وعويلا
ما لي أرى الإيوان أصبح بابه قفرًا وكان جنابه مأهولا
فإن اكتسى ذُلًّا فكم قد ذُلِّلتْ للسائلين قطوفه تذليلا[(١)]

٧- العلاقات بين الخوارزميين والأيوبيين: كانت بداية العلاقات السياسية بين الدولتين الخوارزمية والأيوبية بدأت في سنة (٦١٥هـ/ ١٢١٨م) قبل وفاة العادل، ففي هذه السنة وصل رسول خوارزم شاه علاء الدين محمد إلى الملك العادل وهو بمرج الصفر، ولم تذكر المصادر عن الغاية التي قدم بها هذا الرسول، ومن الراجح أن تكون غايته إقامة علاقة ودية بين الجانبين؛ لأن الملك العادل بعث بالجواب إلى خوارزم شاه، فأوفد إليه جمال الدين محمد الدولعي الشافعي خطيب جامع دمشق، ونجم الدين خليل بن علي الحنفي قاضي العسكر[(٢)] ، وكان خوارزم شاه آنذاك في همذان، وعندما وصل الرسولان إليهما لم يلتقيا به بسبب مغادرته المدينة إلى بخارى لمجابهة الخطا والمغول، ومع هذا فإنهما اجتمعا بولده جلال الدين الذي أبلغهما بوفاة الملك العادل فرجعا إلى دمشق دون أن تتحقق مهمة لقائهما بخوارزم شاه علاء الدين محمد[(٣)] ، وهكذا شاءت الظروف أن يموت الملك العادل في سنة (٦١٥هـ/ ١٢١٨م) فشغل خوارزم شاه بمشاكله وفي مقدمتها الغزو المغولي، وكان لذلك أثره في عدم تطور العلاقات بين الخوارزميين والأيوبيين في عهد خوازم شاه علاء الدين محمد[(٤)].

٨- العلاقات بين السّلطنة الأيوبية والفرقة الإسماعيلية: اقتصرت العلاقات الأيوبية الإسماعيلية على علاقة الأيوبيين بإسماعيلية الشام فقط، ولم يكن لهم أي صلة بإسماعيلية فارس، وكان زعيم الإسماعيلية في الشام -أو كما يسمونه صاحب الدعوة عندما أسَّس صلاح الدين الدولة الأيوبية- هو راشد الدين سِنان بن سلمان، وكان أصله من حصن الإسماعيلية الرئيسي في الموت بفارس، فرأى منه صاحب الأمر هُناك نجابة وشهامة وتدبيرًا، فسيره إلى حصون الشام، فوصلها، وجَدَّ في إقامة الدعوة واستجلاب القلوب أيام السُّلطان، وعزم نور الدين على قصده، لكنه توفي قبل ذلك، وفي عهد صلاح الدين حاولوا اغتياله عدَّة مرَّات ولذلك

(١) مفرج الكروب (٣/ ٢٤٦، ٢٤٧).
(٢) الدولة الخوارزمية، د/ نافع العبود ص١٤٦ .
(٣) المصدر نفسه ص١٤٧ .
(٤) المصدر نفسه ص١٤٧ .

جعلهم همَّه الأول، وتوجَّه نحو أكبر قلاعهم ومقر قيادتهم في مصياف، وألقى الحصار عليهم عام (٥٧٢هـ)، وكله عزم على استئصال شأفتهم من الشام، فشعر الإسماعيليَّة أنهم أمام خطر حقيقي لم يمكن مواجهته بالاغتيال، ولن يمكن لقلاعهم الصمود أمام قوّاته، مما اضطرهم لأن يعقدوا اتفاقًا مع صلاح الدين بواسطة خاله شهاب الدين الحارمي، وبعد ذلك الاتفاق لم نعد نسمع عن اغتيال، أو حتى محاولة الاغتيال لأي أمير أو قائد أيوبي من قِبل الإسماعيلية منذ عام (٥٧٢هـ/ ١١٧٧م) وحتى نهاية الدولة الأيوبية.

وبالمقابل لم تجرِّد أيُّ حملة أيوبية ضدَّ معاقل الإسماعيلية، بل على العكس دعمت الممالك الأيوبية هذه المواقع كلما تعرَّضت إلى هجوم الفرنجة وعبَّر الإسماعيلية عن تحالفهم للأسرة الأيوبية بعد صلاح الدين، وذلك عندما تدخلت خناجرهم لتُنهي حياة بكتمر صاحب خلاط الذي أقام تحالفًا معاديًا للأيوبيين مع صاحب آمد ومع أتابكة الموصل وسنجار، وساهم ذلك التدخل في إنهاء أخطر تحالف واجه الأسرة الأيوبية في الجزيرة بعد صلاح الدين[(١)].

٩- **العلاقات مع الخلافة العباسية**: ويبدو أن تقليد الخلفاء دخول الفرنج إليها؛ يعني تنصيبهم وُلاة حرب وقادة مجاهدين ضدَّ الغزاة الفرنج، وربما لم يكن يُوجد ما ينص على ذلك لكنه الشائع والمتعارف عليه في ذلك الوقت، فعندما توفي السلطان صلاح الدين عام (٥٨٩هـ/ ١١٩٣م) قام ابنه وخليفته الملك الأفضل بتسيير رسول إلى الخليفة في بغداد يحمل له لامة الحرب التي لصلاح الدين وفرسه وستة وثلاثين درهمًا، لم يخلف من المال سواها[(٢)]، إنها رسالة واضحة، فصلاح الدين أُعيد إلى الخليفة بعد انتهاء مهمَّته الجهادية وما خلَّفه من مال، أُعيد -أيضًا- كرمز لولايته الإدارية على البلاد[(٣)]، وكان الخلفاء العباسيون غالبًا ما يحُاولون استمالة الملوك والأمراء الأيوبيون بالهدايا وغيرها[(٤)]، وكان ملوك بني أيوب يقومون بكل واجباتهم المعنوية تجاه منصب الخليفة، فعندما تُوفي علي ابن الخليفة الناصر عام (٦١٢هـ/ ١٢١٥م) أرسل الخليفة يُعلم ملوك بني أيوب، وكان الخليفة يحب ابنه المتوفى أبي الحسن علي حبًا شديدًا وقد رشحه لولاية العهد من بعده.

وكان رحمه الله كثير الصدقة، كريمًا، كثير المعروف، حسن السيرة، محبوبًا عند الخواص والعوام، وكان مرضه الإسهال، فحزن عليه الخليفة حزنًا لم يسمع بمثله[(٥)]، ولما توفي أخرج نهارًا ومشى جميع الناس بين يدي تابوته إلى تربة جدته الخيزران وهي عند قبر معروف الكرخي، فدفن هناك وأغلقت الأبواب وسمع الناس الصراخ العظيم، ويقال: إن ذلك كان صوت

---

(١) العلاقات الدولية (١/ ٣٤٣).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٣٠٣).
(٣) العلاقات الدولية (١/ ٣٠٦).
(٤) المصدر نفسه (١/ ٣٠٦).
(٥) المصدر نفسه (١/ ٣٠٦).

الخليفة، ودامت عليه المناحات في أقطار بغداد ليلًا ونهارًا أيامًا، فلم يبق في بغداد محلة إلا وفيها النوح ولم تبق امرأة إلا وأظهرت الحزن الشديد، ولم يُسمع ببغداد مثل ذلك في قديم الزمان ولا حديثه[(١)]، ولما سمعت الملوك بموته جلسوا في العزاء لابسين شعار الحزن خدمة للخليفة، ورثته الشعراء، فأكثروا؛ فممن رثاه شرف الدين الحلي عندما عمل الملك الظاهر غازي -صاحب حلب- عزاءه بقصيدة مطلعها:

أَكَذَا يُهدُّ النيراتُ وَينطفي ... ويردُّ بالنكبات شاردة الورى؟
أكذا تغيبُ النيِّراتُ وَيَنطَفي ... ما كان من أنوارها متوقِّدا؟

إلى أن قال:

لو كنت بالشهباء يوم تواترت ... أنباؤها لرأيتَ يومًا أسودا
يومًا تزاحمت الملائكة العُلَا ... فيه فعزَّ عن عليّ أحمدا
قصدت أمير المؤمنين رزيةٌ ... عادتْ وقع سِهامِها أن تقصد
هي ضعفت شُمَّ الجبال وأخضعت ... من لم يكن لمذلةٍ متعوِّدا
شنَّت على حرم الخليفة غارة ... شعواءَ غادرت الفخار معرَّدا
فسقى أبا حَسَنٍ ثراك ضائعٌ ... لك ليس تَبْرَحُ غاديات عُوَّدَا[(٢)]

ورثاه القاضي كمال الدين بن النبيه المصري لما عمل الملك الأشرف ابن الملك العادل عزاءه بقصيدة مطلعها:

الناس للموت كخيل الطراد ... فالسابقُ السابق منها الجواد
والله لا يدعو إلى داره ... إلا من استصلح من ذا العباد
والموت نقّاد على كَفِّهِ ... جواهر يختار منها الجياد
والمرء كالظِّل ولا بد أن ... يزول ذاك الظلُّ بعد امتداد
لا تَصلُح الأرواح إلا إذا ... سرى إلى الأجساد هذا الفساد

ومنها:

خليفة الله اصطبر واحتسب ... فما وهي البيت وأنت العماد
بالحلم والعلم بكم يُقتدى ... إذا دجا الخطبُ وضَلَّ الرَّشاد[(٣)]

وما فعله الخليفة العباسي من الحزن على ابنه بالصورة التي ذكرنها يتنافى مع الإسلام من إدامة المناحات في أقطار بغداد ليلًا ونهارًا أيامًا إلا وأظهرت الحزن الشديد ولم يسمع ببغداد

---

(١) مفرج الكروب (٣/ ٢٣٠).
(٢) مفرج الكروب (٣/ ٢٣٠).
(٣) المصدر نفسه (٣/ ٢٣٢).

مثل ذلك في قديم الزمان ولا حديثه، فمن آداب الإسلام في المصائب الصبر عليها لقوله ﷺ: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»(١). واحتساب المصيبة والصبر عليها؛ فينبغي أن يلتمس الأجر من الله تعالى من هذا الصبر، فيصبر ابتغاء موعود الله من الأجر والثواب ويصبر؛ لأنه أمره بالصبر، فقال عز وجل: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، ويتذكر إن فقد عزيزًا لديه قول النبي ﷺ فيما يرويه عن رب العزة: «ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيّه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة»(٢).

ومن الآداب أيضًا: الاسترجاع ودعاء المصيبة، فيقول المرء عند نزول المصيبة: «إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خير منها»، فقد قال الله عز وجل: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]، وقال ﷺ: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرًا منها إلا أخلف الله له خيرًا منها»(٣). قالت أم سلمة: فلما مات أبو سلمة قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ، ثم إني قلتها، فأخلف الله لي رسول الله(٤). وكذلك اجتناب كل ما يغضب الله من جنس الجهر بالسوء من القول، واللطم، وشق الجيوب، وحلق الشعور، والنياحة والشكوى إلى الناس، والدعاء بالموت والويل والثبور وغير ذلك، فهذا كله يغضب الله تعالى، وينافي الصبر على المصائب والرضا بها(٥)، ومن ذلك تذكر القضاء السابق، فإن المسلم متى ما أيقن أن هذه المصائب مكتوبة ومقدرة، ومتى ما استحضر في ذهنه أن كل ما قدره الله فهو لا بد كائن واقع لا محيد عنه، وأن لله تعالى حكمة في تقدير هذه المصائب -هانت عليه المصائب، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣]. هذا تعليق على موقف الخليفة العباسي الناصر من وفاة ابنه.

وكان ملوك بني أيوب يقومون بكُل واجباتهم المعنوية تجاه منصب الخليفة، وكان ملوك بني أيوب يُجدِّدون الولاء للخُلفاء العباسيين عبر أداء قسم الولاء أو ما كان يعرف بالتحليف(٦)، ولم تنقطع الرُّسل بين ملوك بني أيوب وبين ديوان الخلافة، فكان يندر أن يخلو عام من رُسُل تتردَّد برسائل وغيرها منذ أيَّام الملك العادل، فقد أرسل العادل إلى الخليفة الناصر عام (٦١٤هـ/

(١) البخاري رقم (١٢٨٣).
(٢) البخاري رقم (٦٤٢٤).
(٣) مسلم رقم (٩١٨).
(٤) المصدر نفسه رقم (٩١٨).
(٥) موسوعة الآداب الإسلامية (٢/ ٧٨٨).
(٦) العلاقات الدولية (١/ ٣٠٧).

١٢١٧م) وعاد جوابها مع الشيخ صدر الدين بن حموية[١] ، وكان رسول الخليفة في ذهابه وإيابه في أداء مهمته يقابل الملوك الواقعين على طريقه، فعندما مرَّ شهاب الدين السهروردي رسول الخليفة الناصر بحلب عام (٦٠١هـ/ ١٢٠٥م) يحمل التشريفات للملك العادل استُقبل فيها استقبالًا عظيمًا، وجلس في مسجدها الجامع للوعظ، وحضر مجلسه كبار رجال حلب[٢] ، ولا بد أن الاستقبال نفسه كان له في حماة وحمص[٣].

ولم تكن سفارات الخليفة إلى بني أيوب لأمور تتعلق بالخلافة ودولتها فقط، بل كان قسم كبير من هذه السفارات يتعلق بأمور داخل البيت الأيوبي أو يتعلق بأمور بين الأيوبيين وملوك آخرين، فعندما كان الملك العادل يُحاصر سنجار عام (٦٠٦هـ/ ١٢١٠م) قدم هبة الله بن المبارك بن الضحاك رسولًا من الخليفة الناصر يطلب منه ترك حصار سنجار، ويشفع في صاحبها[٤]، فوافق العادل وانسحب، وفي الحقيقة كانت استجابته لطلب الخليفة تغطية لانسحابه من حصار فاشل[٥] ، ومع انقسام دولة الخلافة العبّاسية الفعلي وسيطرة ملوك وأمراء وقادة وزعماء وشيوخ وغيرهم على مناطق مُتعددة من جسم الدولة، منها ما كان يشكل دول كبيرة جدًّا، ومنها إمارات صغيرة، وأحيانًا قلعة أو بلدة لها حاكمها الخاص، وهو يتصرَّف بكل الشُّئون السياسية والعسكرية والداخلية باستقلالية تامة، ومع كل هذا الانقسام بقيت هناك سلطة اسمية للخليفة على كل الدولة والدويلات المستقلة، انطلاقًا من أن الخلافة هي منصب ديني، والخليفة هو إمام المسلمين ومرجعهم الأعلى دينيًّا وسياسيًّا؛ لأن البلاد بكاملها كانت لدولة الخلافة، وكل سيطرة على أيّ منطقة منها ليست شرعية، وصاحبها لا يملك الحق الشرعي في الحكم، لذلك كان كل منهم مُضطرًّا -بشكل أو بآخر- أن يُقرَّ سلطة اسمية للخليفة في بلاده، وكان خلفاء بني العبّاس المتأخرون يرضون بهذه السيطرة الاسمية التي لا تتعدَّى ذكر اسمهم في خطبة الجمعة على منابر المساجد؛ بحيث يسبقه اسم الملك المحلي، ونقش اسمهم على العملة التي يسكّها هذا الملك أو ذاك، ضمن أراضي البلاد، التي كانت -فيما مضى- تُسمَّى أراضي الخلافة العبَّاسية وكان هناك شكل رسمي بُروتُوكُولي لموافقة الخليفة التي كانت مضمونة دائمًا على أن يشمل بشرعية حكم الملوك المتنفذين في أطراف الدولة[٦].

(أ) التقليد: ويعني التولية، وهي من قلَّدتُهُ أمر كذا؛ أي وليتُهُ عليه، فالتقليد هو مرسوم سياسي يصدر من ديوان الخلافة لتكليف شخص ما بالحكم في بلد، أو بلاد مُعينة، وقد حرص الملوك الأيوبيون حرصًا كبيرًا على أن يتولَّى كُلٌّ منهم عمله بمباركة شريفة من الخليفة تتجلى

---

(١) السلوك للمقريزي (١/ ٣٠٨).
(٢) مفرج الكروب (٣/ ١٨٠).
(٣) النظم الدبلوماسية ص٥٩، صلاح الدين المنجد.
(٤) السلوك للمقريزي (١/ ٢٨٩).
(٥) العلاقات الدولية (١/ ٣٠٩).
(٦) العلاقات الدولية (١/ ٣١٣).

بمنحه التقليد، ففي عام (٦٠٤هـ) عندما سيطر العادل على مملكة مصر وعلى دمشق والبلاد الجزرية أرسل أستاذه داره الدكز العادلي والقاضي خليل بن المصمودي قاضي العسكر إلى الخليفة في بغداد لطلب التقليد على مصر والشام والجزيرة فأُكرما، وأُجيبا[١]، وزيادة في التكريم أرسل الخليفة معهما الشيخ شهاب الدين السهروردي ونور الدين التركي الخليفتي[٢]، يحملان من الخليفة إلى العادل تقليدًا بالبلاد التي تحت حكمه[٣]، وقرأ صفي الدين بن شكر وزير العادل التَّقليد الذي أرسله الخليفة على كرسي نُصب له[٤]، مما يوضح لنا بأن التقليد هو مرسوم سياسي إداري ديني يصدره الخليفة بتولية جُزء من أراضي الخلافة إلى شخص يذكر اسمه في التقليد مقرونًا بصفات التقدير والتعظيم[٥].

(ب) **التشريف**: أو خلعة التشريف، وهو جُبَّة أو عباءة بلون أسود، لذلك قد يُسمى التشريف الأسود[٦]، والسواد هو شعار بني العبّاس[٧]، وتكون خلعة التشريف مُذهَّبة عادة، وتسمَّى التشريف الإمامي[٨]، فهي تشريف من الإمام؛ أيْ الخليفة العَّباسي للشخص المُرسَل إليه، وكان رسول الخليفة يقوم بوضع التشريف على أكتاف الملك المُرسَل إليه، بعد قراءة التقليد فيلبسه، ويسير به في شوارع بلده أو بين خواصه[٩]، فعندما وصل إلى السلطان النَّاصر صلاح الدين التقليد والتشريف من الخليفة عام (٥٧٦هـ/ ١١٨٠م) ركب الناصر بالتشريف[١٠]، وفي عام (٦٠٤هـ/١٢٠٨م) وصل تشريف من الخليفة النّاصر إلى السُّلطان العادل، وإلى أولاده ووزيره، فركب العادل وولداه ووزيره بالتشريفات إلى ظاهر البلد، ثُمَّ عادوا إلى القلعة[١١].

(ج) **الخلعة**: وهي ما يخلعه الخليفة أو الملك على أحد من الناس وكان خلفاء بني العبّاس كثيرًا ما يهبون الخلع لأتباعهم، وأنواع الخلع التي كانت تُرسل إلى ملوك بني أيوب كانت غالبًا ما ترافق التقليد وتكمل التشريف وهي خلع أصحاب الجيوش وولاة الحروب، فملوك بني أيوب كانوا وُلاة دار الحرب في مواجهة الفرنج منذ أن قامت دولتهم، والخلعة -في كثير من الأحيان- كانت تعني موافقة الخليفة على تقليد الملك في بلاده، وهي عادة تتكون من عمامة سوداء ورداء فضفاض -عباءة- أسود مُبطَّن، مُوشّى بالذهب، وسيف مُحلّى بالفضَّة والذهب، له حمائل مُوشَّاة أيضًا، ثم يأتي الحملان، وهو حصان، سرج مُزيَّن، وكانت هُناك زيادة على هذه الخلع

---

(١) مفرج الكروب (٣/ ١٨٠).
(٢) الموسوعة الشاملة، د/ سهيل زكار (٢١/ ٢٥٦).
(٣) المختصر، أبو الفداء (٣/ ١٠٩) العلاقات الدولية (١/ ٣١٤).
(٤) مفرج الكروب (٣/ ١٨٠).
(٥) العلاقات الدولية (١/ ٣١٤).
(٦) السلوك للمقريزي (١/ ٤٢٥) العلاقات الدولية (١/ ٣١٥).
(٧) رسوم دار الخلافة، الصابئ ص٩٣، العلاقات الدولية (١/ ٣١٥).
(٨) مفرج الكروب (٥/ ٣٥٠) العلاقات الدولية (١/ ٣١٥).
(٩) مفرج الكروب (٣/ ١٨٠) العلاقات الدولية (١/ ٣١٥).
(١٠) الموسوعة الشاملة (٢١/ ٢٥٦) العلاقات الدولية (١/ ٣١٥).
(١١) مفرج الكروب (٣/ ١٨٠) العلاقات الدولية (١/ ٣١٥).

المتعارف عليها تُزاد لأصحاب الفتوح من القُوَّاد وهي طوق وسوارين من الذهب[١]، وهذه الزيادة أُعطيت لقوَّاد دولة الخلافة، ولم تُرسل مع الخلع إلى ملوك بني أيُّوب إلا نادرًا، ففي عام (٥٩٩هـ/ ١٢٠٣م)، أرسل الخليفة الخلعَ إلى الملك العادل وأولاده فلبسوها [٢]، ولم يُذكر أنها تضم الطَّوق والسوارَين.

أمَّا في عام (٦٠٥هـ) فقد وصل إلى بغداد من دمشق قاضي عسكر الشَّام ابن المعمودي[٣]، رسولًا من الملك العادل، وتسلَّم الخلع للعادل وأولاده، وكان في خلعة العادل الطَّوق والسوارات[٤]، وأرسل معهم الخليفة الشيخ شهاب الدِّين السهروردي رسولًا لحمل الخلعة، واهتمَّ العادل كثيرًا بهذا الخلعة، فقد أرسل العسكر للقاء الرسول، فتلقوه في الغسولة[٥]، وخرج العادل وتلقاه في القصير[٦] مع ولديه الأشرف والمعظم، وغُلِّقت الأسواق وخرج الناس كلهم وكان يومًا مشهودًا، ثم جلس العادل بقلعة دمشق ولبس الخلعة، وطوِّق بطوق ذهب ثقيل[٧]. إنه تقدير كبير من الخليفة النَّاصر للملك العادل، واهتمام أكبر من العادل يدل على مستوى أهميَّة تقليده بالخلعة والطَّوق، فقام العادل وأولاده وملوك بني أيوب بإغداق الهدايا والتحف[٨].

---

(١) رسوم دار الخلافة، الصابئ ص٩٣، العلاقات الدولية (١/ ٣١٦).

(٢) الموسوعة الشاملة، د/ سهيل زكَّار (٢٠/ ٦١).

(٣) النجوم الزاهرة (٦/ ٣٤٨) العلاقات الدولية (١/ ٣١٧).

(٤) الموسوعة الشاملة (٢٠/ ١٢٢) العلاقات الدولية (١/ ٣١٧).

(٥) الغسولة: قرية تقع شمال دمشق.

(٦) القصير: قرية على طريق حمص شمال دمشق.

(٧) العلاقات الدولية (١/ ٣١٧).

(٨) العلاقات الدولية (١/ ٣١٧).

المبحث الثالث

الحملة الصليبية الرابعة وسقوط القسطنطينية

دخلت الأسرة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين في نزاع وخلاف وصراع على السلطنة الأيوبية مما أضعف تنفيذ مشروع الدولة النورية ودولة صلاح الدين في تحرير بلاد الشام من الوجود الصليبي، وحاول الصليبيون الاستفادة من الصراع في البيت الأيوبي، وبالمقابل لم تخلُ هذه الفترة من ردود أيوبية على اعتداءات الصليبيين الموجودين في بلاد الشام، أو المجموعات الصليبية التي كانت تزج بهم البابوية إلى ساحات الشرق الإسلامي بهدف إعادة السيطرة الصليبية على بيت المقدس، وإذا كانت هذه الفترة قد شهدت نشاطًا صليبيًّا قادمًا من الغرب الأوربي إلا أنها لم تخلُ من محاولات صليبي الشرق من الاعتداء على مناطق مختلفة في بلاد الشام[١]، وكانت القوى الصليبية رغم الظروف التي مرت بها كانت تطبق جزءًا من استراتيجيتها العامة والتي من خطوطها العريضة:

١- محاولة الصليبيين الدائبة للسيطرة على المواقع الاستراتيجية لاتخاذها نقاط ارتكاز تهديد المناطق الإسلامية، وقد وضح ذلك في غاراتهم المتكررة على منطقة حماة بهدف السيطرة على قلعة بارين (بعرين).

٢- منع وإعاقة أي أعمال تحصينية في الجانب الإسلامي، وقد وضح ذلك من موقفهم المعادي من عمليات التحصين التي قام بها الملك المعظم عيسى صاحب دمشق حين عمل على بناء وتحصين قلعة على جبل الطور، رأى فيه الصليبيين تهديدًا جديدًا لمواقع سيطرتهم وعملوا على مقاومة ذلك بشتى الوسائل والسبل[٢].

٣- محاول استغلال الهدن والاتفاقيات التي تعقد مع طرف آخر، كما وضح ذلك بعد توقيعهم هدنة مع الملك العادل سنة (٦٠١هـ/١٢٠٣م) فاستغلوا ذلك لمهاجمة حماة.

٤- حَرَص الصليبيون على إبقاء الروح الصليبية فاعلة على الساحة الأوربية، وقد تمثل ذلك بنجاحهم في العمل على جعل الغرب الأوربي يرسل حملات صليبية جديدة.

٥- عملت القوى الصليبية في هذه الفترة على تركيز جهودها على الجبهة المصرية، استمرارًا للاستراتيجية الصليبية التي بدأت تتبلور بعد هزائمهم منذ أيام صلاح الدين، هذه الاستراتيجية التي ترى ضرورة السيطرة على مصر بما يشكل للصليبيين ضمانًا لاستمرار وجودهم في بلاد الشام[٣].

(١) دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص١٤٩ .
(٢) المصدر نفسه ص١٥٠ .
(٣) دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص١٥٠ .

وقد كانت الغارات بين القوى الصليبية والدولة الأيوبية في هذه الفترة مستمرة، باستثناء الفترات التي توقع فيها معاهدات صلح أو هدن بين الطرف الصليبي وأحد حكام الأيوبيين، كما حصل تقدم من جانب الصليبيين وسيطرتهم على بعض المواقع إما ردًّا على تقدم إسلامي أو استغلال لحالة ضعف إسلامية، وكذلك الحال فيما يتعلق بالجبهة الإسلامية التي استولت على بعض المناطق التي كانت خاضعة للسيطرة الصليبية، كما أنها أجبرت أحيانًا على التنازل على مناطق أخرى[(١)].

أولًا: جهاد الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر:

ففي سنة (٥٩٩هـ/١٢٠٣م) حاولت القوى الصليبية المتواجدة في حصن الأكراد والمرقب الاعتداء على ممتلكات حماة، وبالأخص المحاولة منهم للسيطرة على قلعة بارين (بعرين) ولكن الملك المنصور بن تقي الدين عمر حاكم حماة تمكن بمساعدة القوى الأيوبية في حمص وبعلبك وحلب من الانتصار عليهم[(٢)]، وكانت المعركة التي خاضها الملك المنصور بعد أن تجمع الصليبيون من حصن الأكراد وطرابلس والحصون التي حولها وجاءوا في فارسهم وراجلهم وركب المنصور في العساكر التي معه، وتقدم إليهم، وقاتلهم، فهزمهم، وأخذ جماعة من مقدميهم وخيّالتهم، وبعث بهم إلى حماة، فدخلوها راكبين خيولهم لابسين عُدَدهم وبأيدهم رماحهم وكان يومًا مشهودًا، وفي ذلك يقول بهاء الدين أسعد يحيى السنجاري قصيدة يمدحه بها، ويهنئه بهذا الفتح الجليل:

الجدُ يُدرَكُ بالعسَّالة الذبل ... والمشرفية لا بالوعد والأمل
والجَدُّ في الجِدِّ، فاجنُبها مُسَوَّمة ... يقود أسد بالأَينُقِ الذُّلُل
ما لذَّةُ العيش إلا صوت مُعمَّعةٍ ... يُنَالُ فيها المن بالبيض والأسل
يأيها الملك المنصور نصح فتى لم يَلْوه ... عن وفاء كَثرة العَذَلِ
اعْزمْ ولا تترك الدنيا بلا مَلِك ... وجِدَّ فالملك محتاج إلى رجُل
وابرز إلى الموت يوم الرَّوع مُدَّرعًا ... قلبًا إذا زالت الأفلاك لم يَزلِ
وهِمَّ في طلب العلياء مرتقبًا ... وأرسل الجيش أبدالًا من الرُّسُل
واهصر عِداك، كهصر الليث طعمته ... وصل إذا الليث في الهيجاء لم يصل[(٣)]

ومنها:

يا أوحد العصر يا خير الملوك ومن ... فاق البرية من حاف ومنتعلِ

---

(١) المصدر نفسه ص١٥٠.
(٢) المصدر نفسه ص١٥٠.
(٣) مفرج الكروب (٣/١٤٥).

أسهرت عَيْنَيْكَ في كسب العُلا ولكم من بات يسهرها في اللهو والجذل
جاهدت في الله طوعًا والملوك غدوا يستهترون بذات الحَلْي والحُلَل
يداك باطنها للجود منذ خلقت فينا وظاهرها للثم والقُبل
وأنت شرفت أيوبًا على شَرَفٍ فيه وفقت كرام السادة الأوَل
أغمدت بيض المواضي في الرِّقاب وقد حَلَّيتَ عاطِلها ضربًا من القُلَلِ
عاجلتهم بالمنايا والحتوف فلا تترك لهم أجلًا يبقى إلى الأجل
صَفِّدهم عاجلًا واجعل حصونهم سجونهم فهم في غاية الفَشَلِ[1]

ولما كسر الملك المنصور -صاحب حماة- الفرنج كتب إلى عمِّه السلطان الملك العادل يعرِّفه ذلك، فورد عليه كتاب الملك العادل ثامن عشر شهر رمضان ومنه: وردت مكاتبة المجلس، ووقف الخادم عليها، وفهم ما أشار إليها من يُمن حركته، وسعادة وجهته، وبركة نصرته، ودخوله إلى بلاد الكفار، وما أثَّره فيها وفيهم من جميل الآثار، فاستبشر بما دلَّت عليه من هذه النعم الراهنة والعوارف الظاهرة والباطنة، والله تعالى يجازيه أحسن الجزاء، ويضاعف له من الحسنات أوفر الإجزاء، ويرحم سلفه الكريم، ويحسن له في الحديث والقديم، ويؤيده في كل حركة بأحزاب الملائكة[2].

ووصل في هذه المدة رسول من الداوية إلى الملك المنصور يخبر فيه بوصول الفرنج إلى عكا من داخل البحر في نحو ستين ألف فارس وراجل، وأنهم يقصدون جهة جبلة واللاذقية، وحاول ذلك الرجل تضخيم أمر الصليبيين وأنهم تجمعوا في حلف عظيم مع بعض الصليبيين في الشرق، واصطلحوا فيما بينهم وأنهم خارجون إلى الشام في عيد الصليب، وإنما قصدت الداوية بهذه الأخبار الإرهاب ليُصالح الملك المنصور بيت الاسبتار، فإن الداوية سألهم الاسبتار التوسط بينه وبينهم فأجاب الملك المنصور: بأنا لا نجزع بما تقول ولا نكترث، ولو أنهم أضعاف ذلك لعجزتهم، فقد تحققنا قصدهم لنا، وعلمنا ذلك ولا سبيل إلى مصالحة الاسبتار بوجه، فضرع الرسول حينئذ، وسأله تقليد الداوية المائة في صلحهم واعتذر من قوله الأول، فأجابه إلى ملتمسه، فَسُرَّ الرسول بذلك وقام وكشف رأسه وقبَّل يده وورد كتاب الملك العادل يخبره فيه بالفرنج الخارجين من البرح وتوجههم إلى جهة اللاذقية وغيرها من البلاد[3].

وفي الحادي وعشرين من شهر رمضان سنة (٥٩٩هـ) خرج جمع من الصليبيين من حصن الأكراد والمرقب ومن وصل إليهم وأغاروا على عمل بعرين، فرتب الملك المنصور صاحب حماة عسكره وقصدهم والتقاهم فكسرهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وأسر منهم، وانهزم آخرون لا

(١) مفرج الكروب (٣/ ١٤٥).
(٢) المصدر نفسه (٣/ ١٤٥).
(٣) مفرج الكروب (٣/ ١٤٧).

يلوون على شيء، وكانوا قد كمنوا لهم كمينًا، هم مائة فارس، وألف وخمسمائة راجل، فلما علموا بالكسرة ولُّوا هاربين وحمل الأسرى إلى حماة[1] .

ثانيًا: جذور الصراع بين الإمبراطورية البيزنطية وبابا الفاتيكان:

تحدثت كتب كثيرة على الحملة الصليبية الرابعة، مثل: أثر العامل الديني في توجيه الحركة الصليبية للدكتور محمد صالح منصور، وتاريخ الحروب الصليبية لسعيد عبد الله البيشاوي ومحمد مؤنس، والجهاد ضد الصليبيين في العصر الأيوبي د/ فايد حماد عاشور، والعلاقات الدولية في الحروب الصليبية للدكتور منذر الحايك، وتاريخ الحروب الصليبية لمحمود سعيد عمران، والغزو الصليبي والعالم الإسلامي للدكتور علي عبد الحليم وغيرهم كثير، وفي حقيقة الأمر أن ما يعرف بالحملة الصليبية الرابعة ليس من اليسير على الباحث أن يجعل بداياتها مرتبطة بأوائل القرن الثالث عشر الميلادي/السابع الهجري، بل من المتصور أن تلك الحملة لها بدايات مبكرة امتدت على مدى قرون عديدة من تاريخ القارة الأوربية في المرحلة القروسطية، ومن الأفضل تتبع الجذور التاريخية التي أدت إلى حدوث ما حل بالقسطنطينية من مصيبة[2].

١- الإمبراطور قسطنطين الكبير: غادر الإمبراطور قسطنطين الكبير (٣٠٥هـ/ ٣٣٧م) روما القديمة على ضفاف التيبر، واتجه إلى إقامة عاصمة جديدة هي القسطنطينية أو روما الجديدة على ضفاف البسفور التي افتتحها بالفعل في (١١ مايو ٣٣٠م)، وقد عاشت الأخيرة في قلب حضارات العالم القديم المصرية والفارسية واليونانية ونهلت من ذلك الميراث الحضاري الخصب، وبمرور القرون ازدهرت تلك المدينة ازدهارًا بالغًا، ومع انهيار روما القديمة عاصمة الإمبراطورية الرومانية على أيدي العناصر الجرمانية بقيادة ادواكر، وإسقاط حكم رومولوس، أوجستيلوس عام (٤٧٦م)، ثم بقاء القسطنطينية بعيدة عن التأثير الجرماني الكاسح المدمر، بدأنا ندرك أن هناك فوارق حضارية أخذت في الاتساع بين الطرفين؛ الشرق البيزنطي والغرب الأوربي ولا يستطيع الباحث المنصف حتى القرن الثاني عشر الميلادي/السادس الهجري إلا ويدرك أن هناك ما يمكن وصفه بالفجوة الحضارية بين الجانبين، مع ملاحظة أنه منذ القرن المذكور بدأت تلك الهوة تضيق نسبيًّا بينهما من خلال ظهور ما يعرف بنهضة القرن الثاني عشر؛ وهي أخطر النهضات الأوربية في مرحلة القرون الوسطى بصفة عامة، ومع ذلك ظل البيزنطيون ينظرون إلى الغرب الأوربي نظرة ازدراء واحتقار، لقد شعروا بأنهم خلفاء الرومان، وحتى الإمبراطور البيزنطي نفسه كان يصف نفسه بالإمبراطور الروماني، ولم تكن بيزنطة تعترف بوجود إمبراطور آخر في الغرب الأوربي، ومعنى ذلك أن كلًّا من الجانبين افتقد القدرة على الاعتراف

---

(١) المصدر نفسه (٣/١٤٩).

(٢) الحروب الصليبية -العلاقات بين الشرق والغرب، د/ محمد عوض ص٢٥٣ .

بالآخر، وهذه زاوية محورية من أجل فهم أبعاد الصدام الذي حدث في عام (١٢٠٤م/ ٦٠٢هـ)[١].

٢- **الصراع العقائدي بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني**: لم تكن الهوة الحضارية هي كل ما في الأمر، بل إن الصراع العقائدي لعب دورًا بارزًا هو الآخر، من أجل تعميق التباعد بين الجانبين، ولعل من الأحداث البارزة التي تجعلنا ندرك حجم موقف التدهور بينهما، قطيعة فوشميوس عام (٨٦٩م/ ٢٦٨هـ) ثم الانشقاق الأعظم (١٠٥٤م/ ٤٤٦هـ) وقد أدت إلى نتائج بعيدة المدى في العلاقات بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني، وقد وقعت القطيعتان المذكورتان بعد مقدمات لهما منها؛ نجد أنه في أواخر القرن السادس الميلادي تزايد الخلاف بين الجانبين عندما اتخذ بطريرك القسطنطينية لقب المسكوني، وبذلك أعطى لنفسه صفة العالمية، وهي صفة ارتبطت كنيسة روما بها على اعتبار أن مؤسسها هو القديس بطرس، وأنها بالتالي سيدة الكنائس، وقد أظهر اعتراضه على ذلك بابا جريجوري الكبير الذي عمل من قبل عدة سنوات في القسطنطينية بوصفه وكيلًا للبابا قبل توليه منصبه البابوي، ولا ريب في أن ذلك يعكس لنا أن التنافس والصراع بين الكنيستين حول الزعامة العالمية له جذوره التاريخية القاعلة[٢].

زد على ذلك أن القرن الثامن الميلادي/ الثاني الهجري، شهد مرحلة مهمة من الخلاف بين الطرفين، وذلك من خلال السياسة التي اتبعها بعض أباطرة الأسرة الأيسورية (٧١٧-٧٤١م/ ٩٩-١٢٤هـ) ومن بعده ابنه قسطنطين الخامس (٧٤١-٧٧٥م/ ١٢٤-١٥٩هـ) وقد غضبت البابوية في الغرب وتمثل ذلك في البابا جريجوري الثاني (٧١٥-٧٣١م/ ١١٣هـ)[٣] الذي رأى في تلك السياسة البيزنطية نوعًا من التأثر باليهود والمسلمين[٤] وقد اجتمع مجلس من الأساقفة في الغرب الأوربي دعا إليه البابا المذكور، وصب ذلك المجلس اللعنة على الأباطرة الأيسوريين الذين حطموا الأيقونات[٥]، وبصفة عامة عُدَّ الصراع حول الأيقونات مرحلة مؤثرة في زيادة الهوة بين الطرفين البيزنطي واللاتيني[٦].

٣- **البابوية توجه لطمة قوية للإمبراطورية البيزنطية**: وجهت البابوية لطمة قوية للإمبراطورية البيزنطية من خلال اتجاه البابا ليو الثالث[٧] (٧٩٥-٨١٦/ ٢٠١هـ) إلى تتويج شارلمان (٧٦٨-٨١٣م/ ١٠٥-١٩٨م) إمبراطورًا في عام (٨٠٠م/ ١٨٤هـ) في كنيسة القديس بطرس في روما،

---

(١) الحروب الصليبية -العلاقات بين الشرق والغرب ص٢٥٤ .
(٢) العلاقات السياسية بين الكنيسة والشرق البيزنطي ص٣٢٦ .
(٣) الحروب الصليبية -العلاقات بين الشرق والغرب ص٢٥ .
(٤) المصدر نفسه ص٢٥٥ .
(٥) معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ص١٠٢ .
(٦) الحروب الصليبية -العلاقات بين الشرق والغرب ص٢٥٥ .
(٧) الحروب الصليبية -العلاقات بين الشرق والغرب ص٢٥٦ .

وكان ذلك يعني ظهور إمبراطور في الغرب الأوربي ينافس الإمبراطور البيزنطي، وأرادت البابوية ممارسة لعبة توازن القوى بين الإمبراطورين غير أن الإمبراطورية البيزنطية لم تكن لتعترف بذلك الإمبراطور الجديد، ولم يكن لإمبراطور القسطنطينية أن يقبل بكونه نصف إمبراطور، ومن المؤكد أن البابوية بتتويجها شارلمان إمبراطورًا قطعت آخر الخيوط التي تربطها بالإمبراطورية البيزنطية، ويعلق أحد المؤرخين على الموقف قائلًا: لا شك في أن تتويج شارلمان كان طعنة نجلاء صوبتها البابوية إلى الأباطرة الرومانية من جهة، وينظرون إلى كل الفرنجة على أنهم برابرة، لا أكثر من جهة ثانية، ولذا رفضت الحكومة الإمبراطورية في القسطنطينية الاعتراف بالإمبراطور الجديد (شارلمان)، وبدا في نظرها مدعيًا ومغتصبًا بل وتافهًا وسخيفًا على حد قول باراكلاف، وفي نفس الوقت أصبح البابا في نظر البيزنطيين مجرد مواطن متمردوجاحد؛ لأنه قام بتتويج شارلمان الفرنجي[١].

٤- **قطيعة فوشيوس في عصر الأسرة المقدونية:** أحداثها في عصر الأسرة المقدونية (٨٦٧-١٠٥٧م/ ٢٥٣-٤٩٠هـ) وخاصة في عهد الإمبراطور بازل الأول (٨٦٧-٨٨٦م/ ٢٥٣-٢٧٣هـ) ويلاحظ أن الأسقف البيزنطي فوشيوس (٨٥٨-٨٦٧م/ ٢٤٤-٢٥٣م)، (٨٧٧-٨٨٦م/ ٢٦٤-٢٧٣هـ) كان قد كتب مقالًا هاجم فيه ما أسماه بانحراف قانون الإيمان عند اللاتين بسبب إضافة كلمة أو الروح القدس المنبثق من الابن أيضًا، وقد أوضح أن تلك الإضافة تعد انحرافًا عما اتفق عليه آباء الكنيسة الأوائل في المجامع المسكونية التي عقدت من أجل الاتفاق على صيغة محددة حول طبيعة السيد المسيح، وقد اعتقد فوشيوس أن تلك الإضافة تعد بدعة تؤدي إلى الخلط بين طبيعتي كل من الآب والابن[٢].

٥- **مقتل الإمبراطورر ميخائيل الثالث:** وقع انقلاب في القسطنطينية عام (٨٦٧م/ ٢٥٣هـ) انتهى بالفتك بالإمبراطور ميخائيل الثالث واعتلاء بازل الأول العرش، وقد تم تعيين اغناطيوس أسقفًا وعزل فوشيوس، ومن بعد ذلك تم عقد مجمع في العاصمة البيزنطية عام (٨٦٩م/ ٢٥٦هـ) وفيه تم إدانة فوشيوس ولعنه[٣]، ويلاحظ أن البابا يوحنا الثامن (٨٧٢ -٨٨٢م/ ٢٥٩-٢٦٩هـ) اتجه إلى فوشيوس ولعنه[٤]، وشاركه في ذلك جمع من البابوات، بل إنه في نهاية القرنين التاسع الميلادي/ الثالث الهجري، وأوائل العاشر الميلادي/ الرابع الهجري ظهرت موجة عدائية في الغرب الأوربي ضد بيزنطة بسبب قضية فوشيوس وتم لعنه، وكذلك كنيسة القسطنطينية التي ظهرت على أنها مهرطقة ومارقة[٥].

---

(١) العلاقات السياسية والكنيسة ص٣٢٨ .
(٢) روما وبيزنطة نقلًا عن الحروب الصليبية، د/ محمد مؤنس عوض ص٢٥٧ .
(٣) الحروب الصليبية -العلاقات بين الشرق والغرب ص٢٥٧ .
(٤) المصدر نفسه ص٢٥٧ .
(٥) المصدر نفسه ص٢٥٧ .

٦- **الانشقاق الأعظم**: وقع الانشقاق الأعظم عام (١٠٥٤/٤٤٦هـ) ويلاحظ أن عناصر النورمان في جنوب إيطاليا زحفوا على ممتلكات البابوية بعد أن توسعوا في أملاك الإمبراطورية البيزنطية هناك، واتجه البابا ليو التاسع (١٠٤٩-١٠٥٤م/٤٤١هـ-٤٤٦هـ) إلى التحالف مع الإمبراطور البيزنطي قسطنطين التاسع موناخوس (١٠٤٩-١٠٥٥م/٤٤١-٤٤٧هـ) من أجل العمل ضد النورمان عسكريًا، ويلاحظ أن بطريرك القسطنطينية في ذلك الحين تمثل في ميخائيل الأول كيرولاريوس (١٠٤٣-١٠٥٨م/٤٣٥-٤٥٠هـ) وقد رفض التحالف بين بيزنطة والبابوية على اعتبار أن ذلك من شأنه الإضرار بمصالح بيزنطة؛ لأنه سيفتح الأبواب على مصاريعها من أجل التدخل البابوي في شئون الكنسية الخاصة بها[1]، وقد بدأ النزاع عندما وصلت إلى مسامع كيرولاريوس أخبار تفيد بأن النورمان أعاقوا اليونانيين في جنوب إيطاليا عن ممارسة شعائرهم الدينية، والخطير في الأمر أن ذلك بموافقة كنيسة روما، وكرد على الموقف أمر بطريرك البيزنطي الكنائس اللاتينية في العاصمة البيزنطية بأن تتبع الشعائر اليونانية، عندما أثبت ذلك أصدر أوامره بإغلاقها في نهاية (١٠٥٣م/٤٤٥هـ).

٧- **تجدد العداء بين البابوية وبيزنطة**: لم يستطع البابا ليو التاسع أن يقف مكتوف اليدين أمام ذلك الموقف، فقد أرسل إلى الإمبراطور البيزنطي يتهم كيرولاريوس، ومن ثم تجدد العداء بين الكنيستين من جديد وبصورة أشرس من ذي قبل، ووصل الأمر إلى حد أن أصدر البابا ليو التاسع قرارًا بالحرمان، لم يشتمل كيرولاريوس فقط بل كنيسة القسطنطينية أيضًا، ووضع قرار الحرمان في مذبح كنيسة أيا صوفيا بالعاصمة البيزنطية، ويلاحظ أن الشعب البيزنطي تعاطف مع بطريركه ضد كنيسة روما، غير أن ذلك لم يغير من الأمر شيئًا، وزادت الهوة بين كنيستي روما والقسطنطينية، ومع ذلك هناك من يرى أن أحداث قطيعة عام (١٠٥٤/٤٤٦هـ) كانت أكثر إثارة من النتائج التي ترتبت عليها، فالأمر لم يكن انشقاقًا بصورة نهائية، ومن زاوية أخرى من المهم ملاحظة أن تلك القطيعة لم تؤثر على المركز البابوي في الغرب أو في الشرق على حد سواء؛ كما أنها لم تؤدِّ إلى التأثير على حركة العناصر الكاثوليكية في الإمبراطورية البيزنطية، واستمر قدوم الغربيين بعد تلك القطيعة في صورة تجار أو حجاج أو عابري سبيل، واستمر هؤلاء يقومون بتشييد كنائسهم على الأرض البيزنطية، كما ظل المرتزقة اللاتين يعملون في الجيش البيزنطي[2]، وقد يكون لدى صاحب هذا الرأي بعض الحق على اعتبار أن الإمبراطورية البيزنطية حرصت على إبقاء قدر من الاتصال مع روما، إلا أن من المؤكد أن العلاقات بين الطرفين لم تكن كسابقتها، وتفاعلت أحداث الانشقاق الأعظم مع قطيعة فوشيوس مع الفجوة الحضارية بين بيزنطة والغرب الأوربي على نحو أوجد نفسية عدائية عامة لدى الطرفين، وليس

(١) الحروب الصليبية -العلاقات بين الشرق والغرب ص٢٥٨ . (٢) المصدر نفسه ص٢٥٩، العلاقات السياسية ص٣٤٩ .

في مقدورنا إلغاء تلك الزاوية على الرغم من وجود مصالح متبادلة بين الشرق البيزنطي والغرب الأوربي وحرص الطرفان على الاحتفاظ بها، وجاءت الحملات الصليبية كي تزيد الهوة اتساعًا[١].

٨- **المشكلة الأنطاكية:** في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري، وقعت التطورات السياسية والعسكرية في الشرق الإسلامي على نحو أدى إلى هزيمة الإمبراطورية البيزنطية في ملاذكر (٤٦٣هـ) وتسارعت الأحداث لنجد أنفسنا أمام الحملة الصليبية الأولى، والتي تحدثنا عنها في كتابنا عن السلاجقة، وقد اتجه الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنينوس (١٠٨١-١١١٨م/ ٤٧٤-٥١٢هـ) إلى عقد اتفاقية القسطنطينية من أجل أن يعيد الصليبيون إليه المناطق التي فقدت منهم من جراء التوسع السلجوقي، وكان من أهم تلك المناطق درة شمال الشام (أنطاكية) إلا أن النورمان أسسوا فيها إمارة نورمانية ورفضوا عودتها للإمبراطورية البيزنطية، ومن ثم وجد ما يعرف بالمشكلة الأنطاكية في السياسة البيزنطية؛ وتسعى بيزنطة بسعيها الدءوب من أجل استعادة أنطاكية بكافة الوسائل المتاحة لها سواء السياسية أو الدبلوماسية، بل والتلويح بالقوة في مواجهة الأطماع النورمانية التي لا تجد، وبصفة عامة تأكد للإمبراطورية البيزنطية أنها استعانت بطامع في أراضيها من أجل مواجهة الخطر السلجوقي، ولا ريب في أن عدم تنفيذ الصليبيين لاتفاقية القسطنطينية قد جعل الأباطرة البيزنطيين يحاولون استعادتها دون جدوى في صورة الكسيوس كومنين، وحنا كومنين، ومانويل كومنين[٢].

إن إخفاق الأباطرة الكبار الثلاثة في إيجاد للوجود الصليبي فيما تراه بيزنطة تابعًا لها من قبل مقدم الصليبيين إلى المنطقة، وكذلك إيجاد حل ما لتنامي الخطر اللاتيني الجامح القادم من الغرب، كل ذلك كان بمثابة المقدمة المنطقية الطبيعية لما حدث عام (١٢٠٤م/ ٦٠٢هـ)، وفي نفس الحين صار البيزنطيون ينظرون إلى كل حملة صليبية قادمة عبر أراضيهم نظرة عداء، ويلاحظ أنه عندما فشلت الحملة الصليبية الشعبية وأجهزت سيوف السلاجقة على العامة بعد عبورهم البسفور اتهم الغرب الأوربي بيزنطة وجعلها العامل الأساسي وراء ذلك الإخفاق، وفيما بعد عندما قدمت الصليبية الثانية وعلى رأسها الملك الفرنسي لويس السابع والإمبراطور الألماني كونراد الثالث قابلت بعض المصاعب على الأرض البيزنطية، ومن زاوية أخرى تعرضت الممتلكات البيزنطية إلى السلب والنهب على أيدي أفراد تلك الحملة، وهو نفس الأمر الذي وقع خلال الصليبية الأولى، وعندما أخفقت الحملة الصليبية الثانية كسابقتها، اتهمت بيزنطة أنها ساهمت في ذلك الإخفاق من خلال سلوكها المعادي لجند المسيح[٣].

---

(١) الحروب الصليبية -العلاقات بين الشرق والغرب ص٢٥٩ .
(٢) المصدر نفسه ص٢٦٠ .
(٣) الحروب الصليبية بين الشرق والغرب ص٢٦٠ .

٩- التحالف بين صلاح الدين والإمبراطور البيزنطي: وفي الحملة الصليبية الثالثة كان هناك تحالفًا قد تم بين السلطان الأيوبي صلاح الدين والإمبراطور البيزنطي إسحاق الثاني أنجليوس، ومن المنطقي تمامًا أن تسعى تلك الإمبراطورية إلى إيجاد توازن ما مع القوى الإسلامية المجاورة، فلم تكن لتقبل بانتصار ساحق للصليبيين على المسلمين في بلاد الشام، على نحو يؤدي إلى زيادة قوتهم وبالتالي يواجهون تلك الإمبراطورية بشراسة أكبر، لقد أرادت بيزنطة أن تجعل كافة الأطراف تحتاجها سلميًا أو حربيًا من خلال لعبة توازن القوى التي برعت فيها في أحيان عديدة، وقد كشفت الحملة الصليبية الثالثة على مدى العداء الذي كنته الجيوش الصليبية لبيزنطة، فقد فكر فردريك بارباروسا في غزو القسطنطينية، كما أن ريتشارد قلب الأسد استولى على قبرص في مؤشر واضح دال على تزايد حجم الأطماع اللاتينية في أملاك الإمبراطورية البيزنطية.

لقد كانت شهية الغرب في أملاكها لا تحد، ولم يعد الأمر مسألة النورمان، بل انضم لهم الألمان والإنجليز، وفي ذلك ما يعكس كيف أن الأطماع الغرب أوروبية أحاطت بيزنطة من كافة الاتجاهات الممتدة، وتنامت الأطماع اللاتينية في أملاك بيزنطة، وقد بدأت تلك الأطماع بالأطراف البعيدة نسبيًا، ثم اقتربت أكثر فأكثر حتى وصلت إلى القلب، ولا ريب في أن ميراث العداء والكراهة تجاه تلك الإمبراطورية وكذلك الاختلافات العقائدية، ثم الفجوة الحضارية، كل ذلك صنع لنا كافة تلك التطورات المتلاحقة، فإذا أدركنا أن الإمبراطورية المذكورة وقعت في مرحلة ضعف بعد وفاة بازل الثاني (١٠٢٥م/ ٤١٦هـ) حتى عام (١٠٨١م/ ٤٧٤هـ) ثم شهدت صحوة الأسرة الكومنينية من (١٠٨١-١١٨٠م/ ٤٧٤-٥٧٦هـ) ومن بعدها مرت بمرحلة ضعف جديدة، أدركنا أن أوضاعها ذاتها كانت تشجع الطامعين على الانقضاض عليها[١] ، وبالتالي فليس هناك ما يدعو إلى القول بالخيانة البيزنطية للقضية الصليبية، ومثل ذلك التصور تصور غربي أوروبي صرف في ذلك العصر، ومن الأفضل تصور الأمر على أن بيزنطة كانت لها قضيتها الخاصة بها، ومن غير المنطقي أن تتخلى عن قضيتها من أجل الغرب الذي أكدت وقائع التاريخ أنه قدم إليها طامعًا وليس مُخلصًا[٢].

ثالثًا: التفكير في الحملة الصليبية الرابعة:

فكرة إرسال هذه الحملة نبتت في قلعة تيبالد كونت شامباني في (نوفمبر سنة ١١٩٩م/ ٥٩٦هـ) عندما دار الحديث بينه وبين بعض أصدقائه انتهى باستدعاء فولك أسقف نيللي[٣] وهو من دعاة الحروب الصليبية ليتحدث إلى هؤلاء الضيوف، وتمكن فولك بفصاحته أن يثير الحاضرين الذين

---

(١) الحروب الصليبية بين الشرق والغرب ص٢٦١ .

(٢) المصدر نفسه ص٢٦١ .

(٣) يعتبر فولك نيللي أكبر مبشر للبابا في فرنسا، واشتهر بأنه لا يخشى الأمراء.

وعدوا بالاشتراك في الحروب الصليبية، وبعثوا برسول إلى البابا أنوسنت الثالث ليعرض عليه مشروع الحملة، وليعطي القرار الصالح السليم[١] ، كان البابا أنوسنت الثالث قد أعرب علنًا عن رغبته في الدعوة إلى حرب صليبية جديدة، فكتب في سنة (١١٩٩م) إلى إيمار بطريرك بيت المقدس يطلب منه تقريرًا مسهبًا عن مملكة الفرنج[٢] ، وعن أحوال المسلمين وقوتهم في بلاد الشام ومصر، ولذلك أبدى ارتياحه وترحيبه الحار لمشروع الحملة التي اقترحها كونت شامباني، وتزعم بنفسه الدعوة لقيام هذه الحملة الصليبية الرابعة، وكان من أهم الأسباب التي دعت البابا أنوسنت الثالث لقيام هذه الحملة؛ رغبته ورغبة الأوربيين في محو العار الذي لحق بهم في الحروب الصليبية الثلاثة على يد صلاح الدين الأيوبي، وذلك باسترداد بيت المقدس من أيدي المسلمين، ولذلك حشدت البابوية كل إمكاناتها لتوجيه الصليبيين إلى مصر لاحتلالها؛ لأنها أكبر عدو للصليبيين، ولأنها مركز الثقل في العالم الإسلامي، ولن يتمكن الصليبيون من استرداد بيت المقدس طالما ظلت مصر بعيدة عن أيديهم، ولكي يمهد لنجاح هذه الحملة أصدر مرسومًا يحرم على التجار الأوربيين التعامل مع المسلمين، وحرم عليهم تزويد المسلمين بكل المواد التي تعينهم على قتال المسيحيين وخصوصًا مواد الحديد والخشب، وما يستعان به في الحروب[٣] .

١- **جهود البابا أنوسنت الثالث**: استعادت البابوية سلطتها في جنوب إيطاليا، بعد ما أدى إليه تشابك المصالح من نزاع بين ملوك أوربا العظام، وأخذ أنوسنت الثالث يمهد لهذه الحملة، فبدأ بإجراء المفاوضات مع الإمبراطور البيزنطي الكسيوس الثالث لتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية[٤] وأعطى تعليماته إلى فولك أن يطوف بالبلاد، ويحث أهل الريف على الانخراط في الحرب المقدسة وحمل السلاح لاستعادة بيت المقدس من أيدي المسلمين واحتلال مصر، وانضم عدد كبير من البارونات للاشتراك في هذه الحملة بغرض امتلاك أراضي جديدة بعيدة جدًا عن أوربا وليس بدافع من الدين فقط، قبل جميع البارونات أن يتولى تيبالد كونت شامباني قيادة الحملة الصليبية، ولكنه مات فجأة في مارس سنة (١٢٠١م/ ٥٩٨هـ) واجه بونيفاس أول مشكلة من المشاكل التي واجهت الحملة وهي عدم وجود سفن عند أمراء الحملة من الصليبيين، فاتفقوا على أن ينوب عنهم جفري هاردوين في الاتفاق على تأجير سفن لنقل جنود الحملة إلى سواحل الشام[٥] .

وسافر جفري إلى جنوه وفاوض المسئولين فيها لمساعدتهم في نقل ٤٥٠٠ فارس بمعداتهم وحوالي ٣٠ ألف راجل بأسلحتهم وآلاتهم، ولكن الجنويين أبدوا أسفهم لعدم قدرتهم، فتوجه

(١) رنسمان الحروب الصليبية (٣/ ١٩٥).
(٢) صلاح الدين والصليبيون، أحمد الشامي ص١٨٤ .
(٣) المصدر نفسه ص١٨٤ .
(٤) المصدر نفسه ص١٨٥ .
(٥) صلاح الدين والصليبيون ص١٨٥ .

جفري إلى البندقية وخاطب حاكمها الدوق هنري داندلو الذي استشار حاشيته وقبل ذلك، وطلب مائة ألف مارك إيجارًا للسفن، ثم شرط عليهم أن يمضي معهم بنصف أهل البندقية القادرين على حمل السلاح، وأن يكون لهم النصف في جميع الغنائم، وسوف يكون لأهل البندقية مراكبهم الخاصة بهم (خمسين غرابًا) يتولى البنادقة الإنفاق عليه،ا وسوف يتم نقل جنود الحملة في مدى عام من اليوم الذي نحدده إلى أي بلد شئتم[1]، تم الاتفاق بين الطرفين على تخفيض المبلغ إلى ٨٥ ألف مارك فضية كولونية، وأقسم دوق البندقية وجفري هاردوين على تنفيذ هذه الاتفاقية التي عقدت بينهما في يونيه (١٢٠٢م) ثم شرع الصليبيون في المجيء إلى البندقية لكي تنقلهم السفن إلى المشرق، فلما اكتملت أعدادهم وطلبوا من البندقية أن تبحر السفن بهم، طلب الدوق داندلو المبلغ الذي اتفق عليه قبل رحيل السفن، وعجز الصليبيون عن دفع كل المبلغ المحدد[2].

٢- **بعض المصاعب والمشاكل التي أثرت في مسيرة الحملة:** ظهرت بعض المصاعب والمشاكل التي أثرت في مسير الحملة من أهمها:

- اشتد ضجر مجموعات من الصليبيين لتأخرهم هذه المدة الطويلة في البندقية دون الرحيل إلى الأراضي المقدسة، وخاصة عندما علموا أن وجهة الحملة هي مصر وليس بيت المقدس.

- عمل أهل البندقية على تشجيع هذا التذمر بين الصليبيين؛ لأن البنادقة لم يكن في نيتهم تقديم مساعدة ما لمهاجمة مصر، نظرًا للامتيازات الكثيرة والجليلة التي منحها الملك العادل للتجار الإيطاليين في مصر.

- أوفد الدوق هنري داندلو حاكم البندقية سفراءه إلى القاهرة في نفس الوقت الذي كان ساوم الصليبيين حول نقل الحملة، وثم عقد اتفاق تجاري في ربيع سنة (١٢٠٢م/٥٩٨هـ) مع نائب الملك العادل، وقد أكد الدوق داندلو لمبعوث الملك العادل أنه لن يساعد أي حملة تتجه إلى مصر[3].

٣- **توجيه الحملة ضد المجر:** استغل دوق البندقية هذه الظروف لصالح بلاده، فعمل على توجيه الحملة ضد المجر لتخليص مدينة زارا عاصمة الساحل الدلماش من يد ملك المجر، والتي استمرت الحروب من أجلها عشرات السنين بين جمهورية البندقية والمجر[4]، وأعلن الصليبيون في سبتمبر (١٢٠٢م) قبولهم لكل ما تعرضه البندقية عليهم، لكي يتم نقلهم بعد ذلك إلى الأراضي المقدسة أبحر الأسطول من البندقية في (٨ نوفمبر ١٢٠٢م) فوصل زارا بعد

---

(١) المصدر نفسه ص١٨٥ .
(٢) المصدر نفسه ص١٨٦ .
(٣) صلاح الدين والصليبيون ص١٨٦ .
(٤) المصدر نفسه ص١٨٧ .

يومين، وهاجمها الصليبيون بعنف، فاستسلمت بعد خمسة أيام واستباحها العساكر، وبعد ثلاثة أيام وقع القتال بين البنادقة والصليبيين بسبب اقتسام الغنائم غير أن الأمور سويت بين الجانبين، وقرر داندلو مع بونيفاس قائد الحملة البقاء حتى ينتهي فصل الشتاء، وفي خلال هذا الوقت اتفق زعماء الحملة على توجيه الحملة إلى القسطنطينية(١).

ويذكر البعض أن فيليب دوق سوابيا أرسل إلى قائد الحملة بونيفاس عرضًا محددًا من صهره الكسيوس الصغير يطلب منه أن تتوجه الحملة الصليبية إلى القسطنطينية وتثبته على عرش الإمبراطورية، وفي مقابل ذلك يقوم الكسيوس بسداد ديون الحملة إلى البنادقة ويمدهم بالمال والمؤن لمساعدتهم على فتح مصر، ويرسل معهم فرقة من الجيش البيزنطي قوامها عشرة آلاف جندي، ويتولى الإنفاق على ٥٠٠ فارس صليبي في الأرض المقدسة ويخضع كنيسة بيزنطة إلى الكنيسة الأم في روما، وعلى الرغم من أن البابا أنوسنت الثالث كان قد أصدر قرار الحرمان لأفراد الحملة لمهاجمتهم ملك المجر في زارا، إلا أنه عاد وأصدر قرارًا بالعفو عنهم، بل أنه ساند الرأي بذهاب الحملة لمهاجمة القسطنطينية لضم كنيستها وتوحيد العالم المسيحي تحت سلطانه(٢).

٤- الحملة تبحر نحو القسطنطينية (١٢٠٣م): وصل الكسيوس الصغير ابن الإمبراطور السابق المخلوع إسحاق قادمًا من ألمانيا ورافق الحملة التي ستعيد له عرش أبيه، وتم عقد معاهدة بينه وبين حلفائه الصليبيين والبنادقة لتأكيد ما سبق أن عرضه بواسطة صهره فيليب دوق سوابيا، وفي (٢٤ يونيه ١٢٠٣م/ ٦٠٠هـ) وصلت سفن الحملة أمام القسطنطينية(٣)، ولم يتخذ الإمبراطور الكسيوس الثالث -الذي استولى على العرش عن طريق مؤامرة خبيثة ضد أخيه الإمبراطور السابق إسحاق- أي تدابير لمنع وصول جنود الحملة إليه، واعتقد الصليبيون والبنادقة فيما قاله الكسيوس الصغير من أن بيزنطة كلها سوف تهب للترحيب به، ولكن الدهشة استبدت برجال الحملة حينما اكتشفوا أن جميع أبواب القسطنطينية أغلقت في وجوههم، وأن الجنود البيزنطيين مرابطون فوق أسوارها وفشلت المحاولات الأولى التي قام بها أسطول الصليبيين لمهاجمة الأسوار، وبعد قتال عنيف تمكن البنادقة من فتح ثغرة بالأسوار في ١٧ يوليو، وفكر الكسيوس الثالث في الفرار مع ابنته التي يكن لها معزةً خاصة، ولجأ إلى مدينة موزينو في تراقيا، فما كان من حاشية القصر إلا أنهم أخرجوا الإمبراطور السابق إسحاق -الذي سلمه أخوه- من السجن وأعادوه على عرشه وبذلك توقف القتال، وتم الاتفاق على تنصيب الكسيوس الصغير قسيمًا لأبيه في حكم الإمبراطورية وتسمى الكسيوس الرابع سنة (١٢٠٣م) (٤).

---

(١) المصدر نفسه ص١٨٧ .
(٢) الصليبيون وصلاح الدين ص١٨٨ .
(٣) المصدر نفسه ص١٨٨ .
(٤) المصدر نفسه ص١٨٩ .

مارس الكسيوس الرابع شئون الإمبراطور منفردًا؛ لأن أباه قد فقد بصره، وبدأ في تنفيذ وعوده السابقة فحاول إرغام رجال الدين بقبول سيادة بابا روما، ولكنه وجد مقاومة عنيفة وفشلت محاولته، أغدق الهدايا الوافرة على الصليبيين فأثار نهمهم إلى المزيد، فقل مال الخزانة ولم يتمكن من دفع ديون الصليبيين للدوق داندلو حاكم البندقية بقية قيمة إيجار السفن، فاضطر إلى فرض ضرائب جديدة فغضب عليه البيزنطيون وصادر كميات ضخمة من ممتلكات الكنيسة (ذهب وفضة) وأمر بصهرها وضربها نقودًا وتسليمها للبنادقة، فحقد عليه رجال الكنيسة وغضبوا منه، وزاد من غضب الشعب البيزنطي وتحريك الثورة في نفسه ما ارتكبه الصليبيون من سلب ونهب في القرى المحيطة بالمدينة، وتدمير حي بأكمله بسبب حماقة بعض الفرنسيين من جنود الحملة الذين حرقوا مسجدًا للتجار المسلمين في المدينة، فامتدت النار منه ودمرت الحي بأكمله، واحترق فيه ناس كثير، بالإضافة إلى كل ذلك لم يكن الكسيوس الرابع (الصغير) على مستوى حكم الإمبراطورية؛ إذ كان مبتذلًا في حياته محبًّا للهو، مما أدى إلى وقوع ثورة في القصر الإمبراطوري في (فبراير سنة ١٢٠٤م/ رجب ٦٠٠هـ) وتم عزل الكسيوس الرابع وألقي به في السجن حيث توفي، ولحق أبوه به، فمات كمدًا بعد فترة قصيرة وتولى العرش مورتسوفلوس وتسمى الكسيوس الخامس[(١)].

٥- **سقوط القسطنطينية وإقامة إمبراطورية لاتينية:** وقف الكسيوس الخامس موقفًا مضادًّا من الصليبيين وأيد الاتجاه الشعبي الكاره لهم، وأمام ذلك التطور اتجه الأخيرون إلى مهاجمة القسطنطينية في عام (١٢٠٤/ ٦٠٢هـ)، والواقع أن تلك العاصمة العالمية المجيدة والتي شيدت منذ القرن الرابع الميلادي احتوت على العديد من النفائس والتحف على مدى ثمانية قرون كاملة، ولذلك وجدت بها ثروات وفيرة، والعديد من الأواني الذهبية والفضية، والكثير من الأحجار الكريمة[(٢)]، ولا ريب في أنها كانت ذات ثراء عريض جديد بعاصمة إمبراطورية مثل الإمبراطورية البيزنطية، وقد حل بالمدينة القتل والسلب والنهب والتدمير، ولدينا[(٣)] ما كتبه مؤرخ بيزنطي معاصر هو نيكيناس خونيتاس؛ حيث انتحَب على مدينته ورثاها قائلًا: أيتها المدينة، يا حديث العالم، يا منار الأرض، يا حامية الكنائس ويا سيدة الإيمان، يا قلعة العلم؛ لقد تجرعت كأس غضب الله حتى الثمالة، ولقد حاق بك آتون أكثر بشاعة من ذلك الذي أصاب قديمًا المدن الخمس.

وفي الواقع تم قتل العديد من البيزنطيين واغتصبت الراهبات في الأديرة، ودخل الجنود الذين لعبت الخمر برءوسهم كنيسة آيا صوفيا، وأحضروا إحدى العاهرات لتجلس على العرش

(١) صلاح الدين والصليبيون ص١٨٩ .
(٢) الحروب الصليبية -العلاقات بين الشرق والغرب ص٢٦٦ .
(٣) المصدر نفسه ص٢٦٦ .

البطريركي وجعلوها تنشد الأغاني البذيئة وترقص الرقصات الرخيصة أمام مذبح الكنيسة، واستعملت الأواني الطاهرة من أجل احتساء الخمور، ويلاحظ أن ذلك السلوك المتوحش والمتبربر استمر في مدينة قسطنطين مدة ثلاثة أيام[(١)]، وقد تمنى نيكتاس فونياتس أن تسقط مدينته على أيدي المسلمين؛ لأنهم ما كانوا ليفعلوا بها ما فعل اللاتين[(٢)].

وصدق نيكتاس فيما ذهب إليه؛ فعندما سقطت القسطنطينية في عام (٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م) على يد السلطان محمد الفاتح، توجه إلى كنيسة آيا صوفيا وقد اجتمع فيها خلق كبير من الناس ومعهم القسس والرهبان الذين كانوا يتلون عليهم صلواتهم وأدعيتهم، وعندما اقترب من أبوابها خاف النصارى داخلها خوفًا عظيمًا، وقام أحد الرهبان بفتح الأبواب له فطلب من الراهب تهدئة الناس وطمأنتهم والعودة إلى بيوتهم بأمان، فأطمأن الناس وكان بعض الرهبان مختبئين في سراديب الكنيسة، فلما رأوا تسامح الفاتح وعفوه خرجوا وأعلنوا استسلامهم[(٣)]، ولقد عاملهم السلطان محمد الفاتح معاملة رحيمة، وأمر جنوده بحسن معاملة الأسرى والرفق بهم، وافتدى عددًا كبيرًا من الأسرى من ماله الخاص وخاصة أمراء اليونان ورجال الدين، واجتمع مع الأساقفة وهدأ من روعهم وطمأنهم على عدم المساس بعقائدهم وشرائعهم وبيوت عبادتهم، وأمرهم بتنصيب بطريرك جديد، فانتخبوا أجناديوس بطريرك، وتوجه هذا بعد انتخابه في موكب حافل من الأساقفة إلى مقر السلطان فاستقبله السلطان محمد الفاتح بحفاوة بالغة وأكرمه أيما تكريم، وتناول معه الطعام وتحدث معه في موضوعات شتى؛ دينية وسياسية واجتماعية، وخرج البطريرك من لقاء السلطان، وقد تغيرت فكرته تمامًا على السلاطين العثمانيين وعن الأتراك، بل على المسلمين عامة، وشعر أنه أمام سلطان مثقف صاحب رسالة وعقيدة دينية راسخة، وإنسانية رفيعة، ورجولة مكتملة.

ولم يكن البيزنطيون أنفسهم أقل تأثرًا ودهشة من بطريقهم، فقد كانوا يتصورون أن القتل العام لاحقهم، فلم تمض أيام قليلة حتى كان الناس يستأنفون حياتهم المدنية العادية في اطمئنان وسلام[(٤)]، كان العثمانيون حريصين على الالتزام بقواعد الإسلام، ولذلك كان العدل بين الناس من أهم الأمور التي حرصوا عليها، وكانت معاملتهم للنصارى خالية من أي شكل من أشكال التعصب والظلم، ولم يخطر ببال العثمانيين أن يضطهدوا النصارى بسبب دينهم[(٥)].

إن مِلل النصارى تحت الحكم العثماني تحصلت على كافة حقوقها الدينية، وأصبح لكل ملة من هذه الملل مدارسها الخاصة وأماكن العبادة والأديرة، كما أنه كان لا يتدخل أحد في

(١) ماهية الحروب الصليبية الأيديولوجية، الدوافع ص١٤٨ .
(٢) الحروب الصليبية، محمد مؤنس عوض ص٢٦٧، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ص٢٥٦، حسنين ربيع.
(٣) الدولة العثمانية للصَّلَّابي ص١٥٠ .
(٤) السلطان محمد الفاتح ص١٣٤، ١٣٥ .
(٥) جوانب مضيئة ص٢٧٤ .

مدينتها، وكان تطلق لهم حرية في تكلم اللغة التي يريدونها[١]، إن السلطان محمد الفاتح لم يظهر ما أظهره من التسامح مع نصارى القسطنطينية إلا بدافع التزامه الصادق بالإسلام العظيم، متأسيًا بالنبي الكريم ﷺ، ثم بخلفائه الراشدين من بعده، الذين امتلأت صحائف تاريخهم بمواقف التسامح الكريم مع أعدائهم[٢].

هذا، ومن الملاحظ أن زعماء وقادة الحملة الصليبية الرابعة نقلوا العديد من التحف والنفائس التي بيعت في أسواق دمشق والقاهرة وحلب، وكذلك الأسواق الأوربية حتى أن الجياد البرونزية الأربعة التي كانت تزين ميدان السباق في العاصمة البيزنطية، قام داندلو بحملها إلى البندقية، وحتى اليوم تزين واجهة كاندرائية القديس مارك في فينيسيا[٣]، دليلًا على واحدة من أكبر عمليات السلب والنهب التي شهدتها القرون الوسطى.

وهكذا يثبت لنا الصليبيون من جديد أنهم أهل قتل، وتدمير، وسلب ونهب، وها هي مدينة قسطنطين الرائعة تتعرض للمصير المأساوي الذي تعرضت له مدينة بيت المقدس منذ ما يزيد على قرن من الزمان، غير أن الفارق الجوهري أن بيت المقدس كانت مدينة مقدسة للسيادة الإسلامية، أما القسطنطينية فهي مدينة مسيحية وعاصمة الإمبراطورية البيزنطية الإرثوذكسية، والتي قامت بدور درع المسيحية الشرقية في مواجهة الإسلام لعدة قرون، وفي هذا دليل واضح على أن الصليبيين في سبيل أطماعهم الجشعة التي لا تحد لم يفرقوا بين مدن إسلامية أو مسيحية[٤].

٦- السياسة الخارجية للبابوية والحملات الصليبية: إن سقوط القسطنطينية على مثل هذه الصورة كان بمثابة كارثة على فكرة الحملات الصليبية، وكأن الحركة تنتحر، فمن قبل كان الإعلان عن ميلادها موجهًا لحرب (الكفار)، وقصد بهم البابا حينذاك المسلمين، أما الآن فإن نطاق (الكفار) امتد ليشمل المخالفين لكنيسة روما في المعتقدات الدينية، ويلاحظ هنا أن إنوسنت الثالث شهد عهده تطور الصليبيات بصورة ملفتة للانتباه، فقد شن حملة صليبية ضد العناصر التي رأتها البابوية مهرطقة في جنوب فرنسا في صورة الوالدنسيين اتباع بيتر والدو والكتاريين (الأطهار)، أما الآن فإن الحملة الصليبية اتجهت إلى الإمبراطورية البيزنطية، ودل ذلك بجلاء على أن الحركة الصليبية ليست ضد المسلمين فقط، بل ضد كل من يناصب البابوية العداء، وكل من يرفض الخضوع لسلطان كنيسة روما سيدة الكنائس، وصاحبة السيادة العالمية على عالم المسيحية، على نحو يؤكد بالفعل أن الحملات الصليبية هي السياسة الخارجية البابوية[٥].

(١) المصدر نفسه ص٢٨٣.
(٢) المصدر نفسه ص٢٨٧.
(٣) الحروب الصليبية -العلاقات بين الشرق والغرب ص٢٦٨.
(٤) المصدر نفسه ص٢٦٩.
(٥) المصدر نفسه ص٢٦٩.

إننا لأول مرَّة منذ إعلان مشروع أوربان الثاني (١٠٩٥م/ ٤٨٩هـ)، نجد أن الحركة الصليبية تتجه إلى تلك الوجهة وتسقط عاصمة أكبر إمبراطورية مسيحية في المنطقة على مدى المرحلة الواقعة من القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري إلى القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري، وطوال هذه القرون لم تسقط بيزنطة على أيدي الفرس والروس والنورمان والمسلمين وغيرهم، إلا أن سقوطها كان على يد قوة مسيحية ممثلة في الغرب الأوربي، ولذلك لا عجب والأمر كذلك أن تعتبر عام (١٢٠٤م/ ٦٠٢هـ) عامًّا فارقًا في تاريخ الحملات الصليبية[١].

إن أنوسنت الثالث كان يدرك إدراكًا يقينيًّا أن الصليبية الرابعة كان تستهدف الهجوم على القسطنطينية كما وأنه قد توطأ في إدانة اتجاههم نحو زارا ومدينة قسطنطين، وبذلك يكون قد سمح لقادة الحملة الصليبية الرابعة بالاتجاه قدمًا في مخططاتهم العدوانية ضد الإمبراطورية البيزنطية[٢]. إن البابوية ومنذ زمن بعيد كانت تحلم بتوحيد الكنائس وإخضاع كنيسة القسطنطينية المارقة لسيطرة كنيسة روما، ويلاحظ أن البابا أنوسنت الثالث أمر رجال الدين اللاتين في الصليبية الرابعة بضرورة إدخال الطقوس اللاتينية في كافة الكنائس البيزنطية[٣] على نحو عكس فإن ذلك الاحتلال اللاتيني توغل في كل مناحي الحياة البيزنطية من السياسة إلى الاقتصاد وإلى الدين[٤] أيضًا.

٧- **مسئولية سقوط القسطنطينية**: من الأهمية بمكان التقرير بأن مسئولية العاصمة البيزنطية موزعة بين البنادقة والبابا أنوسنت الثالث والبيزنطيين أنفسهم، ويتصور البعض أن البيزنطيين هم الضحية في كافة تلك الأحداث التي وقعت على أرض إمبراطوريتهم، غير أن الواقع التاريخي يؤكد أن بيزنطة سقطت من الداخل قبل سقوطها من الخارج، فالصراع على المنصب الإمبراطوري الذي سمح بالتدخل الأجنبي مثَّل فرصة ذهبية أمام الغرب الأوربي أحسن استغلالها من أجل توجيه ضربة قاضية لبيزنطة، ثم إن الضعف العام لتلك الإمبراطورية شجع أعداءها على الانقضاض عليها في غير هوادة[٥].

إن طوال القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري وقعت عدة شواهد دالة على حجم الأطماع اللاتينية في تلك الإمبراطورية التي توهمت أن من الممكن مسالمة الغرب اللاتيني. وأن بإمكانه إعادة أملاكها التي سيطر عليها السلاجقة، وتصورت أن لعبة توازن القوى ستظل تلعبها بكفاءة تامة غير أن الأيام أثبتت عكس ذلك تمامًا، وقد افتقد الأباطرة البيزنطيون على مدى ذلك القرن المذكور أية خطة استراتيجية عامة لدعم دفاعات إمبراطوريتهم، على نحو

(١) الحروب الصليبية بين الشرق والغرب ص٢٦٩ .
(٢) روما بيزنطة، إسحاق عبيد ص٣٤٧ .
(٣) الحروب الصليبية بين الشرق والغرب ص٢٧١ .
(٤) المصدر نفسه ص٢٧١ .
(٥) الحروب الصليبية -العلاقات بين الشرق والغرب ص٢٧٢ .

يمكنهم من مواجهة الخطر الخارجي كما ظل المنصب الإمبراطوري مطمعًا لكل طامع ومتمرد يرى أنه جدير بذلك المنصب، وكأننا أمام تاريخ مكرر وحصاد عشرات الأحداث؛ انقلابات، صراعات، واعتقالات، دونما تغير إلا في أسماء الأشخاص فقط القائمين على تلك الأدوار، وواقع الأمر أن المؤرخين الذين تباكوا على المصير الدموي لتلك الإمبراطورية وهي تُذبح بسكين الغرب الأوربي عام (١٢٠٤م/٦٠٢هـ) لم ينظروا إلى الأمور بنظرة موضوعية.

لقد صنعت بيزنطة تاريخها أحيانًا بقوة غير أنها الآن ضعفت بضعف كامل وهوان مرير، لقد ولّى زمن الأباطرة الكبار مثل: هرقل، وليو الثالث الأيسوري، وقسطنطين الخامس، وبازل الثاني، والآن لم يكن في جعبة بيزنطة في عصر هوانها إلا أباطرة صغار والأحداث كبار، وبعبارة أخرى: أباطرة يصحبونها إلى مثواها الأخير مع ملاحظات أن مقدمات ذلك التاريخ كانت بالغة الطول على مدى قرون عديدة، كما أفصحت بجلاء تلك الصفحات السابقة، ودل كل ذلك على حقيقة مهمة وهي المسئولية البيزنطية عن كارثة العام المذكو[1]، وقد يرد البعض بأن يعد ذلك تحميلًا للأمور أكثر مما تحتمل على اعتبار أن الكيان السياسي الضعيف لا يشارك في صنع التاريخ، وأن القوة الفاعلة حينذاك كان لدى الغرب الأوربي غير أن من الممكن الرد على أصحاب ذلك التوجه على اعتبار أن قوة الغرب الأوربي ما كان لها مجال حيوي تتوسع فيه اقتصاديًا وسياسيًا وكنسيًا إلا على أطلال ذلك الجسد الإمبراطوري المريض في صورة الإمبراطورية البيزنطية، وهكذا صدقت تلك المقولة التي قالها يومًا أيوستاشيوس السالونيكي ومفادها: أن الغرب الأوربي يعتقدون أن ذلك العالم ليس كبيرًا على نحو كافٍ لكي يتسع لهم ولنا (أي: البيزنطيين) ولذلك كان الإجهاز على بيزنطة يمثل تلك الصورة السالفة الذكر[2].

٨- نتائج الحملة الصليبية الرابعة: كان للحملة الصليبية الرابعة نتائج عديدة منها:

(أ) كان للحملة الرابعة تأثير بالغ على مسار المشروع الصليبي بأكمله، ويكفي أنه نتج عنه سقوط القسطنطينية لأول مرة في تاريخها منذ أن شيدها قسطنطين الكبير وافتتحها عام (٣٣٠م)، وبالتالي فقد أدت الحملة الصليبية الرابعة إلى تغيير خريطة التوزيعات السياسية لشرق أوربا إلى حد كبير، وأزالت السيادة البيزنطية قسمتها إلى عدة مناطق وأعادت تركيب المنطقة على أساس المصالح الاقتصادية، والسياسية الجديدة.

(ب) إن تلك الحملة جعلت الكثيرين من الصليبيين في بلاد الشام يقدمون إلى الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية بحثًا عن غنائم لهم على نحو أضعف الكيان الصليبي في بلاد الشام[3].

---

(١) المصدر نفسه ص٢٧٢ .

(٢) الحروب الصليبية -العلاقات بين المشرق والمغرب ص٢٧٣ .

(٣) المصدر نفسه ص٢٧٣ .

(ج) ظهر العامل الاقتصادي ليمثل عنصرًا مؤثرًا في تلك المرحلة، ولا ريب في أن الدور البندقي الفعال والتنافس مع الإمبراطورية البيزنطية حُسم لصالح البندقية[١] .

(د) إن النكبة التي نُكبت بها الإمبراطورية البيزنطية عام (١٢٠٤م/ ٦٠٢هـ) أدت إلى التمهيد - بصورة أو بأخرى- لحدوث الانهيار النهائي لها على أيدي الأتراك العثمانيين عام (١٤٥٣م/ ٨٥٧هـ) في عهد قسطنطين الحادي عشر (١٤٤٩م-١٤٥٣م/ ٨٥٣-٨٥٧هـ) بقيادة السلطان محمد الفاتح، ونستطيع وصف مرحلة القرنين والنصف قرن بين التاريخين المذكورين بأنها مرحلة احتضار بيزنطي طويل الأجل انتهى بأن خرجت بيزنطة بعده من التاريخ بجدارة، مثلما دخلته من قبل بجدارة أيضًا[٢] ، وأصبحت عاصمة الدولة العثمانية وعادت إلى مركز الريادة العالمي من جديد، وساهمت في إشعاع نور الحضارة والعلم والمعرفة في أنحاء المعمورة.

(و) ومن نتائج سقوط القسطنطينية في العام المذكور أنفًا؛ قيام عدد من الدول والإمارات البيزنطية، ففي طربيزون قامت إمارة بيزنطية تنتسب إلى آل كومنين، وقد مدت نفوذها ليشمل الشريط الساحلي للبحر الأسود من هرقلية حتى القوقاز، وفيما بعد امتد العمر بتلك الإمارة حتى عام (١٤٦١م/ ٨٦٦هـ)[٣] أي حتى بعد سقوط القلب البيزنطي السقوط الذي لا قيام من بعده، وفي أبيروس أقام ميخائيل أنجلو كومنينوس إمارة بيزنطية امتدت من ليبانتو حتى دورازوه، كذلك قام تيودور لإسكارس الذي كان صهرًا لكسيوس الثالث يجمع ما تبقى من الاستقراطية البيزنطية، وكبار رجال الكنيسة، وقام بترويج نفسه على أنه إمبراطور الرومان وذلك عام (١٢٠٦م/ ٦٠٣هـ)؛ أي بعد عامين فقط من سقوط القسطنطينية، بالإضافة إلى إمارات بيزنطية ثانوية في جابلاس في جزيرة رودس، ومانكافاس في فيلادلفيا[٤] .

والجدير بالذكر هنا؛ أن البيزنطيين تمكنوا من استعادة عاصمتهم الجريحة في عام (١٢٦١م/ ٦٦٠هـ) على يدي ميخائيل الثامن باليولوغوس (١٢٥٩-١٢٨٢م) حيث استمرت المملكة اللاتينية هناك من (١٢٠٤م/ ٦٠٢هـ-١٢٦١م/ ٦٦٠هـ) حيث استمرت المملكة اللاتينية هناك من (١٢٠٤م/ ٦٠٢هـ-١٢٦١/ ٦٦٠هـ) سبعة وخمسين عامًا، غير أن الإمبراطورية البيزنطية العائدة لم تكن قط نفس تلك الإمبراطورية السابقة، لقد عادت ظلًّا شاحبًا بعد أن هدَّها الغزو اللاتيني لمدينة القسطنطينية[٥]، ومن أراد التوسع في النتائج فليراجع الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى[٦]، للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، وقضايا

---

(١) المصدر نفسه ص٢٧٣ .
(٢) الحروب الصليبية -العلاقات بين الشرق والغرب ص٢٧٤ .
(٣) تاريخ الدولة البيزنطية ص٢١١، ٢١٢، عمر كمال توفيق.
(٤) الحروب الصليبية -العلاقات بين الشرق والغرب ص٢٧٤ .
(٥) الحروب الصليبية بين الشرق والغرب ص٢٧٥ .
(٦) الحركة الصليبية، صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي ص٧٤٠ .

العالم الإسلامي ومشكلاته السياسية بين الماضي والحاضر[1] للدكتورة فتحية النبراوي والدكتور محمد نصر مهنا.

خامسًا: محاولة الصليبيين السيطرة على بلاد الشام:

على ما يبدو أن أحوال الصليبيين بالشام كانوا ينتظرون وصول الحملة الصليبية الرابعة ليقوموا بعدها بنقض الهدنة كعادتهم، ومحاربة المسلمين والغدر بهم، وكان الملك عموري الثاني من جانبه حريصًا على عدم استفزاز المسلمين[2] ، إلا أن بعض الصليبيين الفلمنكيين والفرنسيين الذين وصلوا في نهاية سنة (١٢٠٢م) وسنة (١٢٠٣م) إلى عكا تحالفوا مع الفرسان الداوية، بقيادة رجال الدين من النصارى، واتجهوا نحو جبلة واللاذقية، ثم أرسلوا مخاطبين الملك المنصور الأيوبي أمير حماة مخوفين إياه بأن ستين ألف محارب صليبي قادم إلى الشام لمحاربتهم، غير أن الملك المنصور رد على رسول الداوية بعزم وثبات وأخبرهم بأن عزيمة المسلمين لا تقهر، وأن الحرب القادمة لا محال، وعلى السرعة جهز جيوشه وتقدم نحو اللاذقية، وهناك أنزل الصليبيين هزيمة منكرة حيث ساق أسراهم بعدها إلى حماة[3]، وفي تلك الفترة هاجم الملك عموري أسطولًا إسلاميًّا قادمًا من مصر إلى موانئ الشام، واستولى عليه بما فيه من بضائع وأمتعة قدرت بنحو ستين ألف دينار، ثم شرع بعد ذلك إلى مهاجمة الأراضي الإسلامية حيث قطع الطريق بين عكا وطبرية واستولى على ما هناك من أموال، وبذلك تأكد الملك العادل أن الملك عموري نقض العهد وعليه فقد كتب إلى سائر البلاد الإسلامية يستدعي العساكر للحرب، إلا أن حربًا حاسمة لم تقع بين الطرفين؛ لأن كلًّا منهما كان متريثًا ولا يرغب القيام بعمل حربي حاسم ضد الطرف الآخر بسبب الاعتقاد بقرب وصول الحملة الصليبية الرابعة.

ويرى المؤرخ الفرنسي غروسيه أن الملك العادل كان لا يريد أن يستنفد قواته مع الملك عموري[4] في مناوشات محلية، في حين أن الجهد يجب أن يدخر ضد الحملة الصليبية (وهي الرابعة)[5]، التي وصل خبرها إلى بلاد الشام وظن الجميع بأنها ستصل إلى بلاد الشام بعد خروجها من القسطنطينية، ولم يكن ذلك إلا أمنية الصليبيين التي لم تتحقق، ولما تأكد للملك عموري الثاني عدم وصول الحملة الصليبية الرابعة إلى الشام وأنها استقرت نهائيًّا في القسطنطينية عمد إلى الإسراع بعقد صلح مع الملك العادل الذي فضل التعامل معهم على أساس التسامح الديني والمصالح التجارية المشتركة[6] ، وهكذا تم تجديد الصلح بين الطرفين وعلى ما

---

(١) قضايا العالم الإسلامي ومشكلاته السياسية ص٦٥ .
(٢) المصدر نفسه.
(٣) تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ص٢٠١ .
(٤) تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ص٢٠١ .
(٥) المصدر نفسه ص٢٠٢ .
(٦) المصدر نفسه ص٢٠٢ .

يبدو فإن الصليبيين استفادوا كثيرًا من امتيازات هذا الصلح[١]، وعلى الرغم من أن فترة الهدنة بين المسلمين والصليبين مرت بشكل عام بسلام، إلا أنه حدث عدة مناوشات بين الطرفين كان منها زحف الملك العادل على مدينة طرابلس وحصارها حصارًا شديدًا انتهى بعقد صلح مع أميرها بوهيموند الرابع الذي سير للملك العادل هدايا ثمينة وثلاثمائة أسير مقابل موافقته على الصلح[٢].

وهنا لا بد من الإشادة بموقف الجمهور الإسلامي في بلاد الشام والذي كان بدرجة من الحماس لا يقل عما كان عليه أيام الحروب الصليبية الأولى، فقد تجمع أكثر من ثلاثين ألفًا من المسلمين في كل من دمشق، وغيرها من المدن الشامية الإسلامية الأخرى، مطالبة بالجهاد في سبيل الله، ومشجعة الملك العادل على الاستمرار في حرب التحرير، حتى إن امرأة مسلمة قطعت شعر رأسها وأرسلته للملك العادل وقالت له: اجعله قيدًا لفرسك في سبيل الله[٣].

سادسًا: الحملة الصليبية الخامسة في عهد الملك العادل:

شهدت الساحة السياسية في أوربا انقسامات حادة نتيجة الصراعات الداخلية بين البابوية والإمبراطورية في الربعين الثاني والثالث من القرن الثالث عشر الميلادي، وهو صراع كانت له انعكاسات على الحملات الصليبية، فاستعادت آنذاك المبادرة فبدلًا من توجيه الحملات إلى بلاد الشام مباشرة، برزت مصر في حساب الغربيين وبدأ الاتجاه العام في المجتمع الغربي يتحول إلى مصر كنقطة انطلاق في الطريق إلى بيت المقدس، وغدت اهتمام دعاة الحرب الصليبية وزعمائها والمتحمسين لها، بعد أن أدرك هؤلاء أنها أضحت مركز المقاومة الحقيقية في العالم الإسلامي ضد الحركة الصليبية[٤]، بالإضافة إلى مواردها الاقتصادية والبشرية الضخمة التي تزود الجيوش الإسلامية بمعين لا ينضب.

وقد أدرك المؤرخون المسلمون هذه الحقيقة فابن واصل يقول: إن الصليبيين اجتمعوا بمرج عكا للمشورة في ماذا يبدءون بقصده، فأشار عقلاؤهم بقصد الديار المصرية أولًا وقالوا: إن الملك الناصر صلاح الدين إنما استولى على الملك، وأخرج القدس والساحل من أيدي الفرنج بملكه ديار مصر وتقويته برجاله، فالمصلحة أن نقصد أولًا مصر ونملكها، وحينئذ فلا يبقى لنا مانع عن أخذ القدس وغيره من البلاد[٥].

وإذا كانت الحملة الصليبية الرابعة التي وجهت أصلًا إلى مصر قد انحرفت عن مسارها إلى القسطنطينية بفعل دوافع اقتصادية ودينية وسياسية، فإن الحملة الخامسة جُدِّد لها أن تغزو مصر

---

(١) المصدر نفسه ص٢٠٢.
(٢) المصدر نفسه ص٢٠٢.
(٣) المصدر نفسه ص٢٠٢.
(٤) الحملة الصليبية الخامسة ص١٣٩، ١٤٠، تاريخ الأيوبيين ص٢٨٥.
(٥) مفرج الكروب (٣/٢٥٨).

بعد أن اقتنع القادة الصليبيون بضرورة ضرب مصر لتأمين ممتلكاتهم في بلاد الشام واستعادة السيطرة على بيت المقدس[١]، كان الملك العادل قد تمكن من السيطرة على مقاليد الأمور وصار الشخصية البارزة في البيت الأيوبي واتبع سياسة سلمية تجاه الصليبيين بصفة عامة وفضَّل الحلول الدبلوماسية أو التلويح باستخدام القوة دون استخدامها فعليًّا؛ من ذلك أنه عقد اتفاقًا للهدنة مع الملك عموري الثاني لوزينبان في عام (١١٩٨م/ ٥٩٤هـ)[٢]، وعندما قام فرسان الاسبتارية في عام (١٢٠٧م/ ٦٠٤هـ) بشن الإغارات الحربية على مدينة حمص وكذلك استيلاء الصليبيين في قبرص في نفس العام على عدد من السفن المصرية، اكتفى العادل الأيوبي بتوجيه الإنذار للملك الصليبي برد الأسرى المسلمين[٣].

وفي الحقيقة أن العادل الأيوبي بتلك السياسة ابتعد كثيرًا عن سياسة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، ويبدو أنه كان يخشى أن يؤدي تعامله العسكري مع الصليبيين إلى قدوم حملة صليبية بنفس الثقل العسكري والسياسي للحملة الصليبية الثالثة، ومع ذلك فلا تبرر له تلك السياسة التي ستلحق الضعف بالمسلمين، وخاصة أن توجهه هذا أتى في وقت لم يكن فيه الصليبيون يتبعون تلك السياسة السلمية من جانبهم كسياسة عامة، كما أن الاتجاه السلمي له سيتزايد من بعده على نحو سيورد المسلمين إلى موارد ساحة التنازلات غير المسبوقة، كما سيأتي بيانه في عهد ابنه الملك الكامل بإذن الله تعالى، ويعلق أحد المؤرخين البارزين على الموقف قائلًا: إن ما قام به صلاح الدين من أعمال تعتبر من المنجزات ذات الأهمية البالغة ولو أتيح له حاكم آخر من طرازه لتيسر إنجاز ما تبقى من العمل ... غير أن مأساة المسلمين في العصور الوسطى كانت تتمثل في الافتقار إلى النظم الثابتة اللازمة للاضطلاع بالسلطة بعد وفاة الزعيم[٤].

على أية حال فمن الأمور المؤكدة أن الروح الصليبية ظلت تحرك الغرب الأوربي، بل تضمنت لها قطاعات لم يسبق لها الإسهام في تاريخ الحروب الصليبية، وخير مثال دل على ذلك نجده في صورة حملتي الأطفال عام (١٢١٢م/ ٦٠٩هـ).

١- حملة الأطفال: وقد حدث أن صبيًّا فرنسيًّا يدعى ستيفن من مدينة كلويس، رأى رؤيا غريبة مؤداها؛ أن السيد المسيح عليه السلام أتى إليه في المنام، وأمره بأن يدعو إلى قيام حملة صليبية إلى بلاد الشام، وقد تجمع حوله عشرات الآلاف من الأطفال، وتصور أن البحر سينشق لكي يعبر هو ورفاقه إلى القدس، واتجه الجميع إلى مرسيليا، وهلك الكثيرون من مشقة الطريق، ولما وصلوا إلى البحر لم يجدوه قد انشق، وانتهى الأمر بأن تم نقلهم بالسفن إلى فلسطين،

---

(١) تاريخ الأيوبيين ص٢٨٦ .
(٢) العادل الأيوبي صفحة من تاريخ الدولة الأيوبية ص٧٧ .
(٣) الحروب الصليبية -العلاقات بين الشرق والغرب ص٢٧٨ .
(٤) المصدر نفسه ص٢٧٨ .

ويلاحظ أن تلك الظاهرة الطارئة الجديدة لم تكن خاصة بالصبية الفرنسيين فقط، بل إنها شملت كذلك الصبية الألمان؛ إذ إن صبيًّا يدعى نيقولا ظهر في كولونيا بألمانيا، وتصور أن بإمكانه تحرير بيت المقدس، وجمع حوله الآلاف من الصبية وسلكوا طريقًا إلى إيطاليًا من خلال جبال الألب، وقد هلك الكثيرون منهم في الطريق، وهناك رأي يرى أن أولئك الصبية انتهى بهم الأمر بأن بيعوا في أسواق النخاسة في عدد من المدن الإسلامية.

والواقع أن حملة الأطفال تحتاج منا إلى وقفة؛ لأنها من أكثر الحملات الصليبية التي تعكس لنا روح ذلك العصر وطبيعته، ومن الجلي البين أن الغرب الأوربي في العصور الوسطى تعاظمت لديه الجوانب الغيبية وكذلك الرؤى والأحلام، وكل ذلك من خلال تدين عاطفي لا يعطي للعقل أي مساحة فيه إلا القليل النادر، وهكذا أن آتون الحروب الصليبية يزج فيه بأطفال صغار أبرياء، كانوا جزءًا من الهوس الديني الذي شمل الغرب الأوربي حينذاك، ودفعوا حياتهم ثمنًا لكل ذلك، ويقرر البعض أن المستوى الفكري للناس في أوربا في العصور الوسطى حينذاك ساعد على الاعتقاد في صليبية الأطفال(١)، والجدير بالذكر أن القيادات السياسية وكذلك الكنيسة لم تستطع دفعًا لذلك التوجه من جانب الأطفال؛ إذ إن ستيفن هذا لم يتمكن الملك الفرنسي فيليب أغسطس من إثنائه عن عزمه، وتكرر ذات الأمر بالنسبة لنيقولا الذي لم يتمكن البابا أنوسنت الثالث من إبعاده عن تلك الحملة الصليبية، على نحو يكشف لنا من حقيقة مهمة؛ وهي أن الهوس بالصليبية على مستوى الجماهير كان كبيرًا وأصاب ذلك الهوس حتى الأطفال البسطاء بذلك، وقد صدقهم الرجال والنساء على الرغم من عدم معقولية تصوراتهم تلك، غير أن ذلك العصر بأبنائه وتصوراتهم لم يكن ليقبل التنازل عن ذلك النمط القاصر من التفكير.

ويلاحظ أنه فيما بعد تردد لدى البعض في الغرب الأوربي أن شيخ الجبل قد شجع اثنين من الأساقفة المنشقين على الكنيسة اللاتينية على أن يهيئوا للصليبيين المذكورين تلك الرؤيا(٢)، ومن الواضح أن ذلك التصور جاء تبريرًا لتلك السقطة التي انجرف إليها المجتمع الأوربي في ذلك العصر، والأمر المؤكد أن الصليبية حينذاك اغتالت براءة الطفولة بصورة غير مسبوقة، والحقيقة الأخرى أن قطاعات المجتمع الغرب أوربي سواء الرجال والنساء والأطفال شاركوا في تلك الحركة التاريخية الكبرى ذلك شأن الحملة الصليبية للأطفال، غير أن الحركة الصليبية كان في جعبتها المزيد من سهام العدوان لتطلقها على المسلمين في الشام ومصر(٣)، ونرى أن القادة للحملات الصليبية استغلوا العاطفة الدينية المتوهجة عند العامة وشيوع الرؤى والأحلام ووظفوها لخدمة مشروعهم الصليبي.

---

(١) الحركة الصليبية (٢/ ٩٥٤) سعيد عاشور.
(٢) الحروب الصليبية -العلاقات بين الشرق والغرب ص٢٨٠ .
(٣) المصدر نفسه ص٢٨٠ .

٢- مجمع اللاتيران وجهود البابا أنوسنت الثالث: أدّت البابوية دورًا مهمًّا في الحملة الصليبية الخامسة فقد قام البابا أنوسنت الثالث (٥٩٤-٦١٣هـ/ ١١٩٨-١٢١٦م) بعمل صليبي ضخم، وسعى جاهدًا طوال مدة جلوسه على البابوية أن يفرض سيطرته على الممالك النصرانية في أوربا يوجِّهها وفق المصلحة النصرانية العامة، وقد نجح في ذلك إلى حد كبير لدرجة أنه أصبح سيدًا على كل ربوع أوربا تقريبًا، كما أن انتصار النصارى على المسلمين في موقعة العقاب (٦٠٩هـ/ ١٢١٢م) في أسبانيا شجعه على الدعوة للحملة الصليبية الخامسة، فأراد أن يتبع هذا الانتصار في الغرب بنصر آخر في الشرق[1]، ورحَّبت المدن الإيطالية التجارية بدعوة البابا نظرًا لما يعود عليها من منافع تجارية على الرغم من أن العادل منح هذه الجمهوريات بعض الامتيازات في بعض الموانئ الإسلامية وبخاصة في الإسكندرية، إلا أنهم كانوا يطمعون في الاستيلاء على هذه الموانئ.

وهناك عامل اجتماعي آخر أدَّى دورًا بارزًا في الاستجابة للدعوة البابوية، ذلك أن الحملات الصليبية كانت متنفسًا للعامة في أوربا ووسيلة للتخلص من الظلم الاجتماعي ومن دفع الديون وفوائدها، فضلًا عن البحث عن مناخ أفضل للحياة، بالإضافة إلى التكفير عن خطاياهم للقيام بالحملة المنتظرة[2] ، وبدأ البابا يعد لعقد مجمع اللاتيران الكنسي في عام (٦١٢هـ/ ١٢١٥م)، والواقع أن الدعوة للمؤتمر والحملة بدأت في عام (٦١٠هـ/ ١٢١٣م) حين أرسل البابا مندوبًا عنه إلى فرنسا؛ هو الكاردينال روبرت كورسون، من أجل هذه الغاية، وانتشرت الأنباء في فرنسا عن الحملة المرتقبة، وأبدى كثير من العامة عن استعدادهم للانضمام إليها، وأعلن البابا أن المسلمين يستعدون على ما تبقَّى من الوجود الصليبي في الشرق، وأنه لا سبيل لصمود الصليبيين إلا بالمال والرجال، وطلب من كافة النصارى حمل السلاح للقضاء على المسلمين، وكتب إلى العادل في عام (٦١٢ هـ/ ١٢١٥م) يطلب منه تسليم بيت المقدس[3] ، ولم يعبأ الملك العادل بهذا الطلب، ولم يتوقع وصول حملة صليبية في القريب العاجل، بدليل أنه لم يستعد عسكريًّا للتصدي للحملة المرتقبة، وأنه كان في مصر عندما وصلت طلائعها إلى بلاد الشام في صيف عام (٦١٤هـ/ ١٢١٧م)[4] .

انعقد المجمع في كنيسة لاتيران في روما بتاريخ (٢٠ رجب ٦١٢هـ/ ١١تشرين الثاني ١٢١٥م) للنظر في بعض الشئون الكنسية ومسألة توحيد الكنيستين الشرقية والغربية، فضلًا عن الإعداد للحملة الصليبية، وهو الهدف الرئيسي لانعقاد المؤتمر، وحضر المؤتمر كبار رجال الدين، وكبار العلمانيين من الشرق والغرب، وحشد كبير من المهتمين بالشئون الدينية

(١) تاريخ الأيوبيين ص٢٨٦ .
(٢) تاريخ الأيوبيين ص٢٨٧ .
(٣) المصدر نفسه ص٢٨٧ .
(٤) المصدر نفسه ص٢٨٧ .

والسياسية، وألقى البابا خطاب الافتتاح عبَّر فيه عما تعانيه مدينة بيت المقدس تحت حكم المسلمين، وأن هؤلاء ينتهكون حرمات كنيسة القيامة ويتهكَّمون على صليب المسيح، وهذا تعبير تقليدي كلما أراد الصليبيون في الغرب إرسال حملة صليبية إلى الشرق، وهو بعيد كل البُعد عن الحقيقة.

وأوضح البابا أن المسلمين بنوا حصنًا جديدًا على جبل الطور، وهو المكان الذي شهد عظمة المسيح ومجده، وأنهم باتوا يهدِّدون عكا وهي آخر ما تبقَّى من مملكة بيت المقدس[١]، وناقش المؤتمرون عدَّة اقتراحات فيما يتعلق بإرسال حملة صليبية إلى الشرق، وقرروا أخيرًا أن تكون وجهتها مصر، فإذا نجحوا في طرد المسلمين من هذا البلد، فإنهم يفقدون أغنى إقليم لديهم، كما أنهم لن يستطيعوا المحافظة على أسطولهم في شرقي البحر المتوسط، والاحتفاظ ببيت المقدس، إذا تعرَّضوا للهجوم المزدوج من عكا ومن السويس، وكان البابا يتجه إلى إرسال الحملة إلى بلاد الشام مباشرة، لتعويض الجهد الذي بدَّده رجال الحملة الصليبية الرابعة في القسطنطينية[٢]، وتحَّدد تاريخ (ربيع الأول ٦١٤هـ/ حزيران ١٢١٧م) موعدًا لانطلاق الحملة، وهو تاريخ انتهاء الهدنة مع المسلمين، على أن يكون ميناء برنديزي أو مسينا في صقلية مكانًا للتجمُّع، وأما الذين يفضِّلون الذهاب بطريق البر، فعليهم أن يكونوا مستعدين في ذلك التاريخ[٣]، وطلب البابا من رجال الدين أن يتخلَّوا عن منازعتهم وأحقادهم، وأن يكونوا قدوة حسنة للصليبيين، ومن العلمانيين الكفَّ عن منازعاتهم وحروبهم لمدة ثلاث سنوات، حتى يسود السلام ربوع أوربا، وتتمكَّن الحملة من القيام بالموعد المحدَّد وقدَّم إغراءات دينية لتشجيع الاشتراك في الحملة، ومنع التعامل التجاري مع المسلمين، وهدَّد كل من يخالف هذا القرار بالحرمان من الكنيسة[٤].

٣- **موقف أباطرة وملوك أوربا من الحملة**: أرسل البابا، بعد اختتام أعمال المؤتمر، الدعاة إلى أوربا للدعوة للحملة، وتركز هؤلاء في فرنسا وألمانيا، كما طافوا في إنكلترا وإيرلندا، وأسكتلندا، وكان على اتصال دائم بهم للوقوف على مدى نجاحهم في هذه المهمة[٥]، لكن البابا أنوسنت الثالث توفي في (٢٨ ربيع الآخر ٦١٣هـ/١٦تموز ١٢١٦م) قبل أن يحقَّق أعز أمنياته، وهي استرداد بيت المقدس، ولم يمضِ يومان على وفاته حتى تمَّ انتخاب خلف له وهو البابا هونوريوس الثالث (١٢١٦-١٢٢٧م) الذي كرَّس جهده وجهد المجتمع الغربي نحو الحرب الصليبية[٦]، ورأى بأنه لا بد من تهيئة المجتمع اللاتيني في الشرق وإعداده لاستقبال

(١) المصدر نفسه ص٢٨٧.
(٢) تاريخ الأيوبيين ص٢٨٨.
(٣) المصدر نفسه ص٢٨٨.
(٤) المصدر نفسه ص٢٨٨.
(٥) المصدر نفسه ص٢٨٩.
(٦) المصدر نفسه ص٢٨٩.

الحملة المرتقبة، فأرسل الكاردينال جيمس فيتري إلى الشرق، وعيَّنه أسقفًا لمدينة عكا، وكلَّفه بالدعوة للحملة، وكتب إلى الملك يوحنا بريين يشجعه، ويؤكد له عزمه على إرسال الحملة، وأنه سوف يتمِّم العمل الذي بدأه سلفه، كما كتب إلى جميع الأساقفة ورجال الدين يحثُّهم على الاستمرار في الدعوة[١].

ومن الملاحظ أن وفاة البابا أنوسنت الثالث لم تؤثر تأثيرًا بالغًا على قيام الحملة[٢]، وحث ملوك أوربا على الاشتراك بالحملة، غير أنه لم يستجب إلا عدد ضئيل منهم، فقد وعد هنري الثالث ملك إنكلترا بالذهاب مع الحملة، واعتذر فيليب أغسطس عن قيادة الحملة، وهو الذي أبدى اهتمامًا زائدًا بالقضية الصليبية، وذلك بسبب انهماكه بمحاربة ما يسمى في ذلك العصر بظاهرة الهرطقة التي انتشرت آنذاك في جنوب فرنسا وفي أقصى الشمال، وعد الملك النرويجي هاكون الثاني في قيادة الحملة، لكنه توفي في أوائل عام (٦١٤هـ/ربيع عام ١٢١٧م)، أما الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني فقد وعد البابا بالاشتراك في الحملة، وقام بنشاط ملحوظ لتعبئة المجتمع الألماني، وعلى الرغم من الآمال المعقودة عليه، فلم تظهر بوادر الوفاء بوعده، ثم اعتذر عن قيادة الحملة ووعد باللحاق بها، بحجة أن أوتوا الرابع ظهر مرة أخرى ليطالب بعرش ألمانيا؛ مما شكَّل صدمة كبيرة للبابا، ولم يبق في أوربا ممن وعدوا بالاشتراك في الحملة سوى أندريه الثاني ملك المجر[٣].

٤- طلائع الحملة -ملك المجر في بلاد الشام: تُعدُّ الجموع المجرية طليعة للحملة الصليبية الخامسة، فقد وصل الجيش المجري بقيادة الملك أندريه الثاني إلى سبالاتو في دالماشيا في شهر جمادى الآخرة عام (٦١٤هـ/ شهر أيلول ١٢١٧م) ولحق به فيها ليوبولد السادس دوق النمسا، وأبحرا منها إلى عكا، حيث هبطا فيها في (خريف عام ١٢١٧م) ولحق بهم هيو ملك قبرص بكل ما استطاع أن يجنِّده من العساكر[٤]، وأرسل ليوبولد السادس فور وصوله إلى عكا، سفارة إلى بوهموند الرابع وأحضر معه بعض الأمراء الصليبيين، وتجمَّع لدى الصليبيين أكبر جيش عرفه الشرق الإسلامي منذ الحملة الصليبية الثالثة[٥].

وعُقد مجمع للحرب في عكا في (أواخر شهر رجب/ أوائل شهر تشرين الثاني) لتحديد خطة التحرك، وتتلخَّص في قيام بعض القوات الصليبية بمهاجمة مدينة نابلس للتمويه على هدف الحملة وهو غزو مصر، بوصفها الطريق الوحيدة لهزيمة المسلمين في بلاد الشام واستعادة بيت المقدس، ولكن المجتمعين أرجئوا تنفيذ هذه الخطة بسبب قلة عدد القوات ولعدم توفر السفن اللازمة لنقل الجنود بحرًا إلى دمياط، وهي المدينة التي حدَّدوها لنزول قواتهم فيها[٦]، وتناقش

(١) تاريخ الأيوبيين ص٢٨٩ .
(٢) المصدر نفسه ص٢٨٩ .
(٣) المصدر نفسه ص٢٩٠ .
(٤) المصدر نفسه ص٢٩٠ .
(٥) المصدر نفسه ص٢٩٠ .
(٦) تاريخ الأيوبيين ص٢٩٠ .

المؤتمرون في خطة أخرى تقضي بمهاجمة بيت المقدس، ولكن تبين تعذُّر تنفيذها لعدم توفر الماء الكافي لقواتهم عند هذه المدينة، وبعد أن تعذَّر على المجتمعين تنفيذ خطة مهاجمة دمياط وبيت المقدس، قرروا مهاجمة مدينة دمشق[١]، فارتحلوا من عكا في (٤ شعبان/ ٦تشرين الثاني)، وسلكوا مرج ابن عامر، وعندما علم العادل بتحركهم، وكان في مصر، خرج منها إلى فلسطين، فوصل إلى اللد والرملة، وتابع طريقه إلى نابلس آملًا في أن يقطع الطريق عليهم عند عين جالوت، وعندما علم الصليبيون بقدومه غيَّروا خطتهم واتجهوا نحوه ليقصدوه، وساروا إلى مدينة نيسان، في الوقت الذي سار فيه العادل إلى هذه المدينة أيضًا (لحماية أطراف البلاد مما يلي عكا) وقد سبقهم إليها[٢] وصعد إلى تلك المدينة يراقب تقدمهم، وقد بلغ عددهم ما يقرب من خمسة عشر ألفًا[٣].

ونتيجة لتفوق الصليبيين عليه في العدد آثر العادل تجنُّب الاشتباك مع العدو، وانسحب من المدينة، فعارضه ابنه المعظم عيسى، فشتمه العادل وقال له: بمن أُقاتل؟ أقطعت الشام مماليكك، وتركت من ينفعني من أبناء الناس[٤]، وعسكر في مرج الصّفر وهو يتهيأ للدفاع عن دمشق، وعندما وصل الصليبيون إلى بيسان نهبوها، واستولوا على كل ما وقعت عليه أيديهم[٥]، وتشجعوا بهذا النجاح فتمادوا في مهاجمة المنطقة الواقعة بين بيسان وبانياس، وتوغلوا في داخل الأراضي الإسلامية، وانتشرت جنودهم في القرى فوصلت إلى خسفين ونوى في حوران، وأطراف السواد، وقاموا بأعمال السلب والنهب، وحاصروا بانياس وتوغلوا في داخل الأراضي الإسلامية مدة ثلاثة أيام، ثم عادوا إلى عكا محملين بالغنائم والأسرى[٦]، وبعد استراحة ثلاثة أيام بمرج عكا، توجهوا إلى مدينة صيدا، فأغاروا عليها، كما هاجموا شقيف أرنون ونهبوها، قبل أن يعودوا إلى عكا في (١٢شعبان/ ١٤تشرين الثاني)[٧].

والواضح أن الصليبيين لم يكن لهم هدف محدَّد، وساروا على غير هدى، ولا شك بأن هذه الغارات المحدودة أزعجت المسلمين، وتسبَّبت في ارتفاع الأسعار، وخاف الناس على أنفسهم، وعزموا على مغادرة البلاد، واجتمعوا في المساجد للدعاء، ولم يطمئن أهل دمشق إلا بعد أن جاء المجاهد صاحب حمص إلى مدينتهم لنجدة عمه العادل الذي خرج لاستقباله، وكان يومًا مشهودًا[٨]، كما أن العادل قلق أيضًا حتى أنه بعث بأثقاله ونسائه إلى بصرى[٩]، وأخذ يستعد للتصدي للصليبيين بعد أن جاءته الإمدادات، فجهَّز ابنه المعظم عيسى صاحب دمشق بقوة من الجند، وأرسله إلى نابلس لمنع الصليبيين من الوصول إلى بيت المقدس[١٠].

---

(١) المصدر نفسه ص٢٩١ .
(٢) المصدر نفسه ص٢٩١ .
(٣) المصدر نفسه ص٢٩١ .
(٤) ذيل الروضتين نقلًا عن تاريخ الأيوبيين ص٢٩١ .
(٥) الكامل في التاريخ نقلًا عن تاريخ الأيوبيين ص٢٩١ .
(٦) مفرج الكروب (٣/ ٢٥٥) تاريخ الأيوبيين ص٢٩١ .
(٧) المصدر نفسه (٣/ ٢٥٥) تاريخ الأيوبيين ص٢٩١ .
(٨) كتاب الروضتين نقلًا عن تاريخ الأيوبيين ص٢٩٢ .
(٩) سبط ابن الجوزي (٨/ ٥٨٣) تاريخ الأيوبيين ص٢٩٢ .
(١٠) مفرج الكروب (٣/ ٢٥٦) تاريخ الأيوبيين ص٢٩٢ .

لم يكن الملك يوحنا بريين راضيًا بما حدث، ولم يقنع بضياع الجهود الصليبية في الغارات التي لا تعود إلا بالأسلاب والغنائم، وكانت قلعة الطور من القلاع المتقدمة التي تهدِّد كيان مملكته، والتي من أجلها طلب مساعدة من الغرب الأوربي، فرأى القيام بعمل عسكري ضدها، ويبدو أن هذا الرأي لم يحظ بموافقة الجميع، فقد رفض كل من أندريه الثاني وهيو التعاون معه، وسانده بوهيموند الرابع، لذلك أعد من جانبه حملة لتدميرها، ولم ينتظر قدوم المساعدة من قِبل الجماعات الدينية العسكرية، مما أثَّر سلبًا على قدرته القتالية[1].

وصلت هذه القوة إلى القلعة يوم الأربعاء في (١٨شعبان/ ٢٠تشرين الثاني) ونفَّذت ضدها هجومين جاءت نتائجهما فاشلة، ومن الواضح أن صمود المسلمين قد فتَّ في عضد الملك الصليبي فقرر الانسحاب، وعاد إلى عكا في (٦رمضان/ ٧كانون الأول) ومعه بعض الأسرى[2]، لم يركن الصليبيون إلى الهدوء، ولم يقتنعوا بفشلهم العسكري، فرأوا القيام بعمل آخر لعلهم يحقِّقون من ورائه نصرًا يستردون به كرامتهم، فاتجهوا إلى مرجعيون وشقيف أرنون، وأثناء تواجدهم في هذه المنطقة، قرر دبونيس ابن أخت الملك أندريه الثاني مهاجمة منطقة البقاع، دون أن يحفل بنصيحة صاحب صيدا ودون أن يحصل على موافقة الملك يوحنا بريين، فتعرَّض لمصاعب جمَّة بسبب وعورة المنطقة وتلقَّى أهل البقاع قواته وفاجئوهم واستولوا على خيولهم، فقتلوا قسمًا منهم، وأسروا جماعة أخرى، وكان ديونيس من بين القتلى ولاذ من نجا منهم بالفرار[3]، ولم يقم الصليبيون بعمل عسكري ضد المسلمين بعد ذلك حتى قدوم الحملة الكبرى التي هاجمت دمياط، وقرَّر الملك أندريه الثاني في تلك الأثناء العودة إلى بلاده.

أما ليوبولد السادس دوق النمسا، فإنه بقي في الشرق حيث تعاون مع الملك بريين، وعلى هذا الشكل انتهت جهود الجموع المجرية دون أن تحقق أي إنجاز يُذكر فيما يتعلق بالموقف في بلاد الشام سوى تدمير قلعة الطور، وقد هدمها العادل بنفسه؛ نظرًا لأنها سهلة المتناول، وليس ثمة ما يدعو للإبقاء عليها[4]، كما أن الملك أندريه الثاني تسبَّب في إلحاق الضرر بالصليبيين عندما رحل إلى بلاده ومعه عدد كبير من جنوده[5]، فقد كان الموقف يحتم عليه البقاء في بلاد الشام للانضمام إلى القوات الصليبية القادمة، لمهاجمة دمياط أو للدفاع عن الممتلكات الصليبية، أثناء تواجد القوى الصليبية في مصر، والراجح أن تصرُّفه هذا كان أحد أسباب فشل الحملة الصليبية الخامسة[6].

٥- **استعدادات التجهيز**: ظل العادل الذي أضحى شيخًا متقدمًا في السن حتى آخر لحظة، يأمل في ألا تبلغ الحماقة بالصليبيين أن ينقضوا الصلح وبخاصة أنه توثَّقت العلاقات بينه وبين

---

(١) تاريخ الأيوبيين ص٢٩٢ .
(٢) تاريخ الأيوبيين ص٢٩٢ .
(٣) كتاب الروضتين نقلًا عن تاريخ الأيوبيين ص٢٩٣ .
(٤) تاريخ الأيوبيين ص٢٩٣ .
(٥) المصدر نفسه ص٢٩٣ .
(٦) المصدر نفسه ص٢٩٣ .

البنادقة الذين عقد معهم معاهدة تجارية في عام (٦٠٤هـ/١٢٠٨م)[(١)]، وشاركه في هذه الآمال ابنه الكامل محمد، نائبه في مصر وفي الوقت الذي كان فيه القادة الصليبيون في عكا، يخططون لغزو مصر، بدأت القوات الصليبية القادمة من أوربا تتوافد على عكا ابتداء من (٢٧ محرم ٦١٥هـ/ ٢٦ نيسان ١٢١٨م) وتجمَّع في هذه المدينة عدد كبير من الصليبيين القادمين من أوربا، وقد بلغ عددهم حوالي ثلاثين ألفًا، تألفوا من مجريين وإسكندنافيين ونمساويين وألمان، بالإضافة إلى القوات المحلية وبعض القوات من قبرص، وعقد الملك يوحنا بريين مجلسًا حربيًّا لترتيب الخطة العسكرية، كتحديد خط سير الحملة، وتدبير مسألة التموين، وإعداد العدد الكافي من السفن لنقل الجنود وتوفير المعدات العسكرية، وتحديد مهام كل مجموعة من الجند، كافة ما يلزم من الترتيبات لمثل هذا الهجوم الكبير الذي كانت أوربا تخطط له منذ زمن بعيد[(٢)].

ففيما يتعلق بخط سير الحملة فقد تقرر أن تسلك الحملة طريق البحر؛ لأن ذلك يُعطي الصليبيين قدرًا أكبر من الأمان، لعدم وجود قاعدة كالتي توفرت لعموري الأول في عسقلان، وذلك يجعلهم يصلون بقواتهم كاملة دون التعرض لأخطار الطريق البري، كما أن هذه القوات تصل إلى هدفها وهي في حالة من الراحة تمكِّنها من القيام بعملياتها العسكرية بنشاط، والجدير بالذكر أن هدف الحملة مدينة دمياط، إحدى المدن الثلاثة الرئيسية في مصر، بالإضافة إلى أنها أفضل المواقع للهجوم على مصر كلها، فهي أقرب الموانئ المصرية إلى الصليبيين في بلاد الشام، كما أن فرع دمياط يمثل أيضًا طريقًا سهلًا للمواصلات التي تربطهم بقواعدهم في بلاد الشام من جهة وتمكِّنهم من غزو الدلتا كلها قبل التقدم إلى القاهرة للاستيلاء عليها[(٣)].

وفيما يتعلق بقضية تموين الحملة فقد زُوِّدت بالمؤن التي تكفيها لمدة ستة أشهر[(٤)]، وتحمَّلت قبرص العبء الأكبر من هذه المواد التموينية، وتقرر كذلك استعمال السفن الراسية في سواحل بلاد الشام وعددها حوالي ثلاثمائة سفينة لنقل الجنود ودوابهم وآلاتهم ومعداتهم[(٥)]، وفي هذا الوقت الذي كانت تُنظم فيه الترتيبات، وصلت رسالة من البابا هونوريوس الثالث في (٢١ صفر عام ٦١٥هـ/ ١٨ آيار عام ١٢١٨م) تتضمَّن تعيين الكاردينال بيلا جيوس أسقف ألبانو مندوبًا عنه في الحملة الصليبية، وطلب من الجميع طاعته[(٦)].

٦- **الصليبيون ينزلون دمياط**: استقل الجيش الصليبي الذي تعداده حوالي أربعين ألفًا السفن في عكا بقيادة الملك يوحنا بريين بتاريخ (٢٦ صفر ٦١٥هـ/ ٢٣ آيار ١٢١٨م) حيث وصل إلى دمياط بعد بضعة أيام، فنزل أفراده إلى البر، ونصبوا معسكرهم على الضفة الغربية للنيل

---

(١) تاريخ الأيوبيين ص٢٩٣ .
(٢) المصدر نفسه ص٢٩٣ .
(٣) المصدر نفسه ص٢٩٤ .
(٤) تاريخ الأيوبيين ص٢٩٤ .
(٥) المصدر نفسه ص٢٩٤ .
(٦) المصدر نفسه ص٢٩٥ .

المواجهة للمدينة، وقد وجدوها محصَّنة تحصينًا قويًّا[١]، وتقع دمياط على مسافة ميلين من مصب نهر النيل، وتحميها من الخلف بحيرة تنيس[٢]، كما كانت تمتد بعرض النيل سلاسل من حديد عظام القدر والغلظ لتمنع المراكب الموصلة في بحر الملح من عبور أرض مصر[٣]، هذا بالإضافة إلى برج السلسلة وهو بمثابة حصن وسط مجرى النيل لحماية المدينة، وصدّ أي عدوان يقع عليها[٤]، وقد حال دون تقدمهم، لذلك كانت مهمتهم الأولى هي الاستيلاء على هذا البرج ليتمكَّنوا من النزول على الضفة الشرقية للنيل جنوبي المدينة فيسهل عليهم مهاجمتها[٥]، وقد فوجئ سكان دمياط بتواجد الصليبيين أمامهم يتحفزون للهجوم عليهم فاستعدوا للدفاع عن مدينتهم وقاموا بتخزين المؤن، وأرسلوا في الوقت نفسه إلى الكامل محمد الذي تحرك على رأس جيشه، واتخذ طريقه صوب المدينة، كما طلب من والي الغربية أن يجمع سائر العربان وينضمَّ إلى قواته، واستقر الجميع في المكان الذي سُمِّي بالعادلية[٦]، جنوبي دمياط ليكون على اتصال بالمدينة من جهة ويمنع الصليبيين من العبور إليها من جهة أخرى[٧].

٧- **الوضع في بلاد الشام**: عندما علم العادل بنزول الصليبيين في دمياط، وكان بمرج الصُّفر، انتقل إلى عالقين بظاهر دمشق، وبدأ بإرسال العساكر إلى مصر، حتى أنه لم يبق عنده من العساكر إلا القليل[٨]، وطلب من ابنه المعظم عيسى أن يغير على معاقل الصليبيين في بلاد الشام ليشغلهم عن دمياط[٩]، كما طلب منه تخريب قلعة الطور على الرغم من أهميتها البالغة، وذلك لسببين:

الأول: استغلال ما فيها من الرجال والعتاد لنجدة دمياط.

الثاني: خشيته من استيلاء الصليبيين عليها، إذا ملكوا دمياط، فتكون سببًا في خراب الشام[١٠].

نفَّذ المعظم عيسى أمر والده بعد تردُّد، وأرسل من في قلعة الطور إلى بيت المقدس وعجلون والكرك؛ تمهيدًا لنقلهم إلى دمياط[١١]، وطلب العادل من ابنه الآخر الأشرف موسى أن يدخل الأراضي الصليبية لمهاجمتها، وفعلًا هاجم الأشرف موسى صافيتا؛ فخرَّب ربضها، ونهب بساتينها وهدم ما حولها، ثم هاجم ربض حصن الأكراد، لكنه اضطر إلى التوقف، وعاد إلى بلاده بفعل أن ابن عمه الأفضل علي استغل فرصة انهماكه بأمر الصليبيين وهاجم حلب

(١) المصدر نفسه ص٢٩٥.
(٢) تنيس هي بحيرة المنزلة حاليًا.
(٣) المقريزي (١/٣٠٩) تاريخ الأيوبيين ص٢٩٥.
(٤) تاريخ الأيوبيين ص٢٩٥.
(٥) المصدر نفسه ص٢٩٥.
(٦) تقع العادلية بين دمياط وفارسكو على الضفة للنيل.
(٧) المقريزي (١/٣٠٩).
(٨) مفرج الكروب (٣/٢٦١).
(٩) الكامل في التاريخ نقلًا عن تاريخ الأيوبيين ص٢٩٦.
(١٠) تاريخ الأيوبيين ص٢٩٦.
(١١) الكامل في التاريخ نقلًا عن تاريخ الأيوبيين ص٢٩٦.

للاستيلاء عليها، فأرسل العادل المجاهد أسد الدين شيركوه الثاني بدلًا عنه[١]، وفور عودة الأشرف موسى إلى حلب، أرسل قوة عسكرية إلى دمياط نجدة لأخيه بقيادة أبرز أمرائه، وهم: سيف الدين كهذان، والمبارز ابن خطلح، ومبارز الدين سُنْقُر الحلبي[٢].

٨- **بداية العمليات العسكرية والصراع على برج السلسلة**: لم تنقطع المناوشات بين الطرفين منذ أن وطأت أقدام الصليبيين البر في دمياط، ولكنها لم تكن فعالة، وأدرك هؤلاء بنتيجتها فداحة الخطأ الذي ارتكبوه برسوِّهم على الضفة الغربية للنيل بدلًا من الضفة الشرقية، هذا فضلًا عن أنهم أضاعوا كثيرًا من الوقت حيث نزلوا، مما أعطى المسلمين فرصة كافية للاستعداد والدفاع[٣]، حتى صار عند الكامل من المقاتلة ما لا يكاد ينحصر عدده[٤]، وقام الصليبيون في (٢٦ ربيع الأول ٦١٥هـ/ ٢٢حزيران ١٢١٨م) بأول محاولة لاقتحام المدينة واقتربت قواتهم المهاجمة من أسوارها، وقد تسبَّب هذا الهجوم الكبير في إثارة الرعب في نفوس السكان، ولكنهم صمدوا للدفاع عن مدينتهم عندئذ أدرك الصليبيون أنهم عاجزون عن الوصول إلى المدينة، فعادوا إلى معسكرهم، بينما ظلَّت قذائف المنجنيق تنهال عليها لإلحاق الضرر بها[٥]، وتبين للقادة الصليبيين بعد محاولتهم الأولى أن برج السلسلة هو العقبة الرئيسية التي تحول دون تقدُّم السفن الصليبية، ويجب عليهم تذليلها، لذلك جهَّز فرسان الداوية سفينة شحنوها بثلاثمائة مقاتل، ودفعوها للاصطدام ببرج السلسلة وتحطيمه، لكن محاولتهم هذه فشلت في تحقيق الغاية، واضطر المهاجمون إلى التراجع تحت ضغط الحجارة والنبال التي انهالت عليهم[٦]، وكرَّر الصليبيون هجومهم فيَ (أواخر ربيع الأول وأوائل ربيع الآخر/الأسبوع الأخير من حزيران) فقام ليوبولد السادس دوق النمسا ومعه بعض الفرسان من الاسبتارية بمحاولة لتسلق أسوار المدينة، واستعمل في هذه المحاولة السلالم المتحركة المثبَّتة على السفن وانفصلت عنهم قوة عسكرية هاجمت برج السلسلة، لكن هذه المحاولة فشلت بفعل عدم تحملّ السلالم ثقل القوات الصليبية المهاجمة، كما أن النار الإغريقية التي استعملها المدافعون أبعدت الصليبيين عن البرج[٧].

ولم ييئس الصليبيون نتيجة فشلهم في اقتحام البرج والمدينة وأعدوا في (٥ربيع الآخر/تموز) خطة أخرى لاقتحامها، فجهزوا أربع سفن زوَّدوها ببعض الأبراج الصغيرة وثبَّتوها فوق سلالم متحركة لتضيف إلى الأبراج مزيدًا من الارتفاع فهاجمت ثلاث سفن برج السلسلة وتمكنت من الرِّسو أمامه في حين هاجمت السفينة الرابعة المدينة، وبذل المهاجمون مجهودًا كبيرًا كي يكفلوا

(١) مفرج الكروب (٣/ ٢٦٥-٢٦٦) تاريخ الأيوبيين ص٢٩٦ .
(٢) مفرج الكروب (٤/ ٢٣-٣٢) تاريخ الأيوبيين ص٢٩٧ .
(٣) عاشور (٢٦٧) تاريخ الأيوبيين ص٢٩٧ .
(٤) تاريخ الأيوبيين ص٢٩٧ .
(٥) المصدر نفسه ص٢٩٧ .
(٦) المصدر نفسه ص٢٩٧ .
(٧) تاريخ الأيوبيين ص٢٩٨ .

النجاح لهذا الهجوم، إلا أن الخيبة كانت إلى جانبهم في هذه المحاولة أيضًا بفعل استماتة المدافعين، وكانت خسارة الصليبيين كبيرة؛ حيث غرق عدد كبير منهم نتيجة تحطُّم السلاسل، بفعل ثقل الجنود المزوَّدين بالدروع الحديدية وابتهج المسلمون بهذا النصر[1]، نتيجة للتجارب الفاشلة السابقة عرض أوليفر بادن بورن مشروعًا جديدًا للاستيلاء على برج السلسلة، يُعدُّ مبتكرًا في الفنون العسكرية في ذلك الوقت المبكر، ويقضي بإقامة برج على سفينتين أُحكم ربطهما معًا بالحبال، وجرت تغطيته بالجلد والنحاس الأحمر لحمايته من النار الإغريقية، ووضعوا فوقه سلمًا متحركًا حتى أضحى كالقلعة العائمة[2]، هكذا أمكن مهاجمة برج السلسلة برًّا وبحرًا، ونُفِّذ الهجوم في (٢٩ جمادى الأولى/ ٢٤ آب) ونجح الصليبيون في الرسو في الجانب الشمالي الشرقي منه وأسندوا السلم المتحرك إلى جداره، كان يحمي البرج ثلاثمائة من المسلمين وجرى قتال عنيف بين الطرفين، ونجح الصليبيون في دخول برج السلسلة واستولوا عليه، وقطعوا السلاسل التي تعترض مجرى النهر، فأضحى بوسع سفنهم أن تجتاز النهر إلى أسوار[3] دمياط، ولا شك بأن سقوط برج السلسلة في قبضة الصليبيين، وتحطيم تلك السلاسل التي تحمي مجراه، جاء خسارة كبرى للمسلمين[4] ، وقد عَدَّ ذلك البرج قفل الديار المصرية[5]

٩- **وفاة الملك العادل**: أرسل الكامل محمد إلى أبيه العادل، الذي كان لا يزال معسكرًا قرب دمشق، يخبره بسقوط برج السلسلة، ويستنجد به، لكن هذا الأخير لم يتحمَّل الصدمة، فدق بيده على صدره أسفًا وحزنًا، ومرض لساعته مرض الموت، ثم توفي يوم الخميس في (٧ جمادى الآخرة ٦١٥هـ/ ٣١ آب ١٢١٨م)[6] ، ونظرًا لما قد يحدثه خبر وفاة العادل من تأثير على الروح المعنوية للجنود المسلمين المرابطين أمام دمياط، فقد أُخفي خبر الوفاة واستقر أولاده في إقطاعاتهم التي أعطاها لهم أبوهم، واتفقوا فيما بينهم على توحيد كلمتهم لمواجهة الموقف الصعب الذي نتج عن الغزو الصليبي لمدينة دمياط، والجدير بالذكر أن ابن العادل الأصغر؛ وهو المعظم عيسى، استقر في دمشق بينما خلف الكامل محمد أباه في حكم مصر، وقد وقع عليه عبء الدفاع عن دمياط وطرد المعتدين[7]

كان الملك العادل رحمه الله حازمًا متيقظًا، غزير العقل، سديد الآراء، ذا مكر شديد وخديعة، وصبورًا، حليمًا، ذا أناة وتؤدة، يسمع ما يكره ويغضي عنه كأنه لم يسمعه، كثير البذل والخرج عند الحاجة لا يقف في شيء، وأما في غير وقت الحاجة فلا، عظمت هيبته في القلوب، واتسع ملكه وواتته السعادة، وكثير أولاد، ورأى فيهم ما يحب من اتساع الممالك

(١) المصدر نفسه ص٢٩٨

(٢) المصدر نفسه ص٢٩٨

(٣) الكامل في التاريخ نقلًا عن تاريخ الأيوبيين ص٢٩٨

(٤) عاشور (٢/ ٩٦٧) تاريخ الأيوبيين ص٢٩٩

(٥) كتاب الروضتين نقلًا عن تاريخ الأيوبيين ص٢٩٩

(٦) تاريخ الأيوبيين ص٢٩٩

(٧) الكامل في التاريخ نقلًا عن تاريخ الأيوبيين ص٢٩٩

والظفر بالأعداء، وقال ابن واصل: ولم يبلغنا عن أحد من الملوك الماضين أنه رأى في أولاده ما رأى، فإنه اجتمع في كل واحد منهم من النجابة والكفاية والشهامة والفضيلة ما لا مزيد عليه، فهم كما قال الشاعر:

من تَلْقَ منهم تَقُل لاقيت سَيِّدَهُم مِثْلُ النجوم التي يَسْري بها الساري[١]

وكان للملك العادل فيما ذكره ابن واصل ستة عشر ولدًا ذكرًا سوى البنات[٢]، ومن العجائب أنه لم يحضر وفاته أحد من أولاده وخلف سبعمائة ألف دينار عينًا احتوى عليها المعظم[٣].

١٠- **دور العلماء والفقهاء في الجهاد في عهد الملك العادل**: إن الفقهاء والعلماء في تلك الفترة حثوا أولي الأمر على التصدي للصليبيين، ونزلوا إلى ميدان الجهاد مقاتلين في سبيل الله، خالعين العمائم متزيين بزي الجند، حاملين السلاح دفاعًا عن الإسلام والمسلمين، فكان في مقدمتهم الفقيه شهاب الدين بن البلاعي[٤]، الذي كان أحد الجنود المقاتلين في صد الضربات العنيفة التي وجهها الصليبيون بغتة ضد مدينة حماة عام (٦٠١هـ/ ١٢٠٤هـ) ناقضين الهدنة المنعقدة بينهم وبين صاحب حماة في العام الماضي[٥]، فخرج إليهم صاحب المدينة الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب وقاتلهم وانضم إليه جموع العامة من أهل حماة، ولكن استطاع الصليبيون بعد قتال مرير أن يأسروا خلقًا كثيرًا من أهل حماة وعادوا إلى بلادهم، وكان الفقيه شهاب الدين أحمد بن البلاعي قد أبلى بلاء حسنًا في ميدان المعركة، ورمى فارسًا ووقعت فرسه، ولكنه سقط أسيرًا، وحمل إلى طرابلس مع غيره من الأسرى، ولكن الظروف ساعدته على الهرب، ورمى بنفسه في البحر، ثم تعلق بجبال بعلبك، وجاء بعد شدائد إلى أهله سالمًا[٦].

والجدير بالذكر أن ابن واصل قال: إن هذا الفقيه كان أول أمره معممًا ثم خلع العمامة وتزيا بزي الجند[٧]، ولعل هذا يؤكد حمية وحرص الفقهاء على الجهاد بأنفسهم في سبيل الله، حماية للإسلام والمسلمين، ويضيف أبو شامة في عرضه لبطولة الفقيه ابن البلاعي قائلًا: ولولا وقوفه ما أبقوا من المسلمين أحدًا[٨].

وهناك أيضًا الفقيه سبط بن الجوزي الذي قدم من بغداد عام (٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م) واتخذ من جامع دمشق مكانًا للوعظ، فكان الناس يتزاحمون على مجالسه للاستفادة منه[٩]، وحظي عند ملوك بني أيوب، وقدموه وأحسنوا إليه[١٠]، ولم يكتف سبط بن الجوزي بالوعظ بل شارك في

---

(١) مفرج الكروب (٣/ ٢٧٢).
(٢) المصدر (٣/ ٢٧٣).
(٣) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص٢٠٢ .
(٤) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص١٧٧ .
(٥) مفرج الكروب (٣/ ١٥٤) النجوم الزاهرة (٦/ ١٨٦، ١٨٧).
(٦) مفرج الكروب (٣/ ١٦٣) دور الفقهاء والعلماء ص١٧٨ .
(٧) مفرج الكروب (٣/ ١٦٣) دور الفقهاء والعلماء ص١٧٨ .
(٨) كتاب الروضتين نقلًا عن دور الفقهاء والعلماء ص١٧٨ .
(٩) سبط بن الجوزي (٨/ ٣٣٦).
(١٠) دور الفقهاء والعلماء ص١٧٩ .

الجهاد، ونزل إلى ساحة المعارك، فيذكر في تاريخه أنه قبل خروجه ضمن جيش المسلمين المتجه من دمشق إلى نابلس عام (٦٠٧هـ/ ١٢١٠م) جلس بجامع دمشق وأخذ يعظ الناس ويحثهم على الجهاد ضد الغزاة، وقد تجمع عنده أعداد هائلة للاستمتاع إليه، فحكى لهم حكاية حثهم على الجهاد فقال: وكان قد اجتمع عندي شعور كثيرة، وقد وقفت على حكاية أبي قدامة الشامي مع تلك المرأة التي قطعت شعرها، وبعثت به إليه، وقالت: اجعله قيدًا لفرسك في سبيل الله، فعملت من الشعور التي اجتمعت عندي شكلًا للخيل للمجاهدين وكرفسات، ولما صعدت المنبر أمرت بإحضارها، فحملت على أعناق الرجال وكانت ثلاثمائة شكال، فلما رآها الناس صاحوا صيحة واحدة، وقطعوا مثلها وقامت القيامة.

ثم يستطرد السبط في وصف ما حدث بعد نزوله من المنبر بعد وعظه للناس في ذلك اليوم قائلًا: فلما نزلت من المنبر قام المبارز (والي دمشق) يطرق لي ويمشي بين يدي إلى باب الطفائيين، فتقدم إلى فرسي وأمسك بركابي وأركبني، وخرجت من باب الفرج إلى المصلى، وجميع من كان بالجامع بين يدي وسرنا من الغد إلى الكسوة ومعنا خلق مثل التراب، وكان معنا قرية واحدة يقال لها: زملكا من قرى دمشق ثلاثمائة رجل بالعدد والسلاح، وأما من غيرها فخلق كثير، والكل خرجوا احتسابًا وجئنا إلى عقبة فيق(١)، وعندما اقترب السبط وهذا الحشد الهائل من المسلمين الذين معه من نابلس، خرج إليهم الملك المعظم عيسى بن العادل يستقبلهم بفرحة غامرة، ثم جلس السبط للوعظ بجامع نابلس لتحميس الناس على قتال الصليبيين، وحضر الملك المعظم هذا الوعظ مع المسلمين، وبعد أن انتهى السبط من وعظه قال: وخرجنا إلى نحو بلاد الفرنج فخربنا وهدمنا وقطعنا أشجارهم، وأسرنا جماعة، وقتلنا جماعة، ولم يتجاسروا أن يخرجوا من عكا، فأقمنا أيامًا ثم عدنا سالمين غانمين إلى الطور المطل على الناصرة، والمعظم معنا(٢).

ويتضح مما تقدم إلى أي حد كان لوعظ سبط بن الجوزي تأثيره العميق في قلوب المسلمين، مما جعلهم يتدافعون وراءه طلبًا للجهاد في سبيل الله، وأنه لم يكتف بالجلوس في المسجد للوعظ، بل خرج تحت قيادة المعظم عيسى، وقاتل وشارك يدًا بيد مع المجاهدين في كل ما غزوه ببلاد العدو ثم عادوا جميعًا سالمين، وهكذا دائمًا كان الفقهاء والعلماء سباقين إلى كل عمل يعود بالنفع والخير على الإسلام والمسلمين، وكانوا القدوة الحسنة لبقية المسلمين(٣).

وهناك مواقف أخرى لهذه الصفوة المختارة من الفقهاء والعلماء كان لها أكبر الأثر في ازدياد الحماسة عند المسلمين وإحراز النصر على الأعداء، فكان من أهمها ذلك الموقف الذي وقفه

---

(١) عقبة فيق: مدينة بالشام بين دمشق وطبرية.

(٢) سبط بن الجوزي (٨/ ٣٥٥، ٣٥٦) دور الفقهاء ص١٨٠ .

(٣) دور الفقهاء والعلماء المسلمين ص١٨١ .

هؤلاء الفقهاء إزاء العدوان الصليبي على دمياط بقيادة ملك بيت المقدس حنا دي بريين عام (٦١٥هـ/١٢١٨م) في الحملة الصليبية الخامسة، فعندما نجح الصليبيون في الاستيلاء على برج السلسلة[١]، مدخل دمياط أرسل الملك الكامل محمد الفقيه شيخ الشيوخ صدر الدين بن حموية إلى أبيه الملك العادل يخبره بحقيقة الأوضاع ويستصرخ به[٢]، فلما وصل الشيخ صدر الدين إلى العادل وأخبره بذلك، تألم تألما شديدًا ودق بيده على صدره ومرض مرض الموت، كما كان وقع هذا الخبر السيئ شديدًا بالنسبة للفقهاء والعلماء، ويقول أبو شامة: وأذكر وأنا بدمشق حين بلغ الناس أخذ برج السلسلة، وقد شق على من يعرفه مشقة شديدة منهم شيخنا أبو الحسن السخاوي[٣] رحمه الله، ورأيته يضرب يدًا على يد، ويعظم أمر ذاك، وسمعت الفقيه عز الدين بن عبد السلام يسأل عنه، فقال: هو قفل الديار المصرية، وصدق -رحمه الله تعالى- فإني حين رأيته في سنة ثمان وعشرين بان لي صحة ما أشار الشيخ إليه[٤].

١١- **أهم معاهدات الملك العادل مع الفرنج**: بعد وفاة صلاح الدين تعرض المشروع الوحدوي الصلاحي لضعف شديد إذ لم يلبث أن دب النزاع والخلاف بين الأخوة الثلاثة إلى درجة الصراع المسلح، وقد أدى ذلك إلى إقصاء أبناء صلاح الدين عن السلطة واستقلال الملك العادل في الملك دونهم، وحصل ما كان يخشاه صلاح الدين وهو نقل السلطة من أبنائه إلى أخيه العادل، وقد تم له ذلك بعد أن تقرر الصلح بينه وبين أبناء أخيه، وبذلك أصبح سيد الموقف في مصر وبلاد الشام (٥٩٨هـ/ ١٢٠١م) وفي خضم هذا الضعف للوحدة والصراع على السلطة بين الأيوبيين، انتهز الفرنج هذه الفرصة، وحصلوا على مكتسبات على الأرض من خلال المعاهدات والاتفاقات التي عقدوها مع الملوك الأيوبيين[٥].

(أ) ففي سنة (٥٩٤هـ/١١٩٨م) عقد الملك العادل صلحًا مع الملك عموري الثاني ملك مملكة بيت المقدس في عكا، ومدة هذا الصلح ثلاث سنين، وكان الفرنج قد استولوا على بيروت وجبيل، فبقيت بأيديهم واحتفظوا بها، أما العادل فقد احتفظ بمدينة يافا، وكان قد انتزعها من الفرنج، أما مدينة صيدا فقد قسمت بين الطرفين، وكانت ظروف العادل والصراع على السلطة بين القادة الأيوبيين قد أملت عليه القبول بالصلح بعد أن راسله الفرنج بذلك[٦].

(ب) وفي سنة (٦٠١هـ/ ١٢٠٤م) عقد العادل مع الفرنج صلحًا وشرطوا أن تكون يافا لهم، واستنزلوه عن مناصفات اللد والرملة، فأجابهم على ذلك، وعقد الهدنة بينه وبينهم[٧]، والظاهر

---

(١) برج السلسلة: من شمال دمياط يصب ماء النيل إلى البحر المالح.
(٢) النجوم الزاهرة (٦/ ٢٢٢) دور الفقهاء ص١٨٢ .
(٣) دور الفقهاء والعلماء ص١٨٢ .
(٤) المصدر نفسه ص١٨٢ .
(٥) معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج، د/ غواتمه ص٦٢ .
(٦) المصدر نفسه ص٦٣ .
(٧) مفرج الكروب (٣/١٦٣)، الدبلوماسية الإسلامية ص٣٦٩ .

أن سبب منح هذه الامتيازات للفرنج هو ظروف الخلافات في دولته بالإضافة إلى أن حركة الفرنج كانت نشطة؛ سواء في أوربا أو في داخل الأراضي القسطنطينية بسبب قدوم جماعات فرنجية جديدة إلى عكا وبعض الإمارات الفرنجية الأخرى.

(ج) وفي سنة (٦٠٣هـ/ ١٢٠٧م) أبرم الملك العادل صلحًا مع بوهيمند الرابع، وكان العادل قد حاصرها وضيق عليها، فبعث إليه صاحب طرابلس يخضع له وبعث له مالًا وهدايا، وثلاثمائة أسير، ورغب في الصلح فصالحه[١].

(د) وفي سنة (٦٠٧هـ) كانت معاهدة أخرى للملك العادل مع الفرنج، حدث في هذه السنة أن تحركت القوات الفرنجية على الساحل الفلسطيني، واجتمع في عكا أعداد كبيرة منهم، فخرج الملك العادل من دمشق، واستمرت الهدنة مدة معلومة[٢]، ونلاحظ أن خسارة المسلمين تكون أكثر عندما يكونون الطرف الأضعف فتملى عليهم الشروط، وعندما يكونون الأقوى لا يخسرون بل يفرضون على عدوهم ما يريدونه هم لا ما يريده العدو[٣].

١٢- سياسة دول المدن الإيطالية تجاه الأيوبيين: في عصر الممالك الأيوبية كانت إيطاليا تتشكل من جمهوريات مستقلة، وكانت كل جمهورية منها تقوم في مدينة كبرى، مثل: البندقية، بيزا، جنوة، وأمالفي، ولكنها كُلها تتبع نمطًا اقتصاديًّا واحدًا، يقوم على التجارة البحرية، وقد تمكنوا جميعًا بفضل الأساطيل المتنوعة الضخمة من أن يُحقِّقوا أرباحًا خيالية، وأن تصل هذه المدن إلى مستويات عالية من الثروة[٤]، وقد أدركت الدولة الأيوبية حاجتها لكسب التجار الإيطاليين، فلوَّحت لهم بالمكاسب، وعقدت معهم الاتفاقات على أساس الفائدة المشتركة، تحدوا كلَّ قرارات المنع وكُل التزام ديني، ونقلوا البضائع من وإلى الموانئ الإسلامية، وخاصَّة سواحل مصر، وعلى ما يبدو أدرك المسلمون ما للمصالح الإيطالية من أهمية في بقاء الإمارات اللاتينية، وأدركوا التنافس القائم بين الجمهوريات الإيطالية وما يحدث بينهم من خلافات، وعلى هذه الأسس ركزوا اهتمامهم على التجارة الإيطالية، فمنذ أوائل عهد الدولة الأيوبية نشط التجار الإيطاليون فيها وخاصة في مصر، بعد تأمينها طريق البحر الأحمر، فموانئ الشَّام -بمعظمها- بيد الفرنج، وما هو بيد المسلمين إمَّا مُهدَّم، أو غير آمن، فزادت موارد الدولة الأيوبية من جهة، وضعف النشاط التجاري للفرنجة، وبالتَّالي مواردهم المالية، وكان للملك العادل دور كبير في تشجيع التجارة عبر مصر، ففي سنة (٦٠٨هـ/ ١٢١١م) كان يجتمع في مدينة الإسكندرية وحدها ثلاثة آلاف تاجر من الفرنج ما عدا مُرافقيهم، ومساعديهم، وعمَّالهم وبحَّار سُفُنهم، مما شكَّل حركة

---

(١) الدبلوماسية الإسلامية ص٣٩٦.

(٢) مفرج الكروب (٣/ ٢٠١).

(٣) معاهدات الصلح والسلام ص٦٤.

(٤) العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (٢/ ٢٧١).

تجارة نشطة، كانت الدولة الأيوبية بأمس الحاجة إليها لحاجتها إلى كثير من المواد المجلوبة، وللرسوم[1].

سابعًا: أهم الدروس والفوائد والعبر:

١- غلاء وفناء ووباء: في سنة (٥٩٧هـ) اشتد الغلاء بأرض مصر جدًّا، فهلك خلق كثير جدًّا من الفقراء والأغنياء ثم أعقبه فناء عظيم، حتى حكى الشيخ أبو شامة في الذيل[2] أن العادل كفَّن من ماله في مدة شهر من هذه السنة نحوًا من مائتي ألف وعشرين ألف ميِّت[3]، وأُكلت الكلاب والميتات في هذه السنة بمصر، وأُكل من الصِّغار والأطفال خلق كثير يشويه والِدَاه ويأكلانه، وكثر هذا في الناس حتى صار لا يُنكر بينهم، ثم صاروا يحتالون على بعضهم بعضًا، فيأكلون من يقدرون عليه ومن غلب من قويٍّ ضعيفًا ذبحه وأكله، وكان الرجل يُضيف صاحبَه فإذا خلا به ذبحه وأكله، وُوجد عند بعضهم أربعمائة رأس وهلك كثير من الأطبَّاء الذين يُستدعون إلى المَرضى، فيذبحون ويؤكلون، وقد استدعى رجل طبيبًا فخاف الطبيب وذهب معه على وجَلٍ، فجعل الرجل يتصدق على من وجده في الطريق ويذكر ويسبح ويكثر من ذلك، فارتاب به الطبيب وتخيَّل ومع هذا حمله الطمع على الاستمرار معه، فلمَّا وصل إلى الدار إذا هي خربة، فارتاب أيضًا، فخرج رجل من الدار، فقال لصحابه: ومع هذا البُطءِ جئت لنا بصيد، فلمَّا سمعها الطبيب هرب، فخرجا خلْفَه سِراعًا فما خلص إلا بعد جهد جهيد.

وفيها وقع وباء شديد ببلاد عنزة بين الحجاز واليمن وكانوا يسكنون في عشرين قرية، فبادت منها ثماني عشرة قرية، ولم يبق فيها ديَّار ولا نافخُ نار، وبقيت أنعامهم وأموالهم لا قانِيَ لها، ولا يستطيع أحد أن يسكن تلك القرى ولا يدخلها، بل كان من اقترب إلى شيء من هذه القرى هلك من ساعته، فسبحان من بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون، أما القريتان الباقيتان فإنهما لم يَمُت منهما أحد، ولا عندهم شعور بما جرى على من حولهم، بل هم على ما كانوا عليه لم يفقد منهم أحد[4].

٢- زلزلة عظيمة: في سنة (٥٩٧هـ) كانت زلزلة عظيمة، ابتدأت من بلاد الشام إلى الجزيرة وبلاد الرُّوم والعرَاق وكان جمهورها وعُظْمُها بالشَّام، تهدمت منها دور كبيرة، وخُسِف بقرية من أرض بُصرى، وأما السواحل فهلك فيها شيء كثير، وخربَت مِحال كثيرة من طرابلس وصور وعكَّا ونابلس، ولم يبق بنابلس سِوَى حارة السَّامرةِ ومات بها وبقُراها ثلاثون ألفا تحت الرَّدم، وسقط طائفة كثيرة من المنارة الشرقية بجامع دمشق، وأربع عشرة شُرفة منه، وغالب الكلاسة

---

(١) المصدر نفسه (٢/ ٢٧٤).
(٢) ذيل الروضتين ص١٩، البداية والنهاية (١٦/ ٧٠٣).
(٣) جواهر السلوك في أمر الخلفاء والملوك لابن إياس ص١٠٠
(٤) البداية والنهاية (١٦/ ٧٠٤).

والمارستان النوري، وخرج الناس إلى الميادين يستغيثون، وسقط غالب قلعة بعلبك مع وثاقة بنائها، وانفرق البحر إلى قبرس وحذف بالمراكب إلى ساحله، وتعدَّى إلى ناحية الشرق فسقط بسببها دور كثيرة، ومات أمم لا يُحصون حتى قال صاحب مرآة الزمان: إنه مات في هذه السنة بسبب الزلزلة نحو من ألف ألف ومائة ألف إنسان[١].

٣- وفاة الشيخ أبو الفرج بن الجوزي: عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن جعفر الجوزي قال عنه الذهبي: الإمام العلَّامة، الحافظ المفسِّر، شيخ الإسلام، مفخرة العراق، جمال الدين، ويرجع في نسبه إلى الفقيه القاسم بن محمد ابن خليفة رسول الله أبي بكر الصديق، القرشي التَّيمِيُّ البكري البغدادي، الحنبلي، الواعظ صاحب التصانيف، ولد سنة تسع أو عشرين وخمسمائة[٢]، كان رأسًا في التذكير بلا مدافعة، يقول النظم الرائق والنثر الفائق بديهًا، ويُسهِبُ، ويُعجِبُ، ويُطربُ، ويُطنِبُ، لم يأت قبله ولا بعده مثله، فهو حامل لواء الوعظ، والقيِّم بفنونه مع الشكل الحسن، والصوت الطيِّب، والوقع في النفوس، وحسن السيرة، وكان بحرًا في التفسير، علامةً في السير والتاريخ، موصوفًا بحسن الحديث ومعرفة فنونه، فقيهًا عليمًا بالإجماع والاختلاف، جيد المشاركة في الطب، ذا تفنُّن وفهم وذكاء وحفظ واستحضار، وإكباب على الجمع والتصنيف، مع التعوث والتحمل، وحسن الشارة، ورشاقة العبارة، ولطف الشمائل والأوصاف الحميدة، والحرمة الوافرة عند الخاص والعام، ما عرفت أحدًا صنف ما صنف[٣] ... وكان ذا حظ عظيم وصيت بعيد في الوعظ، يحضر مجالسه الملوك والوزراء وبعض الخلفاء والأئمة والكبراء، لا يكاد المجلس ينقص عن ألوف كثيرة، حتى قيل في بعض مجالسه: إن حُزِرَ الجمع بمائة ألف، ولا ريب أن هذا ما وقع، ولو وقع، لما قدر أن يُسمِعهم، ولا المكان يسعهم[٤].

قال سبطه أبو المظفر: سمعت جدِّي على المنبر يقول: بأصبعيَّ هاتين كتبتُ ألفي مجلدة، وتاب على يديَّ مائة ألفٍ، وأسلم على يديَّ عشرون ألفًا، وكان يختم في الأسبوع، ولا يخرج من بيته إلَّا إلى الجمعة أو المجلس[٥]، علق الذهبي فقال: فما فعلت صلاة الجماعة[٦].

(أ) من غرر ألفاظه: عقارب المنايا تلسع، وخَدَران جسم الآمال يمنع، وماء الحياء في إناء العمر يرشح[٧]، يا أمير: أذكر عند القدرة عدل الله فيك، وعند العقوبة قدرة الله عليك، ولا تشف غيظك بسقم دينك[٨]. وقال لصديق: أنت في أوسع العذرِ من التأخر عني لثقتي بك، وفي

---

(١) البداية والنهاية (١٦/ ٧٠٦).
(٢) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٦٦).
(٣) المصدر نفسه (٢١/ ٣٦٧).
(٤) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٧٠).
(٥) المصدر نفسه (٢١/ ٣٧٠).
(٦) المصدر نفسه (٢١/ ٣٧٠).
(٧) المصدر نفسه (٢١/ ٣٧١).
(٨) المصدر نفسه (٢١/ ٣٧١).

أضيقه من شوقي إليك[١]. وسأله آخر في أيام ظهور الشيعة: أيهما أفضل أبو بكر أم علي؟ فقال: أفضلهما من كانت بنته تحته، وهذه عبارة محتملة تُرضي الفريقين[٢]، وسأله آخر: أيُّما أفضل: أسبّحُ أو أستغفرُ؟ قال: الثوبُ الوسخ أحوج إلى الصابون من البخور[٣]، وقال: من فتح طاب عيشه، ومن طمع طال طيشه [٤]، والتفت يومًا ناحية الخليفة وهو في الوعظ فقال: يا أمير المؤمنين، إن تكلمت خِفتُ منك، وإن سكت خِفتُ عليك، وإن قول القائل: اتق الله، خيرٌ لكم من قوله: إنكم أهل بيت مغفور لكم، وكان عمر بن الخطاب يقول: إذا بلغني عن عامل أنه ظالم فلم أغيِّره، فأنا الظالم، يا أمير المؤمنين وكان يوسف لا يشبع في زمن القحط حتى لا ينْسَى الجيعان، وكان عمر يضرب بطنه عام الرمادة ويقول: قرقر أو لا تُقرِقرْ، والله لا سمنًا ولا سَمينًا حتى يُخصب الناس، قال: فتصدق الخليفة المستفيء بمال جزيل، وأطلق المحابيس، وكسا خلقًا من الفقراء[٥].

(ب) مصنفاته: وله من المصنَّفات في ذلك ما يضيق هذا المقام عن تعدادِها، وحصر أفرادها؛ منها كتابه في التفسير الشهير بزاد المسير، وله أبسط منه ولكنَّه ليس بمشهور ولا منكور، وله جامع المسانيد استوعب فيه غالب مسند الإمام أحمد وصحيحي البُخاري ومسلم وجامع الترمذي، وله كتاب المنتظم في تواريخ الأمم من العرب والعجم، في عشرين مجلدًا ... فلم يزل يؤرِّخ أخبار العالم حتى صار هو تاريخًا وما أحقه بقول الشاعر:

ما زلتَ تدأب في التاريخ مُجتهدًا ... حتى رأيتُك في التاريخ مكتوبًا[٦]

وله مقامات وخطب، وله الأحاديث الموضوعة، والعلل المتناهية في الأحاديث الواهية، وغير ذلك[٧].

(ج) من أشعاره: قال ابن كثير: وقد كان فيه بهاء، وترفع في نفسه، ويسمُو بنفسه أكثر من مقامه، وذلك هو ظاهر في نثره ونظمه، فمن ذلك قوله:

ما زلت أدرك ما غَلا بل ما علا ... وأُكابد النَّهج العسِيرَ الأطْوَلا
تجري بي الآمال في حَلَباته ... طلق السَّعيد جَرى مدَى ما أمَّلا
يُفضي بي التوفيق فيه إلى الذي ... أعمى سِوَاي تَوصُّلًا وتَغلغُلا
لو كان هذا العلم شخصًا ناطقًا ... وسألته هل زُرت مثلي قال لا[٨]

---

(١) المصدر نفسه (٢١/ ٣٧١).
(٢) المصدر نفسه (٢١/ ٣٧١).
(٣) المصدر نفسه (٢١/ ٣٧٥).
(٤) المصدر نفسه (٢١/ ٣٧٥).
(٥) البداية والنهاية (١٦/ ٧٠٩).
(٦) المصدر نفسه (١٦/ ٧٠٧).
(٧) البداية والنهاية (١٦/ ٧٠٧).
(٨) المصدر نفسه (١٦/ ٧٠٨).

ومن شعره أيضًا قوله:

يا ساكن الدُّنيا تأهَّب ... وانتظر يوم الفِراق
وأَعِدَّ زادًا للرَّحيل ... فسوف يُحدى بالرِّفاق
وابكِ الذُّنوب بأدمع ... تنهل من سُحُب المآقي
يا من أضاع زمانه ... أرضيت ما يفنى بباق[١]

(س) وفاته: كانت وفاته في ليلة الجمعة بين العِشاءين الثاني عشر من شهر رمضان من سنة ٥٩٧هـ) وله سبع وثمانون سنة، وحُملت جنازته على رءوس الناس، فدفن بباب حرب عند أبيه بالقرب من الإمام أحمد، وكان يومًا مشهودًا، حتى قيل: إنَّه أفطر جماعة من الناس بسبب شدة الحر وكثرة الزحام، رحمه الله وقد أوصى أن تكتب على قبره هذه الأبيات:

يا كثير العفوِ عمَّن ... كَثُر الذنب لديه
جاءك المذنبُ يرجو ... الصَّفح عن جُرمِ يديه
أنا ضيف وجزاء ... الضيف إحسان إليه[٢]

وقد كان للشيخ جمال الدين بن الجوزي من الأولاد الذكور ثلاثة: عبد العزيز وهو أكبر أولاده، مات شابًّا في حياة والده، ثم أبو القاسم عليّ وقد كان عاقًّا لوالده إلبًا عليه في زمن المحنة وغيرها، وقد تسلَّط على كتبه في غيبته بواسط، فباعها بأبخس الأثمان، ثم محي الدين يوسف وكان أنجب الأولاد وأصغرهم، ولد سنة ثمانين وخمسمائة ووعظ بعد أبيه، واشتغل وحرَّر وأتقن وساد أقرانه، ثم باشر حسبة بغداد ثم كان رسول الخلفاء إلى الملوك بأطراف البلاد، ولا سيما إلى بني أيوب بالشَّام، وقد حصل منهم من الأموال والكرامات ما ابتنى به المدرسة الجوزية التي بالنَّشابين بدمشق، ثم صار أستاذ دار الخليفة المستعصم في سنة أربعين وستمائة، واستمر مُباشرها إلى أن قُتل مع الخليفة عام هولاكو بن تُورلى بن جنكيز خان وكان لأبي الفرج عدّةُ بنات منهن رابعة أم سبطه أبي المظفر بن قزاو علي صاحب مرآة الزمان، وهي كتاب من أجمع التواريخ وأكثرها فائدة، وقد ذكره ابن خلكان في الوفيات، فأثنى عليه ومدحه وشكر تصانيفه وعلومه[٣].

٤- العماد الكاتب الأصبهاني: القاضي الإمام العلامة المفتي، المنشئ البليغ، الوزير، عماد الدين، أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمود الأصبهاني الكاتب، ويعرف بابن أخي العزيز، قدم بغداد، فنزل النظامية، وبرع في الفقه، وأتقن العربية والخلاف وساد في علم التَّرسُّل، وصنف التصانيف واشتهر ذكره[٤] ورحل إلى الشام، فحظي عند نور الدين محمود زنكي وكتب بين يديه وولَّاه المدرسة التي أنشأها داخل

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٧٣).
(٢) البداية والنهاية (١٦/ ٧١٠).
(٣) البداية والنهاية (١٦/ ٧١١).
(٤) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٤٥).

باب الفَرَجِ التي يقال لها: العمادية نسبة إلى العماد هذا لكثرة إقامته بها[١]، ولما تُوفي نور الدين، أُهمل، فقصد الموصل، ومرض، ثم عاد إلى حلب وصلاح الدين محاصر لها سنة (٥٧٠هـ) فمدحه ولزم ركابه، فاستكتبه وقرَّبه، فكان القاضي الفاضل ينقطع بمصر لمهمَّات، فيسدُّ العماد في الخدمة مسده[٢]، ولم يزل العماد على مكانته إلى أن توفي صلاح الدين، فاختلف أحواله، فلزم بيته، وأقبل على تصانيفه[٣]، وتوفي في أول رمضان سنة سبع وتسعين وخمس مائة ودفن بمقابر الصوفية[٤].

٥- مكلبة بن عبد الله المستنجدي: كان تركيًّا عابدًا زاهدًا، سمع المؤذِّن وقت السحر وهو ينشد على المنارة:

يا رجَالَ اللَّيلِ جدُّوا رُبَّ صوْتٍ لا يُرَدُّ
ما يقوم الليل إلا من له عزم وجِدُّ

فبكى مكلبة وقال للمؤذن: زِدني، فقال المؤذِّن:

قد مضى الليلُ وَولَّى وحبيبي قد تجلَّى

فصرخ مكلبة صرخة كان فيها حتفه، فأصبح أهل البلد قد اجتمعوا على بابه، فالسعيد من وصل إلى نعشه[٥] وقد توفي (٥٩٧هـ).

٦- الحافظ عبد الغني المقدسي (توفي عام ٦٠٠هـ): الإمام العالم، الحافظ الكبير، الصادق القدوة، العابد الأثريُّ المتبع عالم، الحفاظ تقيُّ الدين أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي سمع الكثير بدمشق والإسكندرية، وبيت المقدس، ومصر وبغداد، وحرَّان، والموصل وأصبهان، وهمذان، وكتب الكثير[٦] ولم يزل يطلب ويسمع ويكتب ويَسهَر ويدأب، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويتقي الله، ويتعبد ويصوم ويتهجد، وينشر العلم إلى أن مات، رحل إلى بغداد مرتين، وإلى مصر مرتين، سافر إلى بغداد هو وابن خاله الشيخ الموفَّق في أول سنة إحدى وستين، فكانا يخرجان معًا ويذهب أحدهما في صحبة رفيقه إلى درْسه وسماعه، كانا شابين مُختطين[٧] وخوَّفهما الناس من أهل بغداد، وكان الحافظ ميله إلى الحديث والموُفَّق يريد الفقه، فتفقه الحافظ وسمع الموفق معه الكثير، فلما رآهما العقلاء على التصوَّن وقلة المخالطة أحبّوهما وأحسنوا إليهما، وحصَّلا علمًا جمًّا، فأقاما ببغداد أربع سنين، ونزل أولًا عند الشيخ عبد القادر الجيلاني فأحسن إليهما، ثم مات بعد قدومهما بخمسين ليلة، ثم اشتغلا بالفقه والخلاف على ابن المني ورحل الحافظ إلى السِّلفي[٨] في سنة ست وستين، فأقام مدة، ثم

(١) البداية والنهاية (١٦/ ٧١١).
(٢) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٤٦).
(٣) المصدر نفسه (٢١/ ٣٤٧).
(٤) المصدر نفسه (٢١/ ٣٤٨).
(٥) البداية والنهاية (١٦/ ٧١٤).
(٦) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٤٤٤).
(٧) يعني: أول ظهور الشعر في وجهيهما.
(٨) كان السِّلفي آنذاك مقيمًا بالإسكندرية.

رحل أيضًا إلى السِّلفي سنة سبعين[١]، وكان ليس بالأبيض الأمهق[٢] ، بل يميل إلى السُّمرة، حسن الشعر، كث اللحية، واسع الجبين، عظيم الخلق، تام القامة، كأنَّ النور يخرج من وجهه، وكان قد ضعف بصره من البكاء والنَّسخ والمطالعة[٣].

(أ) **تصانيفه**: من تصانيفه؛ المصباح في عيون الأحاديث الصحاح، نهاية المراد، تحفة الطالبين في الجهاد والمجاهدين، فضائل خير البرية، الروضة، التهجد، الفرج، الصِّلات إلى الأموات، الصِّفَات، محنة الإمام أحمد، ذم الرياء، ذم الغيبة، الترغيب في الدعاء، فضائل مكة، الأمر بالمعروف، فضل رمضان، فضل الصَّدقة، فضل عشر ذي الحجة، فضل الحج، وفاة النبي ﷺ، الأقسام التي أقسم بها النبي ﷺ، اعتقاد الشافعي، الحكايات، تحقيق مشكل الألفاظ، الجامع الصغير في الأحكام، ذكر القبور، مناقب عمر بن عبد العزيز، مناقب الصحابة، الأدعية الصحيحة، الكمال في معرفة رجال الكتب الستة، تبيين الإصابة لأوهام حصلت لأبي نُعَيم في معرفة الصحابة [٤]، وغيرها من الكتب.

(ب) **حفظه**: كان الحافظ عبد الغني لا يكاد يُسأل عن حديث إلَّا ذكره وبينه وذكر صحَّته وسقمه، ولا يسأل عن رجل إلا قال: هو فلان بن فلان الفُلاني ويذكر نسبه، فكان أمير المؤمنين في الحديث [٥] وقال رجل للحافظ عبد الغني: رجل حلف بالطلاق أنك تحفظ مائة ألف حديث، فقال: لو قال أكثر لصدق، وقال إسماعيل بن مظفر: ورأيت الحافظ على المنبر غير مرة يقول له: اقرأ لنا من غير كتاب فيقرأ أحاديث بأسانيدها من حفظه[٦]، وسمعت ابنه عبد الرحمن يقول: سمعت بعض أهلنا يقول: إن الحافظ سُئِل: لِمَ لا تقرأ من غير كتاب؟ قال: أخاف العُجْب[٧] ، وسمعت خالي أبا عمر، أو والدي قال: كان الملك نور الدين بن زنكي يأتي إلينا وكنا نسمع الحديث، فإذا أشكل شيء على القارئ قاله الحافظ عبد الغني، ثم ارتحل إلى السِّلفيّ فكان نور الدين يأتي بعد ذلك، فقال: أين ذاك الشاب؟ فقلنا: سافر[٨].

(ج) **إفادته واشتغاله**: وكان رحمه الله مُجتهدًا على الطلب يكرم الطَّلبة ويُحسن إليهم، وإذا صار عنده طالب يَفْهَم أمره بالرَّحلة ويفرح لهم بسماع ما يحصلونه، يقول الضياء: سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن محمد الحافظ يقول: ما رأيت الحديث في الشام كلِّه إلا ببركة الحافظ، فإنني كل من سألته يقول: أوّل ما سمعت على الحافظ عبد الغني، وهو الذي حرَّضني[٩]، وكان رحمه الله يقرأ الحديث يوم الجمعة بجامع دمشق وليلة الخميس ويجتمع خلق، وكان يقرأ ويبكي ويُبكي الناس كثيرًا، حتى إن من حضره مرَّة لا يكاد يتركه، وكان إذا فرغ دعا دُعاءً كثيرًا.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢١/٤٤٦).
(٢) الأمهق: الأبيض لا يخالطه حُمرة.
(٣) سير أعلام النبلاء (٢١/٤٤٦).
(٤) المصدر نفسه (٢١/٤٤٧).
(٥) المصدر نفسه (٢١/٤٤٧).
(٦) المصدر نفسه (٢١/٤٤٩).
(٧) المصدر نفسه (٢١/٤٤٩).
(٨) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٤٥٠).
(٩) المصدر نفسه (٢١/ ٤٥٠).

(ح) **أوقاته**: كان لا يُضيِّع شيئًا في زمانه بلا فائدة، فإنه كان يُصلي الفجر، ويلقِّن القرآن، وربما أقرأ شيئًا من الحديث تلقينًا، ثم يقوم فيتوضأ ويصلي ثلاثمائة ركعة بالفاتحة والمعوذتين إلى قبل الظهر، وينام نومة ثم يصلي الظُّهر، ويشتغل إما بالتسميع أو بالنسخ إلى المغرب، فإن كان صائمًا أفطر وإلا صلَّى المغرب إلى العشاء، ويصلي العشاء، وينام إلى نصف الليل أو بعده، ثم قام كأنَّ إنسانًا يوقظه، فيصلِّي لحظة ثم يتوضأ ويصلِّي إلى قُرب الفجر، ربما توضأ سبع مرات أو ثمانيًا بالليل، وقال: ما تطيب لي الصلاة إلا ما دامت أعضائي رطبة، ثم ينام نومة يسيرة إلى الفجر وهذا دأبه[١]، قال أخوه الشيخ العماد: ما رأيت أحدًا أشد محافظة على وقته من أخي[٢].

(س) **قيامه في المنكر واحترام الملك العادل له**: كان لا يرى منكرًا إلا غيَّره بيده أو بلسانه، وكان لا تأخذه في الله لومة لائم، قد رأيته مرة يهريق خمرًا فجبذا صاحبه السيف فلم يخف منه، وأخذه من يده، وكان قويًّا في بدنه، وكثيرًا ما كان بدمشق ينكر ويكسر الطَّنابير والشَّبابات[٣]، وذات يوم دخل الحافظ عبد الغني على العادل فقام له، فلما كان اليوم الثاني جاء الأمراء إلى الحافظ مثل سركس وأُزكشي، فقالوا: آمنَّا بكراماتك يا حافظ، وذكروا أن العادل قال: ما خفت من أحد ما خفت من هذا، فقُلنا: أيها الملك، هذا رجل فقيه، قال: لما دَخل ما خُيِّل إليَّ إلا أنه سبع[٤]، قال الضياء: رأيت بخط الحافظ: والملك العادل اجتمعت به وما رأيت منه إلَّا الجميل، فأقبل عليَّ، وقامَ لي، والتزمني ودعوت له ثم قلت: عندنا قصور هو الذي يوجب التقصير، فقال: ما عندك لا تقصير ولا قصور، وذكر أمر السنُّة فقال: ما عندك شيء تُعاب به لا في الدين ولا الدنيا، ولا بد للناس من حاسدين[٥].

وقال الضياء: كانوا قد وغروا عليه صدر العادل، ويتكلموا فيه، وكان بعضهم أرسل إلى العادل لبذل في قتل الحافظ خمسة آلاف دينار[٦]. قال الذهبي: جرَّ هذه الفتنة نشر الحافظ أحاديث النزول والصفات فقاموا عليه، ورموه بالتَّجيسم، فما دارى كما كان يداريهم الشيخ المُوَفَّق[٧]، وقال: سمعت بعض أصحابنا يحكي عن الأمير درباس أنه دخل مع الحافظ إلى الملك العادل فلما قضى الملك كلامه مع الحافظ، جعل يتكلم في أمر ماردين وحصارها فسمع الحافظ فقال: إيش هذا، وأنت بعدُ تريد قتال المسلمين ما تشكر الله فيما أعطاك، أما . . . ؟ قال: فما أعاد ولا أبدي ثم قال الحافظ: ضرب الله رقبته ورقبة السُّلطان، فمضى الرسول وخفنا، فما جاء أحد[٨].

(١) المصدر نفسه (٢١/ ٤٥٢).
(٢) المصدر نفسه (٢١/ ٤٥٣).
(٣) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٤٥٥).
(٤) المصدر نفسه (٢١/ ٤٥٥).
(٥) المصدر نفسه (٢١/ ٤٥٥).
(٦) المصدر نفسه (٢١/ ٤٥٥).
(٧) المصدر نفسه (٢١/ ٤٥٥).
(٨) المصدر نفسه (٢١/ ٤٥٥).

(ش) ومن شمائله: قال الضياء: ما أعرف أحدًا من أهل السُّنة رآه إلا أَحَبَّه ومَدَحه كثيرًا، سمعت محمود بن سلامة الحراني بأصبهان قال: كان الحافظ يصطف الناس في السُّوق ينظرون إليه، ولو أقام بأصبهان مدة وأراد أن يملكها لملكها. قال الضياء: ولمَّا وصل إلى مصر كُنَّا بها، فكان إذا خرج للجُمعة لا نقدر نمشي معه من كثرة الخلق، يتبركون به ويجتمعون حوله، وكُنَّا أحداثًا نكتب الحديث حوله، فضحكنا من شيء وطال الضحك، فتبسم ولم يَحْرد[1] علينا، وكان سخيًّا جوادًا لا يدخر دينارًا ولا درهمًا مهما حصَّل أخرجه، لقد سمعت عنه أنه يخرج في الليل بقفاف الدقيق إلى بيوت مُتنكِّرًا في الظلَّمة، فيعطيهم ولا يُعرَف، وكان يُفْتَح عليه بالثِّياب فيعطي الناس وثوبُه مُرقع، وبعث الأفضل بن صلاح الدين إلى الحافظ بنفقه وقمح كثير ففرّقه[2] كله. وقال الضياء: سمعت أحمد بن عبد الله العراقي: حدثني منصور الغضاري قال: شاهدت في الغلاء بمصر وهو ثلاث ليال يؤثر بعشائه ويطوي ورأيت يومًا قد أهدي إلى بيت الحافظ مشمش فكانوا يفرقون، فقال من حينه: فرّقوا ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران: ٩٢] وقد فتح له بكثير من الذهب وغيره فما يترك شيئًا حتى قال لي ابنه أبو الفتوح: والذي يعطي الناس الكثير ونحن لا يبعث إلينا شيئًا، وكنا ببغداد[3].

(و) وفاته: قال أبو موسى: مرض أبي في ربيع الأول مرضًا شديدًا منعه من الكلام والقيام، واشتد ستة عشر يومًا، وكنت أسأله كثيرًا: ما يشتهي؟ فيقول: أشتهي الجنة، أشتهي رحمة الله، لا يزيد على ذلك، فجئته بماء حار فمدَّ يده فوضأته وقت الفجر، فقال: يا عبد الله، قم صلِّ بنا وخفف، فصليت بالجماعة، وصلى جالسًا، ثم جلست عند رأسه، فقال: اقرأ (يس) فقرأتها، وجعل يدعو وأنا أؤمِّن، فقلت: هنا دواء تشربه، قال: يا بني ما بقي إلا الموت، فقلت: ما تشتهي شيئًا؟ قال: أشتهي النَّظر إلى وجه الله سبحانه، فقلت: ما أنت عني راضٍ؟ قال: بَلَى والله. فقلت: ما توصي بشيء؟ قال: ما لي على أحد شيء ولا لأحد عليَّ شيء، قلت: توصيني؟ قال: أوصيك بتقوى الله والمحافظة على طاعته، فجاء جماعة يعودونه، فسلموا، فردَّ عليهم، وجعلوا يتحدثون، فقال: ما هذا ؟ اذكروا الله، قولوا: لا إله إلاَّ الله، فلما قاموا جعل يذكر الله بشفتيه ويشير بعينيه، فقمت لأناول رجلًا كتابًا من جانب المسجد، فرجعت وقد خرجت روحه رحمه الله، وذلك يوم الاثنين والعشرين من ربيع الأول سنة ستمائة (٦٠٠هـ)[4].

٦- فخر الدين الرازي (تُوفي ٦٠٦هـ): العلامة الكبير ذو الفنون فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين القُرشيُّ الكبري الطبرستاني الأصولي المفسر، كبير الأذكياء والحكماء والمصنفين[5]،

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٤٥٧).
(٢) المصدر نفسه (٢١/ ٤٥٧).
(٣) المصدر نفسه (٢١/ ٤٥٨).
(٤) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٤٦٧، ٤٦٨) جهود علماء السلف ص٦٧٣.
(٥) المصدر نفسه (٢١/ ٥٠٠، ٥٠١).

ولد سنة أربع وأربعين وخمسمائة، واشتغل على أبيه الإمام ضياء الدين خطيب الرَّي، وانتشرت تواليفه في البلاد شرقًا وغربًا، وكان يتوقد ذكاءً، ترجمته وقد بدت منه في تواليفه بلايا وعظائم وانحرافات عن السنة، والله يعفو عنه، فإنه توفي على طريقة حميدة والله يتولى السَّرائر(١)، وقد كان معظمًا عند ملوك الخوارزمية وغيرهم، وبنيت له مدارس كثيرة في بلدان شتى، وملك من الذهب العين ثمانين ألف دينار، وغير ذلك من الأمتعة والمراكب والأثاث والملابس، وكان له خمسون مملوكًا من الترك، وقد كان يعقد مجلس الوعظ فيحضر عنده الملوك والوزراء والعلماء والأمراء والفقهاء، والعامة والغوغاء، وكانت له عبادة وأوراد وقد وقع بينه وبين الكرامية في أوقات شتَّى، فكان يُبغضهم ويبغضونه، ويبالغ في ذمِّهم ويبالغون في الحَطِّ عليه، وكان مع غزارة علمه وتبحره في فنِّ الكلام يقول: من لزم مذهب العجائز كان هو الفائز، وقد رجع في آخر حياته إلى طريقه السلف وتسليم ما ورد على الوجه المراد اللائق بجلال الله تعالى(٢)، فقد قال: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فمار رأيتها تشفي عليلًا ولا تروي غليلًا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] وأقرأ في النص: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ومن جرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي(٣).

ومما كان يُنشِدهُ في بعض مصنَّفاته:

نهايةُ إقدام العقول عِقال ... وأكثر سعي العالمين ضلالُ
وأرواحنا في وحشة من جُسومنا ... وحاصل دُنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قِيل وقالوا(٤)

وقال ابن الصلاح: أخبرني القطب الطوعاني مرَّتين، أنه سمع فخر الدين الرّازي يقول: يا ليتني لم أشتغل بعلم الكلام وبكى(٥)، وأنشد يومًا معاتبًا لأهل هراة:

المرء ما دام حيًّا يستهان به ... ويعظم الرُّزْءُ فيه حين يفتقد(٦)

(د) **وصية الفخر الرازي**: حين مرض الفخر رحمه الله وأحسن بدنو الأجل أملى وهو في شدة مرضه على تلميذه إبراهيم بن أبي بكر بن علي الأصفهاني وصيته، وذلك في يوم الأحد الحادي والعشرين من شهر محرم سنة (٦٠٦هـ) وامتد مرضه بعدها إلى أن تُوفي(٧)، ونص وصية الرازي هي:

---

(١) المصدر نفسه (٢١/٥٠١).
(٢) البداية والنهاية (١٧/١٢).
(٣) سير أعلام النبلاء (٢١/٥٠١).
(٤) البداية والنهاية (١٧/١٣).
(٥) شذرات الذهب (٧/٤١).
(٦) المصدر نفسه (٧/٤٢).
(٧) وصايا وعظات قيلت في آخر الحياة ص١٧٢ .

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول العبد الراجي رحمة ربه، الواثق بكرم مولاه، محمد بن عمر بن الحسين الرازي، وهو في آخر عهده بالدنيا، وأول عهده بالآخرة، وهو الوقت الذي يلين فيه كل قاس، ويتوجه إلى مولاه كل آبق:

- إنني أحمد الله تعالى بالمحامد التي ذكرها أعظم ملائكته في أشرف أوقات معارجهم، ونطق بها أعظم أنبيائه في أكمل أوقات مشاهدتهم، بل أقول كل ذلك من نتائج الحدوث والإمكان، فأحمده بالمحامد التي تستحقها ألوهيته، ويستوجبها كمال ربوبيته، عرفتها أولم أعرفها؛ لأنه لا مناسبة للتراب مع جلال رب الأرباب.

- وأصلي على الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، وجميع عباد الله الصالحين، ثم أقول بعد ذلك:

- اعلموا إخواني في الدين وإخواني في طلب اليقين أن الناس يقولون: الإنسان إذا مات انقطع تعلقه عن الخلق، وهذا العام مخصوص من وجهين؛ الأول: أنه إن بقي منه عمل صالح صار ذلك سببًا للدعاء، والدعاء له أثر عند الله، والثاني: ما يتعلق بمصالح الأطفال، والأولاد، والعورات وأداء المظالم والجنايات.

- أما الأول فاعلموا أني كنت رجلًا محبًا للعلم، فكنت أكتب في كل شيء شيئًا لا أقف على كمية وكيفية، سواء كان حقًا أو باطلًا أو غثًا أو سمينًا، إلا أن الذي نظرته في الكتب المعتبرة لي، أن هذا العالم المحسوس تحت تدبير مدبر، منزَّه عن مماثلة المتحيزات والأعراض وموصوف بكمال القدرة والعلم والرحمة.

- ولقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم؛ لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى، ويمنع عن التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات، وما ذاك إلا العلم بأن العقول البشرية تتلاشى وتضمحل في تلك المضايق العميقة، والمناهج الخفية.

- فلهذا أقول: كل ما ثبت بالدلائل الظاهرة من وجوب وجوده ووحدته وبراءته عن الشركاء في القدم والأزلية، والتدبير والفعالية، فذاك هو الذي أقول به، وألقى الله تعالى به.

- وأما ما انتهى الأمر فيه إلى الدقة والغموض، فكل ما ورد في القرآن والأخبار الصحيحة المتفق عليها بين الأئمة المتبعين للمعنى الواحد، فهو كما هو، والذي لم يكن كذلك، أقول:

- يا إله العالمين، إني أرى الخلق مطبقين على أنك أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، فكل

ما مرَّ به قلمي، أو خطر ببالي، فأستشهد علمك، وأقول : إن علمت مني أني أردت به تحقيق باطل، أو إبطال حق، فافعل بي ما أنا أهله، وإن علمت مني أني ما سعيت إلا في تقرير ما اعتقدت أنه هو الحق، وتصورت أنه الصدق، فلتكن رحمتك قصدي لا مع حاصلي، فذاك جهد المقل، وأنت أكرم من أن تضايق الضعيف الواقع في الزلة، فأغثني وارحمني، واستر زلتي، وامحُ حوبتي، يا من لا يزيد ملكه عرفان العارفين ولا ينتقص بخطأ المجرمين.

- وأقول: ديني متابعة محمد سيد المرسلين، وكتابي هو القرآن العظيم، وتعويلي في طلب الدين عليهما.

- اللهم يا سامع الأصوات، ويا مجيب الدعوات، ويا مقبل العثرات، ويا راحم العبرات، ويا قيام المحدثات والممكنات، أنا كنت حسن الظن بك، عظيم الرجاء في رحمتك، وأنت قلت: أنا عند ظن عبدي بي، وأنت قلت: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾، وأنت قلت: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾. فهب أني ما جئت بشيء فأنت الغني الكريم، وأنا المحتاج اللئيم.

- وأعلمُ أنه ليس لي أحد سواك، ولا أحد محسنًا سواك، وأنا معترف بالزلة والقصور، والعيب والفتور، فلا تخيب رجائي، ولا تردَّ دعائي، واجعلني آمنًا من عذابك قبل الموت، وعند الموت، وبعد الموت، وسهل عليَّ سكرات الموت، وخفِّف عني نزول الموت، ولا تضييق عليَّ بسبب الآلام والأسقام، فأنت أرحم الراحمين.

- وأما الكتب العلمية التي ضفتها، أو استكثرت في إيراد السؤالات على المتقدمين فيها، فمن نظر في شيء منها، فإن طابت له تلك السؤالات فليذكرني في صالح دعائه على سبيل التفضل والإنعام، وإلا فليحذف القول السيئ، فإني ما أردت إلا تكثير البحث وتشحيذ الخاطر والاعتماد في الكل على الله.

- وأما المهم الثاني: وهو إصلاح أمر الأطفال والعورات فالاعتماد فيه على الله ثم على نائب الله (محمد)[1] ، اللهم اجعله قرين محمد الأكبر في الدين والعلو، إلا أن السلطان الأعظم لا يمكنه أن يشتغل بإصلاح مهمات الأطفال، فرأيت الأولى أن أفوض وصاية أولادي إلى فلان، وأمرته بتقوى الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

- قال ابن أبي أصيبعة: وسرد الوصية إلى آخرها، ثم قال: وأوصيه ثم أوصيه ثم أوصيه بأن يبالغ في تربية ولدي (أبي بكر) فإن آثار الذكاء والفطنة ظاهرة عالية، ولعل الله تعالى يوصله إلى خير.

(١) هو السلطان محمد علاء الدين تكشن، تلميذ الفخر الرازي.

- وأمرته وأمرت كل تلامذتي، وكل من بي عليه حق أني إذا مت يبالغون في إخفاء موتي، ولا يخبرون أحدًا به، ويكفنوني، ويدفنوني على شرط الشرع، ويحملونني إلى الجبل المصاقب لقرية (مزداخان)[١]، وإذا وضعوني في اللحد قرءوا عليَّ ما قدروا عليه في إلهيات القرآن، ثم ينثرون التراب عليَّ، وبعد الإتمام يقولون: يا كريم جاءك الفقير المحتاج، فأحسن إليه، وهذا منتهى وصيتي في هذا الباب، والله تعالى لما يشاء، وهو على ما يشاء قدير، وبالإحسان جدير[٢].

٧- محمد بن أحمد بن قُدامة (توفي ٦٠٧هـ): الإمام العالم الفقيه المقرئ المُحَدِّث البَرَكَة، شيخ الإسلام أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الجمَّاعيلي الحنبلي الزاهد واقف المدرسة[٣]، كان مولده في سنة ثمان وعشرين وخمسمائة بقرية جمّاعيل من عمل نابلس، وتحوَّل إلى دمشق هو وأبوه وأخوه وقرابته مهاجرين إلى الله، وتركوا المال والوطن لاستيلاء الفرنج، وسكنوا مدة بمسجد أبي صالح بظاهر باب شرقي ثلاث سنين، ثم صعدوا إلى سفح قاسيون، وبنوا الدِّير المبُارك والمسجد العتيق، وكتب وقرأ، وحصَّل وتقدَّم، وكان من العلماء العاملين، ومن الأولياء المتقين، وكان قدوة صالحًا، عابدًا قانتًا لله، ربانيًا، خاشعًا، مخلصًا، عديم النظر، كبير القدر، كثير الأوراد والذكر، والمروءة والفتوة والصِّفات الحميدة، قلَّ أن ترى العيون مثله، وكان يكثر الصيام ولا يكاد يسمع بجنازة إلا شهدها، ولا مريض إلا عاده، ولا جهاد إلا خرج إليه، ويتلو كل ليلة سُبْعًا مرتلًا في الصلاة، وفي النهار سبعًا بين الصلاتين، وإذا صلَّى الفجر تلا آيات الكرسي ويَس والواقعة وتبارك، ثم يُقرئ ويُلقِّن إلى ارتفاع النهار، ثم يصلِّي الضُّحى، فيطيل، ويصلي طويلًا بين العشاءين[٤]، وكان حسن الشكل، نحيل الجسم، عليه أنوار العبادة، لا يزال متبسمًا[٥].

وقال ابن كثير: وكان يقرأ كل يوم سُبْعًا بين الظهر والعصر ويصلي الضُّحى ثماني ركعات يقرأ فيهنَّ ألف مرَّة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝﴾ وكان يزور مغارة الدم[٦] في كل يوم اثنين وخميس، ويجمع في طريقه الشِّيحَ فيُعطيه الأرامل والمساكين، ومهما تهيَّأ له من فتوح وغيره يؤثِر به أهله والمساكين، وكان مُتقللًا في الملبس، وكان هو وأخوه وابنُ خالهم الحافظ عبد الغني وأخوه الشيخ العماد لا ينقطعون من غزاة يخرج فيها الملك صلاح الدين إلى بلاد الفرنج، وقد حضروا معه فتح القدس الشريف وغيرها، وجاء الملك العادل أبو بكر يومًا إلى خيمتهم لزيارة الشيخ أبي عمر، وهو قائم يُصلِّي، فما قطع صلاته ولا أوْجزها، بل استمر فيها، وهو الذي شرع في بناء الجامع أولًا بمال رجل من الناس، فنفِد ما كان بيده، وقد ارتفع البناء قامة، فبعث صاحب إربل الملك المظفر كُوكُبري مالًا، فكمل وولي خطابته الشيخ أبو عمر،

مدينة صغيرة من مدن قهستان، وقيل: بليدة من نواحي الري.

- وصايا وعظات ص١٧٧، عيون الأنباء (٢/ ٢٧، ٢٨).

- سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٥).

(٤) المصدر نفسه (٢٢/ ٦، ٧).

(٥) البداية والنهاية (١٧/ ٢١).

(٦) مغارة الدم مشهورة بأنها المكان الذي قتل قابيل أخاه هابيل.

فكان يخطب به وعليه لباسه الضَّعيف وعليه أنوار الخشية والتقوى[١]، وقد ذكر أبو المظفر الكثير من مناقب أبي عمر وكراماته، وما رآه هو وغيرُه من أحواله الصالحة، قال: وكان على مذهب السلف الصالح، حسن العقيدة، متمسكًا بالكتاب والسنة والآثار المروية، يمرها كما جاءت من غير طعن على أئمة الدين وعلماء المسلمين، وينهى عن صحبة المبتدعين ويأمر بصحبة الصالحين[٢]. قال: ربما أنشدني لنفسه في ذلك:

أوصيكم بالقول في القرآن ... بقول أهل الحقِّ والإتقان
ليس بمخلوقٍ ولا بفان ... لكن كلامُ الملكِ الدَّيَّان
آياته مشرقة المعاني ... متلوة لله باللسان
محفوظة في الصَّدرِ والجنان ... مكتوبة في الصُّحفِ بالبَنان
إمرارُها من غير ما كُفران ... من غير تشبيه ولا عطلان[٣]

قال: ومرض أيامًا، فلم يترك شيئًا مما كان يعمله من الأوراد، حتى كانت وفاته وقت السَّحَرِ في ليلة الثلاثاء التاسع والعشرين من ربيع الأول، فغُسِّل بالدِّير، وحُمِل إلى مقبرته في خلق كثير، لا يعلمهم إلا الله عز وجل، ولم يَبْقَ أحد من الدولة والأمراء والعلماء والقضاة وغيرهم إلا حضر جنازته، وكان يومًا مشهودًا، وكان الحرُّ شديدًا، فأظلت الناس سحابة من الحرِّ كان يُسمَع منها كَدوِي النحل، وكاد الناس يتهبون أكفانه، وقد رثاه الشعراء بمراثٍ حسنة ورُئيَت له منامات صالحة رحمه الله[٤]، وكان آخر كلامه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢][٥].

وكان يقول: لا علم إلا ما دخل مع صاحبه القبر، ويقول: إذا لم تتصدقوا لا يتصدق عنكم، وإذا لم تعطوا السائل أنتم أعطاه غيركم[٦]، وكان إذا خطب تَرِقُّ القلوب وتبكي الناسُ بكاءً كثيرًا، وكانت له هيبة عظيمة في القلوب، واحتاج الناس إلى مطر سنة فطلع إلى مغارة الدم ومعه نساء من محارمه، واستسقى ودعا، فجاء المطر حينئذ وجرت الأودية شيئًا لم يره الناس من مدة طويلة[٧]، وقال عبد الله بن النحاس: كان والدي يحب الشيخ أبا عمر، فقال لي يوم جمعة: أنا أصلي الجمعة خلف الشيخ، ومذهبي أن ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ①﴾ من الفاتحة، ومذهبه أنها ليست من الفاتحة، فمضينا إلى المسجد، فوجدنا الشيخ، فسلَّم على والدي وعانقه وقال: يا أخي صلِّ وأنت طيب القلب، فإنني ما تركت ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ①﴾ في فريضة ولا نافلة مذ أممت بالناس[٨].

---

(١) البداية والنهاية (١٧/ ٢١).
(٢) المصدر نفسه (١٧/ ٢٣).
(٣) المصدر نفسه (١٧/ ٢٣)
(٤) البداية والنهاية (١٧/ ٢٤).
(٥) شذرات الذهب (٧/ ٥٣).
(٦) المصدر نفسه (٧/ ٥٣).
(٧) المصدر نفسه (٧/ ٥٤).
(٨) المصدر نفسه (٧/ ٥٤).

٨- **إبراهيم عبد الواحد المقدسي (توفي ٦١٤هـ)**: الشيخ الإمام العالم الزَّاهد القدوة الفقيه، بركة الوقت عماد الدين أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الواحد علي بن سرور المقدسي الجمّاعيلي، نزيل سفح قاسيون، وأخو الحافظ عبد الغني، سافر إلى بغداد مرتين وحفظ القرآن وحفظ الخِرقي وألقى الدُّرس من التفسير ومن الهداية، واشتغل في الخلاف، وكان عالمًا بالقراءات والنحو والفرائض، قرأ بالروايات على أبي الحسن بن عساكر البطائحي، وصنف الفروق في المسائل الفقهية، وصنف في الأحكام كتابًا لم يتمه، وكان يتفرغ للتصنيف من كثرة اشتغاله وأشغاله، أقام نجران مدة فانتفعوا به، وكان يشغل بالجبل إذا كان الشيخ موفق الدين بالمدينة، فإذا صَعِدَ الموفق، نزل هو وأشغل[1]، قال الموفق: ما نقدر نعمل مثل العماد[2]، قال الضياء: وكان يجلس في جامع البلد من الفجر إلى العشاء لا يخرج إلا لحاجة، يُقرئ القرآن والعِلَم، فإذا فرغوا اشتغل بالصلاة، فسألت الشيخ موفق الدين عنه فقال: كان من خيار أصحابنا وأعظمهم نفعًا، وأشدهم ورعًا، وأكثرهم صبرًا على التعليم، وكان داعية إلى السُّنَّة، أقام بدمشق مدة يُعلِّم الفقراء ويُقرئهم ويُطعمهم، ويتواضع لهم، وكان من أكثر الناس تواضعًا واحتقارًا لنفسه، وخوفًا من الله، ما أعلم أنني رأيتُ أشد خوفًا منه، وكان كثير الدعاء والسؤال لله، يطيل السجود والركوع، ولا يقبل ممن يعذله، ونُقلت له كرامات.

ثم قال الضياء: لم أرَ أحدًا أحسن صلاة منه، ولا أتمَّ بخشوع وخضوع، قيل: كان يُسبِّح عشرًا يتأنَّى فيها، وربما قضى في اليوم والليلة صلوات عدة، وكان يصوم يومًا ويُفطر يوما، وكان إذا دعا كان القلب يشهد بإجابة دعائه من كثرة ابتهاله وإخلاصه، وكان يمضي يوم الأربعاء إلى مقابر باب الصغير عند الشهداء، فيدعو ويجتهد ساعة طويلة، ومن دعائه المشهور: (اللهم اغفر لأقسانا قلبًا، وأكبرنا ذنبا، وأثقلنا ظهرًا، وأعظمنا جرما)[3]، وكان يدعو: يا دليل الحيارى دُلَّنا على طريق الصادقين، واجعلنا من عبادك الصالحين، وكان إذا أفتى في مسألة يحترز فيها احترازًا كثيرًا[4].

وقال: وأما في زهده، فما أعلم أنه أدخل نفسه في شيء من أمر الدنيا، ولا تعرَّض لها، ولا نافس فيها، وما علمت أنه دخل إلى سُلطان ولا والٍ، وكان قويًّا في أمر الله، ضعيفًا في بدنه، لا تأخذه في الله لومة لائم، أمَّارًا بالمعروف، لا يرى أحدًا يسيء صلاته إلَّا قال له وعلَّمه، قال: وبلغني أنه أتى فُسَّاقًا فكسر ما معهم، فضربوه حتى غُشِيَ عليه، فأراد الوالي ضربهم، فقال: إن تابوا ولازموا الصلاة، فلا تؤذهم، وهم في حِل، فتابوا[5]، وقال الضياء: أعرف وأنا

(١) سير أعلام النبلاء (٢٢/٤٧، ٤٨) أشغل: يعني في المدينة.
(٢) المصدر نفسه (٢٢/٤٩).
(٣) المصدر نفسه (٢٢/٤٩).
(٤) المصدر نفسه (٢٢/٤٩).
(٥) سير أعلام النبلاء (٢٢/٥٠).

صغير أن جميع من كان في الجبل يتعلَّم القرآن كان يقرأ على العِماد، وختم عليه جماعة، وكان يبعث بالنَّفقة سرًّا إلى الناس، ويأخذ بقلب الطالب، وله بشر دائم[١].

قال الضياء: تُوفي العماد -رحمة الله عليه- ليلة الخميس سابع ذي عشر ذي القعدة سنة أربع عشرة وستمائة عشاء الآخرة فجأة، وكان صَلَّى المغرب بالجامع وكان صائمًا، فذهب إلى البيت وأفطر على شيء يسير، ولما أُخرجت جنازته اجتمع خلقٌ فما رأيت الجامع إلا كأنَّه يوم الجمعة من كثرة الخلق، وكان الوالي يطرد الخَلق عنه، وازدحموا حتى كاد بعض الناس أن يَهلك، وما رأيت جنازة قط أكثر خلْقًا منها، وحُكي عنه أنه لما جاءه الموت جعل يقول: يا حيُّ يا قيوم لا إله إلا أنت، برحمتك أستغيث، واستقبل القبلة وتشهد[٢].

٩- طبيعة البيت الأيوبي في الصراع الداخلي: كان البيت السلجوقي في الصراع الداخلي إذا ظفر واحد منهم بأخيه أو ابن عمه أعدمه، وأحسن أحواله أن يعتقله حتى يموت، وكان بنو أيوب يتحاربون، وتجري بينهم العداوة الشديدة، ثم يجتمع بعضهم ببعض، وربما صعد بعضهم إلى قلاع بعض، ثم يفارقه بعد المقام عنده على حال جميلة، والعداوة والمنافرة باقية بحالها[٣].

١٠- فتنة بمكة وإعلان الباطنية رجوعهم إلى الإسلام: في سنة (٦٠٨هـ) كانت فتنة عظيمة بمكة وسببها أن باطنيًّا وثب على قريب للشريف أبي عزيز قتادة -صاحب مكة- فقتله، وكانت أم الكيا حسن -صاحب الألموت- قد قدمت حاجة مع الحاج العراقي، فركب الشريف أبو عزيز في الأشراف والعربان وقصد الحاج العراقي فنهبهم نهبًا ذريعًا ورموهم بالحجارة والنبل، فانتقل الحاج العراقي إلى الحاج الشامي واستجاروا بهم، وكان في الحاج الشامي ربيعة خاتون بنت أيوب أخت الملك العادل (زوجة مظفر الدين صاحب إربل)، فأجارت الحاج العراقي ومنعت أبا عزيز منهم، ولولا إجارتها لهم لاستؤصلوا عن آخرهم، وذلك بعد أن نهب من الحاج العراقي من الأحمال والجمال ما لا يمكن وصفه[٤]، ثم لما أرادوا دخول مكة مُنعوا منها، فما زالت ربيعة خاتون بأمير مكة حتى أذن لهم، فدخلوا وقضوا حجهم[٥].

وفي هذه السنة أظهر الكيا جلال الدين حسن -إمام الباطنية صاحب الألموت- شعائر الإسلام، وأمر رعيته بالصلوات والحج وصيام رمضان، وإقامة وظائف الشريعة[٦]، وكتب إلى الخليفة والملوك يعلمهم ذلك، وبعث والدته إلى مكة لتحج، فحجت -كما ذكرنا- وأكرمت ببغداد لما دخلتها إكرامًا عظيمًا، وبعث جلال الدين حسن إلى الحصون التي لهم بالشام يلزمهم

---

(١) المصدر نفسه (٢٢/ ٥٠).
(٢) المصدر نفسه (٢٢/ ٥١).
(٣) مفرج الكروب (٣/ ٢١٩).
(٤) مفرج الكروب (٣/ ٢١١).
(٥) المصدر نفسه (٣/ ٢١١).
(٦) المصدر نفسه (٣/ ٢١١).

أن يفعلوا نظير ما فعله ببلاد العجم، فأعلنوا بالأذان والإقامة الجُمع وأظهروا أنهم قد التزموا بمذهب الشافعي رحمه الله[١]، وهناك من الباحثين من يشكُّ بما فعله جلال الدِّين حسن، ويعدُّ إعلانه العودة إلى الإسلام ما هو إلا تظاهرًا، ويوجد من يعتقد بصدق ما قام به جلال الدين، وكلا الطرفين يقدِّرون أسبابًا لتحوّل جلال الدين عن تعاليم القيامة منها:

* كان جلال الدين حسن الاعتقاد، وكان يكاتب الخليفة والسلاطين سرًّا ويُظهر لهم أنه يدين بالإسلام، وكان جادًّا بالسعي نحو تصالح إسلامي، وكان قد اعترض منذ صغره على موضوع القيامة الذي مقصوده انتهاء الشريعة وسقوط الفرائض، والتحلل من المحرَّمات.

* عودة جلال الدين لحظيرة السُّنَّة كانت بتأثير أُمِّه التي كان يرتبط بها بشدَّة، وهي سنية مؤمنة وقد قصدت الحجاز وأثناء مرورها ببغداد نالت من التكريم والاهتمام في العاصمة العباسية من الخاصَّة ومن الخليفة بالذات الشيء الكثير، وكذلك أُكرمت بطريق مكة[٢].

* ربما كان دافع حسن عن طريق العناد لأبيه[٣]، فعلاقتهما الشخصية لم تكن على ما يُرام، وعداؤه لأبيه وتآمره المبكر ضدَّه لم يكونا ليخفيا على أحد، إضافة إلى مراسلته الخليفة العبَّاسي للاتفاق معه أثناء حكم أبيه.

* أمر إلغاء الباطنية برمته كان مجرد تظاهر بالعودة إلى حظيرة الإسلام لضرورات مرحلية، وقد حلَّل حسن لنفسه ذلك وفقًا لمبدأ التقية[٤]، فالإسماعيلية فرقة باطنية كما هو معلوم، وتُعلل عودته لحظيرة الإسلام بأنها نتيجة لخوفه من جلال الدين خوارزم شاه، فما وحده مُخلِّصًا إلا التظاهر بالإسلام وإقامة شعائره، فقد كان الخليفة الناصر يراسل جلال الدين باستمرار لإعادة شعائر الإسلام، فيرفض ذلك[٥]، ولكن يبدو أن نيَّة جلال الدين بإعادة التصالح مع محيطه الإسلامي هي الاحتمال الأرجح في رجوعه للإسلام لوجود دوافع كثيرة اضطرته إلى ذلك منها:

- العُزلة التي كان يعيشها الإسماعيلية في حصونهم.
- انحسار الدعوة الإسماعيلية وعدم انتشارها في مناطق جديدة.
- الضعف الذي بدأ يدبُّ في كيان الفرقة الجديدة.
- تراجع فاعلية سلاحها القديم (الاغتيال).

---

(١) المصدر نفسه (٣/ ٢١١).
(٢) العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (١/ ٣٣١).
(٣) العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (١/ ٣٣١).
(٤) المصدر نفسه (١/ ٣٣١).
(٥) المصدر نفسه (١/ ٣٣٢).

وربَّما كان كُلُّ ما سبق من الأسباب مجتمعة هي ما دفع جلال الدِّين للإقدام على خطوته الانقلابية في العقيدة، والتي كانت لها تأثيرات سياسيَّة وعسكرية كبيرة في علاقات الإسماعيلية في فارس والشَّام[١].

١١- عمارة قلعة الطور في سنة (٦٠٩هـ) أو التي قبلها: عمَّر السلطان الملك العادل قلعة على جبل الطور وهو جبل عالٍ مطل على عكا بالقرب منها، ولم يكن بناؤه مصلحة، فإن الفرنج بعد ذلك قصدوه وكادوا يملكونه، ولو ملكوه تعذر انتزاعه منهم، وتمكنوا به من بلاد الإسلام، وقطعت غاراتهم الطريق على الديار المصرية، وكان على هذا الجبل قلعة من أيام الفرنج وملكت في الفتوح الصلاحية، ثم خرَّبه المسلمون لما ملكوا عكا وعفوا.

- أثرها: ثم ترجَّح عند الملك العادل تخريب حصن كوكب وعمارة قلعة الطور، فنزل بعساكره حولها، وأحضر الصناع من كل بلد واستعمل جميع أمراء العسكر في البناء ونقل الحجارة . . . ولم يزل مقيمًا عليه حتى بناه[٢].

هذه بعض الدروس والعبر والفوائد المتفرقة في عهد الملك العادل جمعت في نهاية حياته رحمه الله تعالى.

---

(١) المصدر نفسه (١/ ٣٣٢).

(٢) مفرج الكروب (٣/ ٢١٥، ٢١٦).

الفصل الثاني

عهد الملك الكامل بن العادل الأيوبي

السلطان الكبير الملك الكامل ناصر الدُّنيا والدين أبو المعالي وأبو المظفر محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب مصر والشام وميّافارقين وآمد وخِلاط والحجاز واليمن وغير ذلك[١]، ولد في سنة ست وسبعين وخمسمائة، فهو من أقران أخويه المُعظَّم والأشرف، وكان أجلَّ الثلاثة وأرفعهم رُتبة[٢]، وتملَّك الديار المصرية أربعين سنة شطرها في أيام والده، وكان عاقلًا مهيبًا، كبير القدر[٣]

المبحث الأول

الحملة الصليبية الخامسة

تحدثنا عن الحملة الصليبية الخامسة والإعداد لها، وموقف الملك العادل من تلك الحملة، في عهد العادل نواصل الحديث عن الحملة وجهود الملك الكامل للتصدي لها بعد وفاة أبيه.

أولًا: جهود الملك الكامل للتصدي للغزاة:

١- مرابطة الملك الكامل في العادلية: عندما علم الملك الكامل بنزول الصليبيين في جيزة دمياط، اتجه بجنده والعربان إلى دمياط وعسكر بالعادلية[٤]، واتخذ كل الترتيبات لعدم تمكين الصليبيين من الاستيلاء على برج السلسلة الذي يعد مفتاح مصر، أو العبور إلى ضفة النيل الشرقية[٥]، وأخذ يرسل الإمدادات لأهل دمياط، فضلًا عن قيامه ببعض العمليات العسكرية التي كان الغرض منها إشغال الفرنج وإشعارهم بوجود مقاومة من قبل المسلمين[٦]، وصار يركب كل يوم مرات عديدة من العادلية إلى دمياط لتدبير الأمور، وإعمال الحيلة في مواجهة الفرنج[٧]

(١) سير أعلام النبلاء (٢٢/١٢٧).
(٢) المصدر نفسه (٢٢/١٢٧).
(٣) المصدر نفسه (٢٢/١٢٧).
(٤) العادلية: قرية قديمة تقع على ضفة النيل الشرقية قريبة من دمياط.
(٥) البداية والنهاية (٧/٧٣)، القدس، إبراهيم الخطيب ص٢٣٠
(٦) الكامل في التاريخ نقلًا عن القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٣٠
(٧) السلوك نقلًا عن القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٣٠

حاول الصليبيون اقتحام دمياط، فقاموا بهجوم مكثف عليها، إلا أنهم عجزوا عن الاقتراب من السور، فلما أدركوا أنه يصعب احتلال المدينة إلا بالسيطرة على برج السلسلة[١]؛ لأنه كما قيل: قفل الديار المصرية -شن الصليبيون هجومًا عنيفًا عام (٦١٥هـ/ ١٢١٨م) على جدران مدينة دمياط، شارك فيه حوالي ثمانين سفينة، فسببت ذعرًا كبيرًا للسكان، ولكن المحاولة لم تكن فعالة إزاء تحصينات المدينة، ولم تنقطع محاولات الفرنج للاستيلاء على برج السلسلة، فقد مد دوق النمسا وفرسان الداوية سلَّمين على بارجة ضخمة، فيما هيأ الألمان سفينة للقيام بهجوم جديد على برج المدينة المحصنة[٢]، لكن كرات النار والحجارة التي قذفها المسلمون عليهم، واستبسال جيش الملك الكامل في الضفة الشرقية لنهر النيل[٣] أجبرت السفينة على الانسحاب، وأثناء ذلك انكسر السلَّمان تحت وطأة جنود الفرنج فسقطوا في البحر، وأنشأ الصليبيون قلعة قوية من السفن وجسرًا متحركًا سحبوه بمحاذاة نهر النيل على حافة برج السلسلة، وقاموا بهجمات متلاحقة على البرج إلى أن تمكنوا من تحطيم السلسلة وتسيير السفن في مجرى النيل والاستيلاء على البرج (٦١٥هـ/ ١٢١٨م) بما فيه من مؤن وذخيرة وسلاح بعد قتال استمر أربعة أشهر، وظهر خلل واضح في العمليات الحربية بعد سقوط برج السلسلة؛ إذ اعتقد كثير من المحاربين الصليبيين أن مهمتهم قد انتهت، وأنهم أوفوا بقسمهم الصليبي، فانسحبوا عائدين إلى بلادهم، وأصبح الملك جان دي برين ينتظر وصول إمدادات جديدة، وهي الإمدادات التي وصلت فعلًا بعد شهور وكان على رأسها الكاردينال بلاجيوس مندوبًا عن البابا وقائدًا للحملة[٤].

وأعاد الملك الكامل حساباته بعد ما لاحظ تزايد عدد الصليبيين يومًا بعد يوم، بسياسة الهجوم لا بسياسة الدفاع، محاولًا استنزاف القوات الصليبية وحرمانها من الراحة والهدوء، فجهز قوة برية تدعمها عشرات السفن، هاجمت المعسكر الصليبي إلا أنها اصطدمت بخنادق الفرنج، وبهجوم معاكس يقوده الملك جان دي برين، فانسحب المسلمون[٥] وفشلت خطة الملك الكامل الهجومية، إلا أنه استمر في المقاومة وأرسل الرسل إلى مختلف مناطق العالم الإسلامي يطلب النجدة، ونصب جسرًا عظيمًا ليمنع العدو به من سلوك النيل، فقاتلت الفرنج عليه قتالًا عظيمًا حتى قطعوه، فأمر السلطان عند ذلك بتغريق عدة من المراكب في النيل، فمنعت مراكب الفرنج من سلوك النيل، فلما رأى الفرنج ذلك قصدوا خليجًا هناك يعرف بالأزرق[٦]، كان النيل يجري فيه قديمًا، فحفروه وعمقوه فوق المراكب التي جُعلت في النيل،

---

(١) الحملة الصليبية الخامسة، محمود عمران ص٢٣٤ .

(٢) الحملة الصليبية الخامسة ص٢٣٤، القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٣٠ .

(٣) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٣٠ .

(٤) المصدر نفسه ص٢٣٠ .

(٥) المصدر نفسه ص٢٣٠ .

(٦) كان الخليج الأزرق يجري من بورة إلى شمال المنزلة العادلية.

فأجروا الماء فيه إلى البحر المالح وأصعدوا مراكبهم فيه إلى موضع يسمى بورة[١] على أرض جيزة دمياط[٢]، مقابل المنزلة التي بها السلطان ليقاتلوه من هنالك، فلما صاروا في بورة حاربوه وقاتلوا في الماء وزحفوا إليه غير مرة، فلم يظفروا بطائل، ولم يتغير على أهل دمياط شيء؛ لأن الميرة والإمداد متصلة إليهم، والنيل يحجز بينهم وبين الفرنج، وأبواب المدينة مفتحة وليس عليها من الحصر ضيق ولا ضرر[٣].

وعاود الصليبيون محاولاتهم اختراق دفاعات المسلمين ولكنهم لم ينجحوا، فتوقف القتال بعض الوقت لسوء الأحوال الجوية، وأعاد المسلمون أنفسهم واستمرت دمياط آمنة بضعة أشهر[٤].

٢- **آثار وفاة الملك العادل**: لما علم العسكر بموت السلطان الملك العادل بالشام حصل عند بعضهم الطمع وكان في العسكر عماد الدين أحمد بن سيف الدين علي بن المشطوب، وكان معظمًا عظيمًا في الأكراد الهكارية، فاتفق مع جماعة من جند الأكراد يتفادون إليه يطيعونه، على خلع الملك الكامل من السلطنة وأن يُملِّكوا الديار المصرية أخاه الملك الفائز إبراهيم بن الملك العادل ليصير لهم الحكم عليه وعلى البلاد، ولما أحس الملك الكامل بذلك فارق منزلته المعروفة بالعادلية ليلًا جريدة وتوجه إلى أُشموم[٥] طناح فنزل عندها، وساد الفزع أرجاء المعسكر الإسلامي ودبت الفوضى بين صفوف العسكر، وتركوا خيامهم وأسلحتهم وأموالهم ودوابهم[٦]، وعندما وجد الجند أنفسهم دون قيادة انسحبوا من العادلية، تاركين وراءهم كل معداتهم وذخيرتهم وتمويناتهم التي كانوا قد أعدوها لقتال طويل، ولما أصبح الفرنج ولم يروا أحدًا من المسلمين على شاطئ النيل، فعبروا إلى بر دمياط، وملكوه آمنين بغير منازع ولا مدافع، وكان ذلك في ذي القعدة من هذه السنة، وغنموا كل ما في معسكر المسلمين وكان شيئًا لا يُحدُّ ولا يوصف[٧]، وأصبح الملك الكامل في وضع حرج، وأصبحت الجبهة الإسلامية مهددة بالانهيار إلا أن وصول الملك المعظم عيسى من الشام نجدة لأخيه بعد يومين من تمرد ابن المشطوب أنقذ الموقف[٨]، فقوي قلب الملك الكامل واشتد به أزره، ووعده الملك المعظم بإزالة جميع المفاسد، وكان الملك الكامل قد عزم قبل وصول أخيه -على ما يقال- على مفارقة البلاد وتركها بيد الفرنج والتوجه إلى بلاد اليمن وكانت بيد ولده الملك المسعود صلاح الدين يوسف، ولو ذهب إلى اليمن لكان كارثة كبرى ربما غيرت الموازين في مصر

(١) بورة كانت حصنًا على ساحل البحر من عمل دمياط.
(٢) تعرف الآن بالسنانية.
(٣) مفرج الكروب (٤/١٦).
(٤) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٣٤ .
(٥) تقع على الشاطئ الشرقي من بحر أشموم.
(٦) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٣٥ .
(٧) مفرج الكروب (٤/١٧).
(٨) المصدر نفسه (٤/١٧).

لمدة، فثبَّته الملك المعظم وشجَّعه وركب الملك المعظم إلى خيمة عماد الدين بن المشطوب فاستدعاه ليركب معه ويسايره، فاستنظر ليلبس خفيه وثيابه فلم ينظره ولم يمهله، فركب معه وسايره إلى أن خرج به من العسكر، ثم سلمه إلى جماعة من أصحابه وأمرهم أن لا يفارقوه حتى يخرجوه من الديار المصرية وينفوه إلى الشام، ووصل إلى حماة، وأقام عند صاحبها الملك المنصور مُديدة . .

ثم بعدئذ بمدة أمر الملك الكامل أخاه الملك الفائز أن يمضي رسولًا لإحضار العساكر للجهاد، فمضى الفائز إلى حماة وحمل إليه الملك المنصور صاحبها شيئًا كثيرًا، ثم مضى إلى الشرق فمات به، ولما أُخرج عماد الدين بن المشطوب والملك الفائز من العسكر الكاملي، انتظم أمر السلطان الملك الكامل وقوى جنانه[١] ،وكتب الملك الكامل إلى أخيه الأشرف موسى يستحثه على سرعة الحضور، وصدَّر المكاتبة بهذه الأبيات:

يا مسعدي إن كنت حقًّا مسعفي ... فانهض بغير تلبث وتوقف
واحثث قلوصك مرقلًا أو موجفا ... بتجشم في سيرها وتعسف
واطوِ المنازل ما استطعت ولا تنخ ... إلا على باب المليك الأشرف
وأقر السلام عليه من عبد له ... متوقع لقدومه متشوف
وإذا وصلت إلى حماة فقل له ... عني بحسن توصل وتلطف
إن تأت عبدك عن قليل تلقه ... ما بين كل مهند ومثقف
أو تبط عن إنجاده فلقاؤه ... بل في القيامة في عراض الموقف[٢]

وكتب إلى إخوانه يستعجلهم ويقول: الوحا الوحا، العجل العجل، أدركوا المسلمين قبل تملك الفرنج جميع أرض مصر[٣]، وظلت كتب الملك الكامل متواصلة في طلب النجدة لمساعدته على مقاومة الصليبيين المحاصرين لدمياط[٤] ، وهذا يدل على حرج موقف الملك الكامل وصعوبة أوضاع المسلمين، وتوافدت النجدات على مصر، فوصل الملك الأشرف، ولكنه غادر مصر بعد ما ترك عساكره عند أخيه الملك الكامل[٥] ، وتتابع وصول المدد فتحسن موقف الملك الكامل، وأخذ يستعد لشن هجوم على الصليبيين، ولكنه تراجع لهبوب عاصفة شديدة عام (٦١٦هـ/ ١٢١٩م)[٦].

وأما الفرنج فإنهم لما ملكوا بر دمياط احتاطوا بها برًّا وبحرًا وأحدقوا بها، وأخذوا في محاصرتها، والتضييق عليها، وامتنع دخول الأقوات إليها بالكلية، وكل ما جرى على المسلمين

(١) المصدر نفسه (٤/ ١٨).
(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك (١/ ٣١٥).
(٣) المختصر (٣/ ١٢١) القدس بين أطماع الصليبيين (١٣٦).
(٤) القدس بين أطماع الصليبيين وتفريط الملك الكامل ص٢٣٦ .
(٥) المصدر نفسه ص٢٣٦ .
(٦) الحملة الصليبية الخامسة ص٢٣٤ .

من مصائب كان بسبب حركة ابن المشطوب ونيته الردية، وحفر الفرنج على معسكرهم المحيط بدمياط خندقًا وبنوا عليه سورًا على عادتهم، وأهل دمياط يقاتلونهم أشد قتال ويمانعونهم، وصبروا صبرًا لم يُرَ مثله، وقلَّت عندهم الأقوات وغلت الأسعار(١)، ولما رتَّب الملك المعظم القواعد بمصر عاد إلى بلاده واستمر الملك الكامل إلى آخر هذه السنة محاربًا للفرنج منازلًا لهم، وهم محاربون لأهل دمياط منازلون لهم محدقون بدمياط، حائلون بينها وبين عساكر المسلمين، على ما كانت عليه الحال بعكا في أيام السلطان الملك الناصر صلاح الدين، وكان الذي يدخل إلى دمياط من أصحاب الملك الكامل إنما يدخل عليهم بمخاطرة عظيمة، بأن يسبح في بحر النيل، وهو مملوء من مراكب العدو وشوانيهم، وكان عند السلطان جاندار(٢) يسمى شمايل(٣) من أهل قرية من قرى حماة تسمى معرذفتين(٤) ، كان من فلاحي هذه القرية، فوصل إلى أن خدم في الركاب السلطاني جاندارًا وكانت عنده قوة نفس وشهامة، فكان يخاطر بنفسه ويسبح في النيل ومراكب الفرنج محيطة ويدخل إلى دمياط فيقوي قلوب أهلها عن السلطان ويعدهم وصول النجد لإزاحة العدو عنهم، ثم يأتي السلطان سباحة ويعلمه بأخبار أهلها عن السلطان، فحظي بذلك عند السلطان وتقدم عنده تقدمًا كثيرًا، حتى آل أمره، إلى أن جعله من أكبر الأمراء، وجعله أمير جاندار له وسيف نقمته وولاه القاهرة(٥).

ثانيًا: مساومات الملك الكامل على القدس:

تبين للملك الكامل محمد، بعد اصطدامه بالصليبيين، أن من الصعب عليه هزيمتهم، وإجلاءهم عن مصر بالقوة العسكرية وبالإمكانات المتوفرة لديه، فتحول من سياسة الهجوم أو الدفاع إلى فكرة عرض الصلح عليهم، والواقع أن عدة عوامل دفعته للإقدام على هذه المبادرة لعل من أهمها:

١- استمرار تدفق الإمدادات والمؤن من الغرب الأوربي وقبرص على الصليبيين، فقد حضر جوتييه قائد جيش قبرص ومعه بعض الفرسان، وانضم إلى القوات الصليبية المحاصرة مدينة دمياط، مما أعطى هؤلاء دفعًا معنويًا وعسكريًا، وقوَّى مركزهم أمام دمياط(٦).

٢- تعثر القوات الإسلامية في فارسكور؛ إذ إن مؤامرة ابن المشطوب، على الرغم من إحباطها، وإبعاد محركها، قد تركت تأثيرًا سيئًا على الوضع المعنوي للقوات الإسلامية، فضلًا عما سادها من الاضطراب والفوضى(٧).

---

(١) مفرج الكروب (٤/ ١٩).
(٢) الجاندار: هو الذي يستأذن السلطان قبل دخول الأمراء عليه للخدمة.
(٣) شمايل: هو الأمير علم الدين شمايل.
(٤) قرية تبعد مسافة ٦ كيلو متر غربي مدينة حماة.
(٥) مفرج الكروب (٤/ ٢٠).
(٦) تاريخ الأيوبيين ص٣٠٥ .
(٧) تاريخ الأيوبيين ص٣٠٥ .

٣- تواتر الأخبار من الشرق عن تقدم الجيوش المغولية بقيادة جنكيز خان باتجاه الدولة الخوارزمية، مما أثار مشكلة الدفاع عن الجبهة الشرقية للعالم الإسلامي ضد المغول[١].

٤- أنعشت أخبار ظهور المغول آمال الصليبيين، فقد اعتقدوا أنهم سيجدون في الزعيم المغولي حليفًا لهم ضد المسلمين.

٥- تمدُّد الدولة الخوارزمية باتجاه الغرب حيث سيطر جلال الخوارزمي على الخليفة العباسي في بغداد، وتمادى في توغله في شمالي بلاد الشام لتحقيق أطماعه التوسعية على حساب الأيوبيين، وسلاجقة الروم.

٦- حرص المعظم عيسى على أن يعود إلى بلاد الشام؛ لأنه لم يكن راضيًا عن تحركات أخيه الأشرف موسى في أقصى الشمال، لذلك ساند أخاه الكامل محمد في السعي الودي للتفاوض مع الصليبيين[٢]، اقترح الملك الكامل على الصليبيين الصلح بشروط بالغة السخاء، تدل على حالة اليأس التي كانت تنتاب الملك الكامل، والتي تؤكد فقدان الأمل بالانتصار على الصليبيين، وشملت الشروط التالية.

- تنازل الملك الكامل للصليبيين عن الأراضي التي كانت بأيديهم قبل معركة حطين عام (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) وما تلاها من فتوحات عدا الكرك والشوبك[٣].

- انسحاب الصليبيين من دمياط.

- عقد هدنة بين المسلمين والصليبيين ثلاثين عامًا، ولكن الكامل لم يعرض التنازل عن الكرك والشوبك ليبقى على الاتصال برًّا مع الشرق، حتى لا يسيطر الصليبيون على طريق الشام والحجاز[٤].

كان هذا العرض مثيرًا للدهشة؛ إذ سوف يستعيد الصليبيون من دون قتال مدن بيت المقدس، وبيت لحم، والناصرة، بالإضافة إلى صليب الصلبوات -جاء في بعض الروايات- وبذلك تحيا مملكة بيت المقدس القديمة[٥]، وعقد الصليبيون مجلسًا لمناقشة عرض الكامل محمد، فنصح الملك يوحنا بريين بقبول العرض، وسانده أمراؤه والأمراء القادمون من الغرب الأوربي؛ إذ إن هذا الملك لم يكن إلا وصيًّا على مملكة بيت المقدس، في الوقت الذي لم تكن فيه هذه المملكة موجودة أصلًا، لذلك نراه يوافق على العرض حتى تصبح مملكة بيت المقدس حقيقة واقعية، وعارض المندوب البابوي بيلاجيوس قبول العرض، وسانده بطريرك بيت المقدس، واعتقد:

---

(١) المصدر نفسه ص٣٠٥ .
(٢) المصدر نفسه ص٣٠٦ .
(٣) القدس بين أطماع الصليبيين وتفريط الملك الكامل ص٢٣٨ .
(٤) معارك العرب ضد الغزاة، محمد عمارة (٩/ ٣٢٩).
(٥) تاريخ الأيوبيين ص٣٠٦ .

- أنه من الخطأ التوصل إلى اتفاق مع الكفار.

- أن الاستيلاء على مصر سوف يُقَسِّم العالم الإسلامي إلى قسمين: القسم الشرقي، ويشمل الشام والجزيرة العربية، واليمن، والعراق وما يقع في شرق هذه البلاد، والقسم الغربي، ويشمل الممالك التي تقع غرب مصر حتى المحيط.

- أنه بعد الاستيلاء على مصر سيتمكَّن من نشر الديانة النصرانية على المذهب الكاثوليكي داخل مصر كلها، ثم إن النصارى في أسبانيا سيواصلون انتصاراتهم على المسلمين وسوف يعبرون مضيق جبل طارق، ويسيطرون على شمال إفريقية حتى مصر، أما الجبهة الشمالية فإن مملكة أرمينية الصغرى أصبحت قوية وفي استطاعتها السيطرة على شمال بلاد الشام والعراق، أما الجبهة الشرقية فقد تكفَّل بها المغول، وقد أمل مندوب البابا في استقطابهم وتحويلهم إلى الديار النصرانية[(١)].

- أنه كان يشك في نوايا الكامل محمد واعتقد أنه لم يتقدم بهذا العرض عن حسن نية، وإنما لجأ إليه كوسيلة من وسائل الخداع وبث التفرقة بين الصليبيين، فإذا عاد الصليبيون إلى بلادهم، وتفرقوا، فيسهل عندئذ استعادة الأراضي التي منحهم إياها[(٢)] .

ومن الواضح أن أفكاره هذه كان لها أثر كبير في ضياع الفرصة لاستعادة بيت المقدس، وأيَّد فرسان الداوية والأسبتارية موقف المندوب البابوي الرافض لعرض الكامل محمد، وذلك لأسباب تكتيكية؛ إذ جرى تدمير استحكامات بيت المقدس، والقلاع الواقعة في الخليل، ومن المستحيل المحافظة على المدينة المقدسة مالم تتم السيطرة الكاملة على إقليم ما وراء الأردن، وعارضت المدن التجارية الإيطالية عرض الكامل محمد وهم عارضوا في السابق مهاجمة مصر، وحوَّلوا حملة صليبية، هي الحملة الرابعة إلى القسطنطينية، فعلى الرغم من حرص بيزا وجنوة والبندقية على ألا تقطع علاقاتها مع مصر، فقد رأوا وقتئذ أن احتلالهم الدلتا يُعدُّ مكسبًا تجاريًا ضخمًا يفوق استرداد بيت المقدس، وأنهم يودون اتخاذ دمياط مركزًا لتجارتهم، لذلك كان من الطبيعي أن يرفضوا شروطًا تقضي بعدم لقائهم فيها، وهي المدينة التجارية المهمة التي تخدم مصالحهم التجارية، ويستطيعون من خلالها أن ينفذوا إلى عمق الأراضي المصرية، ولم يهتموا بإضافة الإقليم الداخلي إلى أملاك الصليبيين[(٣)].

وهناك رأى آخر يتعلق برفض الصليبيين بعامة عرض الصلح الذي تقدم به الكامل محمد؛ وهو أن القوات الصليبية كانت في وضع متقدم على جبهة القتال؛ إذ نجحت في الاستيلاء على

(١) المصدر نفسه ص٣٠٧ .
(٢) المصدر نفسه ص٣٠٧ .
(٣) تاريخ الأيوبيين ص٣٠٧ .

برج السلسلة والعبور إلى الضفة الشرقية للنيل وحصار مدينة دمياط، فضلًا عن تضعضع أحوال المسلمين، كما أملوا بوصول الإمبراطور فريدريك الثاني بقواته إلى ساحة المعركة، وبالتالي فإن امتلاك مصر أصبح شيئًا مضمونًا[١]، ويتبين من هذا الرفض أن الحرب الصليبية في الثالث عشر الميلادي انحرفت عن هدفها الرئيسي الذي قامت من أجله؛ وهو استرداد بيت المقدس، وتحوَّلت إلى أهداف دنيوية استعمارية[٢].

ثالثًا: إعداد الملك الكامل مصر والشام لقتال الصليبيين:

وعندما علم الكامل محمد بنوايا الصليبيين وتصميمهم على الاستمرار في القتال، اتخذ الإجراءات الضرورية التي من شأنها مساعدته على الصمود في وجه هذا الخطر الذي يهِّدد مصر بخاصة والعالم الإسلامي بعامة منها:

- جمع الأموال اللازمة لسد نفقات الحرب.
- إعداد وتجهيز خطوط الدفاع الأمامية.
- حثُّ الأمراء الأيوبيين لإمداد مصر بما تحتاجه من الرجال بقيادة ابنه المظفر محمود، ولما وصل إلى المعسكر الإسلامي أكرمه الكامل محمد، وأعظم قدره، وأنزله على ميمنته، وهي منزلة أبيه وجدِّه عند صلاح الدين[٣]، وتشجَّع الكامل محمد بعد وصول هذه الإمدادات، وجمع عددًا من خبرة القوات الإسلامية وأغار بهم على المعسكر الصليبي، وحرقت بعض أجزاء الأبراج الخشبية، ثم أغار ثانية على المعسكر، ويبدو أن الغارتين كانتا غير فعالتين؛ إذ أحاط الصليبيون معسكراتهم بخنادق تمتد على ضفتي النهر لفرع دمياط وأقاموا بعض الأبراج وزودوها مقاتلين، وربطوا بين ضفتي النهر بجسر من القوارب، وحاول الملك الكامل تخريب الجسر الذي يصل بين المعسكرين لشطرهما إلى قسمين ليسهل عليه مهاجمة أحدهما فخرب جزءًا من الجسر، ولكن الصليبيين كشفوا ذلك، فشددوا الحراسة عليه[٤].

١- **تخريب بيت المقدس عام (٦١٦هـ/ ١٢١٩م)**: اتجه الملك المعظم إلى دمشق لإمداد مصر بما تحتاج إليه من الرجال لدفع الخطر عن دمياط، وسرعان ما بدأت الإمدادات تتقاطر على مصر، ولكنه خشي وصول بعض الإمدادات الصليبية إلى بلاد الشام، وبلغه أن الفرنج عازمون على أخذ القدس، بعد ما خلت الشام من العساكر، وكان بالقدس أخوه العزيز عثمان وعز الدين أيبك، فكتب إليهما المعظم بخرابه، فقالا: نحن نحفظه، لذلك كتب إلى أخيه العزيز

---

(١) المصدر نفسه ص٣٠٨.
(٢) عاشور (٢/ ٢٧٥) تاريخ الأيوبيين ص٣٠٨.
(٣) تاريخ الأيوبيين ص٣٠٨.
(٤) القدس بين أطماع الصليبيين وتفريط الملك الكامل ص٢٤٢.

عثمان ثانية بتخريب بيت المقدس وقال: لو أخذوه (بيت المقدس) لقتلوا كل من فيه، وحكموا على بلاد الشام، وبلاد الإسلام، فألجأت الضرورة إلى خرابه[١]، أقنع العزيز عثمان برأي المعظم وشرع في تخريب سور مدينة القدس عام (٦١٦هـ/١٢١٩م) فضج أهالي المدينة وخرجوا إلى المسجد الأقصى وقبة الصخرة وقطعت النساء شعورهن، ثم هرب الجميع بأموالهم، معتقدين أن الصليبيين في أثرهم، فامتلأت بهم الطرق، ومنهم من اتجه إلى مصر، أو إلى حصن الكرك، وذهب بعضهم إلى دمشق سائرين على الأقدام، والبنات المخدرات مزقن ثيابهن، وربطنا على أرجلهن من الحصا[٢]، ومات خلق كثير من الجوع والعطش، ونهبت الأموال التي كانت بالمدينة المقدسة، وقد تم تخريب المدينة كلها عدا المسجد الأقصى، وقبة الصخرة، وكنيسة القيامة وبرج داود[٣]، وأصبحت المدينة مفتوحة لا يمكن الدفاع عنها، ونقل الملك المعظم آلات القتال منها، وأنشد الشعراء في هذه المناسبة، فقال قاضي الطور مجد الدين محمد بن عبد الله:

مررت على القُدس مُسلِّمًا ... على ما تبقَّى من ربوع وأنجم
ففاضت دُموع العين منِّي صبابة ... على ما مضى من عصره المتقدم
وقد رام علجٌ أن يُعفى رسومه ... وشمَّر عن كَفي لئيم مُذَمَّمِ
فقلت له شُلَّت يمينُك خَلِّها ... لمُعتَبِر أو سائل أو مسلم
فلو كان يُفدى بالنفوس فديته ... بنفسي وهذا الظن في كل مسلم[٤]

٢- عرض الملك الكامل التنازل عن القدس: مضى حتى الآن أحد عشر شهرًا على نزول الصليبيين أمام دمياط، دون أن يحققوا هدفهم، ويبدو أن بعضهم ملَّ من طول هذه المدة، واعتقد البعض الآخر بمتانة الوضع الصليبي على الأرض، وبالتالي فلا حاجة للبقاء أكثر من ذلك بعيدًا عن أوطانهم، فعادوا إلى بلادهم، كان من بينهم ليوبلد السادس دوق النمسا الذي غادر مصر في (١٤صفر/ أول آيار)[٥]، والحقيقة أن عودة بعض القوات إلى أوطانها لم تؤثر على الوضع الصليبي العام؛ لأن الصليبيين تلقَّوا إمدادات أخرى أرسلها البابا هونوريوس الثالث في (٢٩صفر/ ١٦ آيار) فتحدَّد نشاطهم، ويبدو أن الكامل محمد علم بقدوم هذه الإمدادات، فرأى أن يقوم بهجوم على المعسكر الصليبي قبل أن تنظم هذه الإمدادات، وتبادر بشنِّ هجوم على المسلمين.

والواقع أن الطرفين قاما بتنفيذ عدة هجمات، لكن دون نتيجة إيجابية، ويبدو أن فشل القيادة الصليبية في الاستيلاء على دمياط بعد خمسة عشر شهرًا من المحاولات والمعارك أدّى إلى تذمر

---

(١) المصدر نفسه ص٢٤١، النجوم الزاهرة (٦/ ٢٢٤).
(٢) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٤١ .
(٣) مفرج الكروب (٤/ ٣٢).
(٤) شذرات الذهب (٧/ ١١٩).
(٥) تاريخ الأيوبيين ص٣٠٨ .

القوات الصليبية وانهيار روحهم المعنوية، فاتهموا القادة بالجبن والخيانة، وطالبوا بشنِّ هجوم عام على المعسكر الإسلامي في فارسكور، وحتى يخفِّفوا من حدة هذه التشنُّجات، اتفق الزعماء على القيام بتنفيذ هجوم عام على المسلمين، لكنهم اختلفوا في اختيار الهدف، فرأى الملك يوحنا بريين تشديد الحصار على دمياط، في حين طلب بيلاجيوس شنَّ هجوم على المعسكر الإسلامي في فارسكور، وسانده رجال الدين وبعض الفرسان، وانتصر الرأي الأخير، وشن الصليبيون هجومًا عامًّا على معسكري الكامل محمد والمعظم عيسى في فارسكور في (١٦ جمادى الآخرة/١٩آب) مرتكبين خطأً تكتيكيًا؛ لأن النتيجة جاءت عكسية، إذ صُدَّ الهجوم، وفرَّت القوات الصليبية من ساحة المعركة بعد أن تكبدت خسائر فادحة في الأرواح، ووقع الكثير في الأسر، وقد دعَّم هذا الانتصار موقف المسلمين، وأعاد الثقة إلى نفوسهم[١]، وأراد الكامل محمد أن يستغل ذلك النصر ليستأنف ضغطه على الصليبيين لقبول عرض الصلح الخاص بالجلاء عن مصر، وكان يعتقد أن الهزيمة الأخيرة سوف تدفعهم إلى تغيير موقفهم المتشدِّد، لكن عرضة قوبل بالرفض أيضًا[٢]، ويبدو أنه لم ييئس، فعرض عليهم الصلح للمرة الثالثة، وقدَّم لهم تنازلات سخية جدًّا وهي:

- تنازله عن كل الأراضي التي فتحها صلاح الدين؛ من بيت المقدس وعسقلان، وطبرية، وجبلة واللاذقية، وسائر ما فتحه من مدن الساحل، باستثناء الكرك والشوبك.
- دفع مبلغ خمسة عشر ألف دينار مقابل الكرك والشوبك.
- دفع تكاليف إعادة تحصين بيت المقدس، وباقي القلاع التي خرَّبها المسلمون في بلاد الشام.
- تشكيل لجنة رباعية لتحديد تكاليف إعادة البناء.
- إعادة صليب الصلبوت.
- تستمر الهدنة لمدة ثلاثين سنة.

وضمانًا لحسن تنفيذ ذلك تعهد الكامل محمد بتقديم عشرين رهينة من أقاربه ليحتفظ بها الصليبيون مدة سنتين يتم خلالها إعادة تحقيق ما تهدم[٣].

ولا شك بأن الكامل محمد كان متساهلًا جدًّا عندما قدَّم هذا العرض للصليبيين، وهو يشكل إغراء كبيرًا للقبول به، لكن هؤلاء لم يختلف موقفهم عن السابق، فقد وافق عليه الملك الصليبي

(١) تاريخ الأيوبيين ص٣٠٩.
(٢) المصدر نفسه ص٣١٠.
(٣) تاريخ الأيوبيين ص٣١٠.

وأمراء بيت المقدس، ورفضه المندوب البابوي وفرسان الداوية والأسبتارية، الذين كانوا يمكلون قلعتي الكرك والشوبك من قبل، وعدُّوا الانسحاب من أمام دمياط عارًا، فضلًا عن أنهم لم يثقوا بالمسلمين، وانضم الإيطاليون إلى جماعة الرافضين(١).

رابعًا: سقوط مدينة دمياط:

تتابع وصول القوات الفرنسية والإنجليزية وكانت محملة على ما يقرب من عشر سفن جنوية، فارتفعت معنويات القوات الصليبية وصممت على مواصلة الحصار لمدينة دمياط، وسرعان ما أغار الملك الكامل على المعسكر الصليبي وعرض الصلح على الصليبيين مرة رابعة ولكنه لم يلق قبولًا(٢).

١- إحكام حصار دمياط: بدأ الصليبيون بإحكام الحصار حول مدينة دمياط من البر والبحر، وضيقوا على أهلها، ومنعوا وصول الأقوات إليهم، وبدأت حاميتها بالانهيار، وارتفعت الأسعار فبيعت البقرة بعد ذبحها بـ(٨٠٠) دينار ولم يبق داخل دمياط سوى القليل من القمح والشعير(٣)، ولكن سكان المدينة استمروا في قتال الصليبيين، وثبتوا مع قلة الأقوات، وكان الملك الكامل يرسل بعض العوامين ليتحسس أخبار الأهالي في دمياط ويطمئنهم على وصول النجدات إليهم، وكان قائد دمياط الأمير جمال الدين الكناني من دمياط فرمى قصيدة على رأس سهم إلى الملك الكامل تصف حالة دمياط السيئة وانهيار معنويات الأهالي، وقرب انهيار المقاومة وتطالب بالمدد بسرعة لإنقاذ المدينة، منها(٤):

يا مالكي دمياط ثغر هدمت ... الله ضامن أجره وكفيله شرفاته
يقريك من أزكى السلام تحية ... كادت تجث أصوله
ويقول عن بعد وإنك سامع ... كالمسك طاب دقيقه وجليله
يأيها الملك الذي ما إن يرى ... حتى كأنك جاره ونزيله
هذا كتاب موضح من حالتي ... بين الملوك شبيهه وعديله
أشكو إليك عدو سوء أحدقت ... ما ليس يمكنني لديك أقوله
فالبر قد منعت إليه طريقه ... بجميعه فرسانه وخيوله
فخضوعه باد على أبراجه ... والبحر عز لنصرة أسطوله
ولو استطاع لأمَّ بابك لائذا ... وحنينه وبكاؤه وعويله
ورسوله في أن تجيب دعاءه ... لكنه سدت عليه نحوله
فاحرس حماك بعزمة تشفى بها ... أن يشتفي لما دعاك عليله

---

(١) المصدر نفسه ص٣١١.
(٢) القدس بين أطماع الصليبيين وتفريط الملك الكامل ص٢٤٥.
(٣) مفرج الكروب (٤/٣٢).
(٤) القدس بين أطماع الصليبين ص٢٤٦.

فالله أعطاك الكثير بفضله ... داء لمثلك يرتجى تعليله
فالعذر في نصر الإله ودينه ... ورضاه من هذا الكثير له
والثغر ناظره إليك محدق ... ما ساغ عند المسلمين قبوله
ولئن قعدت عن القيام بنصره ... ما إن يمل من الدموع هموله
ووهت قوى القرآن فيه ورفعت ... جفت نضارته وبان ذبوله
وعلا صدى الناقوس في أرجائه ... صلبانه وتلا به إنجيله
هذا وحقك وصف صورة حاله ... وخفى على سمع الورى تهليله
وكفاك يابن الأكرمين بأنه ... حقًّا وجملته وذا تفصيله
حقق رجاء فيك يا من لم يخب ... أضحى عليك من الورى تعويله
وأدخر ليوم البعث فعلًا صالحًا ... أبدًا لراجي جوده تأميله

فلما وقف السلطان على هذه الأبيات أمر أهل القاهرة ومصر بالنفير للجهاد[١]، وحاول مساعدة سكان المدينة، وحث حاميتها على الصمود، وأخذ يرسل بعض المتطوعين لرفع معنويات السكان ولم يستسلم المسلمون لليأس، فلجئوا إلى كل الحيل لإيصال المؤن إلى مدينة دمياط، فكان الملك الكامل يدفع برجاله ليلًا وهم يحملون المؤن المحفوظة داخل الجلود والمشمعات، فوضع الصليبيون حبالًا مزودة بالأجراس تدق عندما يصطدم السباحون بها، فيتجه الفرنج إلى المكان، ويقبضون على العوامين[٢] أو يقتلونهم، وكان المسلمون يعبئون الجمال بالأغذية بعد تفريغ بطونها، ويلقونها في النهر مع بعض الجيف فيجذبها أهالي دمياط ويأخذونها، ولكن الصليبيون نجحوا في وقف ذلك بوضع شباك في النهر[٣]، ونجح الصليبيون في عزل دمياط كليًّا، وأصبحت المدينة في وضع سيئ، ولم يعد الملك الكامل يعرف ما يدور بداخلها[٤].

٢- سقوط دمياط: شدَّد الصليبيون الحصار على دمياط، وضيَّقوا على أهلها، ومنعوا وصول الأقوات إليها، وفي المقابل كانوا متحصنين داخل معسكراتهم المحاطة بالخنادق والأسوار، وتعذر على الكامل محمد إمداد المدينة بالرجال والمؤن، وبدأت حاميتها بالانهيار، وأخيرًا سقطت دمياط في (٢٥ شعبان ٦١٦هـ/ ٥ تشرين الثاني ١٢١٩م) بعد حصار دام تسعة، أشهر ودخلها الصليبيون بعد يومين[٥]، كان أهل دمياط قد طلبوا من الفرنج الأمان وأن يخرجوا منها بأهلها وأموالهم في القَساقِسَة وحلفوا لهم على ذلك، ففتحوا لهم الأبواب فدخلوا وغدروا بأهلها، ووضعوا فيهم السيف، قتلًا وأسرًا وباتوا في الجامع يَفْجُرُون بالنساء ويفتضون

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك (١/ ٣١٦، ٣١٧).
(٢) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٤٦ .
(٣) السلوك نقلًا عن القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٤٦ .
(٤) مفرج الكروب نقلًا عن بيت المقدس بين أطماع الصليبيين ص٢٤٧ .
(٥) تاريخ الأيوبيين ص٣١١ .

البنات[١]، وحولوا مسجدها كنيسة[٢] وكأنهم بذلك يثبتون أنه أينما أقام الصليبيون في موقع من مواقع دار الإسلام أو غيرها من المناطق إلا ونجد الدموية والبربرية، بل إن ذلك صار سمة من سماتهم، سواء في بلاد الشام أو مصر وكأنه تاريخ دموي متواصل الحلقات وإن اختلفت مواقعه الجغرافية[٣].

ويضاف إلى ذلك أن الغزاة قاموا بسك عملة صليبية في دمياط مما يدل على أنهم اعتقدوا في استقرارهم، واستمرار وجودهم فيها، وفي هذا المجال نعرف أن الصليبيين عندما استولوا على دمياط كان أمامهم أن يتعاملوا بالعملة الإسلامية التي تم تداولها في المدينة من قبل، أو أن يقوموا بسك عملة جديدة وقد فضلوا الحل الثاني، وبالفعل تم سك نقود صليبية عليها كتابات لاتينية حاول الغزاة فرضها على الأهالي المسلمين بدمياط، وأطلق البعض على تلك النقود نقود الضرورة، وتم سكها في دار ضرب وصفت بأنها طارئة أملتها الظروف الجديدة الناجمة عن احتلال الحملة الصليبية لدمياط[٤]، ومن الملاحظ أن تلك النقود لم يتم التعامل بها أمدًا طويلًا، ونجد أنها وصفت بالندرة على اعتبار أنها سكت من أجل الأغراض الحياتية خلال الظروف التي عاشها الصليبيون بدمياط، ثم إن الغزاة نجحوا في فرض الحصار حولها، ولذلك لم تتسرب تلك النقود إلى الأسواق المصرية[٥].

وإلى جانب ذلك نجد أن الصليبيين عملوا على تنصير الأطفال المسلمين في دمياط، وقد أقر بذلك المؤرخ الصليبي جاك دي فترى، على نحو دل دلالة واضحة على أن المنصرين ساروا وراء الفرسان الصليبيين، وأن الحركة الصليبية بعد أن أخفقت في غزو البالغين وجعلهم يتحولون عن الإسلام إلى المسيحية اتجهت إلى غزو قلوب الصغار الأبرياء الذين ليس لهم ناقة ولا جمل في ذلك الصراع المحموم بين الطرفين[٦]، لقد كان أسلوب الصليبيين في دمياط بربريًا همجيًا متخلفًا، بعيد عن الحضارة والقيم الإنسانية النبيلة.

كان لسقوط دمياط أبلغ الأثر في نفوس المسلمين، مما جعلهم يتكاتفون لصدِّ الخطر الداهم وإجلاء المعتدين في الوقت الذي استعدَّ فيه الصليبيون للزحف نحو القاهرة للاستيلاء عليها وتحقيق الهدف الأسمى للحملة، وهكذا أضحى العالم الإسلامي في الشرق الأدنى مطوَّقًا بخطر المغول من الشرق والصليبيين من الغرب، الأمر الذي دفع المؤرخ ابن الأثير للتعبير عن حزنه قائلًا: ولقد بُلي الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يُبتل بها أحد من الأمم، منها هؤلاء التتر -قبَّحهم الله- أقبلوا من المشرق، ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كل من سمع بها

(١) الحروب الصليبية -العلاقات بين الشرق والغرب ص٣١٢.
(٢) شذرات الذهب (١١٩/٧).
(٣) الحروب الصليبية -العلاقات بين الشرق والغرب ص٢٨٥.
(٤) النقود الصليبية ص٢٣٤، رأفت النبراوي.
(٥) المصدر نفسه ص٢٣٥.
(٦) الحروب الصليبية -العلاقات بين الشرق والغرب ص٢٨٦.

... ومنها خروج الفرنج من المغرب إلى الشام، وقصدهم ديار مصر، وملكهم ثغر دمياط منها، وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها على أن يملكوها[١].

٣- ذيول سقوط دمياط: كان من أثر الصدمة التي أصيب بها العالم الإسلامي بسقوط دمياط، أن تدفق الناس على المساجد يتضرَّعون إلى الله أن ينصرهم على أعدائهم، وأدرك الملك الكامل محمد أن المهمة الملقاة على عاتقه ثقيلة، وأن مسئوليته أصبحت أخطر من قبل، وبدأ يُخطط من جديد، لدفع خطر الصليبيين عن مصر قبل أن يستفحل، وتصرَّف على أربعة محاور:

(أ) بادر بإرسال السفراء إلى بغداد لحثِّ الخليفة الناصر لدين الله على الدعوة للجهاد، ودفع المسلمين إلى حمل السلاح للدفاع عن الإسلام، فكتب الخليفة إلى الأمراء المسلمين لنجدته، لكن تصرفه وقف عند هذا الحد، وربما كان منهمكًا في تتبُّع أخبار الزحف المغولي باتجاه غربي آسيا الأمر الذي منعه من إرسال العساكر إلى مصر، تاركًا الجبهة الموجهة للمغول مفتوحة[٢].

(ب) أرسل إلى أخيه المعظم عيسى في دمشق لمهاجمة المعاقل الصليبية في بلاد الشام لتخفيف الضغط عن الجبهة المصرية[٣].

(ج) قرَّر تجنيد مزيد من القوات من كافة أنحاء مصر، واستحضار أكبر عدد ممكن من العساكر الشرقية، فتمكَّن من جمع عشرين ألف مقاتل.

(س) اختار مكانًا أكثر ملاءمة للقتال لوقف الزحف الصليبي باتجاه القاهرة، فنقل معسكره إلى المنطقة التي تقع جنوب بحر أشموم طنَّاح والشاطئ الشرقي للنيل، قبالة قرية جوهر، وبنى فيها قلعة جديدة أطلق عليها المنصورة[٤] ومن الواضح أن اختيار هذا المكان كان موفقًا فهو:

- محصَّن تحصينًا طبيعيًّا، ولا يتيسر للصليبيين الوصول إليه إلا تحت حراسة برية وبحرية مكثَّفة وقوية، نظرًا لبعده عن قواعدهم في دمياط، مما سيعرضهم لهجمات المسلمين.

- أقرب المواقع لاستقبال النجدات القادمة من بلاد الشام عبر شبه جزيرة سيناء.

- أقرب طريق للمواصلات الرئيسية إلى القاهرة.

- قرية من ميناء سمنُّود التجاري ذي المحاصيل الوفيرة والمركز الجغرافي المتصل بمختلف بلاد الدلتا.

---

(١) تاريخ الأيوبيين ص٣١٢ .

(٢) السلوك نقلًا عن تاريخ الأيوبيين ص٣١٣ .

(٣) تاريخ الأيوبيين ص٣١٣ .

(٤) بدائع الزهور في وقائع الدهور (٧٩/١).

وأما الصليبيون فعمدوا إلى إعادة بناء دمياط وتحصينها وبالغوا في ذلك، ثم كتبوا إلى البابا هونوريوس الثالث يطلبون:

- مزيدًا من القوات العسكرية، وبخاصة أن بعض الصليبيين الموجودين في مصر بدءوا يفكرون في العودة إلى أوطانهم.

- إرسال الإمبراطور فريدريك الثاني.

- إرسال الأموال التي جُمعت لصالح الحملة(١).

٤- الخلافات بين الصليبيين: تباينت آراء الصليبيين بعد سقوط دمياط على الأولويات الواجب اتخاذها، فقد اختلفوا على ملكية دمياط؛ إذ رأى الملك جان دي برين يسانده بارونات بيت المقدس أن دمياط أصبحت جزءًا من مملكة بيت المقدس، فيما رأى بلاجيوس المندوب البابوي ضرورة خضوع المدينة لسلطة الكنيسة، أي لسلطته بالذات لأنه ممثل البابا، ولكن الرأي العام للحملة عارض بلاجيوس في ادعائه ملكية المدينة، وتأزمت الأمور بين الملك جان دي برين، ومندوب البابا، فأيد الفرسان الداوية، والأسبتارية والفرنسيون وصليبيو بيت المقدس الملك دي برين فيما أيد الإيطاليون بلاجيوس، وانتهى الأمر بعرض الأمر على البابا هونوريوس الثالث، فأيد الملك في موقفه في ضم المدينة إلى مملكة بيت المقدس، واختلف الصليبيون لدى تقسيم الغنائم؛ إذ شعر الإيطاليون بالغبن الذي أصابهم، وأعلنوا العصيان وطالبوا بمزيد من الغنائم، وأشهروا سلاحهم في وجه الجند الفرنسيين إذ لم يؤيدهم بلاجيوس في طلبهم، وإنقاذًا للموقف أخرجت القوات الفرنسية من دمياط حتى لا تشتبك مع الإيطاليين وأخيرًا اتفق على:

(أ) طرد القوات الإيطالية من دمياط، وتولي أمر تلك فرسان الداوية، والقوات الفرنسية، وفرسان الأسبتارية.

(ب) إعادة توزيع الغنائم، وزيادة نصيب الإيطاليين منها(٢)، وانقسمت آراء الصليبيين حول الزحف على القاهرة، فقد رأى قلة من الجند التوجه إلى بيت المقدس، والاستيلاء عليها، إذ كانت بلاد الشام مكشوفة تمامًا ولا قوات إسلامية فيها، ورأى الملك جان دي برين تحصين مدينة دمياط، ومنح الصليبيين قسطًا من الراحة، ريثما يصل الإمبراطور فردريك الثاني، ورأى بلاجيوس أن الطريق متيسر إلى القاهرة، وأن الزحف عليها ومطاردة الأيوبيين في هذا الوقت مناسب ويمكنهم من السيطرة على مصر، ومن ثم على بلاد الشام، وتفاقم الخلاف بين بلاجيوس والملك الصليبي الذي حاول توضيح صعوبة السيطرة على مصر والقاهرة، لقلة عدد

(١) تاريخ الأيوبيين ص٣١٣، ٣١٤.

(٢) القدس بين أطماع الصليبيين ص٣٤٩.

الصليبيين بالنسبة إلى سكان مصر وبعد مدينة القاهرة عن دمياط، فآثر الملك مغادرة دمياط إلى عكا عام (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م)[١].

٥- الوضع العسكري في بلاد الشام بعد سقوط دمياط: على الرغم من الخلافات الداخلية بين الصليبيين والركود العسكري الذي وقعوا فيه، فقد كان عليهم تأمين وجودهم ضد القوات الإسلامية، لذلك رأوا الاستيلاء على تنيس فأغاروا عليها في (١٤ رمضان ٦١٦هـ/ ٢٣ تشرين الثاني ١٢١٩م) ودخلوها قهرًا[٢]، وفي بلاد الشام هاجم المسلمون المعاقل الصليبية لتخفيف الضغط عن الجبهة المصرية، ذلك أن المعظم عيسى غادر مصر بعد سقوط دمياط عائدًا إلى بلاد الشام لسببين:

الأول: حشد العساكر وإرسالها إلى مصر.

الثاني: الضغط على أملاك الصليبيين في بلاد الشام.

وفعلًا هاجم في (شهر محرم ٦١٧هـ/ شهر آذار ١٢٢٠م) قيسرية وفتحها عنوة، ثم توجه إلى قلعة عثليث[٣] لفتحها، لكنه جوبه بمقاومة الداوية فيها، فاضطر إلى الانصراف عنها[٤] وحذا الأشرف موسى حذو أخيه المعظم عيسى، فأغار على إمارة طرابلس، وهاجم صافيتا، وحصن الأكراد، غير أنه لم يتمكن من المضي طويلًا في عملياته العسكرية بسبب الحرب بينه وبين سلاجقة الروم، لكنه رابط بالقرب من طرابلس وأنطاكية[٥].

والواقع أن الهجمات الإسلامية على ممتلكات الصليبيين في بلاد الشام بالإضافة إلى مرابطة الأشرف موسى قد حرم الصليبيين الموجودين في دمياط من الإمدادات التي يمكن أن تأتي إليهم من الإمارات الصليبية في بلاد الشام، ليس هذا فحسب، بل أدَّى إلى سحب بعض القوات الصليبية من دمياط لمساعدة إمارات بلاد الشام[٦]، إذ إن الملك يوحنا بريين اتخذ من هذه الهجمات حجة لمغادرة دمياط إلى عكا، على الرغم من تعدُّد أسباب هذه العودة التي كان من بينها استمرار تدهور العلاقات بينه وبين المندوب البابوي، ومشكلة الوراثة في أرمينية الصغرى بعد وفاة ليو الثاني في منتصف عام (٦١٦هـ/ صيف عام ١٢١٩م)[٧]. ومما يلفت النظر خطورة الصراع بين القوى الإسلامية؛ السلاجقة والخوارزميين والأيوبيين بينما ملوك أوربا يتفقون، فكان لذلك التفرق أثر على الإسلام والأمة.

(١) بيت المقدس بين أطماع الصليبيين وتفريط الملك الكامل ص٢٥٠.
(٢) تاريخ الأيوبيين ص٣١٥.
(٣) المصدر نفسه ص٣١٥. اسم حصن بسواحل الشام.
(٤) تاريخ الأيوبيين ص٣١٥.
(٥) المصدر نفسه ص٣١٥.
(٦) تاريخ الأيوبيين ص٣١٦.
(٧) المصدر نفسه ص٣١٦.

٦- **المناوشات بين الملك الكامل والصليبيين:** استغل الملك الكامل الخطر الذي فرضه بلاجيوس على حركة السفن الصليبية، وأرسل بعض السفن الحربية عبر فرع رشيد إلى قبرص فهاجمت السفن الراسية في ليماسول، فأغرقت بعضها، وأسرت البعض الآخر، واستجاب البابا لنداءات الصليبيين في دمياط بإمدادهم بالمال والرجال، ففي (محرم ٦١٧هـ/ آذار ١٢٢٠م) وصلت قوات صليبية إلى دمياط يرافقها بعض رجال الدين وعلى رأسهم رئيس أساقفة ميلان هنري، وأرسل البابا الأموال من خزانة البابوية، وتتابع وصول الإمدادات من ألمانيا وفرنسا بالإضافة إلى ثماني سفن أرسلها الإمبراطور فردريك الثاني على رأسها منى كونت بوليا، وحاول بلاجيوس استغلال الإمدادات المتزايدة عام (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م) للزحف على القاهرة، إلا أن القوات الفرنسية والألمانية والإنجليزية لم توافقه، فأغارت القوات العسكرية المؤيدة للمندوب البابوي على البرلس، ونهبتها، فأعد لهم المسلمون كمينًا، وتمكنوا من أسر الكثير منهم وفر الباقون إلى دمياط[١] .

٧- **حشد الملك الكامل للقوات للمواجهة الحاسمة:** ظل الملك الكامل مرابطًا في المعسكر الذي أطلق عليه فيما بعد المنصورة، وقد اتخذ الكثير من الإجراءات لإشغال الصليبيين، ووقف زحفهم على القاهرة، فوضع بعض السفن الإسلامية في بحيرة تنيس لمناوشته الصليبيين، وكلف الكثير من الفرسان والعربان بالإغارة على القوات الصليبية باستمرار، وشجع على أسر أو قتل الصليبيين، وخصص المكافآت لكل مسلم يأسر عدوًا، وقد نجح المسلمون من أسر الآلاف من العساكر الصليبية أثناء هذه المناوشات والغارات، وبادر الصليبيون إلى بناء حصن تورون في جيزة دمياط، وأحاطوه بسور من الطين لخلو المنطقة من الحجارة، وشيدوا برجًا خشبيًا شديد الارتفاع لإرشاد السفن الذاهبة إلى دمياط، وأقام الصليبيون حصنًا آخر اسمه بوتا فأتت بين دمياط وقلعتها، فحد هذا الحصن من نشاط السفن الإسلامية في بحيرة تنيس ووفر كميات من السمك للصليبيين كانوا يصيدونها من البحيرة، وأطمأن الصليبيون على أنفسهم من الهجمات الخاطفة، التي كان المسلمون يقومون بها، مع أنها كلفتهم أكثر من ثلاثة آلاف أسير[٢] ، وتدفق الصليبيون عام (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م) على دمياط حتى أصبحت دار هجرتهم، فقد قدم إليها الأسقف الألماني أولريخ، وأسقف باسو، وعاد رئيس هيئة فرسان التيوتون (هرمان فون سالز) على رأس ٥٠٠ فارس، وأخذ عدد الصليبيين يزداد يومًا بعد يوم، متشجعين بامتلاك الإفرنج للمدينة، وتمكنهم من الديار المصرية[٣] .

---

(١) شذرات الذهب نقلًا عن القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٥٣ .

(٢) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٥٥ .

(٣) الكامل في التاريخ نقلًا عن القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٥٥ .

٨- الزحف الصليبي على القاهرة والمعركة الفاصلة: تحركت القوات الصليبية في (٧ جمادى الأولى ٦١٨هـ/ ٢٩حزيران ١٢٢١م) من دمياط إلى العادلية استعدادًا للتقدم جنوب دمياط بحذاء النيل، وظل الجيش الصليبي خارج دمياط أربعة أيام انتظارًا لوصول الملك دي برين، وما أن وصل الملك حتى بادر مجلس الحرب الصليبي إلى التشاور في الأمر، فأمر بلاجيوس بالزحف على القاهرة للقضاء على قوات مصر العسكرية، وتجهزت القوات الصليبية للدخول مع المسلمين في معركة فاصلة فأعدت البحرية الصليبية أكثر من ٦٠٠ سفينة من مختلف الأحجام، حملت الفرسان، ورماة السهام، وعددًا كبيرًا من المشاة، بالإضافة إلى القوات البرية التي سارت بحذاء النهر إلى جانب السفن وتقدمت هذه القوات جنوبًا للتوغل في ديار مصر[١]، فوصلت إلى فارسكور في (٢٥ جمادى الأولى ٦١٨هـ/ ١٧ تموز ١٢٢١م).

ولما علم الملك الكامل بزحف الصليبيين اتجه شمالًا، فعبر بحر أشموم، وتقدم نحو شار مساح، ولكنه تراجع إلى المنصورة وجعل منها محور الارتكاز لجميع خططه، تابع الصليبيون زحفهم فوصلوا إلى شار مساح واستولوا عليها بعد مناوشات بسيطة، وتقدموا إلى أن وصلوا طرف جزيرة دمياط[٢]، وأقاموا معسكرهم، وكلف الملك الكامل أمراءه جمع الناس من كل مكان لمواجهة خطر الصليبيين، فقام الأمير حسام الدين يونس والي الإسكندرية والفقيه تقي الدين طاهر الحلي بجمع الناس من المنطقة الواقعة بين القاهرة وأسوان، وقام الأمير علاء الدين جلدك والأمير جمال الدين بن صيرم بجمع المقاتلين من المنطقة الشرقية، ونشط الملك المعظم بجمع أعداد كبيرة، وكذلك الملك الأشرف[٣] الذي قال: خرجت بنية الجهاد ولا بد من إتمام هذا الأمر[٤]، واتّجه الجميع إلى مصر، وبدأت الاستعدادات الإسلامية نشطة، وكان الجميع مندفعًا لدعم قوات الملك الكامل فوصلت هذه الإمدادات إلى المنصورة[٥] يتقدمها الملك الأشرف موسى، وفي مؤخرتها الملك المعظم وبينها الملك الناصر ابن الملك المنصور صاحب حماة[٦]، والمجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص، والأمجد بهرام صاحب بعلبك فخرج الكامل واستقبلهم، وأيقن بحصول النصر، والظفر بالعدو، وقويت معنويات المسلمين، وقدرت القوات الإسلامية بحوالي ٤٠ ألف فارس[٧].

ورأى الفرنج من العساكر الإسلامية ما هالهم وفتَّ في أعضادهم؛ واشتد القتال بين الفريقين برًّا وبحرًا[٨] واستطاع الملك الكامل أن ينزل قوات خلف الجيش الصليبي المتقدم، فقطع عليه

(١) مفرج الكروب نقلًا عن القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٥٥.
(٢) النجوم الزاهر (٦/ ٢٣١) القدس بين أطماع ص٢٥٧.
(٣) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٥٧.
(٤) مفرج الكروب (٤/ ٩٣).
(٥) القدس بين أطماع الصليبيين وتفريط الملك الكامل ص٢٥٧.
(٦) السلوك نقلًا عن القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٥٧.
(٧) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٥٧.
(٨) مفرج الكروب (٤/ ٩٥).

خط الرجعة وعزله عن دمياط، كما أجهز على سفنه الراسية بين المقدمة والمؤخرة، وحاصره برًّا وبحرًا، ثم أرسل قوة عسكرية عبرت إلى الأراضي التي يعسكر فيها الصليبيون، ففجَّروا سدود المياه، فلم يشعر هؤلاء إلا وقد غرقت أكثر الأرض المحيطة بهم[(١)] وهكذا سُدت جميع المنافذ أمام الصليبيين باستثناء جهة واحدة يسلكونها، وهي الشريط الضيق الملاصق للنيل، ويمتد من معسكرهم شمالًا حتى دمياط، وأدرك الكامل محمد ذلك، فأمر بنصب الجسور على النيل عند أشموم طنَّاح، فعبرت القوات الإسلامية هذه الجسور وسيطرت على هذا الطريق[(٢)] ، الذي كان أمل الصليبيين الوحيد لعودتهم برًّا إلى دمياط، وهكذا سيطر المسلمون على الموقف وإذ تعذَّر على القوات الصليبية التقدم أو الانسحاب، أدرك بلاجيوس أنه ارتكب خطأً عسكريًّا بمغادرة دمياط، ولم يبق أمامه للخروج من هذا المأزق سوى الصلح[(٣)] وأحس القادة الصليبيون بخطورة موقفهم فالمياه تمنعهم من القتال والجوع عضهم بنابه، والمسلمون يسيطرون على الموقف سيطرة تامة، واستمرارهم في المعسكر سيؤدي إلى هلاكهم، وسرعان ما أرسل المندوب البابوي بلاجيوس للملك دي برين يدعوه للتشاور وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وعندما اجتمع الاثنان اتفقا على أخذ رأي القادة الصليبيين لعرض الصلح على المسلمين[(٤)] ، ومال الكامل محمد إلى قبول عرض الصلح، ولعله كان مدفوعًا بعدة عوامل من أهمها:

- فقد كان يخشى حضور الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني على رأس قوته، فينتقم لما حلَّ بالصليبيين ويحتفظ بدمياط[(٥)] .

- إن استعادة دمياط تحتاج إلى مجزرة لا داعي لها، وربما لا يقدر عليها وبخاصة أن القوات الإسلامية ضجرت من طول مدة الحرب التي استمرت ثلاث سنوات وثلاثة أشهر[(٦)] .

- استمرار وصول الإمدادات الصليبية إلى دمياط، مما سيجعل مهمة القوات الإسلامية صعبة ومعقَّدة وربما لا تحقق النتائج التي عرضها الصليبيون، ولو أقام الصليبيون يومين لأخذوا المسلمين برقابهم.

- توارد الأنباء من الشرق عن تقدم المغول باتجاه غربي آسيا، فأراد أن يدَّخر قواته، ويتفرغ للخطر المغولي، إذا ما استمر في التقدم إلى قلب العالم الإسلامي[(٧)] .

٩- قبول الصلح: استشار السلطان الملك الكامل ملوك أهل بيته في ذلك، فأشار بعضهم بأن لا يؤمنهم ويأخذهم أخذًا باليد فإنهم قد صاروا في قبضته، وهم جمهور أهل الشرك وأنه إذا

---

(١) مفرج الكروب (٤/٩٦).
(٢) المصدر نفسه (٤/٩٦) تاريخ الأيوبيين ص٣١٨ .
(٣) تاريخ الأيوبيين ص٣١٨ .
(٤) شذرات الذهب نقلًا عن القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٦١
(٥) عاشور (٢/ ٩٨٣) تاريخ الأيوبيين ص٣١٩ .
(٦) مفرج الكروب نقلًا عن تاريخ الأيوبيين ص٣١٩ .
(٧) تاريخ الأيوبيين ص٣١٩ .

فعل ذلك أخذ منهم دمياط وجميع ما بقي لهم من البلاد الساحلية، فلم يرَ السلطان الملك الكامل ذلك مصلحة وقال: إن هؤلاء ليسوا جميع الفرنج، وإذا أبدناهم لا نقدر على أخذ دمياط إلا بمطاولة وحروب كثيرة مدة، ويسمع ملوك ما وراء البحر من الفرنج وما نالهم بما يجري على الفرنج، فيقدم إلينا أضعاف هؤلاء وتعود للحرب خدعة، وقد ضجرت العساكر من الحرب وكلَّت. . . فاتفق رأي الكل على بذل الأمان لهم، وتسلم دمياط منهم، فأجيبوا إلى ما طلبوا على أن يأخذ منهم السلطان الملك الكامل ملوكهم رهائن إلى أن يسلموا دمياط، وطلبوا هم أن يأخذوا ولد السلطان وجماعة من خواصه رهائن إلى أن يرجع ملوكهم إليهم، فتقررت القاعدة على ذلك والأيمان سابع رجب من هذه السنة؛ أي سنة ثمان عشرة وستمائة.

وكانت رهائن الفرنج: ملك عكا، واللوكان نائب البابا صاحب رومية الكبرى، وغير هؤلاء من الملوك تتمة عشرين ملكًا، وكانت رهائن السلطان الملك الكامل ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب، وجماعة من خواصه، وكان عُمر الملك الصالح يؤمئذ خمس عشرة سنة، ولما قدم هؤلاء الملوك إلى السلطان الملك الكامل جلس لهم مجلسًا عظيمًا ووقف بين الملوك من إخوته وأهل بيته جميعهم، ورأى الفرنج من عظمته وناموسه ما هالهم، ثم أرسلت الفرنج قسوسهم ورهبانهم إلى دمياط لتُسلم إلى المسلمين، فسلمت إليهم تسع عشر رجب من هذه السنة، وكان يوم تسليمها يومًا مشهودًا عاد به الدين الإسلامي جديدًا بعد أن كانت قد ساءت به الظنون، وخيف على الديار المصرية والشامية من الفرنج خوفًا شديدًا، وفي اليوم الذي سلمت فيه دمياط وصل إلى الفرنج نجدة عظيمة من البحر، فلو سبقوا المسلمين إليهم لامتنعوا من تسليمها، ولما دخلها المسلمون رأوها وقد حصنها الفرنج تحصينًا عظيمًا بحيث بقيت لا ترام، ولا يوصل إليها، ورجعت رهائن الفرنج إليهم ورهائن المسلمين إليهم، وولاها السلطان الأمير شجاع الدين جلدك المظفري التقوي وكان رجلًا خيرًا شهمًا[1]، وهنت الشعراء الملك الكامل وإخوته بفتح دمياط وأكثروا، فمما قيل في ذلك، قصيدة لشرف الدين بن عنين يمدح بها السلطان المعظم عيسى رحمه الله، ومطلعها:

سلوا صهوات الخَيل يوم الوغى عنا ... إذا جُهلت آياتنا والقنا اللُّدنا
غداة لقينا دون دمياط جحفلا ... من الروم لا يُحصى يقينا ولا ظنّا
قد اتفقوا رأيًا وعزمًا وهمة ... ودينًا وإن كانوا قد اختلفوا لُسنا
تداعوا بأنصار الصليب فأقبلت ... جموع كأن الموج كان لهم سفنا
عليهم من الماذي كل مُفاضَةٍ ... دلاص كقرن الشمس قد أحكمت وضنا
وأطمعهم فينا غرور فأرقلوا ... إلينا سراعًا بالجياد وأَرْقَلْنا

(١) مفرج الكروب (٤/ ١٠٠).

فما برحت شمر الرماح تنوشهم بأطرافها حتى استجاروا بنا منا
سقيناهم كأسًا نفت عنهم الكرى وكيف ينام الليل من عدم الأمنا
لقد صبروا صبرًا جميلًا ودافعوا طويلًا فما أجدى دفاع ولا أغنى
لقوا الموت من زُرق الأسنة أحمرا فألقوا بأيديهم إلينا فأحسنا
وما برح الإحسان منا سجية توارثها عن صيد آبائنا الابنا
وقد جربونا قبلها في وقائع تعلم غُمر القوم منا بها الطعنا
أسود وغى لولا قراع سيوفنا لما ركبوا قيدًا ولا سكنوا سجنا
وكم يوم حرٍّ ما لقينا هَجيره بستر وقُرّ ما طلبنا له كنًّا
فإن نعيم الملك في شظَف الشقا ينُال وحلو العيش من مُر يُجنى
يسير بنا من آل أيوب ماجد أبى عزمه أن يستقر به مغنى
كريم الثنا عارٍ من العار باسل جميل المحيا كامل الحسن والحسنى
سرى نحو دمياط بكل سميدع نجيب يَرى ورد الوغى المورد الأهنا
مآثر مجد خلدتها سيوفه لها نبأ يفني الزمان ولا يفنى
وقد عرفت أسيافنا جديدة فعاشوا بأعناق مقلدة مِنّا
ولو ملكوا لم يأتوا في دمائنا وَلُوغا ولكنا ملكنا فأسجحنا

ومن ذلك قصيدة لشرف الدين بن عنين يمدح بها السلطان الملك الأشراف (ابن الملك العادل) مطلعها:

جعل العتاب إلى الصدود توصُّلا ريم رمى فأصاب مني المقتلا
أغراه بي واشٍ تَقوّل كاذبا فأطاعه وعصيت فيه العُذَّلا
ما عمّه بالحُسْن عنبر خاله إلا ليُصبح بالسواد مجملا
صافي أديم الحسن ما خطت يد الأيام في خديه سطرًا
كل مقر بالجمال له فما يحتاج حاكم حسنه أن يُسجلا[1]

ومنها:

لولاك لانفصمت عُرى الإسلام في مصر وأهمل ذكره وتبدَّلا
وتحكمت فيها الفرنْج وغادرت أعلاجها محرابَ عمرو هيكلا
أنت الذي أجلبت عن حلب العدا وحَميتَ بالسُّمر اللدان الموصلا
كم موقف ضَنكٍ فرجت مضيقه وطريقه لخفائه قد أَشكلا

---

(١) مفرج الكروب (٤/ ١٠١).

ونشرت بالبيض المهندةِ الطُّلى ونظمت بالسُّمر المثقفة الكُلا
فالله يخرق في بقائك عادة الدنيا ويُعطيك البقاء الأطولا

وقد أبدع بعض الشعراء في ذكر إنجاد السلطانين الملك المعظم والملك الأشرف أخاهما السلطان الملك الكامل في قوله:

أعبّاد عيسى إن عيسى أتاكم وموسى جميعًا ينصران محمدًا [(١)]

ولما فتحت دمياط دخلها السلطان الملك الكامل، وفي خلمته إخوته وملوك أهل بيته، وكان يوم دخوله إليها يومًا مشهودًا، ثم توجه إلى القاهرة، وأذن للملوك في الرجوع إلى بلادهم، فرجع كل ملك إلى بلاده[(٢)].

١٠- أسباب فشل الحملة الصليبية الخامسة: يعود فشل الحملة الصليبية الخامسة إلى عدة عوامل؛ منها ما يتعلق بالمسلمين، ومنها ما يتعلق بالصليبيين، ومنها ما يتعلق بالأوربيين.

أما ما يتعلق بالجانب الإسلامي فيمكن رصد العوامل التالية:

- الخطط العسكرية الجيدة التي وضعها الكامل محمد وتفَّقها جنوده، فقد أعدَّ في بادئ الأمر دفاع العادلية التي صمد مدة ثمانية أشهر، لكنه اضطر للتراجع نتيجة مؤامرة ابن المشطوب التي أتاحت للقوات الصليبية العبور إلى الضفة الشرقية وحصار دمياط، كما تمكَّن من تطويق الصليبيين بحرًا بواسطة السفن التي سيَّرها في بحر المحلة وضرب مقدمة ومؤخرة الأسطول الصليبي، بالإضافة إلى حسن اختيار الوقت المناسب لتفجير السدود والجسور، وإغراق السفن الصليبية.

- تعاون الملوك الأيوبيين، فقد أدّى المعظم عيسى دورًا بارزًا في إحباط مؤامرة ابن المشطوب، ولم يتوانَ لحظة عن إنجاد أخيه، وتولَّى الضغط على الصليبيين بمهاجمة ممتلكاتهم في بلاد الشام، وهدم القلاع الإسلامية خشية من استيلاء الصليبيين عليها، وتركها في حالة يتيسر على المسلمين استردادها إذا ما سقطت في أيدي هؤلاء، وكذلك فعل الأشرف موسى.

- دعم الجبهة الإسلامية بالمال والرجال والعتاد وإقامة التحصينات الكافية في الأماكن المناسبة.

وفيما يتعلق بالجانب الصليبي فيمكن رصد الملاحظات الآتية:

- أخطأ رجال الدين في إدارة الحملة، كما انتابهم الغرور والاعتزاز بالنفس، وعلى رأسهم المندوب البابوي بيلاجيوس الذي وصفته المصادر بالغباء والعجرفة وعدم الحيلة، فضلًا عن

(١) مفرج الكروب (٤/ ١٠٥).
(٢) مفرج الكروب (٤/ ١٠٥).

تشبُّثه برأيه، وقد تجاهل وضعه كرجل دين وتصرف كقائد عسكري، ولم يسمح للخبراء العسكريين مشاركته.

- الاختلاف في وجهات النظر بين الصليبيين بسبب سوء تصرف المندوب البابوي، وبخاصة بينه وبين يوحنا بريين الذي هدَّد بترك الحملة أكثر من مرة، وقد أدّى هذا الاختلاف إلى إضاعة الفرصة الذهبية التي أتيحت لهؤلاء لتحقيق هدف الحملة وبخاصة بعد أن عرض عليهم الكامل محمد شروطًا سخية للجلاء عن دمياط، والواضح أن موقف كلا الرجلين كشف عن أطماعهما وتطلعاتهما إلى الزعامة والقيادة، مما أضرَّ بالحملة ضررًا بالغًا[1].

- جهل الصليبيين بالوضع الطبيعي لأرض مصر، والخطأ الذي ارتكبوه باختيار طريق الزحف نحو القاهرة، وهو الطريق المحاذي لفرع النيل الشرقي، على الرغم من علمهم بمواعيد ارتفاع وانخفاض مياهه، إذ كان يعترض هذا الطريق الكثير من الترع والقنوات المتفرعة التي شكَّلت كمائن أوقفت تقدم جيشهم.

- عدم استغلال عامل الوقت؛ فلو أن الصليبيين بدءوا زحفهم على القوات الإسلامية عندما كانت ترابط في فارسكور، مما تسبَّب في قتل المئات من الصليبيين، كما كانت هذه القوات ترحل إلى بلادها متى يحلو لها غير عابئة بالأوامر التي تصدر عن قادتها.

- الخلافات التي نشبت بين أفراد الجيش الصليبي حول تقسيم الغنائم، وقد أدَّت إلى صدام مسلح بينهم.

- عدم اكتراث لويس دوق بافاريا بتعليمات الإمبراطور فريدريك الثاني بعدم القيام بأية عملية عسكرية كبيرة إلا بعد حضوره[2].

وأما فيما يتعلق بالجانب الأوربي فيلاحظ ما يلي:

- محاولة البابا هونوريوس الثالث الهيمنة على الحملة حتى لا تتعرض لما تعرضت له الحملة الصليبية الرابعة؛ من ذلك أنه منح مندوبه صلاحيات مطلقة تعلو على صلاحيات القادة الزمنيين والخبراء العسكريين.

- عدم حسم الخلاف الذي نشأ بين بيلاجيوس ويوحنا بريين الذي تصاعد وتطور إلى صراع بين السلطتين الزمنية والدينية على حساب الحملة.

- لم تكن شخصية البابا من القوة التي يخشاها بيلاجيوس لذلك تصرف من تلقاء نفسه عندما رفض عرض الصلح الذي تقدم به الكامل محمد، مخالفًا بذلك أوامر البابا بعرض الأمر عليه قبل اتخاذ القرار.

---

(١) تاريخ الأيوبيين ص٣٢١.   (٢) المصدر نفسه ص٣٢١.

- عدم اختيار الوقت المناسب للقيام بالحملة؛ إذ إن الروح الصليبية تراجعت لدى الأوربيين بشكل عام، ولم يعد لديهم الحماس الكافي للانخراط بالحملة(١).

- انهماك بعض القوات الصليبية في القتال الدائر بين المسلمين والنصارى في أسبانيا، مما حرم الحملة من قوات كانت ضرورية آنذاك للاستفادة من إمكاناتها المادية والمعنوية.

- الصراع الدائر بين ملوك أوربا من أجل تدعيم مراكزهم، وعجز البابا عن حمل الإمبراطور فريدريك الثاني السفر إلى دمياط، واكتفى بمعاتبته مع الأمراء الذين ساندوه(٢).

١١- نتائج الحملة الصليبية الخامسة: من أهمها:

(أ) كشفت بجلاء أن الصليبيين لديهم الإصرار على التوسع جنوبًا في مصر، وما جهود دي برين إلا الصورة الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري لعموري الأول ملك المملكة الصليبية في القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري.

(ب) كشفت تلك الحملة عن الطابع التنصيري للحركة الصليبية، وأن ذلك الجانب من الممكن فهم أبعاد المطامع الصليبية في المنطقة من خلاله؛ إذ هدف الغزاة تحويل مسلمي المنطقة إلى مسيحيين يتبعون الكنيسة الأم في روما، وبذلك يكونون قد استهدفوا الهوية الدينية ذاتها.

(ج) تلك الحملة كشفت لنا عن العلاقة الأبدية بين مصر والشام إذ إن كلًّا منهما عمق استراتيجي للآخر، وعندما تعرضت أرض الكنانة للخطر قدم إليها الدعم والعون الحربي من شقيقتها الجغرافية والتاريخية بلاد الشام، وهكذا وجد الخطر الصليبي المشترك تاريخ المنطقتين المتجاورتين بصورة أكدتها مراحل التاريخ السابقة وكذلك التالية.

(س) كشفت قصر نظر الملك الكامل الأيوبي فيما يتعلق بالعروض البالغة السخاء، والسذاجة للصليبيين، وقد توافر لديه إصرار مثير للعجب على تقديم بيت المقدس للغزاة في مقابل خروجهم من مصر، ويلاحظ أنه كرر ذلك الأمر عدة مرات وكأن بيت المقدس التي عادت بدماء الشهداء وخاض صلاح الدين المعارك الشرسة من أجلها، كأن تلك المدينة المقدسة مثَّلت عبئًا على ذلك السلطان الأيوبي، وبالتالي أراد التخلص منها بأي صورة، وقد توهم الرجل أن بإمكانه التصرف في تلك المدينة، وأن يعرضها كجارية في سوق النخاسة، ومن حسن الحظ -هذه المرة فقط- أن عناد المندوب البابوي الذي طمع في المزيد رفض العرض، وأنقذت القدس من جانب الصليبيين، وظلت في أيدي أبنائها من المسلمين؛ وكشفت تلك

(١) تاريخ الأيوبيين ص٣٢٢.
(٢) المصدر نفسه ص٣٢٢.

الحادثة عن مدى انفراد القادة أحيانًا بقرارات مصيرية خاطئة يمكن أن تجلب أخطر النتائج وأسوأها على مصير أمتهم[١].

(ع) آثار الفشل الذريع الذي منيت به الحملة الصليبية الخامسة ثائرة البابا هونوريوس الثالث، وأخذ يدعو من جديد هو وخليفته البابا جريجوري التاسع للقيام بحملة صليبية كبرى لتعويض تلك الخسارة التي خسرها الصليبيون، وعهد إلى الإمبراطور فردريك الثاني إمبراطور الدولة الرومانية، وملك الصقليتين بأمر قيادة هذه الحملة والتي عرفت بالحملة الصليبية السادسة[٢] وسيأتي الحديث عنها مفصلًا بإذن الله.

(ك) كان رد الفعل الإسلامي عظيمًا إزاء هذه النتيجة التي أسفرت عنها الحملة الصليبية الخامسة، فكانت فرحة المسلمين عظيمة بعودة دمياط إليهم، خاصة الفقهاء والعلماء والشعراء الذين أخذوا يتبارون في إنشاد قصائد التهاني بهذا النصر الكبير، معبرين فيها عن مدى فرحتهم ومدى إحساسهم بأهمية عودة دمياط إلى المسلمين[٣].

(هـ) أبرم الملك الكامل اتفاقية مع الصليبيين مدتها ثمان سنوات نصَّت على إطلاق كل فريق ما عنده من الأسرى، وتمَّ للأيوبيين القضاء على الحملة الصليبية الخامسة نتيجة لتعاونهم وخطتهم المحكمة[٤].

(١) الحروب الصليبية -العلاقات بين الشرق والغرب ص٢٨٨ .
(٢) دور الفقهاء والعلماء ص٢٦٩ .
(٣) المصدر نفسه ص٢٦٨ .
(٤) الدولة الأيوبية، سمير فراج ص١٩٥ .

المبحث الثاني
السياسة الأيوبية الداخلية في عهد الملك الكامل

أولًا: تولي الملك الكامل السلطنة ومحاولات خلعه:

كان الملك الكامل نائبًا لوالده الملك العادل في حران، وكلَّفه عام (٥٩٥هـ/ ١١٩٩) باحتلال ماردين، وفي عام (٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م) استدعى الملك العادل ابنه الملك الكامل إلى مصر ليستتيه عليها، وكان بحران نائبًا لوالده هناك، فسلم تلك الولاية إلى أخيه الفائز، وانطلق إلى القاهرة، ومعه شمس الدين المعروف بقاضي دارا، وهو وزيره ومستحثه على المكارم، ومشيره[١]، فأنشده:

أنتم تُحبون بالإعراض تَعذيبي ... وتقصدون بخلق الصَّد تهذيبي
ساروا فيا صحتي من مُهجتي ارتحلي ... غابوا فيا سنتي عن مُقلتي غِيبي
قد كان يهضمني دهري فأدركني ... محمد بن أبي بكر بن أيوب
الكامل المالك الإملاك حيث له ... رقم الأعاجم منهم والأعاريبُ
معطَّرٌ عرفه عُزفًا ومكرهة ... مخمرٌ طينه بالطُّهر والطِّيب
لا يدَّعِي جُودَه البحر الخِضمّ ولا ... يَلقى تابيه في الشُّم الشَناخيب
دعتك مِصرُ إلى سُلطانها فأجب ... دُعاءها فهو حق غير مكذوب[٢]

وصل الملك الكامل القاهرة (٢٢ رمضان ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م) ونصَّبه والده نائبًا له بديار مصر، وركب الملك الكامل مثل والده، معقودًا سنجقه بمعاقده والمناصل مجذوبة، والصواهل مجنوبة، والأعين ناظرة، والألسن ذاكرة، ومشى في ركابه من إليه تحبب[٣]، وبعد أيام غادر الملك العادل القاهرة متجهًا إلى نابلس لمواجهة الصليبيين، وفي عام (٦٠٤هـ/ ١٢٠٦م) أعطى الملك الكامل مملكة مصر، ورتَّب عنده القاضي الأعز فخر الدين مقدم بن شكر[٤]، وفي عام (٦٠٩هـ/ ١٢١٢م) فوض الملك العادل تدبير مصر، والنظر في أموالها ومصالحها إلى ابنه الملك الكامل، وقد رافق الملك الكامل والده في كثير من المواقف في حران ومصر، وأكسبته المصاحبة خبرة سياسية وتجربة عسكرية[٥]، وتوفي الملك العادل في قرية عالقين عام (٦١٥هـ/ ١٢١٨م) ولم يعلم بموته إلا مرافقه الكريم الخلاطي فأرسل إلى ابنه الملك المعظم في نابلس،

---

(١) كتاب الروضتين (٤/٤٥٨، ٤٥٩).
(٢) المصدر نفسه (٤/٤٥٩).
(٣) القدس بين أطماع الصليبيين وتفريط الملك الكامل ص٨١ .
(٤) السلوك للمقريزي (١/٢٠٢) القدس بين أطماع الصليبيين ص٨٢ .
(٥) مفرج الكروب نقلًا عن القدس بين أطماع الصليبيين ص٨٢ .

فحضر يوم السبت السابع جمادى الآخرة واحتاط على الخزائن[١]، وصبَّر العادل، ووضعه في محفة وأظهر أنه مريض، ونقله إلى دمشق حيث دفن بالقلعة، فاختبط الناس حتى ركب المعظم وسكَّنهم ونادى في البلد: ترحموا على السلطان الملك العادل، وادعوا لسلطانكم الملك المعظم أبقاه الله، فبكى الناس واشتد حزنهم لفقده[٢]، وعلم الملك الكامل بوفاة والده وهو بالعادلية على محاربة الفرنج، فجلس للعزاء ثلاثة أيام، ثم تفرد بالخطبة في ديار مصر وأعمالها واستقل بأمورها، وتدبير أحوالها، وذلك يوم الجمعة السابع من جمادى الآخرة (٦١٥هـ/ ١٢١٨م) واتخذ الملك الكامل الراية الصفراء، وفيه يقول البهاء زهير:

بك اهتزَّ عطف الدين في حُللِ النَّصر ... ورُدَّت على أعقابها ملة الكفر
وأقسم إن ذاقت بنو الأصفر الكَرى ... لَمَّا حلمت إلا بأعلامكَ الصُّفرِ
ثلاثة أعوام أقمت وأشهرًا ... تُجاهد فيهم لا بزيد ولا عمرو
وليلة غزوٍ للعدو كأنها ... بكثرة من أرديته ليلة النَّحر
فيا ليلة قد شرَّف الله قدرها ... فلا غَرْوَ إن سميتها ليلة القدر[٣]

واتسعت دولة الملك الكامل قبل وفاته، فقال ابن خلكان: ولقد قال لي من حضر الخطبة يوم الجمعة بمكة: إنه لما وصل الخطيب إلى الدعاء للملك الكامل قال: سلطان مكة وعبيدها، واليمن وزبيدها، ومصر وصعيدها، والشام وصناديدها، والجزيرة ووليدها، سلطان القبلتين، ورب العلامتين، وخادم الحرمين الشريفين، الملك الكامل أبو العالي ناصر الدين محمد خليل أمير المؤمنين[٤]، وكانت مدة حكم الملك الكامل حوالي عشرين سنة، وشبهت الفترة الزمنية لحكم الملك الكامل بحكم معاوية بن أبي سفيان، فإنه تولى الشام عشرين، وحكم البلاد مدة عشرين سنة أخرى، وكذلك الملك الكامل حكم مصر عشرين عامًا، ومثلها كان نائبًا لوالده في مصر[٥].

ثانيًا: محاولات خلع الملك الكامل:

كثرت محاولات خلع الملك الكامل والتمرد عليه بالرغم من شجاعته، وحسن تدبيره، فكثر عنه الشك في مدى إخلاص العاملين من القادة والوزراء، فكان كلما شك في إخلاص بعضهم عزلهم وصادر أموالهم[٦].

١- مؤامرة ابن المشطوب: ظهر ابن المشطوب على ساحة الأحداث السياسيَّة مثل مُعظم أمراء العسكر، بعد وفاة السُّلطان، وبدء الخلافات بين أولاده وعمِّهم العادل على اقتسام

(١) النجوم الزاهرة (٦/ ٢٣٦).
(٢) السلوك (١/ ٢٢٦) القدس بين أطماع الصليبيين ص٨٣ .
(٣) النجوم الزاهرة (٦/ ١٠٧).
(٤) وفيات الأعيان (٤/ ١٧٥).
(٥) مفرج الكروب (٥/ ١٥٥)، القدس بين أطماع الصليبيين ص٨٤ .
(٦) القدس بين أطماع الصليبيين ص٨٤ .

التركة، كان الأمير عماد الدين أحمد بن المشطوب قد ورث إقطاع ثلثيْ نابلس، وذلك بعد وفاة والده الأمير سيف الدِّين عليّ، الذي كان له إقطاع نابلس بكاملها، لكن بعد وفاته قام السلطان صلاح الدِّين برصد ثُلث إقطاعها لمصالح القدس الشريف، وأقطع الباقي إلى عماد الدين أحمد بن أبي الخليل الهكاري، وبعد وفاة السلطان صلاح الدين كانت نابلس تتبع مملكة الأفضل الذي استقل بدمشق[١] ، وعندما نزل الفرنج على دمياط لأخذها من أجل السيطرة على مصر في أواخر الملك العادل ووصلت أثناء وفاة الملك العادل كان ابن المشطوب أحد كبار أمراء العسكر، فاعتقد أن الفرصة قد لاحت له لتحقيق مشروع ربما كان يحلم به من سنوات طويلة، وهو الوصول إلى قمَّة السُّلطة في الدولة فعندما بلغه موت العادل عزم على خلع الملك الكامل من السَّلطنة وتولية أخيه الفائز إبراهيم[٢] ، وكان ابن المشطوب يعتمد على كونه من أجلِّ الأمراء الأكابر، وله لفيف من الأكراد الهكارية ينقادون إليه ويطيعونه، واتَّفق مع مجموعة من الأمراء[٣] ، منهم الأمير عز الدين الحميدي، والأمير أسد الدين الهكاري، والأمير مجاهد الدين، كذلك أفسد قلوب جماعة من الجُند[٤] ، وكان عسكر مصر أكثره من الأكراد وابن المشطوب ملكهم[٥] ، فاجتمع مع من وافقه وقال لهم عن الملك الكامل: هذا صبي خفيف، فلما بلغ الكامل دخل عليهم، فإذا هم مجتمعون وبين أيديهم المصحف وهم يحلفون لأخيه الفائز، فعندما رأوه، تفرَّقوا فخشي على نفسه منهم، فخرج[٦] .

(أ) مشروع ابن المشطوب:

- فضَّل ابن المشطوب سلوك التآمر ليحقِّق هدفه بالوُصول إلى السلطة، وبالتأكيد كان يقدِّر أنه مع شخصية قوية كالكامل لن يكون إلا واحدًا من الأمراء في أحسن الأحوال، لذلك فكَّر بتبديل السلطان واختار أخاه الفائز لتقديره -أيضًا- أنه سيكون أسهل قيادًا ومطيَّة مناسبة لحُكم الدولة بواسطته، أو حتى بدونه بعد مُدَّة، فهدفه من العملية هو أن يصير له التحكم في المملكة[٧] .

- اختار ابن المشطوب أسوأ الأوقات بالنسبة للدولة وللأمة، فقد مات السلطان العادل، والفرنج يرابطون بقُوَّات عظيمة أمام دمياط، وبالتأكيد كقائد عسكري كان يعرف معنى الانقلاب السياسي الذي كان ينوي تنفيذه في مثل تلك الظروف، وانعكاسه على الموقف العسكري، وهذا ما تمَّ فعلًا مع أن المؤامرة قد انكشفت للكامل الذي هرب من المعسكر إلى أشموم طناح؛ لأنَّه لم يعد يعرف من معه ومن هو ضدَّه من العسكر، فلمَّا أصبح الجيش، ولم يجدوا الملك

(١) العلاقات الدولية (١/ ١٠٧).
(٢) السلوك المقريزي (١/ ٣١٤).
(٣) المصدر نفسه (١/ ٤٠٥) العلاقات الدولية (١/ ١١٠).
(٤) مفرج الكروب (٤/ ١٦) العلاقات الدولية (١/ ١١٠).
(٥) العلاقات الدولية (١/ ١١١).
(٦) المصدر نفسه (١/ ١١١).
(٧) المصدر نفسه (١/ ١١١).

الكامل، تركوا معسكرهم في العادلية بما فيه، ولحقوا بالكامل، ممَّا مكَّن الفرنج من أخذ المعسكر بما فيه، والعبور إلى ضفة دمياط ومحاصرتها من البر والبحر، ولو تابع الكامل هربه من مصر لكانت بكاملها لقمة سائغة للفرنج[١].

- إن التصرُف غير المتوقع من الكامل بدُخُوله المفُاجئ على المتآمرين وهم يتعاهدون ويُقسمون، ثم مغادرته المفاجئة للمعسكر، أربك ابن المشطوب وجماعته، وأفشل الخُطة بكاملها، ولكن الذي قلب ميزان القوى ومنع من تجديد محاولة ابن المشطوب مرَّة أخرى، هو وصول الملك المعظم إلى أخيه الكامل في معسكره الجديد بأشموم طناح[٢] واستطاع الملك المعظم نفيه من مصر -كما مرَّ معنا- وكان لابن المشطوب صولات وجولات ووقع في يدي بدر الدين لؤلؤ من أمراء الملك الأشرف الذي أرسل الحاجب علي وهو من أكبر أصحابه ليطلبه من بدر الدين، ويأتيه به، فسلَّمه إلى الحاجب الذي حمله إلى الأشرف في حرّان، فأمر الأشرف بإلقائه في جُبٍّ بقلعة حرَّان عام (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م) وبقي المشطوب في سجنه الرهيب مدة عامين، حتى توفي عام (٦١٩هـ/ ١٢٢٢م)[٣]، من القمل والجوع، ومن ضغط القيود عليه[٤].

٢- **الملك الصالح نجم الدين أيوب: ومؤامرة مزعومة:** ولد نجم الدين أيوب سنة (٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م) وأمه جارية سوداء تسمى ورد المنى غشيها الملك الكامل فحملت الصالح أيوب، تولى الأخير الشرق وديار بكر في عهد والده الملك الكامل لعدة سنوات[٥]، وفي عام (٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م) عهد الملك الكامل إلى ابنه الملك الصالح أيوب بالسلطنة له من بعده بديار مصر، وأركبه بشعار السلطنة[٦]، وشق به شوارع القاهرة، وحملت الغاشية بين يديه، ونزل بدار الوزارة وأقام معه الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ليحصل الأموال، ويدبر أمور الدولة، وخرج الملك الكامل في نفس العام في عساكره، ومعه المظفر تقي الدين بن المنصور، والملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود ين الملك العادل في زيارة تفقدية إلى البلاد الشرقية وديار بكر[٧]، وعندما عاد الملك الكامل إلى مصر عام (٦٢٧هـ/ ١٢٣٠هـ) عزل ابنه الملك الصالح أيوب من ولاية العهد دون أن يتحقق من صحة رواية زوجته في محاولته التمرد على أبيه[٨].

وملخص القصة: في عام (٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م) عاد الملك الكامل إلى الرقة يريد مصر، فوصلته رسالة من زوجته أم العادل تشكو فيها ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وتتهمه فيها أنه عزم التوثب على أخذ الملك[٩]، وأنه أخذ مالًا جزيلًا من التجار، واستنفد قسمًا مما في الخزينة من

---

(١) العلاقات الدولية (١/ ١١١).
(٢) المصدر نفسه (١/ ١١١).
(٣) ذيل الروضتين نقلًا عن العلاقات الدولية (١/ ١١٩).
(٤) المصدر نفسه (١/ ١/ ١١٩).
(٥) السلوك (١/ ٢٦٣) العلاقات الدولية (١/ ٧٧).
(٦) النجوم الزاهرة (٦/ ٣١٩).
(٧) السلوك (١/ ٢٠٦) القدس بين أطماع الصليبيين ص٧٨ .
(٨) القدس بين أطماع الصليبيين ص٧٨ .
(٩) مفرج الكروب (٤/ ٢٧٨) القدس بين أطماع الصليبيين ص٨٨ .

مال، واشترى جماعة كبيرة من المماليك الأتراك، وألَّف منهم حرسه الخاص به، وقالت في رسالتها[(١)]: ومتى لم تتدارك البلاد وإلا غلب عليها وأخرجني أنا وابنك العادل منها[(٢)]، وانزعج الملك الكامل وغضب غضبًا شديد، وما لبث أن وصلته رسالة ثانية من زوجته تستعجل فيها عودته، وتقول فيها: بأن ابنه الصالح اشترى ألف مملوك، ورتب الملك الكامل أمور البلاد الشرقية وعين الطواشي شمس الدين صواب العادلي نائبًا له في أعمال المشرق، وأعطاه إقطاع أمير فارس زيادة على ما بيده من الديار المصرية، وتوجه الملك الكامل إلى مصر، فوصلها في رجب عام (٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م) وتغيَّر على ابنه الملك الصالح تغيرًا كثيرًا، وقبض على جماعة من أصحابه وسجنهم، وألزمه في إحضار الأموال التي فرط فيها الملك الصالح، ثم خلع ابنه من ولاية العهد[(٣)]، وعهد إلى ابنه الملك العادل، وكان في الحادية عشر من عمره، وكان شديد الميل إليه وإلى والدته[(٤)].

وفي عام (٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م) أنعم الملك الكامل على ابنه نجم الدين أيوب بحصن كيفا وسيره إليه، ويعتقد أن الكامل أراد أن يبعد ابنه عن مصر ليخلو بذلك الجو له ولولده الملك العادل[(٥)]، وفي عام (٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م) سمح الملك الكامل لابنه نجم الدين باستخدام الخوارزمية في جيشه[(٦)]، فتقوى بهم مما مكَّنه من الاستيلاء على سنجار ونصيبين والخابور بعد ذلك، وتولى الملك الصالح أيوب عام (٦٣٧هـ/ ١٢٤٠م) وبقي ملكًا حوالي تسع سنوات وثمانية شهور، وتوفي عن أربعة وأربعين عامًا، فتولى الحكم بعده ابنه تورانشاه، ثم مملوكه وزوجته شجرة الدر[(٧)].

٣- تخوف الملك الكامل من الأمراء: كان الملك الكامل كثير الوهم من الأمراء والعاملين معه، ففي عام (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م) تخوف من أمرائه لميلهم إلى أخيه الملك المعظم صاحب دمشق وقبض على جماعة منهم، وأرسل إلى الطرقات من يحفظها[(٨)]، وفي عام (٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م) كثر وهم الملك الكامل من عسكره إذ أرسل الملك المعظم إليه في جملة الكلام[(٩)]: وإن قصدتني لا آخذك إلا بعسكرك، فوقع الخوف في نفس الملك الكامل ممن معه، ولم يجسر الخروج من مصر، وفي عام (٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م) أراد الملك الكامل أن يقصد دمشق للذي سماعه أن الملك المعظم قطع الخطبة له، فبعث إليه المعظم رسالة يقول فيها[(١٠)]: إني تنذرت لله تعالى

---

(١) السلوك (١/ ٢٧٧) القدس بين أطماع الصليبيين ص٨٩ .
(٢) القدس بين أطماع الصليبيين ص٨٩ .
(٣) الخطط (٣/ ٣٣٨) القدس بين أطماع الصليبيين ص٨٩ .
(٤) مفرج الكروب نقلًا عن القدس بين أطماع الصليبيين ص٨٩ .
(٥) وفيات الأعيان (٤/ ١٧٨) القدس بين أطماع الصليبيين ص٧٨ .
(٦) النجوم الزاهرة (٦/ ٣١٩) القدس بين أطماع الصليبيين ص٧٨ .
(٧) القدس بين أطماع الصليبيين ص٧٨ .
(٨) السلوك (١/ ٢٥٢) القدس بين أطماع الصليبيين ص٨٩ .
(٩) القدس بين أطماع الصليبيين ص٨٩ .
(١٠) السلوك (١/ ٢٩٠) القدس بين أطماع الصليبيين ص٩٠ .

أن كل مرحلة ترحلها لقصدي أتصدق بألف دينار، فإن جميع عسكرك معي وكتبهم عندي، وأنا آخذك بعسكرك، عاد الملك الكامل إلى قلعة الجبل وقبض على عدة أمراء، ومماليك أبيه لمكاتبتهم الملك المعظم، منهم[١] فخر الدين الطنبا الخبيشي، وفخر الدين الطن الصوفي، وكان جانداره، وقبض أيضًا على عشرة أمراء من البحرية العادلية، وأعتقلهم، وأخذ سائر موجودهم، وأنفق في العسكر ليسير إلى دمشق، وفي عام (٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م) قبض على جماعة من الأمراء المصرية شك في إخلاصهم له[٢]، وقبض الملك الكامل على كثير من الأمراء والموظفين الذين شك في إخلاصهم كأولاد الصاحب صفي الدين بن شكر، تاج الدين يوسف وعز الدين محمد[٣].

ثانيًا: سياسة الملك الكامل الإدارية والأمنية والقضائية:

١- الإدارية: كان الملك الكامل يتمتع بجميع السلطات؛ إذ كان يشرف على جميع شئون الدولة الداخلية، والخارجية ويرسم سياستها، فهو الذي يعين ويعزل ولي العهد[٤]، ونائب الملك والوزير وأمراء الجيش والقضاة، ونظار الدواوين، وكبار الموظفين، ويعقد المعاهدات ويعلن الحرب، وكان يساعده عدد من القادة، والوزير، ونواب الولايات والولاة، وكان يساعد الملك الكامل نائب له في كل ولاية، وكان النائب يقوم مقام الملك في شئون ولايته كافة، فهو النائب، وقائد الجيش، وينفذ القوانين، ويوقع المراسيم[٥] ، وحافظ الملك الكامل على التقسيمات الإدارية التي كانت سائدة في عهد والده العادل، فكان والي القاهرة هلال الدولة وشاب بن رزين (٦٠٥هـ/ ١٢٠٨م)، وكان الأمير فخر الدين بن علي إسماعيل بن كهذا واليًا على الإسكندرية (ت٦١٠هـ/ ١٢١٣م)[٦].

٢- توفير الأمن الداخلي: حرص الملك الكامل على توفير الأمن الداخلي في البلاد، وأقام في كل طريق خضراء (حراسًا) للمحافظة على سلامة المسافرين، وضرب على أيدي اللصوص بيد من حديد فأطمأن الناس في سفرهم، ولا سيما أثناء أدائهم فريضة الحج، ونقل تجارتهم وقد عرف الملك الكامل بأنه كان (حازمًا سديد الرأي حسن التدبير)[٧]، وبلغ من مهابته أن الشخص كان يمر بالذهب الكثير، والأحمال من الثياب والقماش في الرمل دون خوف من قاطع طريق أو سراق، وحدث أن سُرق بساط من مسافر على الطريق بين القاهرة والإسكندرية فأحضر الملك الكامل العربان الذين يحرسون الطريق وألزمهم إحضار السارق والبساط، فبذلوا له

(١) القدس بين أطماع الصليبين ص٩٠ .
(٢) المصدر نفسه ص٩٠ .
(٣) القدس بين أطماع الصليبين ص٩٠ .
(٤) المصدر نفسه ص٩٨ .
(٥) المصدر نفسه ص٩٨ .
(٦) السلوك (١/ ٣٠١) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٠٠ .
(٧) النجوم الزاهرة (٦/ ٢٢٧).

وعوَّضه مالًا كثيرًا ولكنه لم يقبل، وأصرَّ على إحضار السارق وهددهم إذا لم يفعلوا ذلك بأن يودعهم السجن، ويصادر أموالهم، فاضطروا إلى إحضار اللص، وعندما ثار بعض العربان بنواحي أرض مصر، وكثر خلافهم واشتد ضررهم، وقف الكامل لهم وعاقبهم[١]، وكان يتدخل أحيانًا في اختيار شيوخ العربان حرصًا على ضمان ولائهم للدولة، فعندما مات حسام الدين مانع بن حديه أمير العربان من آل فضل[٢] عام (٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م) عين ابنه مكانه[٣]، وتحفظ الملك الكامل عن بعض أفراد طائفة الإسماعيلية، ولا سيما عن أبناء الخليفة الفاطمي العاضد، وحصر نشاطهم، فعندما توفي الأمير داود بن العاضد استأذن بعض عناصر الطائفة لندب الأمير المتوفى والنواح عليه، أذن الكامل لهم، فخرجت النساء حاسرات الرأس في ثياب الصوف، وأخذن ندبه والنياحة عليه، واجتمع دعاة الإسماعيلية في السر، فلما تكامل عددهم وجمعهم، أرسل الملك الكامل إليهم مجموعة من الجند قبضوا على المشهورين منهم، وصادروا أموالهم[٤]، ففر من بقي، ولم يجسر أحد بعدها على أن يتظاهر بمذهب الإسماعيلية الباطنة الرافضية.

وكان الملك الكامل يتفقد المدن والثغور بين الحين والآخر ليطمئن على أحوال الرعية، ففي عام (٦٢٨هـ/ ١٢٣١م) اتجه إلى الإسكندرية وتفقدها واصطحب معه صاحب الجزيرة الذي كان في زيارة لمصر بعدما أنعم عليه أنعامًا كثيرة، وكان الملك الكامل يتقبل شكاوي الناس وينصف المظلوم أثناء جولاته المختلفة على التجمعات السكانية[٥]، وكان المذنبون يعاقبون بقسوة تتناسب وما اقترفوه من ذنوب، فكان المذنب يطاف به في المدينة وهو راكب بالعكس على حمار، وأمامه من ينادي بما اقترف لتعريف الناس بذنبه وللتشهير به، وكان يُحكم على المجرمين المحترفين بالسجن مددًا متفاوتة طبقًا لذنوبهم وأعمالهم.

وفي عام (٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م) عاد الملك الكامل إلى القاهرة، وأعاد إلى التجار ما اغتصبه ابنه الملك الصالح من أموال[٦]، وأقام الملك الكامل سجنًا بجوار باب زويلة، أطلق عليه خزانة شمائل نسبة إلى اسم والي القاهرة علم الدين شمائل[٧]، الذي اشتهر أثناء حصار دمياط عام (٦١٥هـ/ ١٢٢٨م) وكان يحبس فيها قطاع الطرق، وأصحاب الجرائم العظيمة ومن يُحكم عليه بالإعدام، وكانت هذه الخزانة من أسوأ السجون في مصر لشمولها أصحاب الجرائم الكبيرة؛ إذ كانوا يعاقبون ويضيق عليهم، واستمرت هذه الخزانة قائمة إلى أن هدمها الملك المؤيد شيخ الجودي عام (٨١٨هـ/ ١٤١٥م)[٨] وبنى مدرسته مكانها[٩].

---

(١) الخطط (٣/ ٣٥٣) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٠١ .
(٢) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٠١ .
(٣) صبح الأعشى (١/ ٣٢٤) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٠١ .
(٤) مفرج الكروب (٥/ ١٥٧) المصدر نفسه ص١٠١ .
(٥) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٠١ .
(٦) الأيوبيون، الباز العريني ص١٢٨ .
(٧) الخطط (٢/ ٢٣٤) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٠٢ .
(٨) المصدر نفسه (٢/ ١٨٨) المصدر نفسه ص١٠٣ .
(٩) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٠٣ .

٣- **القضاء**: واهتم الملك الكامل بالقضاء، وقد اعتمدت أصول المحاكمات والقضاء على التشريع الإسلامي في عهده، واشتهر معظم القضاة بالنزاهة والعدل، فلم يقبل قاضي قضاة مصر محمد بن عين الدولة (ت ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م) شهادة الملك الكامل في إحدى القضايا وقال له: أنت تحكم ولا تشهد[١].

٤- **وقف الفساد في الدواوين**: كان الملك الكامل يتابع الدواوين لوقف الفساد فيها، ومنع الرشوة، والسرقة؛ حفاظًا على جودة عطاء الدواوين وسيرها، فقد طلب من النابلسي أن يتولى النظارة على الدواوين فرفض الأخير، بحجة عدم درايته بالعمل وقال: متى علم المستخدمون في البلاد بأنه قد ولي عليهم جاهل بالديوان اتفقوا على المستوفين بالباب ونهبوا الأموال .. فأعفاه الملك الكامل معجبًا بإخلاصه وأمانته[٢]، وقد كشف الملك الكامل ألاعيب موظفي ديوان الأهراء من رشوة وسرقة وإهمال، فقبض على صاحب الديوان الغربي، إذ كان به ١١ ألف أردب من القمح والفول، فطلب ديوان الأهراء خمسين ألف أردبًا، فتبين أنه لا يوجد شيء مما جلب لهذا الديوان، فأمر الملك الكامل أن يؤخذ من حاصل غلاته التي في القلعة لسد النقص، كذلك أمر بالقبض على صاحب الديوان[٣] الظهير الطمبذاوي وعماله وأصدر عقوبة بحقهم، تمثلت بوضعهم في أقفاص، والطواف بهم في القاهرة على أن يعادوا إلى السجن في آخر النهار[٤].

واصل الملك الكامل مراقبة الدواوين والعناية بها، فعين عام (٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م) معين الدين بن شيخ الشيوخ صدر الدين في خدمته فكان يقرأ عليه الدواوين فيقول: هذا الديوان يضاف إلى ديوان كذا، وبذلك تمكن من ترتيب الدواوين[٥]، وعقد الملك الكامل اجتماعًا عام (٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) بحضرة النابلسي وعدد كبير من كبار موظفي الدولة لترتيب الدواوين بعد ما تبين له أن بعض الكتب المتعلقة بالدواوين تصل إليه بخط غير مقروء ، وأن هناك بعض السرقات والرشاوي، والإهمال في بعض هذه الدواوين[٦].

٥- **معالجة الأزمة في الكنيسة القبطية**: توخى الملك الكامل رعاية مصالح أهل الذمة وتابع مشاكلهم وعاملهم معاملة جيدة، وحاول حل الأزمة التي تعرضت لها الكنيسة القبطية عندما خلا مركز البطركية إثر وفاة بطريك اليعاقبة شوروس بن أبي غالب عام (٦١٢هـ/ ١٢١٥م)[٧] الذي اشتهر بأمانته وصدقاته وحرصه على مصلحة طائفته، وكان قد وزع أمواله على الفقراء وأبطل

---

(١) شذرات الذهب نقلًا عن القدس بين أطماع الصليبيين ص١٠٣ .
(٢) لمع القوانين للنابلسي (١/ ٦٢) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٠٤ .
(٣) المصدر نفسه (١/ ٦٢) المصدر نفسه ص١٠٤ .
(٤) القدس بين أطماع الصليبيين وتفريط الكامل ص١٠٤ .
(٥) المصدر نفسه ص١٠٤ .
(٦) المصدر نفسه ص١٠٤ .
(٧) السلوك (١/ ٢١٨) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٠٥ .

الديارية[١]، ومنع الشرطونية[٢]، ولم يأكل في ولايته كلها لأحد من النصارى خبزًا ولا قبل هدية وكان القس داود بن يوحنا ملازمًا للشيخ ينشئ الخلافة أبي الفتوح بن الميقاط كاتب الجيوش العادلية، فلما مات ابن شوروس سأل أبو الفتوح الملك العادل أن يولي القس داود البطركية، فأجابه وكتب له توقيعًا بذلك دون أن يعلم الملك الكامل[٣]، ولم يعجب بعض النصارى ولاية داود، وقام الأسعد ابن صدقة كاتب دار التفاح[٤] بمصر وجمع كثيرًا من النصارى واتجه الجميع إلى قلعة الجبل واستغاثوا بالملك الكامل وقالوا: إن هذا الذي يريد أبو الفتوح بعمله بطريكًا بغير أمرك ما يصلح، ونحن في شريعتنا لا يقدم البطرك إلا بإتفاق الجمهور عليه، وركب الملك الكامل في اليوم التالي إلى أبيه العادل، وعرفه أن النصارى لم يتفقوا على بطركيه داود، ولا يجوز عندهم تقدمه إلا باتفاق جمهورهم، فأحضر الملك الكامل الأساقفة، ولما تحقق من الأمر أوقف تعيين داود بطريكًا، وخلا الكرسي من بطريك تسع عشرة سنة ومائة وستين يومًا.

وفي عام (٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م) بارك الملك الكامل تعيين داود بن يوحنا ابنا ولقب كيرلس الثالث على الإسكندرية لليعاقبة فأقام في البطركية سبع سنين وتسعة أشهر وعشرة أيام، وكان عالمًا محبًّا للرياسة وجمع المال، وكان الراهب عماد في دير مرشار لوادي النطرون قد دعم داود للوصول إلى البطركية، وشرط عليه ألا يقدم أسقفًا إلا برأيه، فلم يفِ البطريك داود بوعده، ولا التفت إليه بعد توليه البطركية[٥].

ثالثًا: سياسة الملك الكامل الاقتصادية والمالية:

كان الوضع الاقتصادي في مصر والشام والجزيرة الفراتية في عهد الملك الكامل امتدادًا طبيعيًّا للفترة السابقة إلى حد ما، مع بعض التغيرات التي أحدثها الملك الكامل بسبب الظروف التي تعرضت لها البلاد ولا سيما انحباس الأمطار أحيانًا وانخفاض مياه النيل في بعض السنوات، أو بسبب الحروب التي شنَّها الصليبيون والخوارزميون والسلاجقة الروم[٦].

١- الزراعة: وكانت الزراعة تشكل نسبة كبيرة من دخل مصر والشام والجزيرة، وقد تعرضت هذه البلاد إلى عدة أزمات زراعية في عهد الملك العادل وابنه الملك الكامل، ولقد غزا الجراد مصر والشام مرات عديدة منها عام (٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م) وعام (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، فأكل الزرع وقل الإنتاج وانتشر الغلاء، وازداد الفقر، والأمراض[٧] وارتبطت الزراعة بالمياه، فكلما ازداد

(١) الديارية: ضريبة تدفع لرئيس الدير. الخطط (٢/ ٥٠١).
(٢) الشرطونية: ما يدفعه للكنيسة عند ترسيمه.
(٣) السلوك (١/ ٢١٩) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٠٥.
(٤) فندق تجاه باب زويلة. الخطط للمقريزي، القدس بين أطماع الصليبيين ص١٠٥.
(٥) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٠٥، ١٠٦.
(٦) المصدر نفسه ص١٠٦.
(٧) النجوم الزاهرة (٦/ ٢٥٣) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٠٨.

سقوط الأمطار في بلاد الشام ازداد الإنتاج، وكذلك كلما ازدادت مياه النيل انتعشت الزراعة، ولكنها كانت تنتكس إذا انحبست الأمطار أو قلت مياه نهر النيل وتغير طعم الماء فيه، وقلت الأقوات بمصر وتزايدت الأسعار، واستمر هذا الحال ثلاث سنوات متوالية، فلم تمد المياه نهر النيل إلا مدًّا يسيرًا، فتزايدت الأسعار وانتشر الغلاء وعظم البلاء وفتكت الأمراض بالناس(١)، وانتشر الجوع حتى أكل الناس بعضهم، بل أكلوا الأموات(٢).

وتكرر نقصان مياه النيل عام (٦١٨هـ/ ١٢٢١م، ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م، ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) ودام ذلك إلى سنة (٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م) فأدى إلى غلاء مصر(٣)، وعالج الملك الكامل أزمة الزراعة ومنع قطع الأشجار وكلف المسئولين في الديوان بعملية مسح جميع بساتين مصر والجزيرة وتسجيلها في الديوان كي يعرف مقدار ما قطع من الأشجار، وأماكن قطعها، وشجع زيادة الإنتاج الزراعي وزراعة النخيل، ووضع تسعيرة حدَّد فيها سعر بيع المحاصيل الزراعية(٤)، وحاول الملك الكامل حفر قنوات للري وزيادة الأراضي الزراعية ففي عام (٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م) شرع في حفر قناة للري بين المقياس وبر مصر حرصًا على استمرار تدفق المياه بغزارة وافتتح بنفسه هذا العمل، ثم قسم حفر هذه القناة على الدور بالقاهرة والروضة بالتساوي(٥)، وكان الملك الكامل يخرج بنفسه عندما تبدأ زيادة مياه النيل، فيكشف الجسور، ويرتب في كل جسر عددًا من الأمراء ممن يتولاه ويجمع الرجال لعمله، ثم يتفقد العمل في الجسور بين الحين والآخر، فمتى اختل جسر عاقب متوليه أشد العقاب(٦)، وبهذا عمرت أرض مصر في أيامه عمارة زائدة(٧)، وقد حرص الكامل على الحد من ارتفاع الأسعار والغلاء، ولا شك أن اهتمام الملك بغرس الأشجار، وشق القنوات للري، ومراقبة الجسور يظهر اهتمامه بتحسين الإنتاج الزراعي، وتوفير الأمن الغذائي(٨).

٢- الصناعة: ازدهرت الصناعة أثناء حكم الملك الكامل، فكانت منظمة، وفي بيوت خاصة، ولا سيما دور الطراز التي كانت تابعة للدولة وكان لها ديوان خاص، يشرف عليه ناظر وموظفون وعمال يوفرون المواد الصناعية(٩)، وقد اعتمدت الصناعة على المنتجات الزراعية، فتحسنت صناعة المنسوجات لتوفر القطن، والكتان وصوف الغنم، ووبر الجمال، واشتهرت مدينة دمياط بصناعة الثياب البيض، فيما اشتهرت مدينة تنيس بصناعة الثياب الملونة(١٠)،

---

(١) مفرج الكروب (٣/ ٢٢١) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٠٩.
(٢) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٠٩.
(٣) البداية والنهاية نقلًا عن القدس بين أطماع الصليبيين ص١٠٩.
(٤) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٠٩.
(٥) السلوك (١/ ٢٨١) القدس بين أطماع الصليبيين ص١١٠.
(٦) الخطط (١/ ٣٤٥) القدس بين أطماع الصليبيين ص١١٠.
(٧) القدس بين أطماع الصليبيين ص١١٠.
(٨) المصدر نفسه ص١١٠.
(٩) قوانين الدواوين لابن مماتي ص٣٣٠، القدس بين أطماع الصليبيين ص١١٠.
(١٠) القدس بين أطماع الصليبيين ص١١١.

والثياب المطرزة بالذهب، واشتهرت بها حياكة الأقمشة الصوفية[١]، أما أسيوط فاهتمت بحياكة البسط، والكتان لصناعة الحبال، وازدهرت صناعة السكر في مصر وكذلك صناعة الزجاج، والفخار، وتميزت الصناعات الزجاجية بالدقة والشفافية وبهاء المظهر، ولا سيما المطلية بالميناء، وانتشرت صناعة الزيوت والصابون، والدباغة، والورق، والزيت الحار المستخرج من اللفت[٢].

وتميزت مصر بالصناعات المعدنية البديعة؛ كالنحاسيات، والسيوف، والخناجر، والسهام، والسفن وكان عصر الملك الكامل غنيًا بالتحف المعدنية، وما زال بعضها معروضًا في بعض متاحف العالم[٣]، منها تحفتان نحاسيتان تحملان اسم الملك الكامل صنعتا عام (٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م) موجودتان في المتحف الإسلامي بالقاهرة، وعثر على أسطرلاب مصنوع من النحاس، ومزين بزخارف منزلة بالفضة تمثل عناصر نباتية، وصور حيوانية وآدمية[٤]، وعثر على شمعدان نحاسي محلى بالفضة زين بزخارف بديعة من الأشكال صنع عام (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م)[٥].

وقد ظهر النشاط الزراعي والصناعي في التجارة الداخلية، فنشطت التجارة بين القرى والمدن، وأقيمت الأسواق في أيام محدودة كسوق الجمعة لبيع المواشي في معظم مدن مصر، وتميزت بعض المدن بإحدى الصناعات، فأقبل الناس على شراء هذه المواد فكانت مدينة تونة تقوم بصناعة كسوة الكعبة، وكان الصعيد المصري يصدر الكتان إلى معظم المدن لصناعة الحبال[٦].

٣- إصلاح النظام النقدي: كانت العملة السائدة في مصر والشام والجزيرة في العهد العباسي الدينار الذهبي والدرهم الفضي، وعندما تولى الفاطميون الحكم ضرب جوهر الصقلي الدينار[٧] المعزي (نسبة إلى الخليفة الفاطمي المعز لدين الله) من الذهب الخالص، وفي أثناء الحروب الصليبية تداول السكان العملة العربية البيزنطية وهي عملة ذهبية ذات نقوش عربية، عليها بعض الآيات القرآنية بالإضافة إلى التاريخ الهجري، وكان الصليبيون يسكونها في مدينة عكا[٨]، تشجيعًا للمسلمين على تداولها، وعندما جاء صلاح الدين أبطل النقود السائدة في مصر والشام[٩]، وضرب الدينار الذهبي المصري، كذلك ضرب الدراهم الناصرية الفضية، وكتب عليها اسم الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله والسلطان العادل نور الدين محمود زنكي الوجه

(١) السلوك (١/ ٧٧) القدس بين أطماع الصليبيين ص١١١ .
(٢) القدس بين أطماع الصليبيين ص١١١ .
(٣) الفن الإسلامي في العصر الأيوبي ص٧١ .
(٤) المصدر نفسه ص٧١، القدس بين أطماع الصليبيين ص١١١ .
(٥) القدس بين أطماع الصليبيين ص١١١ .
(٦) المختصر (٣/ ١٣٢) القدس بين أطماع الصليبيين ص١١٢ .
(٧) شذور العقود للمقريزي ص٧٨، القدس بين أطماع الصليبيين ص١١٢ .
(٨) القدس بين أطماع الصليبيين وتفريط الملك الكامل ص١١٢ .
(٩) المصدر نفسه ص١١٢ .

الآخر[١]، وبقيت النقود التي سكّها صلاح الدين متداولة في الدولة الأيوبية من بعده مع تغير اسم الملك الأيوبي إلى أن تولى الملك الكامل حكم مصر، إذ اعتبرت فترة حكمه بداية عصر جديد للنظام المالي في مصر، وذلك للعناية الفائقة التي أولاها للدينار والدرهم؛ إذ حافظ على نقاء الذهب[٢] في الدينار الذي ضرب عام (٦١٦هـ/ ١٢١٩)[٣].

وقد حاول الملك الكامل إضفاء نوع من الاستقرار على العملة، فعندما انتهت الحملة الصليبية الخامسة بالصلح بين المسلمين والصليبيين، استقرت الأوضاع الاقتصادية، وسرعان ما ازدهرت العلاقات التجارية مع أوربا، بعد صلح يافا الذي عقد بين الملك الكامل والإمبراطور فردريك الثاني، فتدفق الذهب إلى مصر؛ إذ جلبه التجار الأوربيون لاستخدامه لأغراض التجارة، فازدادت شهرة الدينار الكاملي، وازدادت الثقة به، وانتشر استخدامه خارج مصر، ومما يؤكد ذلك أن العملات المسكوكة في مكة كانت تضرب في مصر، ولها نقش عبارة الدينار الكاملي[٤]، وتحت رقابة دار السكة الكاملية[٥].

وفي عام (٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م) ازداد عرض النقود مما أدى إلى انخفاض قيمتها، فأصبح الناس يتحفظون عن تداولها، ووصل النظام النقدي إلى درجة الانهيار، ولذلك أمر الملك الكامل الناس بتسليم ما بحوزتهم من الفلوس النحاسية إلى الصيارفة، فخسر الناس كميات كبيرة من ثرواتهم، ولا شك أن التباين في النقود التي تداولها الناس في مصر يُظهر لنا أثر الظروف السياسية والاقتصادية التي رافقت حكم الملك الكامل في سياسة النقود، فقد حاول من خلال سكّه لهذه النقود بما فيها الدينار والدرهم والفلوس توفير الأموال للدولة، إلا أن هذه النقود باختلاف قيمتها أثرت بشكل سلبي في المستوى المعاشي، والقوة الشرائية للناس الذين كانوا يرغبون ببقاء المستوى العام للأسعار ثابتًا، من أجل إبقاء المستوى المعاشي على ما هو عليه، أو بعبارة أخرى منع تدهوره، فالعلامة عكسية بين النقود والقوة الشرائية، غير أن الملك الكامل أراد من هذا التلاعب بقيمة النقود، وإطلاقها بين فينة وأخرى بأسعار مختلفة إبقاء خزينة الدولة مملوءة بالأموال، لم يخزنها لصالحه وإنما لصرفها في أوجه مختلفة، وذلك لمعرفته أن هذه الأموال لها أثر كبير في تحديد متطلبات الحروب المستمرة التي كان يخوضها.

لقد كانت ظروف الحرب تقتضي توفير هذه الأموال، وكان للكوارث الطبيعية التي تعرضت لها البلاد في السنوات التي سبقت حكمه أثر كبير في جعله يحاول التغلب عليها بتوفير المواد الغذائية وتحديد أسعارها، فضلًا عن صرفها لإقامة الإنجازات المعمارية، التي أعطت الدولة

(١) المصدر نفسه ص١١٣ .
(٢) دراسات في التاريخ والنظم الإسلامية ص١٨٩ .
(٣) القدس بين أطماع الصليبيين وتفريط الملك الكامل ص١١٣ .
(٤) المصدر نفسه ص١١٤ .
(٥) المصدر نفسه ص١١٤ .

الأيوبية تراثًا كبيرًا ما زالت آثاره قائمة إلى الوقت الحاضر، وقد أسهم بهذه الأموال في مساعدة الخلافة العباسية، بإعطاء ٢٠٠ ألف دينار للإنفاق على الجيش الذي أرسله لمساعدة الخليفة لمقاومة المغول، فيما كان الملك الكامل نفسه يعاني أحوالًا صعبة، بعد أن تجلد خلافه مع الملوك الأيوبيين، ولا سيما بعد وفاة الملك الأشرف سنة (٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م)(١)، وقد اهتم الملك بديوان المال وعين فيه موظفين امتازوا بحسن الإدارة والفضيلة يميزون بين الحلال والحرام، ويقومون بعمل سجلات منظمة ودقيقة ولا سيما للإنتاج الزراعي والثروة الحيوانية(٢).

رابعًا: ثقافة الملك العادل وسياسته التعليمية:

اهتم الملك العادل بتثقيف أولاده، بوصف الثقافة من الأمور الضرورية لتوسيع المدارك والآفاق، لمواكبة روح العصر الذي كانوا يعيشون فيه، فقد درس الملك المعظم عيسى صاحب دمشق الفقه الحنفي في دقة وعناية(٣)، فيما اهتم الملك الكامل بنواحي الحياة الثقافية المختلفة وكان اهتمامه منصبًا بشكل واضح على النواحي الدينية والأدبية، بالإضافة إلى العلوم العقلية، ودرس الملك الكامل القرآن الكريم والحديث النبوي والفقه، وكان متمسكًا بالسنة النبوية، حسن الاعتقاد يميل إلى الصوفية، محبًا للحديث وأهله، معظمًا للسنة النبوية وأهلها، راغبًا في نشرها والتمسك بها، حريصًا على حفظها ونقلها(٤) وكان ملازمًا لعلماء الحديث، فقد أكثر من سماع الحديث، ولا سيما عن فخر الدين ابن الشيوخ وإخوته الذين كانوا من أكابر دولته، والذين حازوا على فضيلة السيف والقلم، يباشر أحدهم التدريس، ويتقدم على الجيش(٥)، وكان من نتائج اهتمامه بالحديث وسماعه له أن توافرت لديه إمكانية روايته، فقد أجاز له مفتي الإسكندرية ومقرئوها، أبو القاسم الصفراوي (ت ٦٣٦هـ/١٢٣٨م) رواية الحديث، وخرج له أربعين حديثًا(٦)، وسمعها جماعة، وأجاز له العلامة النحوي عبد الله بن بري (ت٥٨٤هـ/ ١١٨٨م)(٧) وأبو عبد الله بن صدقة الحراني (ت ٥٨٤هـ/١١٨٨م) (٨)، كما استطاع الملك الكامل أن يعلق على صحيح مسلم بكلام مليح(٩) ، وقد نال الملك الكامل مكانة كبيرة عند الفقهاء، فقد امتدحه الفقيه إبراهيم بن حضر برهان الدين المعروف بابن الفقيه بقصيدة مطلعها:

إليك وإلا دُلَّني كيف نصنع ... وفيك وإلَّا فالثناء مُضَيَّعُ
ومنك استفدنا كل مجد وسنودد ... وعنك أحاديثُ الحُكَامِ نسمع

(١) القدس بين أطماع الصليبين وتفريط الملك الكامل ص١١٥ .
(٢) المصدر نفسه ص١١٦ .
(٣) المختصر (٣/ ١٣٨) القدس بين أطماع الصليبين ص٦٣ .
(٤) النجوم (٦/ ٢٣٠) القدس بين أطماع الصليبين ص٦٣ .
(٥) القدس بين أطماع الصليبين وتفريط الملك الكامل ص٦٣ .
(٦) السلوك (١/ ١١٤) القدس بين أطماع الصليبين ص٦٣ .
(٧) القدس بين أطماع الصليبين ص٦٣ .
(٨) المصدر نفسه ص٦٣ .
(٩) المصدر نفسه ص٦٣ .

ولم يقتصر اهتمام الملك الكامل على رواية الحديث، وإنما جاوزها إلى مناقشة العلماء في البدع التي تظهر في البلاد فيظل بعضها وينتشر، وكان اهتمامه بالعقيدة شديدًا، حتى أنه سافر إلى دمشق لحل الخلاف الذي حدث بين أصحاب المذهب الشافعي والحنابلة، وتقدم عنده المحدث أبو الخطاب بن دحية، وبنى له دار الحديث الكاملية بالقاهرة، وكان يكره المشتغلين بالمنطق وعلوم الأوائل(١)، وأولى الملك الكامل الأدب اهتمامًا كبيرًا وشغف به، وكان يعقد مجالس للمناقشة يجمع النحاة وغيرهم، ويمتحنهم، فمن أجاب منهم بجواب صحيح حظي عنده وقرَّبه(٢)، وكان اهتمام الملك الكامل بالنحو كبيرًا؛ لأنه مادة أساسية من مواد الثقافة فضلًا عن اشتراك المثقفين في المناظرة ضروري إذ يعدونه وسيلة لدراسة العلوم الشرعية(٣)، ومن المسائل الطريفة التي حصلت للملك الكامل في النحو ما حدث في دمشق حين استحضر جماعة من العلماء وكان فيهم الشيخ زين الدين بن معطي النحوي وسألهم عن قولهم: (زيد ذهب به) هل يجوز في زيد النصب، فقالوا: لا يجوز إلا الرفع، فقال زين الدين: يجوز النصب، فاستحسن الملك الكامل جوابه، وطلب منه مرافقته إلى مصر، وقرر له معلومًا جيدًا(٤)، وقد صنف أبو الحزم مكي عبد الملك بن حمدان العروض وغيرها للملك الكامل عندما رأى اهتمامه باللغة العربية(٥).

وقد اهتم الملك الكامل بتطوير التعليم في عهده، إذ كان حريصًا على نشر العلم والأخذ بأسباب الحضارة، فشيد دار الحديث عام (٦٢١هـ/ ١٢٢٤)(٦)، ووقف عليها وكانت أشبه بالجامعة إذ كانت تدرس فيها علوم المذاهب الأربعة، كذلك أسست المدرسة المهذبية لتدريس الطب في القاهرة عام (٦٢٠هـ/١٢٢٣م) وقد بناها الطبيب مهذب الدين أبو سعيد بن أبي الوحش، وكان مدرسًا في البيمارستان المنصوري، ورئيس الأطباء في عهد الملك الكامل، ولم يقتصر التعليم على المدارس، بل شمل الزوايا والربط والخوانق، وكتاب الأطفال، وكانت المدارس مفتوحة لجميع الطلاب دون تمييز، كما كانت الحلقات الدراسية عديدة في المساجد، وانتشرت في عهد الملك الكامل المكتبات العامة الملحقة بالمدارس والمساجد والمكتبات الخاصة، فكان في مكتبة القاضي الفاضل ٦٨ ألف مجلد(٧).

واستمر الإقبال على التعليم وكان لإهتمام الملك الكامل بنشر العلم أن حافظت الثقافة على انتعاشها، وبرز عدد من الأدباء والعلماء والأطباء؛ كالفقيه جمال الدين بن شاش المصري (ت

(١) القدس بين أطماع الصليبيين ص٦٤ .
(٢) مفرج الكروب (١٥٨/٥) القدس بين أطماع الصليبيين ص٦٤ .
(٣) الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص١٩٨ .
(٤) مفرج الكروب (١٥٨/٥) القدس بين أطماع الصليبيين ص٦٥ .
(٥) القدس بين أطماع الصليبيين ص٦٥ .
(٦) مساجد القاهرة ومدارسها (٦٧/٢) القدس بين أطماع الصليبيين ص١١٧ .
(٧) التربية الإسلامية، أحمد شلبي ص٩٨ .

٦١٦هـ/ ١٢١٩م) وكان مدرسًا في الصلاحية، وصنف كتاب الجواهر الثمينة في مذهب أهل المدينة[١]، والفقيه ابن ظافر الأزدي الإسكندراني علي بن ظافر بن حسين (ت ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م)، وقد برع بالأدب والتاريخ ودرس بمالكية مصر، وصنف التشبيهات، أخبار الشجعان، أخبار السلجوقية، أساس السياسة[٢] ، وزين يحيي بن المعطي بن عبد النور (ت ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م) عالم في النحو، شاعر، له منظومة نحوية في ١٠٢١ بيتًا سماها الدرة الألفية، وقد شهد الملك الكامل جنازته[٣]، وبرز ابن الصفراوي، جمال الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد المجيد بن إسماعيل بن عثمان الإسكندراني بعلم القراءات والفقه، وسمع الحديث عن السلفي، وانتهت إليه رئاسة الإقراء والفتوى بالإسكندرية، وتوفي عن ٩٢ سنة (٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م)[٤]، وتميز القاضي الأشرف أبو العباس أحمد ابن القاضي الفاضل بالحديث سمع من فاطمة بنت سعد الخير والقاسم بن عساكر، وحصل له في الكهولة غرام زائد بطلب الحديث، فسمع الكثير وكتب واستنسخ وكان رئيسًا نبيلًا، وافر الجلالة، استوزره الملك العادل، فلما مات عرض عليه الملك الكامل الوزارة فلم يقبل، وتوفي عام (٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م)[٥]، واشتهر ابن الفارض شرف الدين أبو حفص عمر بن الحسن بشعره، فكان سيد شعراء عصره على الإطلاق وهو القائل:

وحياة أشواقي إليك ... وحرمة الصبر الجميل
لا أبصرتْ عيني سواكَ ... ولا صبوت إلى خليل

ومن قصائده المشهورة منها هذه الأبيات:

سائق الأظعانِ يطوِي البيدَ طي ... مُنعِمًا عرج على كُثبان طيّ
وبذات الشِّيح عنِّى إن مررت ... بحي من عُرين الجزع حيّ
وتَلَطَّف واجر ذِكرى عندهم ... علَّهم أن ينظروا عطفًا إليّ[٦]

ومن شعره:

خلص الهوى لك واصطفتك مودَّتي ... إني أغارُ عليك من مَلِكَيكَا
ولو استطعتُ منعتُ لفظك غيرةً ... إني أراه مُقبِّلًا شَفَتَيكا
وأراك تخطُر في شمائلك التي ... هي فتنة فأغار منك عليكا[٧]

---

(١) وفيات ابن خلكان (١/ ٢١٥) القدس بين أطماع الصليبين ص١١٧ .
(٢) النجوم الزاهرة (٦/ ٣١٤) القدس بين أطماع الصليبين ص١١٨ .
(٣) القدس بين أطماع الصليبين ص١١٨ .
(٤) القدس بين أطماع الصليبين ص١١٨ .
(٥) شذرات الذهب (٧/ ٣٧٨).
(٦) النجوم الزاهرة (٦/ ٢٨٨).
(٧) شذرات الذهب (٧/ ٢٦٧).

ومن شعره في مدح رسول الله ﷺ:

أرى كل مدْح في النبي مُقَصِّرًا وإن بالغ المثني عليه وكثَّرا
إذا الله أثنى بالذي هو أهله عليه فما مقدار ما يمدح الورى[(١)]

ويقال: إنه لما نظم قوله:

وعلى تَفَنُّنِ واصفيه وبُحسنه يفنى الزمان وفيه مالم يُوصف[(٢)]

وقال ابن خلِّكان: أخبرني عنه بعض أصحابه أنه ترنم يومًا فقال: بيت الحريري صاحب المقامات وهو:

من ذا الذي ما ساء قط ومن له الحسن فقط

قال: نسمع صوتًا . . . وقد أنشد:

محمد الهادي الذي عليه جبريل هبط[(٣)]

جاء بن الفارض من حماة إلى مصر ودرس الخطابة بالجامعة الأزهر، وعكف عليه الأئمة، حتى كان الملك الكامل ينزل لزيارته، وتوفي عام (٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م)[(٤)]، قال عنه الذهبي: شاعر الوقت شرف الدين عمر بن علي بن مرشد الحمويُّ ثم المصريُّ صاحب الاتحاد الذي قد ملأ به التائية. . . فإن لم يكن في تلك القصيدة صريح الاتحاد الذي لا حيلة في وجوده، فما في العالم زندقة ولا ضلال، اللهم ألهمنا التقوى، وأعذنا من الهوى، فيا أئمة الدين ألا تغضبون لله؟ فلا حول ولا قوة إلا بالله . . . وقد حج وجاور وشعره في الذروة ولا يُلْحَق شأْوُه[(٥)]، وقد تفوق العالم علم الدين بن قيصر (ت ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م) في الهندسة والرياضيات، وقد عرض عليه الملك الكامل بعض المسائل التي أرسلها الإمبراطور فردريك الثاني، والعالم جمال الدين علي بن القفطي (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م) الذي تفوق في التفسير والحديث والفقه والنحو والمنطق والتاريخ، وله عدد من المصنفات؛ منها أخبار العلماء بأخبار الحكماء، أنباء الرواة على أنباء النحاة، الضاد والظاء، تاريخ المغرب، تاريخ اليمن[(٦)]، واعتنى موفق الدين عبد اللطيف البغدادي (ت ٦٢٩هـ/ ١٢٣٢م) ببضاعة الطب، وكان يتردد الطلاب عليه لدراسة الطب في الأزهر، وله عدة مصنفات أبرزها: شرح كتاب الفصول لأبقراط، وشرح كتب جالينوس[(٧)].

واشتغل شمس الدين أبو عبد الله بن عبد الواحد الليودي (٦٢١هـ/ ١٢٢٤م) في الطب، وله المدرسة اللبودية في الطب، وخدم الملك الكامل، كذلك خدمة الطبيب أبو الفضل بن

---

(١) المصدر نفسه (٧/ ٢٦٧).
(٢) المصدر نفسه (٧/ ٢٦٨).
(٣) وفيات الأعيان (٣/ ٤٥٥).
(٤) وفيات الأعيان (٣/ ٤٥٤).
(٥) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٣٦٨، ٣٦٩).
(٦) تتمة المختصر لابن الوردي (٢/ ٢٧٣).
(٧) معجم الأدباء (١٥/ ١٨٧) القدس بين أطماع الصليبين وتفريط الملك الكامل ص١١٩ .

أبي سليمان (ت٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م)، وكذلك رشيد الدين أبو سعيد بن موفق الدين (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) وله كتاب عيون الطب، وتعاليق على كتاب الحاوي للرازي[١]، وخدم الملك الكامل أطباء آخرون منهم أسعد الدين بن أبي الأسعد وتوفي عام (٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م)، وله كتاب نوادر الآلاء في امتحان الأطباء، وكان أبو الوحش بن أبي الخير، الحكيم الرشيد طبيبًا نشيطًا خدم الملك الكامل، وكان العيدلي ضياء الدين بن البيطار (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) أشهر العشابين في عهد الملك الكامل، وله كتاب المغني في الأدوية المفردة[٢]، وشرح كتاب أدوية كتاب ديموقريدس[٣].

١- **الشيخ عبد الله اليُونيني، أسد الشام (توفي ٦١٧هـ)**: الزاهد العابد أسد الشام، الشيخ عبد الله بن عثمان بن جعفر اليُونيني كان شيخًا طويلًا مهيبًا شجاعًا حادَّ الحال، كان يقوم نصف الليل إلى الفقراء، فمن رآه نائمًا وله عصا اسمها العافية ضربه بها، ويحمل القوس والسلاح ويلبس قُبعًا من جِلْدِ ماعز بصوفه، وكان أمَّارًا بالمعروف لا يهاب الملوك، حاضرَ القلب، دائم الذِّكر، بعيد الصِّيت، كان في حداثته يخرج وينطرح في شَعْراء يُونين، فيردُّه السَّفَّارة إلى أمه، ثم تَعبَّدَ بجبل لبنان وكان يغزو كثيرًا.

قال الشيخ عليُّ القصَّار: كنت أهابه، كأنه أسد، فإذا دنوت منه وددتُ أن أشق قلبي وأجعله فيه[٤]، وقيل: جلس بين يديه المعظَّم وطلب الدُّعاء منه، فقال: يا عيسى لا تكن نحس مثل أبيك، أظهر الزَّغل[٥]، وأفسد على الناس المعاملة[٦]، وكانت له كرامات ورياضات وإشارات وكان لا يقوم لأحد تعظيمًا لله ولا يَدَّخر شيئًا له ثوب خام، ويلبس في الشتاء فروة، وقد يؤثِر بها في البرد، وكان ربما جاعَ ويأكل من ورق الشجر، وكان الشيخ شجاعًا لا يُبالي بالرجال قلّوا أو كثروا، وكان قوسه ثمانين رطلًا، وما فتته غزاة[٧]، توفي في ذي الحجة سنة سبع عشرة وست مائة وهو صائم وقد جاوز ثمانين سنة رحمه الله، ولأصحابه فيه غلو زائد، وقد جعل الله لكل شيء قدرًا[٨].

٢- **السيف الآمِدِيُّ (توفي٦٣١هـ)**: العلامة المصنف فارس الكلام سيف الدين علي بن أبي عليّ بن محمد بن سالم التَّغلبي الآمدي الحنبليُّ ثم الشافعي[٩]، صاحب المصنَّفات في الأصلين وغير ذلك، من ذلك (أبكارُ الأفكار) في الكلام و(دقائق الحقائق) في الحكمة، و(إحكام الأحكام) في أصول الفقه، وكان حنبليَّ المذهب، فصار شافعيًّا أصوليًّا منطقيًّا جدليًّا

(١) القدس بين أطماع الصليبيين ص١١٩ .
(٢) شذرات الذهب نقلًا عن القدس بين أطماع الصليبيين ص١٢٠ .
(٣) عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة ص٦٠ .
(٤) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ١٠٢).
(٥) المصدر نفسه (٢٢/ ١٠٢).
(٦) المصدر نفسه (٢٢/ ١٠٢).
(٧) المصدر نفسه (٢٢/ ١٠٣).
(٨) المصدر نفسه (٢٢/ ١٠٣).
(٩) المصدر نفسه (٢٢/ ٣٦٤).

خِلافيًّا، وكان حسنَ الأخلاق، سليم الصدر، كثير البكاء، رقيق القلب، وقد تكلموا فيه بأشياء الله تعالى أعلم بصحتها، والذي يغلبُ على الظنِّ أنه ليس لغالبها صحة، وقد كانت ملوك بني أيوب كالمعظم والكامل يكرمونه، وإن كانوا لا يُحبونه كثيرًا، وقد فوَّض إليه الملك المعظم تدريس العزيزية، فلما ولي الأشرف دمشق عزله عنها ونادى في المدارس أن لا يشتغل أحد بغير التفسير والحديث والفقه ومن اشتغل بعلوم الأوائل نفيته، فأقام الشيخ سيف الدين بمنزله إلى أن توفي بدمشق في صفر من هذه السنة ودفن بتربته بسفح قاسيون(١).

قال القاضي ابن خلكان: . . . انتقل إلى الشام، واشتغل بعلوم المعقول، ثم إلى الديار المصرية، فأعاد بمدرسة الشافعية بالقَرَافة الصغرى، وتصدَّر بالجامع الظافري، واشتهر فضله، وانتشرت فضائله، فحسده أقوام، فسعوا به، وكتَبوا خُطوطَهم باتِّهامه بمذهب الأوائل والتَّعطيل والانحلالِ، فطلبوا من بعضهم أن يوافقهم، فكتب:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه ... فالقوم أعداءٌ له وخصوم(٢)

ويُحكى عن ابن عبد السلام أنه قال: ما تعلمنا قواعد البحث إلا منه، وأنه قال: ما سمعت أحدًا يلقي الدَّرس أحسن منه، كأنه يخطب، وأنه قال: لو ورد على الإسلام متزندق يشكك ما تعيَّن لمناظرته غيره لاجتماع الآلات فيه(٣).

وقال الذهبي: قال لي شيخنا ابن تيمية: يغلب على الآمدي الحيرة والوقف، حتى إنه أورد على نفسه سؤالًا في تسلسل العِلل، وزعم أنه لا يعرف عنه جوابًا، وبنى إثبات الصانع على ذلك، فلا يُقَرِّر في كتبه إثبات الصانع، ولا حُدوث العالم ولا وحدانية الله، ولا شيئًا من الأصول الكبار، قال الذهبي: هذا يدل على كمال ذهنه، إذ تقرير ذلك بالنَّظر لا ينهض، وإنما ينهض بالكتاب والسنة، وبكل قد كان السيف غاية، ومعرفته بالمعقول نهاية، وكان الفضلاء يزدحمون في حلقته(٤).

٣- القاضي ابن شداد (توفي ٦٣٢هـ): الشيخ الإمام العلَّامة قاضي القضاة بقية الأعلام بهاءُ الدين أبو العِزِّ وأبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم الأسدي الحلبيُّ الأصل والدار، الموصليُّ المولد والمنشأ، الفقيه الشافعي المقرئُ المشهور لابن شداد وهو جدّه لأمه(٥)، حدَّث بمصر ودمشق وحلب، كان ثقة حجة، عارفًا بأمور الدين، اشتهر اسمه، وسار ذكره، وكان ذا صلاح وعبادة، وكان في زمانه كالقاضي أبي يوسف في زمانه، دبَّر أمور الملك بحلب واجتمعت الألسن على مدحه، أنشأ دار حديث بحلب، وصنَّف كتاب (دلائل الأحكام) في أربع مجلدات(٦).

---

(١) البداية والنهاية (١٧/ ٢١٥).
(٢) وفيات الأعيان (٣/ ٢٩٣).
(٣) شذرات الذهب (٧/ ٢٥٤).
(٤) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٣٦٦).
(٥) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٣٨٤).
(٦) المصدر نفسه (٢٢/ ٣٨٥).

قال ابن خَلِّكان: انحدر ابن شدَّاد إلى بغداد وأعاد بها ثم مضى إلى الموصل فدَّرس بالكمالية، وانتفع به جماعة، ثم حج سنة (٥٨٣هـ) وزار الشام، فاستحضره السلطان صلاح الدين وأكرمه وسأله عن جزء حديث ليسمع منه، فأخرج له جزءًا فيه أذكار من البخاري، فقرأ عليه بنفسه، ثم جمع كتابًا مجلدًا في فضائل الجهاد وقدَّمه له ولازمه فولاه قضاء العسكر، ثم خدم بعده ولده الملك الظاهر غازيًّا فولَّاه قضاء مملكته ونظر الأوقاف سنة نيّف وتسعين، ولم يُرزق ابنًا ولا كان له أقارب، واتفق أن الملك الظاهر أقطعه إقطاعًا يحصل له منه جملة كثيرة، فتصمّد له مال كثير فعمَّر منه مدرسة سنة إحدى وست مائة ودار حديث وتُربه، قصده الطلبة واشتغلوا عليه للعلم وللدنيا، وصار المشار إليه في تدبير الدَّولة بحلب إلى أن استولت عليه البرودات والضعف فكان يتمثل قول الشاعر:

من يتمنَّ العمر فَلْيدَّرِع صبرًا على فقد أحبابه
ومن يُعمَّر يَلْقَ في نفسه ما قد تَمنَّاهُ لأعدائه[١]

إلى أن قال ابن خلكان: أخذت عنه كثيرًا، وكتب إليه صاحب إربل في حقي وحق أخي، فتفضل وتلقَّانا بالقول والإكرام، ولم يكن لأحد معه كلام ولا يعمل الطوشي شيئًا إلا بمشورته، وكان للفقهاء به حرمة تامة ... توفي سنة (٦٣٢هـ) وله ثلاث وتسعون سنة[٢].

خامسًا: أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة من مشاهير عصر الدولة الأيوبية في عهد الملك العادل والملك الكامل (توفي سنة ٦٢٠هـ):

هو أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدام بن نصر الجمّاعيلي الصالحي الدمشقي الحنبلي[٣]، وقد اتفقت معظم المصادر التاريخية وكتب التراجم على اسم ابن قدامة السابق وبعضها زاد حتى أوصل نسبه إلى الخليفة الراشد عمر بن الخطاب القرشي ﷺ[٤]، ولذا ينسب ابن قدامة فيقال: القرشي، وأما نسبته المقدسي فنسبة إلى أسرة المقادسة، نسبوا بذلك لقرب موطنهم من بيت المقدس[٥]، وأما نسبته الجمَّاعيلي فنسبة إلى القرية التي ولِد بها، وهي جمّاعيل: قرية في جبل نابلس من أرض فلسطين[٦]، وأما نسبته الصالحي فلأنه نزل مع أهله في مسجد أبي صالح[٧]، وأما نسبته الدمشقي فلأنه نزل بدمشق وعاش بها أكثر حياته، ومات بها ويلقب بموفق الدين، ويعرف كذلك بأبي محمد المقدسي، وبابن قدامة المقدسي، وإن كان يحصل بينه وبين غيره خلط في الاسمين الأخيرين[٨]، وأما أسرته: فهي كريمة مشهورة بالفضل

(١) المصدر نفسه (٢٢/ ٣٨٦).
(٢) وفيات الأعيان (٧/ ٩٩).
(٣) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ١٦٥، ١٦٦).
(٤) منهج ابن قدامة في تقرير عقيدة السلف ص٢١ .
(٥) معجم البلدان (٢/ ١٥٩، ١٦٠).
(٦) منهج ابن قدامهة في تقرير عقيدة السلف ص٢١ .
(٧) القلائد الجوهرية لابن طولون (١/ ٢٥).
(٨) منهج ابن قدامة في تقرير عقيدة السلف ص٢١ .

والصلاح والتقى والورع والعلم، فوالده كان عالمًا فاضلًا صالحًا، ربَّى ولديه: محمد وعبد الله، فأحسن تربيتهما، وعلمهما الحديث وغيره من العلوم، وكان رحمه الله خطيب جمَّاعيل، كما كان ذا مهابة عظيمة، وقد توفي سنة (٥٥٨هـ)(١).

١- **علمه ومصنفاته**: أمضى ابن قدامة وقتًا طويلًا من حياته في رياض العلم والمعرفة، يلازم الشيوخ والعلماء ويأخذ عنهم، حتى برز في جوانب علمية كثيرة، فذاع صيته بين العلماء وسار الركبان بإنتاجه الوفير، الذي كان شاهدًا حيًّا على سعة إطلاعه ووفرة علمه وتنوع ثقافته، ولم يقتصر ابن قدامة على الأخذ بنوع واحد من العلوم، بل حاول الأخذ قدر الإمكان من العلوم المختلفة، حتى برز في علوم كثيرة، دل على ذلك تنوع إنتاجه العلمي، فقد ألَّف في التفسير والحديث والتوحيد والفقه وأصوله والأنساب وغيرها وبلغ فيها درجة من العلم قلَّ أن تتوفر لغيره من العلماء(٢)، وهذا التنوع في العلوم لدى ابن قدامة كان بسبب عوامل كثيرة، لعلَّ من أبرزها كثرة الشيوخ الذين أخذ عنهم العلم، وقد كان فيهم الفقيه والمحدث والمفسر والمؤرخ واللغوي، كما أن البيئة التي عاش فيه كانت بيئة علمية، ساعدته على تحصيل العلوم المختلفة، فقد عاش معظم حياته في دمشق، وكانت حينذاك زاخرة بالعلماء وطلبة العلم، كما عاش فترة في بغداد حاضرة العلم والعلماء في وقته، يضاف إلى ذلك الفترة التي عاش فيها ابن قدامة من (٥٤١هـ-٦٢٠هـ) فإنها كانت من أفضل الفترات العلمية في عهد الزنكيين والأيوبيين، أضف إلى ما سبق همة ابن قدامة العالية، وحرصه على طلب العلم وتفانيه في الحصول على الكم الوافر من العلوم المختلفة.

والعلم الذي اشتهر فيه ابن قدامة أكثر، وبرز فيه حتى أصبح علمًا من أعلامه هو علم الفقه وكتابه (المغني) يكاد يكون فريدًا في كتب الفقه الإسلامي، حيث يحمل بين طيّاته من العلم والفقه في الدين، والاستدلال بنصوص الكتاب والسنة وأقوال السلف، والترجيح بين الأدلة، ومناقشة الآراء والتوفيق بينها، ما يدل دلالة أكيدة على سعة علم مؤلفه، وبروزه في هذا المجال، حتى قال عنه الشيخ ابن تيمية رحمه الله: ما دخل الشام بعد الأوزاعي أفقه من الشيخ الموفق(٣)، ورغم بروز ابن قدامة في علم الفقه، فإن له كذلك جهود كبيرة وتصانيف نافعة في علم العقيدة، وعلم الحديث، وغيرها، ولكن هذه الجهود لم تأخذ حقها من البيان كما هو الحال في الفقه(٤)، وتفرغ ابن قدامة للتدريس والإفتاء، وكانت حلقات تدريسه مشهورة، وبقي زمانا يجلس بعد الجمعة للمناظرة، ويجتمع إليه الفقهاء، وكان لابن قدامة اهتمامات أخرى، ومن ذلك الجانب الأدبي واللغوي وخصوصًا قرض الشعر، وله في هذا المجال نظمٌ كثير حسن مثل قوله:

---

(١) النجوم الزاهرة (٥/ ٣٦٤).
(٢) ذيل طبقة الحنابلة (٢/ ١٣٦).
(٣) المصدر نفسه.
(٤) منهج ابن قدامة في تقرير عقيدة السلف ص٣٨ .

أتفضل يابن أحمد والمنايا شوارع تَخْتَرمنَكَ عن قريب
أغرَّك أن تخطيك الرزايا فكم للموت من سهم مصيب
كئوس الموت دائرة علينا وما للمرء بدٌّ من نصيب
إلى كم تجعل التسويف دأبًا أما يكفيك إنذار المشيب
أما يكفيك أنك كل حين تمر بغير خُلٍّ أوحبيب
كأنك قد لحقت بهم قريبًا ولا يغنيك إفراط النحيب[(١)]

ومع تفرغ ابن قدامة للتدريس والإفتاء والمناظرة، فإنه قام كذلك بتأليف الكتب النافعة المشهورة في العقيدة والتفسير والحديث والفقه وأصوله والأنساب والرقائق، وقد انتفع المسلمون بتصانيفه وانتشرت واشتهرت، ومن هذه التصانيف: الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار، البرهان في بيان القرآن، التبيين في أنساب القرشيين، تحريم النظر في كتب الكلام، ذم التأويل، ذمّ الوسواس، الرقة والبكاء في أخبار الصالحين، روضة الناظر وجنة المناظر وهو كتاب في أصول الفقه، ويعتبر من الكتب الجليلة في هذا العلم؛ حيث عرض فيه آراء العلماء على اختلاف مذاهبهم في المسائل الأصولية، وناقش آراءهم، وحقَّق المسائل المختلف فيها، وأوضح النهج السليم فيما سلك، لذا فإن الروضة من أهم المراجع في الأصول عند الحنابلة، وكان من بعده يرجعون إليها وينقلون عنها[(٢)].

ومن كتبه المشهورة المغني شرح مختصر الخرقي وهو من أجل الكتب في الفقه الإسلامي، ذكر فيه ابن قدامة المذاهب بأدلتها، فقد أورد ما دوّن في فقه الحنابلة، كما ذكر مذاهب الفقهاء الثلاثة المشهورة ومذاهب الصحابة والسلف ممن لم تدوَّن مذاهبهم الفقهية فغدا الكتاب موسوعة فقهية قيِّمة، وقد وصفه عز الدين بن عبد السلام بقوله: ما رأيت في كتب الإسلام في العلم مثل المحلي، وكتاب المغني للشيخ موفق الدين ابن قدامة في جودتهما وتحقيق ما فيهما[(٣)]، وقد علق الإمام الذهبي وهو يترجم للإمام ابن حزم على كلام العز هذا فقال: لقد صدق الشيخ عز الدين، وثالثهما (السنن الكبير) للبيهقي، ورابعهما (التمهيد) لابن عبد البر[(٤)]، فمن حصَّل هذه الدواوين وكان من أذكياء المفتين وأدمن المطالعة فيها، فهو العالم حقًّا[(٥)]، كما نقل عن العز أيضًا قوله: لم تطب نفسي بالفتيا حتى صار عندي نسخة من المغني[(٦)]. وقد ألف غير ذلك من الكتب التي جاوزت الأربعين كتابًا[(٧)].

(١) منهج ابن قدامة في تقرير عقيدة السلف ص٢٩ .
(٢) المصدر نفسه ص٤٢ .
(٣) سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٩٣).
(٤) سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٥٣-١٦٣).
(٥) المصدر نفسه (١٨/ ١٩٣).
(٦) منهج ابن قدامة في تقرير عقيدة السلف ص٤٦ .
(٧) المصدر نفسه ص٤٦ .

٢ - **جهوده في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد النصارى**: كان ابن قدامة رحمه الله من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وكان كثيرًا ما يحث على القيام بهذا الواجب ويعتبره فرضًا، فهاهو يقول: إذا دعي إلى وليمة فيها معصية؛ كالخمر والزمر والعود ونحوه، وأمكنه الإنكار وإزالة المنكر، لزمه الحضور والإنكار؛ لأنه يؤدي فرضين، إجابة أخيه المسلم، وإزالة المنكر، وإن لم يقدر على الإنكار لم يحضر، وإن لم يعلم المنكر حتى حضر، أزاله، فإن لم يقر انصَرف[1]. وأمّا جهاده في سبيل الله فلقد كان مشهودًا؛ إذ إنَّ ابن قدامة لم يكن من العلماء الأبرار فقط، بل كان من المجاهدين الأخيار كذلك، فقد جاهد بلسانه وقلمه كما جاهد بنفسه ودمه، وقد تحدث عن الجهاد كثيرًا وعقد له فصولًا خاصة في بعض كتبه، بيَّن فيها أهمية الجهاد، وفضله وذكر الأحاديث التي تبيِّن منزلته من الدين، كما شرح بعض الأحكام المتعلقة به، ولم يكتفِ ابن قدامة بذلك، بل كانت له مشاركة فعليَّة في الجهاد وكان ذلك ضد النصارى في الحروب الصليبية تحت إمرة القائد صلاح الدين الأيوبي الذي جنَّد المسلمين لجهاد الصليبيين، وتطهير الأرض المقدسة من رجسهم، فقد شارك ابن قدامة وأخوه أبو عمر وكثير من تلاميذهما في هذه المعارك، وكانت لهم خيمة يتنقلون بها مع المجاهدين، ويرغِّبونهم في الجهاد ويشاركون معهم في القتال[2]، وكان فيه من الشجاعة، ويتقدم إلى العدو وقد أصيب في القدس بجرح في كفه[3].

٣- **مكانته وثناء الناس عليه**: احتل ابن قدامة مكانة بارزة بين علماء عصره وقد تقدم به علمه حتى بلغ درجة الاجتهاد، وصار علمًا يشار إليه بالبنان، ولا زال كذلك إلى يومنا هذا فآراؤه وكتبه مصدر مهم للعلماء الذين جاءوا بعده، وقد أثنى العلماء عليه[4].

(أ) **قال عنه ابن الحاجب**: هو إمام الأئمة، ومفتي الأمة، وخصه الله بالفضل الوافر، والخاطر العاطر، والعلم الكامل، وطنت بذكره الأمصار، وضنت بمثله الأعصار، أخذ بمجامع الحقائق النقلية والعقلية، فأما الحديث فهو سابق فرسانه، وأما الفقه فهو فارس ميدانه، أعرف الناس بالفتيا، وله المؤلفات الغزيرة، وما أظن الزمن يسمح بمثله، متواضع عند الخاصة والعامة، حسن الاعتقاد، ذو أناة وحلم ووقار، مجلسه معمور بالفقهاء والمحدثين، وكان كثير العبادة، دائم التهجد، لم نرَ مثله ولم يَرَ مثل نفسه[5].

(ب) وقال عنه ابن الصلاح: ما رأيت مثل الشيخ الموفق[6].

---

(١) المغني (١٠/١٩٨) منهج ابن قدامة في تقرير عقيدة السلف ص٥٧ .
(٢) ذيل طبقة الحنابلة (٢/٥٦).
(٣) منهج ابن قدامة في تقرير عقيدة السلف ص٥٨ .
(٤) منهج ابن قدامة في تقرير عقيدة السلف ص٥٨ .
(٥) سير أعلام النبلاء (٢٢/١٦٧).
(٦) مرآة الجنان (٤/٤٨).

(ج) **وقال عنه سبط بن الجوزي**: كان إمامًا في التفسير والفقه والحديث والفنون، ولم يكن في زمانه بعد أخيه أبي عمر والعماد أزهد ولا أروع منه، وكان كثير الحياء، هينًا متواضعًا، محبًّا للمساكين، حسن الأخلاق، جوادًا سخيًّا، من رآه فكأنما رأى بعض الصحابة، كان النور يخرج من وجهه، كثير العبادة، يقرأ كل يوم وليلة سُبْعًا من القرآن، ولا يصلي ركعتي السنة في الغالب إلا في بيته، اتباعًا للسنة، وكان صحيح الاعتقاد مبغضًا للمشبهة(١).

(س) **ووصفه الذهبي فقال**: الشيخ الإمام القدوة العلامة المجتهد شيخ الإسلام(٢)، وقال عنه: كان عالم أهل الشام في زمانه(٣).

(ك) **ومدحه الحافظ ابن كثير فقال**: إمام عالم بارع، لم يكن في عصره بل ولا قبل دهره بمدة أفقه منه . . . وبرع وأفتى، وناظر في فنون كثيرة مع زهد وعبادة، وورع وتواضع وحسن أخلاق وجود وحياء وحسن سمت ونور وبهاء وكثرة تلاوة وصلاة وصيام وقيام وطريقة حسنة واتباع للسلف الصالح(٤).

٤- **منهج ابن قدامة في باب الأسماء والصفات**: سار بن قدامة على مذهب السلف في هذا الباب وقرر في أكثر من موضع ذلك فقد قال رحمه الله: ومذهب السلف -رحمة الله عليهم- الإيمان بصفات الله تعالى، وأسمائه التي وصف بها نفسه في آياته وتنزيله، أو على لسان رسوله ﷺ من غير زيادة عليها، ولا نقص فيها ولا تجاوز لها، ولا تفسير لها، ولا تأويل لها بما يخالف ظاهرها، ولا تشبيه بصفات المخلوقين، ولا سمات المحدثين، بل أمورها كما جاءت، وردوا علمها إلى قائلها ومعناها إلى المتكلم بها(٥).

٥- **الدعاء عند ابن قدامة**: الدعاء هو أعظم أنواع العبادة وأشرفها، وقد ورد الحديث عليه في مواضع كثيرة من الكتاب والسنة؛ قال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٥، ٥٦]، وقال ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**» ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقد بيَّن ابن قدامة أن الدعاء ملاك الأمر؛ لأن الأمر كله بيد الله وحده، فوجب على الإنسان أن يدعو من الأمر بيده(٦)، قال: وملاك الأمر الدعاء، فإن الأمر كله بيد الله، يهدي من يشاء ويستعمله، ويضل من يشاء ويخذله، فينبغي لك أن ترغب إلى من الأمر بيديه، وتفوض أمرك إليه(٧).

---

(١) مرآة الزمان (٨/٦٢٨).
(٢) منهج ابن قدامة في تقرير عقيدة السلف ص٦٠ .
(٣) سير أعلام النبلاء (٢٢/١٦٧).
(٤) البداية والنهاية (١٧/١١٧).
(٥) منهج ابن قدامة في تقرير عقيدة السلف ص٩٤ .
(٦) المصدر نفسه ص١٣٥ .
(٧) الوصية ص٦٣ .

وأشار ابن قدامة إلى جملة من آداب الدعاء ينبغي على المسلم أن يلتزم بها في دعائه فقال: وليكن دعاؤك بخضوع وخشوع وبكاء وتضرع، فإن بعضهم قال: إني لأعلم حين يستجيب لي ربي عز وجل إذا وجل قلبي، أو اقشعر جلدي، وفاضت عيناي، وفتح لي في الدعاء[(١)].

٦- **المحبة عند ابن قدامة**: إن نصوص الكتاب والسنة التي تدل على وجوب محبة الله ومحبة رسوله ﷺ كثيرة جدًا؛ منها قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] فمحبة الله ومحبة رسوله ﷺ من أعظم أنواع العبادة، بل إنها ركن من أركانها، فأصل العبادة محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله فلا يحب معه سواه وإنما يحب لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه، وملائكته وأولياءه[(٢)]، وقد اهتم ابن قدامة بهذا النوع من أنواع العبادة، فصنَّف كتابًا خصصه لبيان فضل المحبة، وعظم منزلتها من الدين، سماه (المتحابين في الله)، وقد ضمَّن كتابه هذا الكثير من الأحاديث والآثار التي توجب محبة الله ومحبة رسوله ﷺ وتبين فضل الحب في الله والبغض في الله، وأنه أوثق عُرى الإيمان[(٣)]، وقد افتتح ابن قدامة كتابه هذا ببيان أن محبة الله ورسوله ﷺ والحب في الله وكراهية الكفر؛ هي الطريق إلى حلاوة الإيمان، فقد ساق بإسناده إلى النبي ﷺ قال: «**ثلاث من كنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يقذف الرجل في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه، وأن يحب العبد لا يحبه إلا لله أو قال: في الله**»[(٤)].

وقد بيَّن ﷺ جزاء من أحب الله ورسوله، فقد أخبر أن من تحقق فيه كذلك كان مع من أحب، وقد عقد ابن قدامة بابًا لبيان هذا سماه (باب المرء مع من أحب)[(٥)] ساق فيه بإسناده إلى أنس رضي الله عنه أن رجلًا سأل النبي ﷺ عن الساعة؟ فقال: «**ما أعددت لها؟**» قال: ما أعددتُ لها من كثير عمل، إلا أني أحب الله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ: «**المرء مع من أحب**»[(٦)]، وقد بيَّن ابن قدامة في كتابه هذا أهمية المحبة وفضلها وجزاء من أدَّاها وقام بمضمونها، كما أورد كثيرًا من الأحاديث التي تحثنا على الحب في الله والبغض في الله، وقد أوضح ابن قدامة وبين أن محبة الله تقتضي السير على ما أمر الله به وأمر به رسوله ﷺ، أما من عمل أعمالًا مخالفة للشرع، وادَّعى أنه بعمله هذا محب لله، فهو كاذب[(٧)].

وقد بيَّن ابن قدامة وجوب اتباع الرسول ﷺ؛ إذ إن الوصول إلى الله وإلى مراد الله والظفر بمحبته ورضوانه لا يتحقق إلا عن طريق رسول الله ﷺ حيث يقول: ومن طلب الوصول إلى الله

---

(١) المصدر نفسه ص٦٣ .
(٢) منهج ابن قدامة في تقرير عقيدة السلف ص١٣٧ .
(٣) المصدر نفسه ص١٣٧ .
(٤) المتحابين في الله ص٢٣، البخاري (١/ ٢٢).
(٥) المتحابين في الله ص٦٩ .
(٦) مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب (٤/ ٢٠٣٢).
(٧) منهج ابن قدامة في تقرير عقيدة السلف ص١٣٨ .

سبحانه من غير طريق رسول الله ﷺ، فهو بعيد من الوصول إلى المراد[(١)]، وبيَّن أن محبة الله تستلزم اتباع رسوله ﷺ، أما من خالف الرسول ﷺ فغير موعود بالمحبة، قال: فمن اتبع رسول الله ﷺ في قوله وفعله فهو على صراط الله المستقيم، وهو ممن يحبه الله ويغفر له ذنوبه، ومن خالفه في قوله وفعله فهو متبع لسبيل الشيطان غير داخل فيمن وعده الله بالمحبة والمغفرة والإحسان[(٢)].

٧- **النذر**: وهو في الاصطلاح: إلزام مكلف مختار نفسه لله تعالى بالقول شيئًا غير لازم بأصل الشرع[(٣)]، والأصل فيه الكتاب والسنة والإجماع؛ وأما الكتاب فقوله: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [الإنسان:٧]، وأما السنة فقد ثبت عنه صلى الله عليه أنه قال: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه**»[(٤)]، وأجمع المسلمون على صحة النذر في الجملة ولزوم الوفاء به[(٥)]، والنذر نوع من أنواع العبادة لا يصرف إلا لله وحده، فمن نذر لغير الله فقد أشرك[(٦)]، وقد قسم ابن قدامة النذر إلى سبعة أقسام وذكر منها تدر الطاعة والتبرر فقال: القسم الثاني نذر طاعة وتبرر... فهذا يلزم الوفاء به[(٧)]، ثم بيَّن أنواعه وحكم كل نوع[(٨)].

وقال في موضع آخر: وإن نذر فعل طاعة، وما ليس بطاعة؛ لزمه فعل الطاعة، كما في خبر أبي إسرائيل[(٩)]، فإن النبي ﷺ أمره بإتمام الصوم وترك ما سواه، لكونه ليس بطاعة[(١٠)]، وهذا الخبر عن أبي إسرائيل رواه ابن عباس رضي الله عنهما، فقال: بينما النبي ﷺ يخطب، إذا هو برجل قائم فسأل عنه فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم، فقال النبي ﷺ: «**مره فليتكلم، وليستظل، وليقعد وليتم صومه**»[(١١)]، فأقره النبي ﷺ على الصيام فقط؛ لأنه طاعة وقربة إلى الله سبحانه بخلاف البواقي[(١٢)].

وأما نذر المعصية فقد ذكره ابن قدامة ضمن أقسام النذر فقال: نذر المعصية، فلا يحل به إجماعًا، ولأن النبي ﷺ قال: «... **ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه**»[(١٣)]؛ ولأن معصية الله تعالى لا تحل في حال[(١٤)]، فقد ذكر ابن قدامة هنا الإجماع على عدم جواز نذر المعصية[(١٥)].

---

(١) ذم ما عليه مدعو التصوف ص٦، ٧ .
(٢) ذم الوسواس ص٤٨ .
(٣) كشاف القناع للبهوتي (٦/ ٢٧٣).
(٤) البخاري، كتاب: باب النذر في الطاعة (٤/ ٢٢٨).
(٥) المغني (١٣/ ٦٢١).
(٦) منهج ابن قدامة في تقرير عقيدة السلف ص١٤٠ .
(٧) المغني (١٣/ ٦٢٢) باختصار.
(٨) منهج ابن قدامة في تقرير عقيدة السلف ص١٤٠ .
(٩) قيل: اسمه يسير، وقيل: قشير الأنصاري، رجل من الصحابة.
(١٠) المغني (١٣/ ٦٢٩) منهج ابن قدامة في تقرير عقيدة السلف ص١٤٠ .
(١١) البخاري، في باب النذر فيما لا يملك، كتاب: الأيمان والنذور (٤/ ٢٢٩).
(١٢) الفتح الرباني لأحمد البنا (١٤/ ١٩١).
(١٣) البخاري في باب النذر في الطاعة (٤/ ٢٢٨).
(١٤) المغني (١٣/ ٦٢٤) منهج ابن قدامة في تقرير عقيدة السلف ص١٤١ .
(١٥) الكافي لابن عبد البر (١/ ٤٥٤، ٤٥٥) فتح الباري (١١/ ٥٨١).

٨- **مسألة الإمامة**: ذهب ابن قدامة إلى وجوب طاعة الإمام في غير معصية الله، وقرر أنَّ كل من ثبتت إمامته، فمن السنة السمع والطاعة له بَرًّا كان أو فاجرًا وحرمت مخالفته مالم يأمر بمعصية[١]، وتحدث ابن قدامة في مواضع متفرقة من كتبه عن بعض الأمور التي ينبغي مراعاتها، والقيام بها، ومن هذه الأمور:

(أ) **الجهاد والغزو معهم، والصلاة خلفهم**: حيث قال: ونرى الحج والجهاد ماضيًا مع طاعة كل إمام، برًّا كان أو فاجرًا، وصلاة الجمعة خلفهم جائزة[٢]، وقال: ويغزى مع كل برٍّ وفاجر؛ لقول رسول الله ﷺ: «**الجهاد واجب عليكم مع كل أمير، برًّا كان أو فاجرًا**»[٣]، ولأن تركه مع الفاجر يفضي إلى تعطيل الجهاد، وظهور العدو[٤].

(ب) **تحريم الخروج عليهم**: قرر ابن قدامة أنَّه يحرم الخروج على من ارتضاه المسلمون إمامًا وبايعوه، ودانوا له بالسمع والطاعة، معللًا ذلك بما في الخروج من مفاسد عظيمة، أخطرها شق عصا المسلمين، وتفريق كلمتهم وإراقة دمائهم[٥]، وقال: كل من ثبتت إمامته حرم الخروج عليه وقتاله، سواء ثبت بإجماع المسلمين عليه؛ كإمامة أبي بكر الصديق ﷺ، أو بعهد الإمام الذي قبله إليه؛ كعهد أبي بكر إلى عمر[٦] ﷺ أو بقهره الناس حتى أذعنوا له ودعوه إمامًا؛ كعبد الملك بن مروان[٧]، وقد استدل ابن قدامة على تحريم الخروج بما ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**من خرج على أمتي وهم جميع، فاضربوا عنقه بالسيف كائنًا من كان**»[٨]، ثم عقب على هذا الحديث بقوله: فمن خرج على من ثبتت إمامته بأحد هذه الوجوه باغيًا وجب قتاله[٩].

٩- **الصحابة**: تحدث ابن قدامة عن الصحابة مبينًا فضلهم، ومقررًا وجوب محبتهم والاستغفار لهم، والسكوت عن ذكر مساوئهم، فقال: من السُّنة تولي أصحاب رسول الله ﷺ ومحبتهم وذكر محاسنهم والترحم عليهم، والاستغفار لهم، والكف عن ذكر مساوئهم وما شجر بينهم واعتقاد فضلهم، ومعرفة سابقتهم[١٠]، وقال وهو يتحدث عن حب الصحابة وآل بيت رسول الله ﷺ: ونحب أهل بيته، ونحب من يحبهم، ونبغض من يبغضهم، ونوالي من والاهم ونعادي من عاداهم، مع محبتنا لأصحاب رسول الله ﷺ وموالاتهم والاستغفار لهم، وتقديمنا من قدم الله تعالى ورسوله، متبعين في ذلك أمر الله تعالى ورسوله ﷺ، وإجماع أصحاب رسول الله ﷺ رضي عنهم أجمعين[١١].

---

(١) منهج ابن قدامة في تقرير عقيدة السلف ص٣٧٢ .
(٢) لمعة الاعتقاد ص٣٩، منهج ابن قدامة في تقرير عقيدة السلف ص٣٧٣ .
(٣) ضعيف سنن أبي داود ص٢٤٩ .
(٤) الكافي (٤/ ٢٨١)، المغني (١٣/ ١٤).
(٥) منهج ابن قدامة في تقرير عقيدة السلف ص٣٧٤ .
(٦) أبو بكر رشح والأمة وافقت وهذه إحدى صور الشورى.
(٧) منهج ابن قدامة في تقرير عقيدة السلف ص٣٧٥ .
(٨) مسلم، كتاب: الإمارة (٣/ ١٤٧٩).
(٩) المغني (١٢/ ٢٤٣).
(١٠) منهج ابن قدامة ص٣٨٠ .
(١١) التبيين في أنساب القرشيين ص٥١ .

وقد حظيت مسألة الصحابة من ابن قدامة باهتمام كبير؛ حيث ألَّف عددًا من الكتب؛ ككتابه التبيين في أنساب القرشيين، ذكر فيه الصحابة من قريش بأنسابهم، وتطرق فيه إلى فضائل هؤلاء الصحابة، ومن ذلك قوله في مقدمة هذا الكتاب: هذا كتاب ذكرت فيه نسب رسول الله ﷺ، وأصحابه من أقاربه، وذكرت لكل امرئ منهم شيئًا من أخباره وفضائله وبعض من اشتهر من أولاده، وأولاد أولاده، ليعرف الواقف عليهم محله من الدين وموضعه من الفضل[(١)].

كما ألَّف كتابًا كاملًا عن الأنصار ﷺ سمَّاه: الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار، قال في مقدمته: هذا كتاب ذكرت فيه أنساب الصحابة من الأنصار، وطرفًا من أخبارهم على سبيل الاختصار، ليعرف به منزلتهم من الإسلام، وتأسيسهم للدين، وما خصَّهم الله تعالى من نصرة وإظهار دينه، وإيواء رسوله وصحابته، وسبقهم إلى إجابة دعوته، وبذلهم المنهج في طاعة ربهم وطاعته ليعظم في القلوب محلهم، ويكثر بالترحم عليهم فضلهم، ويزداد الإيمان بمحبتهم[(٢)]. وردت أدلة كثيرة تبيِّن فضل صحابة رسول الله ﷺ في الكتاب والسنة، وقد أورد ابن قدامة كثيرًا من الآيات والأحاديث الدالة على ذلك وهذه بعضها[(٣)]:

- قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الحشر: ١٠].

- قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: ٢٩].

- وقال ﷺ: **«لا تسبوا أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أُحُد ذهبًا، ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»**[(٤)].

- وقال ﷺ: **«خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»**[(٥)].

- وقوله ﷺ: **«آية الإيمان حب الأنصار»**[(٦)].

وقد تحدث ابن قدامة عن عدالة الصحابة، وقرر ما عليه أهل السنة من أن الصحابة عدول جميعًا، كما بيَّن أن السلف الصالح وجمهور الأمة مقرون بعدالة الصحابة وقال: والذي عليه سلف الأمة، وجمهور الخلف، أن الصحابة ﷺ معلومة عدالتهم بتعديل الله تعالى وثنائه عليهم[(٧)].

(١) المصدر نفسه.
(٢) الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار ص٢٣ .
(٣) منهج ابن قدامة في تقرير عقيدة السلف ص٣٨١ .
(٤) البخاري، كتاب: فضائل الصحابة (٣/٦).
(٥) البخاري، كتاب: فضائل الصحابة (٣/٣٩).
(٦) روضة الناظر (١/ ٢٩٠).
(٧) المصدر نفسه.

١٠- **وصية موفق الدين ابن قدامة:** قال الشيخ موفق الدين: الحمد لله ذي الوجه الكريم، والفضل العظيم، والمن القديم، وصلى الله على محمد خاتم النبيين، وآله وصحبه أجمعين، أما بعد:

- فقد سألني بعض إخواني الصالحين أن أكتب له وصية، فامتنعت عن ذلك، لعلمي أني غير مستوصٍ في نفسي، ولا عامل بما ينبغي، ثم بدا لي أن أجيبه إلى مسألته، رجاء ثواب قضاء حاجة الأخ المسلم، ودعائه لي، وأن يجري لي أجر إذا عمل بوصيتي، وأن أكون من الدالين إلى الخير، حين عجزت عن عمله لأكون بدلالتي عليه كفاعله، والأعمال بالنيات، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب[١].

- اعلم -رحمك الله- أن هذه الدنيا مزرعة الآخرة، ومتجر رباحها، وموضع تحصيل الزاد منها، والبضائع الرابحة بها بذر السابقون، وفاز المتقون، وأفلح الصادقون، وربح العاملون، وخسر المبطلون، وإن هذه الدار هي أمنية أهل الجنة وأهل النار، قال الله تعالى في أهل النار: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر، ٣٧]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: ٢٧]، وقال في حق أهل الجنة: ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠]. قال الحسن: هي الدنيا لأن أهل التقوى يتزودون فيها للآخرة، ذكر ذلك البغوي رحمه الله وقال ابن مسعود رضي الله عنه فيما يرونه: إن أرواح الشهداء كطير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش، فبينما هم كذلك إذ اطّلع عليهم ربك إطلاعة فقال: يا عبادي سلوني ما شئتم، قالوا: ربنا نسألك أن تردَّ أرواحنا في أجسادنا، ثم تردنا إلى الدنيا، فنقتل مرة أخرى، فلما رأى أنهم لا يسألون إلا ذلك تركوا حقيقة الدنيا كما يرأها ابن قدامة.

- واعلم يا أخي -رحمك الله تعالى- أن الله تعالى قد علم أنهم يسألون ذلك وأنهم لا يردون إلى الدنيا، وإنما أراد إعلام المؤمنين الذين في الدنيا أمنيتهم في الجنة القتل في سبيله ليرغبهم في ذلك، وقال إبراهيم التيمي -رحمه الله تعالى-: مثلت نفسي في الجنة مع حورها، وألبس من سندسها، وإستبرقها آكل من ثمارها، وأعانق أبكارها وأتمتع بنعيمها، فقلت لنفسي: يا نفس أي شيء تتمنين؟ فقالت: أردُّ إلى الدنيا، فأزداد من العمل الذي نلت به هذا، ثم مثلت نفسي في النار أعالج أغلالها وسعيرها أحرق بجحيمه، وأجزع من حميمها، وأطعم من زقومها، فقلت لنفسي: أي شيء تتمنين؟ فقالت نفسي: أردُّ إلى الدنيا، فأعمل أتخلص به من هذا العذاب، يا نفسي، فأنت في الأمنية فقومي فاعملي صالحًا.

---

(١) وصايا وعظات قيلت في آخر الحياة ص١٨٠، ١٨١ .

- وكان بعض السلف قد حفر لنفسه قبرًا، فإذا فتر من العمل نزل في قبره، فتمدد في لحده ثم قال: يا نفس قدِّري أني قدمت، وصرت في لحدي، أي شيء كنت تتمنين؟

- واعلم -رحمك الله- أن أهل القبور أمنية أحدهم أن يسبح تسبيحة تزيد في حسناته، أو يقدر على توبة من بعض سيئاته، أو ركعة ترفع في درجاته، وقد روينا أن رجلًا ركع ركعتين إلى جانب قبر، ثم اتكأ عليه فأغفى، فرأى صاحب القبر في المنام يقول: تنحَّ عني، فقد آذيتني، والله إن هاتين الركعتين اللتين ركعتهما لو كانتا لي كانتا أحب إليَّ من الدنيا وما فيها، إنكم تعملون ولا تعلمون، ونحن نعلم ولا نعمل[(١)].

- فاغتنم -رحمك الله- حياتك النفيسة، واحتفظ بأوقاتك العزيزة، واعلم أن مدة حياتك محدودة، وأنفاسك معدودة، فكل نفس ينقض به جزء منك، والعمر كله قصير، والباقي منه هو اليسير، وكل جزء منه جوهرة نفسية لا عدل لها، ولا خلف منها، فإن بهذه الحياة اليسيرة خلود الأبد في النعيم، أو العذاب الأليم، وإذا عادلت هذه الحياة بخلود الأبد علمت أن كل نفس يعدل أكثر من ألف عام في النعيم المقيم الذي لا حصر له، أو خلاف ذلك، وما كان هكذا فلا قيمة له، فلا تضيع جواهر عمرك النفيسة بغير عمل، ولا تذهبها بغير عوض، واجتهد أن لا يخلو نفس من أنفاسك إلا في عمل طاعة أو قربة تتقرب بها، فإنك لو كانت معك جوهرة من جواهر الدنيا، فضاعت منك، لحزنت عليها حزنًا شديدًا، بل لو ضاع منك دينار لساءك؛ فكيف تفرط في ساعتك وأوقاتك؟ وكيف لا تحزن على عمرك الذاهب بغير عوض؟

- فاجتهد -رحمك الله تعالى- في الكون من الفرقة الأولى الذين استوعبوا الساعات بالطاعات، ولم يفرطوا في شيء من الأوقات.

- وألزم قلبك الفكر في نعم الله لتشكرها، وفي ذنوبك لتستغفرها، وفي تفريطك لتندم، وفي مخلوقات الله وحكمه لتتعرف عظمته وحكمته، وفيما بين يديك لتستعدَّ له أو في حكم شيء تحتاج إليه لتعلمه.

- وألزم لسانك ذكر الله تعالى ودعاءه واستغفاره أو قراءة قرآن، أو علمًا أو تعليمًا، أو أمرًا بمعروف أو نهيًا عن منكر، أو إصلاحًا بين الناس.

- واشغل جوارحك بالطاعات، وليكن من أهمها الفرائض في أوقاتها على أكمل أحوالها، ثم ما يتعدى نفعه إلى الخلق وأفضل ذلك ما ينفعهم في دينهم لتعليمهم الدين، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم.

(١) وصايا وعظات قيلت في آخر الحياة ص١٨١ .

- واحترس من مفسدات الأعمال، لئلا يفسد عملك ويخيب سعيك، فلا تحصل على أجر العاملين، ولا راحة الباطلين، وتفوتك الدنيا والآخرة، فمن ذلك الرياء، والعمل لمحمدة الناس، فإن هذا أشرك، وقد روينا عن الله عز وجل أنه قال: «**من عمل عملًا أشرك فيه غيري فهو للذي أشرك، وأنا منه بريء**». وقد لا يحصل للمرائي ما قصده فيخيب بالكلية، فقد روينا أن رجلًا كان يرائي بعمله فإذا مرَّ بالناس قالوا: هذا مرائي، فقال يومًا في نفسه: والله ما حصلت على شيء، فلو جعلت عملي لله، فما زاد على أن قلب نيته، فكان إذا مر بهم بعد قالوا: هذا رجل صالح، ومن ذلك العجب فقد روي: إن المدلّ لا يجاوز عمله رأسه، وروي أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: يا موسى قل للعاملين المعجبين بعملهم: اخسروا، وقل للمذنبين التائبين النادمين: أبشروا. وقال بعضهم: لأن أبيت نائمًا وأصبح نادمًا أحب إليَّ من أبيت قائمًا وأصبح معجبًا(١).

- ولا تحقرنَّ مسلمًا، ولا تظنن أنك خير منه، فإن ذلك ربما أحبط عملك.

- واعلم -رحمك الله- أن هذه الدنيا سوق متجر الأبرار، وحلبة السباق بين الكرام الأخيار، ومزدرع التقوى ليوم القرار، ومحل تحصيل الزاد للسفر الذي ليس هو كالأسفار، فبادر -رحمك الله تعالى- قبل فوات إمكان البذار، واغتنم أنفاسك العظيمة المقدار، وأذرف من دموعك الغزار على ما سلف منك في تفريط الأوزار، فإن القطرة من الدموع من خشية الله تعالى تطفئ البحور من النار، وتيقظ في ساعات الأسحار عند نزول الجبار، وأحضر بقلبك قول العزيز الغفار: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأستجيب له. هل من مستغفر فأغفر له؟ قل: نعم يارب، أنا السائل المحتاج الفقير، أنا الضعيف الكسير، أنا الداعي الراجي، أنا المستغفر المذنب المقر المعترف، يا صاحب الصدقة، هأنذا ارحم ضعفي، وكِبَر سني، ارحم فقري وفاقتي وحاجتي ومسكنتي، يا كثير الخير، يا دائم المعروف، لا تخيب حسن ظني بك، ولا تحرمني سعة معروفك، ولا تطردني عن بابك، ولا تخرجني من أحبابك، أسألك يا عظيم فإنك قلت وقولك الحق: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢].

- إلهي، ما أمرتني أن أسألك إلا وأنت تريد أن تعطيني، ولا دللتني عليك إلا وأنت تريد أن تهديني، ولا أمرتني بدعائك إلا وأنت تريد أن تجيبني.

- أسألك من فضلك أن تجعلني مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وأن تجعلني من الذين تحبهم ويحبونك، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، ومن الأئمة الذين يهدون بأمرك، وارزقنا فعل الخيرات، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، واجعلنا من

١) وصايا وعظات قيلت في آخر الحياة ص١٨٢ .

العابدين لك، ومن الذين يسارعون في الخيرات ويدعونك رغبًا ورهبًا، واجعلنا لك من الخاشعين، ومن الذين يطيعوك، ويطيعون رسولك، ويخشاك ويتقيك، واجعلنا من الفائزين.

- رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحًا ترضاه وأدخلني في عبادك الصالحين وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين[(١)].

- رب أنت أصلحت الصالحين، وفضلت الصديقين، وسبَّقت السابقين، وقرَّبت المقربين وتفضَّلت عليهم، ثم أثنيت عليهم، ومنحتهم، ثم مدحتهم، لولاك ما وصلوا إليك، ولولا إحسانك ما فازوا لديك، فأسألك بوجهك الكريم، ومنِّك القديم، وفضلك العظيم، أن تتفضل علينا بما تفضلت به عليهم، وتصلحنا بما أصلحتهم، وتمنحنا كما منحتهم، وتعطينا كما أعطيتهم، وتجود علينا بما جدت عليهم، والكل عبيدك، وفي قبضتك، يارب دعوتنا إلى دار السلام، فاهدنا إلى الصراط المستقيم لنجيب دعوتك، فإننا لا نستطيع إجابتك إلا بهدايتك، ولا نصل إلى دعوتك إلا بعنايتك[(٢)] .

- إلهي عممت بدعوتك، وخصصت بعنايتك من شئت، فاجعلنا من خاصتك، ومنَّ علينا بالتوفيق لإجابتك، وادخلنا في أهل ولايتك، يارب أمرتنا بما لا يُقدر على فعله إلا بك، ونهيتنا عما لا نقدر على تركه إلا بتوفيقك، ورغبتنا فيما لا نناله إلا بفضلك، وحذرتنا مما لا نسلم منه إلا بجودك وكرمك، اللهم فوفقنا لامتثال أمرك، واجتناب زجرك، وأعطنا ما رغبتنا فيه، وجنبنا ما حذرتنا منه، اللهم إنك سألتنا من أنفسنا ما لا نقدر على فعله إلا بك، اللهم فخذ لنا منها ما ترضى به عنا برحمتك يا أرحم الراحمين.

- اللهم إنك أخذت بقلوبنا ونواصينا فلم تملكنا شيئًا منها، فإذا فعلت ذلك بهما فكن أنت وليهما، واهدنا إلى سواء السبيل[(٣)] .

هذه من الوصايا العظيمة التي قيلت في عهد الملك الكامل الأيوبي، والتي كان لها أثر عظيم في تلاميذ ابن قدامة رحمه الله.

١١- وفاته: توفي ابن قدامة رحمه الله يوم السبت يوم عيد الفطر سنة (٦٢٠هـ) بمنزله بدمشق[(٤)]، وقد اتفقت كافة المصادر على أنَّ وفاة ابن قدامة كانت في هذا التاريخ وكان له من العمر عند وفاته قريبًا من تسعة وسبعين عامًا، حُمل ابن قدامة إلى سفح جبل قاسيون فدُفن به وقد امتد الناس في طرق الجبل فملئوه، وكان الخلق الذين حضروا جنازته لا يحصون فقد

(١) وصايا وعظات قيلت في آخر الحياة ص١٨٤ .
(٢) وصايا وعظات قيلت في آخر الحياة ص١٨٥ .
(٣) المصدر نفسه ص١٨٥ .
(٤) المصدر نفسه ص١٨٥ .

حصل جمع عظيم لم يُرَ مثله[١]، وقد رؤيت له منامات صالحة فرحمة الله تعالى، وأجزل مثوبته وغفر لنا وله، وحشرنا جميعًا في زمرة المتقين؛ إنَّه على ذلك قدير[٢].

سادسًا: الملك الكامل وسياسته العمرانية والحياة الاجتماعية:

١- **سياسته العمرانية**: اهتم الملك الكامل بتحسين المرافق العامة في مصر، وتحسين الخدمات المهمة لرعيته، ولا سيما في المجال الاقتصادي والعمراني، فقد أنهى بناء القلعة، وبنى دار الوزراء التي تعرف بقاعة الصاحب لتكون مقرًّا للوزير صفي الدين، وبها قاعة الإنشاء، وديوان الجيش وبيت المال[٣]، وأنشأ الملك الكامل خزانة الكتب في القلعة، فحوت عددًا من الكتب والمجلدات النفيسة، وأقام خزانة شمائل (سجن شمائل)[٤]، تابع الملك الكامل سياسة إعمار البلاد، ولا سيما في مصر، فأمر الملوك الأيوبيين بإعمار بلادهم، ففي (٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م) كلف المظفر محمود صاحب حماة بناء برج في السلمية، وشجعه عام (٦٣١هـ/ ١٢٣٣م) على بناء قلعة في المعرة لحمايتها[٥]، وطلب من صاحب حمص الملك المجاهد أسد الدين شيركوه حفر خندق حول القلعة، وتعميقه، وتوسيعه وإعمار قلعة شميس، واهتم الملك الكامل بتحصين البلاد، ولا سيما الثغور وذلك ببناء القلاع والحصون، كما اهتم بالقضاء والخدمات العامة، وكان المحتسب يرتبط بالقضاء ويتولى المخالفات التي تتعلق بالآداب العامة ونظام الأسواق، والمعاملات التجارية، والمكاييل والمقاييس والخانات، والحمامات والفنادق ومنح رخص مزاولة الأطباء والصيادلة، ومن أبرز الأعمال التي قام بها الملك الكامل والتي كان لها مساس بحياة الشعب على نحو وثيق:

(أ) **بناء الجسور**: نهج الملك الكامل نهج الحكام الأيوبيين الذين سبقوه في بناء الجسور التي تحتاج إليها مصر وبلاد الشام، وكانت الجسور التي في مصر تتحكم بمجرى النيل وتحفظ البلاد من الفيضان، وتستخدم لتصريف مياه النهر[٦]، وكان المصريون يحتفلون بعيد وفاء النيل[٧] لأهميته في حياة البلاد الاقتصادية، وكان الملك يخرج من يوم العيد من القلعة إلى المقياس[٨]، فيقام احتفال يحضره عدد من المسئولين والناس[٩]، وكانت الجسور في مصر على نوعين هما:

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ١٧٢) ذيل طبقة الحنابلة (٢/ ١٤٢).

(٢) منهج ابن قدامة في تقرير عقيدة السلف ص٦٢ .

(٣) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٢٠ .

(٤) نسبة إلى علم الدين شمائل الذي برز دوره فدائيًا عظيمًا.

(٥) تتمة المختصر نقلًا عن القدس بين أطماع الصليبيين ص١٢٠ .

(٦) المقريزي (٢/ ١٨٨).

(٧) صبح الأعشى (٤/ ٤٧).

(٨) المقياس: بركة وسطها عمود طويل فيه علامات الأذرع والأصابع.

(٩) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٢١ .

- **الجسور السلطانية**: وهي الجسور العامة النفع في حفظ البلاد من خطر فيضان النيل، وتتولى الدولة إقامتها، ويكون سلطان البلاد مسئولًا عن تعميرها، وإدارتها، وتقام من بيت المال، وتصان باستمرار ويشرف على الجسور كاتب خاص، مسئول عن الإنفاق على هذه الجسور[١]، من الأموال المخصصة لها.

- **البلدية**: وهي الجسور الخاصة النفع بناحية دون ناحية، يتولى إقامتها وإدارتها المقطعون والفلاحون بما ينتفعون بها من عندهم، وهي بمثابة البيت الذي يمتلكه الشَّخص أي مثل سور منزله، فكل صاحب دار ينظر في مصلحتها ويلتزم تدبير أمره فيها[٢].

(ب) **تأسيس دار الحديث**: تابع الملك الكامل سياسة دعم التعليم وتشييد المدارس، والإنفاق عليها وتوفير الخدمات اللازمة، فأقام (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م) دار الحديث الكاملية في القاهرة، وتقع الدار بين القصرين[٣]، ووقف هذه الدار على المشتغلين بالحديث النبوي، ثم من بعدهم على الفقهاء الشافعية، ووقف عليها الربع الذي بجوارها على باب الحرنشف ويمتد إلى الدرب المقابل للجامع الأزهر، وكان موضع المدرسة سوقًا للرقيق ودارًا تعرف بابن كستول[٤]، ودرس في الكاملية الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية ثم أخوه أبو عمر عثمان الحافظ عبد العظيم المنذري، وما برحت بيد أعيان الفقهاء إلى أن تلاشت في العهد المملوكي، وتشير أطلال الدار عام (١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م) إلى أنها كانت تتكون[٥] من قاعة مستطيلة طولها عشرة أمتار ونصف المتر تقريبًا، وعرضها تسعة أمتار ونصف، وهي مسقوفة بقبة مدببة مبنية بالآجر، تتكون من مداميك أفقية تعلوها مداميك رأسيه، وتبلغ فتحة القبة تسعة أمتار ونصف[٦]، ويبلغ ارتفاعها عند مستوى انحنائها ستة أمتار ونصف، وأما ارتفاعها عند سطح الأرض فهو معروف لأن تربة مكدسة إلى ارتفاع كبير فوق أرضية البناء وجدران القاعة مبنية من الحجارة وهي سميكة يقرب سمكها من مترين، أما سمك القبة فهو متدرج، يبلغ عند المنبت (الانحناء) فوق الجدران مترًا، ويرق عند القبة إلى نصف متر[٧].

(ج) **تشييد مدينة المنصورة**: لم يقتصر اهتمام الملك الكامل على النواحي الاقتصادية بل شمل الميدان العمراني، وتشييد المدن فقد أقام مدينة المنصورة عام (٦١٦هـ/ ١٢١٩م) عندما ملك الفرنج مدينة دمياط[٨]، وهي تقع بين القاهرة ودمياط في المنطقة المحصورة بين فرعي نهر

---

(١) صبح الأعشى (٣/ ٤٤٥) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٢١ .
(٢) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٢٢ .
(٣) تتمة المختصر (٢/ ٢٣٨).
(٤) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٢٢ .
(٥) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٢٢ .
(٦) المصدر نفسه ص١٢٢ .
(٧) المصدر نفسه ص١٢٣ .
(٨) مفرج الكروب (٤/ ١٥) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٢٤ .

النيل المتجهين إلى دمياط، وأشموم طناح[١] الذي يصب في بحيرة تنيس، وجعلها قاعدة لعسكره وسمَّاها المنصورة تيمنًا بانتصاره على الصليبيين، واستعادة دمياط، ولم يزل بها إلى أن خرج الفرنج من الأراضي المصرية فأقام بها احتفالًا ضخمًا، وقد بنى الملك الكامل فيها قصرًا وأمر الأمراء والعساكر ببناء مساكن لهم، ونصبت الأسواق وأصبحت المدينة فيما بعد كثيرة القصور والفنادق والحمامات وأحيط بسور من الجهة البرية، وزودت مواقعها بآلات حربية للدفاع عنها[٢].

٢- **الحياة الاجتماعية:** حاول الملك الكامل رعاية الشعب وتقديم الخدمات إليه، غير أن ظروف الحرب التي شهدتها البلاد مدة من الزمن أثرت في حياة الأهالي السياسية والاقتصادية فازداد الفقر، وكان للحرب بين الصليبيين والمسلمين من جانب والحروب التي أقامها الكامل وأخوته لانتزاع دمشق من الملك المعظم وابنه، ومن الملك الصالح إسماعيل -أثر كبير في استنزاف أموال الناس، وكثرة الضرائب، واستشهاد الألوف، وانتشار الأمراض، وازدياد الفزع بين صفوف الأطفال والنساء، وتشريد الأهالي، ولا سيما لدى تخريب مدينة تنيس وإخلائها من السكان وتخريب مدينة القدس، وقلعة الطور، فضلًا عن الدمار الذي كان يصيب المدن والقرى بين الحين والآخر، نتيجة العدوان الصليبي والخوارزمي السلجوقي[٣].

وقد اتسمت الحياة الاجتماعية في عهد الملك الكامل بطابع الجد، ومناهضة الصليبيين، ذلك أن البلاد تعرضت إلى هجمات صليبية، ومخاطرها المتكررة بالإضافة إلى الحروب الداخلية التي خاضها الملك الكامل في المناطق الشرقية، ولذلك غلبت فكرة الحرب وتحصين الثغور، مما لم يترك مجالًا كبيرًا للتوسع في حياة الترف، إلا أن الحياة الاجتماعية لم تكن خشنة كل الخشونة، فحافظ الملك الكامل على إحياء الأعياد الدينية الإسلامية، دون إسراف أو تهتك[٤]، وقد اعتمد الملك الكامل على الأقليات من الأتراك والأكراد والتركمان في تسيير شئون البلاد[٥]، فعانى العامة والحرفيون وصغار التجار من تسلط رجال الملك في كثير من الأحيان، واعتداءات الأعراب أحيانًا على بعض المدن وقطع الطرق، واغتصاب الجند الأموال، فشنع العامة على الملك، واتهموه بالخيانة لدى تسليمه بيت المقدس عام (٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م)، بل إنهم أعلنوا بصراحة وشجاعة رفضهم استمرار حكمه، وأظهروا مشاعر الحقد عليه من خلال الأغاني والأهازيج التي كانوا يرددونها في المحافل العامة[٦].

---

(١) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٢٤ .
(٢) المختصر (٣/ ٩٣) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٢٤ .
(٣) الأيوبيون ص٢١٣، الباز العريني ص٢١٣ .
(٤) العدوان الصليبي على مصر، جوزيف نسيم يوسف ص٢٤١ .
(٥) وفيات الأعيان (٤/ ١٢٧) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٢٦ .
(٦) مرآة الزمان (٨/ ٧٠٨) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٢٦ .

واشتهر الملك الكامل بعطفه على رعاياه فوزع الصدقات على الفقراء والمرضى واليتامى والأرامل والمقعدين منهم[(١)]، وعامل الملك الكامل أهل الذمة معاملة جيدة (إذ عرف بتسامحه الديني)[(٢)]، فقد ذكر ابن عبري أن موسى بن ميمون اليهودي الأندلسي أكره على الإسلام إلى مصر، وابتلى برجل من الأندلس يعرف بأبي العرب وصل إلى مصر، فرامى إيذاءه فمنعه القاضي الفاضل وقال له: رجل لا يصح إسلامه شرعًا إذا أكره[(٣)]، واحتل العنصر القبطي مكانة مرموقة في الدولة، فقد أسلمت أسر قبطية، وبرع أفرادها في ميادين شتى، ونبغ الكثير منهم، وعملوا في الدواوين لكفاءتهم، وكان معظم الأطباء لدى السلاطين من اليهود والنصارى، وشغل بعضهم المناصب المالية في الدولة، وكانت الكنيسة القبطية تعد الملك الكامل من أكثر الملوك إحسانًا إلى أبنائها[(٤)]، وقد أثرت هذه الأوضاع في العامة، وبرزت الظواهر التالية:

(أ) ظاهرة الغلاء والأوبئة والمجاعات: تعد الحياة الاقتصادية في أي مجتمع إنساني أكثر تأثرًا بالوضع السائد في المجتمع؛ إذ يرتبط الاستقرار الاقتصادي طرديًا بالازدهار السياسي في المجتمع، وتعد الأزمات السياسية والحروب سببًا في حدوث الاضطراب الاقتصادي وارتفاع الأسعار، والتهافت على شراء الأقوات، وكان الغلاء من أكثر الظواهر الاقتصادية إضرارًا بالعامة، فعانى الناس من الجوع والمرض، فقد انخفضت مياه النيل في عامي (١٢٠٠م/ ١٢٠١م) وانتشرت المجاعة والأمراض وهجر كثير من الناس مصر إلى أقطار أخرى بحثًا عن الطعام[(٥)]، ويمكن أن نعزو أسباب الغلاء وارتفاع الأسعار إلى عاملين رئيسين:

- يعتبر منسوب مياه النيل العامل الأول؛ إذ إن هبوط النيل أو زيادته على المنسوب العادي للفيضان في فصل الصيف يمثل خطرًا حقيقيًا على الحياة المصرية آنذاك، إذ لم يعتمد الأهالي خزن المياه الزائدة في سدود لاستخدامها في وقت التحاريق، لذلك كان السكان يخشون الفيضان ويعدونه كارثة عليهم؛ إذ إن النيل هو مصدر المياه الوحيد في مصر تقريبًا، فإذا قصر الوفاء فإن وقت الزراعة، وإذا زاد على حده العادي أغرق الحقول، وجعلها غير صالحة للزراعة، وعندما تقل مياه النهر عن الحد اللازم للزراعة تنتاب الناس مخاوف من حدوث المجاعة، ويكثر قلقهم، خوفًا من الجوع لعدم زراعة المحاصيل، لذلك كان السكان يسارعون لتخزين الغلال طمعًا في الحصول على مزيد في الأرباح من طريق رفع الأسعار، ونتيجة لذلك يشتد الإقبال على شراء الغلال، بينما يقل المطروح منها في الأسواق، ويشتد التزاحم على حوانيت الغلال والأفران، مما يؤدي إلى ارتفاع الأسعار في البضائع المختلفة سواء المأكولات أو المشروبات أو الملبوسات[(٦)].

---

(١) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٢٧ .
(٢) تاريخ مختصر الدول لابن العبري ص٢٣٩ .
(٣) النجوم الزاهرة (٦/ ١١٠).
(٤) المصدر نفسه (٦/ ١٧٠) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٢٨
(٥) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٢٨ .
(٦) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٢٨ .

- ويتمثل هذا العامل بسياسة الدولة الاقتصادية المرتبطة بطبيعة النظام الإقطاعي ذي الطابع العسكري، فأصحاب الإقطاعات من قادة وأمراء جند لم يعيروا اهتمامًا كبيرًا لاستصلاح أراضيهم وجعلها أكثر مردودًا بسبب عدم استقرار هذه الإقطاعات في أيديهم[١]، وقد ذكر المقريزي: أنه كان لأسرة بني خيار بقرة فذبحوها، وباعوها أثناء حصار دمياط عام (٦١٥هـ/ ١٢١٨م) بثمانمائة دينار[٢]، وأن سعر رطل السكر ارتفع إلى ٤٥٠ دينارًا، والدجاجة إلى ٣٠ دينارًا، وأن الجوع انتشر بشكل كبير إلى درجة إحدى السيدات المحسنات شقت جوف جمل، وملأته بالدجاج والفواكه وخاطته، ورمته في البحر، وكتبت بذلك إلى أهل دمياط ليوزعوا ما فيه إلى المحتاجين[٣]، وكان الغلاء في مصر عام (٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م) شديدًا لنقص مياه النيل، فخرج العامة وأئمة المساجد لتأدية صلاة الاستسقاء فأكل الناس الكلاب والقطط وانتشر المرض، واستمر حوالي ثلاثة أشهر، فمات خلق كثير تجاوز الحد، وقدره المقريزي بحوالي ١٢ ألف نفس في القاهرة، عدا من مات في الريف[٤]، وقدره ابن تغري بردي بحوالي ثلاثين ألفًا[٥].

(ب) **السخرة**: استخدم الملك الكامل الناس للعمل دون أجر لبناء الجسور العامة والسدود والعمل في الإقطاعات، والمرافق العامة التي تظهر فائدتها في السكان[٦].

(ج) **الرشوة**: انتشرت بين بعض كبار المسئولين، وليس أدل على ذلك من قول المقريزي: تقدم الأنباء كيرلس داود بن لقلق بطرك الإسكندرية بالرشوة، وأنه أخذ الشرطونية عام (٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م)[٧].

(د) **المصادرة والظلم الاجتماعي**: انتشرت المصادرة والظلم الاجتماعي في عهد الملك الكامل، فقد كثرت مصادرة الوزير الصاحب صفي الدين بن شكر أرباب الأموال بمصر والقاهرة من التجار والكتاب، وكان يفرض على الناس التبرع بأملاكهم، وأحدث ابن شكر حوادث كثيرة، وحصَّل مالًا جمًّا، وقد وُصِف بأنه كان جبارًا، أفقر خلقًا كثيرًا، عاتيًا يتقدمه الأراذل وتأخر الأماثل، وكان الملك الكامل فيه جبروت ويحب تحصيل المال وجمعه والسيطرة[٨]، وقبض الملك الكامل على الناصر قلج أرسلان عام (٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) واعتقله في قلعة الجبل حتى مات، وكان الناصر حاكم حماه فانتزعها الملك الكامل منه[٩]، وسلمها إلى الملك المظفر محمود بن المنصور زوج ابنته غازية خاتون وعوضه بقلعة بارين، وما لبث أن انتزع الملك المظفر هذه القلعة منه، فذهب إلى مصر يشكو أمره للملك الكامل فقبض عليه[١٠].

(١) المصدر نفسه ص١٢٩ .
(٢) الخطط (١/ ٣٩٩) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٢٩ .
(٣) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٢٩ .
(٤) السلوك (١/ ٢٩١)
(٥) النجوم الزاهرة (٦/ ٢٨٧) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٢٩
(٦) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٣٠ .
(٧) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٣٠ .
(٨) المصدر نفسه ص١٣٠ .
(٩) المصدر نفسه ص١٣١ .
(١٠) المصدر نفسه ص١٣١ .

(هـ) **سرقة الأموال العامة:** تفشت السرقة والإهمال في بعض دواوين الدولة، ولا سيما المواد الغذائية التي يعتمد عليها أبناء الشعب، فقد نهب ناظر ديوان الأهراء حوالي أحد عشر ألف أردب من القمح(١)، ومع تسلط الملك الكامل وجبروته فإنه لم يكن منعزلًا عن شعبه تمامًا، وإنما كان يحاول مساعدة الشعب، ومشاركته في كثير من الأمور ومن ذلك:

- مشاركة الملك الكامل في صلوات الاستسقاء التي كانت تؤدى بين الحين والآخر، كلَّما قلَّت مياه النيل وصلاة العيد و. . .

- إبطال بعض الضرائب عند انتشار المجاعات.

- توزيع الصدقات والزكوات على الفقراء ولا سيما في رمضان.

- مصادرة أموال بعض المسئولين الذين أساءوا استخدام الوظيفة، وقبلوا الرشوة، أو سرقوا من الدواوين(٢).

سابعًا: وفاة خاتون بنت الملك العادل (٦١٦هـ):

توفيت خاتون بنت الملك العادل سنة (٦١٦هـ) وهي زوجة الملك المنصور صاحب حماة وحزن عليها حزنًا عظيمًا، ولبس الحداد، وأمر بصعود أكابر حماة إلى القلعة للصلاة عليها، فصلوا عليها، وعمل السلطان عزاها بالمدرسة المنصورية حماة وكان مكتئبًا حزينًا لابسًا الحداد وهو ثوب أزرق وعمامة زرقاء، وإلى جانبه أولاده الملك الناصر قلج أرسلان وأخوته وعليهم كلهم الحداد، وقرأ القُرَّاء بين يديه ووعظت الوعاظ وأنشدت الشعراء المراثي، وكان اقترح له أن تنظم المراثي على وزن قصيدة أبي العلاء المعري ورويّها التي مطلعها:

يا ساهر البرقِ أيقظ راقد السَّمر　　　لعل بالجِزْعِ أعوانًا على السَّهر

فعمل جماعة من الشعراء قصائد على هذا الوزن والروي(٣)، وللملك المنصور زوجها في رثائها عدة قصائد، من ذلك قصيدة مطلعها:

دموع كالغيوث الهاطلات　　　لماضي من كآباتي وآتي
ولوعات علي لها احتكام　　　يرق لها ملام اللائمات
على من في الضريح لها أنيس　　　صلاة واصلتها بالصلات
أيا من وجهُها عندي عزيز　　　ويا من موتُها أوهى حياتي
سلام الله كل صباح يوم　　　على تلك العظام الباليات

(١) المصدر نفسه ص١٣١ .
(٢) المصدر نفسه ص١٣١ .
(٣) مفرج الكروب (٤/ ٦٠، ٦١).

أساكنة اللحود عليك مني دموع دونها ماء الفرات
لقد كانت بك الساعات تزهو لعيني كالنجوم الزاهرات
وفقدك صيَّر الأيام عندي لبعدك كالليالي الحالكات
وكنت بعصمة الدين المهنى بعصمتها العلية عن صفات

إلى أن قال:

ولكني أذبت سواد عيني فسال مع الدموع السائلات[١]

ومنها:

وتبكي الصالحات عليك حزنًا بكاءَ الأمهات على البنات[٢]

ثامنًا: وفاة ست الشام بنت أيوب (٦١٦هـ):

ست الشام واقفة المدرستين البرَّانية والجوَّانية، الخاتون الجليلة ست الشام بنت أيوب بن شاذي، أخت الملوك وعمة أولادهم، كان لها من الملوك المحارم خمسة وثلاثون ملكًا، منهم شقيقها المُعظَّمُ تورنشاه بن أيوب صاحب اليمن، وهو مدفون عندها في تربتها في القبر القبلي من الثلاثة، وفي الأوسط منها زوجها وابن عمِّها ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شاذي، صاحب حمص، وكانت قد تزَوَّجته بعد أبي ابنها حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين، وكانت ست الشام من أكثر النساء صدقة وإحسانًا إلى الفقراء والمحاويج، وكانت تعمل في كل سنة في دارها بألوف من الذهب أشربة وأدوية وعقاقير وغير ذلك وتُفرِّقُه على الناس، وكانت وفاتها يوم الجمعة آخر النهار السادس عشر من ذي القعدة من هذه السنة في دارها التي جعلتها مدرسة وهي عند المارستان وهي الشامية الجوانية، ونُقلت منها إلى تُربتها بالشاميَّة البرانية، وكانت جنازتها عظيمة حافلة رحمها الله[٣].

تاسعًا: وفاة صاحب إربل مظفر الدين أبو سعيد كُوكبرى (٦٣٠هـ):

السلطان الملك المعظم مُظَفَّر الدِّين أبو سعيد كُوكُبرى بن علي بن بكتكين بن محمد التركماني، صاحب إربل وابن صاحبها ومُمصّرها الملك زين الدين علي كوجك[٤]، وكوجك هو اللطيف القد، كان كوجك شهمًا شجاعًا مهيبًا، تملك بلادًا كثيرة، ثم وهبها لأولاد صاحب الموصل، وكان يوصف بقوة مفرطة، وطال عمره وحج هو والأمير أسد الدين شيركوه بن شاذي، وتوفي سنة ثلاث وستين وخمسمائة، وله أوقاف وبر ومدرسة بالموصل، فلما مات تملك إربل ابنه هذا وهو مراهق، وصار أتابكه مجاهد الدين قيماز، فعمل عليه قيماز وكتب

محضرًا بأنه لا يصلح للملك وقبض عليه ومَلَّكَ أخاه زين الدين يوسف، فتوجه مظفر الدين إلى بغداد فما التفتوا عليه، فقدم الموصل على صاحبها سيف الدين غازي بن مودود، فأقطعه حرَّان، فبقي بها مُدَيْدَة، ثم اتصل بخدمة السلطان صلاح الدين، وغزا معه، وتمكَّن منه، وأحبه، وزاده الرُّها، وزوجه بأخته ربيعة واقفة الصاحبية، وأبان مظفر الدين عن شجاعة يوم حطين، وبيَّن، فوفد أخوه صاحب إربل على صلاح الدين نجدة فتمرَّض ومات على عكّا، فأعطى السلطان مظفر الدين إربل وشهرزور، واسترد منه حرّان والرُّها وكان محبًّا للصدقة، له كل يوم قناطير خبز يفرقها ويكسو في العام خلقًا ويعطيهم دينارًا ودينارين، وبنى أربع خوانك للزّمن والأضراء، وكان يأتيهم كل اثنين وخميس ويسأل كل واحد عن حاله ويتفقده ويباسطه ويمزح معه، وبنى دارًا للنساء، ودارًا للأيتام، ودارًا للقّطاء ورتَّبَ بها المراضع، وكان يدور على مرضى البيمارستان، وله مضيف ينزلها كل وارد، ويُعْطي كل ما ينبغي له، وبنى مدرسة للشَّافعية والحنفية، وكان يمد بها السماط ويحضر السماع كثيرًا، لم يكن له لذة في شيء غيره، وكان يمنع من دخول مُنكر بلده، وبنى للصوفية رباطين... وكان في السنة يفتك أسرى بحملة ويخرج سبيلًا للحج ويبعث للمجاورين بخمسة آلاف دينار، وأجرى الماء إلى عرفات، وكان متواضعًا خيِّرًا سُنيًّا يحب الفقهاء والمحدثين، وربما أعطى الشُّعراء، وما نُقل أنه انهزم في حرب، وقد عاش اثنتين وثمانين سنة[(١)].

عاشرًا: بعض رجالات الملك الكامل:

اعتمد الملك الكامل على عدد من الرجال في تسيير دفة الحكم وإدارة الدواوين وقيادة الجيش، وقد برز عدد من الرجال في الميادين المختلفة منهم شمس الدين صواب الطواشي، الذي كان مقدم عسكر الكامل وتولى بلاد المشرق إلى أن مات في حران عام (٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م)، وأبو الوحش أبي الخير أبو حليقة (ت ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) طبيب الملك الكامل، الذي أحكم معرفة نبضه، حتى أن الكامل أخرج يده ذات يوم من خلف ستارة إلى الطبيب ليجس نبضه فقال: هذا نبض مولانا السلطان، وابن البيطار الذي كان رئيسي العشابين عند الكامل وتوفي (٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) واستخدم الملك الكامل في كتابة الإنشاء عددًا من الأشخاص أبرزهم الوزير ابن شكر (ت٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م)[(٢)].

وبهاء الدين زهير، والفخر سليمان بن محمود بن أبي غالب الدمشقي، وعندما توفي الأخير عام (٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) استحضر الملك الكامل ناسخًا يقال له: الأمين الحلبي، كان في خدمة الأمير عز الدين أيبك استدار الملك المعظم، فلما حضر الأمين ليكتب بين يديه، خلع عليه،

(١) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦).

(٢) صبح الأعشى (١/ ٩١) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٣٢ .

وأعاده إلى الأشرف صاحب دمشق[(١)]، وبعث الملك الكامل إلى ميافارقين فأحضر جلال بن نباتة ليستكتبه، فلما حضر خلع عليه، وأعاده ولم يستكتبه، فعمل لدى الملك الأشرف، وعندما فتح الملك الكامل آمد عام (٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م) استخدم فخر الدين بن لقمان كانت عرصة القمح ونائب ناظر آمد، وكان بهاء الدين زهير كاتب الإنشاء عند الملك الكامل قد استدعى من ناظر آمد بعض الحاجات، فكانت الرسائل ترد إليه بخط ابن لقمان، فأعجب وكثر رجالات الملك الكامل، وقد مر ذكر بعضهم في مواضع مختلفة من الكتاب، ولكني آثرت إبراز شيخ الشيوخ وابن دحية وابن المنذري بتفصيل أكثر لما لهم من أثر كبير في سياسة الملك الكامل واعتماده عليهم[(٢)].

١- **أولاد شيخ الشيوخ**: كان الشيخ صدر الدين من بيت كبير من خراسان، وكان فقيها فاضلًا، وكان له حرمة وافرة عند الملك الكامل، يعتمد عليه في كثير من الأمور، وقد أرسله عام (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م) إلى الخليفة العباسي يستنصره على الفرنج في دمياط، فأصيب بالإسهال وتوفي بالموصل عن أربعة وسبعين عامًا[(٣)]، وخلف الشيخ صدر الدين أربعة أبناء عرفوا بأولاد شيخ الشيوخ وتقدموا عند الملك الكامل، وأثروا في سلوكه؛ إذ كانوا إخوته في الرضاعة[(٤)]، وكانوا يتولون مشيخة الخانقاه سعيد السعداء والتدريس في المدرسة الناصرية التي شيدها الناصر صلاح الدين يوسف عام (٥٦٦هـ/ ١١٧٠م) وكانت بجوار قبر الشافعي بالقرافة، وكذلك التدريس في المشهد الحسيني بالقاهرة، وقد حاز أبناء الشيخ فضيلة السيف والقلم يباشر أحدهم التدريس ويتقدم على الجيش، ويباشر الحرب[(٥)]، وهم: الأمير فخر الدين يوسف، وعماد الدين عمر، وكمال الدين أحمد، ومعين الدين حسن[(٦)].

وكان الأمير فخر الدين يوسف أميرًا عالي الهمة، فاضلًا ومتأدبًا وسمحًا وجوادًا، ومحبوبًا إلى الخاص والعام، خليقًا بالملك لما فيه من الأوصاف الجيدة، وكانت أمه ابنة المظهر بن أبي عصرون وكان الملك الكامل لا يطوي سرًا عن فخر الدين ويثق به ويعتمد عليه، وكان أول أمره معممًا، فألزمه الملك الكامل أن يلبس الشربوشي وزي الجند[(٧)]، فأجابه إلى ذلك، فأقطعه الملك منية السودان بالديار المصرية، ثم طلب منه أن ينادمه فأجابه إلى ذلك، وكان رئيسًا محتشمًا ذا عقل ورأي ودهاء وشجاعة وكرم[(٨)]، وبعث الملك الكامل الأمير فخر الدين يوسف

---

(١) السلوك (١/ ٢٨).
(٢) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٣٣ .
(٣) البداية والنهاية نقلًا عن القدس بين أطماع الصليبيين ص١٣٣ .
(٤) السلوك (١/ ٣٠٢) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٣٣ .
(٥) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٣٣ .
(٦) المصدر نفسه ص١٣٣ .
(٧) فوات الوفيات (٤/ ٣٦٦) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٣٤ .
(٨) شذرات الذهب نقلًا عن القدس بين أطماع الصليبيين ص١٣٤ .

في عدة بعثات؛ فقد أرسله إلى الإمبراطور فردريك الثاني عام (٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م) يستقدمه إلى عكا ليشغل سر أخيه الملك المعظم[١]، وفي عام (٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م) أرسله لتسلم حران والرها وسروج واستشهد في دمياط عام (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م)[٢].

وأما عماد الدين الحسن فكان من أكابر أعيان الدول والمقربين عند الملك الكامل[٣]، وساهم كمال الدين بن شيخ الشيوخ في خدمة الملك الكامل، فقد عين عام (٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م) نائبًا بالجزيرة، ثم عينه الملك الكامل وزيرًا له وخدم الملك الصالح أيوب إلى أن توفي عام (٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م) وقيل: إنه مات[٤] مسمومًا، وخدم معين الدين بن شيخ الشيوخ دولة الملك الكامل، فبعث عام (٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م) إلى الملك المعظم، ثم بعث إلى الخليفة لتوضيح أمر الخلاف بين الكامل والمعظم[٥]، وتولي معين الدين نيابة الوزارة لدى الملك الكامل، ثم تولى الوزارة لدى الملك الصالح أيوب، وتوفي عام (٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م)[٦].

٢- ابن دحية: أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي بن محمد بن فرج بن دحية ولد عام (٥٤٤هـ/ ١١٤٩م)[٧]، كان شيخ الحديث في عهد الملك الكامل، فولاه مشيخة دار الحديث الكاملية، وكان الملك الكامل مقبلًا عليه، ثم أخذ منه دار الحديث وأهانه إذ كان يثلب علماء المسلمين ويقع فيهم ويزيد في كلامه، فترك الناس الرواية عنه وابتعدوا عنه وكذبوه (ت عام ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م)[٨].

٣- الحافظ زكي الدين المنذري: عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله بن سلامة، الإمام العلامة محمد أبو زكي الدين المنذري، كان شافعيًّا، شامي الأصل[٩]، ولد بمصر عام (٥٨١هـ/ ١١٨٥م)، كان شيخ الحديث بمصر مدة طويلة، ولي دار الحديث الكاملية[١٠]، وكانت له اليد الطولى في الفقه واللغة والتاريخ، زاهدًا، وتوفي عام (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، اختصر صحيح مسلم، وسنن أبي داود، وله كتاب الترغيب والترهيب في مجلدين، وكتاب التكملة لوفيات النقلة[١١].

ونلاحظ اهتمام الملك الكامل بالشئون الداخلية لمملكته، فسعى إلى توفير الأمن في البلاد، وحدَّ من نشاطات اللصوص وقطاع الطرق، وشمل برعايته الناس وحاول حل مشاكلهم،

---

(١) السلوك (٥٨/١) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٣٤ .
(٢) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٣٥ .
(٣) المصدر نفسه ص١٣٥ .
(٤) المصدر نفسه ص١٣٥ .
(٥) القدس بين أطماع الصليبيين وتفريط الملك الكامل ص١٣٥ .
(٦) البداية والنهاية نقلًا عن القدس بين أطماع الصليبيين ص١٣٥ .
(٧) وفيات الأعيان نقلًا عن القدس بين أطماع الصليبيين ص١٣٥ .
(٨) النجوم الزاهرة (٢٩٥/٦) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٣٦ .
(٩) البداية والنهاية نقلًا عن القدس بين أطماع الصليبيين ص١٣٧ .
(١٠) الخطط (١٩٧/٣) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٣٧ .
(١١) القدس بين أطماع الصليبيين وتفريط الملك الكامل ص١٣٧ .

وحاول مراقبة العلاقات بينهم، فتدخل لحل خلافات الأقباط ومنع الإسماعيلية من الدعوة لعقيدتهم، وعين بعض أمراء القبائل لضمان السير في ركابه، وعدم مخالفة أمره، واطلع على أحوال الدواوين، وحاول تنظيم سجلاتها ومحاكمة كل من يخون الوظيفة التي يعمل بها، كذلك حاول منع الرشوة والسرقة في الدواوين، وأعاد العمل والنشاط لديوان التحقيق عام (٦١٢هـ/ ١٢٢٧م) . . . ثم إنه ألغى هذا الديوان بعد عامين عندما استقامت الأمو[١]، وعني الملك الكامل بالمرافق العامة التي توفر حياة أفضل للسكان، فمد قنوات الري وشيد دار الحديث وأصلح قبة الشافعي، وأدخل زراعة اليلسا، وركز على إصلاح النظام النقدي في البلاد لتوفير الأموال اللازمة، فحاول تنمية أموال الدولة وحدَّ من تزييف النقود[٢]، وبالرغم من محاولات الملك الكامل السابقة إلا أن الظروف الطبيعية من نقص لمياه النيل في بعض السنوات وكثرة الحروب في عهده ألقت بظلالها على حياة الشعب، فظهرت المجاعات في بعض السنوات، وانتشرت الأوبئة، وتفشت بعض أنواع الفساد؛ كالسخرة، والرشوة والسرقة، وغني عن البيان أن الملك الكامل اعتمد على مجموعة من الرجال الذين أسدوا له النصيحة وقدموا له المشورة في المواقف المختلفة، فكانت لهم اليد الطولى في إدارة البلاد، وتنظيم الدواوين، وتشييد العمران، وإصلاح النظام المالي، ومختلف الشئون[٣].

(١) القدس بين أطماع الصليبيين وتفريط الملك الكامل ص١٣٧ .
(٢) المصدر نفسه ص١٣٧ .
(٣) المصدر نفسه ص١٣٨ .

المبحث الثالث

سياسة الملك الكامل مع الممالك في عصره

ترتَّب على زوال الخطر عن مصر وانحساره في بلاد الشام، أن عاد الأمراء الأيوبيون إلى ما درجوا عليه من صرف أيامهم في المنازعات الداخلية لتحقيق مطامع إقليمية، والواضح أن ما انعقد من التحالف بين أبناء العادل الثلاثة الكامل محمد في مصر، والمعظم عيسى في دمشق، والأشرف موسى في إقليم الجزيرة، لم يدم طويلًا بعد انتصارهم على الحملة الصليبية الخامسة، ولم يلبث أن انفرط عقده في نهاية عام (٦١٩هـ/ ١٢٢٣م) إذ كان المعظم عيسى يخشى من أخويه الكامل محمد والأشرف موسى، ويطمع في حكم مصر والتوسع في إقليم الجزيرة[(١)]، والحقيقة أن الأيوبيين كانوا أحوج إلى الاتحاد في ذلك الوقت منهم في أي وقت مضى، بفعل ظهور خطر جديد هدَّدهم هو خطر الخوارزميين، وقد ظهر ذلك الخطر نتيجة مباشرة لحركة التوسع المغولي[(٢)]، وكان الأشرف موسى أكثر شعورًا بذلك الخطر الخوارزمي لمتاخمة بلاده في الجزيرة وخلاط ممتلكات الخوارزميين في أذربيجان وأرّان وبعض بلاد الكرج وعراق العجم وغيرها، لذلك عمل جاهدًا على إعادة توحيد الأسرة الأيوبية لمجابهته، فقام بزيارة لأخيه المعظم عيسى في دمشق وطلب منه أن يعمل بسرعة على توحيد البيت الأيوبي لمجابهة خطر الخوارزميين المتزايد، الذي بات يهدد أملاك الأيوبيين، ويبدو أن صاحب دمشق لم يأبه لهذا الخطر، وأن كل ما يعنيه هو التوسع على حساب إخوته، لذلك استغل وجود أخيه في دمشق وقبض عليه، وأجبره على التعهد بمساعدته في التوسع شمالًا باتجاه حمص وحماة، ثم في مهاجمة مصر، لكن ما كاد الأشرف موسى يتخلص من قبضة أخيه حتى نقض ما بينه وبين أخيه المعظم عيسى وتأوَّل في أيمانه التي حلفها، بأنه كان مكرهًا عليها، ثم زار مصر دون أن يخبر المعظم عيسى أو يصطحبه معه، وأكّد تحالفه مع أخيه الكامل محمد، وأخبره بكل ما حدث[(٣)].

أولًا: موقف الملك الكامل محمد من الملوك الأيوبيَّة:

كان الملك الكامل محمد قد أضحى آنذاك من النفوذ والسلطان ما جعله يفرض على أمراء الشام بأن يلتزموا الهدوء والسكينة، ولم يخرج عن طاعته إلا المعظم عيسى صاحب دمشق، الذي ظن أن أخاه الأشرف موسى يهدف من وراء هذه الزيارة إلى التحالف مع أخيه الكامل

(١) تاريخ الأيوبيين ص٣٢٤ .
(٢) المصدر نفسه ص٣٢٤، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص٩٢ .
(٣) تاريخ الأيوبيين ص٣٢٤ .

محمد ضده، وشعر بأنه واقع تحت ضغط أخويه، فحرص على أن يثير لهما المتاعب في بلاد الشام وإقليم الجزيرة، فهاجم حماة في عام (٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م) واستولى على بعض أعمالها مثل المعرة وسليمة، وكانت حماة وأعمالها لابن عمه الناصر صلاح الدين قلج أرسلان، مما أثار الأشرف موسى والكامل محمد، فأرسل هذا الأخير إليه يطلب منه الرحيل عن حماة، فتركها وهو[١] حنق، وكان ذلك فاتحة الخلاف بين المعظم عيسى من جهة وأخويه الأشرف موسى والكامل محمد من جهة أخرى، وتحقّقت الآن مخافة من أن أخويه ينويان اقتسام بلاده، وكان يمكن لهذا النزاع أن يبقى محصورًا داخل الأسرة الأيوبية لولا استغاثة الأطراف المتنازعة بقوة خارجية، مما أعطاه بُعدًا إقليميًّا[٢].

١- **أصداء التحالف في الجزيرة**: عندما شعر الملك المعظم بالتقارب بين أخويه، قدَّر أنه سيدفع من مملكته ونفوذه ثمن هذا التقارب، فبدأ يلتمس طُرُقًا للرَّدِّ على تحالف أخويه، وفكَّر الملك المعظم بكُلٍّ من حوله من الملوك وكانت الساحة أمامه كما يلي:

- إخوته الآخرون: معظمهم أصحاب قلاع وبُلدان صغيرة ولا يشكلون إلا قوة تأثير بسيطة ما عدا أخيه المُظفَّر غازي صاحب خِلاط، فاتَّصل به وحسَّن له الخروج على الملك الأشرف.

- ملوك بني أيوب وابن عمِّهم المجاهد، وكانوا كلهم محالفين للأشرف، ويدًا واحدة معه[٣].

- صاحب حلب الملك العزيز محمد طفل صغير ووصيه طغريل متفق بشكل كامل مع الملك الأشرف.

- في حماة الملك الناصر قلج أرسلان متحالف مع الملك الأشرف، الذي يضمن له مُلكه، فقد اغتصب حق أخيه المظفَّر في ملك حماة بعد موت أبيه.

- الملك المجاهد صاحب حمص، كان أفضل حُلفاء الكامل وأقواهم، يُطلعه الكامل على مُراسلاته ويشاوره ولا تنقطع هدايا الكامل إليه[٤].

وأمام هذه الخريطة السياسية للوضع الأيوبي التفت الملك المعظم خارج البيت الأيوبي من أجل تأمين دعم قوي يكسر عنه طوق أخويه من الشمال والجنوب، فامتدت أنظاره إلى مظفر الدين كوكبري بن زين الدين كوجك، صاحب إربل فالمودة بينهما سابقة، وكان كوكبري قد طلب من الملك المعظم عام (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م) إرسال ابنه وولي عهده الناصر داود ليُقيم لديه في

---

(١) المصدر نفسه ص٣٢٤ .
(٢) المصدر نفسه ص٢٣٥ .
(٣) مفرج الكروب (٤/ ١٧٦).
(٤) السلوك للمقريزي (١/ ٢٦٢).

إربل[(١)]، فاعتمد الملك المعظم على وجود ابنه في بلاط المظفَّر وأرسل له عام (٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م) رسولًا يشرح له حال الشام ويعرض عليه التحالف معه، وعاد الرسول بالموافقة، واستطاع الملك المعظم ضم الملك المسعود بن الصَّالح الأرتقي صاحب آمد في التحالف ضد الملك الأشرف[(٢)].

واتفق الملك المعظَّم مع أكبر قوَّة خارجية كانت تتلوح في الأفق الشمالي الشرقي وهي الدولة الخَوَارزمية، فقد راسل السلطان جلال الدين، وخالفه، ونتيجة للخوف من قدوم جلال الدين إلى المنطقة تحركت القُوَّة الخارجية الثانية وهي دولة سلاجقة الرُّوم، فحالف سُلطانها كَيْقُبَاذ الملك[(٣)] الأشرف، واتَّضح في المنطقة معالم حليفين كبيرين؛ الأول دبَّره ورتَّبه الملك المعظَّم وأكبر قوة فيه الدولة الخوارزمية ومعهم مظفر الدِّين صاحب إربل، والمسعود صاحب آمد، والمظفر غازي صاحب خلاط، وأما الحلف الثاني فهو حلف انتظم فيه معارضو الحلف الأوَّل، وفيه -حُكما- الملك الكامل وأخاه الملك الأشرف، وحليف الملك الأشرف القديم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وانضَّم إليهم كيقبُاد سُلطان سلاجقة الروم، بدأ التحرُّك لحلف المعظم، بإعلان المظفر شهاب الدين غازي العصيان على أخيه الملك الأشرف في خلاط، فسار الملك الأشرف وحاصره، وأنزله من قلعتها بالأمان فاستردها منه وأبقى عليه ميّافارقين فقط[(٤)]، وبدأ الصراع المسلح بين الأخوة وكل من أحلافهم وتعقد الوضع السياسي والعسكري في شمال الشام، واتفق الملك الأشرف والملك المُعظَّم على اللقاء وأن يرحل كلٌّ منهما عن الموضع الذي يحاصره، فالتقيا في القريتين وسار الملك الأشرف مع الملك المعظَّم حتى دخلا دمشق[(٥)]، ويبدو من هذه الأحداث وتطوراتها أن الملك الأشرف هو صاحب فكرة الاجتماع قصدًا لقطع مادة الشرِّ[(٦)]، ونتيجة لتطور الأحداث وافق الملك الأشرف أخاه على ما طلبه منه، وعاد الملك الأشرف للجزيرة[(٧)].

٢- وفاة الملك المعظم (٦٢٤هـ): السلطان الملك المُعظَّم بن العادل شرف الدين عيسى بن محمد الحنفيُّ الفقيه صاحب دمشق، وكان مولده بالقصر من القاهرة في سنة ست وسبعين وخمسمائة، ونشأ بدمشق، وحفظ القرآن وبرع في المذهب، وعُني بالجامع الكبير، وصنف له شرحًا كبيرًا بمعاونة غيره، ولازم التاج الكندي وتردَّد إليه إلى درب العجم من القلعة، وتحت إبطه الكتاب، فأخذ عنه كتاب سيبويه، وكتاب الحجة في القراءات، والحماسة، وحفظ عليه

(١) العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٣٧).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٢٣٨).
(٣) مفرج الكروب (٤/ ٢٠٣).
(٤) المصدر نفسه (٤/ ١٣٨).
(٥) العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٤٠).
(٦) مفرج الكروب (٤/ ١٧٩).
(٧) العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٤١).

لإيضاح، وسمع مُسند الإمام أحمد بن حنبل، وله ديوان شعر سمعه منه القوضيُّ فيما زعم، وله مُصَنَّف في العَرُوض، وكان ربما لا يقيم الوزن وكان يتعصَّب لمذهبه، وقد جعل لمن عرض (المُفَصَّل) مائة دينار صُورية ولمن عرض (الجامع الكبير) مائتي دينار[١]، ولما وقف الملك لمعظم على تاريخ بغداد الذي صنفه الشيخ الحافظ أبو بكر أحمد بن ثابت وفيه مطاعن على بي حنيفة رحمه الله رواها الخطيب عن جماعة من المحدثين، رد عليه الملك المعظم في ذلك، وصنف كتابًا سماه (السهم المصيب في الرد على الخطيب) وأجاب الملك المعظم في هذا كتاب عن كل مطعن ذكره بأحسن جواب، وذكر فيه مباحث جليلة دقيقة في الفقه والنحو، وكان الكتاب في غاية الحُسن[٢].

وحج المعظم في سنة (٦١١هـ) وأنشأ البَرك وعمل بمُعان دار مضيف وحمَّامًا، وكان يبحث ويناظر، وفيه دهاء وحزم، وكان يوصف بالشجاعة والكرم والتواضع، ساق مرة إلى الإسكندرية في ثمانية أيام على فرس واحد، واعد القصَّاد وأصحاب الأخبار . . .[٣] وكان يركب وحده مرارًا ثم يلحقه مماليكه يتطاردون، وكان عالمًا بعدة علوم، نفق سوق العلم في أيامه، وقصده لفقهاء، فأكرمهم، وأعطاهم وكان يقول:

اعتقادي في الأصول ما سطره الطحاوي[٤]، ومن جملة ما كتبه الطحاوي في العقيدة لإسلامية السنية:

قال العلامة أبو جعفر الطحاوي المتوفى سنة (٣٢١هـ) وهو من علماء مصر في المذهب لحنفي: هذا ذكر بيان عقيدة أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة؛ أبي حنيفة لنعمان بن ثابت الكوفي، وأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، وأبي عبد الله محمد بن لحسن الشيباني -رضوان الله عليهم أجمعين- وما يعتقدون من أصول الدين، ويدينون به رب لعالمين، نقول في توحيد الله -معتقدين بتوفيق الله- أن الله واحد لا شريك له ولا شيء مثله، ولا شيء يُعجزه، ولا إله غيره، قديم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء، لا يفنى ولا يبيدُ، ولا يكون لا ما يريد، لا تبلغه الأوهام ولا تدركه الأفهام، ولا يشببه الأنام، حي لا يموت، قيوم لا ينام، خالق بلا حاجة، رازق بلا مؤنة، مُميت بلا مخافة، باعث بلا مشقة، ما زال بصفاته قديمًا قبل خلقه، لم يزدَد بكونهم شيئًا لم يكن قَبلهم من صفته، وكما كان بصفاته أزليًّا كذلك لا يزال عليها بديًّا، ليس بعد خلق الخلق اسم الخالق، ولا بإحداث البرية استفاد اسم الباري، له معنى لربوبية ولا مربوب، ومعنى الخالق ولا مخلوق، وكما أنه محيي الموتى بعد ما أحيا استحق

سير أعلام البنلاء (٢٢/ ١٢١).

مفرج الكروب (٤/ ١٢١).

(٣) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ١٢١).

(٤) المصدر نفسه (٢٢/ ١٢١).

هذا الاسم قبل إحيائهم، كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم، ذلك بأنه على كل شيء قدير، وكل شيء إليه فقير، وكل أمرٍ عليه يسير، لا يحتاج إلى شيء ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

خَلقَ الخَلْق بعلمه، وقدَّر لهم أقدارًا وضرب لهم آجالًا، ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم، وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته، وكل شيءٍ يجري بتقديره ومشيئته، ومشيئته تنفيذ لا مشيئة للعباد إلا ما شاء لهم، فما شاء لهم كان وما لم يشأ لم يكن، يهدي من يشاء ويعصم ويعافي فضلًا، ويضل من يشاء ويخذل ويبتلي عدلًا، وكلهم يتقلَّبون في مشيئته بين فضله وعدله، وهو متعالٍ عن الأضداد والأنداد، ولا رادَّ لقضائه ولا معقِّب لحكمه ولا غالب لأمره، آمنَّا بذلك كله وأيقنَّا أن كلًّا من عنده، وأن محمدًا عبده المصطفى ونبيه المجتبى، ورسوله المرتضى، وأنه خاتم الأنبياء وإمام الأتقياء وسيد المرسلين، وحبيب رب العالمين، وكل دعوى النبوة بعده فغيٌّ وهوى، وهو المبعوث إلى عامة الجن وكافة الورى بالحق والهدى، وبالنور والضِّياء، وأن القرآن كلام الله منه بدا بلا كيفية قولًا، وأنزله على رسوله وحيًا، وصدقه المؤمنون على ذلك حقًّا، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوف ككلام البريَّة، فمن سمعه وزعم أنه كلام البشر فقد كفر، وقد ذمَّه الله وعابه وأوعده بسقر حيث قال تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ [المدثر: ٢٢٦]، فلما أوعد الله بسقر لمن قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثر: ٢٥] عَلِمنا أنه قول خلق البشر ولا يُشبه قول البشر، ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر، فمن أبصر هذا اعتبر، وعن مثل قول الكفار انزجر، وعلم أنه بصفاته ليس كالبشر.

والرؤية حق لأهل الجنة، بغير إحاطة ولا كيفية كما نطق به كتاب ربنا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وتفسيره على ما أراده الله تعالى وعَلِمه، وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن الرسول ﷺ فهو كما قال ومعناه على ما أراد، لا ندخل في ذلك متأوِّلين بآرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا، فإنه ما سَلِم في دينه إلا من سلَّم لله عز وجل ولرسوله، وردَّ علمَ ما اشتبه عليه إلى عالمه، ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام، فمن رام علم ما حُظر عنه علمه، ولم يقنع بالتسليم فهمُهُ، حَجَبهُ مرامُهُ عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة، وصحيح الإيمان، فيتذبذب بين الكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب، والإقرار والإنكار، موسوسًا تائها، زائغًا شاكًّا، لا مؤمنًا مصدقًا، ولا جاحدًا مكذبًا، ولا يصح الإيمان بالرؤية لأهل دار السَّلام لمن اعتبرها منهم بوهم أو تأولها بفهم؛ إذ كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية ترك التَّأويل ولُزوم التسليم وعليه دين المسلمين، ومن لم يتوقَّ النَّفي والتشبيه زلّ ولم يُصِب التَّنزيه، فإن ربنا عز وجل موصوف بصفات الوحدانية،

منعوت بنعوت الفردانية، ليس في معناه أحد من البريَّة، وتعالى عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات، لا تحويه الجهات السِّتُ كسائر المبتدعات.

والمعراج حق وقد أسرى النبيَّ ﷺ وعُرج شخصه في اليقظة إلى السماء، ثم إلى حيث شاء الله من العُلا، وأكرمه الله بما شاء وأوحى إليه: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [النجم: ١١] فـﷺ في الآخرة والأولى، والحوض الذي أكرمه الله تعالى به غياثًا لأمته حقٌّ، والشفاعة التي ادَّخرها لهم حق كما رُويَ في الأخبار، والميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم وذريته حَقٌّ، وقد علم الله تعالى فيما لم يزل عدد من يدخل الجنة، وعدد من يدخل النار جملة واحدة، فلا يزاد في ذلك العَدَدُ ولا ينقص منه، وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه، وكُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِق له، والأعمال بالخواتيم، والسعيد من سعد بقضاء الله، والشقي من شقى بقضاء الله، وأصل القدر سر الله في خلقه لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسلِّم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك نظرًا وفكرًا ووسوسة، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مَرَامه، كما قال الله تعالى في كتابه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

فمن سأل: لِمَ فعل؟ فقد ردَّ حكم الكتاب، ومن ردَّ حكم الكتاب كان من الكافرين، فهذا جملة ما يحتاج إليه من هو منوَّر قلبه من أولياء الله تعالى، وهي درجة الراسخين في العلم؛ لأن العلم علمان: علم في الخَلْقِ موجود، وعلم في الخَلْقِ مفقود، فإنكار العلم الموجود كفر، وادِّعاء العلم المفقود كُفْر، ولا يثبت الإيمان العلم الموجود وترك طلب العلم المفقود، وبجميع ما فيه قد رُقم، فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى فيه أَنَّهُ كائن، ليجعلوه غير كائن لم يقدروا عليه، ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى فيه ليجعلوه كائنًا لم يقدروا عليه، جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، وما أخطأ العبد لم يكن ليُصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه، وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه، فقدَّر ذلك تقديرًا مُحكمًا مُبرمًا، ليس فيه ناقض ولا معقب ولا مزيل ولا مغيِّر ولا ناقصٌ ولا زائد من خلقه في سماوته وأرضه، وذلك من عقد الإيمان وأصول المعرفة، والاعتراف بتوحيد الله تعالى وبربوبيته، كما قال تعالى في كتابه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] فويل لمن صار لله تعالى في القدر خصيمًا، وأحضر للنظر فيه قلبًا سقيمًا، لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سرًّا كتيمًا، وعاد بما قال فيه أفاكًا أثيمًا، والعرش والكرسي حق محيط بكل شيء وفوقه، وتقول: إن الله اتَّخذ إبراهيم خليلًا وكلَّم الله موسى تكليمًا، إيمانًا وتصديقًا وتسليمًا [١].

(١) جامع شروح العقيدة الطحاوية نقلت منه المتن.

ونؤمن بالملائكة والنبيين والكتب المنزلة على المرسلين، ونشهد أنهم كانوا على الحق المبين، ونُسمِّي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين، ما داموا بما جاء به النبي ﷺ معترفين، وله بكل ما قال وأخبر مصدِّقين، ولا نخوض في الله ولا نماري في دين الله، ولا نجادل في القرآن، ونشهد أنه كلام ربِّ العالمين، ونزل به الروح الأمين فعلمه سيِّد المرسلين محمدًا ﷺ، وهو كلام الله تعالى لا يساويه شيء من كلام المخلوقين، ولا نقول بخلقه ولا نخالف جماعة المسلمين، ولا نكفِّر أحدًا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله، ولا نقول: لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله، نرجو للمحسنين من المؤمنين أن يعفو عنهم، ويدخلهم الجنَّة برحمته، ولا نأمن عليهم، ولا نشهد لهم بالجنة ونستغفر لمسيئهم، ونخاف عليهم ولا نقنِّطهم، والأمن والإياس ينقلان عن ملة الإسلام[١] وسبيل الحقِّ بينهما لأهل القبلة، ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه، والإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان[٢] ، وجميع ما صحَّ عن رسول الله ﷺ من الشرع والبيان كُلُّه حقٌّ، والإيمان في أصله واحد وأهله في أصله سواء[٣]، والتفاضل بينهم بالخشية ومخالفة الهوى، وملازمة الأولى.

والمؤمنون كلهم أولياء الرحمان وأكرمهم عند الله أطوعهم وأتبعهم للقرآن، والإيمان هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرِّه وحُلْوِه ومرِّهِ من الله تعالى، ونحن مؤمنون بذلك كله لا نفرق بين أحد من رسله، ونصدِّقهم كلهم على ما جاءوا به، وأهل الكبائر من أمة محمد ﷺ في النار لا يخلدون، إذا ماتوا وهم موحِّدُون وإن لم يكونوا تائبين، بعد أن لقوا الله عارفين مؤمنين، وهم في مشيئته وحكمه إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله، كما ذكر عز وجل في كتابه: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] وإن شاء عذبهم في النار بعدله، ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته، ثم يبعثهم إلى جنته، وذلك بأن الله تعالى تولى أهل معرفته ولم يجعلهم في الدارين كأهل نُكرته الذين خابوا من هدايته ولم ينالوا من هدايته، اللهم يا ولي الإسلام وأهله ثبتنا على الإسلام حتى نلقاك به.

ونرى الصلاة خلف كل بَرٍّ وفاجر من أهل القبلة وعلى من مات منهم، ولا نُنزلُ أحدًا منهم جنة ولا نارًا، ولا نشهد عليهم بكفر ولا بشرك ولا بنفاق ما لم يظهر منهم شيء من ذلك، ونذر سرائرهم إلى الله تعالى ولا نرى السيف على أحد من أمة محمد ﷺ إلا من وجب عليه السيف، ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا، ولا ندعو عليهم ولا ننزع يدًا من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة ما لم يأمُرُوا بمعصية، وندعو لهم

(١) من جامع شروح العقيدة الطحاوية، مجموعة من العلماء.

(٢) الإيمان: الإقرار باللسان والتصديق بالجنان والعمل بالأركان.

(٣) الحقيقة أن أهل الإيمان متفاوتون تفاوتًا عظيمًا .

بالصَّلاح والمعافاة، ونتَّبعُ السنة والجماعة ونجتنب الشُّذوذ والخلاف والفرقة، ونحب أهل العدل والأمانة ونبغض أهل الجور والخيانة، ونقول: الله أعلم فيما اشتبه علينا علمه، ونرى المسح على الخفين في السفر والحضر كما جاء في الأثر، والحج والجهاد ماضيان مع أولي الأمر من المسلمين، بَرِّهِم وفاجرهِم إلى قيام الساعة، ولا يُبطلهما شيء ولا ينقضهما، ونؤمن بالكرام الكاتبين، فإن الله قد جعلهم علينا حافظين، ونؤمن بملك الموت الموكَّل بقبض أرواح العالمين، وبعذاب القبر لمن كان له أهلًا، وسؤال منكر ونكير في قبره عن ربه ودينه ونبيِّه، على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله ﷺ، وعن الصحابة -رضوان الله عليهم- والقبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران.

ونؤمن بالبعث وجزاء الأعمال يوم القيامة، والعرض والحساب، وقراءة الكتاب والثَّواب والعقاب والصراط والميزان، والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبدًا، ولا تبيدان، وإن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق وخلق لهم أهلًا، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلًا منه، ومن شاء منهم إلى النار عدلًا منه، وكل يعمل لما قد فُرغ له، وصائر إلى ما خُلق له، والخير والشَّرُّ مَقدَّران على العباد[1].

وجاء في العقيدة الطحاوية: ونُحبُّ أصحاب رسول الله ﷺ، ولا نُفرِط في حب أحدٍ منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان، نثبت الخلافة بعد رسول الله ﷺ أولًا لأبي بكر الصديق رضي الله عنه تفضيلًا له وتقديمًا على جميع الأمة، ثم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم لعثمان رضي الله عنه، ثم لعليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وهم الخلفاء الراشدون والأئمة المهديُّون، وإن العشرة الذين سمَّاهم رسول الله وبشَّرهم بالجنة نشهد لهم بالجنة على ما شهد لهم رسول الله ﷺ وقوله الحقُّ؛ وهم أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح وهو أمين هذه الأمة رضي الله عنهم أجمعين.

ومن أحسن القول في أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه الطاهرات من كل دنس وذرياته المقدسين من كل رجس؛ فقد برئَ من النفاق، وعلماء السَّلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر، وأهل الفقه والنّظر، لا يُذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل[2]، ولا يفضل أحدًا من الأولياء على أحدٍ من الأنبياء عليهم السَّلام، ونقول: نبيٌّ واحد أفضل من جميع الأولياء، ونؤمن بما جاء من كراماتهم، وصحَّ عن الثقات من رواياتهم، ونؤمن بأشراط الساعة؛ من خروج الدَّجَّال ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام من

(١) جامع شروح العقيدة الطحاوية لمجموعة من العلماء أخذت من كتاب متن الطحاوية.

(٢) جامع شروح العقيدة الطحاوية لمجموعة من العلماء أخذت من متن الطحاوية.

السماء، ونؤمن بطلوع الشمس من مغربها، وخروج دابة الأرض من موضعها، ولا نصّدق كاهنًا ولا عرَّافًا، ولا من يدَّعي شيئًا يخالف الكتاب والسنة وإجماع الأمَّة، ونرى الجماعة حقًّا وصوابًا، والفرقة زيغًا وعذابًا، ودين الله في الأرض والسماء واحد، وهو دين الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وهو بين الغلو والتقصير، وبين التشبيه والتَّعطيل، وبين الجبر والقدر، وبين الأمن واليأس، فهذا ديننا واعتقادنا ظاهرًا وباطنًا، ونحن براء إلى الله من كلِّ من خالف الذي ذكرناه وبيَّناه[(١)] لعقيدة أهل السنة.

وكتابه في هذا الباب قد وضع الله له قبولًا إلى يومنا هذا، وكان الملك المعظم ممن تأثروا بالعقيدة الطحاوية واعتقدها ودعا إليها.

٣- مرحلة الوفاق الأيوبي والاعتراف بسلطنة الكامل: بدأت بوفاة المعظم عام (٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م) وأخذ الأشرف دمشق وتسليمه بعض مدن الجزيرة للكامل عام (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، لم يكن الناصر داود بن المعظَّم مؤهَّلا مثل والده، فبعد أن خلفه في حكم مملكة دمشق عرض عليه الأشرف الانضمام إلى حلف الشَّام ضد الكامل، فأبى، وانحاز إلى الكامل[(٢)]، لكنَّ الكامل كشف سريعًا عن أطماعه بدمشق وسار نحوها عام (٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م)، فاستنجد داود بعمِّه الأشرف، فسارع إليه مع المجاهد، ولكنهما بدل دُخول دمشق أو الإقامة حولها للدفاع عنها، التقيا بالكامل وعقدا مؤتمر العوجا الذي تقرَّر فيه نزع دمشق من داود وتسليمها للأشرف مقابل تسليم الأشرف للكامل عدَّة بُلدان في الجزيرة منها: الرقة، والرُّها، وغيرها[(٣)].

وتمتاز هذه المرحلة بنزوع الأشرف إلى حياة الترف والدعة بدمشق، وتحوُّل القُوَّة الكُبرى في الجزيرة من الأشرف إلى الكامل، الذي كانت مشكلته مع الجزيرة هي مشكلة المسافة والبُعد عنها، وغالبًا ما كانت تسبقه الأحداث بها، وكان الكامل قد أرسل إلى فريدرك بعده بالقدس إن يحضر لنصرته ضدَّ أخيه الملك المعظَّم، ولكنَّ أيام الملك المعظم لم تطل، فقد توفي (٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م) وخلفه ولده النَّاصر داود في دمشق، ممَّا سهل مهمَّة الملك الأشرف والكامل في أخذ مملكته، ففي سنة (٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م) تحرَّك الكامل من مصر، وأرسل داود يستدعى الملك الأشرف من بلاده الشرقيَّة . . ودخل الملك الأشرف دمشق، فأعجب بها، وعمل في الباطن على انتزاعها لنفسه[(٤)]، بينما وثق داود بالملك الأشرف لمَّا خدعه بعذوبة لسانه، فَسيَّره إلى الملك الكامل، معتمدًا في إصلاح أموره عليه، فلم يألُ جهدًا أن ساق الحصار[(٥)].

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) مفرج الكروب (٥/ ١٢٥).

(٣) الكامل في التاريخ نقلًا عن العلاقات الدولية (١/ ٢٤١).

(٤) السلوك المقريزي (١/ ٢٥٠) العلاقات الدولية (١/ ٢٤١).

(٥) الفوائد الحلية، الأمجد حسين بن داود ص٢١٩، العلاقات الدولية في الحروب الصليبية (١/ ٢٤٢).

وفي عام (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) تسلَّم الملك الأشرف دمشق وأعطى للكامل -عوضًا عنها- حرَّان والرُّها، ورأس عين، والرقَّة والموزر، وبذلك دخل الكامل عالم الجزيرة الشاميَّة من أوسع أبوابه، وأصبح القوة السياسيَّة والعسكرية الأكبر في البلاد الجزرية، بعد أن تخلَّى الملك الأشرف له عن مواقعه بها، ويبدو أن الملك الأشرف اقتنع بدمشق، واشتغل باللهو والملاذ[1]، وفي عام (٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م) تمكن خوارزم شاه من دخول خلاط بخيانة من القائد المكلَّف بحراسة أحد الأبواب، ولحنقه من المقاومة الشرسة التي واجهته فعل بأهلها ما يفعله التَّتر[2]، فقتل كُلَّ من وجد في البلد وسبى عسكُرهُ الحريم وباعوا الأولاد كما يُفعل بالكفرة[3]، وبلغ الملك الأشرف أخذ الخوارزميين خلاط وهو بدمشق، فخرج على وجهه، حتى أتى الرقَّة ثم سار إلى حرَّان، وكتب إلى حلب والموصل والجزيرة، فجاءته العساكر ورحل يُريد الروم[4]، واتفق مع كيُقباذ سُلطان سلاجقة الروم وتمكَّنا من هزيمة جلال الدين الخوارزمي واسترجع الملك الأشرف خلاط عام (٦٢٨هـ/ ١٢٣١م) وبعد استرجاع خِلاط وكف شر الخوارزمي بالاتفاق معه، والحلف القديم مع الرُّومي، وجد الملك الأشرف أن الوقت قد صفا له، فتخلَّى عن الجزيرة ومشاكلها للكامل وتفرَّغ للهوه وملذَّاته بدمشق[5]، مفسحًا المجال لأخيه الكامل للتحرُّك في الشام والجزيرة، ومحاولة تحقيق مشروعه الكبير بضمِّ الشام إلى مصر وتشكيل مملكة واحدة منهما تحت حكمه[6]، ولم تمتد ممتلكات الكامل من مصر حتى الجزيرة، وحسب بل اعترف به جميع ملوك بني أيُّوب سُلطانًا أعظم عليهم، ومرجعًا للبيت الأيوبي دون أن يخرج أيُّ منهم عن طاعته، وتحقَّق بذلك القسم الأوَّل من مشروع الكامل، وهو ضَمُّ الشَّام إلى مصر تحت حكمه، وهذا الحُلم كان يراود كُلَّ من شعر بتفوقه من ملوك بني أيوب.

ولتحقيق كامل المشروع تحرَّك الكامل بقوَّاته من مصر عام (٦٢٩هـ-١٢٣١م) بعد أن مهَّد لنجاح مشروعه بسلسلة من المصاهرات ربط بها من يخشى معارضتهم من الملوك الأيوبية، فقد زوَّج ابنته فاطمة خاتون من الملك العزيز صاحب حلب، كما زوج الكامل ابنته الأخرى غازية خاتون من الملك المظُفَّر صاحب حماة، وفي طريقه مرَّ بالكرك فعقد لصاحبها ابن أخيه النَّاصر داود بن المعظَّم على ابنته الثالثة عاشوراء خاتون، وغطَّى الكامل تحركه العسكري بإظهار هدف يُمكن قبوله في الشَّام، ويُسوّغ به خُروجه بهذه القوة، فقد أعلن أنَّه يريد انتزاع آمد من يد ملكها المسعود بن الصَّالح محمود، وكانت آمد مع قوَّة حُصونها لا تستحق هذا الجمع العسكري الهائل الذي وصل مع الكامل والذي قال عنه ابن واصل في أحداث (٦٣١هـ/ ١٢٣٤م) ما يلي:

---

(١) المختصر (٣/ ١٤٧) العلاقات الدولية (١/ ٢٤٢).
(٢) المختصر (٣/ ١٤٦) العلاقات الدولية (١/ ٢٤٢).
(٣) مفرج الكروب (٤/ ٢٩٤) العلاقات الدولية (١/ ٢٤٢).
(٤) كنز الدُّرر، ابن آيبك (٧/ ٢٩٩) العلاقات الدولية (١/ ٢٤٣).
(٥) المختصر (٣/ ١٤٧) العلاقات الدولية (١/ ٢٤٣).
(٦) العلاقات الدولية (١/ ٢٤٣).

شاهدت مع العساكر وكثرتها ما غلب على ظني أنه لم يجتمع مثله في الأعصار القريبة منَّا لملك من الملوك[(١)]، وحاصر الكامل مدينة آمد بقوات هائلة الحجم والفعالية، وهاجمتها العساكر، ونقبت الأسوار، فطلب أهلها الآمان، فأجابهم الكامل[(٢)]، ونزل صاحبها إلى الكامل، فاعتقله وسجنه في حصن كيفا[(٣)]، وسلَّم الكامل آمد لابنه الصالح أيوب ليكون نائبًا عنه فيها[(٤)]، ورتَّب معه الطواشي شمس الدين صواب العادلي؛ لأنَّه كان من أكابر الخدم العادلية، وأوثقهم عنده وجعل إليه النقض والإبرام في جميع الأمُور والملك الصالح معه صورة[(٥)].

وقرَّر الكامل تنفيذ الجزء الثاني من مشروعه الكبير وذلك بالهجوم على دولة سلاجقة الروم واحتلالها لنقل إقطاعات ملوك الشام الأيوبية إليها، وضمَّ الشام بشكل كامل إلى مصر بدولة واحدة وملك واحد، لكن يبدو أن حسابات الكامل كانت غير دقيقة، فإمَّا أنَّه قد بالغ في ثقته بنفسه بالسيطرة الكاملة على الملوك الأيُّوبية أو سوء تقديره لقوَّة خصمه الرُّومي، وبالأخص لطبيعة بلاده وحصانتها واتساعها[(٦)].

٤- **حلف الشام ضد السلطان الكامل والانقسام الأيوبي**: قيل: إنه كان في معسكر الكامل ستَّة عشر دهليزًا لستة عشر ملكًا[(٧)]، لكنَّ كُلَّ ذلك لم يغنِ الكامل فيروي لنا الأمجد بن الملك الناصر داود ما حصل بين الملوك الأيوبية بقوله: إلَّا أن الكامل -فيما بلغني- كان قد تفوَّه بما وعز صدور أهله عليه وسدَّد بالتخاذل إليه وذلك أنه قال: أريد أن أجعل البلاد سفقتين، فأضم الشام إلى مصر وأعوِّض ملوكه في الروم فَحذَّر كل منهم مفارقة إلفه، وخشي أن يكون في مناصرته كالباحث عن حتفه بظلفه، فخبرت أن المجاهد انتصب لهذه القضية، فكان ابن بجدتها وشيخ، فاجتمع بوالدي وبالملك الأشرف وجماعة من الملوك والجند، فحذرهم عاقبة التغرير، وقرَّر معهم أن الحزم كُلَّ الحزم في التلكُّؤ والتقصير، فتنسم الملك الكامل الأخبار، وطار تخيُّله منهم كُلَّ مطار[(٨)].

ويبدو أن السلطان الكامل قد شعر باختلاط الأوراق، بعد علمه بانتشار إشاعة نقل الملوك الأيوبية إلى أرض الروم بعد أخذها، وأيقن أن مشروعه بات في مهب الريح... وبعد أمور جرت تراجع الكامل لأنه يرَى المقارعة بأنصار قد تفرَّقت عزماتهم[(٩)]، ولم يستطع الكامل فعل شيء مع الملك المجاهد المدبِّر الحقيقي للتحرك ضدَّه، ولا مع الأشرف أقوى ملوك الشام،

---

(١) مفرج الكروب (٥/ ٧٤) العلاقات الدولية (١/ ٢٤٥).
(٢) العلاقات الدولية (١/ ٢٤٥).
(٣) المصدر نفسه (١/ ٢٤٥).
(٤) أخبار الأيوبيين لابن العميد نقلًا عن العلاقات الدولية (١/ ٢٤٦).
(٥) مفرج الكروب (٥/ ٣٤) العلاقات الدولية (١/ ٢٤٦).
(٦) العلاقات الدولية (١/ ٢٤٦).
(٧) مفرج الكروب (٥/ ٧٥، ٧٦).
(٨) الفوائد الجلية، الأمجد حسن بن داود ص٢١٨ .
(٩) مفرج الكروب (٥/ ٧٧ ، ٨١) العلاقات الدولية (١/ ٢٥١).

فصبَّ جام غضبه على الناصر داود، ويصف ذلك الأمجد بن الناصر داود بقوله: ورتَّب قوات تلك المملكة على سعي والدي، فعدَّ عليه أكبر ذنب، فلمَّا فارقه من دمشق آذنه بحرب[1]، وألزمه بطلاق ابنته عاشوراء فطلَّقها[2]، وبدا على الساحة وكأن الأمور قد انعكست على سعي الكامل الذي خرج يطلب بلاد الرُّوم ومعه كل ملوك بيته فعاد، وقد انقلبوا عليه جميعًا، وأرسلوا يطلبون منه عدم الخروج إلى الشام[3].

وبعث الملك الأشرف إلى أخيه الكامل: إنَّا قد اتفقت كلمتنا ونطلب منك ألا تخرج من مصر، ولا تنزل الشام وتحلف لنا على ذلك[4]، فلما قرأ الملك الكامل رسالة أخيه الأشرف أجابه: أنتم اتفقتم، فلم تطلبوا مني اليمين، احلفوا لي أنتم ألا تقصدوا بلادي، ولا تتعرضوا لشيء مما في يدي، وأنا أوافقكم على ما تطلبون[5]، وأضاف أبكاني اختلاف ملوك الإسلام، وأضحكني كوننا الجميع مشايخ، وما بقي لنا فسحة في الأجل نحتمل القال والقيل[6]، وبما أن خيوط اللعبة السياسية منوطة بشخص الملك في الدُّول الأيوبية فقد كانت تتداخل الأمور، وقد يحدث انهيار سياسي وعسكري بحال وفاة الملك، فلا تُوجد مُؤسَّسات سياسيَّة أو عسكرية تتابع نهج الملك، الذي كان كخيط السبحة التي ينظم حبَّاتها، فإذا انقطع تبعثرت، وهذا ما حدث في الشام عندما تُوفي الملك الأشرف بدمشق عام (٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م)[7].

٥- وفاة الملك الأشرف (عام ٦٣٥هـ): صاحب دمشق السلطان الملك الأشرف مظفر الدين أبو الفتح موسى شاه أرمن ابن العادل، وسمع (الصحيح) في ثمانية أيام من ابن الزبيدي، تملك القدس أولًا، ثم أعطاه أبوه حرَّان والرُّها وغير ذلك، ثم تملَّك خِلاط، وتنقلت به الأحوال، ثم تملَّك دمشق بعد حصار الناصر بها، فعدل وخفَّف الجَورَ، وأحبته الرَّعية، وكان فيه دين وخوف من الله على لعبه، وكان جوادًا، سمحًا، فارسًا شجاعًا لديه فضيلة[8].

(أ) حُسن خلقه وجميل عشرته: قال ابن واصل: كان ملكًا جوادًا مفرط السخاء، يطلق الأموال الجليلة، حتى قيل: إنه كان يصل إليه الحمل الذي فيه المال المستكثر فيطلقه لأحد الحاضرين عنده، ولم نسمع أن أحدًا من الملوك والعظماء بعد آل برمك فعل فعله في التوسع في العطاء والكرم، ونقل عنه مع ذلك من حسن الخُلق وجميل العشرة لأصحابه ما لم ينقل مثله عن أحد من الملوك المتقدمين، فحكى لي بعض من كان يصحبه قال: أُهدي إليه يومًا خيار في أول باكورته وأنا عنده، فوضعه بين يديه وشرع في تقشيره واحدة بعد واحدة، وكلما قشر واحدة

---

(١) الفوائد الجلية ص٢١٩، العلاقات الدولية (١/ ٢٥١).
(٢) أبو الفداء (٣/ ١٥٥) العلاقات الدولية (١/ ٢٥١).
(٣) شفاء القلوب ص٣١٧، العلاقات الدولية (١/ ٢٥١).
(٤) مفرج الكروب نقلًا عن القدس بين أطماع الصليبيين ص١٧٣.
(٥) القدس بين أطماع الصليبيين وتفريط الملك الكامل ص١٧٣.
(٦) النجوم الزاهرة (٦/ ٢٩٧).
(٧) ذيل الروضتين نقلًا عن العلاقات الدولية (١/ ٢٥١).
(٨) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ١٢٣).

أكلها حتى أتى على ذلك الخيار الذي أُهدي إليه، وكان عدده قليلًا، ثم أمر لمن أتاه بذلك الخيار بخمسمائة درهم فأخذها وانصرف قال: فعجبنا من كونه لم يؤثر أحدًا من الحاضرين بشيء منه، وكانت عادته أنه إذا أُتي بشيء أكل بعضه وآثر الحاضرين ببقيته، فلما لم يفعل هذا ذلك اليوم، وخالف عادته تعجبنا منه، فلما فرغ منه قال: هل علمتم ما السبب في أني لم أعطكم من هذا الخيار شيئًا؟ فقلنا: لا، فقال: والله ما قشرت منه واحدة إلا ووجدتها مُرَّة، فما أمكنني أن أذكر ذلك، ولا أن أرمي منه واحدة لئلّا ينكسر قلب الذي جاء به، فكنت كلما تطعمت بواحدة التزمت أكلها حتى أتيت على الجميع(١).

(ب) **ميمون النقيبة، مظفر في حروبه**: كان ميمون النقيبة، سعيدًا إلى الغاية، مظفرًا في حروبه ومصافاته، تأتيه السعادة وتواتيه بما لا يكون في حسابه ولا حساب أحد من الخلق، ووقعت له من ذلك أشياء خارقة لم يتفق مثلها لغيره؛ منها أنه قدم إلى خلاط زائرًا لأخيه الملك الأوحد، عائدًا له من مرضه، فأقام عنده إلى أن أبلَّ من مرضه ودخل الحمام فأراد الأشرف أن ينصرف إلى بلاده، فقال له طبيب الملك الأوحد: أقم الليلة فإن الملك الأوحد ميت لا محالة، فأقام تلك الليلة، واتفق موت الملك الأوحد، واستولى على مملكة خلاط جميعها، ومن مصافاته التي نُصر فيها أنه كسر عسكر الموصل على بُوشْره وكان جمع صاحب الموصل أكثر من جمعه بكثير، وخرج سلطان الروم في جمع عظيم ومعه الملك الأفضل بن صلاح الدين مقدرًا في نفسه أنه يملك الشام والشرق جميعه ويستولى على ممالك بني أيوب، فقصده الملك الأشرف، فانكسر سلطان الروم بمقدم عسكر الملك الأشرف وبعض الجند، وولى سلطان الروم منهزمًا لا يلوي على شيء واستعاد منه الملك الأشرف كل ما أخذ من البلاد وأعطى الملك الأشرف كل ما فتحه للملك العزيز صاحب حلب لم يأخذ منه لنفسه شيئًا، ولحسن سيرته التجأ إليه صاحب الموصل وصاحب حماة وصاحب حمص وذبَّ عن الجميع وحماهم(٢).

(ج) **حسن العقيدة، جميل الطوية**: كان رحمه الله حسن العقيدة، جميل الطوية، يميل إلى أهل الصلاح والدين والعلم ويكره الفتن والعصبية في المذاهب(٣)، وكان للأشرف ميل إلى المحدثين والحنابلة، قال ابن واصل: وقعت فتنة بين الشافعية والحنابلة بسبب العقائد، قال: وتعَصَّب الشيخ عز الدين بن عبد السلام على الحنابلة.. وجرى بسبب ذلك خطب طويل وأوجب فرط العصبية من الشيخ عز الدين أن كتب إلى الملك الأشرف أن باب السلامة لما حضر الملك الأفضل والملك الظاهر دمشق، والملك العادل محصور بدمشق، فتحه بعض الحنابلة المحاصرين حتى أوجب ذلك هجومهم إلى البلد، وقصد عز الدين بذلك إيذاء الحنابلة

(١) مفرج الكروب (٥/ ١٤٠).
(٢) مفرج الكروب (٥/ ١٤١).
(٣) المصدر نفسه (٥/ ١٤١).

وإغراء الملك الأشرف بهم، ولم يكن هذا حسنًا من عز الدين ولا أعجب الملك الأشرف بل غاظه عليه، وكتب في جواب ورقة: يا عز الدين، الفتنة نائمة فلعن الله مثيرها، وأما حديث باب السلامة فالأمر فيه كما قال الشاعر:

وجُرم جرَّه سفهاء قوم ... فحل بغير جارمه العذاب[١]

(خ) **صدقات دارَّة، ومعروف كثير**: وكانت له رحمه الله صدقات دارَّة، ومعروف كثير جدًّا، وبنى بدمشق دار الحديث النبوي، ووقف عليها وقفًا جليلًا، وذكر الدرس فيها الشيخ العلامة تقي الدين ابن الصلاح رحمه الله إمام وقته في مذهب الشافعي والحديث النبوي، وهدم الملك الأشرف خانًا بالعقيبة[٢] يعرف بخان ابن الزنجيلي كان تباع فيه الخمور ويعلن فيه بارتكاب الفواحش، فطهَّره من ذلك وبنى موضعه جامعًا تقام فيه الصلوات الخمس، ويصلي فيه الجميع، وجاء في غاية الحسن وسماه جامع التوبة، ووقف عليه ووقفا جليلًا، وأمر بإقامة الجميع في جامع خارج باب الصغير يقال له: مسجد الجراحي[٣].

(س) **أين الحياء والكرم والمروءة؟** قال ابن كثير: وكان من أعفِّ الناس وأحسنهم سيرة وسريرة، لا يعرف غير نسائه وجواريه مع أنه كان يُعاني الشراب، وهذا من أعجب الأمور[٤]، وحكى السِّبط عنه قال: كنت يومًا بهذه المنظرة من خلاط إذ دخل الخادم فقال: بالباب امرأة تستأذن: فدخَلت فإذا صورة لم أرَ أحسن منها، وإذا هي ابنة الملكِ الذي كان بخِلاط قبلي، فذكرت أن الحاجب عليًا قد استحوذ على قرية لها، وأنها قد احتاجت إلى بيوت الكراءِ، وأنها تتقُوتُ من عمل النُّقُوش للنَساءِ فأمرت بردِّ ضَيعتها إليها وأمرت لها بدار تسكُنُها، وقد كنت قمت لها حين دخلت وأجلستها بين يدي، وأمرتها بستر وجهها حين أسفرت عنه ومعها عجوز، فحين قضيت شُغلها قلت لها: انهضي على اسم الله تعالى، فقالت العجوز: يا خَوَنْدُ، إنما جاءت لتحظى بخدمتك هذه الليلة، فقلت: معاذ الله لا يكون هذا، واستحضرت في ذهني ابنتي ربما يصيبها نظير ما أصاب هذه فقامت وهي تقول: سترك الله مثل ما سترتني، وقلت لها: مهما كان لك من حاجة فأنهيها إليَّ أقضيها لك، فدعت لي وانصرفت، فقالت لي نفسي: ففي الحلال مندوحة عن الحرام، فتَزَوَّجْها، فقلت: والله لا كان هذا أبدًا، أين الحياء والكرمُ والمروءة[٥]؟

(و) **استحييتُ من الله أن أعارض شرعه بحظ نفسي**: قال: ومات مملوك من مماليكي، وترك ولدًا ليس يكون في الناس بتلك البلاد أحسن شبابًا ولا أحلى شكلًا منه، فأحببته وقربته وكان من لا يفهم أمري يتهمني به، فاتَّفق أنه عدا على إنسان فضربه حتى قتله، فاشتكى عليه

---

(١) المصدر نفسه (٥/ ١٤٢).
(٢) العقيبة من أحياء دمشق المعروفة اليوم.
(٣) مفرج الكروب (٥/ ١٤٣).
(٤) البداية والنهاية (١٧/ ٢٣٢).
(٥) المصدر نفسه (١٧/ ٢٣٣).

أولياء المقتول، فقلت: أثبتوا أنه قتله، فأثبتوا ذلك، وحاجفت عنه مماليكي، وأرادوا إرضاءهم بعشر ديات، فلم يقبلوا، ووقفوا لي في الطريق وقالوا: قد أثبتنا أنه قتله، فقلت: خُذوه فتسلموه فأخذوه فقتلوه، ولو طلبوا مني مُلكي فِداءً لدفعته إليهم، ولكنني استحييت من الله تعالى أن أعارض شرعه بحظّ نفسي[١].

(ك) اهتمامه بالحديث والتفسير والفقه: لما ملك دمشق في سنة ستٍّ وعشرين وستمائة نادى مناديه بها: أن لا يشتغل أحدٌ من الفقهاء بشيء من العلوم سوى الحديث والتفسير والفقه، ومن اشتغل في المنطق وعلوم الأوائل نُفي من البلد، وكان البلد به في غاية الأمن والعدل وكثرت الصدقات والخيرات، وكانت القلعة لا تُغلق في ليالي رمضان كلها وصُحونُ الحَلاوات خارجة منها إلى الجامع والخوانق والرُّبط والصالحية، إلى الصالحين والفقراء والرُّؤساء وغيرهم وكان أكثر جلوسه بمسجد أبي الدرداء الذي حدَّده وزخرفه بالقلعة[٢].

(هـ) خاتمة حسنة: اشتد مرض الملك الأشرف في أول سنة (٦٣٥هـ) وأخذت قواه في الضعف والانحلال بسبب ما تواتر عليه من الاستفراغ، فحكي أنه اشتهى لحم عجل فأُحضر إليه وتناول منه مقدارًا لم تفِ قواته الهاضمة بهضمه، وكان هذا في آخر مرضه وأسرف به القيام، ووقع اليأس منه[٣] واختلفت عليه الأدواء حتى كان الجرائحيُّ يُخرج العظام من رأسه وهو يُسبِّحُ الله عز وجل، فلما كان آخر السنة تزايد به المرض واعتراه إسهال مفرط، فخارت قوته، فشرع في التَّهيُّؤ للقاء الله تعالى، فأعتق مائتي غلام وجاريه، ووقف دار فرخشاه التي يقال لها: دار السعادة وبستانه بالنَّيْرب على ابنته وتصدق بأموال جزيلة، وأحضر له كفنًا كان قد أعدَّه من ملابس الفقراء والمشايخ الذين لقيهم من الصالحين[٤] وكان في مرضه قد أقبل على الابتهال إلى الله تعالى والاستغفار من ذنوبه وخطياه وأكثر من ذكر الله تعالى والإلتجاء إليه ولم يزل هذه حاله[٥] إلى أن توفي تائبًا من ذنبه مستغفرًا لما سلف من ذنوبه، وكان آخر كلامه: لا إله إلا الله[٦]، ولما توفي رآه بعضهم في المنام وعليه ثيابٌ خُضرٌ، وهو يطير مع جماعة من الصالحين، فقالوا له: ما هذا وقد كنت تعاني الشَّراب في الدنيا؟ فقال: ذاك البدن الذي كنا نفعل به ذاك عندكم في الدنيا، وهذه الروح التي كنا نُحبُّ بها هؤلاء فهي معهم[٧] وعلق كثير على ذلك فقال: صدق رحمه الله، قال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحبَّ»[٨].

(١) المصدر نفسه (١٧/ ٢٣٣).
(٢) البداية والنهاية (١٧/ ٢٣٤).
(٣) مفرج الكروب (٥/ ١٣٧).
(٤) البداية والنهاية (١٧/ ٢٣١).
(٥) مفرج الكروب (٥/ ١٤٤).
(٦) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ١٢٧).
(٧) البداية والنهاية (١٧/ ٢٣٤).
(٨) البخاري رقم (٦١٦٨)، مسلم رقم (٢٦٤٠).

ثانيًا: علاقة الملك الكامل مع الخوارزميين:

قامت الدولة الخوارزمية في إقليم خوارزم، ويرجع نسب أمرائها إلى مملوك تركي اسمه أنوشتكين الذي كان واليًا على خوارزم في عهد السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي، وتولى ابنه قطب الدين محمد بعد وفاة والده أنوشتكين ولقب خوارزم شاه؛ أي ملك خوارزم، وقد نجح ابنه علاء الدين في كسب ثقة السلطان سنجر السلجوقي، إلا أنه استطاع الاستقلال بمملكته عن الأخير بعد حروب طاحنة انتصر فيها على السلاجقة، وبذلك استقل اتسيز بن قطب الدين محمد بن أنوشتكين في ولاية خوارزم عن السلطان السلجوقي سنجر عام (٥٣٨هـ/ ١١٤٣م) وأصبح يسمى خوارزم شاه، واعترف به الخليفة العباسي، وأرسل إليه الخلع والتشريفات[١].

وتابع خلفاء اتسيز توسيع دولتهم، فشملت بخارى والري وخراسان[٢]، وتطلع الخوارزميون للسيطرة على الخليفة العباسي فطلب علاء محمد بن تكيش الدين خوازم شاه من الخليفة أن يذكر اسمه في الخطبة بدلًا من السلاجقة عام (٦١٣هـ/ ١٢١٦م) ولكن الخليفة العباسي أبى، فزحف علاء الدين على بغداد، ولكنه تراجع لمواجهة الغزو المغولي لبلاده، وقدم الملك خوارزم شاه إلى همذان بقصد بغداد في ٤٠٠ ألف مقاتل عام (٦١٤هـ/ ١٢١٧م)، فاستعد الخليفة الناصر لدين الله، وفرَّق المال والسلاح وأرسل إليه الشيخ شهاب الدين السهروردي في رسالة فأهانه وأوقفه إلى جانب تخته ولم يأذن له بالجلوس[٣]، وحاول خوارزم شاه إقامة علاقة ودية مع الأيوبيين أملًا في تكوين حلف لمواجهة المخاطر التي تتعرض لها بلاده، فأرسل عام (٦١٥هـ/ ١٢١٨م) مبعوثًا إلى الملك العادل وهو في مرج الصفر[٤] وأوفد الملك العادل سفارة إلى خوارزم شاه من خطيب جامع دمشق جمال الدين محمد الدولعي، وقاضي العسكر نجم الدين خليل بن علي الحنفي، ولكنهما لم يلتقياه لسفر خوارَزم شاه إلى همذان، فاجتمعا بولده هلال الدين وشاءت الظروف أن يموت الملك العادل عام (٦١٥هـ/ ١٢١٨م) قبل أن تتبلور العلاقة بين الدولتين[٥].

١- **علاقة السلطان جلال الدين الخوارزمي والملك المعظم:** فرضت الظروف على الملك المعظّم البحث عن حليف يدعمه لمعاندة أخويه الملكين الكامل والأشرف، فوجد ضالته في جلال الدين خوارزم شاه الذي كان في حاجة إلى حلفاء يدعمونه في تحقيق أهدافه لمواجهة المغول، والسيطرة على الخلافة العباسية، فأرسل المعظم مبعوثًا إلى خوارزم بحجة استقدام

---

(١) الدولة الخوارزمية ص١٦ نافع العود.
(٢) النجوم الزاهرة (٦/ ٢١٩) القدس بين أطماع الصليبين ص١٩٥ .
(٣) المصدر نفسه.
(٤) مرج الصفر: اسم مكان بدمشق. معجم البلدان (٤/ ٤٨٨).
(٥) القدس بين أطماع الصليبين وتفريط الملك الكامل ص١٩٦ .

بعض الطيور التي تأكل الجراد (تسمي السمرمر) لمكافحة الجراد الذي غزا دمشق[١] ، لكي لا يثير شكوك أخويه بتقربه إلى السلطان جلال الدين، وكان قصده ترتيب لقاء مع الأخير[٢] ، وعندما استولى خوارزم شاه على أذربيجان عام (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م) بعث رسولًا إلى ملوك الأيوبيين؛ الكامل والأشرف والمعظم لإقامة علاقات ودية معهم، وكسبهم كحلفاء له ضد المغول، واستغل الملك المعظم مبادرة جلال الدين الودية السابقة، فأرسل إليه وفدًا يعرض عليه التحالف وصاحب إربل ضد أخيه الأشرف[٣] ، إلا أن ملوك الأيوبيين مع سلاجقة الروم تصدوا للخوارزميين وأطماعهم -كما مرَّ معنا- ودخلوا معهم في معارك طاحنة كانت لصالح الملك الكامل الأيوبي.

٢- **الصلح بين الكامل والخوارزميين**: اتفق الملك الكامل وأخوه الأشرف على الصلح مع الخوارزميين، وعندما عاد جلال الدين الخوارزمي إلى أذربيجان، ترددت الرسل بينه وبين الملك الأشرف وسلطان الروم، وجاء في رسالة الأشرف نيابة عن الملك الكامل: إن سلطانك سلطان الإسلام والمسلمين وسندهم والحجاب دونهم ودون التتر، وغير خافٍ علينا ما تم على حوزة الإسلام، . . . ونحن نعلم أن ضعفنا ضعف للإسلام، فهلا ترغب جمع الكلمة لنا وأحسن سبيلًا، وأقوم فيه . . . وها أنا ضامن السلطان من جهة علاء الدين كيقباذ، وأخي الملك الكامل ما يرضيه من الإنجاد والإسعاد، والنيات على حالتي بالقرب والبعاد، والقيام بما يزيل عارض الوحشة، ويمحو سمعة الفرقة[٤]، وما إن تمَّ الصلح بين الجانبين حتى تعرض الخوارزميون لخطر التتر، فطلب جلال الدين المساعدة من الحكام المسلمين ولكنهم لم يستجيبوا لطلبه، بل تركوه وحيدًا أمام عدو جبار حتى لقي مصرعه عام (٦٢٨هـ/ ١٢٣١م)[٥] .

٣- **علاقة الكامل مع القبائل الخوارزمية بعد سقوط دولتهم**: هامت جموع الخوارزميين بعد احتلال التتر لبلادهم في كثير من البلدان، ولم يعد في ميسورهم العودة، فأخذوا يعرضون خدماتهم على حكام المسلمين[٦] ، فاستخدم الخليفة المستنصر بالله قسمًا منهم، وخدم قسم آخر لدى سلطان سلاجقة الروم[٧] ، إلا أنهم استاءوا منه وفارقوه، واستقروا في الجزيرة حول الرُّها وحرَّان، فاستمالهم الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل، واستأذن والده في استخدامهم فأذن له بذلك، وتقوى بهم وسُرَّ الملك الكامل بذلك[٨] واختلف الخوارزميون على الملك الصالح أيوب عام (٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م)، وأرادوا القبض عليه فهرب إلى سنجار،

---

(١) المصدر نفسه ص١٩٦ .
(٢) المصدر نفسه ص١٩٦ .
(٣) المصدر نفسه.
(٤) سيرة السلطان جلال الدين ص٣٣٣ .
(٥) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٠٠ .
(٦) السلوك (١/ ٣٤٨).
(٧) التاريخ المنصوري للحموي ص٢٥١، القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٠٠ .
(٨) النجوم الزاهرة (٦/ ٢٧٧).

وترك أثقاله وخزائنه، فنهبوا كل ما يملك، فقدم إليه بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل للقبض عليه؛ لأنه كان على عداء مع الملك الكامل وحاول الملك الصالح نجم الدين أيوب الصلح مع بدر الدين لؤلؤ ونسيان الماضي، ولكن الأخير قال: لا بد من حمل الصالح بن الكامل في قفص، فاستنجد الصالح بالخوارزمية ثانية، وكانوا في حران، فساقوا جريدة منها، وكسبوا لؤلؤ ونهبوا أمواله وخزائنه وكل ما كان في عسكره[١]، وهكذا عاد الخوارزميون لخدمة الملك الصالح نجم الدين، فأحسن الاستفادة منهم، وتمكن من من احتلال سنجار وخابور ونصيبين[٢]، وعندما علم الملك الكامل بذلك سُرَّ بما حقق ابنه[٣].

ثالثًا: علاقة الملك الكامل مع سلاجقة الروم:

حرص السلطان علاء الدين على إقامة علاقة ودية مع الملوك الأيوبيين ووقف الأعمال العدوانية التي كانت في عهد أخيه على بلاد الشام بموافقة صاحب آمد، وبالتعاون مع الملك الأفضل علي بن صلاح الدين قبيل وفاته[٤]، وقدم رسول السلطان علاء الدين بهدية لكل من الملك المعظم والملك الكامل، فلم يقبل الملك المعظم هذه التقدمة، وتابع الرسول سيره إلى مصر لمقابلة الملك الكامل حيث استقبله بحفاوة[٥]، ويعتقد أن رفض الملك المعظم لهدية علاء الدين كيقباذ كان سببها العلاقة الطيبة بين جلال الدين الخوارزمي والمعظم، فيما كانت علاقة الخوارزمي بعلاء الدين سيئة، وكان قد احتل الملك عز الدين كيكاوس السلجوقي سلطان الروم تل باشر، ووصل إلى منبج نكاية بالملك الكامل، وباتفاق مع الملك الأفضل على أمل أن تسلم هذه الأراضي إلى الملك الأخير، إلا أن كيكاوس نكث بالاتفاق وسلم ما فتحه لنوابه، فتقاعس عنه كثير من الناس، وأوقع العرب بطائفة من عسكره، وقتلوا قسمًا منهم، فعاد إلى بلاده وتحسنت علاقة الملك الكامل مع سلاجقة الروم بعد وفاة الملك الأفضل، إلا أنها ركدت بعد ذلك بقليل حيث انشغل سلاجقة الروم في حرب أهلية بين أفراد الأسرة الحاكمة[٦]، وانشغل الملك الكامل في مواجهة الملك المعظم ثم ابنه الناصر داود[٧].

١- **دعم الملك الكامل للسلاجقة الروم:** علم الملك السلجوقي علاء الدين كيقباد بالاتفاق الذي تمَّ بين جلال الدين الخوارزمي وصاحب أرزن[٨] الرومي على حصار خلاط، فخاف ملك السلاجقة على بلاده وأرسل يطلب العون من الملك الكامل والملك الأشرف حيث كانا بحران يتدبران وسيلة لمواجهة خوارزم شاه الذي يحاصر مدينة خلاط عام (٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م) قدم رسول

(١) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٠١ .
(٢) السلوك (١/ ٢٩٩) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٠١ .
(٣) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٠١ .
(٤) التاريخ المنصوري ص١٢١، القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٠٣ .
(٥) مفرج الكروب (٤/ ٣٠) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٠٣
(٦) السلوك (١/ ٢٢٥) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٠٤ .
(٧) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٠٤ .
(٨) صاحب أرزن هو ابن عم السلطان علاء الدين كيقباد وأرزن مدينة في أرمينيا. مفرج الكروب (٤/ ٢٩٨).

السلطان السلجوقي وقال له: إنه جهز ٢٥ ألفًا لأذربيجان وعشرة آلاف إلى ملطية، وأنا حيث تأمر[١] فطاب قلب السلطان الكامل وأرسل الملك الكامل لأخيه الأشرف عام (٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م) فحضر ومعه عساكر الشام والجزيرة، وسار بنفسه إلى سيواس[٢]، واجتمع بالسلطان علاء الدين كيقباد، فاتجها إلى خلاط وسرعان ما انهزم خوارزم شاه ورحل إلى أذربيجان، وتابع السلطان السلجوقي علاء الدين الهجوم على أرزن فاحتلها، وأسر صاحبها واستولى على خزائنها[٣]، وتنكر السلطان السلجوقي لاتفاقه مع الملك الكامل وانخدع بالانتصار الذي حققه على الخوارزميين بمساعدة العساكر الأيوبيين، فحاول عام (٦٣١هـ/ ١٢٣٣م) التوجه إلى خلاط للاستيلاء عليها[٤]، وعندما علم الكامل بما يخطط له علاء الدين قرر وقفه عند حده وكان قد عاد إلى مصر عام (٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)[٥].

٢- **الاتفاق بين الملك الكامل والملك الأشرف:** اتفق الملك الكامل مع الملك الأشرف على الحدِّ من أطماع سلطان سلاجقة الروم ومحاولة انتزاع بعض أراضي دولته عقابًا له[٦]، وخرج الملك الكامل من القاهرة بعسكره، واستناب بها ابنه الملك العادل أبا بكر، فوصل دمشق، وكتب إلى ملوك بني أيوب يأمرهم بالتجهيز للسير بعساكرهم إلى بلاد الروم، ولما سمع الملوك الأيوبيون بالخطر الذي يتهددهم انضموا إلى الجيش المتجه إلى أراضي السلاجقة[٧] ولم يجتمع مثلهم قبل للملك الكامل[٨]، وقد مرَّ معنا ما حدث من خلاف في البيت الأيوبي وتفرق كلمتهم وشك الملوك الأيوبيين في نيات الملك الكامل بامتلاك بلاد الشام، فاتفقوا على عدم القتال، وبعد أمور ومعاركة حدثت بين الكامل وسلاجقة الروم أدرك الملك الكامل عقم الاستمرار في حربه مع سلاجقة الروم، فعرض الصلح على سلطان الروم، فاستجاب الأخير لذلك، وأحسن معاملة المظفر وأطلق سراحه، واحتفظ بخرتبرت، ومنح صاحبها إقطاعًا في بلاد الروم بدلًا منها[٩]، وعاد الملك الكامل إلى مصر عام (٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م)، وقد ازداد خلافه مع أخيه الملك الأشرف، واستغل السلطان الرومي اختلاف الأيوبيين وانفرط وحدتهم، فأخذ يتوسع في الأراضي الأيوبية، فاحتل حرَّان والرُّها وسروج في عام (٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م)[١٠].

٣- **توسع الملك الكامل في الشرق:** علم الملك الكامل بعدم التزام السلطان علاء الدين بالاتفاق الذي عقده معه، فلم يطق لذلك صبرًا، وحشد قواته، وانطلق بعساكره من مصر عام

---

(١) السلوك (١/ ٢٧٧) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٠٤.
(٢) سيواس: حاضرة دولة سلاجقة الروم.
(٣) مرآة الزمان (٨/ ٦٦١) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٠٥.
(٤) مفرج الكروب نقلًا عن القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٠٥.
(٥) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٠٥.
(٦) المصدر نفسه ص٢٠٥.
(٧) السلوك (١/ ٢٨٧) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٠٥.
(٨) مفرج الكروب (٥/ ٧٤) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٠٥.
(٩) القدس بين أطماع الصليبيين وتفريط الملك الكامل ص٢٠٧.
(١٠) المصدر نفسه ص٢٠٧.

(٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م) مصطحبًا الملك الأشرف والملك المجاهد والملك المظفر، فعبروا نهر الفرات إلى الشرق فنازل الرُّها حتى أخذها وأسر منها الكثير من الأمراء، وهدم قلعتها، ثم هاجم حرَّان واستولى عليها، وأسر كل عساكر السلطان علاء الدين الموجودين هناك[١] وكذلك أمراءهم ومقدميهم، ثم استرجع سروج من يد السلطان السلجوقي، وانطلق الملك الكامل نحو دنيسر، فخربها وسلم البلاد الشرقية لابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب[٢]، وتابع الملك الكامل توسعه، فامتلك قلعة السويداء، عنوة، وأسر من بها، ونقل جميع الأسرى إلى مصر، وبعث نواب السلطان كيقباد مقيدين إلى القاهرة، فاستقبح الأخير ذلك منه، ثم سافر إلى دمشق فقضى بعض الوقت ضيفًا عند أخيه الأشرف، وأخيرًا عاد إلى مصر، فاستقبل هناك رسول الخليفة محي الدين يوسف بن الجوزي، فأرسله الملك الكامل ومعه الحافظ زكي الدين عبد المنعم إلى السطان علاء الدين كيقباد صاحب الروم، ولكن الأخير توفي قبل اجتماعه برسول الملك الكامل[٣]، وتولى غياث الدين كيخسرو بن علاء الدين السلطنة عام (٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م) فبعث إليه ملوك الشام رسلهم يعزونه في أبيه ويحلفونه على ما اتفقوا عليه مع والده على مخالفة الملك الكامل[٤]، فوافق وأكد استمراره على سياسة والده، وأرسل الملك الكامل بعثة على رأسها أفضل الدين محمد الخونجي تعزي السلطان السلجوقي غياث الدين بوالده ومعه هدية له[٥]، غير أن الأخير استمر في تحالفه مع الملوك الأيوبيين، لذلك سمح الملك الكامل لابنه الملك الصالح نجم الدين باستخدام الخوارزميين الذين خرجوا على السلطان السلجوقي لمواجهة عداء الأخير، بل إنه تمكن من احتلال لسنجار ونصيبين والخابور بهم، ولم يقف العداء السلجوقي للملك الكامل، واستمروا في الاعتداء على الحدود وتمادوا في عدائهم عندما تدخلوا في شئون الأيوبيين الداخلية، فدعموا الملك الصالح إسماعيل عام (٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م) لدى مهاجمة الكامل دمشق لانتزاعها، وقد أدى ذلك إلى خلافات داخلية في البيت السلجوقي، فضعفت دولتهم وتعرضت لهجمات المغول المستمرة إلى أن استولوا عليها[٦].

رابعًا: علاقة الملك الكامل مع الأراتقة:

استمرت العلاقات بين الملك الكامل والإمارات الأرتقية على ما كانت، وذلك ببقاء العلاقة الودية مع صاحب آمد وحصن كيفا، فيما كانت العلاقات مع ماردين ضعيفة؛ إذ اكتسب صاحب آمد ناصر الدين أرسلان ثقة الملك الأشرف بسبب ما قدم له من خدمات[٧]، أما ماردين فقد كانت تنصب العداء الكامن للملك الكامل بسبب محاصرته لها فيما مضى، لذلك أصبحت ملجأ

---

(١) النجوم الزاهرة (٦/ ٢٩٣).
(٢) السلوك (١/ ٢٩١) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٠٧.
(٣) المختصر ص(٣/ ١٥٩) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٠٨.
(٤) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٠٨.
(٥) السلوك (١/ ٢٩٥) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٠٨.
(٦) السلاجقة في التاريخ ص٩١.
(٧) مرآة الزمان (٨/ ٦٢٧).

لمن يعادي الأيوبيين، فلجأ إليها الأمير مبارز الدين الصلاحي (٦١٨هـ/ ١٢٢١م)[١]، ومع هذا لعبت المصالح الشخصية والمنافع الإقليمية دورًا كبيرًا في تغيير هذه السياسة، فقد حاولت إمارتا حصن كيفا وماردين إضعاف الوجود الأيوبي في الشرق، فأعانتا شهاب الدين غازي ابن الملك العادل لدى تمرده على أخيه الملك الأشرف، كذلك اتصل هذان الأميران بجلال الدين خوارزم شاه، وأعلنا طاعتهما له[٢]، فهاجم الملك الأشرف ماردين وضربها بالمجانيق وضيق الخناق على أهلها، ومنع دخول الطعام إليها، فطلب صاحبها الصلح[٣].

١- الكامل يزحف على المنطقة الشرقية عام (٦٢٩هـ): بدأ الملك الكامل علاقات جديدة مع الأراتقة بعد عام (٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م)؛ إذ امتلك الشرق من أخيه، فأصبح اتصاله بأمراء الأراتقة مباشرًا وفعالًا بعد ما كان هامشيًّا وثانويًّا فاتجه الكامل إلى الشرق، وولى كمال الدين بن شيخ الشيوخ نائبًا له بالجزيرة المتمثلة بحران والرقة وسروج ورأس العين[٤]، وتمكن الملك الكامل من فرض سيطرته على هذه المنطقة، فأعلن أصحابها ولاءهم له، فقامت إمارة ماردين بالخطبة، وضربت السكة باسمه[٥]، وبذلك اتسع نفوذ الملك الكامل.

٢- سيطرة الملك الكامل على إمارة حصن كيفا وآمد: استأذن الملك الكامل الخليفة العباسي المستنصر بالله عام (٦٢٩هـ/ ١٢٣١م) في مهاجمة آمد، وانتزعها من الملك المسعود ركن الدين مودود الأرتقي، فأذن له الخليفة بذلك[٦]، وقد تجمعت عدة أسباب جعلت الملك الكامل يهاجم هذه الإمارة منها:

- كان الملك المسعود ظالمًا يسعى لإشباع شهواته، وسيئ السمعة يتعرض لحريم الناس، وكانت له عجوز قواده تؤلف بينه وبين نساء أكابر الناس والملوك والأمراء[٧].

- خرج الملك المسعود على طاعة الملك الكامل، وانتمى إلى جلال الدين خوارزم شاه، وخطب له في بلاده آمد[٨].

- أساء الملك المسعود إلى زوجة أبيه إساءة كبيرة وهي ابنه الملك العادل وأخت الكامل، فخرجت من عنده، وقصدت أخاها الملك المظفر شهاب الدين غازي في ميافارقين، وشكت إليه أمرها، فكتب الأخير إلى أخويه الملك الكامل والملك الأشرف بذلك.

- رغبة الملك الكامل في توسيع نفوذه لمواجهة خطر التتر[٩]، اجتاز الملك الكامل والأشرف نهر الفرات ونزلا على آمد عام (٦٢٩هـ/ ١٢٣٢م) وضربا عليه الحصار ونصبا

---

(١) البداية والنهاية نقلًا عن القدس بين أطماع الصليبيين ص٢١٠ .
(٢) الكامل في التاريخ نقلًا عن القدس بين أطماع الصليبيين ص٢١٠ .
(٣) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢١٠ .
(٤) النجوم الزاهرة (٦/ ٢٣٣).
(٥) التاريخ المنصوري ص١٨١ .
(٦) الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص١٨٣ عماد الدين.
(٧) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢١١ .
(٨) المصدر نفسه ص٢١١ .
(٩) الإمارات الأرتقية ص٢١١، القدس بين أطماع الصليبيين ص٢١١ .

المجانيق، فبعث الملك المسعود الأرتقي إلى الملك الكامل يستعطفه، ويبذل له ولأخيه الأشرف فرفض الاستجابة له[(١)]، وجدَّ الملك الكامل في حصار آمد، ومنع عنها الطعام، فضعفت المقاومة، وعندئذ أحس الملك المسعود الأرتقي بأنه لا مفر له من تسليم آمد، لا سيما بعد ما وجد أن الأهالي يؤيدون الملك الكامل ويكرهون حكمه، فقرر التسليم[(٢)]، وتسلم الملك الكامل أجبر الملك المسعود على الإيعاز لعساكره بتسليم الحصن في عام (٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)[(٣)]، ورتب نوابه في آمد، فولى شمس الملوك سيف الإسلام ابن الملك الأعز شرف الدين بن صلاح الدين، إلا أن الأخير توفي بعد أسبوعين تقريبًا[(٤)]، فعين شهاب الدين غازي واتفق مع سلطان الروم على تسليم آمد وعزله وأمر بحبسه[(٥)]، ثم ولى الملك الكامل ابنه الملك الصالح نجم الدين ووضع معه شمس الدين العادلي إلى سنة (٦٣٣هـ/ ١٢٣٥) عام وفاة الأخير حيث استقل الملك الصالح بحكم البلاد الشرقية[(٦)]، ورحل الملك المسعود الأرتقي إلى مصر فأقام هناك، وأعطاه الملك الكامل إقطاعًا، إلا أنه تآمر على حياة الملك الكامل وكاتب الروم في هلاك الملك الكامل[(٧)]، فاعتقل وبقي في السجن إلى أن توفي الملك الكامل، فأطلق الملك العادل بن الكامل سراحه، ولكن المغول قتلوه وهو في طريقه إلى الشرق[(٨)].

٣- **تحالف صاحب ماردين والسلاجقة:** وقف صاحب ماردين من الملك الكامل موقفًا عدائيًا بعد سقوط آمد وحصن كيفا؛ إذ استغل ضعف الملك الصالح نجم الدين أيوب نائب الملك الكامل في المنطقة الشرقية، فقد كان صبيًا تعوزه القوة والدراية والخبرة، فبادر صاحب ماردين إلى التحالف مع كيقباد سلطان سلاجقة الروم، وقاما بهجوم شديد على حرَّان والرُّها والرقة واستولوا عليها عام (٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م)، وقد ذكرت سابقًا أن الملك الكامل اضطر لمهاجمة الأراضي السلجوقية لعدم التزام صاحبها الاتفاق بينهما، أما صاحب خرتيرت الأرتقية فقد وقف بجانب الكامل في حربه مع سلاجقة الروم[(٩)] واستمر عداء ماردين للأيوبيين بعد وفاة الملك الكامل[(١٠)].

خامسًا: علاقة الملك الكامل باليمن:

عامل الأيوبيون أهل اليمن معاملة طيبة، فكسبوا ودهم، مما أدى إلى استقرار الأوضاع مدة من الزمن، وتوالي عدد من الأيوبيين على حكم اليمن، إلا أن أوضاع البلاد اضطربت في عهد

---

(١) السلوك (١/ ٢٤٣) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢١٢.
(٢) مفرج الكروب (٥/ ١٧) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢١٢.
(٣) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢١٢.
(٤) المصدر نفسه ص٢١٢.
(٥) المصدر نفسه ص٢١٢.
(٦) المصدر نفسه ص٢١٢.
(٧) المصدر نفسه ص٢١٢.
(٨) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢١٣.
(٩) المصدر نفسه ص٢١٣.
(١٠) المصدر نفسه ص١٨٨.

الملك المعز إسماعيل بن طغتكين في أواخر القرن السادس الهجري؛ إذ كان الملك يميل إلى اللهو والعبث، وكان فيه هوج، فادَّعى أنه قرشي، وأنه من بني أمية ولبس الخضرة، وثياب الخلافة، ودعا بالخلافة إلى نفسه[(١)]، ففقد الملك المعز إسماعيل ثقة الناس، وخرج عليه بعض المماليك، واغتالوه عام (٥٩٨هـ/ ١٢٠١م) فتولى عرش اليمن أخوه الملك الناصر بن طغتكين، وكان صغير السن، فتولى أتابك والده سيف الدين سنقر الوصاية عليه، وتدبير شئون البلاد، ولكن الأخير توفي بعد أربع سنوات، فتولى سليمان بن سعد الدين شاهنشاه الملك بعد ما تزوج أم الملك الناصر بن طغتكين[(٢)]، فملأ سليمان البلاد بالجور والظلم وكثرت الفتن في اليمن[(٣)].

١- احتلال الملك المسعود اليمن: عندما سمع الملك الكامل بالفوضى التي تعم أرجاء اليمن، واضطراب الأوضاع فيها، أرسل ابنه الملك المسعود الملقب أفسيس في جيش كثيف إلى اليمن، وكتب إلى الأمير شمس الدين علي بن رسول وإلى سائر الأمراء المصريين في البلاد يأمرهم بحسن صحبة الملك المسعود والقيام بخدمته[(٤)]، وصل الملك المسعود مكة عام (٦١١هـ/ ١٢١٤م) وحج فيها ثم اتجه إلى مدينة زبيد باليمن فاحتلَّها عام (٦١٢هـ/ ١٢١٤م)، ونزل بالدار السلطانية، وما لبث أن سيطر على تعز وصنعاء، وسائر أنحاء اليمن، وظفر بصاحبها الملك سليمان شاه بن سعد الدين شاهنشاه ابن الملك تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب، فأرسله تحت الحراسة إلى مصر، فعاش في القاهرة إلى أن استشهد أثناء جهاده الصليبيين في معركة المنصورة التي حدثت أثناء الحملة الصليبية السابعة على دمياط[(٥)]، والتي قادها الملك الفرنسي لويس عام ٦٤٧(هـ/ ١٢٥٠م)، عين الملك المسعود بعد فتحه اليمن نوابًا ليساعدوه، فولى بدر الدين بن رسول على صنعاء، ونور الدين بن رسول على تعز[(٦)].

٢- زيارة الملك المسعود لأبيه: لم تضعف الأحداث السابقة التي مرت بالملك المسعود علاقته مع والده الملك الكامل، ومما يؤكد على حسن العلاقة بنيهما، تفكير الملك الكامل نفسه بالهرب إلى اليمن عندما حاول ابن المشطوب خلعه عن الحكم[(٧)]، وكذلك الزيارات المستمرة التي كان يقوم بها الملك المسعود لمصر، وكثرة الهدايا التي كان يحملها لوالده، وقد اتجه الملك المسعود في عام (٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م) لمصر حاملًا معه عددًا كبيرًا من الهدايا، والتحف الثمينة[(٨)]، وقد عين نائبًا له على اليمن، نور الدين عمر بن رسول في زبيد وأخاه بدر الدين في صنعاء[(٩)]، ومكث في مصر مدة طويلة، واستطاع بهيبته أن يقيم حرمة وافرة لأبيه،

---

(١) المصدر نفسه ص١٨٨ .
(٢) المصدر نفسه ص١٨٨ .
(٣) العقود اللؤلؤية للخزرجي (١/ ٣٠)، القدس بين أطماع الصليبيين ص١٨٨ .
(٤) المصدر نفسه.
(٥) السلوك (١/ ٢٤٩)، القدس بين أطماع الصليبيين ص١٨٩ .
(٦) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٨٩ .
(٧) مرآة الزمان (٨/ ٦٠٢) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٩٠ .
(٨) التاريخ المنصوري ص٩٧، القدس بين أطماع الصليبيين ص١٩٠ .
(٩) المختصر (٣/ ١٤٦)، القدس بين أطماع الصليبيين ص١٩٠ .

فخافه الأمراء والجند، وذكر أن المسعود ذهب إلى القلعة ذات يوم فرأى بعض الأمر يلبسون الشرابيش[١]، فأنكر عليهم ذلك، وقال: إذا كنتم أنتم تلبسون الشرابيش، والسلطان يلبس الشربوش فبأي شيء يتميز عنكم السلطان ويعرف منكم، والله لا أعود أرى أحدًا منكم في دار السلطان أو موكبه من يلبس شربوشًا إلا ضربت عنقه[٢]، فلم يجرؤ أحد بعد ذلك على لبس شربوس في حضرة السلطان[٣].

٣- وفاة الملك المسعود بن الكامل: استدعى الملك الكامل ابنه الملك المسعود عام (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) ليوليه دمشق بعد وفاة الملك المعظم، فسار الملك المسعود من اليمن قاصدًا مصر من طريق مكة، وفي الطريق مرض مرضًا مزمنًا، فوصل مكة وقد أفلج، ويبست يداه ورجلاه[٤]، وما لبث أن مات، فدفن في المعلى قرب مكة المكرمة[٥]، وقد ذكر الذهبي عنه بأنه: . . كان شهمًا شجاعًا زعرًا ظلومًا، وقمع الزيدية والخوارج[٦]، وقال ابن العماد: ونادى مرَّة في بلاد اليمن: من أراد السفر من التجار إلى الدِّيار المصرية والشامية صحبة السلطان فليتجهز، فجاء التجار من السِّند والهند بأموال الدنيا والجواهر، ولما تكاملت المراكب بزبيد قال: اكتبوا لي بضائعكم لأحميها من الزكاة، فكتبوها له، فصار يكتب لكل تاجر برأس ماله إلى بعض بلاد اليمن، ويستولي على ماله، فاستغاثوا وقالوا : فينا من له عن أهله سنين، فلم يلتفت إليهم، فقالوا: خذ مالنا وأطلقنا، فلم يلتفت إليهم أيضًا، فعبَّأ ثقله في خمسمائة مركب ومعه ألف خادم ومائة قنطار عنبر وعود ومسك، ومائة ألف ثوب، ومائة صندوق وأموال وجواهر، وركب الطريق إلى مكة، فمرض مرضًا مزمنًا، فوصل إلى مكَّة وقد أفلج ويبست يداه ورجلاه، ورأى في نفسه العبر، ثم مات فدفنوه في المُعلى، وضرب الهواء بعض المراكب فرجعت إلى زبيد، فأخذها أصحابها[٧]. وقال الذهبي: ولما احتضر قال: والله ما أرضى من مالي كفنًا، ثم بعث إلى فقير فقال: تصدَّق عليَّ بكفن، ودفن بالمعلى[٨] وكان موته سنة (٦٢٦هـ)[٩].

٤- النزاع بين الملك الكامل وابن رسول على مكة: تولى اليمن بعد الملك المسعود نور الدين بن رسول وأبقى الخطبة والسكة للملك الكامل، ولكنه اتبع سياسة تتجه نحو دعم سلطته، فعزل الولاة الذين لا يثق بهم، وولى غيرهم، ثم أعلن استقلاله عن الأيوبيين عام (٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م)[١٠].

---

(١) الشرابيش: جمع شربوش؛ وهو قلنسوة طويله تلبس بدل العمامة إشارة إلى الأمراء.
(٢) مفرج الكروب (٤/ ٢٦١) القدس بين أطماع الصليبين ص١٩٠ .
(٣) القدس بين أطماع الصليبين ص١٩٠ .
(٤) شذرات الذهب (٧/ ٢١١).
(٥) المصدر نفسه (٧/ ٢١١).
(٦) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٣٣١).
(٧) شذرات الذهب (٧/ ٢١١).
(٨) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٣٣١).
(٩) المصدر نفسه (٢٢/ ٣٣٢).
(١٠) المصدر نفسه.

وبقيت الحجاز تابعة للملك الكامل إلا أن نور الدين بن رسول تطلع إلى السيطرة على مكة، فأرسل عام (٦٢٩هـ/ ١٢٣١م) بقيادة ابن عيدان مع الشريف، واستمر الصراع على مكة بين الملك الكامل وصاحب اليمن إلى عهد الملك الصالح الأيوبي إلى عام (٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م) حين استقرت مكة لصاحب اليمن[١]، وقد كانت العلاقة طيبة بين الكامل ونوابه في اليمن ومكة إلا أنها أخذت طابع العداء عندما استقل نور الدين بن رسول باليمن عام (٦٢٨هـ/ ١٢٣١م) وضرب السكة باسمه، وخطب له على المنابر، فأضاف ذلك عبئًا كبيرًا على سياسة الملك الكامل، وأخذ يرسل القوات تباعًا لإعادة مكة إلى حظيرة دولته حتى موته[٢].

سادسًا: الملك الكامل والتتار:

كان أول خليفة عباسي شعر بالخطر الحقيقي للتتار هو الخليفة المستنصر بالله الذي اهتم بأمرهم غاية الاهتمام، ويرجع اهتمام هذا الخليفة الجدِّي بأمر التَّتار إلى عدة أسباب منها:

١- أن غارات التتار قد اكتسحت مناطق واسعة من العراق.

٢- أنهم استولوا على مناطق في العراق، عدا عن كونها قريبة جدًّا من بغداد، فقد كانت -حتَّى وقت قريب- من أملاك الخليفة، مثل: ششتر ودقوقا التي احتلَّها الخوارزمي، وأخذها التَّتار منه.

٣- رُبَّما تأكد الخليفة أنه -في النهاية- هو المقصود، وأنه الهدف الأكبر لحملات التَّتار، ولكل ذلك تواترت رُسُلُهُ إلى الملك الكامل والملك الأشرف لقُدُومها إلى الشَّام، وفي عام (٦٢٩هـ) خرج الأشرف من مصر، وتبعه الكامل بجيوشه، وعلى مقدِّمته ابنه الصالح أيوب، وعلى العسكر فخر الدين بن شيخ الشيوخ ثم خرج من دمشق وعسكر بسلمية ومعه عساكر يضيق بها الفضاء، وسار، فتفرَّقت العساكر لكثرتها، وأتته رسل ملوك الأطراف، ويرى بعض الباحثين بأن خروج بني أيوب من مصر بهذا الجحفل كان لمجرَّد دعوة الخليفة لهم، فحتَّى الآن كانوا يعدُّون التَّتار يبغون النهب والعودة إلى قواعدهم بما نهبوه، وأنهم ليسوا طالبي مُلك، ولا أصحاب حُكم مدن، فيكفي لتجنُّب شرِّهم إغلاق أبواب المدن حتى ينتهي هجومهم.

ولكن الذي دفع الكامل والأشرف للاهتمام الجدِّيّ بأمر التَّتار هو تبدُّل في خطة التَّتار أنفسهم، فبعد الغارات والسلب والنهب والقتل ثم العودة شرقًا قرَّروا فتح خِلاط عاصمة الجزيرة، وأغنى مدنها وأكبر المرتكزات الأيوبية فيها؛ وفي الحقيقة لم يكن هذا تبدُّلًا حقيقيًّا في خُطة التتار، بل هو تطبيق للجُزء الثاني منها، فالغارات ليست للسلب فقط، بل للاستطلاع،

---

(١) القدس بين أطماع الصليبيين ص١٩٤.
(٢) المصدر نفسه ص١٩٥.

ولكشف المناطق وترويع الناس، وترحيلهم، حتى لا يبقى من له قدرة على المقاومة، لا ماديًّا ولا معنويًّا، ثُمَّ يهاجمون الحواضر، ويقيمون مرتكزات حُكمهم فيها، وقد وصلت الجيوش الأيوبية إلى الجزيرة، وأقام الكامل في حرَّان ووصلته النجدات من أيُّوبية الشام، وجاءت الأخبار برحيل التتار المحاصرين لخِلاط، ويُبرِّر ابن نظيف سبب رحيل التَّتار بقوله: فرحلوا عنها خوفًا من السُّلطان[١]، وبالفعل فالقوَّة المحاصرة لخِلاط لا يُمكن أن تقاوم هذا التجمع للجيوش الأيوبية؛ لأن التتار لم يكونوا قد وصلوا إلى المرحلة الثالثة من خطتهم وهي الزج بكامل قواتهم في المعركة، وسيتم ذلك مع هجوم هُولاكو بالقوَّة الرئيسية للتَّتار على الجزيرة وحلب بعد فراغه من أمر بغداد، وربما بسبب عدم وجود تصور شامل للصراع القادم مع التتار لدى الملوك الأيوبيَّة لم يتمكنوا من التعامل العسكري أو السياسي الصحيح معهم، فالكامل بعد أن سمع بعودة التَّتار عن خِلاط لم يقُم بتعقُّبهم أو حتى القيام بمسير استعراض خلفهم، بل بدلًا من ذلك، استولى على آمد من الملك المسعود الأرتقي، وعاد دون أي صدام مع التَّتار[٢].

ومع هذه العودة للكامل التي دلت على جهله أو تجاهله لخطر التَّتار، فإن ما فعله أفضل ممَّا قام به الخليفة ومظفر الدين كوكبري صاحب إربل وبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل عام (٦٣١هـ/ ١٢٣٤م)، فقد وصلت رُسُلُ التتار إلى إربل والموصل يطلبون شراء مواد تنقصهم، فسمحوا لهم واشتروا جمالًا وأقمشة وأُقيم لهم الراتب في الموصل بإذن الخليفة لهم في ذلك[٣].

إن التَّتار وإن دفعوا ثمن ما أخذوه، فالأموال التي دفعوها، والمواد التي اشتروها سيستعينون بها، وإن كان بشكل غير مُباشر على حرب المسلمين، وزادوا عليها في الموصل بتكريمهم وتقديم الراتب؛ أي المساعدات والضيافات فهل هي مكأفاتهم على الفظائع التي ارتكبوها بحقِّ المسلمين، وسيرتكبونها لاحقًا بحقِّ من أضافهم في إربل والموصل، وبحقِّ الخليفة نفسه، الذي تمَّ كُلُّ ذلك بإذنه، وحتى كُلّ ذلك، فهو أفضل من تصرُّف سُلطان سلاجقة الرُّوم علاء الدين كيقباد، الذي بادر إلى تقديم الطاعة للتَّتار مع سفير خاص أرسله عام (٦٣٠هـ/ ١٢٣١م)، إلى أقطاي قآن، والتفت بشنِّ الحرب على الأيوبيَّة بدل التحالف معهم، فهاجم خِلاط، واستولى عليها، وعاد الملك الكامل للخُروج بجيشه من مصر عام (٦٣٣هـ ١٢٣٦م)، وحشد معه كل الملوك الأيُّوبية بجيوشهم، فاستعاد خِلاط وما كاد يعود أدراجه حتى رجع كيْقباد، فاستولى على الرُّها وحرَّان، ثم عاد الكامل فاستعادها[٤] وفي العام نفسه (٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م) كان

---

(١) المنصوري، ابن نظيف ص٢٣٤، العلاقات الدولية (٢/ ٤١).

(٢) تاريخ المغول، عبَّاس إقبال ص١٦٧ .

(٣) المنصوري، ابن نظيف ص٢٥٩، العلاقات الدولية (٢/ ٤١).

(٤) مرآة الجنان لليافعي (٤/ ٦٧).

الملك الكامل مقيمًا في دينسير، بعد أن استعاد الرُّها وحَرَّان من الرُّومي، وردَّ عليه كتاب بدر الدِّين لؤلؤ صاحب الموصل يُعرِّفه أن التَّتار قطعوا دجلة في مائة طلب، كُلّ طلب خمسمائة فارس، ووصلوا سنجار، فرجع السلطان والأشرف، وقطعا الفُرات إلى[1] دمشق، وعلى رسالة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ملاحظات:

أولًا: هُناك شك في مدى صحَّة رسالة لؤلؤ، فهل فعلًا كان هناك قُوَّة من التَّتار وبهذا الحجم، أم أنَّه تهويل للأمور من قبل لؤلؤ خوفًا من وجود قوة الكامل والأيُّوبية بجواره؟ قد يكون هُو ضحيَّتهم المُحتملة، وخاصَّة أنّه لم يسجل نشاطًا كبيرًا للتَّتار بهذا الحجم، ضدَّ أي مكان في تلك المنطقة، وفي ذلك العام بالتحديد.

ثانيًا: حتى لو كان الخبر صحيحًا، فبماذا تفسّر عودة الكامل والأشرف السريعة نحو الشَّام؟ هل كان خوفًا من التَّتار، أم دفعًا وتسويفًا لصدام غير مأمون النتائج؟ على الأحوال كُلها لن يكون الانسحاب أسوأ من التناحر والصراع بين الأيُّوبيين وسلاجقة الروم، وهما أكبر قوتين إسلاميتين بينما التَّتار يعصفون بالبلاد الإسلامية الشرقية ويحيلونها دمارًا مُرعبًا، فهل كان ملوك الشَّام لاهين عن الخطر المحدق بهم، أم هي نقص المعلومات الاستخباراتية لديهم؟ وهل الخليفة غير قادر حتى على وضع حَدٍّ لهذه الصراعات التافهة بينهما؟ وإن كان الخطر المحدق بهم لم يوحِّدهم فهل يستطيع الخليفة -الذي لا يملك إلا حُرمة اسمه- أن يُوحِّدهم؟ ولو حدث ذلك بمعجزة لكان الأمل الأخير لصدِّ التَّتار عند المعابر المنيعة بين أرمينيا وكردستان والشَّام[2]، وكان أول من احتك عسكريًّا -بشكل فعلي- مع التَّتار من بني أيوب هو شهاب الدين غازي، فبعد هزيمة التتار لجلال الدين منكبرتي عام (٦٢٨هـ/ ١٢٣١م) هاجمت فرقة منهم مَيَّافارقين، فتصدَّى لهم شهاب الدين وكسرهم وغنم أسلحتهم، ويبدو أنه كان أكثر بني أيوب معرفة بالتتار وبتقدير قوَّتهم الحقيقية، فمع تغلُّبه على فرقة منهم إلا أنّه طلب من السُّلطان الكامل الدعم؛ لأن التَّتار أصبحوا على حدوده، وربمَّا كان شهاب الدِّين موقنًا بأن موجة من الصراع الدامي لا يُمكن لأحد أن يتنبَّأ بنتائجها ستضرب المنطقة، فطلب من الكامل -أيضًا- الإذن لنقل حريمه إلى مصر، وجاء جواب الكامل، جواب من لا زال يعيش مرحلة قبلت التَّتار، فقد ردَّ عليه: إن أُخِذت مَيَّافارقين أخذت مصر، وكيف يليق ببني أيوب أن يفسحوا لك بذلك وراءهم خمسون ألف فارس[3].

هذا هو حال بني أيُّوب وجوارهم في مُواجهة المرحلة الأولى من هجوم التَّتار على الجزيرة، صراعات محليَّة، وتناحر وتباغض، وطمع كل منهم بما بيد الآخر من البلاد، ولن تكون

(١) كنز الدُّرر، ابن آيبك (٧/ ٦١٣) العلاقات الدولية (٢/ ٤٢).
(٢) تاريخ المغول، عبّاس إقبال ص١٦٨، العلاقات الدولية (٢/ ٤٢).
(٣) العلاقات الدولية (٢/ ٤٣).

الأحوال في مواجهة المرحلة الثانية أفضل[١]، وفي أوائل عام (٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م) بلغ الخليفة أن جُمُوع التَّتار نحو بغداد فسيَّر رسوله إلى الملك الكامل ومعه مائة ألف دينار مصرية ليُجنِّد عسكرًا من الشام، فأخرج الكامل من بيت المال مائتي ألف دينار لتجنيد العساكر، وأمر أن يسير معهم من عسكر مصر والشام عشرة آلاف فارس نجدة للخليفة، وأن تعادله أمواله، وكان الخليفة قد طلب أن يقود الحملة الملك الناصر داود بن الملك المُعظَّم، وقرَّر الكامل معه الأميران ركن الدِّين الهيجاوي وعماد الدِّين بن مسوك[٢]، وفسَّر الدكتور منذر الحايك طلب الخليفة بتجنيد عساكر من الشَّام، بأن التَّتار اكتسحوا شمال وشرق العراق، وهي المناطق الآهلة بالسُّكان، وبقبائل الأكراد والتُّركمان الذين هم المجال الطبيعي للتجنيد في العراق، وبسبب وفاة الناصر داود فشلت الحملة الشامية[٣].

سابعًا: وفاة الخليفة العباسي الناصر لدين الله في عهد الملك الكامل (٦٢٢هـ):

الخليفة أبو العباس أحمد ابن المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن ابن المستنجد بالله يوسف ابن المقتفي محمد ابن المستظهر بالله أحمد ابن المقتدي الهاشمي العباسي البغدادي[٤]، وكانت أم الناصر أم ولد تركية، اسمها زمرد خاتون جلبها الجلابون من بلاد الترك الشرقية، إلى أن استقر بها المقام في دار الخلافة؛ إذ أصبحت جارية الخليفة المستضيء بأمر الله، ثم أعتقها وتزوجها وكانت أثيرة عند الخليفة لا سيما بعد أن ولدت له ابنًا سنة (٥٥٣هـ/ ١١٧٨م) سماه أحمد وكناه بأبي العباس، وقد عاشت في خلافة ابنها ٢٤ سنة، وكانت راغبة في الخير والصدقة وأفعال البر، ولها من الصدقات والوقوف ببغداد وغيرها شيء كثير[٥]. قال سبط بن الجوزي: حجَّت وأنفقت ٣٠٠ ألف دينار على ما بلغني، وكان معها نحو ألفي جمل وتصدقت على أهل الحرمين، وأصلحت البرك والمصانع وعمرت التربة عند قبر معروف الكرخي، والمدرسة إلى جانبها، وأوقفت عليها الأوقاف[٦].

وفي جمادى الأولى من سنة (٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م) توفيت زمرد خاتون وحزن عليها ابنها الخليفة الناصر لدين الله حزنًا شديدًا، وفعل في حقها ما لم يفعله أحد، وصلى هو عليها في صحن السلام، ودفنت في تربتها المجاورة لمعروف الكرخي، وأمر الخليفة أن يتصدق بجميع ما خلفته من ذهب وفضة، وجواهر وثياب على جواريها وذوي الحاجة ومماليكها، فقُسِّم بينهم، وحمل ما في خزائنها من الأشربة والعقاقير إلى المارستان العضدي وكان يساوي ألوفًا، وحزن عليها أهل بغداد حزنًا عظيمًا؛ لأنها كانت محسنة إلى الناس[٧].

---

(١) المصدر نفسه (٢/ ٤٣).
(٢) العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (٢/ ٤٣).
(٣) المصدر نفسه (٢/ ٤٣).
(٤) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ١٩٢).
(٥) سياسة الخليفة الناصر لدين الله الداخلية ص٢٨ .
(٦) المصدر نفسه.
(٧) سياسة الخليفة الناصر لدين الله الداخلية ص٢٨ .

١- الناصر خليفة للمسلمين: يبدو أن الخليفة المستضيء خطب للناصر بولاية العهد في أيامه الأخيرة، ولكنه سرعان ما عدل عنه إلى أخيه أبي منصور لتخوفه من الناصر مما دعا به إلى سجنه، ولكن المرض لم يمهل المستضيء طويلًا؛ حيث تُوفي قبل استقرار الأمور لولي العهد الجديد أبي المنصور، وهذا مما جعل الحاشية وعلى رأسها أستاذ الدار والوزير وغيرهم يضطرون إلى أخذ البيعة للناصر[١]، وقد بويع الناصر صبيحة ليلة وفاة والده وكان أول المبايعين له أخوه الأمير أبو منصور هاشم وتبعه بقية الأمراء ورؤساء الدواوين والقضاة والفقهاء[٢]، ثم جلس الناصر بعد ثلاثة أيام في دار الملك للبيعة العامة ولتلقي التهاني من وفود الأقاليم من وجوه وأعيان الناس فيها، وكان من بينهم ضياء الدين الشهرزوري الذي جاء برسالة التهنئة من صلاح الدين الأيوبي، وكانت وفود بلاد الشام والثغور ومصر قد حضرت ومعها شعراؤها للتهنئة والبيعة، فكانت مناسبة أظهرت فيها مؤسسة الخلافة العباسية في بغداد مظاهر الأبهة والابتهاج والبشرى بالعاهل الجديد، كما شارك الناس في هذه الاحتفالات وتمنوا أن تكون أيام الناصر أيام خصب ورفاهية بعد ما عانوه من سني البؤس واليأس في السنين[٣] الماضية، وقد استلم الناصر الخلافة في مستهل ذي القعدة سنة (٥٧٥هـ/ ١١٨٩م) وجعل نقش خاتمه (رجائي من الله عفوه)[٤]، وقد وصف الناصر الرحالة الشهير ابن جبير الذي زار بغداد في عهده بقوله: وهو ميمون النقيبة عندهم، قد استسعدوا بأيامه رخاء وعدلًا وطيب عيش، فالكبير والصغير منهم داعٍ له[٥].

٢- مساعدو الخليفة: وكان يساعد الخليفة الناصر في إدارة شئون الدولة نخبة من المسئولين السياسيين والإداريين[٦]، وعلى رأسهم الوزير ونائبه وأستاذ الدار (دار الخلافة) والحاجب وقاضي القضاة، وصاحب المخزن وصاحب المظالم والحسبة ورؤساء الدواوين المتنوعة وصاحب ديوان الزمام، وكان لأستاذ الدار نفوذًا كبيرًا في بداية خلافة الناصر، ولكن الخليفة أوقع به بعد أن كثرت الشكاوي على تجاوزاته وسلبه أموال الرعية خاصة بعد أن تسلم الخليفة مذكرة من نائب الوزارة جلال الدين صدقة وكان ذلك سنة (٥٨٣هـ)[٧]، وأما وزراء الخليفة الناصر، فكانوا وزراء تنفيذ لا سلطة لهم بوجود الخليفة الذي كان يباشر الأمور بنفسه ما عدا بضع سنين قبيل[٨] وفاته، ومن هنا جاءت كلمات ابن دحية في الناصر: أخذ الأمر حقًا وقوة،

(١) مرآة الزمان (٨/ ٣٥٤) الخلافة العباسية، د/ فاروق عمر (٢/ ٢٠٨).
(٢) خلاصة الذهب المسبوك للأربلي ص٢٨٠، الخلافة العباسية (٢/ ٢٠٨).
(٣) مختصر التاريخ ص٢٤٣ للكازروني، الخلافة العباسية (٢/ ٢٠٩).
(٤) رحلة ابن جبير ص١٨١، الخلافة العباسية (٢/ ٢٣٩).
(٥) الخلافة العباسية (٢/ ٢٠٩).
(٦) المصدر نفسه.
(٧) الخلافة العباسية (٢/ ٢٠٩).
(٨) المصدر نفسه (٢/ ٢٠٩).

وفتح البلاد طاعة وعنوة، وطبقت دعوته جميع الآفاق، وطلعت حكمته باهرة الأشراف، وأوقع بوزراء السوء على الإطلاق، وقام بما عليه من العهد والميثاق(١)، كما وأن الناصر لم يكن لديه وزير على الدوم، بل يختار حينًا وزيرًا ويعين أحيانًا أخرى نائب وزير حسب ما يراه ضروريًا(٢).

ويحدثنا صاحب كتاب الفخري في الآداب السلطانية عن اهتمام الناصر في اختيار الرجل المناسب في المحل المناسب وحرصه على معرفة معدن الرجال وسريرتهم قبل التعيين، أنه كان يطلق الدعايات والإشاعات بين الناس بواسطة أصحاب الأخبار وأعوانهم حول ترشيح شخص معين لمنصب معين فتكثر الأقاويل عليه من قبل أصدقائه وأعدائه من معارفه، فيكتب أصحاب الأخبار إلى الخليفة بذلك كله وأي الفئتين على حق وصواب، وعندئذ يوازن الخليفة بين الرأيين ويختار الشخص أو يتركه، وهذا ما كان يفعله حين يختار وزيرًا أو قاضيًا أو صاحب ديوان أو غيرهم من وجوه مؤسسة الخلافة في السياسة أو الإدارة(٣).

ومما يلاحظ في سياسة الخليفة الناصر لدين الله أنه اعتبر الوزراء منفذين لا مفوضين في الحكم، ولذلك استوزر أربع عشرة شخصية حمل خمسة منهم فقط لقب الوزير، أما البقية الباقية فلم يكونوا أكثر من نواب وزراء(٤)، على أن ما يجدر ذكره فيما يتعلق هو جمعها رياستي السيف والقلم في آن واحد، ففي الوقت الذي يشرف فيه الوزير على الأمور المالية والإدارية كان يتقلد قيادة الجيش ويقود العساكر لقتال الأعداء والمتمردين وذوي النزعة الانفصالية(٥)، ولعل أشهر مثل على ذلك وزير الناصر المعروف بـ(ابن القصاب) الذي قاد جيش الخلافة ودوخ السلاجقة وأعاد العديد من مدن بلاد فارس الغربية إلى نفوذ الخلافة العباسية في بغداد، وتوفي سنة (٥٩٢هـ/ ١١٩٥م) بعد أن أعاد همذان وأصفهان وحاصر الري(٦).

لقد استمرت الخلافة العباسية في الأخذ بالنظام المركزي في الإدارة فكان الخليفة بمساعدة الوزير يعين من يراه مناسبًا على الأقاليم التابعة للدولة، وهي في تلك الفترة قليلة ومحصورة في العراق وبعض أقاليم بلاد فارس الغربية(٧)، والمعروف أن ولاية مصر وولاية بلاد الشام والحجاز واليمن كانت تابعة لصلاح الدين الأيوبي وأسرته، ومع اعتراف هؤلاء جميعًا بالخليفة العباسي إلا أنه لم يكن للخليفة العباسي نفوذ مؤثر فيهم، بل إن إقراره لهم كان اعترافًا بأمر قد وقع فعلًا، وقد ظهرت في العصور العباسية الأخيرة مناصب جديدة بسبب تبدل الظروف؛ منها: منصب الشحنة وهو موظف يتولى سلطات إدارية وأمنية في المدن والمراكز الحضرية الأصغر من

---

(١) النبراس في خلفاء بني العباس ص١٦٥، الخلافة العباسية (٢/ ٢٠٩).
(٢) النظم الإسلامية فاروق عمر ص٩٢، الخلافة العباسية (٢/ ٢٠٩).
(٣) الخلافة العباسية (٢/ ٢١٠).
(٤) المصدر نفسه (٢/ ٢١٠).
(٥) الخلافة العباسية (٢/ ٢١٠).
(٦) الكامل في التاريخ نقلًا عن الخلافة العباسية (٢/ ٢١٠).
(٧) تلخيص مجمع الآداب لابن الفوطي (٤/ ٦٥١-٧٣٨).

المدن، وهناك منصب (الحماة) وهم المسئولون عن حفظ الأمن والنظام في الأرياف، ومناطق البادية ويختارون عادة من رؤساء العشائر المتنفذين في مناطقهم كي يتمكنوا من أداء مهامهم بيسر وسهولة[١].

٣- دواوين الدولة الرئيسية: لقد كانت دواوين الدولة الرئيسية مستمرة في تأدية واجباتها دون تغيير جذري، رغم أن بعضها قد تبدل اسمه، فمثلًا ديوان الخراج تبدل إلى (المخزن) وصاحبه صاحب المخزن، وأصبح ديوان الجند ديوانًا للجيش، وديوان النفقات والضياع أصبح ديوان المقاطعات، وغدا لضريبة الجزية التي تؤخذ من أهل الذمة ديوان خاص بها يسمى (ديوان الجوالي) وكانت مواريث من لا وراث له تذهب إلى بيت المال مباشرة، أما في العصور العباسية الأخيرة فأصبح لها ديوان ينظمها تحت اسم (ديوان التركات الحشرية) على أن الأهم من ذلك ظهور دواوين جديدة، تشير رواياتنا التاريخية إلى أسمائها وبعض مهامها في عهد الناصر لدين الله منها[٢]:

(أ) ديوان الأبنية: وهو ديوان يدل على مدى اهتمام الناصر بالعمران والبناء رغم كونه كان يواجه تحديات عديدة من الخارج وخاصة من بلاد فارس، ولكنه كان يصرُّ على إيجاد الأموال اللازمة لإعمار عاصمته بغداد وترميم أسوارها وأبوابها، وبناء أسواق ومدارس وربط في أماكن عديدة من المناطق الواقعة تحت نفوذ الخلافة[٣].

(ب) ديوان المقاطعات: وهذا الديوان مسئول عن المقاطعات التي يمنحها الخليفة للأمراء والمتنفذين حيث تسجل بأسمائهم في دفاتر خاصة مقابل شروط معينة يقبلها الأمير المقطع[٤].

(ج) ديوان الوقوف: ومع أن هذا الديوان كان موجودًا قبل عهد الناصر، وأن الاهتمام بالوقوف اهتمام إسلامي قديم، فقط نشط هذا الديوان في عهد الناصر بسبب كثرة الوقوف التي أوقفها الخليفة.

(س) ديوان الطبق: وتنحصر مسئوليته في الإشراف على توزيع الطعام والشراب على الفقراء والمحتاجين، خاصة أولئك الذين يمنعهم التعفف من سؤال الناس أو التسول[٥]، وكان صاحب الديوان يستعين بذوي الخبرة من أعيان الناس والنقباء للتعرف على المحتاجين في الأزقة والسكك والمحلات[٦].

---

(١) الخلافة العباسية (٢/ ٢١١).
(٢) الخلافة العباسية (٢/ ٢١١).
(٣) مضمار الحقائق نقلًا عن الخلافة العباسية (٢/ ٢٤٠).
(٤) سياسة الخليفة الناصر لدين الله الداخلية ص٨٩ .
(٥) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٦٦) الخلافة العباسية (٢/ ٢١٢).
(٦) الخلافة العباسية (٢/ ٢١٢).

وأما ديوان البريد: فلعل من أهم صلاحيات صاحبه هو كونه عينًا للخليفة يوافيه بأخبار الأقاليم والأحداث المهمة التي تقع فيه[١]، إلا أن هذه المهمة الخطيرة أصبحت في العصور العباسية الأخيرة تنحصر أكثر فأكثر بيد صاحب ديوان الخبرة، الذي تداخلت صلاحياته مع بعض صلاحيات صاحب البريد الخاصة بتقصي الأخبار التي تهم الدولة[٢].

٤- سياسة الناصر لدين الله المالية والاقتصادية: ما لبثت الضائقة المالية أن خفَّت مع مجيء الناصر لدين الله؛ حيث كثرت الخيرات والزروع ورخصت الأسعار، فكانت أيامه -على حد قول ابن جبير- رخاءً وعدلًا وطيب عيش[٣]، ويضيف ابن جبير الذي زار العراق في هذه الفترة كثرة المزارع والنخيل وبساتين الفواكه، فيقول مثلًا عن الطريق الزراعي بين بغداد إلى الحلة: إنها أحسن طريق وأجملها في بسائط من الأرض وعمائر تتصل بها القرى يمينًا وشمالًا، وتشق هذه البسائط فروع من ماء الفرات تتسرب بها وتسقيها وهي متسعة وفسيحة تشرح بها العيون وتنبسط فيها النفوس، والأمن فيها متصل[٤]، وأشار ابن جبير إلى اهتمام الناصر بالمحافظة على الأمن والاستقرار، فقد لاحظ نقاط حراسة على طول الطريق لحماية القناطر والجداول المتفرعة على الأنهار وحماية القوافل خاصة وأن هذه الطريق كانت جزءًا من طريق الحج إلى الحجاز[٥]، يقول ابن جبير: فلا يكاد المرء يمشي ميلًا إلا ويجد قنطرة على نهر متفرغ من الفرات فتلك الطريق أكثر الطرق سواقي وقناطير وعلى أكثرها خيام فيها رجال محترسون للطريق[٦].

وقد منع الخليفة الناصر سوء استغلال المزارعين أو استخدامهم في أعمال السخرة، فحين علم الخليفة أن عامله على منطقة نهر الملك قد أجبر الفلاحين على العمل بالسخرة لحسابه الخاص أمر بقطع يده ليكون عبرة لمن يستغل نفوذه بصورة غير صحيحة[٧]، كما أن هذا الإجراء يدل -ضمن إجراءات أخرى منها تحقيق عبء بعض الضرائب- على الأمل الذي كان يعلقه الناصر على الفلاحين وهم الفئة المنتجة للغلة التي يقتات منها الشعب، وهذا يفسر إشارات ابن الساعي في كتابه الجامع المختصر إلى وفرة المواد الغذائية ورخص أسعارها في هذه الفترة[٨]، وهناك سبب آخر من أسباب كثرة الغلات وانخفاض الأسعار على عهد الخليفة الناصر لدين الله فقد أمر الخليفة بفتح خزائن الغلات وإطلاق البيع للناس، كما أعطى أرزاق الجند من الحبوب عينًا، فكثر العرض من الحنطة والشعير والذرة في الأسواق[٩]، مما أدى إلى تراخي أسعارها بسبب الفائض منها وكثرة نسبته على الطلب[١٠].

---

(١) النظم الإسلامية ص٧٨، الخلافة العباسية (٢/ ٢٤٠).
(٢) الخلافة العباسية (٢/ ٢١٢).
(٣) رحلة ابن جبير ص١٨١، الخلافة العباسية (٢/ ٢١٣).
(٤) المصدر نفسه ص١٦٩، الخلافة العباسية (٢/ ٢١٣).
(٥) الخلافة العباسية (٢/ ٢١٣).
(٦) رحلة ابن جبير ص١٧٠، الخلافة العباسية (٢/ ٢١٣).
(٧) الخلافة العباسية (٢/ ٢١٣).
(٨) الخلافة العباسية (٢/ ٢١٤).
(٩) الخلافة العباسية (٢/ ٢١٤)
(١٠) المصدر نفسه (٢/ ٢١٤).

٥- **الفتوة الناصرية**: لعب نظام الفُتُوَّة دورًا كبيرًا في العلاقات الدولية بين الخلافة العباسية والعديد من الممالك الإسلامية وعلى الخصوص الممالك الأيُّوبيَّة، وذلك من خلال الهدف السياسي البعيد الذي حاولت الخلافة العباسية -في عهد النّاصر لدين الله- الوصول إليه عبر تنظيم الفُتوة وهو إعادة فرض سيطرتها على تلك الممالك بأسلوب جديد، ويقوم نظام الفتوة - أساسًا- على مكارم الأخلاق فهو: أن تصرب من يُبغضك وتكرم من يؤذيك وتحسن إلى من يُسيء إليك، وهذه أمور حسنة مطلوبة سُميِّت فُتُوَّة أم لم تُسمَّ، وقد شهد هذا النظام ذروة مجده مع الخليفة العباسي النَّاصر لدين الله، كان الخليفة النَّاصر شابًّا مرحًا ممتليًا بالحيوية والرجولة، والناس يتهيَّبون لُقياه[(١)]، فانعكست قوَّة شخصيته على قوة منصب الخلافة، والتمس الناصر طريقة جديدة لتقوية نفوذه على الممالك الإسلامية المختلفة، التي تدين له بنفوذ معنوي، وليس عليها أيُّ تأثير سياسي حقيقي، فسعى لتزويد منصب الخلافة بُسلطة أخرى غير سلطة الشرعية تتمثل بُسلطة اجتماعية سياسيَّة أخلاقية، تؤدِّي بحال انتشارها إلى التفاف الجميع حول منصب الخلافة الذي يرأس هذه السلطة أو المنظمة الجديدة[(٢)]، وكان صاحب الفُتُوَّة في بغداد أيام الخليفة الناصر هو الشيخ عبد الجبار، فأحضره الخليفة وأعطاه خمسمائة دينار، وخلع عليه وعلى ولده، وكان شيخًا حسنًا له أتباع كثيرون[(٣)]، مما يعني أنه تنازل للخليفة عن منصب رئيس الفتيان، وما قام به الخليفة النّاصر بعد ذلك هو عملية إعادة تنظيم ورعاية لهذه المنظمة، فجعله ذلك رجلها الأول، ورئيسها ثم حدَّد قواعدها، ونشرها، وانتسب إليه في الفُتوة أكابر الناس والملوك، ففي عام (٦٠٧هـ/ ١٢١٠م) طلب الخليفة الناصر من كُلِّ ملوك المسلمين أن ينتموا إليه في الفُتُوَّة ويعدُّونه إمامهم بها، على أن تنتمي رعية كُلٍّ منهم إلى ملكها[(٤)].

(أ) نظام الفُتُوَّة: وقد وُضع للفُتُوَّة شُرُوط خاصَّة يجب أن تنطبق على من ينتمي إليها، ومنها: صدق الحديث، وأداء الأمانة، وأداء الفرائض، واجتناب المحارم، ونصرة المظلوم، وصلة الرحم، والوفاء بالعهد، وغيرها من قواعد الأخلاق التي حضَّ عليها الإسلام[(٥)]، وكانت هُناك أمور عديدة يُطلَب تطبيقها من المنتسبين إلى تنظيم الفُتُوَّة وكلها يستدل عليها من ذكرها في الأحاديث النبوية الشريفة؛ منها:

- طاعة الرؤساء والمقدَّمين.
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(١) الموسوعة الشاملة، د/ سهيل زكار (١٤/ ٧٤).
(٢) العلاقات الدولية (١/ ٢٩٦).
(٣) الموسوعة الشاملة (٢١/ ٢٥٦)، د/ سهيل زكار.
(٤) مفرج الكروب (٣/ ٢٠٦)، العلاقات الدولية (١/ ٢٩٧).
(٥) الفتوة عند العرب للدسوقي ص٢٢٩، العلاقات الدولية (١/ ٢٩٧).

- نصرة المظلوم، وإغاثة الملهوف.
- حفظ الجار.
- التعاضد والتناصر بين الأعضاء.
- حفظ الجار.
- كتمان السرِّ.
- صدق اللهجة.
- العفة عن المحارم[١]، وما كل ذلك إلا استجماع لمكارم الأخلاق العربيَّة، وتعاليم الإسلام في التعامل، ولروح الشجاعة والإيثار[٢]، وكان المنتسبون لتنظيم الفتوة يسمُّون الفتيان، أمَّا من ينضمُّ حديثًا لها فيُدعى بالرفيق، ويُرشّح الفتى الجديد لقبوله في التنظيم فتيان قدماء، ثمَّ يقام حفل تنسيب للمُنضمين الجُدُد، تلقى فيه كلمات، تشيد بالفُتُوَّة، وتربطها بتعاليم الإسلام من خلال الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة[٣]، ويشرب المُنتسبون الجُددُ كأس الفُتُوَّة وفيه ماء وملح[٤]، وهو دليل قبول الأنظمة والتعاليم الخاصَّة بالفُتُوة، وكان الفتى عند تنسيبه يُلفُّ بملابس رقيقة من الكتَّان، أو القطن الأبيض، ثم يرتدي السروال الخاصَّ بالفُتُوَّة، وكان السروال هُو الشعار، أو الزي الخاص لهذا التنظيم، فجميع الفتيان يرتدون طرازًا خاصًا وموحَّدًا من السراويل يميزهم عن بقية الناس[٥]، ثم توضع على رأس الفتى طاقية صغيرة سوداء، وفوقها قلنسوة من الصوف الأبيض، ويضع على أكتافه قباء، أو عباءة خفيفة يُلفُّ عليها حزام، يُعلَّق به سكين أو خنجر، ويلبس في رجله خفَّين[٦] وربما كان من أشهر حفلات تنسيب الملوك للتنظيم هي الحفلة التي أقامها الملك المنصور صاحب حماة عام (٦٢٢هـ/ ١٢٢٣م)، وأقام الخطبة فيها قاضي حماة سالم بن نصر الله والد المؤرِّخ ابن واصل[٧]

وعندما استكمل الخليفة الناصر تنظيمه الجديد نظريًا، بدأ بتسيير رُسُله إلى ملوك المسلمين، طالبًا منهم الانتماء إليه عبر نظام الفُتُوَّة، وقد قبل الجميع ذلك، وانتسبوا للخليفة الناصر[٨]، فهذا لا يُنقص من مُلكهم شيء وما سُلطة الفُتُوة إلا سلطة معنوية، لذلك لم يتخلف منهم أحد وقد لبس السلطان العادل سراويل الفُتُوَّة للخليفة الناصر[٩]، وكذلك أولاده الملك المُعظَّم

(١) الموسوعة الشاملة، د/ سهيل زكار (٢١/ ٢٥٨).
(٢) النظم الدبلوماسية، صلاح الدين المنجِّد ص١٥١
(٣) العلاقات الدولية (١/ ٢٩٨).
(٤) المصدر نفسه (١/ ٢٩٨).
(٥) مجمع الآداب ابن الفوطي (١/ ١١٨٤) العلاقات الدولية (١/ ٢٩٨).
(٦) مفرج الكروب (٤/ ١٦٤) العلاقات الدولية (١/ ٢٩٩).
(٧) العلاقات الدولية (١/ ٢٩٩).
(٨) الموسوعة الشاملة، د/ سهيل زكار (١٤/ ٧٤).
(٩) العلاقات الدولية (١/ ٢٩٩).

والملك الكامل والملك الأشرف، ولبسها المجاهد صاحب حمص، والملك الظَّاهر غازي ابن السُّلطان صلاح الدين صاحب حلب، وكذلك أرسل لباس الفُتُوَّة إلى كيخسرو سلطان الرُّوم[(١)]، واعتقد الخليفة النَّاصر بذلك أنَّه قد جمع الأمَّة حوله، وبالفعل فقد أسبغت الفُتُوَّة مزيدًا من الهيبة على منصب الخليفة[(٢)]، فقد كان الملك الذي ينتسب إلى الخليفة يتبعه كُلُّ أركان دولته وأكابر بلاده، ولكن اهتمام الخليفة النَّاصر بتنظيم الفُتُوَّة جعله يعتقد أنَّها كُلُّ ما يربطه بُملوُك المسلمين، حتى إنَّه لم يُبصر أعظم المخاطر التي تحيق بهم، ففي عام (٦١٥هـ/ ١٢١٨م) وصلت رُسُلُ الخليفة الناصر إلى الملك الكامل[(٣)]، وهو مرابط على دمياط أمام قوات الفرنجة التي احتلَّت المدينة، وأخذت تتقدَّم باتجاه القاهرة فظنَّ الناس الظنون الجميلة يؤمئذ في الخليفة، فتبيَّن أنه لأجل رمي البُندق، وكونه يُريد أن يكون هو قبلته فتعجَّب الناس من إمام العصر وهمَّته[(٤)] فكأن الكامل كان بحاجة إلى زعامة الخليفة لرمي البُنْدُق ليُقاوم جحافل الفرنج الزاحفة على مصر[(٥)].

(ب) **من نشاطات الفُتُوَّة:** وكان من اهتمامات الفتيان الرمي بالبُنْدُق، وتدريب الحمام، وقد تفنن الناس في ذلك سواء الأمراء أو الملوك[(٦)]، وفي العصر الأيوبي كان الرمي بالبُنْدق[(٧)] قد شاع في معظم أنحاء الدولة الإسلامية وهو رياضة رمي وتدريب على التسديد ويُستخدم للرمي على الطيور من أجل الصيد أو الرياضة، وكان الخليفة العبَّاسي النَّاصر لدين الله قد منع رمي البُنْدُق إلا لمن ينتمي له[(٨)].

لقد قصد الخليفة النَّاصر من اهتمامه الكبير بنظام الفتوة تقوية مركزه وزيادة فاعلية منصب الخليفة وربط ملوك الأطراف والرعايا بشخص الخليفة، من حيث كونه زعيمًا فعليًّا، إضافة لكونه خليفة وإمامًا شرعيًّا[(٩)] ولكنَّ كُلَّ ما قام به النَّاصر لتنظيم الفُتُوَّة تهاوى بعد[(١٠)] موته، ويرى بعض الباحثين أن نظام الفُتُوة استمر بالقوة والاندفاع نفسهما بعد وفاة الخليفة الناصر لدين الله سنة (٦٢٢هـ)؛ إذ اهتم الخلفاء العباسيون بعده في العناية بالفتوة والقيام برسومها ورعاية الفتيان في البلاد الإسلامية على اختلاف الحماسة لها[(١١)].

٦- **صحوة الخلافة العباسية:** كان الخليفة النَّاصر يتمتع بشخصية قوية، فتمكَّن من إعادة الهيبة لمنصب الخلافة، وأعاد السيطرة على عدَّة مناطق لم يمتد إليها نُفُوذ الخلفاء منذ زمن طويل، وكان الناصر قد ملأ القُلُوب هيبة وخيفة، فكان يرهبه أهل الهند ومصر كما يرهبه أهل

(١) المصدر نفسه (١/ ٢٩٩).
(٢) الموسوعة الشاملة (٢٠/ ١٣٤).
(٣) العلاقات الدولية (١/ ٢٩٩).
(٤) العلاقات الدولية (١/ ٢٩٩).
(٥) العلاقات الدولية (١/ ٢٩٩).
(٦) نكت الهميان للصفدي ص٩١ .
(٧) البندق: كرات صغيرة من حجر أو معدن أو طين تقذف من ماسورة.
(٨) العلاقات الدولية (١/ ٣٠٠).
(٩) المصدر نفسه (١/ ٣٠٠).
(١٠) المصدر نفسه (١/ ٣٠٠).
(١١) سياسة الخليفة الناصر لدين الله الداخلية ص١٥٩ .

بغداد، فأحيا بهيبته الخلافة، وكانت قد ماتت بموت المعتصم[١]، واستولى مع العراق على إقليم خوزستان وغيرهما من الأطراف، وملك همذان، وأصفهان[٢]، وكان للخليفة النَّاصر أصحاب أخبار في العراق، وسائر الأطراف يُطالعونه بجُزئيات الأمور وكُليَّاتها[٣] وأمضى الخليفة الناصر مُدة حياته في عزة وجلالة وقمع للأعداء، وكان شديد الاهتمام بمصالح الملك ... واستمر خليفة سبعًا وأربعين سنة إلا شهرًا[٤]، ولم يقم أحد من الخلفاء العباسيين في الخلافة هذه المدَّة الطويلة، ولم تَطُل مدة أحد من الخلفاء مُطلقًا أكثر من المستنصر العبيدي أقام بمصر حاكمًا بها ستين سنة[٥]، وكذا ولي الأندلس الناصر المرواني الأموري خمسين سنة[٦].

٧- **التصدي للنفوذ السلجوقي**: حرص الخليفة الناصر لدين الله على تقليص النفوذ السلجوقي ببغداد، فهدم دار السلطنة السلجوقية ورفض طلب طغرل الثالث بذكر اسمه على الخطبة، ووسع نفوذ الخلافة العباسية، فشملت العراق بأجمعه، كما استردَّ الأحواز وأعقبها بأصفهان وهمذان[٧].وتوجت هذه الإنجازات بإنهاء السيطرة السلجوقية رسميًا على العراق سنة (٥٩٠هـ/ ١١٩٣م).

وقد عمد الناصر لدين الله إلى استخدام أساليب عديدة لتحقيق هدفه؛ منها استغلال المنافسة بين الأمراء السلاجقة الجُدُد من أجل إضعاف النفوذ السلجوقي على أقاليم الخلافة، واستطاع تحريك القوَّة الخوارزمية للصطدام بطغرل الثالث الذي حاول النيل من الخلافة العباسية، مُضْفيًا الشرعية على علاء الدين تكشي الخوارزمي واعدًا إياه بمنحه الأراضي والأقاليم كافة التي كانت في حوزة السلاجقة في بلاد فارس، وهكذا ضرب الناصر عصفورين بحجر واحد، محاولًا انهاك قوتهما عسكريًا، وبالتالي إنهاء طموحاتهم بالاستيلاء على العراق والخلافة العباسية، ولقد كانت معركة الري بين طغرل الثالث وتكش الخوارزمي حاسمة حيث خسر طغرل المعركة وقتل فيها سنة (٥٩٠هـ/ ١١٩٣م) وانتهى بمقتله نفوذ سلاجقة الروم[٨].

٨- **الناصر والخوارزمية**: استعان الخليفة الناصر بعلاء الدين تكش خوارزمشاه للقضاء على النفوذ السلجوقي في بلاد فارس على أن خوارزمشاه هذا اعتبر نفسه وريث السلاجقة حيث سيطر على الأقاليم التابعة لهم، بذلك أصبح أكبر قوة بين أمراء المنطقة، وطمع في الخلافة العباسية ونازعها على الأحواز وطلبها لكي تكون كفاية لاتباعه إلا أن الناصر رفض التنازل عن الأحواز، بل أرسل جيشًا احتل أصفهان وسيَّر جيشًا لاحتلال همدان، وأكثر من هذا حاول الناصر

(١) العلاقات الدولية (١/ ٢٩٣).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٢٩٣).
(٣) العلاقات الدولية (١/ ٢٩٤).
(٤) المصدر نفسه (١/ ٢٩٤).
(٥) البداية والنهاية (١٧/ ١٣٤).
(٦) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ١٩٣).
(٧) الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة ص٩١، ٩٢ .
(٨) الخلافة العباسية (٢/ ٢٢٤).

الاستعانة بأعداء خوارزمشاه تكش من الأمراء الخوارزمية واتصل بالخزر وطلب منهم أن يتحركوا ليمنعوا تكش من دخول العراق، ثم كتب الخليفة الناصر إلى غياث الدين الغوري يأمره بقصد بلاد خوارزم ليعود تكش عن قصد العراق، وهكذا نجح الناصر في خلق مشاكل عديدة وإثارة الاضطرابات في تخوم الخوارزميين الشرقية، وبذلك أبعد الخطر الخوارزمي عن العراق ولو إلى حين.

إن خطر الغوريين على الخوارزميين أرجأ الهجوم الخوارزمي أكثر من عشرين سنة، وخلال هذه الفترة توفي علاء الدين تكش وأعقبه في حكم الإمارة الخوارزمية ابنه علاء الدين محمد، ولكن مشاغله في الأقاليم الشرقية أرجأت تحركه نحو العراق لبعض الوقت، وبدأ خوارزمشاه علاء الدين محمد في التخطيط لتنفيذ طموحاته وطموحات أبيه من قبله في احتلال العراق وإقامة الخطبة له في بغداد ومساجدها منذ (٦٠٧هـ)، وقد طلب خوارزمشاه بصراحة من الخليفة الناصر لدين الله العباسي لا تخلو من وقاحة: أن يكون أمر بغداد والعراق لعلاء الدين ولا يكون إلى الخليفة إلا الخطبة، ولما رفض الخليفة الناصر هذا الطلب عمد خوارزمشاه علاء الدين إلى اختلاق أنواع المبررات لتبرير شن حرب على العراق، فأثار القلاقل والاضطرابات الداخلية حيث شجع مماليك الخلافة على التمرد داخل بغداد ولكن الخلافة سحقت التمرد[١]، وجمع خوارزمشاه فقهاء وعلماء الأقاليم التابعة له وأمرهم بإصدار فتوى بعدم شرعية الخلافة العباسية، وأن خلفاء بني العباس أهملوا أمر الجهاد ولم يتتبعوا أهل البدع والضلال بالقمع، وبعد صدور الفتوى أمر خوارزمشاه بإسقاط اسم الناصر من الخطبة والسكة، كما أنه عمد إلى إثارة الرأي العام الإسلامي ضد الخلافة العباسية بالعراق؛ حيث نظَّم دعاية واسعة للتشهير بالخلافة معلنًا أنه عثر على رسائل من الخليفة الناصر فيها تحريض للغوريين على مهاجمة خوارزمشاه مطالبًا بعزل الناصر لأنه يُقسِّم جماعة المسلمين ويحرض بعضهم على البعض الآخر!!

وقد سار خوارزمشاه علاء الدين محمد بجيش جرار سنة (٦١٤هـ/١٢١٧م) نحو العراق مستهدفًا احتلال بغداد، ولم تفد معه رسل الخليفة الناصر التي أرسلها لترده عن قصده وتنصحه بطاعة الخليفة، واتخذ الخليفة الناصر حملة من الإجراءات لحماية العراق من الهجوم المرتقب وتمكن من كسب أتابكة إقليم فارس وأذربيجان ضده، كما أن الحشيشية النزارية الذين دانوا بطاعة الخلافة العباسية خلال هذه الفترة ولمدة قصيرة من الزمن استطاعوا اغتيال (أوغلمش) عامله في غربي بلاد فارس، وبهذا استطاع الناصر أن يكوِّن حاجزًا بينه وبين خوارزمشاه ومع ذلك فقد فرَّق الناصر السلاح وصرف الأموال للتحصين وإقامة المتاريس حول بغداد، ولكن

(١) الخلافة العباسية (٢/٢٢٦).

خوارزمشاه لم يتمكن من دخول العراق حيث صادفته بعد تركه همدان عاصفة ثلجية عاتية أهلكت دوابه والكثير من رجاله المقاتلين، كما تعرضوا لغارات من السكان المحليين مما جعل خوارزمشاه مضطرًا إلى الانسحاب بالبقية الباقية من جيشه منهار العزيمة خائر القوى(١).

ولم يكرر خوارزمشاه علاء الدين محمد محاولته لغزو بغداد؛ حيث توفي سنة (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م) وخلفه في حكم الخوارزميين ابنه جلال الدين منكبرتي، وكانت سياسته معادية للخليفة الناصر العباسي؛ حيث توسل كأبيه بالوسائل كافة لإسقاط الخلافة العباسية مع أنه كان يدرك أن الخطر المغولي بات على أبواب العالم الإسلامي، وكان جلال الدين منكبرتي يحاول إيجاد الأعذار والتبريرات من أجل غزو العراق إتمامًا لخطة أبيه، ولما فشل في إيجاد حلفاء له بين أمراء المسلمين عزم علي التقدم بنفسه نحو العراق فاستولى على إقليم الأحواز (عربستان) التابع إداريًا للخلافة المركزية في بغداد، ولكن منكبرتي فشل في احتلال عاصمة الأحواز آنذاك تستر، وأرسل الخليفة الناصر جيشه لحرب جلال الدين منكبرتي في الأحواز، وجرت المعركة في الأحواز سنة (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م) وانتصر منكبرتي على جيش الخلافة العباسية الذي انسحب نحو العراق، ثم أعاد الكرة على تستر ولكن الجيش العباسي صمد مدافعًا عن عاصمة الأحواز مما اضطر منكبرتي وجيشه إلى دخول حدود العراق الشرقية، فاصطدموا بالجيش المدافع عن البصرة الذي أوقع بهم ومنعهم من دخولها(٢).

إن فشل منكبرتي في احتلال أية مدينة مهمة في الأحواز وجنوبي العراق جعله ينهب ويدمر كل ما تقع عليه يده في القرى والمزارع التي مر بها، فانتشر السلب والنهب واضطرب حبل الأمن وقُطعت الطرق بين بغداد والبصرة، واندفع منكبرتي شمالًا باتجاه بغداد وأرسل إلى الخليفة الناصر رسولًا حمل رسالة إلى دار الخلافة وصفها أحد المؤرخين بأنها: رسالة تعنت وتعتب، مما يدل على الحالة النفسية السيئة التي كان يعيشها، وحين أصبح قاب قوسين أو أدنى من بغداد لم يهاجمها بل واصل سيره شمالًا وعسكر في بعقوبة(٣).

أما الخليفة العباسي الناصر فقد استعد تمام الاستعداد للدفاع عن سيادة العراق وكرامة أبنائه، وتأهب أهل بغداد أهل الصولات والجولات، واستعدوا للدفاع وأصلحوا السلاح وهيئوا النفط ونصبوا المجانيق على الأسوار، وفرّق الخليفة الناصر المال والسلاح، كما اتصل الخليفة الناصر بحاكم إربل زين الدين كوكبري وطلب منه مهاجمة جيش منكبرتي وقطع خطوط تموينه ومواصلاته، وتجاه هذه الظروف أدرك منكبرتي استعدادات العراقيين وخليفتهم الناصر، انسحب منكبرتي شرقًا بعد أن أمضى ثمانية عشر يومًا في بعقوبة، وبعد أن نهب بعض القرى

(١) الخلافة العباسية (٢/ ٢٢٧).
(٢) الخلافة العباسية (٢/ ٢٣٠).
(٣) المصدر نفسه (٢/ ٢٢٩).

المحيطة ببغداد من أجل تموين جيشه الذي قطعت ميرته، كما هاجم منكبرتي داقوقا وحاصرها ثم دخلها بجنوده الذين عاشوا فيها فسادًا وقتلًا ونهبًا، وهكذا فشل الهجوم الثاني للخوارزمية أمام صمود بغداد والخليفة العباسي.

لقد أبعد جلال الدين منكبرتي بسياسته العدوانية على الخلافة الكثير من أمراء المسلمين وعلى رأسهم الخليفة العباسي الناصر لدين الله وجعلهم جميعًا خصومًا له يَشْكُّون في أهدافه التوسعية وأطماعه في أقاليمهم، ولهذا كله تُرك وحيدًا في الميدان يجابه مصيره المحتوم أمام جموع المغول الذين قضوا عليه وعلى إمارته سنة (٦٢٨هـ/ ١٢٣١م)[1].

٩- الناصر لدين الله والإسماعيلية الشيعية: تمثل الحركة الحشيشية الباطنية جهودًا متطرفة (غالية) للتغلغل إلى العقيدة الإسلامية وتخريبها وتدمير أصولها وإحلال عقيدة ومُثُل وقيم أخرى محلها، وقد استطاعت هذه الحركة أن تحقق مكاسب سياسية مهمة في بلاد فارس على يد الحسن بن الصباح منذ سنة (٤٨٣هـ/ ١١٩٠م) حيث نجح هذا الداعية المتطرف في كسب سكان من بلاد الديلم وقزوين وأذربيجان وشكلت خطرًا كبيرًا على العراق والخلافة العباسية، وهدَّدوا الناس بما ارتكبوه من اغتيالات وعمليات إرهاب في أرجاء مختلفة من العالم الإسلامي، إلا أن سياسات الناصر لدين الله وشعور الحشيشية بقوة الخلافة العباسية في عهد الناصر أجبرهم على إعادة تقويم موقفهم على الأقل خلال تلك المرحلة، فقد أظهر الحسن الثالث بن محمد بن الحسن تمسكه بالإسلام وإقامة الفرائض وبناء المساجد، وراسل الخليفة الناصر من أجل التحالف معه في صراعه ضد الخوارزمية، ولكن الحشيشية اغتالوا إمامهم المعتدل وعادوا إلى عقيدتهم الباطنية الملحدة.

وهكذا فإن قوة الناصر وسياسته أثبتت فاعليتها حتى مع الحشيشية الذين اتبعوا خطة تنقذهم من سطوته ولو لبعض الوقت؛ حيث أظهروا ميلهم إلى التضامن ووحدة الصف مع العالم الإسلامي بقيادة الخليفة الناصر، ولكن هذا التظاهر لا يمكن أن يستمر طويلًا؛ حيث تذبذبوا بين العباسيين والخوارزمية، كما حاولوا أن يتقربوا إلى المغول أثناء زحفهم في بلاد فارس، ولكن هولاكو دمر قلاعهم عن آخرها[2].

ومن الدروس المستفادة؛ العمل على استيعاب أهل البدع ومحاولة إدخالهم ودمجهم في جمهور الأمة العريض عن طريق التعليم والتربية والحوار، والنقاش والدفع بالتي هي أحسن، وإذا كانوا شوكة وقوة تشكل خطر على عقيدة الأمة وأخلاقها وثقافتها وحضارتها يجب التصدي لهم بكل حزم وقوة وكسر تلك الشوكة والعمل على إزالة مشروعهم السياسي والعسكري من الوجود.

---

(١) الخلافة العباسية (٢/ ٢٣٠).
(٢) المصدر نفسه (٢/ ٢٣١).

١٠- الناصر وحكام بلاد الشام: كان موقف الخليفة الناصر من بلاد الشام واضحًا فهو مع كل دعوة إلى وحدة الصف والتضامن بين القوى الإسلامية ضد الحركة الباطنية الهدامة في الداخل، وضد الإفرنج المتسترين بالدين في الخارج، فقد كان التعاون الفرنجي الباطني أمرًا واقعًا قبيل هذه الفترة وخلالها، سواء كان هذا التعاون سريًا أم علنيًا، فإنه لم يكن يخفى على الخليفة الناصر الذي يمتلك جهاز مخابرات فعال ونشط تحركات الأعداء، ولقد تم التعاون بين راشد الدين سنان زعيم الحشيشية السورية -الباطنية- وأملريك ملك بيت المقدس الذي تمثل بإرسال الوفود بين الطرفين من أجل التفاهم والتنسيق ضد القوى الإسلامية، كما كونت الحشيشية حلفًا مع فرسان الأسبتارية الإفرنج ضد صلاح الدين والأمراء التابعين له، وإن الحشيشية كانت تنشر دعوتها في بلاد الشام تحت حماية هؤلاء الفرسان الصليبيين مقابل تعهد الحشيشية باغتيال الأمراء الذين يعارضون الأسبتارية، فقد أثار تبنيامين التطيلي الذي زار المنطقة في ذلك الوقت إلى تعاون اليهود مع الحشيشية وإلى وجود أربعة آلاف يهودي يقاتلون مع الحشيشية السورية بموافقة رأس الجالوت (زعيم اليهود الروحي)[١].

وإزاء هذا الموقف الخطير كان الناصر يدرك ضرورة دعم القوى الإسلامية التي تدعو إلى الوحدة والإسلام الصحيح، كما أن صلاح الدين وبقية الأمراء كانوا بحاجة ماسة إلى مساندة الخلافة العباسية من خلال عهود التولية والاعتراف بشرعية حكمهم ومراسم التقليد والتشريف، ولم يكن الأمر بالنسبة للخليفة الناصر سهلًا، فعملية حفظ التوازن بين أمراء بلاد الشام عملية دقيقة وحساسة؛ ذلك لأن بعض الأمراء من الأتابكة وغيرهم كانوا لا يفهمون مقاصد صلاح الدين ويخشون من مشروعاته ونفوذهم واستقلاليتهم في القرار السياسي في المناطق التي يحكمونها، ويبدو أن الخليفة الناصر كان يفضل العمل السياسي والتدريجي على العمل العسكري الحاسم، ولهذا كان كثيرًا ما يتوسط بين صلاح الدين والأمراء الأيوبيين من بعده وبين حكام الأتابكيات الآخرين من أجل الوصول إلى تفاهم سياسي وتجنب سفك الدماء بين المسلمين[٢].

وفي عهد الملك الكامل الأيوبي استمرت العلاقة على ما كانت عليه بين الخليفة الناصر والأيوبيين ولم تنحصر علاقة الخليفة لدين الله بالملك الكامل بل امتدت لتشمل باقي ملوك الأيوبيين، فلم يقبل الملك المعظم مساعدة جلال الدين الخوارزمي في محاربة الخليفة[٣] عندما طلب منه الخوارزمي ذلك[٤].

---

(١) الخلافة العباسية (٢/ ٢٣٢) الحركة الشعوبية ص١٣٤ .
(٢) الخلافة العباسية (٢/ ٢٣٣).
(٣) القدس بين أطماع الصليبيين وتفريط الملك الكامل ص١٨٣ .
(٤) المصدر نفسه ص١٨٣ .

١١- بدايات الاحتكاك المغولي بحدود (دار الإسلام): بدأ المغول الاحتكاك بالعالم الإسلامي في السنوت الأخيرة من عهد الخليفة الناصر لدين الله، ومعنى ذلك أنهم لم يكونوا قد شكَّلوا خطرًا على (دار الإسلام)، كما أن خططهم وطموحاتهم لم تكن معروفة فيما يتعلق بالخلافة أو أقاليمها رغم أنهم دخلوا في صراعات محدودة في البداية مع كيانات إسلامية محايدة لهم[١]. لقد كانت الصفحة الأولى[٢] من الاحتكاك المغولي بالعالم الإسلامي والتي تبدأ من سنة (٦١٦هـ/ ٦١٧هـ) إلى سنة (٦٢٠هـ) وهي السنة التي تُوفي فيها جنكيز خان عبارة عن غارات متعددة وغزوات مفاجئة على مدن وأقاليم بلاد ما وراء النهر وخراسان، وهدفها جس النبض وتحسس قوة أمراء المسلمين، ولم يذكر التاريخ للخليفة الناصر أي دور معين تجاهلها خاصة، وأنه كان في أواخر حياته مشلولًا أنهكه المرض حيث تُوفي سنة (٦٢٢هـ)[٣].

١٢- أقول المؤرخين فيه وأيامه الأخيرة:

- قال الذهبي: وكان مستقلًّا بالأمور بالعراق، متمكنًا من الخلافة، يتولى الأمور بنفسه ما زال في عزٍّ وجلالة واستظهار وسعادة[٤]، وكان شديد الاهتمام بالملك، لا يخفى عليه كبير شيء من أمور رعيته، أصحاب أخباره في البلاد، حتى كأنه شاهد جميع البلاد دفعة واحدة، كانت له حيل لطيفة وخِدع لا يفطن إليها أحد، يوقع صداقة بين ملوك متعادين، ويُوقع عداوة بين ملوك متوادين ولا يُفطنون[٥].

- **قال ابن النجار:** دانت السلاطين للناصر، ودخل تحت طاعته من كان من المخالفين، وذلت له العتاة والطُّغاة، وانقهرت لسيفه الجبابرة، وفتح البلاد العديدة، وملك من الممالك ما لم يملكه أحد ممن تقدَّم من السلاطين والخلفاء والملوك، وخُطب له ببلاد الأندلس وبلاد الصين، وكان أسد بني العباس تتصدع لهيبته الجبال، وكان حسن الخَلْقِ، لطيف الخُلُق، كامل الظرف، فصيح اللسان، بليغ البيان، له التوقيعات المسددة والكلمات المؤيدة، كانت أيامه غُرَّةً في وجه الدهر، ودُرَّةً في تاج الفخر[٦].

وقال ابن واصل: . . وكان مع ذلك رديء السيرة في الرعية، مائلًا إلى الظُّلم والعَسْفِ، وكان يفعل أفعالًا متضادة، وكان يتشيَّعُ ويميل إلى مذهب الإمامية، بخلاف آبائه، حتى إن ابن الجوزي سئل بحضرته من أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: أفضلهم بعده من كانت ابنتُه تحته، فكنَّى بفضل الصِّدِيق ولم يقدر أن يصرح[٧].

---

(١) الخلافة العباسية (٢/ ٢٣٥).
(٢) المصدر نفسه.(٢/ ٢٣٥).
(٣) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٢٤٢)، الخلافة العباسية (٢/ ٢٣٥٦).
(٤) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ١٩٢-٢٤٢).
(٥) المصدر نفسه (٢٢/ ١٩٥).
(٦) شذرات الذهب (٧/ ١٧٣).
(٧) المصدر نفسه (٧/ ١٧٣) مفرج الكروب (٤/ ١٦٧).

وهذا بعيد مع وجود الممالك السنية؛ كالأيوبية وغيرها، والحاكم همه جمع الرعية والملوك حوله، وربما يكون قد وسَّع على الشيعة الإمامية أكثر من غيره وأحسن إليهم.

- **وقال ابن الأثير**: وبقي الناصر لدين الله ثلاث سنين عاطلًا عن الحركة بالكلية، وقد ذهبت إحدى عينيه والأخرى يبصر بها إبصارًا ضعيفًا، وفي آخر الأمر أصابه دوسنطاريا عشرين يومًا ومات، ووزَّر له عدة وزراء، وقد تقدم ذكرهم، ولم يطلق في طول مرضه شيئًا كان أحدثه في الرسوم الجائرة، وكان قبيح السيرة في رعيته ظالمًا، فخرب في أيامه العراق، وتفرق أهله في البلاد، وأخذ أملاكهم وأموالهم، وكان يفعل الشيء وضده، فمن ذلك أنه عمل دور ضيافة ببغداد ليفطر الناس عليها في رمضان، فبقيت مدة، ثم قطع ذلك، ثم عمل دور الضيافة للحجاج، فبقيت مدة ثم أبطلها، وأطلق بعض المكوس التي جددها ببغداد خاصة، ثم أعادها وجعل جُلَّ همه في رمي البندق، والطيور والمناسيب، وسراويلات الفتوة، فبطل الفتوة في البلاد جميعها، إلا من يلبس منه سراويل يدعى إليه، ولبس كثير من الملوك منه بسراويلات الفتوة، وكذلك أيضًا منع الطيور المناسيب لغيره إلا ما يؤخذ من طيوره، ومنع الرمي بالبندق إلا من ينتمي إليه، فأجابه الناس بالعراق وغيره إلى ذلك إلا إنسانًا واحدًا يقال له: ابن السفت من بغداد، فإنه هرب من العراق ولحق بالشام، فأرسل إليه يرغبه في المال الجزيل ليرمي عنه، وينسب في الرمي إليه فلم يفعل، فبلغني أن بعض أصدقائه نكر عليه الامتناع من أخذ المال، فقال: يكفيني فخرًا أنه ليس في الدنيا رمي للخليفة إلا أنا، فكان غرام الخليفة بهذه الأشياء من أعجب الأمور، وإن كان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحًا من أنه هو الذي أطمع التتر في البلاد وراسلهم في ذلك، فهو الطامة الكبرى التي يصغر عندها كل ذنب عظيم(١).

- **وقال ابن كثير**: وقد ذُكِر عنه أشياء غريبة؛ من ذلك أنه كان يقول للرسل الوافدين عليه: فعلتم في مكان كذا كذا وكذا، وفي الموضع الفُلاني كذا، حتى ظنَّ بعض الناس أو أكثرهم أنه كان يُكاشف، أو أن جنيًّا يأتيه بذلك(٢).

وقال: وكان مرضه قد طال به، وجُمهوره من عَسار البول، مع أنه قد كان يُجْلَبُ له الماء من مراحل عن بغداد ليكون أصفى، وشُقَّ ذكرهُ مرات بسبب ذلك، ولم يغن عنه هذا الحذر شيئًا، وكان الذي ولي غسله محي الدين يوسف ابن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي وصلَّى عليه ودُفن في دار الخلافة، ثم نقل إلى التُّرابِ من الرُّصافةِ في ثاني ذي الحجة من هذه السنة (٦٢٢هـ) وكان يومًا مشهودًا(٣).

---

(١) الكامل في التاريخ (٩/ ٤٧٦).

(٢) البداية والنهاية (١٧/ ١٣٤).

(٣) المصدر نفسه (١٧/ ١٣٤).

- وقال الدكتور فاروق عمر فوزي: لقد كان نظام الفُتُوَّة محاولة جادة من قبل خليفة داهية وسياسي محنك لبث روح جديدة وعزيمة فتية في نفوس الشباب والقادة في المجتمع العربي الإسلامي من خلال انخراطهم في تنظيم يتزعمه الخليفة ويقوده بنفسه من أجل مواجهة المخاطر التي تهدد الدولة كخطر الباطنية والغلو في الداخل والمغول التتار والإفرنج في الخارج، ولتحقيق روابط جديدة ومتينة بين ملوك الأطراف المسلمين للثبات أمام المحن والشدائد(١).

إن خليفة مثل الناصر أعاد هيبة الخلافة وقضى على النفوذ السلجوقي الأجنبي في العراق، وهدم دار السلطنة السلجوقية في بغداد حتى أُطلق عليه لقب (أسد بني العباس تتصدع لهيبته الجبال). إن خليفة يمثل هذه المواصفات والإنجازات لا بد وأن ينتقدوه منافسوه، وأعداؤه الذين كانوا يتوقون إلى ضعف الخلافة وسقوطها لكي يخلو لهم الجو السياسي، ومن هنا نلاحظ بعض الروايات التي تشكك في إجراءاته وسياساته وخاصة نظام الفتوة الناصرية حيث اعتبرته دلالة طيش ولهو أدى إلى إهمال الخليفة لشئون الدولة والانشغال برسوم الفتوة مثل الرمي بالبندقية وتربية الطيور وما إلى ذلك، ليس في هذه الروايات شيء من الصحة(٢).

إن النتائج السياسية والعسكرية للفُتُوَّة التي أعادت للدولة هيبتها وللتضامن الإسلامي بين أمراء الأطراف قوته ومتانته أكبر دليل على ضعف تلك الافتراءات، إن هذه المبالغات هي حلقة من سلسلة التشكيك الذي تعرضت إليه شخصية الناصر وسياساته من أعدائه ومنافسيه داخل دار الإسلام وخارجها، وقد وصلت هذه الحملة ذروتها في اتهامه بمراسلة المغول(٣) وحثهم على غزو دار الإسلام، وهو أمر لا يعقل أن يقوم به خليفة عربي عباسي هاشمي(٤)، لقد كان الخليفة الناصر لدين الله من خلفاء بني العباس المتأخرين الذين يستحقون التقدير؛ لأنهم حققوا مكاسب مهمة للخلافة والمجتمع في وقت صعب اشتدت فيه الأزمات(٥).

ثامنًا: خلافة الظاهر بن الناصر لدين الله عام (٦٢٢هـ):

لما تُوفي الخليفة الناصر لدين الله كان قد عهد إلى ابنه أبي نصر محمد هذا ولقَّبه بالظاهر، وخُطب له على المنابر، ثم عزله عن ذلك بأخيه علي، فتوفي في حياة أبيه سنة ثنتى عشرة، فاحتاج إلى إعادة هذا إلى ولاية العهد، فخُطب له ثانيًا، فحين توفي أبوه بُويع له بالخلافة وعمره يومئذ ثنتان وخمسون سنة، فلم يَلِ الخلافة أحدٌ من بني العباس أسنُّ منه، وكان عاقلًا وقورًا دينًا عادلًا محسنًا ردَّ مظالم كثيرة، وأسقط مكوسًا كان قد أخذها أبوه وسار في الناس سيرة حسنة، حتى قيل: إنه لم يكن بعد عمر بن عبد العزيز أعدل منه لو طالت مدته، لكنه لم يَحُلْ عليه

(١) الخلافة العباسية (٢/٢١٦).
(٢) الخلافة العباسية (٢/٢١٧).
(٣) المصدر نفسه (٢/٢١٧).
(٤) المصدر نفسه (٢/٢١٧).
(٥) الخلافة العباسية (٢/٢٣٧).

الحول، بل كانت مدته تسعة أشهر، أسقط الخراج الماضي عن الأراضي التي قد تعطَّلت، ووضع عن أهل بلدةٍ واحدةٍ -وهي بعقوبة- سبعين ألف دينار كان أبوه قد زادها عليهم في الخرَاجِ، وكانت ضجة المخزن تزيد على ضجة البلد نصف دينار في كل مائة إذا قبضوا، وإذا أقبضوا دفعوا بضجة البلد، فكتب إلى الدِّيوان: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ١-٦].

فكتب إليه بعض الكُتَّاب يقول: يا أمير المؤمنين، إن تفاوت هذا عن العام الماضي خمسة وثلاثة ألفًا، فأرسل ينكر عليه ويقول: هذا يترك وإن كان تفاوته ثلاثمائة ألف وخمسين ألفًا[١]، وأمر القاضي أن كل من ثبت له حق بطريق شرعي يُوصَلُ إليه بلا مُراجعة، وأقام في النظر على الأموال الحشرية رجلًا صالحًا، واستخلص على القضاء الشيخ العلَّامة عماد الدين أبا صالح نصر بن عبد الرَّزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي الحنبلي في يوم الأربعاء ثامن ذي الحجة، وكان من خيار المسلمين ومن خيار القُضاة العادلين -رحمهم الله أجمعين- ولما عُرض عليه القضاء لم يقبل إلا بشرط أن يُوَرِّث ذوي الأرحام، فقال: أعطِ كل ذي حق حقَّه وأنفق لله ولا تَتَّقِ سواه.

وكان من عادة أبيه أن يرفع إليه حُرَّاسُ الدُّروب في كل صباح بما كان عندهم في المحال من الاجتماعات الصالحة والطالحة، فلما ولي الظاهر أمر بتبطيل ذلك كله وقال: أي فائدة في كشف أحوال الناس وهتك أستارهم؟ فقيل له: إن ترك ذلك يفسد الرَّعية فقال: نحن ندعو الله لهم أن يُصلحهم، وأطلق من كان في السجون مُعتقلًا على الأموال الدِّيوانية، وردَّ عليهم ما كان استُخرج منهم قبل ذلك من المظالم، وأرسل إلى القاضي بعشرة آلاف دينار يُوَفِّي بها دُيون من في سجونه من المدينين الذين لا يجدون وفاء، وفرَّق في العلماء بقية المائة ألف، وقد لامه بعض الناس في هذه التَّصرفات فقال: إنما فتحت الدُّكان بعد العصر، فذروني أعمل صالحًا وأفعل الخيرَ، فكم مقدار ما بقيت أعيش[٢].

قال ابن كثير: وكان من أجود بني العباس سيرة، وأحسنهم سريرة، وأكثرهم عطاء، وأحسنهم منظرًا ورُواء، ولو طالت مدته لصلحت الأمة صلاحًا كثيرًا على يديه، ولكن أحبَّ الله تقريبه وإزلافه لديه، فاختار له ما عنده وأجزل له إحسانه ورفده[٣]... فقد اعتمد في أول ولايته من إطلاق الأموال الدِّيوانية، وردّ المظالم، وإسقاط المكوس، وتخفيف الخراج عن الناس، وأداء الديون عمَّن عجز عن قضائها، والإحسان إلى العلماء والفقراء، وتولية ذوي الديانة، وقد كان كتب كتابًا لوُلاة الرعية فيه:

---

(١) البداية والنهاية (١٧/ ١٣٦، ١٣٧).

(٢) المصدر نفسه (١٧/ ١٣٧).

(٣) المصدر نفسه (١٧/ ١٤٩).

بسم الله الرحمن الرحيم، اعلموا أنه ليس إمهالنا إهمالًا، ولا إغضاؤنا احتمالًا، ولكن لنبلوكم أيكم أحسنُ عملًا، وقد غفرنا لكم ما سلف من إخراب البلاد، وتشريد الرَّعايا وتقبيح السُّمعة، وإظهار الباطل الجَلي في صورة الحقِّ حِيلة ومكيدة، وتسمية الاستئصال والاجتياح استيفاءً واستدراكًا، لأغراض انتهزتم فُرَصَها، مختلسة من براثن ليث باسل، وأنياب أسد مَهيب، تتفقون بألفاظ مختلفة على معنى واحد، وأنتم أُمناؤه وثقاتُه فتُمِيلون رأيه إلى هواكم وتمزجُون باطلكم بحقِّه، فيُطيعُكم وأنتم له عاصون، ويُوافقكم وأنتم له مخالفون، والآن قد بدَّل الله بخوفكم أمنًا، وبفقركم غنًى، وبباطلكم حقًّا، ورزقكم سُلطانًا يُقيلُ العثرة، ولا يُؤاخذُ إلا من أصرَّ، ولا ينتقم إلا ممن استمرَّ، يأمركم بالعدل وهو يريده منكم، وينهاكم عن الجور وهو يكرهه لكم، يخاف الله فيُخوِّفُكم مكره، ويرجو الله تعالى ويُرَغِّبكم في طاعته، فإن سلكتم مسالك خُلفاء الله في أرضه وأُمنائه على خلقه وإلا هلكتم، والسلام[١].

وجاء في بعض الروايات: بل أنتم إلى إمام فعَّال أحوج منكم إلى إمام قوَّال[٢]... ثم لقد أعلن عفوه عما سلف من خراب البلاد وتشريد الرعايا وتقبيح الشريعة وإظهار الباطل بصورة الحق، وأمرهم بأن يبدءوا صفحة جديدة من العمل تقوم على العدل والطاعة[٣]، إن من أسباب صلاح الأمة مجيء الخليفة أو الحاكم المصلح الذي يقيم العدل ويتبع المنهج الرشيد الذي يسهم في تقوية الدولة والقيام بدورها الحضاري كما مرَّ معنا في الحديث عن عمر بن عبد العزيز ومشروعه الإصلاحي الكبير.

وكانت وفاة الخليفة الظاهر رحمه الله يوم الجمعة ضُحَى الثالث عشر من رجب من هذه السنة؛ أعني سنة ثلاث وعشرين وستمائة، ولم يعلم الناس بموته إلا بعد الصلاة، فدعا له الخطباءُ يومئذ على المنابر على عادتهم، وكانت خلافته تسعة أشهر وأربعة عشر يومًا وعمره ثنتان وخمسون سنة[٤]، وكان نعم الخليفة خشوعًا وخضوعًا لربه وعدلًا في رعيته، وازديادًا في وقت من الخير ورغبة في الإحسان[٥]، وكان أبيض جميل الصورة مشربًا حمرة، حلو الشمائل، شديد القوى[٦]، وحُكي عنه أنه دخل إلى الخزائن فقال له خادم: في أيامك تمتلئ، قال: ما عُملت الخزائن لتُملأ، بل لتفرغ وتنفق في سبيل الله، إن الجمع شُغل التُّجار[٧].

تاسعًا: الخليفة المستنصر بالله (٦٢٣هـ-٦٤٠هـ):

بُويع بالخلافة يوم أن مات أبوه جمعة ثالث عشر رجب في هذه السنة، سنة ثلاث وعشرين وستمائة، استدعوا به التاج، فبايعه الخاصة والعامَّة من أهل الحَلِّ والعقد، وكان يومًا مشهودًا،

---

(١) البداية والنهاية (١٧/ ١٥٠).
(٢) الخلافة العباسية (٢/ ٢٤٧).
(٣) المصدر نفسه (٢/ ٢٤٧).
(٤) البداية والنهاية (١٧/ ١٤٨، ١٤٩).
(٥) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٢٦٦).
(٦) المصدر نفسه (٢٢/ ٢٦٦).
(٧) المصدر نفسه (٢٢/ ٢٦٦).

وكان عمره يؤمئذ خمسًا وثلاثين سنة وخمسة أشهر وأحد عشر يومًا، وكان من أحسن الناس شكلًا وأبهاهم منظرًا وهو كما قال القائل:

كأن الثُّريَّا عُلِّقت في جبينه وفي خدِّه الشِّعْرَى وفي وجهه القمرُ[١]

وكانت مدة ولايته ستَّ عشرة سنة وعشرة أشهر وسبعة وعشرين يومًا ودفن بدار الخلافة، كان كثير الصدقات والبر والصِّلات، محسنًا إلى الرعية بكل ما يقدر عليه، كان جده الناصر قد جمع ما يتحصَّل من الذهب في بركة بدار الخلافة، فكان يقف على حافَّتها ويقول: أتُرى أعيش حتى أملأها، وكان المستنصر يقف على حافتها ويقول: أتُرى أعيش حتى أنفقُها كلَّها، وكان يَبْني الرُّبُط والخانات والقناطر في الطرُّقات من سائر الجهات، وقد عمل بكل محلَّة من محالِّ بغداد دار ضيافة للفقراء، لا سيما في شهر رمضان، وكان يتقصَّد الجواري اللاتي قد بلغن الأربعين فيُشترين له فيعتِقُهن ويُجَهزُهن ويُزَوِّجُهن، وفي كل وقت يبْرُزُ صِلاته ألوف متعدِّدة من الذهب تُفَرَّقُ في المحالِّ ببغداد على ذوي الحاجات والأرامل والأيتام[٢] وغيرهم، وقد وضع ببغداد المدرسة المستنصرية للمذاهب الأربعة، وجعل فيها دار حديث ومارستانًا وحمامًا ودار طِبٍّ وجعل لمستحقيها من الجوامك والأطعمة والحلاوات والفواكه وما يحتاجون إليه في أوقاته، وأوقف عليها أوقافًا عظيمة حتى قيل: إن ثمن التِّبْنِ من غَلَّاتِ ريعها يكفي المدرسة وأهلها، ووقف فيها كُتُبًا نفسية ليس لها في الدنيا نظير، فكانت هذه المدرسة جمالًا لبغداد، بل لسائر البلاد[٣]، وقد احترق في عهد المستنصر عام (٦٤٠هـ) المشهد الذي بسامراء المنسوب إلى عليِّ الهادي والحسن العسكري، وقد كان بناه أرسلان البساسيريُّ في أيام تغلُّبهِ على تلك النَّواحي في حدود سنة خمسين وأربعمائة، فأمر الخليفة المستنصرُ بإعادته إلى ما كان عليه... وهو المشهد الذي يزعمون أنه يخرج منه المنتظر الذي لا حقيقة له ولا عينَ ولا أثَر، ولو لم يُبْنَ لكان أجود، وهو الحسن بن علي بن محمد الجَوَاد بن عليِّ الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد بن الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد بكربلاء ابن علي بن أبي طالب -رضي الله عنهم- أجمعين- وقبَّح من يغلو فيهم ويبُغِضُ بسببهم من هو أفضل منهم[٤].

وكان المستنصر رحمه الله كريمًا حَليمًا رئيسًا متودِّدًا إلى الناس، وكان جميل الصورة وحسن الأخلاق، بَهيَّ المنظر، عليه نور بيت النبوة -رضي الله عنهم- تعالى وأرضاه- وحُكي أنه اجتاز راكبًا في بعض أزقة بغداد قبل غروب الشمس من رمضان، فرأى شيخًا كبيرًا، ومعه إناء فيه طعام، قد حمله من مَحَلَّةٍ إلى محلة أخرى فقال: أيها الشيخ، لِمَ لا أخذت الطعام من مَحَلَّتِك؟ أوَأنت محتاجٌ فتأخذ من المحَلَّتين؟ فقال: لا والله يا سيدي -ولم يَعرِف أنه الخليفة- ولكنِّي شيخ كبير

(١) البداية والنهاية (١٧/ ١٥١).
(٢) المصدر نفسه (١٧/ ٢٦٠).
(٣) البداية والنهاية (١٧/ ٢٦١).
(٤) البداية والنهاية (١٧/ ٢٦١).

وقد نزل بي الوقت، وأنا أستحي من أهل مَحَلَّتي أن أُزاحِمهم وقت الطعام، وأتحيَّنُ وقت كون الناس في صلاة المغرب، فأدخل بالطعام إلى منزلي حيث لا يراني أحد، فبكى الخليفة رحمه الله وأمر له بألف دينار، فلما دفعت إليه فرح الشيخ فرحًا شديدًا حتى قيل: إنه انشقَّ قلبه من شدة الفرح، ولم يَعِشْ بعد ذلك إلا عشرين يومًا ثم مات، فحُملت الألف دينار إلى الخليفة؛ لأنه لم يخلف وارثًا وقد أنفق منها دينارًا واحدًا، فتعجَّب الخليفة من ذلك وقال: شيء قد خرجنا عنه لله لا يَعود إلينا، تصدَّقوا بها على فقراء محَلَّته[١].

لقد كانت سيرته رحمه الله من أحسن سير العدل والإحسان إلى الرعية والعطف عليهم والحنو بهم، وكان سالكًا في ذلك كله سيرة أبيه الإمام الظاهر بأمر الله، وكذلك سلك مسلكه في اعتقاد مذهب أهل السنة والجماعة والكراهية لمذهب الروافض[٢]، وكان ذا همة عالية، وشجاعة وافرة، وإقدام عظيم[٣]، وقصدت التتر بلاد العراق، فلقيهم عسكره، وانتصف منهم وهزمهم، وكان له أخ يعرف بالخفاجي كان يزيد عليه في الشهامة والشجاعة، وكان يقول: إن ملَّكني الله أمر الأمة، لأعبرن بالعساكر نهر جيحون، وأنتزع البلاد من أيدي التتر، وأستأصلهم قتلًا وسبيًا[٤]، وقد تُوفي المستنصر عام (٦٤٠هـ)، ولما بلغت الملك الناصر داود الأيوبي صاحب الكرك وفاة الخليفة المستنصر بالله، رثاه ومدح ولده المستعصم بالله بقصيدة مطلعها:

أيا رنَّة الناعي عبثتِ بمسمعي ... فأجَّجت نار الحزن ما بين أضلعي
وأخرست مِني مقولًا ذا براعة ... يصوغ أفانين القريض الموشَّع
نعيتِ إليَّ البأس والجود والحجا ... فأوقفت آمالي وأجريتِ أدمعي
رويدًا فقد فاجأتني بفظيعة ... يضيق بها صدرُ الفضاءِ الموسَّع
أبا جعفر يا باني المجد بعد ما ... تهدَّم ركن المجد من كل موضع
ويا كافل الإسلام في كل موطن ... وراعي رعاة الدين في كل مجمع[٥]

وهي قصيدة طويلة في رثاء المستنصر.

عاشرًا: وفاة كاتب الديوان في عهد المستنصر (ت ٦٢٦هـ):

وقد خصصناه بالترجمة لوجود عبارات له تدل على عمق الإيماق وصدق التوجه، وحرارة الإخلاص، عبّر على تلك المعاني بعبارات فائقة الجمال هو أبو الفضل جبريل بن منصور بن هبة الله بن جبريل بن الحسن بن غالب بن يحيى بن موسى بن يحيى بن الحسن بن النعمان بن المنذر، المعروف بابنِ زُطينا البغدادي، كان كاتب الديوان بها أسلم، وكان نصرانيًا، فحسُن إسلامه،

(١) المصدر نفسه (١٧/ ٢٦٢).
(٢) مفرج الكروب (٥/ ٣١٥، ٣١٦).
(٣) المصدر نفسه (٥/ ٣١٧).
(٤) المصدر نفسه (٥/ ٣١٨).
(٥) المصدر نفسه (٥/ ٣١٩).

وكان من أفصح الناس وأبلغهم موعظة، فمن ذلك قوله: خيرُ أوقاتك ساعة صفت لله، وخلصت من الفِكرة لغيره والرجاء لسواه، وما دمت في خدمة السلطان، فلا تغتَرَّ بالزمان، اكفُف كفَّك، واصرف طَرْفَك، وأكثر صومك، وأقْلِلْ نومك واشكُر ربَّك يحمد أمرُك[1]، وقال: زاد المسافر مقدم على رحيله، فأعدَّ الزاد تبلغْ المراد. وقال: إلى متى تتمادى في الغفلة؟ كأنك قد أمِنْتَ عواقب المُهلة، عمرُ اللهوِ مضى، وعمر الشبيبةِ انقضى، وما حصلت من ربك على ثقة بالرِّضا، وقد انتهى بك الأمر إلى سنِّ التَّخاذُل، وزمن التكاسُل وما حظِيتَ بطائل[2].

وقال: رُوحُك تَخْضع، وعينك لا تدمع، وقلبك لا يخشع، ونفسُك لا تشبع، وتظلم نفسك وأنت لها تَتوَجَّع، وتظهر الزهد في الدنيا وفي المال تطمع، وتطلب ما ليس له بحقٍّ وما وجب عليك من الحقِّ لا تدفع، وتذُوم فضل ربك وللماعون تمنع، وتَغيبُ نفسك الأمّارة وهي عن اللهو لا ترجع، وتوقظ الغافلين بإنذارِك وتتناوم عن سهمك وتهجع، وتَخُصّ غيرَك بخيرك ونفسك الفقيرة لا تنفع، وتَحُومُ على الحق وأنت بالباطل مُولع، وتتعثر في المضايق وطريق النجاة مَهْيَع[3].

وتتهجم على الذنوب وفي المجرمين تشفع، وتركن إلى دار السلامة وأنت بالعطب مُرَوَّع، وتحرص على زيادة الاكتساب وحسابك في كِفْلِ غيرك يُوضع، وتُظهر القناعة بالقليل وبالكثير لا تشبع، وتُعمِّرُ الدار الفانية ودارُك الباقية خراب بلقع، وتستوطن في منزل رحيل كأنك إلى ربك لا ترجع، وتظُن أنك بلا رقيب وأعمالك إلى المراقب تُرفع، وتقدم على الكبائر وعن الصغائر تتورَّع، وتؤمِّلُ الغُفران وأنت عن الذنوب لا تُقلع، وترى الأهوال محيطة بك وأنت في ميدان اللهو ترتع، وتستقبل أفعال الجُهَّال وباب الجهل تَقرَع، وقد آن لك أن تأنف من التَّعَسُّفِ وعن الدَّنايا تترفع، وقد سار المُخِفُّون وتخَلفَّت فماذا تتوقع؟[4].

---

(١) البداية والنهاية (١٧/ ١٧٧).
(٢) المصدر نفسه (١٧/ ١٧٨).
(٣) المصدر نفسه (١٧/ ١٧٨) المهيع من الطريق: البين الوسيط.
(٤) البداية والنهاية (١٧/ ١٧٩).

المبحث الرابع

الحملة الصليبية السادسة

لم تحقق الحملة الخامسة التي قادها الملك جان برين هدفها، وانتهت بمعاهدة صلح وقعها الملك الكامل وقادة الصليبيين عام (٦١٨هـ/ ١٢٢١م) إلا أن نتائج الحملة لم تُطَمئِن الملك جان دي برين، ولم تصرفه عن محاولات احتلال بيت المقدس، فذهب بنفسه عام (٦١٩هـ/ ١٢٢٢م) إلى إيطاليا لمقابلة البابا، ليشرح له ما آلت إليه أوضاع الفرنجة من سوء في بلاد الشام بعد فشل الحملة السابقة، كذلك التقى بالإمبراطور فردريك الثاني، وحثَّه على القيام بحملة جديدة على الشرق (الحملة السادسة) تنقذ موقف الصليبيين المتدهور[١] ، ثم زار فرنسا وأسبانيا لإثارة حماس مليكهما للمساهمة في تخليص بيت المقدس من المسلمين، وقد تحسنت مكانة الملك الكامل بعد خروج الصليبيين من دمياط عام (٦١٨هـ/ ١٢٢١م) واكتسب احترام العالم الإسلامي، وفرض سلطانه على الممالك الأيوبية، وتوقع أن يسير الأمراء والملوك الأيوبيون في فلكه، وأن يؤيدوا سياسته ومشروعاته المستقبلية، غير أن أخاه الملك المعظم حاول الخروج على طاعته، وتطلع لتوسيع أملاكه، فهاجم حماة واستولى على بعض أعمالها[٢] ، فأمره الملك الكامل بوقف العمليات العسكرية ضد حماة، فامتثل الملك المعظم لتعليمات أخيه، وكظم غيظه[٣] .

إلا أن التوتر بين الملك المعظم وأخويه الكامل والأشرف استمر؛ إذ اعتقد الملك المعظم أن أخويه السابقين تمالا عليه، وترجم ذلك إلى خلاف شديد، عندما عاد الملك الأشرف من مصر إلى خلاط مارًّا بدمشق ولم يقبل ضيافة أخيه الملك المعظم، ونزل في سرادق والده[٤] ، وسعى الملك المعظم إلى إضعاف شوكة أخويه الكامل والأشرف، فدعم التمرد الذي قام به أخوه شهاب الدين على أخيه الملك الأشرف في خلاط، إلا أن الأخير نجح في احتواء التمرد، كذلك نجح الملك الكامل في عزل أخيه الملك المعظم عن سائر الأمراء الأيوبيين، ولما شعر المعظم بالخطر الذي يهدده اتصل بخوارزم شاه لدعمه، فأعانه على أخيه الملك الأشرف موسى، ووعده بأن تكون له الخطبة والسكة في دمشق[٥]، وأقام الملك المعظم حلفًا مع

---

(١) الحركة الصليبية (٢/ ٩٩٤) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٧٢ .
(٢) مفرج الكروب (٤/ ١٢٩) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٧٢ .
(٣) السلوك (١/ ٢٥٠) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٧٢ .
(٤) النجوم الزاهرة نقلًا عن القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٧٣ .
(٥) المصدر نفسه ص٢٧٣ .

صاحب إربل، وأرسل ولده الملك الناصر داود ليكون رهينة[١] لديه دلالة على صدقه، وأحس الملك الأشرف بخطر الدولة الخوارزمية الذي باتت تهدد الممالك الأيوبية قاطبةً؛ إذ أصبحت أملاكها تجاور أملاك الأيوبيين، فهرع الأشرف عام (٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م) إلى أخيه المعظم طالبًا منه العمل بسرعة لتوحيد جبهة البيت الأيوبي أمام الخطر الخوارزمي[٢]، فاستغل الأخير الفرصة وتمكن من إجباره على التعهد بمساعدته في الاستيلاء على حمص وحماة ومهاجمة الملك الكامل في مصر، ولكن الأشرف ما كاد يفلت من يد أخيه المعظم حتى رجع عن جميع ما تقرر بينه وبين أخيه المعظم وتأول في أيمانه التي حلفها أنه كان مكرهًا عليها، وأكد تحالفه مع الكامل وأخبره بكل ما حدث[٣].

أدرك الملك الكامل الخطر الذي يتهدده من تحالف أخيه المعظم مع خوارزم شاه، فكان أن ردَّ على ذلك بأن استعان بالإمبراطور فردريك الثاني، وأرسل له الأمير فخر الدين يوسف وتعهد له بمنحه بيت المقدس، وجميع فتوحات صلاح الدين بساحل الشام[٤]، ليشغل سر أخيه المعظم[٥]، لإضعاف شوكة المعظم وتحجيمه، وقد أحسن الإمبراطور استقبال مبعوث الملك الكامل، ورد بسفارة مماثلة تحمل هدية سنية وتحف غريبة، كان فيها عدة خيول، ؛ منها فرس الملك، بمركب ذهب مرصع بجوهر فاخر، واستقبل الملك الكامل مبعوث الإمبراطور بيراردوا بالسرور البالغ خارج القاهرة بنفسه وأكرمه إكرامًا زائدًا، وأعد له هدية فاخرة فيها الكثير من تحف اليمن والهند وسرج من ذهب، وجوهرة بعشرة آلاف دينار[٦]، وكلف جمال الدين بن منقذ الشيرازي للسير بهذه الهدية[٧]، وعرج مبعوث الإمبراطور على دمشق وطلب من الملك المعظم تسليم بيت المقدس، ولكن المعظم أغلظ له القول، وقال: قل لصاحبك ما أنا مثل الغير، وما له عندي سوى السيف[٨].

وبادر الملك المعظم بتجهيز العساكر إلى نابلس[٩]لحماية القدس من مطامع الإمبراطور، وأنفق في هذه العساكر مبلغ تسعمائة ألف درهم[١٠]، ولكن الموت عاجله عن عمر يقارب السابعة والأربعين عام (٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م) وخلفه ابنه الملك الناصر داود، ولا شك أن وفاة الملك المعظم عيسى وضعت حدًّا لمشاكل الملك الكامل، فزالت مخاوفه، وانهار التحالف بين خوارزم شاه وصاحب إربل والمعظم، فبدأ الملك الكامل يتطلع إلى ضم بلاد الشام تحت سلطانه[١١].

---

(١) القدس بين أطماع الصليبين وتفريط الملك الكامل ص٢٧٣ .
(٢) المختصر (٣/ ١٣٥).
(٣) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٧٤ .
(٤) المصدر نفسه ص٢٧٤ .
(٥) مفرج الكروب (٤/ ٢٣٤).
(٦) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٧٤ .
(٧) المصدر نفسه ٢٧٤ .
(٨) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٧٥ .
(٩) إمارة الكرك الأيوبية ص٢١٥ يوسف غوانمة، القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٧٥ .
(١٠) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٧٥ .
(١١) صلاح الدين الأيوبي، قدري قلعجي ص٣٨٣ .

أولًا: شخصية الإمبراطور فردريك الثاني وطموحاته:

اشتد في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي التنافس الذي وصفنا نشأته في الفصل الأول من هذا الكتاب، بين البابوية والإمبراطورية المقدسة، فبينما كان الصراع على أشده بين الأسبانيين والمسلمين في الأندلس والمغرب، وبين الصليبيين والمسلمين في الشرق الأدنى، كان ثمة صراع آخر يدور في غرب أوربا بين السلطة الكنسية والسلطة الزمنية، للفصل في أمر طالما أثار النزاع والجدل، أمر يُلخِّصه هذا السؤال: من هو السلطان الأكبر؛ البابا أم الإمبراطور؟ وكان بطل هذا الدور الجديد من أدوار ذلك الصراع الإمبراطور فردريك الثاني (الأنبرور) [١].

وتعد حياة فردريك الثاني من أهم النقاط المثيرة للجدل في تاريخ أوربا بأسرها، فقد عاش عند مفترق الطرق التي تفصل الشرق عن الغرب، وشملت إمبراطورية ألمانيا بكل مقاطعاتها فضلًا عن إيطاليا وصقلية وهو ينحدر من عائلة[٢] هنشتاوفن من أب ألماني هو هنري السادس ملك ألمانيا، وأم نصف إيطالية، ونشأ وتربى في صقلية على مقربة من المؤثرات الإسلامية والبيزنطية، فنشأ فيلسوفًا محبًّا للجدل والرياضيات، وأجاد ست لغات من بينها اللغة العربية، ونظم الشعر، وأغدق من ماله وعنايته لتشجيع العمارة والنحت والتعليم، وهو إلى جانب ذلك جندي بارع وسياسي لبق إلى أقصى درجات اللباقة، مع الجرأة التي لا تخشى شيئًا، والنزعة الفكرية الجانحة إلى ميادين الفلسفة والفلك والهندسة والجبر والطب والتاريخ، وألف فردريك في البيزرة؛ علم تربية الطيور الجوارح وتدريبها على الصيد والقنص، كتابًا يعتبر أصلًا من أصول العلوم التجريبية في غرب أوربا، واصطحب في أسفاره مجموعة من الفيلة والهجائن وعجايب المناطق الاستوائية الحارة من أنواع الحيوان.

ولم تكن التقاليد المسيحية التي التزمها الناس في ذلك العصر مما يأبه له فردريك الثاني، وفي الوقت الذي كان للبابا في الغرب الأوربي المكانة الرفيعة السامية باعتباره خليفة القديس بطرس، نجد فردريك ينعته بالدجال[٣]، وقد عرف عن فردريك الثاني حبه للمسلمين الذين نشأ بينهم في صقلية، وقد دفع ذلك بعض الكتاب إلى اتهام فردريك بمحاباة الإسلام على حساب المسيحية، في حين ذهب البعض الآخر مثل فولتير ومونتسكيو إلى القول بأن كراهية فردريك الثاني للبابوية والكنيسة الغربية هي التي دفعته إلى حب الإسلام والمسلمين، وعلى الرغم من أن فردريك الثاني قد بدأ حياته السياسية بتحالفه مع البابوية وهو التحالف الذي أفاده إلى حد كبير ضد خصومه ومنافسيه في ألمانيا، إلا أن الأمور لم تلبث أن تعقدت بين الطرفين، بعد أن

---

(١) أوربا في العصور الوسطى، عاشور (١/١٦٣)، القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٧٥ .

(٢) أوربا في العصور الوسطى، عاشور (١١٦٣)، القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٧٥ .

(٣) الدولة الأيوبية، سمير فرج ابن الشاطئ ص٢٠٠ .

تأكدت البابوية أن فردريك غير قانع بصقلية وجنوب إيطاليا، وإنما أخذ يعمل على توطيد نفوذه في شمال إيطاليا؛ أي في إقليم لمبارديا وأنه اتخذ إيطاليا وصقلية مسرحًا أساسيًّا لجهوده والتمكين لنفسه.

حقيقة أن فردريك قد حرص آنذاك على احترام مركز البابوية في إيطاليا، ولكن سيطرته على جنوب إيطاليا وشمالها كان نذيرًا بوقوع الأملاك البابوية في وسط إيطاليا بين فكي الكماشة، مما جعل البابا يرتاب في سياسة فردريك وينظر إليها بعين ملأها الشك والخوف، وفي سنة (١٢١٥م) أقسم فردريك للبابا أنوسنت الثالث أن يقوم بحملة صليبية ضد المسلمين، ولما كان فردريك الثاني يميل للمسلمين ويعطيهم حقهم من الاحترام والتقدير لذلك لم يجد الدافع الذي يدفعه للخروج من بلاده على رأس حملة صليبية ضدهم، ومن ثم أخذ يعتذر للبابا مرة بعد مرة، والبابا يقبل عذره، وبعد ما أصاب الحملة الصليبية الخامسة من الفشل حاول البابا هونوريوس الثالث أن يوجد الدافع لدى فردريك للخروج في حملة صليبية ضد المسلمين، وأن يزيد في توطيد صلة فردريك بالأراضي المقدسة في فلسطين، فرتَّب البابا زواج فردريك من بولاند ابنة حنا دى برين، ووريثة عرش مملكة بيت المقدس الصليبية، واشترط البابا أن يتم الزواج في الشام، وقد نفذ فردريك رغبة البابا وتم زواجه من بولاند، ولكن بدلًا من أن يذهب فردريك إلى الشام ويتم الزواج هناك، استدعى عروسه إلى صقلية، وعقب هذا الزواج اتخذ فردريك لقب ملك بيت المقدس باعتباره من حقوق زوجته[١].

وعلى الرغم من أن البابا جريجوري التاسع (١٢٢٧-١٢٤١م) كان طاعنًا في السن، إلا أنه امتاز بإرادة حديدية لا تفل، فلم يقبل الأعذار التي دأب فردريك الثاني على ابتكارها من أجل تأجيل حملته الصليبية، وأصرَّ على ضرورة رحيل الإمبراطور إلى الشرق فورًا، وإلا تعرض لعقوبة الحرمان، ولم يجد الإمبراطور فردريك الثاني مفرًّا من الخروج في خريف سنة (١٢٢٧م) قاصدًا بلاد الشام، خصوصًا بعد أن اتصل به الملك الكامل الأيوبي وأرسل له سفارة على النحو الذي سبق توضيحه، ووعده بتسليمه مدينة القدس مقابل بذل المساعدة العسكرية له ضد شقيقه المعظم، وبذلك أوجد للإمبراطور الدافع الذي يخرج من أجل تحقيقه[٢].

وهكذا تهيأت الظروف لقيام الإمبراطور فردريك الثاني بحملة، ولم يكن استنجاد الملك الكامل الوحيد الذي حرك الإمبراطور فردريك الثاني للذهاب إلى الشام، وإنما كانت البابوية تضغط عليه ضغطًا شديدًا للقيام بحملة صليبية جديدة، تصلح الوضع الذي نجم من فشل الحملة الصليبية الخامسة، وغني عن البيان أن تلك الفترة تعرف في التاريخ الأوربي باسم عصر البابوية

(١) الدولة الأيوبية، سمير فرج ص٢٠١ .
(٢) المصدر نفسه ص٢٠١ .

والإمبراطورية؛ نظرًا لما احتدم من خلاف وما نشب من حروب بين السلطتين الدينية والعلمانية في غرب أوربا، وكان الإمبراطور فردريك متخوفًا من تنفيذ وعده الصليبي لئلا يترك البابا حرًّا طليق اليد في العدوان على مصالح الإمبراطور أثناء غيابه، ولذلك أخذ فردريك الثاني يماطل البابوية ويؤجل مشروعه الصليبي[١].

١- سير الحملة الصليبية السادسة: ظل البابا هونوريوس الثالث يلح على الإمبراطور فردريك للوفاء بوعده، والأخير يتباطأ، وفي عام (٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م)[٢] أراد أن يلبي رغبة البابا، فأبحر من ميناء برنديزي (جنوب إيطاليا) على رأس حملة ضخمة ولكن الحمى أصابته، كذلك انتابت صفوف الجيش نوبة مرض مدة قصيرة من الزمن أثناء انتظارهم لعبور البحر، فعاد فردريك لكي يسترد صحته، وأثناء ذلك مات هونوريوس الثالث، وتولى غريغوري التاسع، فاعتقد أن فرديك يتمارض ويتعمد المراوغة فأصدر قرار حرمان من الكنيسة ضده[٣]، لقد فتح قرار الحرمان باب النزاع بين الطرفين الإمبراطور والبابا، ولكن الإمبراطور أدرك أن مصلحته تقتضي القيام بحملة على بلاد الشام حتى يفوت على البابا إظهاره في صورة مسيحي عاق، ويبدو أن ظروف الشرق هيأت الجو للإمبراطور للقيام بحملته، كذلك فإن شخصية الإمبراطور وافقت عقلية الملك الكامل وشخصيته؛ إذ توثقت العلاقات بينهما في عصر اشتد فيه العداء بين ملوك الصليبيين والمسلمين، وازدادت الحركة الصليبية عنفًا، إلا أن شخصية الملكين وما كان يحيط بهما من ظروف كان لها أثر كبير في توثيق هذه العلاقة الودية[٤].

٢- إقلاع الإمبراطور إلى بلاد الشام: أقلع الإمبراطور بحملته الصليبية في صيف (٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م) على رأس جيش صليبي صغير[٥]، استجابة للدعوة التي تلقاها من الملك الكامل بمنحه القدس، ولم ينسَ أنه خرج من بلاده محرومًا من الكنيسة، وأنه اعتمد وعود الكامل له بإعطاء بيت المقدس لذلك لم يحضر جيشًا قويًّا، فعرض بذلك على أوربا التي استبدت بها الدهشة، صورة محارب قطعته الكنيسة خلف وراءه أملاكه التي تعرضت لغزو جند البابا، الذين أعلن البابا غريغوري التاسع كونهم محاربين صليبيين يقاتلون ملكًا غير مسيحي[٦]، عرج فردريك الثاني على قبرص في طريقه إلى الشام، ليجعل الجزيرة تابعة للإمبراطورية الغربية بتبعية فعلية، وليقوى مركزه في نظر الملك الكامل، واستقبل فردريك الثاني استقبالًا طيبًا، وأصبحت الجزيرة تابعة له وفقًا لقانون الإقطاع الحرماني، فبادر بتعيين نائب صقلي عنه في قبرص، وبث الحاميات في مختلف أنحاء الجزيرة، وعين موظفين ماليين لجمع الدخل والضرائب[٧]، وأبحر الإمبراطور

(١) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٨٠ .
(٢) المصدر نفسه.
(٣) مفرج الكروب (٢٤٩/٤) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٨٠ .
(٤) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٨٠ .
(٥) المصدر نفسه ص٢٨١ .
(٦) الحروب الصليبية ص١١٣ آرنست باكر.
(٧) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٨٢ .

فردريك الثاني في قبرص قاصدًا عكا، فوصلها بعد أربعة أيام[١] ولم يجد من غير أتباعه المباشرين إلا حظًّا ضيئلًا من الطاعة وقدرًا كبيرًا من الإهانة[٢]، ولعله من الغريب أن البابا أخذ يعمل على ألا ينجح الإمبراطور فردريك الثاني في احتلال بيت المقدس، حتى لا يكسبه ذلك شرفًا ونصرًا بعد ما حرم، بل إن البابا حرَّض الملك الكامل على عدم تسليم المدينة المقدسة للإمبراطور[٣].

٣- وفاة الملك المعظم: استغل الإمبراطور وفاة الملك المعظم سنة (٦٢٤هـ/ ١٢٢٦م) فقام سنة (٦٢٥هـ/ ١٢٢٧م) بالاستيلاء على صيدا التي كانت مناصفة بين المسلمين والإفرنج[٤]، وكان لهذه الوفاة أثر كبير في تغيير مجريات الأحداث، فنحن نعرف أن الملك الكامل كان قد استدعى الإمبراطور عندما كان خائفًا من أخيه الملك المعظم، أما الآن وقد توفي الملك المعظم فقد زال الخطر الذي يشكله أكبر منافس له، فانتفت الحاجة إلى مثل هذا القرار[٥].

ثالثًا: المفاوضات بين الملك الكامل والإمبراطور فردريك الثاني:

عندما وصل الإمبراطور فردريك إلى عكا بعث رسوله إلى الملك الكامل، وأمره أن يقول له: الملك يقول لك: كان الجيد والمصلحة للمسلمين أن يبذلوا كل شيء .. ولا أجيء إليهم والآن فقد كنتم بذلتم لنائبي -في زمن حصار دمياط- الساحل كله، وإطلاق الحقوق بالإسكندرية وما فعلناه وقد فعل الله لكم ما فعل من ظفركم، وإعادتها إليكم، ومَن نائبي؟ إن هو إلا أقل غلماني، فلا أقل من إعطائي ما كنتم بذلتموه له[٦]، وحار الملك الكامل في الموقف الذي يجب أن يتخذه من الإمبراطور؛ لأنه هو الذي دعاه إلى الشام، وألح عليه في المجيء إليها ليناصره على أخيه المعظم، واعدًا إياه بقسم من أملاك هذا الخصم، فلما وصل إليها لم يعد في حاجة إلى مساعدته؛ لأن المعظم كان قد توفي، وغدت الأملاك الموعودة جزءًا من مملكته وأصبح من واجبه أن يدافع عنها، إن لم يكن بعامل الرغبة في المحافظة عليها فبعامل الحفاظ على سمعته أمام جماهير المسلمين.

يصف ابن واصل الموقف فيقول: تحير الملك الكامل، ولم يمكنه دفعه ولا محاربته، لما كان تقدم بينهما من الاتفاق، فراسله ولاطفه، ويبدو أن الكامل أحس بأنه ليس من مصلحته ولا مصلحة البيت الأيوبي أن يصطدم بالصليبيين بالشام في تلك المرحلة التي تعرض فيها لتهديد

(١) الحركة الصليبية (٢/ ٦١٠) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٨٢.
(٢) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٨٢.
(٣) أوربا في العصور الوسطى، سعيد عاشور (١/ ٤٠٢).
(٤) الكامل في التاريخ نقلًا عن القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٨٢.
(٥) السلوك (١/ ٢٢٨، ٢٢٩)، الدولة الأيوبية د/ عرب دعكور ص٢١١.
(٦) المصدر نفسه.

الخوارزمية ومن ورائهم المغول، فأراد أن يطيل أمد المفاوضات بينه وبين فردريك، والمعروف أن الهدنة التي تمت عقب جلاء الصليبيين عن مصر لا ينتهي أجلها إلا في نهاية (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) وأدرك الإمبراطور أن موقف الملك الكامل أصبح على غير ما كان ينتظر، ولكن ما العمل، وهو الذي خرج من بلاده محرومًا من الكنيسة، مغضوبًا عليه من البابوية، معتمدًا على وعد الكامل له بإعطائه بيت المقدس لاستعادة نفوذه في أوربا؟ ولو كان الإمبراطور يعلم أن الكامل سينكث بوعده لما خرج إلى الشرق أصلًا أو لكان استقدم معه جيشًا قادرًا على الغزو والحرب ضد المسلمين، أما الآن فإن عدد جنوده لا يزيد على خمسمائة فارس وهو لا يعتمد على أية مناصرة من القوى الصليبية في الشام؛ لأن هذه القوى تأبى القتال تحت لواء محروم من الكنيسة مطرود من رحمتها، أما إذا عاد إلى أوربا بدون أن يحقق أي انتصار، فإنه سيعطي خصومه وبالأخص بالبابوية سلاحًا قويًا للسخرية منه والتشهير به، فالمسألة بالنسبة إليه إذن كانت تعني مستقبل عرشه في الغرب الأوربي، ومصير المعركة بينه وبين البابوية[(١)]، وهو لم يتردد في التصريح لأصدقائه من المسلمين في الشرق بأنه ماله غرض في القدس ولا غيره، وإنما قصده حفظ ناموسه عند الفرنج[(٢)].

وزاد من حرج موقف الإمبراطور فردريك أن البابا غريغوري التاسع أخذ يرسل الكتب سرًّا إلى ملوك بني أيوب بوجه عام والسلطان الكامل بوجه خاص، محرضًا إياهم على عدم تسليم بيت المقدس للإمبراطور، ولا عجب في ذلك الموقف الذي اتخذته البابوية إذ كانت المعركة بينهما وبين الإمبراطورية في الغرب أهم في نظرها من المعركة بين المسلمين والصليبيين في الشام[(٣)]، وأنه لو قدر لفردريك الانتصار في مهمته، فإن ذلك سيكون في نظر المعاصرين بمثابة حكم الله للإمبراطور المحروم[(٤)]، لم يبق للإمبراطور فردريك الثاني أمام هذا الموقف الحرج سوى سلاح المفاوضة والاستعطاف واستخدام كافة وسائل الدبلوماسية للوصول إلى غرضه والعودة إلى الغرب الأوربي مرفوع الرأس، فأرسل إلى الملك الكامل سفارة من رسولين تحمل له هدايا نفيسة من منسوجات حريرية وأواني ذهبية وفضية، مطالبًا إياه بتحقيق وعده تسليم بيت المقدس، فبعث إليه الكامل رسوله الأمير فخر الدين الذي سبق أن حمل إليه دعوة ملك مصر للقدوم إلى الشام، مرحبًا به ومقدمًا إليه هدايا ثمينة، ومصارحًا إياه في الوقت نفسه بأنه كان سيعطيه بيت المقدس ثمنًا لمناصرته إياه على أخيه المعظم، أما وقد تبدلت الظروف ولم يعد في حاجة إلى هذه المناصرة، فإنه لا يستطيع التفريط في بيت المقدس؛ لأن ذلك سيثير عليه نقمة المسلمين[(٥)].

---

(١) الحركة الصليبية (٢/١٠٠٨).

(٢) الدولة الأيوبية، د/ عرب دعكور ص٢١٢، السلوك (١/ ٢٣٠).

(٣) أوربا في العصور الوسطى (١/٤٠٢، ٤٠٣).

(٤) الدولة الأيوبية، د/ دعكور ص٢١٢ .

(٥) الإمبراطور فردريك الثاني والشرق العربي ص٢٠٦ .

وإزاء تنكر الكامل لوعوده ساء موقف فردريك الثاني لا سيما بعد أن جاءته الأخبار من الغرب بأن البابا استغل فرصة غيابه واعتدى على ممتلكاته، فأخذ يرجو الملك الكامل ويستعطفه، حتى قيل: إنه كان يبكي في بعض مراحل المفاوضات، وليس أدل على تذلل الإمبراطور من الكلام الذي جاء في رسائله إلى الملك الكامل: أنا أخوك، وأحترام دين المسلمين احترامي لدين المسيح، وأنا وريث مملكة القدس، وقد جئت لأضع يديّ عليها، ولا أروم أن أنازعك ملكك، فلنتجنب إراقة الدماء[١]. وجاء في رسالة أخرى: أنا مملوكك وعتبقك، وليس لي عما تأمره خروج، وأنت تعلم أني أكبر ملوك البحر، وقد علم البابا والملوك باهتمامي وطلوعي، فإن رجعت خائبًا انكسرت حرمتي بينهم، وهذه القدس فهي أهل اعتقادهم وضجرهم، والمسلمون قد أخرجوها فليس لها دخل طائل، فإن رأى السلطان أن ينعم علي بقبضة البلد الزيارة، فيكون صدقة منه، ويرتفع رأسي بين ملوك البحر[٢] . .

واستمر الأمبراطور في الاستعطاف، ولم تلبث الاستعطفات أن أتت أكلها وأفلحت في التأثير في الكامل، كان الكامل يريد أن يتنصل من وعوده؛ إذ كانت هذه الحملة لا تشكل أي خطر على المسلمين لذا تجمدت الاتصالات بين الملك الكامل والإمبراطور خمسة أشهر، وأثناء ذلك شرع الإمبراطور في عمارة صيدًا وكانت مناصفة بين المسلمين والفرنج، وسورها خراب فاستولى عليها وعمرها، ثم عاود الاتصال بالملك الكامل وتذلل إليه وأخذ يرجو ويستعطف[٣] كما مرَّ معنا، وقام فردريك الثاني بتحصين يافا، جاء بمثابة مظاهرة عسكرية، جعلت الملك الكامل يخشى قيام فردريك وبقية الجموع الصليبية بالشام بعمل حربي ضده، وهو الشعور الذي فسره المقريزي بقوله: إن الكامل خاف من غائلته وعجز عن مقاومته[٤]، وكان الدخول في حرب ضد الإمبراطور والصليبيين عندئذ تعني بالنسبة للملك الكامل وقوعه بين ثلاثة أعداء، هم: ابن أخيه الملك الناصر داود من ناحية، والخوارزمية التي استنجد بها الناصر داود من ناحية ثانية، والصليبيون من ناحية ثالثة، وفي ضوء هذه الحقائق كلها، وتحت تأثير رسول الملك الكامل في المفاوضات الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ، تنازل عن بيت المقدس[٥].

رابعًا: صلح يافا:

أخيرًا عقد الملك الكامل في (ربيع الأول ٦٢٧هـ/ شباط ١٢٢٩م) اتفاقية مع الإمبراطور فردريك الثاني عرفت بصلح يافا[٦]، وحضر مراسيم توقيع الاتفاقية من الجانب الأيوبي فخر

---

(١) الدولة الأيوبية، د/ دعكور ص٢١٣ .
(٢) الحركة الصليبية (٢/ ١٠١٠) سعيد عاشور، الدولة الأيوبية، د/ دعكور ص٢١٣ .
(٣) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٨٦ .
(٤) السلوك (١/ ٢٢٨) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٨٧ .
(٥) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٨٨ .
(٦) الحركة الصليبية (٢/ ٣٦٤)، القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٢٨ .

الدين وأخوه كمال الدين ولدي شيخ الشيوخ، والشريف شمس الدين الأرموي (ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) قاضي العسكر، والصلاح الأربلي والأمير صفي الدين بن سودان[١]، ومن الجانب الإفرنجي هرمان سلزا رئيس الطائفة الألمانية، وتوماس فون أكوين والجراف فون أكبر[٢]، وكتبت صيغة الاتفاقية باللغتين العربية والفرنسية[٣]، ووقع عليها الطرفان وحلفا على التزامها، ووقع الإمبراطور عليها بعد أسبوع، فيما وقع على بنودها الملك الكامل في الوقت نفسه[٤]، وتم تسليم بيت المقدس للصليبيين في شهر ربيع الأول (٦٢٦هـ/ شباط ١٢٢٩م) وشمل الاتفاق البنود التالية:

١- مدة الاتفاق عشر سنوات ميلادية[٥].

٢- تبقى المناطق التي أخذها الصليبيون قبل الصلح بأيديهم وتشمل: قلاع الشقيف، وتبنين، وجبلة، وكوكب، وبيروت، وصيدا، ويافا، والمجدل، واللد، والرملة، وعسقلان، وبيت جبريل[٦].

٣- تبقى بيت المقدس خربة، ولا يجدد سورها[٧]، وتكون قراها للمسلمين، وتكون تابعة للوالي بالبيرة الواقعة شمال القدس.

٤- يبقى المسجد الأقصى والصخرة بيد المسلمين ويمارسون فيها الشعائر الدينية من أذان وصلاة[٨]، ويتولاها قوام مسلم، ولا يدخلها الصليبيون إلا للزيارة[٩].

٥- يأخذ الصليبيون بيت المقدس، والناصرة، وبيت لحم.

٦- يعطي للصليبيين بعض القرى الواقعة على الطريق من عكا إلى القدس[١٠]، حتى لا يتعرض الصليبيون القادمون من عكا لزيارة القدس للعدوان، وتبقى سائر المدن والقرى بين المسلمين[١١].

٧- إطلاق سراح الصليبيين ومن ضمنهم الأطفال الذين أسروا في حملة الأطفال السابقة[١٢].

---

(١) المصدر نفسه ص٢٨٩.
(٢) المصدر نفسه ص٢٨٩.
(٣) المصدر نفسه ص٢٨٩.
(٤) المصدر نفسه ص٢٨٩.
(٥) صبح الأعشى (٤٢٩/٣) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٨٩.
(٦) مفرج الكروب (٢٤١/٤) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٨٩.
(٧) المختصر (١٤١/٣) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٨٩.
(٨) الأنس الجليل للحنبلي (٤٠٦/١).
(٩) مرآة الزمان (٨/ ٤٣١) البداية والنهاية نقلًا عن القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٩٠.
(١٠) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٩٠.
(١١) المصدر نفسه ص٢٩٠.
(١٢) المصدر نفسه ص٢٩٠.

٨- تعهد الإمبراطور المشاركة في الدفاع عن الملك الكامل ضد أي عدو حتى ولو كان من الإفرنج، كذلك تعهد أيضًا عدم تقديم أية مساعدة لحكام أنطاكيا وطرابلس، وحكام المناطق الإفرنجية الأخرى في بلاد الشام[١].

وسرعان ما وضعت هذه الاتفاقية موضع التنفيذ، فنودي بالقدس بخروج المسلمين منه، وتسليمه إلى الفرنج[٢]، وأعلن فردريك الثاني في جنوده: اشكروا الله واحمدوه، إذ أتم عليكم نعمته، وإن إتمامها كان معجزة من الله وليس نتيجة الشجاعة أو الحروب، وما أتمه الله لم تستطع قوة من البشر على الأرض إتمامه لا بكثرة العدد، ولا بالقوة ولا بأية وسيلة أخرى[٣]، واطمأن الملك الكامل من ناحية الفرنج، ولكي يضمن ولاء أمراء البيت الأيوبي قام بتوزيع الأموال عليهم، فمنح أخاه العزيز عثمان صاحب بانياس خمسين ألف دينار[٤]، وأعطى ابنه الظاهر غازي عشرة آلاف دينار وقماشًا نفيسًا وخلعًا سنية، وقدم إلى الأمير عز الدين ايدمر المعظمي عشرين ألف دينار وأقطعه بمصر، فتستروا على تسليم بيت المقدس وتفريط الملك الكامل بها.

أخذ القادة المسلمون بأسلوب الملك الكامل في توزيع الملك لكسب ولاء المتنفذين في مختلف الأقطار والتستر عليهم، لقد أرضى الملك الكامل الإمبراطور خوفًا من غائلته، وعجزًا عن مقاومته، وصار يقول: إنا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس والمسجد على حاله، وشعار الإسلام قائم، ووالي المسلمين متحكم في الأعمال والضياع[٥]، واعتذر ملك الفرنج للأمير فخر الدين بقوله: ولولا أخاف انكسار جاهي، ما كلفت السلطان شيئًا من ذلك، وأنه ما له غرض في القدس، ولا غيره وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج[٦]، وقد رأى الكامل أن شقاق الإمبراطور يفتح له باب محاربة الفرنج، ويتسع الخرق، ويفوت عليه هدف ما خرج بسببه، فرأى أن يرضى الفرنج بمدينة القدس خرابًا، وأنه قادر على انتزاعها متى شاء[٧].

- **زيارة الإمبراطور بيت المقدس**: استأذن الإمبراطور فردريك الثاني من الملك الكامل زيارة بيت المقدس فأجابه الملك الكامل إلى ما طلبه، وسيَّر القاضي نابلس في خدمته ومرافقته، فسلمه مفاتيح المدينة المقدسة، وسار معه إلى المسجد الأقصى، طاف معه المزارات[٨] التي في الصخرة، وقد وصف سبط بن الجوزي زيارة الإمبراطور فقال: ولما دخل الأنبرور قبة

(١) مفرج الكروب (٠٤/٣٤٣)، السلوك (١/ ٢٣١).
(٢) شمس العرب ص٤٢٧، القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٩٠
(٣) المصدر نفسه.
(٤) السلوك (١/ ٢٧٢) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٩١ .
(٥) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٩١ .
(٦) مفرج الكروب نقلًا عن القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٩١ .
(٧) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٩١ .
(٨) السلوك (١/ ٢٣٧) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٩٢ .

الصخرة، رأى قسيسًا قاعدًا عند الصخرة يأخذ من الفرنج قراطيس فجاء إليه الأنبرور كأنه يطلب منه الدعاء، فلكمه فرماه إلى الأرض وقال: يا خنزير، السلطان تصدق علينا بزيارة هذا المكان، وأنتم تفعلون فيه هذه الأفاعيل؟ لئن عاد ودخل واحد منكم على هذا الوجه لأقتلنه(١)، ونظر الأنبرور إلى الكتابة في القبة وهي: طهَّر هذا البيت المقدس صلاح الدين من المشركين فقال: ومن هم المشركون؟ ثم قال الأنبرور للقوم: هذه الشباك التي على أبواب الصخرة من أجل أيش؟ قالوا: لئلا يدخلها العصافير، فقال: أتى الله إليكم بالخنازير(٢).

وكان الملك الكامل قد أمر القاضي شمس الدين قاضي نابلس أن يأمر المؤذنين ما دام الأنبرور في القدس أن لا يصعدوا المنابر ولا يؤذنوا في الحرم، فنسي القاضي أن يُعْلم المؤذنين، فصعد المؤذن عبد الكريم تلك الليلة، وقت السحر والأنبرور في دار القاضي، فجعل يقرأ الآيات التي تختص بالنصارى كقوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ ونحوها، فلما طلع الفجر استدعى القاضي المؤذن عبد الكريم، وقال له: أيش عملت؟ السلطان رسم كذا وكذا، فلما كانت الليلة التالية ما صعد عبد الكريم المأذنة، فلما طلع الفجر استدعى الأنبرور القاضي شمس الدين فقال له: يا قاضي، أين ذلك الذي طلع بارحة أمس المنارة، فعرَّفه أن السلطان أوصاه بوقف الأذان، فقال الأنبرور: أخطأتم يا قاضي، تغيرون أنتم شعاركم وشرعكم ودينكم لأجلي، فلو كنتم عندي في بلادي، هل كنت أبطل ضرب الناقوس لأجلكم، الله الله لا تفعلوا هذا، هذا أول ما تنقصون عندنا(٣).

ويلاحظ أن الملك الكامل أخطأ بوقف الأذان والتسبيح حتى أن الإمبراطور عاب عليه هذا التصرف، وأوضح أنه كان يرغب في سماع أذان المسلمين وتسبيحهم في الله، وقد اعتقد العيني أن الإمبراطور كان يبطن السلامة ويتلاعب بالنصرانية(٤)، وذكر المقريزي أن الإمبراطور قال: والله إنه كان أكبر غرضي في المبيت بالقدس أن أسمع أذان المسلمين وتسبيحهم في الليل، وعندما دخل الإمبراطور بيت المقدس اتجه إلى كنيسة القيامة، وتوَّج نفسه بيده، وقد فسَّر المؤرخون ذلك بما يلي:

- رفض رجال الدين تتويج إمبراطور محروم من الكنيسة.

- آثر الإمبراطور تتويج نفسه حتى يثبت للبابا ورجال الدين أنه تسلم التاج في هذا المكان البالغ الأهمية (كنيسية القيامة) دون حاجة لرجال الدين أو البابا(٥)، وأثناء وجود الإمبراطور في

(١) مرآة الزمان (٨/ ١٣٤) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٩٢.
(٢) مرآة الزمان (٨/ ١٣٤) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٩٢.
(٣) المصدر نفسه (٨/ ٤٣٤) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٩٣.
(٤) عقد الجمان (٨/ ٨٣) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٩٣.
(٥) أوربا في العصور الوسطى، عاشور ص٣٩٨، القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٩٣.

بيت المقدس وصلها أسقف قيسارية، ليوقع قرار الحرمان على المدينة المقدسة، فاستاء الإمبراطور لذلك، وعدها إهانة كبيرة لشخصه وعلم بمؤامرة ضده، فغادر المدينة بعد يومين، ولم يغيِّر من شعائر الإسلام شيئًا وأحسن إلى أهلها، فذهب إلى يافا، ثم اتجه إلى عكا، ومن ثم غادرها بحرًا إلى قبرص ليقضي فيها بضعة أيام، وأخيرًا سافر إلى إيطاليا فوصلها (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)[١].

خامسًا: ردود فعل الأمة الإسلامية من تسليم بيت المقدس:

أثارت هذه المعاهدة موجة عارمة من السخط والأسى في الرأي العام الإسلامي كله، وعند الفقهاء والعلماء بوجه خاص، وقد اعتبر المسلمون أن تسليم بيت المقدس للصليبيين بهذه السهولة يعتبر تفريطًا في حق الإسلام والمسلمين، وأصبحت هذه المعاهدة وصمة عار في جبين البيت الأيوبي بصفة عامة، وللملك الكامل محمد بصفة خاصة[٢]، وأخذ العلماء يحركون العامة للضغط على أمرائهم لاستعادتها، وكان لكثير منهم مجالس علمية ركزوا في بعضها على ذكر فضائل بيت المقدس، وفضائل الجهاد، كما أن بعضهم عمد إلى إنشاد الشعر في هذه الحادثة والتشنيع على الكامل، وتحريك العامة والخاصة للعمل على استعادة القدس، ومن ذلك ما كان يجري في جامع دمشق من تجمعات ودروس لتحريك الناس للضغط على الكامل، كما كانت تنشد فيه الأشعار لهذه الغاية[٣]، وعندما وصلت هذه الأنباء إلى دمشق توغرت قلوب المسلمين بها على الملك الكامل محمد واجتاحتها حالة عارمة من السخط العام، لدرجة أن المسلمين أقاموا المآتم حزنًا على تسليم القدس للصليبيين، وأخذ الملك الناصر داود بن المعظم في التشنيع على عمه الكامل محمد وطلب من العالم الشيخ شمس الدين يوسف سبط بن الجوزي الواعظ، أن يجلس بجامع دمشق للوعظ، ويندد بما فعله عمه الكامل، ويثير الناس ضده، وأمره أن يذكر في وعظه فضائل القدس، وما ورد فيها من الأخبار والآثار، ويوضح للناس العار والوصمة التي لحقت بالمسلمين من جراء ذلك التصرف، فنفذ ما طلب منه وكان يومًا مشهودًا لم يتخلف من أهل دمشق أحد[٤].

وكان قد ورد في وعظه: وانقطعت عن البيت المقدس وفود الزائرين يا وحشة المجاورين، كم كان لهم في تلك الأماكن من ركعة، كم جرت لهم على تلك المساكن من دمعة، تالله لو صارت عيونهم عيونًا لما وفت، ولو انقطعت قلوبهم أسفًا لما شفت، أحسن الله عزاء المؤمنين، يا خجلة ملوك المسلمين، لمثل هذه الحادثة تسكب العَبَرات، ولمثلها تنقطع القلوب من الحسرات[٥]، كما ذكر سيف بن الجوزي في مجلسه هذا قصيدة تائية جاء فيها:

---

(١) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٩٤ .
(٢) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق ص١٩٤ .
(٣) الفتوح الإسلامية عبر العصور ص٣١٠ .
(٤) مفرج الكروب (٤/ ٢٤٥) السلوك (١/ ٢٣٣).
(٥) مرآة الزمان (٨/ ٤٣٢) دور الفقهاء ص١٩٧ .

على قبة المعراج والصخرة التي تفاخر ما في الأرض من صخرات
مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات(١)

ويذكر القاضي ابن واصل أنه كان حاضرًا في هذا المجلس، فيصفه بقوله: وعلا يومئذ ضجيج الناس وبكاؤهم وعويلهم، وحضرت أنا هذا المجلس(٢)، وحضر المؤذِّنون والأئمة الذين كانوا في الصخرة والمسجد الأقصى إلى باب دهليز الملك الكامل، فأذَّنوا على باب الدهليز في غير وقت الأذان، فعسر ذلك على الكامل وأمر أتباعه بأخذ ما معهم من أثاث المسجد وطردهم، وربَّما كان هذا الاعتراض المباشر الوحيد الذي جُوبه به الكامل من قبل مؤذِّنين وأئمَّة لا حول لهم ولا قوَّة، وإذا كان الاستنكار الرَّسمي معدومًا أو خجلًا فقد كان الاستنكار الشعبي قويًّا جدًّا إلى درجة اضطر الملك الكامل لتسيير رسله إلى البُلدان لتسكين الناس، وكذلك أرسل إلى الخليفة يُبرِّر له ما فعل(٣).

ومما قيل من شعر في المصير الذي آلت إليه القدس قول شاعر مجهول:

عزيز علينا أن نرى القدس تَخْربُ وشمسُ مبانيه تزول وتغرُبُ
وقلَّت له منَّا الدموع لأنَّه على مثله تجري الدُّموع وتسكبُ(٤)

وقد تمَّ التعريض بأولئك الحكام الذين تنازلوا عن بيت المقدس:

إن يكن بالشام قلَّ نصيري وتهدَّمتُ ثم دام هُلوكي
فلقد أصبح الغداة خرابي سمة العارِ في حياة الملوك(٥)

ومما قيل ما قاله صلاح الدين الإربلي أرسله إلى الملك الكامل:

زعم اللعين الأنبرور بأنَّه سلم يدوم لنا على أقواله
شرب اليمين فإن تعرَّض ناكثًا فلنأكلنَّ لذاك لحم شماله(٦)

١- معالجة الملك الكامل لموقف المسلمين الرافضين للصلح:

أدرك الملك الكامل محمد أن الرأي العام الإسلامي كله ضد تسليمه بيت المقدس للصليبيين وأنه في مركز حرج لا يحسد عليه، ولذلك أخذ يدافع عن سبب لجوئه إلى هذا التصرف، وبعث رسله إلى بعض الأقطار الإسلامية لتسويغ ذلك، فأرسل جمال الدين الكاتب الأشرفي إلى البلاد الشرقية.. وإلى الخليفة العباسي؛ لتسكين قلوب الناس وتطمين خواطرهم من انزعاجهم لأخذ الفرنج القدس(٧)، وكان الملك الكامل يعتقد أن الفرنج لا يمكنهم الامتناع بالقدس مع خراب

(١) مفرج الكروب (٤/ ٢٤٦).
(٢) مفرج الكروب (٤/ ٢٤٥، ٢٤٦) دور الفقهاء ص١٩٨ .
(٣) العلاقات الدولية (٢/ ٣١٣) السلوك (١/ ٢٣٢).
(٤) المصدر نفسه.
(٥) بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ص٢٠٢ .
(٦) وفيات الأعيان (١/ ١٨٦).
(٧) التاريخ المنصوري ص١٧٩، القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٩٦ .

أسواره، وأنه إذا قضى غرضه واستتبت الأمور له، كان متمكنًا من تطهيره من الفرنج وإخراجهم منه، وقال الكامل: وإنَّا لم نسمح لهم إلا بكنائس، وأدرخراب، والحرم، وما فيه من الصخرة المقدسة وسائر المزارات بأيدي المسلمين على حاله وشعائر الإسلام قائمة على ما كانت عليه، ووالي المسلمين متحكم على رساتيقه وأعماله[١].

لقد أساء التصرف الملك الكامل في تفرطه في القدس؛ إذ كان يساوم عليه كلما أحس بالخطر الذي يهدد مركزه، فكان حريصًا على الاحتفاظ بحكم مصر، ومستعدًّا لتقديم التنازلات للإفرنج، وهذا يتناقض مع قوله أنه غير مستعد للتفريط بالمدينة المقدسة في رسالة بعث بها لأخيه الملك الأشرف عام (٦٢٥هـ/ ١٢٢٧م): إنني ما جئت إلى هذه البلاد إلا بسبب الإفرنج، فإنهم لم يكن في البلاد من يمنعهم عما يريدونه . . وأنت تعلم أن عمَّنا صلاح الدين فتح بيت المقدس، فصار لنا بذلك الذكر الجميل. . فإن أخذه الإفرنج حصل لنا من ذلك سوء الذكر. . . وأي وجه يبقى لنا عند الناس وعند الله[٢] .

ولا شك أن قول الملك الكامل كان للاستهلاك، وينافي استعداده للتفريط في القدس، لقد كان جيش الإمبراطور فردريك الثاني ضعيفًا، قليل العدد، وتأييد الصليبيين له ضعيفًا، فلم يحسن الكامل استغلال هذا الموقف وقدم بيت المقدس للفرنج على طبق من ذهب، من أجل تحقيق أطماعه في الشام، ولم يغفر له معاصروه هذه الزلة الشنيعة[٣]، حتى أن بعض أمراء جيشه عارضوه ومنهم الأمير سيف الدين بن أبي زكري الذي أشار عليه بإبقاء دمشق لابن أخيه الناصر داود، والاتحاد مع أخيه الأشرف، فيجتمع الثلاثة ويقاتلون العدو؛ فإما لنا وإما علينا، ولا يقال عن السلطان: إنه أعطى الفرنج القدس[٤] ولكن السلطان غضب عليه، وأمر باعتقاله وأرسله إلى مصر حيث سجنه[٥]، واستمر رفض الجماهير الإسلامية للاتفاقية، وامتد إلى درجة جزع منها الملك الأشرف فأرسل إلى أخيه الكامل يلومه ويعاتبه[٦].

٢- تبدل موازين القوى العسكرية عند الأيوبيين:

كانت وفاة صلاح الدين الأيوبي نهاية مرحلة تاريخية وبداية مرحلة جديدة، وثمة مراحل تاريخية ترتبط فيها أمور البلاد والعباد بالشخصية الكارزمية للحاكم أو الصفوة الحاكمة، وتتمثل خطورة مثل هذه المراحل في أن غياب الحاكم ذي الصفات الأخلاقية السامية، وعدم وجود خليفة له يحمل نفس صفاته، يؤدي بالضرورة إلى تدهور المشروع الذي كرَّس نفسه له، أو سير

(١) مفرج الكروب (٤/ ٢٤٤).
(٢) الكامل في التاريخ (٩/ ٣٧٩) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٩٦ .
(٣) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٩٧ .
(٤) مرآة الزمان (٨/ ٦٥٤) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٩٧ .
(٥) المصدر نفسه ص٢٩٧ .
(٦) المصدر نفسه ص٢٩٧ .

الأمور في اتجاه معاكس للاتجاه الذي يسير فيه، والناظر في تواريخ الأمم والشعوب سيجد أن هذه الحقيقة تصدق على كافة شعوب الأرض، ولم تنجُ منها غير الشعوب التي تمكنت من أن تقيم المؤسسات الدستورية والقانونية[١]، فحين توارت شخصية صلاح الدين من على مسرح الأحداث حدث فراغ عسكري وسياسي كبير أضرَّ بالجانب الإسلامي وعاد بالفائدة على الجانب الصليبي؛ إذ كانت شخصيته ومواهبه وأداؤه السياسي والعسكري هو الذي يحفظ الدولة من التفكك، ولم تكن هناك مؤسسات تضمن استمرار بقاء هذه الدولة الكبرى من ناحية، كما أن صلاح الدين قسَّم دولته - كما يُقسَّم الإرث- بين أبنائه وأخوته وبني عمومته، على نحو ما كان مألوفًا في تلك العصور.

وكان طبيعيًّا أن تعود المنطقة إلى الوراء مرة أخرى نتيجة المنازعات والتشرذم السياسي الناجم عن الخلاف بين ورثة صلاح الدين، وتفككت عُرى الدولة الإقليمية الكبرى التي جاهدت ثلاثة أجيال في إقامتها بالمنطقة؛ عماد الدين، ونور الدين، وصلاح الدين[٢]، وتطورت المشروعات الصليبية في الغرب الأوربي وانتهج خلفاء صلاح الدين سياسة مهادنة إزاء الصليبيين تقوم على رد الفعل أكثر مما تقوم على المبادأة والمبادرة، فقد كان لانشغال الأيوبيين بمنازعتهم من جهة، واهتمامهم بالهدنة مع الفرنج وتجديدها من جهة أخرى أثر إيجابي على الصليبيين الذين وجدوا الفرصة لالتقاط أنفاسهم وحشد المساعدات من الغرب الأوربي لمساعدتهم[٣] ولم يحدث تطور عسكري، أو فكر سياسي متقدم عند الأيوبيين، وغابت روح الحسم العسكرية التي أقامت الدولة الأيوبية بل تلاشت وخصوصًا في عهد الكامل، وتظهر بعض الملامح العسكرية التي أقامتها الممالك الأيُّوبية بعد صلاح الدِّين ويتجلَّى منها:

(أ) لم يبتكر الأيُّوبيون أسلحة قتال جديدة، أو يُطوِّروا تكتيكًا عسكريًّا مُتميزًا، كما كان متوقَّعًا، نتيجة لاحتكاكهم بالفرنجة.

(ب) لم يحرصوا على الجهاد وتحرير المناطق المحتلَّة، بل إنَّهم سلَّموا كثيرًا من الفتوح الصَّلاحيَّة للفرنج.

(ج) لم يُطوِّروا اقتصادًا حربيًّا يخدم الآلة العسكرية، ويدعمها باستمرار وكفاءة.

(س) أهمل الأيُّوبيون الأسطول، ولم يستخدموه إلا جُزئيًّا وعند الحاجة الماسة.

(ك) كان لكُلٍّ من الملوك الأيوبيين مشروعه السياسي الخاص الذي وظَّف له كُلَّ قواه العسكرية المتاحة وأهمل كل ما عداه من مشروعات عامة[٤]، فكان تسليم الملك الكامل القدس نتيجة طبيعية للانحدار السياسي والعسكري بعد صلاح الدين.

---

(١) في تاريخ الأيوبيين والمماليك، د/ قاسم عبده قاسم ص٧٩.
(٢) في تاريخ الأيوبيين والمماليك، د/ قاسم عبده ص٧٩، ٨٠.
(٣) المصدر نفسه ص٨٥.
(٤) العلاقات الدولية (٢/ ٢٥٢).

سادسًا: رفض الصليبيين للصلح:

لم يعجب الصليبيين استرداد فردريك الثاني بيت المقدس، وأخذوا يعبرون عن غضبهم بشتى الصور فقالوا: إن كرامة المسيح كانت تحتم أن تؤخذ المدينة المقدسة بحد السيف وليس بطريق الاستجداء والبكاء كما فعل الإمبراطور[١]، وعلى الرغم من أن الذي حققه فردريك الثاني باتفاقه مع الملك الكامل كان أنجح مما حققته الحروب الصليبية كلها بعد معركة حطين (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م)، فإن أعداء الإمبراطور لم يتركوا فرصة للعمل ضده إلا استغلوها، فقد أرسل فرسان المعبد سرًّا برسالة يبدو أنها كانت بإيحاء من البابا غريغوري التاسع: يخبرونه فيها بأنهم -أي الفرسان- قد علموا أن الإمبراطور سيخرج بصحبة نفر من أتباعه من بيت المقدس إلى نهر الأردن للصلاة وهم يدعون السلطان الكامل لانتهاز هذه الفرصة للفتك بالإمبراطور وقتله.. اشمأز الكامل من خيانة هؤلاء الفرسان، فأرسل إلى الإمبراطور نفسه هذا الخطاب المختوم بختم رئيس فرسان المعبد[٢].

وبقي الإمبراطور يومين في القدس، ثم عاد إلى يافا خوفًا من الداوية[٣] وغادر فريدريك أرض فلسطين بعد إبرامه الاتفاقية مع السلطان الكامل، فقد وصلته الأخبار أن جنود البابا قد هاجموا ممتلكاته في جنوب إيطاليا، وتمكَّن فريدريك بعد وصوله إيطاليا من التصدي لقوَّات البابا، وهزيمتها عام (٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م) وأجبر البابا على عقد معاهدة سان جرمانوا، حيث ألغى حرمانه وصادق البابا -في السنة التالية- على معاهدته مع السلطان الكامل وأرسل البابا أوامره إلى طوائف الرُّهبان الفُرسان الدَّاوية والأسبتارية لمراعاة نصوص اتفاقية فريدريك مع المسلمين[٤]، ولكن الهدنة لم تمنع البابا من توجيه نقد كبير لاتفاقية فريدريك مع المسلمين، فاتَّهمه البابا غريغوري بأنَّه وحده يعرف شروط المعاهدة[٥].

لقد أثارت المعاهدة مع السلطان الكامل والتي تسلَّم بموجبها الإمبراطور فريدريك مدينة القدس البابا وأقامته ولم تقعده، وشنَّع على فريدريك وقال واصفًا معاهدته مع الكامل: إنها تتوافق مع شريعة المسلمين، أكثر من توافقها مع شريعة إيماننا، واتبع عاداتهم في عدة نقاط منها: مساعدة السُّلطان ضد جميع الناس من مسلمين ومسيحيين[٦]، وفي رسالة أرسلها البابا لمندوبه في فرنسا، يقول: أخذ فريدريك بوسائل المسلمين، وهاجم ميراث الكرسي الرسولي، والذي هو أكثر مقتًا، إنَّه يُبرم الآن معاهدة مع السلطان ومع مسلمين آخرين، ويظهر اللُّطف نحوهم، ويُبدي الكراهية المكشوفة تجاه المسيحيين، ثم يذكر أن فريدريك يُشجِّع المسلمين

---

(١) القدس بين أطماع الصليبيين وتفريط الكامل ص٢٩٨ .
(٢) تاريخ جماعة الفرسان التيوتون ص٢٠٥ .
(٣) مرآة الزمان (٨/ ٦٥٥) القدس بين أطماع الصليبيين ص٢٩٩ .
(٤) العلاقات الدولية (٢/ ٣١٣).
(٥) المصدر نفسه (٢/ ٣١٤).
(٦) الموسوعة الشاملة (٤٥/ ٨٩٩).

على الإغارة على طائفتي الأسبتارية والدَّاوية، فعندما هاجم المسلمون أراضيهم وبعد أن قتلوا عددًا كبيرًا من أتباعهم، حملوا معهم كميَّات كبيرة من الغنائم، فهاجم الدّاوية، وانتزعوا منهم بعضًا من الغنائم، فقام وزير الإمبراطور بمهاجمتهم عندما كانوا عائدين، وانتزعوا منهم بالقوَّة هذه الغنائم، وأعادها للمسلمين، كما أنه جمع مائة عبد كانوا لدى الأسبتاريَّة والدَّاوية، وأعطاهم للمسلمين وضمَّن البابا رسالته اتِّهامات كبيرة ضدَّ فريدريك حتى إنَّه يسميه نائب محمد[١].

ولكن الصلح بين الفريقين كان قصير الأجل؛ إذ لم يلبث الخلاف أن اشتد بين البابوية والإمبراطورية بعد وفاة البابا غريغوري التاسع سنة (١٢٤٣م) إذ عقد خلفه البابا أنوسنت الرابع مجمعًا في ليون سنة (١٢٤٥م) قرر فيه حرمان فردريك الثاني من جديد، وفي قرار حرمان البابا أنوسنت الرَّابع للإمبراطور فريدريك الصادر في مجمع سليون يُعدِّد البابا ذُنُوبَ فريدريك وخطاياه العظيمة، ومنها:

١- التحالف بحلف مقيت مع المسلمين.

٢- إرسال الرُّسُل والهدايا إليهم، وتلقِّي الهدايا منهم.

٣- تبنِّي عادات المسلمين والاعتماد على مُسلمين في خدماته اليومية.

٤- سمح لاسم محمد أن يُذكر علنًا في هيكل الرب.

٥- استقبل سُفراء سُلطان مصر، الذي يُلحق الأذي بالأرض المقدسة[٢].

إن هذه الذُّنُوب التي يُعدِّدها البابا لفريدريك تُعطينا فكرة واضحة عن نظرية البابوية إلى المسلمين وإلى التعامل معهم، ومدى الحقد والكراهية التي كانت تزرعها البابويَّة في نفوس المسيحيين الأوربيين لتدفعهم ضدَّ المسلمين في حملات ظاهرها الدفاع عن الدِّين وباطنها إعلاء سُلطة البابويَّة وزيادة ممتلكاتها وثرواتها، فقد وظَّف علاقته بالمسلمين من خلال السلطان الكامل ليتقوَّى شعبيًّا في أوربا ضدَّ البابا، ولم يخسر فريدريك من علاقته بالسلطان الكامل بقدر ما ربح في أوساط الشعوب الأُوربية، التي كانت تتملل من ظُلم البابوات، وانحرافهم الواضح عن مهامهم الدِّينيَّة وانغماسهم بأمور الحكم والسياسة، فقد ساعد فرديريك في وُقُوفه بوجه البابويَّة الخيال الشعبي الأُوربي، الذي اعتبره خلفًا لبربروسا، ومُحرِّرًا للضريح المقدس، وصحيح أن البابويَّة حرمته كَنسيًّا، واعتبرته مُهرطقًا ومُجحفًا وحانثًا بالقسم، لكن فريدريك حرم

(١) العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (٢/ ٢٦٤).

(٢) تاريخ أوربا في العصور الوُسطى، فيشر، ترجمة: مصطفى زيادة ص٢٥٥ .

البابويَّة من ثرواتها، ومن كثير من أملاكها، فتحوَّل في الخيال الشعبي الأوُربي إلى شخصية تُعاقب رجال اللاهوت في أيام الدُّنيا الأخيرة.

أما في ألمانيا فقد اعتبر المُخلص ضدَّ ظلم الكنيسة، لذلك ردَّ البابا بوضع كُلِّ ألمانيا تحت الحرمان، وردَّ على البابا الوُعاظ المتجوِّلون الذين أعلنوا البابا أنوسنت الرّابع شرِّيرًا إلى درجة أن حرمانه لا يعني شيئًا، وأن البابا والأساقفة مُهرطقين، وطلبوا مِن الناس الصلاة للإمبراطور فريدريك وابنه كونراد الصالحين الكاملين[1] معًا.

لقد كان للصراع بين البابا أنوسنت الرّابع والإمبراطور فريدريك الثاني أثرٌ واضحًا في الشرق تعدَّى الإمارات الفرنجية إلى الممالك الأيُّوبية، فبعد فشل الحملة الخامسة؛ حملة البارونات على مصر مباشرة، أصدر مجمع ليون (٦٤٢هـ/ ١٢٤٥م) قرارًا بتوجيه حملة جديدة، لكنَّ انشغال البابا بالصراع مع فريدريك جعله يُوجِّه هذه الحملة ضدَّه، لذلك لَعنَهُ، وحرمه كنسيًّا وعدَّه ملحدًا، ليستحقَّ أن تتوجَّه حملة صليبية ضدَّه، فأخذ البابا التبرُّعات المالية للحملة الصليبية واستخدمها ضدَّ فريدريك[2].

إن صراع البابوية ضدَّ فريدريك كان مُنبِّهًا لكثير من الفُرسان والنُّبلاء الأوربيين لاستغلال البابوية لهم، فقد رفض البارونات الإنكليز -صراحة- الاشتراك في الحملة التي دعا إليها مجمع ليون، وقال هنري الثالث ملك إنكلترا لمبعوث البابا: إن وُعَّاظ الحملة يخدعون الشعب، ولن نسمح لهم بعد ذلك، وحتى في أوساط اللاهوتيين ارتفعت أصوات المعارضة للحملات الصَّليبيَّة نحو فلسطين، فقد صرح اللاهوتي رادولف نيفر قائلًا: من الجُنون التدخل في شئون فلسطين حين تتعرَّض المسيحيَّة في الغرب لخطر الهرطقة، وقال: أيُّ معنى لتحرير القدس من المسلمين حين يتجذَّر الكفر في أرض الوطن، وكان الشاعر المغنِّي الجوال الفرنسي ريمون جوردان يتغنَّى في إحدى قصائده قائلًا: إن ليلة مع الحبيبة أفضل من جميع أطايب الجنَّة، يُوعد بها المشارك بحملة صليبية، أمَّا الشاعر الجوال بيرود، فكان يتغنَّى بمقطع يقول فيه:

من صلاح الدِّين شبعنا ... أرض الوطن عزيزة على الناس

وتعدَّى الأمر إلى التفكير في أُوربا بشرعية الحملات أصلًا، فنقدوها بشكل لاذع، وعبَّر الشاعر الجوّال الألماني فولغرام فون إيشتنباخ عن رأي عدد من الفُرسان حين قال: إنه من المشكوك فيه أن يكون من العدل قتل أتباع الأديان الأخرى، إضافة إلى أن الصراع بين البابويَّة والإمبراطور قد مزّق إيطاليا وألمانيا[3]، وأمَّا إنكلترا فقد حزم ملكها هنري الثالث أمره بعدم

(١) السعي وراء الفترة الألفية السعيدة، فورمان كوهين، الموسوعة الشاملة (٤/ ١٤٣).

(٢) العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (٢/ ٢٦٦).

(٣) الصليبيون في الشّرق، زاباروف، ترجمة: إلياس شاهين ص٣٠٥ .

المشاركة في أيِّ حملة، ودفع للبابا أنوسنت الرَّابع ليس لإعفائه من السفر بنفسه فقط، بل لمنع الإنكليز كافَّة من الإبحار إلى الشَّرق، وفرض حراسة مُشدَّدة على شواطئ بلاده لمنع أيِّ صليبي من المغادرة، أمَّا الحملة الفرنسية نحو مصر فلم تتم إلا بضغط شديد يُشبه الهَوَس من قِبل لويس التاسع ملك فرنسا.

إن البابويَّة وازنت بين مصالحها في أوُربا وما تُحققه الحملات إلى الشرق، فتبيَّن لها أن الكفَّة تميل بشدة نحو أوربا إضافة إلى المقاومة التي كانت تلقاها فكرة الحملات الجديدة، أما الوعَّاظ البابويون فقد طوَّروا أُسلُوبهم في الدعوة، ولأن الجانب المالي من رسالتهم هو المهمُّ، لذلك غفروا خطايا من يتبرَّع بالذهب والفضَّة كفداء لنفسه في الاشتراك الشخصي بالحملة، أما البابا فكان تطويره لأفكار الحملات وأهدافها أكبر من ذلك، فقد أعلن: أن القُدْس لم تعد هدف الحملة[(١)]، فهو يريد تحقيق مشروعاته السياسية والعسكرية أولًا، فالهدف السياسي للبابا أزاح بسُهولة الهدف الدِّيني للحملة، ولذلك عندما قام لويس التاسع بحملته الصليبية على مصر لم يقم البابا بأي خُطوة إيجابية لمساعدته، فقد كان البابا يخوض حربه الصَّليبية الخاصَّة ضدَّ فريدريك، وانشغل تمامًا عن القديس لويس[(٢)]، وقام فريدريك بإرسال المؤن إلى لويس عندما هدَّدته المجاعة في قبرص، فكتب لويس إلى البابا يرجوه إيقاف الحرب ضدَّ فريدريك لإنقاذ الجيش الصليبي، فلم يلتفت له، ثم كتبت بلانشي أمّ الملك لويس إلى البابا تلتمس عفوه عن فريدريك، فرفض البابا كُلَّ ذلك، وضايق فريدريك أكثر فأكثر[(٣)].

وبعد الفشل المأساوي لحملة لويس، وأَسْرِه في مصر، تمَّ إطلاق سراحه، عاد أخوا الملك كوُنت أنجو وكونت بواتيه إلى ليون، وقابلا البابا أنوسنت الرَّابع، وأبلغاه طلب لويس المساعدة والصُّلح مع فريدريك؛ ليتفرَّغا من حربهما لمساعدته، لكنَّ البابا -على ما يبدو- لم يتحمَّس للطلب، فهدَّدا بإخراجه من مدينة ليون الفرنسية[(٤)]، واتهماه بالتسبب بهزيمة لويس في مصر؛ لتصرُّفه بالأموال التي جمعها باسم الحملة في أغراض أخرى[(٥)].

سابعًا: تحليل شخصيتي الملك الكامل والإمبراطور فردريك الثاني:

واختلفت الآراء في تحليل شخصيتي الملك الكامل والإمبراطور فردريك الثاني وأثرهما في تسليم بيت المقدس، فقد ذكر الشيال أن الملك الكامل والإمبراطور فردريك شخصيتهما وثقافتهما يجسدان صورة واحدة تختلف عن العصر الذي عاشا فيه، فغلبت عليهما شخصية، فالملك الكامل صورة شرقية من الإمبراطور، إن لم يكن الإمبراطور صورة غربية من الملك

(١) العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (٢/ ٢٦٧).
(٢) العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (٢/ ٢٦٧).
(٣) الموسوعة الشاملة (٢٧/ ١٥٧).
(٤) العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (٢/ ٢٦٨).
(٥) المصدر نفسه (٢/ ٢٦٨).

الكامل[١]، فيما شبه باركر الحملة السادسة بأنها نوع من المساومة الحقيرة تمت بين الإمبراطور فردريك المشهور بحربته الفكرية وميله نحو الشرق وبين الملك الكامل، فهي ذات مظهر دنيوي ودبلوماسي مجرد من الدين[٢]، وأكد لين بول أن هذه الاتفاقية على الرغم من أن بنودها أثارت استياء المتطرفين في المعسكرين الإسلامي والمسيحي إلا أن مراعاة بنودها تجعل الملك الكامل يستفيد أكثر مما يخسر، فالأرض التي ضحى بها لم تكن ذات قيمة كبيرة؛ حيث إنه تمكن من الإبقاء على الأماكن المقدسة في القدس للمسلمين، بينما كانت فوائد تعهد الإمبراطور بالدفاع عن الملك الكامل مدهشة وكبيرة[٣].

ومع كل موجات السخط والإنكار التي حدثت فقد تمت السيطرة عليها بمرور الأيام، ووافقت جميع الأطراف عليها من تصالح البابا مع الإمبراطور عام (٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م)، وأخذت الاتفاقية طريقها بوصفها واقعة تاريخية قَبِلَ بها الجانبان[٤]، وعدت الاتفاقية نقطة تحول في التفكير العالمي، فقد ظهر أنصار يدعون إلى السلام وحل المشكلات عن طريق المفاوضات لا القوة، فالسلام الذي حل بين أصحاب الديانتين الإسلامية والمسيحية جعلهم يسخرون من الحروب التي دارت بين الطرفين، والشاهد على ذلك ما قاله سفير الإمبراطور للبابا في مدينة ليون في القدس: وعلى مشهد من العالم أثبتت سياسة فردريك أن صداقة الأمراء العرب وفرت كثيرًا من إراقة الدماء المسيحية[٥].

ثامنًا: القدس بعد المعاهدة ونتائج الحملة السادسة:

لم يتعرض أحد من مؤرخي الإسلام المعاصرين للمعاهدة، لتطبيق الفرنج لبُنودها التزامًا أو مخالفة، وربما كان ذلك تجنبًا، كُليًّا لذكر المعاهدة، لعدم إزعاج الكامل أو أبنائه من بعده، وأمَّا مؤرخو الفرنجة فقد تضاربت أقوالهم؛ فقد روى بعضهم أن الفرنجة أعادوا المدينة، وأحاطوا الأسوار بالخنادق، ورمَّموا شرفات الأبراج، وكذلك عمَّروا جميع المدن والقلاع[٦]، وجاء في رواية أخرى ما يناقض ذلك تمامًا، يقول متَّى باريس: إن سكان عكًّا خائفون تمامًا ومحصورون ضمن مدينتهم مع نقص المؤن؛ لأن فريدريك أصبح مطرقة رعب الكنيسة، ولم يعد يسمح بأي مُؤن أو قوَّات عسكرية أن تنقل إلى عكًّا.. عسقلان محاصرة، وبالكاد تُدافع عن نفسها، وأصبحت الحُصُون الصَّليبية سُجُونًا لأهلها، وليست أماكن للحماية[٧]، وبغضِّ النظر عما يكتبه مؤيدو فريدريك، أو ما يكتبه معارضوه، فإنَّنا نستنتج أن وضع الفرنج في فلسطين

(١) دراسات في التاريخ الإسلامي ص٤٧ .
(٢) الحروب الصليبية، بارك ص١١٥ .
(٣) القدس بين أطماع الصليبيين ص٣٠١ .
(٤) القدس بين أطماع الصليبيين ص٣٠١ .
(٥) المصدر نفسه ص٣٠١ .
(٦) الموسوعة الشاملة (٤٥/ ٨٩٨) العلاقات الدولية (٢/ ٣١٥).
(٧) المصدر نفسه (٤٨/ ٨٩٢) العلاقات الدولية (٢/ ٣١٥).

أصبح أكثر سوءًا بعد المعاهدة، فانقسام الولاء بين البابا والإمبراطور صاحب المملكة، ومنع الطوائف الدينية من فرض هيمنتها، وتوقف الدعم البابوي، كل ذلك أدَّى -بلا شك- إلى زعزعة الوجود الفرنجي في فلسطين، الذي هو ضعيف أصلًا منذ معركة حطين، والذي منع اجتثاث هذا الوجود هو ضعف السَّلطنة الأيوبيَّة، والتفات ملوك الأيوبيين إلى خلافاتهم.

ويبدو أن السياسة الأيُّوبية كانت ترى ترك الفرنج بحالهم ما أمكن، رُبَّما لاعتبارهم أصبحوا لا يُشكِّلون أيَّ خطر حقيقي على الأيُّوبيين[١]، وتعد حملة فريدريك الحملة السادسة من الحملات الفرنجية على الشرق الإسلامي، من أغرب الحملات وأكثرها إثارة للجدل في مجراها وفي نتائجها، فمن حيث الواقع كان قائد الحملة فريدريك في أسوأ وضع عرفه قائد يقدم على معركة، فقد أبحر نحو الشرق محرومًا من الكنيسة وما كاد يبتعد حتى هاجم جنود البابا ممتلكاته الإيطالية، ولما وصل فلسطين وجد قدرًا ضئيلًا من الطاعة وقدرًا كبيرًا من الإهانة، وتعرَّض لتآمر فرنج سُورية عليه، فقد عرضوا على السلطان الكامل تسليمه إليه في المعركة، وأمَّا لدى المسلمين فقد وجد أن السلطان الكامل الذي استدعاه ووعده بالقُدس قد استغنى عنه، فالخطر قد زال عن مملكته بوفاة أخيه المعظم، لذلك أصبح قُدُوم فريدريك عبثًا عليه، فحاول التملُّص من وعده[٢]، ولكنَّ فريدريك أثبت أنه سياسي محنَّك ومفاوض جيد، فقد حصل من الملك الكامل -مهما كانت الظروف أو الأسباب- على القُدس، ووقع معه اتفاقية عام (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) وكان فيها ما هو أهم أسباب نجاح فريدريك كانت تكمن في شخصيته الفريدة التي قرَّبته كثيرًا إلى المسلمين، الذين كانوا يُكنُّون له كل احترام، حتى إنهم اعتقدوا أنه أميل للإسلام[٣]، لقد بهرت شخصية فريدريك المسلمين وسُلطانهم الكامل؛ لأنَّهم وجدوا فيه العلم وسعة الأفق والتحرُّر من سيطرة الكنيسة[٤]، كما اعتقدوا أنه تغلب عليه روح التسامح والاحترام تجاه كل الأديان[٥].

تاسعًا: سياسة فريدريك تجاه مسلمي صقلية:

ربما كان التناقض هو السمة الأوضح في شخصية هذا الإمبراطور الأُعجُوبة، فالإمبراطور الذي أقام أوثق العلاقات مع المسلمين في الشرق، وحالفهم وحالفوه، كان له تصرف آخر مع مسلمي صقلية أيضًا، فيه من التناقض الشيء الكبير، فهو الذي وُصِف بالتسامح الدِّيني في الشرق وعُدَّ أميل للإسلام، ويؤثر القرآن على الإنجيل[٦]، ويستقدم علماء المسلمين ويستفيد من علمهم[٧]، ولكن ما وجه الحقيقة في كلِّ ذلك؟ كانت هذه النظرة إلى فريدريك من قِبل مؤرخي

---

(١) العلاقات الدولية (٢/ ٣١٦).
(٢) المصدر نفسه (٢/ ٣١٦).
(٣) المصدر نفسه (٢/ ٣١٦).
(٤) المصدر نفسه (٢/ ٣١٦).
(٥) المصدر نفسه (٢/ ٣١٦).
(٦) العلاقات الدولية (٢/ ٣٢١).
(٧) عقد الجمان (١/ ٢٩٠) العلاقات الدولية (٢/ ٣٢١).

المسلمين لخلافه مع البابا، دون أن يعرفوا حقيقة معتقده، ومع أن فريدريك كان يعتمد في قصره على حاشية المسلمين، لكنهم كانوا للخدمات فقط، وهي عادة جرى عليها ملوك صقلية منذ عهد ملوك النورمان، وفريدريك متبع لهم في صقلية لم يأت بجديد[1]، فماذا فعل الإمبراطور الألماني فريدريك عندما تولّى عرش صقلية بالمسلمين فيها؟

ففي عام (٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م) كانت قد اشتهرت علاقة الملك الكامل بفريدريك بعد تسليم القدس، وكان الملك الكامل في حرَّان، فوصل إليه فيها شخص يُقال له: أحمد بن أبي القاسم المعروف بالرّمان من جزيرة صقلية، من أهل مشائخ من جبال صقلية والجزيرة كلها بيد الإمبراطور إلا هذه الجبال[2]، وسبب وصوله أن الإمبراطور غدر بأهل الجبال هناك، وذكر الحاج أنه أخذ إلى البرِّ الكبير؛ أي بلاد إيطاليا، مائة ألف وسبعون ألفًا أخرجهم من أوطانهم، وأخذ أموالهم، وقتل من الشُّطار مثلهم، وخلت هذه الجبال، وطلب المسلم الصقلي من الكامل التوسط لدى الإمبراطور ليردَّهم إلى أوطانهم أو يُمكنهم من الخروج إلى مصر، فكتب له الكامل كتابًا إلى الإمبراطور[3] وكانت النتيجة لا شيء[4]، فقد أنهى فريدريك قضيَّة المسلمين في صقلية إلى الأبد؛ إذ نفاهم إلى منطقة لُوسيرا في إيطالية الجنوبية حيث حوصروا من قِبل المسيحيين من كل الجهات وكان مصيرهم الهلاك[5].

عاشرًا: هل الملك الكامل رجل سياسة قدير سبق عصره؟ وهل كان محقًّا في فكرة تدويل القدس في ذلك العصر؟

إن المؤرخين تباينت وجهات نظرهم تجاه ذلك الاتفاق، وبصفة عامة؛ فإن الأغلبية عارضته بشدة، غير أن هناك من أيده على اعتبار أن الكامل الأيوبي -أمام الأخطار المتعددة التي واجهته؛ أيوبية، وخوارزمية، وصليبية- رأى أن يقدم بيت المقدس للصليبيين دونما أسوار، حتى يحتفظ بمصر وهي قلب الدولة بعيدة عن الخطر، على اعتبار أن بإمكانه متى شاء استردادها، وعند أصحاب ذلك التوجه فإن الكامل الأيوبي رجل سياسة قدير سبق عصره وأظهر تسامحًا في عصر التعصب، بل إنه اتجه إلى فكرة تدويل القدس في ذلك العصر[6]، ويجدر بنا أن نلاحظ ملاحظات مهمة ويمكن إجمالها في النقاط الآتية:

١- من الجلي البيِّن؛ أن الكامل الأيوبي لم تتوافر لديه الحنكة السياسية التي تجعله ندًّا للسياسي الألماني فردريك الثاني، لقد تغير الوضع السياسي بالنسبة للكامل عقب وفاة المعظم

(١) العلاقات الدولية (٢/ ٣٢١).
(٢) المصدر نفسه (٢/ ٣٢٢).
(٣) المصدر نفسه (٢/ ٣٢٣).
(٤) المصدر نفسه (٢/ ٣٢٣).
(٥) المصدر نفسه (٢/ ٣٢٣).
(٦) الحروب الصليبية -العلاقات بين الشرق والغرب ص٢٩٣ .

عيسى، ولم يكن هناك مبرر لتنفيذ ذلك الوعد المتسرع والمتهور الذي قطعه على نفسه بتقديم القدس للإمبراطور الألماني طالما لم يساعده في مواجهة خصومه من البيت الأيوبي أساسًا، وقد أشار إلى تلك الحقيقة الدكتور سعيد عاشور في معرض تناوله لذلك الاتفاق[١])، والدليل على عدم حنكة الكامل الأيوبي، أن أبسط قواعد اللعبة السياسية في أية مفاوضات، ألا يقوم طرف من الأطراف باللعب بكافة أوراق مباشرة دفعة واحدة، بل يحتفظ بها ويتعامل بصورة جزئية وفق مقتضيات الحال[٢]، ومن الواضح أن الكامل لعب بكافة الأوراق دفعة واحدة وبصورة غير مسبوقة، أما الإمبراطور فردريك الثاني فكان على درجة عالية من الذكاء، وقد عبَّر أحد المؤرخين تعبيرًا صادقًا على الموقف قائلًا: إن الإمبراطور فردريك كان داهية إلى الحد الذي يستطيع به أن يحقق الكثير بالأسلوب الدبلوماسي[٣] من خلال صداقاته.

٢- عندما ننظر إلى عصر صلاح الدين الأيوبي، ولم يكن مر على اتفاقية صلح الرملة (١١٩٢م/ ٥٨٨هـ)، واتفاقية يافا (١٢٢٩م/ ٦٢٧هـ) سوى سبع وثلاثين سنة، نجد أن صلاح الدين الأيوبي يحارب الصليبيين بشراسة ولا يفرط بالقدس أبدًا، وتعليل ذلك واضح وهي أن لها مكانتها الدينية، كما أنها رمز لقضية الجهاد، أضف إلى ذلك أنه رأى أنه ليس من حقه كقائد لحركة الجهاد حينذاك أن يقدم القدس للصليبيين، ويلاحظ هنا أن وضعه القتالي كان أصعب بمراحل إذا ما قارناه مع الكامل الأيوبي، ويكفي أنه على مدى الأعوام (١١٨٧م/ ٥٨٣هـ- ١١٩٢م/ ٥٨٨هـ) لم يتوقف عن الصراع مع الصليبيين، ومن أمثلته معركة عكا المريرة على مدى عامين كاملين، ورفض تمامًا أن يحصل الصليبيون على القدس، ودل ذلك على الحنكة السياسية الحقيقية والبطولة الصادقة، وهكذا فإن الجيل الذي استشهد رجاله من أجل عودة المدينة المقدسة للمسلمين، لم يفكر للحظة في التفريط فيها، أما الجيل الذي وجد نفسه أمام المدينة المذكورة دونما مشقة فلم تكن تعنيه في قليل أو كثير، وكان من السهل عليه أن يقدمها للصليبيين دون عناء[٤].

٣- توافرت لدى الكامل الأيوبي النية لتقديم القدس على طبق من ذهب للصليبيين من قبل مقدم فردريك الثاني، ولا أدل على ذلك مما حدث خلال الصليبية الخامسة، وقد كرر عرضه على الصليبيين عدة مرات، على نحو عكس عدم حنكته السياسية وأنه لم يكن لديه القدرة على التعامل مع الصليبيين سياسيًّا، وكل مديح توافر لدى المصادر التاريخية العربية لذلك السلطان الأيوبي ربما يكون صادقًا على صعيد السياسة الداخلية وما أحدثه من مشروعات حضارية

---

(١) مصر والشام والصليبيون ص٩٠٧ .
(٢) الحروب الصليبية -العلاقات بين الشرق والغرب ص٢٩٤ .
(٣) المصدر نفسه ص٢٩٤، العلاقات السياسية، عادل عبد الحفيظ ص٢٩٠ .
(٤) الحروب الصليبية -العلاقات بين الشرق والغرب ص٢٩٤ .

واستتباب الأمن إلا أن السياسة الخارجية والتعامل مع الصليبيين جعلته لا يحظى بتقدير المؤرخ المنصف[١].

٤- قد يتم الاحتجاج بأن فتوى دينية قدمها أحد الفقهاء وهو القاضي ابن أبي الدم الحموي (ت١٢٤٤م/ ٦٤٢هـ) عكست أن هناك من أيَّد تلك الاتفاقية من خلال أحكام الإمام الشافعي التي وردت في كتابه الشهير (الأم) غير أنه مع تقديري الوافر لأصحاب ذلك التوجه إلا أن من المهم ملاحظة أن فقهاء السلطان في بعض الأحيان كانوا نكبة على المسلمين عندما برروا لقادتهم تصرفاتهم ولم يعارضوهم، والاحتجاج هنا بابن أبي الدم وما أورده في مخطوطة التاريخ المظفري مردود على اعتبار أنه ألف تاريخه في عهد السلطان الكامل، ومنطقي أنه تحول ليكون بوقًا دعائيًا لذلك السلطان، كما أنه عاش في كنف ابن أخت ذلك السلطان وزوج ابنته وهو الملك المظفر صاحب حماة، ويعبر أحد المؤرخين عن ذلك الموقف قائلًا: يجدر بنا التحذير بعدم أخذ رواياته عن بني أيوب على علَّاتها حتى لا تضلل الدارس[٢]، وينبغي ألا تغفل الرأي الآخر، الذي وجد حتى في عصر الكامل غير أنه قمعه في قسوة، ومثال ذلك أن أحد قادة جيشه ويُدعى سيف الدين ابن أبي زكري حيث حذره من التفريط في بيت المقدس وحقوق المسلمين، وطالب بمحاربة صديقه الألماني ومن ذلك قوله: ابعد دمشق على ابن أخيك الملك الناصر، واطلبه واطلب أخاك الملك الأشرف وعسكر حلب ونقاتل هذا العدو، فإما لنا وإما علينا، ولا يقال عن السلطان أنه أعطى الفرنج القدس[٣].

وعلى الرغم من تلك النصيحة الصادقة التي حفظها التاريخ لابن أبي زكري إلا أن الكامل اعتقله وأرسله إلى مصر حيث سُجن هناك[٤]، ومن المهم أن نذكر هنا أن ذلك القائد العسكري الذي عارض سلطانه اقترح عليه الحل العسكري، وهي فكرة تدل على أن ذلك ممكنًا لأنه -وبالبداهة- لو لم يكن ممكنًا لما عرضه ذلك القائد الذي تتصور أن له خبرة قتالية يعتد بها، بدليل وصوله إلى أن يكون أحد القادة العسكريين للكامل، وتصوره كان منطقيًا من خلال قلة قوات فردريك الثاني، غير أن السلطان الذي عشق التفريط، واستمتع بالتنازلات، رأى رؤيته التي عارضتها الجماهير الحاشدة، ومن غير المنطقي تصور أن كافة تلك الجماهير الغفيرة التي عارضته كان يحركها الناصر داود عدو الكامل الأيوبي، حقيقة أنه شيء ضد قراره ما يوصف بحملة إعلامية[٥] عنيفة، غير أنه كان محقًا تمامًا في ذلك؛ لأن اتفاق يافا كان يحتوى على التنازل عن تلك المدينة المقدسة، ومساحات شاسعة أخرى تُعطى للغزاة، ولم يكن من الممكن الوقوف دون أن يحرك ساكنًا على ما أقدم عليه الكامل الأيوبي.

(١) المصدر نفسه ص٢٩٥ .
(٢) بلاد الشام قبيل الغزو المغولي للغامدي ص٢٦٨ .
(٣) بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ص٢٦٩ .
(٤) الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ص ٢٢٤، الحروب الصليبية -العلاقات بين الشرق والغرب ص٢٩٦ .
(٥) الحروب الصليبية -العلاقات بين الشرق والغرب ص٢٩٦ ..

٥- من زاوية أخرى نعارض الخلط بين التسامح والتفريط، فمن حق الكامل الأيوبي أن يتسامح مع الصليبيين بأن يسمح لهم بالحج إلى المحارم المسيحية المقدسة في أمن وأمان كاملين، أما أن يقدم لهم القدس على اعتبار أنها بلا أسوار، وأنه متى أراد استرجاعها تمكَّن من ذلك فهو أمر لا يدخل ضمن باب التسامح، بل في غير موضعه يظهر التهاون الذي لا مبرر له، ويلاحظ هنا أن السلطان الأيوبي صلاح الدين تسامح مع الصليبيين ولم يفرط، فقد جنبهم الفتك بهم عندما دخل القدس فاتحًا في أعقاب حطين (١١٨٧م/ ٥٨٣هـ) وسمح لهم في أعقاب صلح الرملة (١١٩٢م/ ٥٥٨هـ) بالحج، غير أنه في مواقف أخرى كان حازمًا صارمًا؛ لأن الأمر احتاج منه ذلك، وحادثة فرسان الأسبتارية والداوية والفتك بهم عقب حطين أمر مؤكد، وخير دليل على أن تسامحه الواعي كانت له حدود، وهكذا لم يفرط السلطان العظيم مؤسس الدولة الأيوبية وإنما كان تكفل بذلك خير قيام وعلى نحو كامل[١].

٦- إن ما يمكن تصوره من أن الكامل اتجه إلى وجهة خاصة بتدويل القدس، وأن الفكرة اتجه إليها السلطان صلاح الدين الأيوبي من قبل عندما وافق على مشروع زواج العادل أبو بكر من جوانا شقيقة ريتشارد الأول قلب الأسد، فيه الكثير من تحميل الأمور أكثر مما تحتمل، لقد كان مشروع الزواج المذكور الذي تضمن أن يحكم الزوجان القدس مناصفة حماية للسلام وتجنبًا للحرب، كان مشروعًا مخفقًا من البداية، لعدم معقوليته بالنسبة للصليبيين، ومن المتصور أنه كان مجرد مناورة من جانب الملك الإنجليزي كي يكسب بها الوقت لا أكثر ولا أقل، وهو أمر لم يغب عن فطنة القيادة الأيوبية، ولم يكن صلاح الدين الأيوبي يفكر في تدويل القدس، إن الفكرة الأخيرة فكرة حديثة للغاية من خلال الصراع العربي الصهيوني وتقديم مقترحات بتدويل القدس، وهكذا فمن الممكن القول أن تلك الفكرة لم يكن لها سابقة تاريخية في عصر الحروب وقد اعتقد المسلمون تمامًا -وما زالوا- أن القدس عربية إسلامية وأنها عاشت في كنف الإسلام خمسة قرون كاملة، وتمتع غير المسلمين فيها -بصفة عامة- بالتسامح الديني الذي عجز عنه الصليبيون أنفسهم عندما قدموا إلى المنطقة، وهكذا فلم يكن أمر (التدويل) قائمًا حينذاك، وكيف يفكر السلطان الأيوبي صلاح الدين في ذلك الأمر وهو الذي استعادها بقوة السلاح وهزم الصليبيين في حطين من قبل أن يفكر في التدويل؟! من المؤكد أنه لا يستند إلى قوة عسكرية تدعم موقفه، وهكذا ظل ما فعله الكامل نسخة وحيدة للهوان لم تحدث قبل عصره، ولم تتكرر من بعده لتكون الحادثة نفسها دليل إدانة في حد ذاتها[٢].

٧- كان من الممكن أن نجد بعض -لا كل- العذر للكامل في حالة مواجهته لقوات ضخمة مرافقة للإمبراطور فردريك الثاني، وعجز إمكانات الأيوبيين الحربية حينذاك، ومن ثم يفكر مثل

---

(١) الحروب الصليبية -العلاقات بين الشرق والغرب ص٢٩٧ . (٢) المصدر نفسه ص٢٩٧ .

ذلك التفكير، غير أن فردريك قدم ومعه خمسمائة فارس إلى حد تصور معه بعض المؤرخين أنه قدم في نزهة إلى المنطقة، وبديهي أن ذلك العدد الضئيل كان من الممكن لذلك السلطان أن يستغل نقطعة الضعف التي لذلك الإمبراطور في صورة قوته العسكرية ومحدوديتها، ناهيك عن إنه يقاتل على أرض أجنبية وأن الأيوبيين يقاتلون على أرضهم، وملعون من البابا، كان من الممكن الاستفادة من كل ذلك لصالح المسلمين ولصالح عدم التفريط فيما لا يفرط فيه، وبدلًا من ذلك وجدناه يقبل التوقيع على اتفاق مهين مثل اتفاقية يافا (١٢٢٩م/ ٦٢٧هـ)[١].

٨- أتصور أن من غير المنطقي الأخذ بتأييد عدد قليل من الفقهاء الرسميين، وإغفال البعد الشعبي الجماهيري الذي صنع تاريخ حركة الجهاد الإسلامي في ذلك العصر؛ إذ إن الجماهير كانت تقف بجوار القائد الذي يعبر عن آمالها وآلامها في مواجهة الغزاة، وهو ما وجدناه مع صلاح الدين الأيوبي، وأما في حالة الكامل فقد رفضته الجماهير الصادقة الشعور والتعبير؛ لأنها أدركت أن تضحياتها التي بذلتها على مدى العقود السابقة تذهب أدراج الرياح على يد السلطان الكامل الذي انتزع منه ثعلب الدبلوماسية الألمانية فردريك الثاني نصرًا عزيزًا يندر مثاله دون أن يخسر شيئًا من رجاله.

٩- من الملاحظ أن هناك اتجاهًا يتحدث عن (التسامح الأيوبي) لينطلق من ذلك إلى تصوير سلوك الكامل الأيوبي على أنه جاء من خلال تلك الزاوية التسامحية، إذا جاز التعبير مع ذلك، غير أن هناك ناحية على جانبها من الأهمية وتتمثل في طرح تساؤل وهو: لماذا يطلب من المسلمين ذلك؟ وإذا كان ذلك هو حال المسلمين حينذاك فماذا قدم الصليبيون ليكون دليلًا على أن هناك تسامحًا متبادلًا؟ والإجابة هي لا شيء؛ لأن تاريخهم مع المسلمين على مدى أعوام طويلة مضت معارك، ومذابح، ورغبة جارفة من جانبهم في امتلاك الأرض بأي ثمن، وفرض سيادتهم السياسية عليها، وأخلص من ذلك إلى أن التسامح غير المدروس جيدًا ضمن الرؤية السياسية العامة لا يعد تسامحًا، بل تهاونًا بالغًا وتنازلًا أبلغ[٢].

١٠- قد يتصور البعض أن ما أقدم عليه الكامل الأيوبي في اتفاقية يافا عام (١٢٢٩م/ ٦٢٧هـ)، وتقديمه القدس له على هذا النحو قد تم استرداده عام (١٢٤٤م/ ٦٤٢هـ) وعندما دخل الخوارزميون المدينة المقدسة وقضوا على السيادة الصليبية بها، غير أن الأمر بذلك يكون من قبيل (تهوين) ما أقدم عليه الكامل؛ إذ إنه أقدم على ذلك عام (١٢٢٩م/ ٦٢٧هـ) ولم يكن المعاصرون الذين رفضوا في غالبيتهم الغالبة هذا الموقف يدركون إلا ضياع رمز الجهاد الإسلامي في عصر الصليبيات في صورة تلك المدينة المقدسة على نحو خاص، ولم يكن أحد

---

(١) الحروب الصليبية -العلاقات بين الشرق والغرب ص٢٩٨ . (٢) المصدر نفسه ص٢٩٨ .

قط -وهو أمر بديهي- يدرك أنه سيتم استردادها لصالح المسلمين بعد ذلك بخمسة عشر عامًا، ومن ناحية أخرى علينا ألا نُجمِّل أخطاء حكام المسلمين السابقين فها هو خطأ قتَّال صحيح بعد خمسة عشرة عامًا، مع ملاحظة أن الذي يدفع الثمن دائمًا الشعوب التي يخذلها حكامها أحيانًا جريًا وراء ديكتاتورية ترى أنها على حق، وأن الحشود الحاشدة من المعاصرين ترى أنه لا يستحقون أن يلتفت إلى تصورهم على الرغم من أنهم المشاركون الفعليون في صنع تلك المرحلة[١].

١١- في واقع الأمر؛ أن قضية الكامل الأيوبي واتفاقه المذكور مع فردريك الثاني يعكس لنا الفجوة الكامنة بين الأجيال الأيوبية ورؤيتها للتعامل مع الوجود الصليبي في بلاد الشام وتحالفه الاستراتيجي مع الغرب الأوربي، ومن الممكن تصور الأمر كالآتي: جهاد، سياسة دفاعية، تنازل وهو ترتيب متفق مع عهود كل من صلاح الدين الأيوبي، ثم العادل، ومن بعده الكامل، وأتصور أن جذور القضية بدأت مع السياسة الدفاعية للعادل والطرح المتعدد المرات لتقديم القدس للصليبيين حتى خلال الحملة الصليبية الخامسة، وصولًا إلى أحداث عام (١٢٢٩م/ ٦٢٧هـ) على نحو عكس لنا سبق الإصرار والترصد من جانب الكامل في بيع القدس على هذا النحو المزري والتباين الحاد في السياسة الأيوبية من خلال تباين تلك الأجيال، ومن الواضح أن الجيل الذي قدم التنازلات لم يقدر جيل التضحيات والجهاد البارز ضد الصليبيين، وهكذا ففجوة الأجيال الأيوبية تلك تمثل واقعًا تاريخيًا وليس من الممكن إنكاره بمثل تلك الصورة من شأنه إبعادنا[٢] عن قلب الحقيقة التاريخية، مع تقديري الكامل لكل الآراء المخالفة.

١٢- في الواقع أتصور أن المؤرخين الأوربيين من متَّى الباريسي حتى كانتروتز، لهم تصوراتهم في تقويم فردريك الثاني على أنه أعجوبة العالم وأنه سبق عصره، ولديهم مبرراتهم من وجهة نظرهم في ذلك التقويم، أما الكامل الأيوبي فلم يكن سابقًا على عصره في شيء، بل كان متخلفًا بمراحل عن ذلك العصر بدليل ظاهرة (النكوص) التي ظهرت بجلاء في اتفاقية (١٢٢٩م/ ٦٢٧هـ) وفي حالة كونه سابقًا لعصره بالفعل لأقدَمَ على ما فيه صالح أمته، وهو أمر كان يتأتى بالحفاظ على ما حققه الجيل الأيوبي الأول، والتقويم الختامي لذلك السلطان أنه كان محبًا للعلم والعلماء[٣]، وضل طريق العلم واتجه إلى عالم السياسة، ولم يكن بالسياسي الداهية، أو الحصيف، كما لم يكن بالعسكري القدير إلا في أضيق نطاق، أما وصف ابن واصل له بأنه خافته ملوك الأرض قاطبةً[٤]، فهو من قبيل الدعاية السياسية الخرقاء، والمتصور أنه اقتحم عالم السياسية ولم تكن له مؤهلات لذلك، وقد ظهر ذلك جليًا خاصة عندما تعامل مع أحد كبار عصره في أوربا في صورة فردريك الثاني[٥].

---

(١) الحروب الصليبية -العلاقات بين الشرق والغرب ص٢٩٩ .
(٢) المصدر نفسه ص٢٩٩ .
(٣) الحروب الصليبية -العلاقات بين الشرق والغرب ص٣٠٠ .
(٤) المصدر نفسه ص٣٠٠ .
(٥) المصدر نفسه ص٣٠٠ .

١٣- ليس هنا مقام عرض كافة الآراء التي أوردها قطاع بارز من المؤرخين المسلمين المحدثين بشأن اتفاقية يافا، وأكتفي هنا إلى جانب ما أوردته من قبل عن رأى العلامة سعيد عاشور بأن أذكر[١] ما أورده المؤرخان أحمد رمضان وقاسم عبده وهما من المختصين في عالم الحروب الصليبية، يقول أحمد رمضان عاشور: فرط الكامل وبدون قتال ولا هزيمة ودون إراقة قطرة دم واحدة في مناطق لا يحق له أن يدعي أنها ملكًا له، بل هي ملكًا للمسلمين جميعًا أراقوا فيها دماءهم تحت راية عمه صلاح الدين الأيوبي في حطين وبعدها في معارك يشهد الله على عنفها وضراوتها، ومهما ادَّعى الكامل من أسباب دعته إلى قبول الصلح في يافا سنة (١٢٢٩م) إلا أنها أسبابًا شخصية لا علاقة لها بالإسلام والمسلمين، وبدل أن يرفع راية الجهاد بعد صلاح الدين يأتي برفع راية الاستسلام في قبوله هذه المعاهدة[٢].

وأما قاسم عبده قاسم فأورد ما نصه: أما العالم الإسلامي فقد رأى بحق أن الهدنة التي عقدها الكامل الأيوبي كارثة حقيقية، وكان رد الفعل الشعبي عنيفًا ضد السلطان الذي بعث سفراءه إلى كل مكان لتبرير فعلته، وقد علق ابن الأثير على ذلك بقوله: واستعظم المسلمون ذلك وأكبروه، ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه، يسر الله فتحه وعوده إلى المسلمين بمنه وكرمه[٣].

وفي حقيقة الأمر أن النتيجة الكبرى التي تمخضت عنها تمثلت في عودة بيت المقدس للصليبيين دون إراقة الدماء، ومن خلال حملة صليبية عجيبة خرجت ولعنات البابا تلاحق زعيمها فردريك الثاني، وإذا كانت قد حققت ذلك الهدف الكبير إلا أنها -من ناحية أخرى- تمكنت من زرع بذور الانشقاق والاختلاف بين المسلمين بشأن اتفاقية يافا (١٢٢٩م/ ٦٢٧هـ) المثيرة لأكبر قدرة من الجدل بين المعاصرين وحتى المتأخرين، ومن زاوية أخرى نجد أن تلك الحملة جعلت لألمانيا موقعها الجديد الفعال على خريطة القوى السياسية الأوربية المشاركة في المشروع الصليبي، ويلاحظ أننا بذلك لدينا ثلاثة أباطرة من الألمان شاركوا في ذلك المشروع منذ بدايته، فهناك كونراد الثالث الذي شارك في الصليبية الثانية، ثم فردريك باربروسا الذي شارك في الثالثة، أما فردريك الثاني فحقق انتصارًا كبيرًا عجز عن تحقيقه من قبل ملك فرنسا فيليب أغسطس، وملك انجلترا ريتشارد الأول قلب الأسد، وبذلك تدعم النفوذ الألماني شرق البحر المتوسط حيث رأى أنه لا حل لمشكلة الحرمان الكنسي الذي فرضه البابا جريجوري التاسع إلا بالاشتراك في حملة صليبية في بلاد الشام، على نحو عكسي أن السياسة الخارجية الألمانية حينذاك كانت على صلة وثيقة بالسياسة الداخلية وأنهما كانا وجهي عملة واحدة، وأن

(١) الذاكر هو الدكتور محمد مؤنس عوض، المصدر نفسه ص٣٠٠ .

(٢) العلاقة بين الشرق والغرب ص١٧٩ .

(٣) الحروب الصليبية -العلاقات بين الشرق والغرب ص٣٠١ .

المستقبل السياسي لذلك الإمبراطور الألماني لم يكن في ألمانيا ذاتها؛ بل في بلاد الشام ذاتها.

وكذلك نتج عن تلك الحروب الصليبية أن اتضح لنا أن البابوية جعلت من القدس لعبة سياسية، فهي لا تقبل عودتها على يد رجل فرض عليه الحرمان الكنسي، بل لا بد من أن يكون ذلك من خلال رجل أداءه طيعة في يدها على نحو أوضح لنا الدور السياسي الذي لعبته البابوية التي كانت تتباكى من قبل على ضياع تلك المدينة المقدسة في أيدي المسلمين، وها هي الآن تضع العراقيل لتحول دون عودتها للمسيحيين(١).

الحادي عشر: استمرار العلاقة بين الملك الكامل والإمبراطور فردريك:

لم تتوقف الصلة بين الملك الكامل والإمبراطور، بل استمرت الرسل تتردد بين الطرفين، فبعد عودة الإمبراطور إلى بلاده أرسل رسالة إلى فخر الدين يبين له فيها شوقه إليه(٢)، ويدعو له بالخير ودوام حكم الملك الكامل، ويشكو له ما فعله البابا(٣)، وبينما كان الملك الكامل بالجزيرة عام (٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م) وصله رسول الإمبراطور فردريك الثاني، ورسالة إلى فخر الدين بن شيخ الشيوخ(٤) يبلغه أخبار بلاده، وخلافه مع البابا، واستمرت العلاقة قائمة بين الإمبراطور فردريك وابنا الملك الكامل بعد وفاته(٥)، وقد تعدَّت العلاقة بين الطرفين التحالف السياسي إلى حَدِّ التبادل الفكري والثقافي والتمازج الحضاري، الذي كان أباطرة الدولة المقدسة مهيَّئين له بسبب تواجدهم في صقلية التي كانت مرجل تفاعل حضارات المتوسط(٦).

الثاني عشر: حروب الملك الكامل بعد انتهاء الحملة الصليبية السادسة:

هيأت معاهدة يافا مع الصليبيين الملك الكامل كي يتفرغ لتصفية الخلافات الداخلية في الدولة الأيوبية، وقرر الزحف على دمشق لمحاربة ابن أخيه الملك الناصر داود فوصل إلى ظاهرها في جمادى الأولى سنة (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، وكان أخوه الملك الأشرف يحاصرها، فاتفق معه على تضييق الخناق على المدينة، وقطع عنها نهري بانياس والقنوات، ورغم ذلك كان أهل دمشق يخرجون كل يوم ويقاتلون أشد قتال، وطالت فترة الحصار إلى شهر رجب سنة (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) فاشتد ذلك على أهل دمشق لإقبال الصيف، وغلاء الأسعار، كما نفذت أموال الملك الناصر داود فتخلى عنه جماعة من الأمراء والعساكر وانضموا إلى الكامل والأشرف؛ لأنه لم يدفع لهم من المال ما يكفي لدفع نفقاتهم(٧)، واضطر الملك الناصر إلى ضرب أوانية من الذهب والفضة دنانير ودراهم، وفرقها على الباقي من جيشه حتى أتى على أكثر

---

(١) الحروب الصليبية -العلاقات بين الشرق والغرب ص٣٠١.
(٢) القدس بين أطماع الصليبيين وتفريط الملك الكامل ص٣٠٤.
(٣) المصدر نفسه ص٣٠٤.
(٤) المصدر نفسه ص٣٠٤.
(٥) المصدر نفسه ص٣٠٥.
(٦) العلاقات الدولية (٢/ ٣١٧).
(٧) موسوعة تاريخ مصر (٢/ ٦٥٨) أحمد حسين.

ما عنده من الذخائر، فرأى الملك الناصر أن العناد ليس من مصلحته والأصلح الخروج إلى عمه الملك الكامل، فخرج ليلًا من قلعة دمشق في (أواخر رجب سنة ٦٢٦هـ/ حزيران ١٢٢٩م) في نفر يسير من أصحابه وألقى نفسه على باب مخيم الكامل معلنًا خضوعه وإذعانه، فلما بلغ الكامل مجيئه خرج إليه وتلقاه وأكرمه إكرامًا كبيرًا، وتحدث معه وباسطه وطيب خاطره بعد أن عاتبه عتابًا كبيرًا، ثم أمره بالرجوع إلى قلعة دمشق فعاد إليها[١].

ثم تقرر عقد اتفاق جديد بين الكامل وابن أخيه داود، وترتب عليه أن اتسعت أملاك ملك مصر، فأخذ الأشرف إمارة دمشق، أما الناصر داود فعوضه الكامل بالكرك والشوبك وأعمالهما، والصلت والبلغاء والأغوار جميعها، ونابلس وبيت المقدس وبيت جبريل، واحتفظ الكامل بما تبقى من فلسطين فضلًا عن جهات الجزيرة التي حصل عليها من الأشرف مقابل التنازل عن دمشق، فعين من قبله ولاة على حرَّان والرُّها والرقة وسروج والأماكن الواقعة بأعالي الفرات، وبلغ من شدة اهتمام الملك الكامل بهذه المناطق أن توجه إليها بنفسه، غير أن الكامل لم يستطع أن يبقى طويلًا بعيدًا عن حضرة ملكه؛ إذ بلغه خبر وفاة ابنه مسعود الذي يحكم اليمن، وبعض الاضطرابات في مصر، فقرر الكامل العودة إلى مصر ودخلها في رجب سنة (٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م)[٢].

الثالث عشر: وفاة الطاغية جنكيز خان سنة (٦٢٤هـ) في عهد الملك الكامل:

من الشخصيات العالمية في عهد الملك الكامل والتي كان له تأثير كبير على المجتمع الدولي حينذاك جنكيز خان، تحدث عنه ابن كثير فقال: السلطان الأعظم عند التَّتار، والد ملوكِهم اليوم، الذي ينتسبون إليه، من عظم القان إنما يُريدُ هذا الملِك وهو الذي وضع لهم (اليَاسَاق)[٣] التي يتحاكمون إليها ويحكمون بها، وأكثرهم مخالف لشرائع الله تعالى وكتبه، وإنما هو شيء اقترحه من عند نفسه وتبعوه في ذلك، وقد كانت أمُّه تَزعمُ أنها حملت به من شُعاع الشمس، فلهذا لا يعرف له أبٌ، والظاهر أنه مجهول النَّسب، وقد رأيت مجلَّدًا جمعه الوزير ببغداد علاء الدين الجُوينيُّ في ترجمته فذكر فيه سيرته وما كان يشتمل عليه من العقل السياسي والكرم والشَّجاعة والتَّدبير الجيد للملك والرَّعايا والحروب، فذكر أنه كان في ابتداء أمره خصيصًا عند الملك أُزبَك خان وكان إذ ذاك شابًّا حسنًا وكان اسمه أولًا تمرجي، ثم لما عظُم سمَّى نفسه جنكزخان، وكان هذا الملك قد قرَّبه وأدناه، فحسده عظماءُ الملكِ، ووشَوْا به إليه حتى أخرجوه عليه وهمَّ بقتله، ولم يَجِدْ له طريقًا في ذنب يتسلَّطُ به عليه، فهو في ذلك إذ تَغضَّب الملك على مملوكين صغيرين فهربا منه، ولجأ إلى جنكز خان، فأكرمهما وأحسن إليهما فأخبراه

(١) الدولة الأيوبية، د/ عرب دعكور ص٢١٨ .
(٢) المصدر نفسه ص٢١٨ .
(٣) البداية والنهاية (١٧/ ١٦١).

بما يُضمِرُه الملك أُزبَك خان من قتله والهمّ به، فأخذ حذره وتحيز بدولة واتبعه طوائف من التتار، وصار كثير من أصحاب أُزبك خان ينفرون إليه، ويَفدون عليه، فيُكرمهُم ويُعطيهم، حتى قويت شوكته، وكثرت جنوده، ثم حاربَ بعد ذلك أُزبك خان، فظفر به وقتله، واستحوذ على مملكته ومُلكه وانضاف إليه عَدَدُه وَعُددُه، وعظم أمره، وبعدُ صيته، وخضعت له قبائل الترك ببلاد طمغاج كلها، حتى صار يركب في ثمانمائة ألف مقاتل وأكبر القبائل قبيلته التي هو من أصلها يُقال لها: قيات. ثم أقرب القبائل إليه بعدَهم قبيلتان كبيرتا العدد؛ وهما أويرات وقنقورات[١].

ثم نشبت الحرب بينه وبين الملك جلال الدين خوارزم شاه صاحب بلاد خُراسان والعراق وأذربيجان وغير ذلك من الأقاليم والممالك، فقهره جنكيز خان وكسره وغلبه، واستحوذ على سائر بلاده هو بنفسه وبأولاده في أيسر مدة، وكان ابتداءُ ملك جنكيز خان في سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وكان قتاله لخوارزم شاه في حدود سنة ست عشرة وستمائة، ومات خوارزم شاه في سنة سبع عشرة فاستحوذ حينئذ على الممالك بلا مُنازع ولا مُمانع، وكانت وفاته في سنة أربع وعشرين وستمائة فجعلوه في تابوت من حديد وربطوه بسلاسل وعلَّقوه بين جبلين هنالك، وأما كتابه (الياساق) فإنه يُكتب في مجلدين بخطٍّ غليظ، ويُحملُ على بعير معظَّم عندهم، وقد ذكر بعضهم عنه أنه كان يصعد جبلًا، ثم ينزل، ثم يصعد، ثم ينزل، حتى يعي ويقع مغشيًا عليه، ويأمر من عنده أن يكتب ما يُلقى على لسانه حينئذ، فإن كان هذا هكذا فالظاهر أن الشيطان كان ينطق على لسانه بما فيها.

وذكر الجُويني أن بعض عُبَّادهم كان يصعد الجبال في البرد الشديد للعبادة فسمع قائلًا يقول له: إنا قد ملَّكنا جنكيز خان وذريته وجه الأرض. قال الجويني: فمشايخ المغول يُصدِّقون بهذا، ويأخذونه مسلمًا، ثم ذكر الجويني شيئًا من الياساق، من ذلك أنه من زنى قُتِلَ محصنًا كان أو غير مُحصن، وكذلك من لاط قُتل، ومن تعمَّد الكذب قُتِل، ومن سحر قتل، ومن بال في الماء الواقف قُتل، ومن انغمس فيه قُتل، ومن أطعم أسيرًا أو سقاه أو كساه بغير إذن أهله قُتل، ومن وجد هاربًا لم يردّه قتل، ومن رمى إلى أحد شيئًا من المأكول قُتِل، بل يناوله من يده إلى يده، ومن أطعم أحدًا شيئًا فليأكل منه أولًا ولو كان المطعم أميرًا لأسير، ومن أكل ولم يُطعم من عنده قتل، ومن ذبح حيوانًا ذُبح مثله، بل يشق، ويتناول قلبه بيده يستخرجه من جوفه أولًا، وفي هذا كله مخالفة لشرائع الله المنزَّلة على عباده الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فمن ترك الشرع المحكم المنزَّل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء، وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر، فكيف بمن تحاكم إلى (الياساق) وقدَّمها عليه؟ من فعل ذلك كفر بإجماع

(١) البداية والنهاية (١٧/ ١٦١).

مسلمين، قال الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ [النساء: ٦٥].

ومن آدابهم الطاعة غاية الاستطاعة، وأن يعرضوا عليه أبكارهم الحسان ليختار لنفسه، ومن شاء من حاشيته ما شاء منهن، ومن شأنهم أن يُخاطبوا الملك باسمه، ومن مرَّ بقوم يأكلون فله أن يأكل معهم بغير استئذان ولا يتخطَّى موقِد النار ولا طبق الطعام، ولا يقف على أُسكُفَّةِ الخَرْكاه[1] ولا يغسلون ثيابهم حتى يبدو وسخُها، ولا يكلفون العلماء من كل ما ذُكر شيئًا من الجنايات، ولا يتعرَّضون لمال ميت، وقد ذكر علاء الدين الجويني طرَفًا كبيرًا من أخبار جنكيز خان ومكارم كان يفعلها لسجيَّته وما أدَّاه إليه عقله، وإن كان مشرِكًا بالله يعبد معه غيره، وقد قتل من الخلائق ما لا يعلم عدَدَهم إلا الذي خلقهم، ولكن كان البدَاءة من خوارزم شاه، فإنه لما أرسل جنكيز خان تُجَّارًا من جهته معهم بضائع كثيرة من بلاده، فانتهوا إلى إيران، فقتلهم نائبُها من جهة خوارزم شاه، وهو والد زوجته كَشْلى خان، وأخذ جميع ما كان معهم، فأرسل جنكيز خان إلى خوارزم شاه يستعلمه هل وقع هذا الأمر عن رِضا منه أو أنه لم يعلم به فأنكره، وقال له فيما أرسل إليه: من المعهود من الملوك أن التجار لا يُقتلون؛ لأنهم عمارة الأقاليم، وهم الذين يحملون إلى الملوك التُّحَفَ والأشياءَ النفيسة، ثم إن هؤلاء التجار كانوا على دينك فقتلهم نائبُك، فإن كان أمرًا أنكرته، وإلا طلبْنا بدمائهم، فلما سمع خوارزم شاه ذلك من رسول جنكيز خان لم يكن جوابه سوى أنه أمر بضرب عنقه، فأساء التدبير، وقد كان خرف وكبرت سنه

فلما بلغ ذلك جنكيز خان تجهَّز لقتاله وأخذ بلاده، فكان بقدر الله تعالى ما كان من الأمور التي لم يُسمع بأغرب منها ولا أبشع[2] ومما ذكره الجويني عنه أنه قدَّم له بعض الفلَّاحين بالصيد ثلاث بطيخات، فلم يتفق أن عند جنكيز خان أحدًا من الخزندارية فقال لزوجته خاتون: أعطيه هذين القرطين اللذين في أذُنيك وكان فيهما جوهرتان نفيستان جدًّا فشحَّت المرأة بهما وقالت: انظر إلى غيره فإن هذا لا يدري ما هما؟ فقال لها: ادفعيهما إليه فإنهما لا يبيتان هذه الليلة إلا عندك، وهذا الرجل لا يمكننا أن ندعه يذهب عنا مُقلقل الخاطر، وربما لا يحصل له شيء بعد هذا، وإن هذين لا يمكن أن أحدًا إذا اشتراهما إلا جاء بهما إليك، فانتزعتهما فدفعتهما إلى الفلاح، فطار عقله بهما، وذهب بهما، فباعهما لبعض التُّجار بألف دينار ولم يعرف قِمتهما، فحملهما التاجرُ إلى الملك، فردهما على زوجته ثم أنشد الجويني عند ذلك:

---

(١) البداية والنهاية (١٧/ ١٦٥٤).
(٢) المصدر نفسه.

ومن قال إن البحر والقطر أشبها نَدَاه فقد أثنى على البحر والقطر

قال: واجتاز يومًا في سوق، فرأى عند بقَّال عنَّابًا، فأعجبه لونه ومالت نفسه إليه، فأمر الحاجب أن يشترِي منه ببالس، فاشترى الحاجُب منه بربع بالسٍ، فلما وضعه بين يديه أعجبه وقال: هذا كله ببالس؟ فقال: وبقي منه هذا، وأشار إلى ما بقي معه من المال، فغضب وقال: متى يجد من يشتري منه مثلي؟ تمِّموا له عشرة بوالس[١]. وقيل له: إن في هذا المكان كنزًا عظيمًا، فلو فتحته أخذت منه مالًا كثيرًا، فقال: الذي في أيدينا يكفينا، ودعوا هذا يفتحه الناس ويأكلونه، فهم أحقُّ به منا. ولم يتعرَّض له[٢].

قال: واشتهر عن رجل في بلاده أنه يقول: أنا أعرف موضع كنز، ولا أقوله إلا للقان وألحَّ عليه الأمراء أن يُعلمهم، فلم يفعل، فذكروا ذلك للقان فأحضره على خيل الأولاق -يعني: البريد- سريعًا، فلما حضر بين يديه سأله عن الكنز فقال: إنما كنت أقول ذلك حيلة لأرى وجهك، فلما رأى تغيُّرَ كلامه غضب وقال له: قد حصل لك ما طلبت فارجع إلى موضِعك، وأمر بردِّه سالمًا، ولم يُعطه شيئًا. قال الجويني: وهذا غريب. قال: وأهدى له إنسان رُمَّانة فكسرها وفرَّق حبَّها على الحاضرين، ثم أمر له بعدد حَبِّها بَوالس ثم أنشد عند ذلك:

فلذلك تزدحمُ الوفود ببابه مثل ازدحام الحبِّ في الرُّمانِ

قال: وأمر بقتل ثلاثة قد قضت (الياسَق) بقتلهم، فإذا امرأة تبكي وتلطم فقال: ما هذه؟ أحضروها. فقالت: هذا ابني، وهذا أخي، وهذا زوجي، فقال: اختاري واحدًا منهم حتى أُطلقه لك. فقالت: الزوج يَجيءُ مثله، والابنُ كذلك، والأخ لا عِوَض له. فاستحسن ذلك منها وأطلق الثلاثة لها[٣]. قال: وكان يُحبُّ المصارعين وأهل الشُّطارةِ، وقد اجتمع عنده منهم جماعة، فذُكر له إنسان بخُراسان، فأحضره، فصرع جميع من عنده، فأكرمه وأعطاه، وأطلق له بنتًا من بنات المغول، حسناء، فمكثت عنده مدة لا يتعرَّضُ لها، فاتَّفق مجيئها زائرة بيتَ القان، فجعل السلطان يُمازحُها، ويقول: كيف رأيت المستعرب؟ فذكرت أنه لم يَقربها، فتعجَّب من ذلك وأحضره فسَأله عن ذلك فقال: يا خُوندُ أنا إنما حظيتُ عندك بالشُّطارة، ومتى قربتها نقصت منزلتي عندك[٤]، قال: ولما احتضر أوصى أولاده بالاتفاق وضرب لهم في ذلك الأمثال، وأحضر بين يديه نُشَّابًا، ويأخذ السهم فيُعطيه الواحد منهم فيكسُره، ثم أحضر حُزمة أخرى ودفعها مجموعة إليهم، فلم يُطيقوا كسْرَها فقال: هذا مثلكم إذا اجتمعتم واتَّفقتم، وذلك مثلكم إذا انفردتم، واختلفتم[٥].

---

(١) البداية والنهاية (١٦٧/١٧).
(٢) المصدر نفسه (١٦٧/١٧).
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه (١٦٧/١٧).
(٥) البداية والنهاية (١٦٧/١٧).

قال: وكان له عِدَّة أولاد ذكور وإناث منهم أربعة هم عُظماءُ الأولادِ، وأكبرهم تولى، وهم: تولى وباتو وبركة وتركجار، وكان كلٌّ منهم له وظيفة عنده، ثم تكلَّم الجويني على ملك ذريته إلى زمان هولاكو خان.. وذكر ما وقع في زمانه من الأوابد والأمور المزعجة[1].

الرابع عشر: فوائد متفرقة وتراجم مهمة قبل وفاة الملك الكامل:

١- أبو يوسف يعقوب المنجنيقي (توفي ٦٢٦هـ): كان فاضلًا في فنِّه، وشاعرًا مُطبقًا، لطيف الشِّعرِ، حسن المعاني، وقد أورد له ابن الساعي قطعة صالحة، ومن أحسن ما أورد له قصيدة فيها تعزية عظيمة لجميع الناس وهي قوله:

هل لمن يرتجي البقاء خلود ... وسوى الله كلُّ شيءٍ يَبيدُ
والذي كان من تراب وإن ... عاش طويلًا للتراب يعود
فمصيرُ الأنام طُرًّا إلى ما ... صار فيه آباؤهم والجدود
أين حوَّاء أين آدم إذ ... فاتهم الخُلدُ والثَّوى والخلود
أين هابيل أين قابيلُ إذ ... هذا لهذا مُعاند وحسود
أين نوح ومن نَجَا معه ... بالفلك والعالمون طُرًّا فقيدُ
أسلمته الأيام كالطفل ... للموتِ ولم يُغن عمره الممدود
أين عاد بل أين جنة عادِ ... أم تُرى أين صالح وثمود
أين إبراهيم الذي شاد بيت ... الله فهو المعظم المقصود
حسدوا يُوسُفًا أخاهم فكادوه ... ومات الحسود والمحسود
وسليمانُ في النُّبوَّةِ والملكِ ... قضى مثل ما قضى داود
وابن عِمران بعد آياته التسع ... وشقِّ الخِضَمِّ فهو صعيد
والمسيح ابنُ مريم وهو روح ... الله كادت تقضي عليه اليهود
وقضى سيد النَّبيين والهادي ... إلى الحقِّ أحمد المحمود
ونجوم السماءِ منتثِرات ... بعد حين وللهواء ركود
ولنارِ الدنيا التي تُوقِدُ الصَّخْرَ ... خُمودٌ وللمياه جُمودُ
وكذا للثَّرَى غداة يؤُمُّ ... الناس منها تزلزلٌ وهُمودُ
هذه الأُبَّهات نارٌ وتربٌ ... وهواء رَطْبٌ وماء ترود
سوف تفنى كما فنينا فلا ... يبقى من الخلق والد ووليد
لا الشَّقيُّ الغويُّ من نُوَاب ... الأيام ينجو ولا السعيد الرَّشيدُ
ومتى سَلَّتِ المنايا سيوفًا ... فالموالي حَصيدُها والعبيدُ[2]

---

(١) المصدر نفسه (١٧/ ١٦٧).
(٢) البداية والنهاية (١٧/ ١٨١).

٢- الاستئناس برؤية رسول الله ﷺ عام (٦٢٧هـ): في سنة (٦٢٧هـ) تسلم الملك الأشرف قلعة بَعْلَبك من الملك الأمجد بهرام شاه بعد حصار طويل، ثم استخلف على دمشق أخاه الصالح إسماعيل، ثم سار إلى الشرق بسبب أن جلال الدين الخُوارزمي استحوذ على بلاد خِلاط، وقتل من أهلها خلقًا كثيرًا، ونهب أموالًا كثيرة، فالتقى معه الأشرف واقتتلوا قتالًا عظيمًا، فهزمه الأشرف هزيمة منكرة وهلك كثير من الخوارزمية، فإنهم كانوا لا يفتحون بلدًا إلا قتلوا من فيه ونهبوا أمواله فكسرهم الله تعالى، وقد كان الأشرف رأى النبي ﷺ في المنام قبل الوقعة وهو يقول له: يا موسى، أنت منصور عليهم، ولما فرغ من كسرهم عاد إلى بلاد خِلاط، فرمَّم شَعثَها، وأصلح ما كان فسد منها، ولم يحج أحد من أهل الشام في هذه السنة، ولا في التي قبلها، وكذا فيما قبلها أيضًا، فهذه ثلاثُ سنين لم يَسِرْ من الشام حاجٌ إلى الحجاز[١].

٣- سنة (٦٢٨هـ): استهلت هذه السنة والملك الأشرف موسى بن العادل ببلاد الجزيرة مشغول بإصلاح ما كان جلال الدين الخوارزمي قد أفسده في بلاده، وقد قدِمت التَّتار في هذه السنة إلى الجزيرة وديار بكر، فعاثوا بالفساد يمينًا وشمالًا، فقتلوا ونهبوا وسَبوا على عادتهم[٢]، وفيها حبس الملك الأشرف الشيخ عليًّا الحريري بقلعةِ عزَّتا وفيها كان غلاء شديد بديار مصر وبلاد الشام وحلب والجزيرة بسبب قلة المياة السماوية والأرضية، فكانت هذه السنة كما قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦] وحج الناس في هذه السنة من الشام، وكان فيمن خرج الشيخ تقي الدين أبو عمرو بن الصَّلاحِ ثم لم يَحج الناس بعد هذه السنة أيضًا لكثرة الحروب والخوف من التَّتَر والفرنج، فإنا لله وإنا إليه راجعون[٣].

٤- مقتل محمود بن علاء الدين خوارزم سنة (٦٢٨هـ): كانت التَّتار قد قهروا أباه حتى شرَّدوه في البلاد، فمات ببعض جزائر البحر ثم ساقوا وراء جلال الدين هذا حتى مزَّقوا عساكره شذر مذر وتفرَّقوا عنه أَيْدِي سَبَا، وانفرد هو وحده فلقيه فلاح من قرية بأرض مَيَّافارقين، فأنكره لِما عليه من الجواهر والذهب، وعلى فرسِه فقال له: من أنت؟ فقال: أنا ملك الخوارزمية، وكانوا قد قتلوا للفلاح أخًا، فأنزله وأظهر إكرامه، فلما نام قتله بفأس كانت عنده، وأخذ ما عليه، فبلغ الخبر إلى شهاب الدين غازي بن العادل، صاحب مَيَّافارقين فاستدعى الفلاح، وأخذ ما كان عليه من الجواهر والحُلِي وأخذ الفرس أيضًا، وكان الملك الأشرف يقول: هو سدٌّ بيننا وبين التَّتار، كما أن السدَّ بيننا وبين يأجوج ومأجوج[٤].

---

(١) البداية والنهاية (١٧/ ١٨١).
(٢) المصدر نفسه (١٧/ ١٨٣).
(٣) المصدر نفسه (١٧/ ١٨٥).
(٤) المصدر نفسه (١٧/ ١٨٥).

٥- آخر ملوك الموصل من البيت الأتابكي (توفي سنة ٦٣٠هـ): توفي الملك ناصر الدين محمد بن عزّ الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي آقسنقر صاحب الموصل، كان مولده في سنة ثلاث عشرة وستمائة، وقد أقامه صدر الدين لؤلؤ صورة حتى تمكن أمره وقويت شوكته ثم حجر عليه، فكان لا يَصِلُ إلى أحد من الجواري ولا شيءٍ من السَّراري، حتى لا يُعْقب وضيَّق عليه في الطعام والشراب، فلمَّا توفي جدُّه لأمه مَظفَّر الدين كُوكُبرى صاحب إرْبلَ، منعه حينئذ من الطعام والشراب ثلاثة عشر يومًا، حتى مات كَمدًا وجُوعًا وعَطشًا رحمه الله، وكان من أحسن الناس صورة وهو آخر ملوك الموصل من البيت الأتابكي[١].

٦- وفاة القاضي شرف الدين إسماعيل بن إبراهيم الحنفي (٦٣٠هـ): أحد مشايخ الحنفية وله مصنفات في الفرائض وغيرها، وهو ابنُ خالة القاضي شمس الدين بن الشِّيرازي الشافعي، وكلاهما كان ينوب عن ابن الزَّكي وابن الحرستاني، وكان يُدَرِّسُ بالطرخانية، وبها مسكنه، فلما أرسل إليه المُعظم أن يُفْتى بإحة لنبيذ التمر وماء الرُّمان امتنع من ذلك، وقال: أنا على مذهب محمد بن الحسن في ذلك، والرواية عن أبي حنيفة شاذَّةٌ، ولا يصح حديث ابن مسعود في ذلك، ولا الأثر عن عمر أيضًا، فغضب عليه المعظم وعزله من التدريس، وولاه لتلميذه الزَّيْن بن العتَّال، وأقام الشيخ بمنزله حتى مات رحمه الله[٢].

٧- ابن عُنين الشاعر، أبو المحاسن محمد بن نصر (وفي ٦٣٠هـ): صله من الكوفة ووُلد في دمشق ونشأ بها، وسافر عنها سنين، فجاب الأقطار والبلاد شرقًا وغربًا، ودخل الجزيرة وبلاد الروم والعراق وخراسان وما وراء النهر والهند والحجاز ومصر وبغداد، ومدح أكثر أهل هذه البلاد، وحصَّل أموالًا جزيلة،وكان ظريفًا شاعرًا مُطبقًا مشهورًا، حسن الأخلاق، جميل المعاشرة، وقد رجع إلى بلده دمشق، فكان بها حتى مات في هذه السنة في قول ابن الساعي، وقد نفاه الملك الناصر صلاح الدين إلى الهند، فامتدح ملوكَها، وحصَّل أموالًا جزيلة، وصار إلى اليمن، فيُقال: إنه وزر لبعض ملوكها ثم عاد في أيام العادل إلى دمشق، ولما مَلك المعظَّمُ استوزره، فأساء السيرة واستقال هو من تلقاء نفسه فعزله، وكان قد كتب إلى الدِّماسقة من بلاد الهند:

فعلام أبعدتهم أخا ثقة ... لم يجترم ذنبًا ولا سرقا
انفوا المؤذن من بلادكم ... إن كان يُنفى كلُّ من صَدقا

ومما هجا به الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله:

---
(١) البداية والنهاية (١٧/ ٢٠٣).
(٢) المصدر نفسه (١٧/ ٢٠٤).

سلطاننا أعرجٌ وكاتبه ذو عَمَشٍ والوزيرُ مُنحدِبُ
والدُّولعيُّ الخطيبُ معتكفٌ وهو على قِشرٍ بيضة يَثِبُ
ولابن باقا وعظٌ يغُرُّ به الناسَ وعبدُ اللطيف محتسب
وصاحبُ الأمر خُلُقه شَرِسٌ وعارض الجيش داؤه عَجَبُ

وقال في الملك العادل سيف الدين -رحمه الله تعالى-:

إن سلطاننا الذي نرتجيه واسع المال ضيقُ الإنفاق
هو سيف كما يُقال ولكن قاطعٌ للرسوم والأرزاق

وقد حضر مرَّة مجلس الفخر الرازي بخراسان وهو على المنبر يَعِظُ الناس، فجاءت حمامة خلفَها جارح، فألقت نفسها على الفخر الرازي كالمُستجيرة به، فأنشأ ابن عُنَيْنٍ يقول:

جاءت سليمان الزمان حمامةٌ والموت يَلمَعُ من جَنَاحَيْ خاطف
قرمٌ لواه الجوع حتى ظلَّه بإزائه يَجرى بقلب واجف
من أعلم الورقاءَ أن مَحَلَّكم حرم وأنك ملجأٌ للخائف[1]

٨- **إتمام بناء مدرسة المستنصرية (٦٣١هـ)**: وفيها -أي سنة (٦٣١هـ)- كمل بناء المدرسة المستنصرية ببغداد ولم تُبنَ مدرسة قبلها مثلها ووُقفت على المذاهب الأربعة، من كلِّ طائفة اثنان وستون فقيهًا وأربعة معيدين، ومدرس لكلِّ مذهب وشيخ حديث، وقارئات، وعشرة مستمعين وشيخ طبٍّ وعشرةٌ من المسلمين يشتَغلون بعلم الطبِّ، ومكتب للأيتام، وقرَّر للجميع من الخبز واللحم والحلْوى والنَّفقة ما فيه كفاية وافرة لكلِّ واحد، ولما كان يوم الخميس خامس رجب حُضرت الدروس بها، وحضر الخليفة المستنصر بالله بنفسه الكريمة وأهل دولته، من الأمراء والوزراء والقضاة والفقهاء والصوفية والشعراء ولم يتخلف أحدٌ من هؤلاء، وعَملِ سماط عظيم بها، أكل منه الحاضرون وحُمل منه إلى سائر دروب بغداد من بُيوتات الخواصِّ والعوامِّ، وخلع على جميع المدرِّسين بها والحاضرين فيها، وعلى جميع الدولة والفقهاء بها والمعيدين، وكان يومًا مشهودًا، وأمرًا محمودًا، وأنشدت الشعراء الخليفة المدائح الفائقة والقصائد الرائقة.. وقُرِّر لتدريس الشافعية بها الشيخ الإمام العلَّامة محي الدين أبو عبد الله بن محمد بن فضلان، وللحنفية الشيخ الإمام العلَّامة رشيد الدين أبو حفص عمر بن محمد الفرْغاني، وللحنابلة الشيخ العلَّامة الرئيس محي الدين يوسف ابن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي، ودرَّس عنه يومئذ ابنه عبد الرحمن نيابة لغيبته في بعض الرسالات إلى الملوك، ودرَّس للمالكية يومئذ الشيخ الصالح العالم أبو الحسن المغربي المالكي نيابة أيضًا حتى يُعيَّن شيخ

(١) البداية والنهاية (١٣/٢٠٨).

غيره، ووقفت فيها خزانة كتب لم يسمع بمثلها في كثرتها وحسن نُسخها وجودة الكتب الموقوفة بها، وكان المتولي لعمارة هذه المدرسة مؤيِّدُ الدين أبو طالب محمد بن العلْقمي الذي وزَر بعد ذلك، وقد كان إذ ذاك أستاذ دار الخلافة وخُلع عليه يومئذ وعلى الوزير نصير الدين خلعه، ثم عُزل مدرسو الشافعية في رابع عشر ذي القعدة بقاضي القُضاة أبي المعالي عبد الرحمن بن مُقبل مضافًا إلى ما بيده من القضاء وذلك بعد وفاة محي الدين بن فضلان[١].

٩- وفاة الملك الكامل الأيوبي (٦٣٥هـ): لما بلغ الملك الكامل موت أخيه المعظم جاء ونازل دمشق وأخذها من الناصر، وجعل فيها الأشرف، ولما مات الأشرف بادر الكامل إلى دمشق وقد غلب عليها أخوه إسماعيل، فانتزعها منه، واستقر بالقلعة، فما بلع ريقُه حتى مات بعد شهرين تعلَّلَ بسعال وإسهال وكان به نقرس، فبهت الخلق لما سمعوا بموته وكان عدله مشوبًا بعسف، شنق جماعة من الجند في بطيخة شعير[٢]، ونازل دمشق فبعث صاحب حِمص لها نجدة خمسين نفسًا فظفر بهم وشَنقهم بأسرهم، قال الشريف العماد البصروي: حكى لي الخادم قال: طلب مني الكامل طستًا ليتقيأ فيه، فأحضرته وجاء الناصر داود فوقف على الباب ليعوده، فقلت: داود على الباب، فقال: ينتظر موتي؟ وانزعج وخرجت فنزل داود إلى دار سامة، ثم دخلت إلى السُّلطان، فوجدته قد مات وهو مكبوب على المِخَدَّة[٣]، وقال ابن واصل: حكى لي طبيبه قال: أخذه زكام فَدخل الحمَّام، وصَبَّ على رأسه ماء شديد الحرارة اتباعًا لما قال ابن زكريا الرازي: إن ذلك يحل الزُّكمة في الحال، وهذا ليس على إطلاقه، قال: فانصَبَّ من دِماغه إلى فم المعِدة مادة فتورمت وعرضت الحُمَّى وأراد القيء فنهاه الأطباء، وقالوا: إن تقيأ هلك فخالف وتقيَّأ ومات بدمشق في الحادي والعشرين من رجب سنة خمس وثلاثين وست مائة ودفن في تابوت[٤].

وقال ابن واصل: ولم أجد في شيء من التواريخ أن ثلاثة إخوة من الملوك اجتمع لهم من الشجاعة والنجابة والفضائل ما اجتمع لأولاد الملك العادل الثلاثة؛ وهم الملك الكامل، والملك المعظم والملك الأشرف، وكان الملك الكامل أحزمهم وأسوسهم، والملك المعظم أشجعهم وأعلمهم، والملك الأشرف أسمحهم وأنداهم كفًّا، رحمهم الله أجمعين.

وكانت أولاد الملك الكامل الذكور ثلاثة: الملك المسعود صلاح الدين يوسف صاحب اليمن، وتوفي في حياة أبيه وقد ذكرنا أخباره، والملك العادل سيف الدين أبو بكر، وولي الملك بعده، والملك الصالح نجم الدين أيوب، وولي بعد الملك العادل على ما سنذكره بإذن

(١) البداية والنهاية (١٧/ ٢١٤).
(٢) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ١٣٠)، بطيخة شعير: أي أكيال شعير.
(٣) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ١٣٠).
(٤) المصدر نفسه (٢٢/ ١٣١).

الله، وأكبرهم الملك المسعود، وأصغرهم الملك العادل وكان له عدة بنات ودفن بالقلعة[١] في دمشق، وكان ينشد في مرضه كثيرًا:

يـا خـلـيـلـيَّ خـبِّـرانـي بـصـدق كـيـف طـعـم الكَرى فإني عليل

وقال ابن الأهدل: وللكامل هفوة جرت منه -عفا الله عنه- وذلك أنه سلَّم مرة بيت المقدس إلى الفرنج اختيارًا، نعوذ بالله من سخط الله وموالاة أعداء الله[٢].

(١) مفرج الكروب (٥/ ١٧٠، ١٧١).
(٢) شذرات الذهب (٧/ ٣٠٣، ٣٠٤).

الفصل الثالث

عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب

المبحث الأول

اسمه ونسبه والخطوات التي اتخذها للوصول للسلطنة

هو السلطان الكبير الملك الصالح نجم الدين أبو الفتوح أيوب ابن السلطان الملك الكامل بن العادل، وأمه جارية سوداء اسمها ورد المُنى، مولده سنة ثلاث وست مائة بالقاهرة، وناب عن أبيه لما جاء لحصار الناصر داود، فلما رجع انتقده أبوه على أشياء، ومال عنه إلى ولده الآخر العادل، فلما استولى الكامل على آمد وحصن كيفا وسنجار سلطن نجم الدين، وجعله على هذه البلاد، فبقي بها إلى أن جاء وتملك دمشق[١].

أولًا: ماذا حدث بعد وفاة الملك الكامل؟

بعد وفاة الملك الكامل في شهر رجب سنة (٦٣٥هـ) تعاقب على زعامة الدولة الأيوبية ثلاثة؛ اثنان منهما من أبنائه، أما الثالث فهو حفيده، والسمة المشتركة بين عهود هؤلاء الثلاثة هي احتدام الصراع والوصول إلى أبعد مما وصل إليه في العهود السابقة، وقد حدث بعد وفاة الملك الكامل أن اختلفت الآراء وتعددة الاتجاهات حول الشخص الذي كان سيخلفه في زعامة الدولة الأيوبية، فتحيز فريق إلى الناصر داود بن المعظم عيسى، وتحزب فريق آخر من الجواد مظفر الدين يونس بن شمس الدين مودود بن العادل، بينما ذهب فريق ثالث إلى مناصرة أبي بكر الابن الأصغر للملك الكامل[٢]، وبعد سلسلة من الجدل والنقاش بين أصحاب هذه الاتجاهات انتصر الفريق الأخير وبالتالي بويع أبو بكر، الذي كان يعرف بالملك العادل الصغير، خلفًا لأبيه الراحل في الحكم المباشر لمصر، وفي زعامة البيت الأيوبي، وذلك في الثاني والعشرين من رجب سنة (٦٣٥هـ)[٣]، كما اتفق أيضًا أن يكون الملك الجواد يونس نائبًا عن ابن عمه العادل الصغير في حكم دمشق، وعلى أن يكون الملك الصالح نجم الدين أيوب نائبًا عن أخيه العادل الصغير في حكم الشرق وديار بكر[٤].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٣/ ١٨٧، ١٨٨).

(٢) الجبهة الإسلامية، د/ حامد غنيم ص٣٧٧ .

(٣) المصدر نفسه ص٣٧٧ .

(٤) النجوم الزاهرة (٦/ ٣٠٣) الجبهة الإسلامية ص٣٧٧ .

ولم تنعم الدولة الأيوبية بالهدوء في ظل هذا الاتفاق طويلًا، فقد سجل التاريخ في أحداث الفترة الأخيرة من سنة (٦٣٥هـ) خروج كل من الناصر والجواد على طاعة العادل الصغير، ووصل الناصر داود إلى غزة، وخطب بها لنفسه، وسرعان ما وقع الخلف بينه وبين الجواد، فأظهر الأخير أنه عاد إلى طاعة الملك العادل[١]، أما الناصر فإنه استولى على غزة والسواحل، وبعث إلى الملك العادل يطلب منه المساعدة على أخذ دمشق، ولكنه عوجل من الجواد، والتقى الجيشان الأيوبيان بالقرب من نابلس، ومُني الناصر بهزيمة مريرة في منتصف ذي الحجة، فعاد مثقلًا بآلامه في معقله قلعة الكرك[٢]، وأما في الشرق حيث الملك الصالح نجم الدين أيوب فإنا نجد مسرحًا من مسارح الصراع، مع اختلاف في الوجوه والأغراض، ففي سنة (٦٣٥هـ) شق الخوارزمية عصا الطاعة على الملك الصالح، ولما رأى الأخير أن كفة المنشقين هي الراجحة هرب إلى سنجار، ونتيجة لذلك تطلع مناهضوه للاستيلاء على بلاده، فمن ناحية تحكم الخوارزمية في البلاد الجزرية، ومن نايحة أخرى أخذ السلطان غياث الدين كيخسرو -صاحب الروم- يتصرف في منطقة نفوذ الملك الصالح كما لو كانت قد أصبحت تحت نفوذه هو، وبعث إلى الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف -صاحب حلب- توقيعًا بالرها وسروج... وأقطع المنصور ناصر الدين الأرتقي -صاحب ماردين- مدينة سنجار ومدينة نصيبين، وأقطع المجاهد أسد الدين شيركوه -صاحب حمص- بلده عانة وغيرها من بلاد الخابور، وعزم السلطان غياث الدين كيخسرو أن يأخذ لنفسه من بلاد الصالح أيضًا آمد وسميساط[٣].

ونلتفت إلى الملك الصالح نفسه وهو في سنجار فنجد أن المتاعب لم تبتعد عنه، فقد حاصره بها بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، ولما شعر الزعيم الأيوبي أنه لا طاقة له بلؤلؤ ومن معه أرسل إليه ملتمسًا الصلح، وقد قابل لؤلؤ هذه المبادرة بالرفض، والإصرار على أن يحمل الملك الصالح في قفص إلى بغداد، وحينئذ لجأ الأخير إلى الاستعانة بأعدائه الخوارزمية، فبعث إليهم حيث كانوا بحرَّان فأسرعوا لنجدته، وأرغموا حاكم الموصل على رفع الحصار والعودة إلى بلده[٤].

١- تحرك الملك الصالح نجم الدين أيوب لضم دمشق: إن تحرر الملك الصالح من حصار لؤلؤ لم يكن يعني أن الزعيم الأيوبي قد تخلص نهائيًا من المتاعب، بل كان يعني أنه تحرر من سنجار لكي يخوض غمار صراع جديد، صراع على ما كان يعتقده حقًّا له ألا وهو خلافة أبيه، وفي سبيل هذه الغاية زحف صوب دمشق، وهناك أخذت الأحداث تتحرك لصالحه[٥].

(١) السلوك (١/ ٢٦٨) الجبهة الإسلامية ص٣٧٧.
(٢) الجبهة الإسلامية ص٣٧٧.
(٣) السلوك (١/ ٢٧١) الجبهة الإسلامية ص٣٧٨.
(٤) النجوم الزاهرة (٥/ ٢٧١) الجبهة الإسلامية ص٣٧٨.
(٥) الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات ص٣٧٨.

وكان أول هذه الأحداث هو استسلام الملك الجواد، وتتحدث المصادر التاريخية عن الملك الجواد أنه لم تكن له رغبة في الملك وأنه كاتب الملك الصالح عارضًا عليه تسليم دمشق في مقابل عدة مناطق ثانوية[١]، وهذا ما حدث بالفعل، فقد اتفق الاثنان على مقايضة دمشق بحصن كيفا وسنجار وعانة، وفي ضوء هذا الاتفاق دخل الملك الصالح مدينة دمشق في مستهل جمادى الأولى سنة (٦٣٦هـ)، حينئذ شعر الملك الجواد بالندم وارتفعت حرارة العداء بين الرجلين، غير أنها لم تصل إلى درجة الانفجار، وذلك للمحاولات التي بذلها البعض، وفي النهاية قَبِلَ الملك الجواد مرغمًا ما سبق الاتفاق عليه[٢]، ومن دمشق سار الملك الصالح على رأس قواته صوب مصر، وفي الطريق دخل في صراع مع الملك الناصر داود، وقد أسفر هذا الصراع عن استيلاء الملك الصالح على منطقة نفوذ الملك الناصر[٣]، ونتيجة لذلك توجه الأخير إلى مصر، وأعلن انضمامه إلى جانب العادل[٤].

٢- **الملك الصالح إسماعيل بن العادل**: وعند هذا الحد يقفز إلى ساحة الصراع داخل البيت الأيوبي وجه جديد، ذلك هو الصالح إسماعيل بن العادل، صاحب بعلبك، فإنه لم يستجب لما طلبه منه ابن أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب من الانضمام إليه، بل إنه على العكس زحف على مدينة دمشق، واستولى عليها هو وأسد الدين شيركوه، صاحب حمص، وذلك في الأيام الأخيرة من صفر سنة (٦٣٧هـ) ولم يقف عند هذا الحد، بل إن الصالح إسماعيل وأسد الدين شيركوه اتفقا على أن تكون البلاد بينهما مناصفة[٥]، وفي الوقت الذي كان تجري فيه هذه الأحداث، كان الملك الصالح مقيمًا بنابلس، فلما سقطت دمشق في قبضة الصالح إسماعيل وأسد الدين شيركوه أخذ يتحرك، واستقر الرأي بينه وبين عميه مجير الدين وتقي الدين على مهاجمة دمشق، ولكن حدث حينما شارفوا المدينة أن تخلى العمان بأتباعهما عن الملك الصالح فعاد إلى نابلس من جديد[٦]، وازداد الموقف تفاقمًا بالنسبة للملك الصالح فقد حدث في تلك الأثناء أن هجر الملك الناصر داود مصر مغاضبًا للعادل[٧].

٣- **اعتقال الملك الصالح نجم الدين أيوب بالكرك**: وتغيرت الأمور على الملك الصالح نجم الدين أيوب وتفرَّق عنه أصحابه والأمراء خوفًا على أهاليهم من الصالح إسماعيل، وبقي الصالح أيوب وحده في مماليكه وجاريته أم خليل، وطمع فيه الفلاحون والغوارنة، وأرسل الناصر داود صاحب الكَركِ إليه من أخذه من نابلُس مهانًا على بغلة بلا مهماز ولا مقرعة[٨]،

(١) تاريخ ابن خلدون (٥/ ٢٧١) الجبهة الإسلامية ص٣٧٨ .
(٢) النجوم الزاهرة (٦/ ٣٠٥، ٣٠٦).
(٣) كانت منطقة نفوذه تشمل الكرك والصلت والبلقان والأغوار.
(٤) النجوم الزاهرة (٦/ ٣٠٦) الجبهة الإسلامية ص٣٧٩ .
(٥) السلوك (١/ ٢٨)، النجوم الزاهرة (٦/ ٣٠٦).
(٦) الجبهة الإسلامية ص٢٧٩ .
(٧) المصدر نفسه ص٢٧٩ .
(٨) المهماز: حديدة تكون في مؤخر خُفّ الرائض، والمقرعة: إلجام الدابة.

فاعتقله عنده سبعة أشهر، وأرسل العادل من مصر إلى الناصر يطلب منه أخاه الصالح أيوب، ويُعطيه مائة ألف دينار، فما أجابه إلى ذلك، بل عكس ما طلب منه بإخراج الصالح من سجنه والإفراج عنه وإطلاقه مع الجيش يركب وينزل فعند ذلك حاربت الملوك من دمشق ومصر وغيرهما الناصر داود، وبرز العادل من الديار المصرية بلبيس قاصدًا قتال الناصر داود، فاضطرب الجيش عليه، واختلف الأمراء، وقيَّدوا العادل واعتقلوه في خَرْكاه، وأرسلوا إلى الصالح أيوب يستدعونه إليهم فامتنع الناصر داود من إرساله حتى اشترط عليه أن يأخذ له دمشق وحمص وحلب وبلاد الجزيرة وديار بكر ونصف مملكة مصر ونصف ما في الخزائن من الحواصل والأموال والجواهر.

قال الصالح أيوب: فأجبتُ إلى ذلك مُكرهًا، ولا يقدر على جميع ما اشترط عليَّ ملوك الأرض، وسرنا فأخذته معي خوفًا أن يكون هذا الكتاب من المصريين مكيدة، ولم يكن لي به حاجة، وذكر أنه كان يسكر ويخبط الأمور ويخالف الآراء السَّديدة، فلما وصل الصالح إلى المصريين ملَّكوه عليهم، ودخل الديار المصرية سالمًا مؤيدًا منصورًا مظفَّرًا، محبورًا، مسرورًا، فأرسل إلى الناصر داود عشرين ألف دينار، فردَّها عليه ولم يقبلها منه، واستقر ملكه بمصر.

وأما الجواد فإنه أساء السِّيرة في سنجار، وصادر أهلها وعسفهم وكاتبوا بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فقصدهم -وقد خرج الجوادُ للصيد- فأخذ البلد بغير شيء وصار الجواد إلى عانة، ثم باعها للخليفة بعد ذلك[1]، وكان الجواد هذا ظالمًا جائرًا عسوفًا سلط خادمًا لزوجته يقال له: الناصح، فصادر الدماشقة، وأخذ منهم نحوًا من ستمائة ألف دينار، وقلق من مُلك دمشق وقال: أيش أعمل بالملك؟ بازٌ وكلب أحبُّ إليَّ من هذا، ثم خرج إلى الصيد، وكاتب الصالح نجم الدين أيوب فتقايضا من حصن كيفا وسنجار وما يتبع ذلك إلى دمشق، فملك الصالح أيوب دمشق -كما مرَّ معنا- وخرج الجواد منها والناس يلعنونه في وجهه، بسبب ما أسداه إليهم من المصادرات، وأرسل إليه الصالح أيوب ليرُدَّ إلى الناس أموالهم فلم يلتفت إليه، وسار وبقيت في ذمته، ولما استقرَّ الصالح في ملك مصر -كما سيأتي- حبس الناصح الخادم فمات في أسوأ حالة من القلة والقملِ جزاءً وفاقًا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦][2].

٤- وفاة صاحب حمص الملك المجاهد أسد الدين شيركوه (٦٣٧هـ): ابن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادي، ولَّاه إياها الملك الناصر صلاح الدين بعد موت أبيه سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، فمكث فيها سبعًا وأربعين سنة، وكان من أحسن الملوك سيرة، طهَّر بلاده من الخمور والمكوس والمنكرات، وهي في غاية الأمن والعدل، لا يتجاسر أحدٌ من

(١) البداية والنهاية (١٧/ ٢٤٨).
(٢) المصدر نفسه (١٧/ ٢٤٣).

الفرنج ولا العرب يدخل بلاده إلا أهانه غاية الإهانة، وكانت ملوك بني أيوب يتَّقونه؛ لأنه كان يرى أنه أحق بالأمر منهم، لأن جِدَّه هو الذي فتح مصر، وأول من ملك منهم، وكانت وفاته رحمه الله في حمص، وعُمل عزاؤه بجامع دمشق، عفا الله عنه بمنِّه[(١)].

٥- الفتح الناصري الداودي للقدس سنة (٦٣٧هـ): بعد اعتقال الملك الناصر داود صاحب الكرك للملك الصالح أيوب بالكرك، قصد الملك الناصر داود القدس وكان الإفرنج قد عمروا قلعتها بعد موت الملك الكامل (٦٣٥هـ)؛ أي نقضوا شروط العهد والهدنة بينهم وبين المسلمين التي وقعها معهم الملك الكامل سنة (٦٢٦هـ) فحاصرها وفتحها، وخرَّب القلعة، وبرج محراب داود أيضًا، فإنه لما فتحت القدس سنة (٥٨٣هـ) في الفتح الصلاحي، لم يخرب برج محراب داود، فخربه في هذه المرة وذلك في سنة (٦٣٧هـ) بعد أن بقي في أيدي الإفرنج نحو إحدى عشرة سنة من حين تسليم الكامل له في سنة (٦٢٦هـ)، فأنشد في ذلك الفتح في مدح الملك الناصر داود، ومقارنة للقدس سنة (٦٣٧هـ) بفتح صلاح الدين الأيوبي للقدس سنة (٥٨٣هـ) أنشد الشاعر الوزير الأيوبي جمال الدين بن مطروح قصيدة جاء فيها:

المسجد الأقصى له آية ... سارت فصارت مثلًا سائرًا
إذا غدا للكفر مستوطنًا ... أن يبعث الله له ناصرًا
فناصرٌ طهره أولًا ... وناصر طهوره آخرًا[(٢)]

٦- هجرة الشيخ العز بن عبد السلام إلى مصر: سلَّم الصالح إسماعيل صاحب دمشق حصن شقيق أرنون لصاحب صيدا الفرنجي، فاشتد الإنكار عليه بسبب ذلك من الشيخ عز الدين بن عبد السلام خطيب البلد، والشيخ أبي عمرو بن الحاجب شيخ المالكية، فاعتقلهما مدة، ثم أطلقهما وألزمهما منازلهما، وولَّى الخطابة وتدريس الغزَّالية لعماد الدين داود بن عمر بن يوسف المقدسي خطيب بيت الآبار ثم خرج الشيخان من دمشق، فقصد أبو عمر الناصر داود بالكرك ودخل الشيخ عز الدين الديار المصرية فتلقَّاه صاحبها الصالح أيوب بالاحترام والإكرام، وولَّاه خطابة القاهرة وقضاء مصر، واشتغل عليه أهلها، فكان ممَّن أخذ عنه الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد -رحمهما الله تعالى-[(٣)] وسيأتي الحديث عن عز الدين بن عبدالسلام بإذن الله مفصلًا.

٧- وفاة محي الدين بن عربي صاحب الفصوص وغيرها (٦٣٨هـ): قال عنه الذهبي: العلامة صاحب التواليف الكثيرة محي الدين أبو بكر محمد بن علي بن محمد بن أحمد الطائيُّ الحاتمي المرسيُّ بن العربي، نزيل دمشق، وكان ذكيًّا كثير العلم، كتب الإنشاء لبعض الأمراء بالمغرب، ثم تزهَّد وتفرَّد، وتعبَّد وتوحَّدَ، وسافر وتجرَّد، واتهم وأنجد، وعمل الخلوات وعلَّق شيئًا كثيرًا

---
(١) المصدر نفسه (١٧/ ٢٤٩).
(٢) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب ص٣٢٥.
(٣) البداية والنهاية (١٧/ ٥٢١).

في تصوف أهل الوحدة، ومن أردأ تواليفه كتاب (الفصوص) فإن كان لا كفر فيه، فما في الدنيا كُفر، نسأل الله العفو والنجاة فواغوشاه بالله، وقد عظمه جماعة وتكلَّفُوا لِمَا صدر منه ببعيد الاحتمالات، وقد حكى العلامة ابن دقيق العيد شيخنا أنه سمع الشيخ عز الدين بن عبد السلام يقول عن ابن العربي: شيخ سوءٍ كذاب، يقول بِقِدَم العالم ولا يُحرِّمُ فرجًا[١].

قال الذهبي: إن كان محي الدين رجع عن مقالاته تلك قبل الموت فقد فاز، وما ذلك على الله بعزيز، توفي في ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين وست مائة وقد أوردت عنه في (التاريخ الكبير) وله شعر رائق، وعلم واسع، وذهن وقَّاد، ولا ريب أن كثيرًا من عباراته له تأويل إلا كتاب (الفصوص)[٢]، وقال ابن كثير: طاف البلاد وأقام بمكة مدة، وصنَّف فيها كتابه المسمَّى بالفتوحات المكية في نحو عشرين مجلدًا، فيه ما يُعْقَلُ وما لا يُعْقَلُ، وما يُنكرُ وما لا يُنكرُ، وما يُعرف وما لا يُعرف[٣].

ثانيًا: الأيوبيون بالشام يستعينون بالصليبيين:

ما كاد الصالح أيوب يتولى ملك مصر حتى أبدى أمراء الأيوبية في الشام استياءهم ورفضوا الخضوع لسلطانه، وكان أشدهم تصلبًا عمه إسماعيل صاحب دمشق، الذي اتفق مع الملك المنصور صاحب حمص أن يكوِّنوا حلفًا ضد نجم الدين، ومدُّوا يدهم إلى الصليبيين وطلبوا محالفتهم ضد سلطان مصر والناصر داود في الأردن، وفي مقابل ذلك تعهدوا بإعطاء الصليبيين مدينة القدس وإعادة مملكة الصليبيين على ما كانت عليه قديمًا بما فيها الأردن، ولكي يبرهن صاحب دمشق على صدق نيته تجاه الصليبيين بادر فورًا بتسليم القدس وطبرية وعسقلان، فضلًا عن قلعة الشقيف وأرنون وأعمالها، وقلعة صفد وبلادها ومناصفة صيدا وطبرية وأعمالهما وجبل عاملة وسائر بلاد الساحل[٤].

وأمام هذا السخاء العجيب ثار الرأي العام الإسلامي في مصر والشام على الصالح إسماعيل، حتى إن حاميات بعض القلاع رفضت إطاعة الأوامر الصادرة إليها من الصالح إسماعيل، فسار هو بنفسه ليؤدب تلك الحاميات ويسلم الحصون للصليبيين، في تلك الأثناء أسرع الصليبيون إلى تسلم بيت المقدس، وأعادوا تعمير قلعتي طبرية، وعسقلان، ثم رابطوا بعد ذلك بين يافا وعسقلان استعدادًا للخطوة التالية، وهنا وعدهم الصالح إسماعيل بأنه إذا ملك مصر أعطاهم جزءًا منها، فسال لعابهم لذلك واتجهوا صوب غزة عازمين على غزو مصر[٥]،

(١) سير أعلام النبلاء (٢٣/٤٩).
(٢) المصدر نفسه (٢٣/٤٩).
(٣) البداية والنهاية (١٧/٢٥٣).
(٤) السلوك (١/٣٠٣) النجوم الزاهرة (٦/٣٢٢) الدولة الأيوبية، د/ دعكور ص٢٣٣.
(٥) النجوم الزاهرة (٦/٣٢٢) الدولة الأيوبية، د/ دعكور ص٢٣٣.

وسار الصالح إسماعيل صاحب دمشق والملك المنصور إبراهيم الأيوبي صاحب حمص على رأس جيوشهما في مهمة غزو مصر[(١)].

ولكن قادة القوات الشامية رفضوا طعن إخوانهم المصريين، فما كادوا يلتقون بجيش الملك الصالح أيوب قرب غزة حتى تخلوا عن الصالح إسماعيل والمنصور إبراهيم وساقت عساكر الشام إلى عساكر مصر طائعة ومالوا جميعًا على الفرنج فهزموهم، وأسروا منهم خلقًا لا يحصون[(٢)]، بحيث أطلق على هذه المعركة اسم حطين الصغرى، وقد استولى جيش الملك الصالح أيوب على أثرها على مدينة غزة في حين انسحب فلول الإفرنج إلى عسقلان حيث عقدت صلحًا مع الملك الصالح أيوب الذي قبل ذلك بهدف القضاء على التحالف بين الصالح إسماعيل والصليبيين، وكان من شروط الصلح إطلاق الصالح أيوب سراح الأسرى الذين يسقطون في يده مقابل التزام الصليبيين الحياد، غير أن الراوية والنبلاء الصليبيين ظلوا على عهدهم في المحافظة على المعاهدة مع دمشق ومقاومة الغزو المصري[(٣)].

والواقع أن انحياز طائفة من عساكر دمشق إلى المعسكر المصري في معركة غزة وازدياد كراهية أهل دمشق للصالح إسماعيل، دفعت سلطان دمشق إلى إعلان الخطبة باسم سلطان سلاجقة الروم، مما أدى ذلك إلى تفاقم النقمة عليه، ولم يرَ الصالح إسماعيل بُدًّا من مصالحة ملك مصر فذكر اسمه في الخطبة في سنة (١٢٤٣م) ثم لم يلبث أن تم الاتفاق بين الصالح إسماعيل والصالح أيوب على حساب الناصر داود، فانتزعا منه إمارة الكرك[(٤)]، ومن شروط الاتفاق أيضًا أن يصبح الصالح إسماعيل سلطانًا على دمشق والكرك، على أن يذكر اسم الصالح أيوب في خطبة الجمعة وينقش اسمه على النقود غير أن الاتفاق فشل في اللحظة الأخيرة[(٥)].

ثالثًا: الخوارزمية واسترداد بيت المقدس:

بعد فشل عملية الصلح بين الصالح أيوب وعمه الصالح إسماعيل عمد الصالح أيوب إلى استدعاء الخوارزمية وتحريضهم على مهاجمة دمشق، فما كان من الصالح إسماعيل إلا أن استعان بالناصر داود مرة أخرى واتفق الملكان على الاستنجاد بالصليبيين مقابل تعهدهم، بأن تكون سيطرة الصليبيين على بيت المقدس تامة مطلقة؛ بمعنى أن يستولى الصليبيون على الحرم الشريف بما في فيه المسجد الأقصى وقبة الصخرة[(٦)]، وهي الأماكن التي ظلت في حوزة المسلمين وتحت إشرافهم منذ استيلاء الصليبيين على بيت المقدس بمقتضى اتفاقية يافا سنة (٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م)[(٧)].

---

(١) النجوم الزاهرة (٦/ ٣٢٣) الدولة الأيوبية ص٢٣٣ .
(٢) السلوك (١/ ٣٠٥) الدولة الأيوبية ص٢٣٣ .
(٣) الدولة الأيوبية ص٢٣٤ .
(٤) المصدر نفسه.
(٥) الدولة الأيوبية، د/ دعكور ص٢٣٤ .
(٦) خطط الشام (٢/ ١٠٣) الحركة الصليبية (٢/ ١٠٤٢).
(٧) الدولة الأيوبية، د/ دعكور ص٢٣٥ .

لقد أدى النزاع في البيت الأيوبي إلى التفريط ببيت المقدس، قال ابن واصل في أحداث سنة (٦٤١هـ): . . . ودخل الفرنج القدس وتسلموا الصخرة المقدسة والأقصى وما في الحرم الشريف من المزارات، وضمنوا للفرنج -على ما اشتهر- أنهم إذا ملكوا الديار المصرية أن يكون لهم بها نصيب، وجمع الفرنج الفارس والراجل وحشدوا . . . وسافرتُ في أواخر هذه السنة إلى الديار المصرية، ودخلتُ البيت المقدس، ورأيت الرهبان والقسوس على الصخرة المقدسة وعليها قناني الخمر برسم القربان، ودخلت الجامع الأقصى وفيه جرس معلق، وأُبطل بالحرم الشريف الأذان والإقامة وأعلن فيه بالكفر[1]، وكان الناصر داود فتح بيت المقدس في سنة (٦٣٧هـ) ثم فعل هذه الفعلة القبيحة، وقد انتقم الله منه فيما بعد[2].

وكان الصليبيون آثروا محالفة الصالح إسماعيل والناصر داود؛ لأن توطيد أواصر الصداقة مع ملكي دمشق والأردن كان أجدى عليهما من محالفة ملك مصر، لا سيما وأن غزو مصر بالتعاون مع هذين الملكين يجدد أمامهم الأمل في احتلالها والاستيلاء على كنوزها وخيراتها، مما دفع الملك الصالح أيوب إلى الاستعانة بالخوارزمية ودعوتهم لمساندته في صد الهجوم الثلاثي الموجه على مصر، فعبروا نهر الفرات في عشرة آلاف مقاتل، وأمعنوا في سيرهم حتى بلغوا دمشق، وهم ينهبون ويقتلون ويسبون[3]، وارتكبوا من الفواحش ما ارتكبه التتار[4]، فَسَادَ الذعر واشتد الخوف في جميع البلاد والأراضي التي اجتازوها، وصار الناس يهربون من وجوههم، ثم سار الخوارزمية إلى طبرية فاستولوا عليها، ومنها توجهوا إلى نابلس وبيت المقدس وأحس الصليبيون بما يحيق بهم من الخطر فسارع بطريرك المدينة ومن معه من مقدمي الراوية والأسبتارية إلى تعزيز الحاميات التي تحصنت وراء الاستحكامات التي شيدها من جديد الراوية، غير أن جميع الجهود ذهبت سدًى.

وفي (الثاني من صفر سنة ٦٤٢هـ/ الحادى عشر من تموز ١٢٤٤م) اقتحم الخوارزمية المدينة وجرى القتال في الشوارع واستنجد الصليبيون بأمير أنطاكية وطرابلس، وبملك قبرص، وبإخوانهم في عكا، وبحلفائهم المسلمين في دمشق والأردن، فلم ينجدهم أحد، وكل ما قام به الناصر داود أنه توسط في خروج من يرغب منهم في مغادرة المدينة إلى الساحل غير أنه لم يصل منهم إلى يافا سوى ثلاثمائة[5]. لقد كان مسلك الخوارزمية في القدس وفي مطاردة الصليبيين الذين غادروها إلى يافا يتناقض مع مسلك صلاح الدين صاحب الشمائل الكبيرة والمروءة الكريمة، والتسامح الجميل[6]، يوصف هذا الفتح بالفتح الصلاحي النجمي، نسبة إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب، إذ تم الفتح في عهده[7].

---

(١) مفرج الكروب (٥/ ٣٣٣).
(٢) الأنس الجليل (٢/ ٦) لمجير الدين العليمي الحنبلي.
(٣) السلوك (١/ ٣١٦) الأيوبيون، د/ دعكور ص٢٣٥ .
(٤) خطط الشام (٢/ ١٠٢).
(٥) النجوم الزاهرة (٦/ ٣٢٣) الأيوبيون ص٢٣٦ .
(٦) الأيوبيون، د/ دعكور ص٢٣٦ .
(٧) بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ص٢٢١ .

رابعًا: الصالح أيوب وتوحيد الدولة الأيوبية:

بعد أن استولى الخوارزمية على بيت المقدس ساروا إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب يخبرونه بقدومهم فأمرهم بالإقامة في غزة، وفي الوقت ذاته سيَّر نجم الدين أيوب عسكرًا من مصر بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس، فسار إلى غزة وانضم الخوارزمية، وفي (الثاني عشر من جمادى الأولى سنة ٦٤٢هـ/ السابع عشر من تشرين الأول سنة ١٢٤٤م) حدث اللقاء عند غزة بين الجيش المصري ومعه الخوارزمية من ناحية والصليبيين وجيوش حمص ودمشق من ناحية أخرى، وتمكن الجيش المصري والخوارزمي بإلحاق هزيمة ساحقة بالتحالف الشامي الصليبي[١] قال ابن كثير عن هذه الوقعة في أحداث سنة (٦٤٢هـ): كانت فيها وقعة عظيمة بين الخوارزمية الذين كان الصالح أيوب صاحب مصر قد استقدمهم ليستنجِد بهم على الصالح إسماعيل أبي الحسن صاحب دمشق، فنزلوا على غَزَّة، وأرسل إليهم الصالح أيوب الأموال والخِلعَ والخيل والأقمشة والعساكر، فاتفق الصالح إسماعيل والناصر داود صاحب الكرك والمنصور صاحب حمص مع الفرنج واقتتلوا مع الخوارزمية قتالًا شديدًا فهزمتهم الخوارزمية كسرة منكرة فظيعة، هزمت الفرنج بصلبانها وراياتها العالية على رءوس أطلاب المسلمين، وكانت كئوس الخمر دائرة بين الجيوش، فنابت كئوس المنون على تلك الخمور، فقتل من الفرنج في يوم واحد زيادة عن ثلاثين ألفًا، وأسروا جماعة من ملوكهم وقسوسهم وأساقفتهم، وخلقًا من أمراءِ المسلمين، وبعثوا بالأسارى إلى الصالح أيوب بمصر، وكان يؤمئذ يومًا مشهودًا وأمرًا محمودًا.

وقد قال بعض أمراء المسلمين: قد علمت أنًا لمَّا وقفنا تحت صلبان الفرنج أنا لا نُفلِحُ وغنمت الخوارزمية من الفرنج وممَّن كان معهم شيئًا كثيرًا، وأرسل الصالح أيوب إلى دمشق ليُحاصرها، فحصّنها الصالح إسماعيل، وخَّرب من حولها رِباعًا كثيرة، وكسر جسر باب تُوما، فكسر النهر، فتراجع الماء حتى صار بُحيرة من باب تُوماء وباب السَّلامة، فغرق جميع ما كان بينهما من العمران وافتقر كثير من الناس، فإنا لله وإنا إليه راجعون[٢]

بعد معركة غزة سارع القائد المصري بيبرس إلى الاستيلاء على غزة والساحل، والقدس والخليل وبيت جبريل والأغوار ثم حاصر دمشق وفيها صاحبها الصالح إسماعيل وإبراهيم بن شيركوه صاحب حمص، ولما ضاق صاحب دمشق بالحصار ذرعًا سيَّر وزيره أمين الدولة إلى العراق متشفعًا بالخليفة العباسي ليصلح بينه وبين ابن أخيه الصالح أيوب، فلم يجبه الخليفة إلى ذلك، وبعد حصار دام ستة أشهر استسلمت دمشق في (الثامن من جمادى الأولى سنة ٦٤٣هـ/ الأول من تشرين الأول سنة ١٢٤٥م) وعوض الصالح إسماعيل عنها ببعلبك وبصرى وأعمالها[٣]

---

(١) الدولة الأيوبية، د/ دعكور ص٢٣٦

(٢) البداية والنهاية (١٧/ ٢٧٤).

(٣) السلوك (١/٣١٧-٣١٨) الدولة الأيوبية، د/ دعكور ص٢٣٧

وأما الخوارزمية فقد انقلبوا على الصالح نجم الدين أيوب؛ لأنهم لم يحصلوا على ما كانوا يطمحون إليه، فهم ظنوا أنهم بعد أن ساعدوه في التغلب على خصومه وفي تملك بلاد الشام سوف يقاسمهم الغنائم ويشاطرهم الملك، لكن ظنهم خاب عندما منعهم دخول دمشق وأقطعهم بلاد الساحل، فتغيرت نياتهم واتفقوا على الخروج عن طاعة السلطان(١)، وأعلنوا الثورة وسارع الناصر داود صاحب الكرك، والملك الصالح إسماعيل بالانضمام إليهم، وزحفوا جميعًا على دمشق وحاصروها وقطعوا عنها الإمدادات، فاشتد الغلاء بها، ومات كثير من الناس جوعًا، وأكل الناس القطط والكلاب والميتات، واستمر هذا البلاء ثلاثة أشهر، وهنا أظهر الصالح أيوب صبرًا ومهارة فلجأ إلى أعمال الحيلة والتدبير، فأغرى الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص على الانضمام إليه فضلًا عن استمالة الحلبيين، كما تحايل على بعض الأمراء وفك التحالف، وبفضل الله ثم هذه الإجراءات تمكن الصالح أيوب من إنزال الهزيمة بالخوارزمية بالقرب من حمص في أول المحرم سنة (٦٤٤هـ/١٢٤٦م) (٢) ولقي زعيمهم مصرعه، فتبدد شملهم، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة(٣).

وبعد القضاء على الخوارزمية قام الصالح أيوب برحلة إلى الشام ليقف على ما ناله من نصر، وليعزز مركزه، فتوجه إلى دمشق حيث لقي بها استقبالًا حافلًا في سنة (٦٤٥هـ/ ٢٦ آذار سنة ١٣٤٧م) ثم سار إلى بعلبك وبصرى وبيت المقدس، ثم عمَّر ما تخرب من المباني، وأقام عمائر جديدة في البلاد التي خضعت له، وتشهد النقوش على ما قام به من مبانٍ وإنشاءات في دمشق والشوبك وصرخد وبصرى وبيت المقدس(٤).

١- الشيخ تقي الدين بن الصلاح (توفي ٦٤٣هـ): هو الإمام الحافظ العلامة شيخ الإسلام تقي الدين أبو عمرو عثمان بن عبد المفتي صلاح الدين عبد الرحمن بن عثمان بن موسى الكردي الشهرزوريُّ الموصليُّ الشافعي، صاحب علوم الحديث، مولده في سنة سبع وسبعين وخمسمائة(٥)... ودرَّس بالمدرسة الصَّلاحية ببيت المقدس مُديدةً، فلما أمر المعظم بهدم سور المدينة نزح إلى دمشق فدرّس بالرواحية مدة عندما أنشأها الواقف، فلما أنشئت الدار الأشرفية صار شيخها، ثم ولي تدريس الشاميّة الصُّغرى واشتغل وأفتى وجمع وألَّف، وتخرَّج به الأصحاب، وكان من كبار الأئمةِ وكان تقي الدين أحد فضلاء عصره في التفسير والحديث والفقه وله مشاركة في عدة فنون، وكانت فتاويه مُسدَّدة، وهو أحد شيوخي(٦) الذين انتفعت بهم، أقمت عنده للاشتغال ولازمته سنة(٧).

---

(١) السلوك (١/ ٣٢٢) الدولة الأيوبية، د/ دعكور ص٢٣٧ .

(٢) السلوك (١/ ٣٢٤) الدولة الأيوبية، د/ دعكور ص٢٣٨ .

(٣) خطط الشام، محمد كرد علي (٢/ ١٠٤) الدولة الأيوبية ص٢٣٨ .

(٤) الدولة الأيوبية ص٢٣٨ .

(٥) سير أعلام النبلاء (٢٣/ ١٤٠).

(٦) وفيات الأعيان (٣/ ٢٤٣، ٢٤٤).

(٧) سير أعلام النبلاء (٢٣/ ١٤٢).

وقال الذهبي: كان ذا جلالة عجيبة، ووقارٍ وهيبة وفصاحة، وعلم نافع، وكان متين الديانة، سلفيَّ الجُملة، صحيح النِّحلة، كافًا عن الخوض في مزلَّات الأقدام، مؤمنًا بالله، وبما جاء عن الله من أسمائه ونعوته، حسن البزَّة، وافر الحرمة، معظَّما عند السلطان[١] . . . وكان مع تبحرِه في الفقه مجوِّدًا لما ينقله، قويَّ المادة من اللغة العربية، متفنِّنا في الحديث، متصونًا مُكبًّا على التعلم، عديم النظير في زمانه، وله مسألة ليست من قواعده شذَّ فيها وهي صلاة الرغائب، قوَّاها ونصرها مع أن حديثها باطل بلا تردد، ولكن له إصابات وفضائل، ومن فتاويه أنه سُئل عمن يشتغل بالمنطق والفلسفة فأجاب: الفلسفة أُسُّ السَّفَهِ والانحلال ومادة الحيرة والضَّلال، ومثارُ الزيغ والزَّندقة، ومن تفلسف عَمِيَتْ بصيرته عن محاسن الشريعة المؤيدة بالبراهين، ومن تلبَّس بها قارنه الخذلان والحرمان واستحوذ عليه الشيطان، وأظلم قلبه عن نبوة محمد ﷺ، إلى أن قال: واستعمال الاصطلاحات المنطقية في مباحث الأحكام الشرعية من المنكرات المستبشعة، والرقاعات المستحدثة، وليس بالأحكام الشرعية -ولله الحمد- افتقار إلى المنطق أصلًا، وهو قعاقع قد أغنى الله كُلَّ صحيح الذهن، فالواجب على السلطان -أعزَّه الله- أن يدفع عن المسلمين شرَّ هؤلاء المشائيم ويخرجهم من المدارس ويبعدهم[٢] .

تُوفي الشيخ تقي الدين رحمه الله في سنة الخوارزميَّة في سحر يوم الأربعاء الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وستمائة، وحمل على الرءوس، وازدحم الخلق على سريره، وكان على جنازته هيبة وخُشوع، فصُلِّي عليه بجامع دمشق، وشيعوه إلى داخل باب الفَرج فصلُّوا عليه بداخله ثاني مرة، ورجع الناس لمكان حصار دمشق بالخوارزمية وبعسكر الملك الصالح نجم الدين أيوب لعمِّه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، فخرج بنعشه نحو العشرة مشمِّرين، ودفنوه بمقابر[٣] الصوفية، وقال السبط: أنشدني الشيخ تقيُّ الدين بن الصلاح من لفظه:

احذر من الواوات أربعة فهنَّ من الحتوف
واوَ الوصية والوديعة والوكالة والوُقوف[٤]

وحكى ابن خلِّكان عنه أنه قال: أُلهمت في المنام هؤلاء الكلمات؛ ادفع المسألة ما وجدت التَّجمل يمكنك، فإن لكل يوم رزقًا جديدًا، والإلحاحُ في الطلب يُذهب البهاءَ، وما أقرب الصَّنيع من الملهوف، وربما كان الغِيَرُ نوعًا من آداب الله تعالى، والحظوظ مراتبُ فلا تعجل على ثمرة قبل أن تُدرك، فإنك ستنالُها في أوانها، ولا تعجل في حوائجك فتضيق بها ذرعًا ويغشاك القُنوطُ[٥] .

---

(١) المصدر نفسه (٢٣/ ١٤٢).
(٢) المصدر نفسه (٢٣/ ١٤٣).
(٣) المصدر نفسه (٢٣/ ١٤٣).
(٤) البداية والنهاية (١٧/ ٢٨٢).
(٥) المصدر نفسه (١٧/ ٢٨٣).

٢- وفاة شيخ القرَّاء بدمشق عام (٦٤٣هـ): الشيخ الإمام العلامة شيخ القراء والأدباء علمُ الدين أبو الحسن عليُّ بن محمد بن عبد الصمد عطَّاس السخاوي الشافعي نزيل دمشق[١]، وكان إمامًا في العربية بصيرًا باللغة فقيهًا مفتيًا، عالمًا بالقراءات وعِللها، مجوِّدًا لها، بارعًا في التفسير، صنَّف وأقرأ وأفاد، وروي الكثير وبعد صيته، وتكاثر عليه القرَّاء[٢]، وكان مع سعة علومه وفضائله ديِّنًا، حسن الأخلاق، محببًا إلى الناس، وافر الحرمة، مُطرّحًا للتكلُّف، ليس له شغل إلا العلم ونشره[٣].

قال عنه ابن كثير: ختم عليه ألوف من الناس وكان قد قرأ على الشاطبي وشرح قصيدته، وله شرح المُفصَّل وله تفسيرٌ وتصانيفُ كثيرة ومدائحُ في رسول الله ﷺ، وكان له حلقة بجامع دمشق، وولي مشيخة الإقراءِ بتربة أمِّ الصالح وبها كان مسكنه، وبه توفي ليلة الأحد ثاني عشر جمادى الآخرة ودفن بقاسيون[٤].

٣- جمال الدين أبو الحسن المخرمي (توفي سنة ٦٤٦هـ): كان شابًّا فاضلًا أديبًا ماهرًا، صنَّف كتابًا مختصرًا وجيزًا جامعًا لفنون كثيرة في الرياضية والعقل وذمّ الهوى وسمَّاه نتائج الأفكار، قال فيه من الكلم المستفادة الحكيمة: السلطان إمام متبوع، ودين مشروع، فإن ظلم جارت الحكام لظلمه، وإنْ عدل لم يَجُرْ أحد في حكمه، من مكَّنه الله في أرضه وبلاده وائتمنه على خلقه وعباده، وبسط يده وسلطانه، ورفع محلَّه ومكانه، فحقيق عليه أن يؤدِّي الأمانة، ويُخْلِصَ الديانة ويُحمِّلَ السَّريرة، ويُحْسِنَ السِّيرة، ويجعل العدل دأبه المعهود، والأمن بحر عرضه المقصود، فالظلم يُزِلُّ القَدَم ويُزيلُ النِّعم، ويَجْلُبُ النِّقم ويُهلكُ الأمم.

وقال أيضًا: معارضة الطبيب توجب التَّعذيب، رُبَّ حيلة أنفع من قبيلة، الموت في طلب الثأر خير من الحياة في العار، سَمينُ الغضب مهزول، ووالي الغدر معزول، قلوب الحُكماءِ تستشِفُّ الأسرار من لمحات الأبصار، ارضَ من أخيك في ولايته ما كُنت تعهده من مودته، التواضع من مصائد الشرف، ما أحسن حسن الظن لولا أن فيه العجز، ما أقبح سوء الظن لولا أن فيه الحزم[٥]، وذكر في غبُون كلامه أن خادمًا لعبد الله بن عمر أذنب، فأراد ابن عمر أن يعاقبه على ذنبه فقال: يا سيدي، أما لك ذنبٌ تخاف الله تعالى منه؟ قال: بلى. قال: فبالذي أمهلك لما أمهلتني، ثم أذنب العبد ثانيًا، فأراد عقوبته فقال له مثل ذلك، فعفا عنه، ثم أذنب الثالثة، فعاقبه وهو لا يتكلَّمُ، فقال له ابن عمر: ما لك لم تَقُل ما قلت في الأوَّلتين فقال: يا سيدي، حياءً من حِلْمِك مع تكرار جُرمي، فبكى ابن عمر وقال: أنا أحقُّ بالحياء من ربي، أنت حرٌّ لوجه الله تعالى، ومن شعره يمدح الخليفة:

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٣/ ١٢٣).
(٢) المصدر نفسه (٢٣/ ١٢٣).
(٣) المصدر نفسه (٢٣/ ١٢٣).
(٤) البداية والنهاية (١٧/ ٢٨٥).
(٥) البداية والنهاية (١٧/ ٢٩٩).

يا من إذا ضمَّ السحابُ بمائِه هطلت يداه على البَريَّة عَسْجَدا
جوَّزتَ كسرى يامُبَخِّلَ حاتمٍ فغدت بنو الآمال نحوَك سُجَّدا[١]

خامسًا: علاقة الملك الصالح أيوب بالخلافة العباسية:

كانت سياسة الملك الصالح نجم الدين أيوب تجاه الخلافة العباسية تتسم بنفس التوجيهات التي تبناها أسلافه السلاطين الأيوبيين من حيث الاعتراف بمؤسسة الخلافة وشرعية سيادتها على العالم الإسلامي، والالتزام بتطبيق ذلك في الخطبة وسك النقود والأمور الرسمية الأخرى[٢].

سادسًا: تطوير الملك الصالح أيوب للجيش الأيوبي:

ينسب إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب إدخال تشكيلات جديدة على القوَّة العسكرية التي كان يتكون منها جيش السلطان الأيوبي فقد اتخذ جملة من الإجراءات العسكرية تبناها السلطان الملك الصالح نجم الدين لتقوية الجيش الذي كان يترأسه ومن أهمها؛ اهتمامه الكبير بشراء المماليك والغلمان الأتراك بشكل لم يسبق له نظير في تاريخ السلطنة الأيوبية، فخلال مدة حكمه أضاف إلى الجيش في دفعة واحدة ما تعداده أكثر من ألف مملوك تركي جلبهم من إقليم التركستان (خوارزم) ومن مناطق شمالي البحر الأسود وبحر قزوين[٣]، وغيرها من الأماكن، وقد أصبح العنصر التركي في عهد الملك الصالح هو الغالبية المتميزة للجيش الأيوبي، وسرعان ما شكلوا نواة عسكرية سياسية نشطة تحولت إلى دولة المماليك البحرية، بعد أقل من بضع سنين على وفاة الملك الصالح لتختفي تدريجيًا العناصر المتكون منها الجيش الأيوبي؛ كالبربر والسودان. ومن أهم معالم التطوير في البنية العسكرية الأيوبية في عهد السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب الآتي:

١- **الصالحية**: وهي القوة العسكرية الجديدة من المماليك الأتراك باسم (الصالحية) نسبة إلى الملك الصالح أيوب نفسه، ومن الواضح أن الملك الصالح نجم الدين أيوب هو صاحب الفضل في تكوين هذه الفرقة الجديدة من المماليك التي تحمل أيضًا اسم البحرية، والتي قدر لها أن تنهض بدور خطير في تاريخ مصر السياسي لما يقرب من قرنين ونصف، ومما يقوله ابن تغرى بردى نقلًا عن ابن واصل مؤرخ الأيوبيين: اشترى من المماليك الترك ما لم يشتره أحد من أهل بيته حتى صاروا معظم عسكره وأرجحهم على الأكراد وأمرهم[٤]، ويبدو أن الملك الصالح أراد أن يشكر المماليك على جهودهم في الوصول إلى دست السلطنة، ولذلك عمل منهم جيش قوي

---

(١) المصدر نفسه (١٧/ ٣٠٠).
(٢) الملك الصالح أيوب وإنجازاته السياسية والعسكرية ص١٠١ .
(٣) الملك الصالح أيوب وإنجازاته السياسية والعسكرية ص١٠٩ .
(٤) المصدر نفسه ص١١٠ .

يسانده في فرض إرادته على الأقاليم الأيوبية بعد أن لمس غدر الطوائف الأخرى من الجند المرتزقة، مما دفعه إلى الاعتماد على تلك الفرقة الجديدة وترجيحهم على العناصر الأخرى السائدة[١].

وأما عن السبب في تسمية هذه الفرقة بالبحرية فالمرجح أن ذلك يرجع إلى اختيار السلطان الملك الصالح نجم الدين جزيرة الروضة على بحر النيل مركزًا لهم ولثكناتهم العسكرية، وكان معظم هؤلاء المماليك من الأتراك المجلوبين من بلاد القفجاق شمال البحر الأسود، ومن بلاد القوقاز قرب بحر قزوين، وقد كان للأتراك القفجاق ميزاتهم الخاصة بين طوائف الترك العامة؛ من حيث حسن الطلعة وجمال الشكل وقوة البأس، فضلًا عن الشجاعة النادرة، ولا شك في ولاء هؤلاء لسيدهم وكانوا قد شكَّلوا نواة لقوة عسكرية ضاربة في الجيش الأيوبي، واحتلُّوا نتيجة لنيلهم ثقة واعتماد السلطان رتبًا عسكرية كبيرة في جيش الملك الصالح نجم الدين أيوب، مثل المكانة التي كان يتمتع بها مقدمهم ركن الدين بيبرس والذي لعب دورًا كبيرًا في صعود الملك الصالح إلى السلطنة، وفيما بعد في المعارك ضد الصليبيين الفرنج وخاصة معركة المنصورة[٢].

وكان هؤلاء الصالحية يتولى شئونهم في التعليم والإعداد العسكري جهاز إداري محكم من الموظفين المختصين بشئون الجيش وبخلفيات الأمم التي ينتمون إليها وبالدين الإسلامي الحنيف، ولذا كان الإعداد العسكري يتم على مراحل؛ حيث إن المماليك الداخلين في السلك العسكري يخضعون لمراحل من التعليم والتربية الشاملة بين الجندية ومعرفة دين الإسلام، بما يؤهلهم للتخرج وخدمة السلطان مستقبلًا؛ حيث يشكِّلون الرافد الأساسي لجهاز السلطنة المركزي[٣]، ويتم تخرجهم بعد إجادة استعمال مختلف الأسلحة واتقان فنون القتال والفروسية المختلفة، وبعد دخولهم في السلطنة العسكرية يخضعون لنظام التربية على حسب كفاءتهم وقدراتهم وخدماتهم التي يقدمونها، كما أن التدرج الطبيعي من رتبة أولى إلى أخرى أعلى منها هو أسلوب الترقية السائد[٤]، وبالنسبة إلى زيهم العسكري، فالمماليك الصالحية كأمراء فرسان كانوا يلبسون زيًّا يختلف عن زي رجال المشاة، وكان هذا الزي مأخوذًا عن الجيش الأيوبي؛ لأنهم ضمن تشكيلات هذا الجيش، التي بدورها تعكس ما كان سائدًا لدى العباسيين[٥].

- **ثكنات المماليك الصالحية في جزيرة الروضة:** اتخذ الملك الصالح أيوب لمماليكه قاعدة في جزيرة الروضة تعرف بقلعة الجزيرة أو قلعة الروضة، وجعلها مقرًّا لهم وشرع في حفر

---

(١) المصدر نفسه ص١١٠ .
(٢) الملك الصالح أيوب وإنجازاته السياسية والعسكرية ص١١١ .
(٣) المصدر نفسه ص١١١ .
(٤) المصدر نفسه ص١١١ .
(٥) المصدر نفسه ص١١٣ .

الأساس وبنائها بين عامي (٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م-٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م) ولتطوير هذه الثكنات هدم الكثير من الدور والقصور والمساجد التي كانت في الجزيرة وأدخلت في نطاق القلعة، مشيدًا فيها مبانٍ كثيرة منها ستين برجًا، وأقام بها مسجدًا وغرس بداخلها أنواعًا شتى من الأشجار، ومن شحنها بالسلاح وآلات الحرب وما يحتاج إليه من الغلال والأزواد والأقوات، وقد أنفق السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب على عمارتها أموالًا كثيرة، وكان السلطان يقف بنفسه ويرتب ما يعمل بها، وقد عمل كل ذلك من أجل أن ينتقل من قلعة الجبل ويسكن مع مماليكه البحرية[١].

٢- **الخوارزمية**: كانت الخوارزمية قوة تركية دخلت الأراضي الشرقية التي في حوزة الملك الصالح في أعقاب هزيمة السلطان الخوارزمي جلال منكبرتي أمام المغول في سنة (٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م)، وهي فرقة من الفرسان قوامها اثنا عشر ألف فارس أو يزيد[٢]، يترأسها مقدمهم بركة خان، ثم أصبحت إحدى تشكيلات جيش السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بعد التفاهم الذي توصل إليه معهم في ذلك عندما كان ملكًا في المشرق الأيوبي، وهم يشبهون الصالحية من ناحية جنسهم التركي إلا أن ولاءهم السياسي ظل مرتبطًا بمصالحهم الشخصية والسياسية، ولعبوا دورًا كبيرًا إبان إمارة وسلطنة الملك الصالح أيوب، ويلاحظ أن قوة الخوارزمية قد احتفظت بتقاليد الجيش الخوارزمي وتنظيماته التي نقلتها بدورها إلى مفردات الجيش الأيوبي وتنظيماته، وبالرغم من إسهامات الخوارزمية في خدمة السلطان الصالح أيوب إلا أنه كان قليل الثقة بهم لعدم الإخلاص في ولائهم له[٣]، إلا أنه استخدمهم إلى حين تمَّ تخلص منهم كما مرَّ معنا.

٣- **عرب بنو كنانة**: لم يكن عرب بنو كنانة قوة نظامية بل كانوا يشكلون إحدى القوى الاحتياطية لجيش الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان لهم دور كبير في حماية مدينة دمياط أثناء الحملة الصليبية عليها في سنة (٦٤٦هـ/ ١٢٤٩م) وكان دورهم في الشام أكبر وإسهاماتهم أكثر في حماية المدن المختلفة[٤].

٤- **اهتمام الأيوبيين بتربية المماليك الإسلامية**: فأول ما يبدأ به تعليم المماليك ما يحتاجون إليه من القرآن الكريم، ولكل طائفة فقيه يأتيها كل يوم، ويأخذ في تعليمها القرآن ومعرفة الخط، والتمرين بآداب الشريعة الإسلامية وملازمة الصلوات والأذكار، وصار الرسم إذ ذاك لجلب التجار إلا المماليك الصغار، فإذا صار إلى سنة البلوغ أخذ في تعليمه فنون الحرب من رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك، فيتسلم كل طائفة معلم حتى يبلغ الغاية من معرفة ما يحتاج

---

(١) الملك الصالح أيوب وإنجازاته السياسية والعسكرية ص١١٤.
(٢) المصدر نفسه ص١١٥.
(٣) المصدر نفسه ص١١٦.
(٤) المصدر نفسه ص١١٧.

إليه، وإذا ركبوا إلى لعب الرمح أو رمي النشاب لا يجسر جندي ولا أمير أن يحدثهم أو يدنو منهم، عند ذلك ينقل إلى الخدمة وينتقل في أطوارها رتبة بعد رتبة إلى أن يصير من الأمراء فلا يبلغ هذا إلا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت أدابه وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه، واشتد ساعده في رماية النشاب وحسن لعبه بالرمح ومرن على ركوب الخيل.

وقد كان لهم خدامًا وأكابر من النواب يفحصون الواحد منهم فحصًا شافيًا ويؤاخذونه أشد المؤاخذة، ويناقشونه على تحركاته وسكناته، فإن عثر أحد مؤدبيه الذي يعلمه القرآن أو رأس النوبة الذي هو حاكم عليه، على أنه اقترف ذنبًا، أو أحل برسم أو ترك أدبًا من آداب الدين أو الدنيا، قابله على ذلك بعقوبة شديدة بقدر جرمه، فلذلك كانوا سادة يدبرون الممالك وقادة يجاهدون في سبيل الله وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل ويردعون من جار أو تعدى[(١)]، وللمماليك الصالحية النجمية بالقاهرة خانات ودروب وحمامات ومدارس على غرار منشآت المماليك الأسدية والصلاحية، نذكر منها المدرسة الغزنوية التي بناها الأمير علاء الدين البندقداري الصالحي النجمي، ومطبخ سكر الأمير فارسي أقطاي الصالحي النجمي، وحمام الرومي بجوار حارة برجوان نسبة إلى الأمير سنقر الرومي الصالحي[(٢)]، كل هذا يدل على أن الدولة الأيوبية استخدمت المماليك الأتراك استخدامًا واسعًا بدليل كثرة المباني والعمائر التي شيدها هؤلاء المماليك[(٣)].

٥- هل السلطان الصالح نجم الدين هو أول من سمَّى المماليك البحرية بذلك؟

بقيت مسألة تستحق التصحيح في موضوع المماليك البحرية هي أن معظم المؤرخين السابقين والمحدثين أجمعوا على أن السلطان الصالح نجم الدين أيوب هو من أول من رتب المماليك البحرية وأول من سماهم بذلك نسبة إلى بحر النيل الذي أحاط بثكناتهم في جزيرة الروضة، غير أن هذا الرأي لا يسند على أساس صحيح للأسباب التالية:

- المؤرخون المعاصرون للصالح أيوب أمثال: ابن واصل وأبي شامة لم يشيروا إلى بحر النيل كأصل لكلمة بحرية، هذه النسبة أوردها بعض المؤرخين المتأخرين أمثال: المقريزي، وأبي المحاسن[(٤)].

- من المعروف أن الفاطميين من قبل كانت لهم طائفة من الجند تعرف بالغز البحرية، كذلك كان للسلطان العادل الأول جد الصالح فرقة من المماليك، أسماها البحرية العادلية، وهذا بدل على أن الملك الصالح أيوب لم يكن أول من اخترع هذا اللفظ.

---

(١) الخطط (٢/ ٢١٣، ٢١٤)، في التاريخ الأيوبي والمملوكي ص٨٤ .

(٢) الانتصار لواسطة عقد الأمصار (٤/ ٤٤)، في التاريخ الأيوبي والمملوكي، أحمد العبادي ص٨٤ .

(٣) في التاريخ الأيوبي والمملوكي، أحمد العبادي ص٨٤ .

(٤) في التاريخ الأيوبي والمملوكي، أحمد مختار العبادي ص٨٥ .

- يروي الخزرجي أن سلطان اليمن نور الدين عمر بن رسول (ت٦٤٧هـ) الذي كان معاصرًا للصالح أيوب في مصر، استكثر من المماليك البحرية حتى بلغت عدتهم ألف فارس وكانوا يحسنون من الفروسية والرمي ما لا يحسنه مماليك مصر، وكان معه من المماليك الصغار قريب منهم في العدد خارجًا عن حلقته وعساكر أمرائه، هذا النص يدل على أن لفظ بحرية استخدم في بلاد إسلامية بعيدة كل البعد عن بحر النيل.

- أطلق المؤرخون العرب المعاصرون على بعض الفرق المسيحية العسكرية التي جاءت من أوربا إلى الشام أثناء الحروب الصليبية اسم الفرنج الغرب البحرية، فيروي أبو شامة أنه في سنة (٥٩٣هـ) فتح الملك العادل يافا، ومن عجيب ما بلغني أنه كان في قلعتها أربعون فارسًا من الفرنج البحرية، فلما تحققوا نقب القلعة وأخذها دخلوا كنيستها وأغلقوا عليهم بابها وتجالدوا بسيوفهم بعضهم لبعض إلى أن هلكوا وكسر المسلمون الباب، وهم يرون أن الفرنج ممتنعون فألفوهم قتلى عن آخرهم، فعجبوا عن حالهم[١]، فلفظ بحرية إذن لم يكن جديدًا على مصر حينما أنشأ الملك الصالح أيوب فرقته البحرية، بل كان لفظًا عامًّا أُطلق على المسلمين والمسيحين سواء، كما استخدم في مصر وفي خارج مصر قبل عهد الصالح أيوب، وهذا يؤيد القول بأن نسبة هذا اللفظ إلى بحر النيل أمر مشكوك في صحته، وأغلب الظن أنهم سموا بحرية؛ لأنهم جاءوا من وراء البحار[٢]، وجوانفيل الذي حارب المماليك البحرية الصالحية في حملة لويس التاسع وأُسِر عندهم وتحدث إليهم بصفته رجلًا معاصرًا وشاهد عيان.

وإذا علمنا أن المماليك البحرية زمن الأيوبيين والمماليك عبارة عن فئة من الغرباء الذين جلبوا من أسواق النخاسة بالقوقاز وآسيا الصغرى وشواطئ البحر الأسود ثم بحر القرم إلى خليج القسطنطينية ومنه إلى البحر الأبيض المتوسط حيث يسيرون فيه إلى ميناء الإسكندرية أو دمياط -تأيدت لدينا عبارة جوانفيل[٣].

(١) المصدر نفسه ص٨٦ .

(٢) المصدر نفسه ص٨٦ .

(٣) في التاريخ الأيوبي والمملوكي للعبادي ص٨٧ نقلًا عن صبح الأعشى.

المبحث الثاني

الحملة الصليبية السابعة

أولًا: أسبابها:

لم تمضِ ثلاث سنين على انتهاء الحملة الصليبية السادسة التي استهدفت مصر، حتى توجهت الحملة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا إلى هذا البلد بهدف الاستيلاء عليه وتحقيق الحلم الصليبي القديم وهو استعادة بيت المقدس وأراضي بلاد الشام، وتدعيم الكيان الصليبي المتداعي، وحدث عقب المعركة التي انتصر فيها الملك الصالح أيوب وحلفاؤه الخوارزميون على التحالف الدمشقي الصليبي والتي سُمِّي معركة أربيا، أن أرسل روبرت بطريرك بيت المقدس سفارة إلى أوربا الغربية مؤلفة من جاليران، أسقف بيروت، وألبرت بطريق أنطاكية، لتشرح للبابا أنوسنت الرابع (١٢٤٢-١٢٥٤م) خطورة الموقف في بلاد الشام وتطلب منه المساعدة العاجلة حتى لا يتعرض الصليبيون للفناء[١].

وفي (شهر محرم عام ٦٤٣هـ/ شهر حزيران عام ١٢٤٥م) عقد البابا مجمعًا في مدينة ليون الفرنسية للتباحث فيما ينبغي اتخاذه من تدابير لمقاومة أطماع الإمبراطور، ولحق به أعضاء السفارة وقدَّموا للجميع تقريرًا عن أوضاع الصليبيين في الشرق، فتقرر إرسال حملة صليبية جديدة لتدارك الموقف قبل فوات الأوان[٢]، وكان عند الملك الفرنسي لويس التاسع من الدوافع ما حمله على الاشتراك فيها، بينما أحجمت ألمانيا وإيطاليا عن مساندتها بفعل الصراع الذي كان قائمًا آنذاك بين البابوية والإمبراطورية، والحقيقة أن الإمبراطور فريدريك الثاني انتهج سياسة مزدوجة تجاه الحملة، حيث قام بتزويدها بالمؤن عند مرورها بصقلية في طريقها إلى قبرص، كما احتفظ بعلاقات طيبة مع حلفاء الكامل محمد، فاتصل سرًّا بالصالح أيوب وأرسل إليه سفارة يعلمه بتحرك الصليبيين ونواياهم، لقد تعدَّدت وتشعَّبت أسباب هذه الحملة؛ فمنها أسباب رئيسية تنطوي على الدوافع الحقيقية لقيامها، كما أن هناك عوامل ثانوية ساعدت على التنفيذ[٣]، ولعل من أهم الدوافع الحقيقية التي أثارت المجتمع الغربي بعامة وشعور الملك الفرنسي بخاصة وحرَّضت الجميع للثأر هي:

١- تعرُّض الصليبيين في الشرق إلى مضايقات خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي على يد الخوارزميين بشكل خاص.

---

(١) رنسيمان، الحروب الصليبية (٣/ ٤٤٠، ٤٤١).
(٢) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص٣٧٧ .
(٣) العدوان الصليبي على مصر، هزيمة لويس التاسع ص٤٧- ٥٦ .

٢- ضياع بيت المقدس منهم، حيث استعادها الصالح أيوب بمساعدة الخوارزميين الذين نكَّلوا سكانها النصارى، ونهبوا دورهم وأموالهم، حتى أضحى وضعهم مقلقًا من وجهة النظر الصليبية.

٣- لقد أنزل المسلمون ضربات قاسية بباقي الممتلكات الصليبية في بلاد الشام تمثَّل بعضها باستعادة الصالح أيوب طبرية وعسقلان، حتى أضحت باقي ممتلكاتهم ومعاقلهم مهدَّدة بالخطر والضياع(١).

وأما فيما يتعلق بالعوامل الثانوية فلعل أهمها:

١- لقد حدث أن مرض لويس التاسع حتى أشرف على الموت، ولما أفاق من شدة المرض، نذر إن منَّ الله عليه بالشفاء أن يحمل الصليب ويذهب لغزو الأراضي المقدسة.

٢- يرى بعض المؤرخين أن الملك الفرنسي حمل الصليب، وتعهد بالقيام بحرب مقدسة لإنقاذ صليبي الشرق إثر رؤيا ظهرت له أثناء مرضه فحواها أنه رأى فيما يرى النائم شخصين يتقاتلان أحدهما مسلم والآخر نصراني، وقد انتصر الأول على الثاني، ففسَّر هذه الرؤيا بحاجة صليبي الشرق للمساعدة، وأن الله أناط به هذه المهمة.

٣- كان للآثار والذخائر الدينية المقدسة التي حصل عليها لويس من حنا دي بريين، الملك الاسمي لبيت المقدس، وبلدوين الثاني إمبراطور القسطنطينية اللاتيني -أثر غير مباشر دفعه للقيام بحملته على مصر من أجل استعادة بيت المقدس.

٣- نتيجة لوقوع الكوارث بالصليبيين في الشرق، فقد أرسل هؤلاء الرسل إلى الغرب الأوربي يستنجدون به -كما أشرنا- وأنذروا الأوربيين باحتمال ضياع ما تبقَّى من ممتلكاتهم إذا لم يلبوا نداء الاستغاثة(٢).

٤- ساند البابا أنوسنت الرابع مشروع لويس التاسع، فدعا إلى الاشتراك بالحملة الصليبية السابعة، خشية أن يطغى نفوذ الملك الفرنسي، الذي اشتهر بالورع والتقوى، وعُرف بمواقفه الحازمة حيال الكنيسة ورجال الدين، على نفوذه كرجل دين ورئيس أعلى للكنيسة اللاتينية(٣).

ومن الأهمية بمكان دراسة دوافع الملك لويسع التاسع الفرنسي في مشاركته للمشروع الصليبي، ويلاحظ أن مؤرخ سيرته جان دي جوانفيل، قد أضفى عليه طابعًا دينيًا على نحو فعل العديد من الباحثين يتصورون ذلك الجانب في الملك الفرنسي المذكور، وجاء المؤرخون

---

(١) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص٣٧٨.
(٢) المصدر نفسه ٣٧٨.
(٣) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص٣٧٩.

الفرنسيون المحدثون ليعمقوا الفكرة بشأن القديس لويس، فهل صفة القداسة التي ارتبطت بلويس التاسع تعني أننا أمام قائد صليبي يحركه الدين في المقام الأول، خاصة أنه الملك الوحيد من بين الذين شاركوا في دعم الحركة الصليبية من بين ملوك أوربا من وصف بالقداسة، ونجد له على ذلك مادة مستقلة في الدراسات الخاصة بمعاجم القدسين(١)؟

وفي تصور المؤرخ الدكتور محمد مؤنس عوض: أن ذلك الملك الفرنسي من التجني على الموضوعية التاريخية الواجبة أن نتعامل معه مع الرؤية الجوانقيلية التي صيغت في القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري، والمنطق يدعونا إلى تصور البواعث الحقيقية المحركة لذلك الملك الفرنسي، وفي هذا النطاق نعرف أن لويس التاسع أراد تدعيم نفوذ آل كابيه الفرنسية فيما وراء البحر، لدى ذلك الملك رؤية اقتصادية لتكوين مستعمرات فرنسية جديدة في نطاق البحر المتوسط، كذلك لا تغفل رغبته في زعامة أوربا للمشروع الصليبي في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري، ولا تغفل زاوية أخرى على جانبها الكبير من الأهمية في صورة رغبة ذلك الملك الداهية الذي اتشح بثياب الدين في تكوين حلف مغولي صليبي ضد المسلمين(٢).

وهذا الموقف يكشف لنا كيف أن ذلك الملك الفرنسي اتبع أسلوبًا جديدًا في صنع التحالفات السياسية مع القوى الدولية حتى تلك الواقعة خارج النطاق الجغرافي الأوربي من أجل تطويق المسلمين على نحو يكشف لنا مدى تنامي الحركة الصليبية ودخولها أطوارًا جديدة، تعكس استعار العداء الأوربي تجاه الإسلام وأهله والتفكير في أساليب جديدة للصراع، خاصة بعد أن فشلت العديد من الحملات الصليبية في تحقيق أهدافها، ولا ريب في أن ما أورده مؤرخ سيرته في هذا الصدد خير دليل يدعم ذلك التصور(٣)، ويتضح لنا بجلاء أن لويس التاسع حرَّكته عدة دوافع مجتمعة كل منها له شأنه في الصراع الإسلامي -الصليبي حينذاك، أما اتجاه المؤرخين الأوربيين ولا سيما الفرنسيين على نحو خاص لإضفاء طابع المجد حول ذلك الملك الفرنسي على نحو خاص، فكان الهدف منه خلق نموذج للبطولة الأوربية في المرحلة القروسطية لتعميق فكرة الحروب الصليبية والتضحية من أجل المسيحية حتى في عصرنا الحالي، وقد ساهم الجانب الدعائي على نحو كبير في جعل ذلك الملك وكأنه أسطورة أوربية، وقد بدأ ذلك الجانب منذ جان دي جوانقيل، وحتى الآن على الرغم من أن إنجازاته في عالمي الحرب والسياسة لا تضمن له البتة ذلك المستوى الرفيع الذي صورته به أقلام الغرب الأوربي(٤).

---

(١) الحروب الصليبية -العلاقات بين الشرق والغرب ص٣٠٦ .
(٢) المصدر نفسه ص٣٠٦ .
(٣) المصدر نفسه ص٣٠٦ .
(٤) الحروب الصليبية -العلاقات بين الشرق والغرب ص٣٠٧ .

ثانيًا: الإعداد للحملة:

تبنى البابا أنوسنت الرابع هذه الحملة وأعلن تأييده لها، وكانت دعواه عاملًا فعالًا في إعدادها، فضلًا عن لويس التاسع الذي أخذ على عاتقه مهمة النهوض بالحملة، وقد استغرق إعداد الحملة ثلاث سنوات، وفرضت ضرائب استثنائية على الجميع بما فيهم رجال الدين للإنفاق على الحملة، كما عقد لويس التاسع مجلسًا كبيرًا في باريس حضره كبار رجال المملكة والكنيسة ودعاهم إلى حمل الصليب والانضمام إلى صفوف الحملة، ونجح في إثارة حميتهم الدينية وبادر بالانضمام للحملة إخوته الثلاثة؛ روبرت كونت أرتوا، والفونس كونت بواتيه، وشارل كونت أنجو، وعدد كبير من الشخصيات التي تركت فرنسا بمقاطعاتها المختلفة -تسهاهم- للانضمام إلى صفوف الحملة، ومن جانب آخر قام لويس بتجهيز أسطول كبير لنقل الجنود والعتاد عبر البحر بعد ما تقرر استبعاد الطريق البري حتى يضمن نجاح حملته، واستأجر عددًا من السفن من جنوة ومرسيليا لهذا الغرض، كما عمل لويس على توفير العتاد والمؤن فضلًا عن المال لتغطية نفقات الحملة، واستعان بالبابا في هذا الصدد؛ لأن البابا هدد بإنزال قرارات الحرمان على كل من يخالف التعليمات التي أصدرها من أجل إعداد الحملة، وبعد أن انتهى لويس من المشاكل الخاصة بالنقل والتموين وموارد الحملة، عمل على تنظيم مملكته وإقرار الأمن والنظام بداخلها قبل سفره، وأناب عنه في الحكم والدته الملكة بلانش، وأحضر من يعملون في بلاطه ليقسموا بمين الولاء والطاعة له وللملكة الأم أثناء غيابه[١].

ثالثًا: رحيل الحملة إلى مصر:

غادر الملك والحملة مدينة باريس إلى مدينة ليون حيث كان البابا أنوسنت الرابع فحصل منه على البركة والغفران -بالمفهوم المسيحي- تم اتجه إلى ميناء إيجسمورت جنوب فرنسا في الثالث عشر من يونيه عام (١٥٤٨م) ومن جنوب فرنسا أبحرت الحملة إلى جزيرة قبرص حيث مكثت بالجزيرة حوالي ثمانية أشهر، وخلال هذه الفترة تسربت أخبار الحملة إلى مصر، فاستعدت القيادة الأيوبية لمواجهة الغزاة وحصنت مدينة دمياط التي كانت تتوقع الهجوم عليها، وزودت المدينة بالمقاتلة والمؤن[٢]، وكان السلطان الأيوبي الصالح أيوب في بلاد الشام عندما وصلت إليه الأنباء بتحركات الصليبيين، فأسرع بالعودة إلى مصر بعد ما عقد صلحًا مع صاحب حمص، ونزل ببلدة أشموم طناح في (الثالث من صفر عام ٦٤٧هـ/ الثامن عشر من مايو عام ١٢٤٩م) ليكون في مواجهة القوات الصليبية إذا ما وصلت إلى دمياط، وزاد الصالح أيوب في تحصين المدينة وإعداد الجيوش وعهد إلى طائفة من بني كنانة لما عرف عنهم بالشجاعة لحماية

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية، د/ محمود سعيد عمران ص٣٠٧. (٢) تاريخ الحروب الصليبية، د/ محمود سعيد ص٣٠٨.

المدينة من الداخل والخارج، كما أصدر أوامره إلى نائبه في حكم مصر حسام الدين بن علي لإعداد قطع الأسطول وإرسالها إلى دمياط تباعًا، وأوفد السلطان الأمير فخر الدين يوسف مقدم العساكر على رأس جيش كبير إلى البر الغربي لدمياط (جيزة دمياط) حتى يكون في مواجهة الصليبيين عند وصولهم إلى بر المدينة الغربي، كما حدث في الحملة الصليبية الخامسة.

ويروي ابن تغري أنه في يوم السبت من ذي القعدة وقع الشروع في عمل عدة مراكب للردِّ على غزو الفرنج واستمر العمل فيهم كل يوم إلى أن نزل السلطان في يوم الثلاثاء الحادي عشر من صفر سنة ثمانٍ وعشرين وستمائة وكشف عمل المراكب وأضاف، وفي هذه الأيام كثرت الأطيار بحركة الفرنج، فخرج عدد من الأمراء المماليك لحراسة الثغور، وفي هذا الشهر أخذ السلطان في تجهيز الغزاة وعيَّن جماعة كبيرة من المماليك السلطانية والأمراء وألزم كل أمير أن يجهز عشرة من مماليكه[١].

وعندما خرجت الحملة من إيجسمورت أسند لويس التاسع قيادة الأسطول إلى الجنوبيين لخبرتهم في شئونِ الملاحة، وتقدم الأسطول السفينة التي تحمل علم القديس دنيس شعار فرنسا، ورست الحملة في ميناء ليماسول جنوب قبرص في السابع عشر من سبتمبر عام (١٢٤٨م) وفي الوقت نفسه أبحر بعض الصليبيين ومن بينهم مؤرخ الحملة جوانفيل من مرسيليا في سبتمبر من العام نفسه ولحقوا بإخوانهم في قبرص بعد رحلة شاقة، وفي قبرص تناقش الصليبيون في تحديد وجهة الحملة، وبعد دراسة مستفيضة تقرر أن تكون مصر هدف الحملة بسبب ما أدركه الصليبيون من أهمية مصر لقوتها وثروتها وقيامها بالدفاع عن الأراضي المقدسة[٢]، وأمضت الحملة في قبرص حوالي ثمانية أشهر (سبتمبر ١٢٤٨م/ مايو ١٢٤٩م) رغم رغبة الملك في التقدم بسرعة نحو مصر، ولكنه نزل عن رغبته لنصيحة قواده الذين آثروا الانتظار حتى يلحق بالحملة بقية الجيش الذي لم يصل بعد إلى قبرص، وقد عاد التأخير بالفائدة على القيادة الإسلامية في مصر؛ لأنها سارعت بالاستعداد لمواجهة الحملة[٣]، وأثناء وجود قوات الحملة السابعة في قبرص حدثت تطورات غاية في الأهمية أثرت على مجريات الحملة فيما بعد، ومن هذه التطورات:

١- الأخبار التي وصلت إلى مصر معلمة بأخبار الحملة الصليبية السابعة وقد كان ذلك عن طريق الإمبراطور فريدريك تحذر الصالح أيوب من هذه الحملة، حيث يقول فريدريك: إنه وصل ريد فرانسس -لويسع التاسع- في خَلْقٍ كثير، وقد اجتهدت غاية الاجتهاد على ردِّه عن قصده وخوفته فلم يرجع لقولي فكن على حذر منه[٤].

---

(١) المصدر نفسه ص٣٠٨ .
(٢) تاريخ الحروب الصليبية، د/ محمود سعيد ص٣٠٨ .
(٣) المصدر نفسه ص٣٠٨ .
(٤) دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، جبران والعبادي ص٢١٠ .

٢- المصاعب التي رافقت الحملة منذ إبحارها من شواطئ فرنسا وحتى وصولها قبرص، ومنها الأمراض التي ألمت بالجيش الفرنسي، والخوف والضجر الذي رافق مسيرة الحملة، وقد عبَّر عن ذلك مؤرخ الصليبية السابعة جوانفيل بقوله: لم نعد نرى الأرض، ما نراه هو الماء والسماء، وفي كل يوم تأخذنا الريح بعيدًا عن الأرض التي ولدنا فيها، ولاحقت الأمراض الجيش الفرنسي أثناء وجوده في قبرص، ويشير أحد المؤرخين الأوربيين إلى ذلك بقوله: إن ٢٤٠ من السادة وكبار القوم قد تعرضوا للموت بسبب المرض[١].

٣- الاختلاف بين قائد الحملة والأمراء حول تاريخ التحرك إلى مصر، وقد كانت الآراء ما بين الدعوة إلى التحرك السريع لهدفهم وهو مصر، ورأي آخر يدعو إلى التريث والبقاء في قبرص لفترة يتم خلالها استكمال الاستعدادات والراحة للجيش الصليبي، واستقر الرأي على تأخير موعد تحرك الجيش إلى فصل الربيع، وبذا تكون الحملة قد أمضت في قبرص من (سبتمبر ١٢٤٨-مايو ١٢٤٩م) حصلت خلالها القوات الصليبية على بعض المساعدات من القبارصة[٢].

٤- ما وصل إلى لويس من أخبار عن صراعات بين القوى المسيحية في الشرق وبخاصة الصراع الذي نشب بين ملك أرمينيا وأمراء أنطاكية، وما كان لذلك من تأثير على الجبهة الصليبية التي يريد لويس التاسع أن تكون في وضع يؤهلها لتقديم المساعدات له عند وصوله إلى مصر وبلاد الشام[٣].

٥- واجهت الحملة في قبرص بعض الصعوبات، ومنها الصعوبات المالية نظرًا لطول الفترة الزمنية التي قضتها جيوش الحملة في قبرص، وكان ممن تعرض إلى ضائقة مالية مؤرخ الحملة جوانفيل والذي اضطر للاستدانة، وطلب المساعدة من لويس التاسع وحصل منه على أقل مما يكفيه، ويقول روبرت نايني حول ذلك: لقد كان من حسن الحظ أن تمكن جوانفيل من الحصول على هذه المساعدة وإلا لكان غادر قبرص عائدًا إلى فرنسا، وحينها لم يكن استطاع أن يكتب كتابه المهم عن هذه الحملة[٤]، وإضافة إلى الصعوبات المالية فقد واجهت القوات الصليبية ولويس التاسع علاقات متذبذبة مع ملك قبرص[٥].

٦- من الأحداث المهمة والمرتبطة بالحملة الصليبية السابعة أثناء وجود قائدها وقواتها في قبرص الاتصالات التي جرت مع المغول، ووفقًا لرواية مؤرخ الحملة الصليبية السابعة جوانفيل، فإن حاكم المغول قد أرسل رسولين من قبله وصلا إلى قبرص وكان من جملة ما ورد في الرسائل

---

(١) المصدر نفسه ص٢١٠ .
(٢) الحركة الصليبية (١٠٠٨/٢).
(٣) دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص٢١١ .
(٤) المصدر نفسه ص٢١١ .
(٥) المصدر نفسه ص٢١٢ .

التي يحملانها: أن ملك التتار يبدي استعداده لمعاونة لويس التاسع في التحرك لغزو الأرض المقدسة بهدف تخليص القبر المقدس من أيدي المسلمين[١]، ويهمنا أن نشير إلى أن المبعوثين من قِبل المغول هما شخصيتان من المسيحيين النساطرة، أحدهم يسمى داود والثاني مارك، وقد استقبلا بحفاوة من قِبل الصليبيين ومكثا في قبرص من (ديسمبر ١٢٤٨-يناير ١٢٤٩م) حيث غادر ومعهما وفد من قبِل لويس لمقابلة القائد العسكري المغولي الجيغداي، والذي بدوره سيؤمن وصول الوفد المبعوث من قِبل لويس التاسع إلى الحاكم المغولي في قراقوم[٢].

وعلى أية حال فإن هذه الاتصالات لم تثمر عن أي مساعدة فعلية للطرف الصليبي في غزوه لمصر وبلاد الشام، وأحد أسباب فشل محاولات التحالف المغولية الصليبية يعود إلى النظرة المغولية المتعالية حيال القوى المختلفة؛ حيث كان المغول يرون ضرورة تبعية جميع القوى لهم، ولم يقبلوا مبدأ الندية أو التماثل في التعامل، وفيما يتعلق بهذه المحاولة فتشير المصادر إلى أن ردود المغول على لويس التاسع جعلته يندم على إرساله الرسل والهدايا للمغول، إضافة إلى أن ردّ المغول على لويس التاسع جاء متأخرًا حيث وصلته ردودهم في قيسارية فلسطين سنة (١٢٥١م) أي بعد انتهاء الحملة الصليبية السابعة وفشلها[٣].

وحين قرر لويس التاسع التحرك من قبرص إلى هدفه وهو مصر صادفته صعوبات أخرى؛ ومنها أن الأسطول الذي كان يستعد للإبحار به قد تعرض إلى عاصفة دمرت الكثير من سفنه، وهذا دعاه إلى توجيه نداء إلى الصليبيين في عكا لتزويده بسفن لنقل جنوده إلى ميدان المعركة إلا أن ظروف الصراع والاقتتال بين مجموعات الجنوية والبنادقة في عكا حال دون تقديمهم أية مساعدة في هذا المجال، وزاد من تعقيد الأمور أن خطته لغزو الأراضي المصرية أصبحت معلومة لدى الطرف الأيوبي، مما جعل الصالح أيوب يتحرك من بلاد الشام إلى مصر، وقد سبق أن أشرنا إلى أن تحركات الحملة الصليبية السابعة أصبحت معروفة للطرف الأيوبي من خلال رسائل فريدريك الثاني، وجواسيس الصالح أيوب في قبرص[٤]، هذه الظروف المحيطة بالحملة جعلت أحد المؤرخين الأوربيين يقول: إن هذه االأحداث وكأنها إشارة من الرب للويس التاسع تقول له: عليك العودة إلى فرنسا، فالحملة التي تقود فاشلة وحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

رابعًا: احتلال دمياط:

أبحرت سفن لويس التاسع مغادرة الموانئ القبرصية (لمياسول) في (١٣ مايو ١٢٤٩م) ووصلت إلى قبالة دمياط في (يوم ٤ حزيران ١٢٤٩م)، وبدأت أولى جهود الصليبيين موجهة إلى مدينة دمياط للسيطرة عليها، ورغم ما قام به الأيوبيون من تحصين سابق للمدينة إلا أن دمياط

(١) المصدر نفسه ص٢١٢ .
(٢) دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص٢١٢ .
(٣) المصدر نفسه ص٢١٣ .
(٤) المصدر نفسه ص٢١٣ .

سقطت بيد الصليبيين في اليوم السادس من حزيران (١٢٤٩م) من عام (٦٤٧هـ) وقد كانت سهولة سيطرة الصليبيين عليها مثار استغراب عند الصليبيين والمسلمين، وقد عبر المؤرخون المسلمون والصليبيون[١] عن ذلك، فالمقريزي يقول: أصبح الفرنج يوم الأحد لسبع بقين من صفر سائرين إلى مدينة دمياط، فعندما رأوا أبوابها مفتحة، ولا أحد يحميها خشوا أن تكون مكيدة، فتمهلوا حتى ظهر أن الناس قد فروا وتركوها، فدخلوا المدينة بغير كلفة ولا مؤنة حصار[٢]، وقد ألقت المصادر باللائمة على أحد القادة العسكريين في الطرف الإسلامي في سبب سقوط دمياط، وهذا القائد هو الأمير فخر الدين بن الشيخ، إضافة إلى أن بعض أفراد القبائل العربية والتي عهد إليها الصالح أيوب بالدفاع عن المدينة وهم بني كنانة قد تركوها وانسحب هؤلاء جميعًا إلى حيث يوجد معسكر الملك الصالح أيوب في منطقة أشموم طناح[٣]، كما هرب بعض عرب كنانة الذين عهد إليهم الملك الصالح أيوب بالدفاع عن المدينة وتركوا أبواب المدينة منفتحة، وفاتهم عند فرارهم أن يقطعوا الجسر الذي يربطها بالضفة الغربية للنيل وأصبحت دمياط بذلك مدينة مفتوحة، فدخلتها القوات الصليبية في (٢٣صفر/٦حزيران) وتملكتها بغير قتال[٤]، وابتهج الصليبيون باستيلائهم على دمياط بتلك السهولة، وفي المقابل ارتاع المسلمون لسقوطها، وحزن الصالح أيوب حزنًا شديدًا، فعنَّف مماليكه، ووبَّخهم لإهمالهم في الدفاع عنها، وشنق ما يزيد عن خمسين من رجال بني كنانة الذين تركوا مواقعهم الدفاعية وهربوا[٥] بعد أن استفتى الفقهاء وأفتوا بقتلهم[٦].

والواقع أن فخر الدين يوسف يتحمل جزءًا كبيرًا من المسئولية[٧]، وقد أطنب المقريزي في وصف ما حدث فقال: فلما رأى أهل دمياط رحيل العسكر، خرجوا كأنما يُسحبون على وجوههم طول الليل، ولم يبق بالمدينة أحد البتة، وصارت دمياط فارغة من الناس جملة، وفروا إلى أشموم مع العسكر، وهم حفاة عراة جياع فقراء، حيارى بمن معهم من الأطفال والنساء وساروا إلى القاهرة، فنهبهم الناس في الطريق، ولم يبق لهم ما يعيشون به فعُدَّت هذه الفعلة من الأمير فخر الدين من أقبح ما يشنع به، وقد كانت دمياط في أيام الملك الكامل، لما نازلها الفرنج، أقل ذخائر وعددًا منها في هذه النوبة، ومع ذلك لم يقدر الفرنج على أخذها إلا بعد سنة، عندما فني أهلها بالوباء والجوع، وكان فيها هذه المرة أيضًا جماعة من شجعان بني كنانة فلم يغنِ ذلك شيئًا[٨] . . . وعندما وصلت العساكر إلى أشموم طناح ومعهم أهل دمياط اشتدَّ حنق السلطان على الكنانيين، وأمر بشنقهم فقالوا: وما ذنبنا إذا كانت عساكره جميعهم وأمراؤه

١) دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص٢١٤ .
٢) السلوك (١/ ٣٣٥، ٣٣٦).
٣) ماهية الحروب الصليبية ص١٥٧ .
٤) الوعي بالتاريخ وصناعة التاريخ ص٧٠ .
(٥) السلوك (١/ ٤٣٨).
(٦) الوعي بالتاريخ وصناعة التاريخ ص٧٠ .
(٧) تاريخ الأيوبيين ص٣٨٢ .
(٨) السلوك لمعرفة دول الملوك (١/ ٤٣٨).

هربوا وأحرقوا الزرخاناه، فأي شيء نعمل نحن؟ فشنقوا لكونهم خرجوا من المدينة بغير إذن، حتى تسلمها الفرنج، فكانت عدَّة من شنق زيادة على خمسين أميرًا من الكنانيين، وكان فيهم أمير حَشيم وله ابن جميل الصورة، فقال أبوه: بالله اشنقوني قبل ابني. فقال السلطان: لا بل اشنقوه قبل أبيه، فشنق الابن، ثم شنق الأب من بعده بعد أن استفت السلطان الفقهاء فأفتوا بقتلهم.

وتغيَّر السلطان على الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، وقال: أما قدرتم تقفون ساعة بين يدي الفرنج؟ وما قُتل منكم إلا هذا الضيف الشيخ نجم الدين وكان الوقت لا يسع إلا الصبر والتغاضي، وقامت الشناعة من كل أحد على الأمير فخر الدين، فخاف كثير من الأمراء وغيرهم سطوة السلطان، وهموا بقتله، فأشار عليهم فخر الدين بالصبر حتى يتبين أمر السلطان فإنه على خُطَّة، وإن مات كانت الراحة منه وإلا فهو بين أيديكم[١]، ويجدر الإشارة إلى أهمية اختيار الشخص القادر على قيادة المقاومة بدمياط، ويفترض في الملك الصالح أيوب أن يدقق في اختيار الرجل المناسب لامتصاص الصدمات الأولى من الصليبيين وبذلك يتحمل الملك الصالح أيوب المسئولية في هذه الجبهة المشتعلة مع الصليبيين.

١- **مراسلة لويس التاسع للسلطان الصالح أيوب:** قبل سيطرة القوات الصليبية على دمياط أرسل الملك لويس رسائل تهديد إلى الصالح نجم الدين أيوب يتضح من خلالها الثقة البالغة التي عبَّر عنها بمطالب طلبها من الطرف الأيوبي كدعوة الاستسلام وإرجاع الأراضي المقدسة للصليبيين، بل واعتبار الصالح أيوب أحد نواب لويس التاسع، وقد أوردت المصادر الإسلامية بعض نصوص هذه الرسائل، ومنها النص الذي ذكره صاحب كتاب كنز الدرر، وهو كالتالي: أما بعد، فإنه لم يخف عنك أني أمين الأمة العيسوية، كما أني أقول: إنك أمين الأمة المحمدية، وإنه غير خافٍ عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا، ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجل ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان، ونخلي منهم الديار، وقد أبديت لك ما فيه الكفاية، وبذلك لك النصح إلى النهاية، فلو حلفت لي بكل الأيمان ودخلت على القسوس والرهبان وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان، ما ردني ذلك عن الوصول إليك، وقتلك في أعز البقاع عليك، فإن كانت البلاد لي، فيا هدية حصلت في يدي، وإن كانت البلاد لك والغلبة عليَّ، فيدك العليا ممتدة إليَّ، وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي، تملأ السهل والجبل، وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون إليك بأسياف القضاء[٢].

(١) المصدر نفسه (١/٤٣٩).

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك (١/٤٣٨).

٢- رد السلطان الملك الصالح على لويس التاسع: فلما وصل الكتاب إلى السلطان وقُرئ عليه، اغرورقت عيناه بالدموع واسترجع، فكتب الجواب بخط القاضي بهاء الدين زهير بن محمد كاتب الإنشاء، ونسخه بعد البسملة وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين: أما بعد، فإنه وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك، وعدد أبطالك، فنحن أرباب السيوف وما قتل منا قرن إلا جددناه، ولا بغى علينا باغٍ إلا دمرناه، فلو رأت عينك أيها المغرور حد سيوفنا وعظم حروبنا، وفتحنا منكم الحصون والسواحل، وإخرابنا منكم ديار الأواخر والأوائل؛ لكان لك أن تعضَّ على أناملك بالندم، ولا بد أن تزلَّ بك القدم في يوم أوله لنا وآخره عليك، فهنالك تسيئ بك الظنون ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ فإذا قرأت كتابي هذا، فكن فيه على أول سورة النحل: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وكن على آخره على سورة (ص): ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ ونعود إلى قول الله تعالى، وهو أصدق القائلين: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وإلى قول الحكماء: إن الباغي له مصرع، وإلى البلاء يقلب، والسلام(١).

٣- تمركز المسلمين في المنصورة: تجمعت القوات الإسلامية في المنصورة وشرعت في شحن المدينة بالعتاد وإعدادها للمعركة المقبلة، ومن ذلك إصلاح سور المدينة المحيط بها وزودت المدينة بالعتاد والمقاتلة، وساعد على ذلك تطوع عدد كبير من العربان والعامة استعدادًا لملاقاة الصليبيين، وخلال هذه المرحلة كان الصليبيون يعملون على تدعيم مركزهم في دمياط(٢)، وأخذوا يعملون بسرعة على تحويلها إلى مدينة ذات طابع نصراني، فحوَّلوا المسجد إلى كنيسة باسم نوتردام وعيَّنوا عليها أسقفًا كاثوليكيًّا، واختصت الفئات الدينية الثلاث؛ الداوية والاسبتارية والتيوتون بعمارة المدينة، وتمَّ توزيع الإقطاعات على الأمراء والتجار، وظلت دمياط طول شهور صيف عام (١٢٤٩م) عاصمة الصليبيين في الشرق(٣) وتوقفت الأعمال العسكرية بين الطرفين لمدة تقرب من خمسة أشهر ونصف، عمل كل طرف أثنائها على تدعيم مركزه، وكان بقاء القوات الصليبية في دمياط طول هذه الفترة قد عمل على اختلال الحملة، فقد عملت هذه الفترة على فساد النظام وساد الإفراد في الملذات حتى أصبح الملك لويس التاسع عاجزًا عن السيطرة على القوات الصليبية، وإذا كان هذا هو الحال في المعسكر الصليبي فقد كان العكس في المعسكر الإسلامي، فقد نجح المسلمون في إعادة تنظيم صفوفهم وبدءوا المناوشات مع القوات الصليبية ونجحوا في أسر بعضهم، ويذكر ابن واصل أن المسلمين نجحوا في أسر ما يقرب من ثلاثمائة أسير(٤).

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك (١/٤٣٨).
(٢) الحروب الصليبية، محمود سعيد ص٣١٠ .
(٣) تاريخ الأيوبيين ص٣٨٣ .
(٤) الحروب الصليبية ص٣١١ .

٤- **وفاة الملك الصالح نجم الدين**: وعندما قرر الصليبيون الزحف نحو القاهرة توفي الملك الصالح أيوب وكانت محنة عظيمة ألمَّت بالمسلمين[١]، وكان عمره عند وفاته ٤٤ سنة، وقد عهد لولده الملك المعظم تورانشاه، وحلَّف له فخر الدين بن الشيخ ومحسن الطواشي ومن يثق به، وبعدما علَّم قبل موته عشرة آلاف علامة يستعان بها في المكاتبات على كتمان موته حتى يقدم ابنه تورانشاه من حصن كيفا، وكانت مدة ملكه في مصر عشر سنين إلا خمسين يومًا، فغسله أحد الحكماء الذين تولوا علاجه لكي يخفي موته، وحمل في تابوت إلى قلعة الروضة، وأخفي موته ولم يشتهر إلى ثاني عشر رمضان، ثم نقل بعد ذلك بمدة إلى تربته بجوار المدارس الصالحية بالقاهرة[٢].

والملك الصالح لما استولى على مملكة مصر أكثر من شراء المماليك وجعلهم معظم عسكره، وقبض على الأمراء الذين كانوا عند أبيه وأخيه، واعتقلهم وقطع أخبارهم وأعطى مماليكه الإمريات، فصاروا بطانته والمحيطين بدهليز[٣] وكان ملكًا شجاعًا حازمًا مهيبًا، لشدة سطوته وفخامته، مع غزة النفس وعلو الهمة، وكثرة الحياء وطهارة الذيل عن الخنا وصيانة اللسان من الفحش في القول، والإعراض عن الهزل والغيث بالكلية، وشدة الوقار ولزوم الصمت، حتى إنه كان إذا خرج من عند حرمه إلى مماليكه، أخذتهم الرعدة عندما يشاهدونه خوفًا منه، ولا يبقى أحد منهم مع أحد، وكان إذا جلس مع ندمانه كان صامتًا، لا يستفزه الطرب ولا يتحرك وجلساؤه كأنما على رءوسهم الطير، وإذا تكلم مع أحد من خواصه، كان ما يقوله كلمات نزرة وهي في غاية الوقار، وتلك الكلمات لا تكون إلا في مهم عظيم، من استشارة أو تقدم بأمر من الأمور المهمة، لا يعدو حديثه قط هذا النحو، ولا يجسر ابتداء البتة، ولا أنه جسر على شفاعة ولا مشورة ولا ذكر نصيحة، ما لم يكن ذلك بابتداء من السلطان، فإذا انفرد بنفسه لا يدنو منه أحد[٤]، ولم يُسمع منه قط في حق أحد من خدمه لفظة فُحْشَى، وأكثر ما يقول إذا شتم أحدًا: (متخلف)، ولا يزيد على هذه الكلمة، ولا عرف قط من النكاح سوى زوجته وجواريه[٥].

وكانت البلاد في أيامه آمنة مطمئنة والطرق سابلة إلا أنه كان عظيم الكبر زائد الترفع من كبره، وترفعه أن ابنه الملك المغيث[٦] لما حبسه الملك الصالح إسماعيل عنده، لم يسأله فيه ولا طلبه منه، حتى مات في حبسه، وكان يحب جمع المال، بحيث إنه عاقب عليه أم أخيه الملك العادل، إلى أن أخذ منها مالًا عظيمًا وجواهر نفيسة، وقتل السلطان الملك الصالح

(١) المصدر نفسه ص٣١١ .
(٢) السلوك (٤٤١/١).
(٣) المصدر نفسه (٤٤١/١).
(٤) المصدر نفسه (٤٤٢/١).
(٥) المصدر نفسه (٤٤٢/١).
(٦) المصدر نفسه (٤٤٢/١).

أيوب أخاه الملك العادل، ومن حين قتله ما انتفع بالحياة ولا تهنَّى بها، فنزل به المرض وطرقه الفرنج، وقبض على جميع أمراء الدولة، وأخذ أموالهم وذخائرهم ومات في حبوسه ما ينيف على خمسة آلاف نفس، سوى من قتل وغرق من الأشرفية في البحر، ولم يكن له مع ذلك ميل إلى العلم ولا مطالعة الكتب، إلا أنه كان يجرى على أهل العلم والصلاح المعاليم والجرايات، من غير أن يخالطهم، ولم يخالط غيرهم، لمحبته في العزلة، ورغبته في الانفراد، وملازمته للصمت ومداومته على الوقار والسكون، وكان يحب العمارة ويباشر الأبنية بنفسه، وعمَّر بمصر ما لم يعمره أحد من ملوك بني أيوب، فأنشأ قلعة الروضة تجاه مدينة فسطاط مصر، وأنفق فيها أموالًا جمَّة، وهدم كنيسة كانت هناك لليعاقبة من النصارى، وأسكن بهذه القلعة ألف مملوك من الترك -وقيل: ثمانمائة- وأقام جسرًا من مصر إلى الروضة، يمرُّ عليه الأمراء وغيرهم إذا جاءوا إلى الخدمة، ولم يكن أحد يمر على هذا الجسر راكبًا احترامًا للسلطان، فجاءت هذه القلعة من أجَلِّ مباني الملوك.

وبني أيضًا على النيل بناحية اللوق[1] قصورًا بلغت الغاية في الحسن، جعلها إلى جانب ميدانه الذي يلعب فيه بالكرة، وكان مغرم بلعبها، وبني قصرًا عظيمًا فيما بين القاهرة ومصر، سماه الكبش على الجبل بجوار جامع ابن طولون، وبنى قصرًا بالقرب من العَلَاقِيمة في أرض السانح، وجعل حوله مدينة سماها الصالحية فيها جامع وسوق، لتكون مركزًا للعساكر بأول الرمل الذي بين الشام ومصر، وكان له من الأولاد الملك المغيث فتح الدين عمر وهو أكبر أولاده، مات في سجن قلعة دمشق، والملك المعظم غياث الدين تورانشاه، وملك مصر بعده، والملك القاهر، ومات في حياته أيضًا وولد له أيضًا من شجرة الدر ولد سماه خليلًا، مات صغيرًا، ولما طال مرضه من الجراحة الناصورية وفسد مخرجه، وامتد الجرح إلى فخذه اليمنى، وأكل جسمه -اجتهد في مداواتها، وحدث له مرض السل من غير أن يفطن به، فورد كتابه إلى الأمير حسام الدين بن أبي علي بالقاهرة: إن الجراحة قد صلحت وجفت رطوباتها، ولم يبق إلا ركوبي ولعبي بالصولجة، فتأخذ حَظَّك من هذه البشرى. وفي الحقيقة لم تجف الجراحة إلا لفراغ المواد وتزايد عليه بعد ذلك المرض حتى مات، وقيل: إنه لم يعهد إلى أحد بالملك، بل قال للأمير حسام الدين بن أبي علي: إذا مِتُّ لا تسلم البلاد إلا للخليفة المستعصم بالله، ليرى فيها رأيه؛ فإنه كان يعرف ما في ولده المعظم تورانشاه من الهوج[2].

٥- زحف الصليبيين نحو القاهرة: وقرر الصليبيون الزحف صوب القاهرة بعد ما وصلت إليهم بعض الإمدادات، ورتَّب الملك لويس حراسة قوية لحراسة المدينة بعد تحرك القوات

---

(١) أطلق اسم ناحية اللوق في الأصل -ومعنى اللوق: الأرض اللينة- على الجهة التي انحسر عنها ماء النيل من ساحل المقس إلى منشأة المهراني بالقاهرة، وعرفت تلك الناحية باسم باب اللوق. خطط المقريزي (٢/ ١٣٧، ١٣٨).

(٢) السلوك (١/ ٤٤٤).

الصليبية، وفي هذه المرحلة مات السلطان الصالح أيوب، وكانت محنة عظيمة ألمَّت بالمسلمين، ولكن زوجته شجرة الدر ظهرت على مسرح الأحداث وأدركت خطورة إذاعة هذا الخبر على الجند، فقررت إخفاء خبر الوفاة ولم يعرف بذلك إلا الخاصة، وزورت وثيقة تحمل توقيع السلطان بتعيين ابنه توارانشاه قائدًا عامًّا للجيوش ونائبًا للسلطان أثناء مرضه، وخلال ذلك كان الصليبيون يتحركون جنوبًا فوصلوا إلى مدينة فارسكور في الثاني عشر من ديسمبر (١٠٤٩م) ومنها تقدموا إلى شار مساح ثم البرامون وأصبح بحر أشموم هو الفاصل بين المسلمين والصليبيين، وعند هذه المرحلة توقفت القوات الصليبية وأقامت معسكرها على الضفة الشمالية وعملت على تأمين معسكرها بحفر الخنادق وإقامة المتاريس، وظلوا على هذا حوالي شهر ونصف، ثم شرعوا في بناء جسر ليعبروا عليه على الضفة الجنوبية لبحر أشموم، ولم تكن عملية إقامة الجسر بالأمر الهين فقد أمطرهم المسلمون وابلًا من القذائف، ولم يتمكنوا من إقامته.

وأخيرًا نجح الصليبيون في التعرف على مخاضة -دلهم عليها أحد العربان، وفي رواية أحد الأقباط[١] بعد ما رشوه بالمال- تمكنهم من العبور إلى المعسكر الإسلامي، وكانت خطة الملك لويس أن يعبر هو وإخوته وجزء كبير من الجيش المخاضة إلى الجنوب، ويقوم بقية الجيش الصليبي بحراسة المعسكر الصليبي، وبعد إتمام عملية العبور تقوم الفرقة المخصصة للحراسة باستكمال عملية إقامة الجسر، وإذا ما تم النصر على القوات الإسلامية في المنصورة يتقدم الجيش الصليبي إلى القاهرة، وعبرت القوات الصليبية في عجز الثامن من فبراير عام (١٢٥٠م) وكانت عملية شاقة وبطيئة بسبب عمق المخاضة، وكان في طليعة القوات الصليبية الكونت أرتوا الذي شن على القوات الإسلامية المواجهة له هجومًا، وحقق نصرًا عليها، وعندما وصلت هذه الأخبار إلى الأمير فخر الدين أسرع بدعوة القوات الإسلامية والتحم مع الصليبيين في معركة عنيفة وقع فيها فخر الدين شهيدًا، فغسل بذلك عار انسحابه من جيزة دمياط، واغتر الكونت أرتوا بالنصر الذي أحرزه ولم يبالِ بأوامر الملك لويس ونصائح القادة الصليبيين بالتريث حتى تتكامل القوات الصليبية، وأراد أن ينفرد بشرف النصر لنفسه[٢].

خامسًا: معركة المنصورة وتورنشاه يقود المعركة النهاية:

وأضحى لروبرت أرتوا السيطرة على المعسكر الأيوبي، فاغتر بقوته، وتابع زحفه إلى المنصورة لاقتحامها والقضاء على الجيش الأيوبي، وأعرض عن توسلات الداوية بأن ينتظر وصول الملك والجيش الرئيسي، ونصحه بعضهم بالحيطة والحذر، ثم بادر باقتحام المنصورة[٣]، فأضحت المنصورة ساحة لحرب الشوارع، وتولى قيادة المصريين الأمير بيبرس

---

(١) تاريخ الأيوبيين ص٣٨٥.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية، محمود سعيد ص٣١٢.

(٣) تاريخ الأيوبيين ص٣٨٦.

البندقاري فأقام جنده في مراكز منيعة داخل المدينة، وانتظروا حتى تدفق الصليبيون بجموعهم إلى داخلها، ولما أدركوا أنهم بلغوا أسوار القلعة التي اتخذها المصريون مقرًّا لقيادتهم، خرج عليهم المماليك في الشوارع والحارات والدروب، وأمعنوا في قتالهم، ولم يستطع الصليبيون أن يلتمسوا لهم سبيلًا إلى الفرار، فوقع الاضطراب بين الفرسان، ولم يفلت من القتل إلا من ألقى بنفسه في النيل فمات غريقًا، أو كان يقاتل في أطراف المدينة(١)، وكانت المنصورة مقبرة الجيش الصليبي(٢)، وأول ابتداء النصر على الفرنج(٣)، وجزع لويس التاسع لتلك الصدمة، لكنه تملك نفسه، وبادر إلى إقامة خط أمامي لمواجهة ما يتوقعه من هجوم، من قِبلَ فرسان المماليك ضد قواته، كما أقام جسرًا من الصنوبر على مجرى البحر الصغير عبر عليه النيل مع رجاله، ووزَّع رماته على الطرف البعيد للنهر حتى يكفلوا الحماية للجند عند عبورهم متى دعت الضرورة إلى ذلك، لكن المماليك لم يتركوه وشأنه، وبادروا إلى شن هجوم على المعسكر الصليبي، وقاد الملك الفرنسي المعركة بنفسه وأجبر المسلمين على التراجع نحو المنصورة.

وعلى الرغم من الانتصار الصليبي إلا أن موقف الصليبيين أخذ يزداد سوءًا بسرعة واضحة، بعد أن قلت المؤن، كما فقدوا نسبة مرتفعة من فرسانهم في معركة المنصورة، وانتشرت الأمراض في معسكرهم، وظل الملك الفرنسي زهاء ثمانية أسابيع في معسكره أمام المنصورة، آملًا بأن يحدث انقلاب في مصر أو يقوم المصريون بثورة على الحكم الأيوبي، وصل تورانشاه إلى المنصورة في (١٧ ذي القعدة ٦٤٧هـ/ ٢١ شباط ١٢٥٠م) بعد أن أُعلن سلطانًا في دمشق، وهو في طريقه إلى مصر فأعلنت عندئذ وفاة الصالح أيوب، وسلَّمته شجرة الدر مقاليد الأمور، فأعدَّ خطة عسكرية كفلت له النصر النهائي على الصليبيين(٤)، وكان وصوله إلى مصر إيذانًا بإعادة ارتفاع الروح المعنوية عند المصريين، وبين صفوف المماليك (وتيمَّن الناس بطلعته)(٥).

وأمر بإنشاء أسطول من السفن الخفيفة نقلها إلى فروع النيل السفلى، وأنزلها في القنوات المتفرعة، فأخذت تعترض طريق السفن الصليبية التي تجلب المؤن للجنود من دمياط، فقطع بذلك الطريق عليها، وحال دون اتصال الصليبيين بقاعدتهم دمياط(٦)، وفقد الصليبيون عددًا كبيرًا من سفنهم قدَّرتها المصادر بما يقرب من ثمان وخمسين سفينة، انقطع المدد من دمياط عن الفرنج، ووقع الغلاء عندهم، وصاروا محصورين لا يطيقون المقام، ولا يقدرون على الذهاب، وتشجع المسلمون وطمعوا فيهم، وأدرك لويس التاسع استحالة الزحف نحو القاهرة في ظل هذه الأوضاع، وبدأ يفكر في العودة إلى دمياط، وفعلًا أمر بالارتداد وأحرق الصليبيون

(١) الشرق الأدنى في العصور الوسطى، الأيوبيون ص١٥٠ .
(٢) السلوك (١/ ٤٤٨) تاريخ الأيوبيين ص٣٨٦ .
(٣) مذكرات جوانفيل ص١٣١-١٣٦ .
(٤) السلوك (١/ ٤٤٩) تاريخ الأيوبيين ص٣٨٧ .
(٥) النجوم الزاهرة (٦/ ٣٦٤) تاريخ الأيوبيين ص٣٨٧ .
(٦) النجوم الزاهرة (٦/ ٣٦٤) تاريخ الأيوبيين ص٣٨٧ .

ما عندهم من الخشب، وأتلفوا مراكبهم ليفرُّوا إلى دمياط، كما أدرك أن عملية الانسحاب لن تكون سهلة، وأن المماليك سوف يطاردون جيشه لذلك لجأ قبل أن يبدأ بعملية الانسحاب إلى فتح باب المفاوضات مع تورانشاه، على أساس ترك دمياط مقابل أخذ بيت المقدس[١]، غير أن الوقت قد فات على مثل هذه المساومة، وكان طبيعيًّا لأن يرفض تورانشاه هذا الاقتراح، وبخاصة أنه علم بحرج موقف الملك.

وفي صباح (١ محرم عام ٦٤٨هـ/نيسان عام ١٢٥٠م) بدأت عملية الانسحاب، ونسي المهندسون الصليبيون أن يدمِّروا الجسر الذي أقاموه لاجتياز البحر الصغير فلم يلبث المماليك أن عبروه وراءهم، وقاموا بعملية مطاردة منظمة، وهاجموهم من كل ناحية[٢]، وبفضل ثبات الملك الفرنسي وحسن إدارته بعملية الانسحاب، وصل الصليبيون إلى شرمساح عند منتصف الطريق بين المنصورة ودمياط، لكن هذا الملك مريضًا، وأحاط المماليك بجيشه من كل جانب، وراحوا يتخطفونهم، وشنوا عليهم هجومًا عامًّا عند فارسكور ولم يقو الملك على القتال، وتمّ تطويق الجيش بأكمله، وحلت به هزيمة منكرة، ووقع كل أفراده تقريبًا بين قتلى وجرحى وأسرى، وكان الملك لويس التاسع نفسه من بين الأسرى، حيث سيق مكبَّلًا إلى المنصورة، وسُجن في دار فخر الدين إبراهيم بن لقمان، وعُهد إلى الطواش صبيح المعظمي بحراسته وخُصِّص من يقوم بخدمته، وكانت معظم الحرب في فارسكور، فبلغت عدّة القتلى عشرة آلاف في قول المقل وثلاثين ألفًا في قول المكثر، وأسر من الفرنج عشرات الألوف بما فيهم ضاعتهم وسوقتهم، وغنم المسلمون من الخيل والبغال والأموال ما لا يحصى كثرة، وأبلت الطائفة البحرية -لاسيما بيبرس البندقداري- في هذه النوبة بلاء حسنًا، وبان لهم أثر جميل[٣]، وتعددت صور شجاعة هؤلاء المماليك في التصدي لأعداء الإسلام، وشهد التاريخ ببسالة الدور الذي لعبه المماليك في مقاومة الصليبيين، فذكر جوانفيل أن الكونت بواتييه والكونت فلاندر وبعض قادة قواتهم كانوا يرسلون إلى الملك لويس يتوسلون إليه أن يقصر عن الحركة لعجزهم عن متابعته لضغط المماليك الشديد عليهم[٤].

ويقول: ثم جاء للكونستابل جندي كان يحمل صولجانًا ويرتجف خوفًا، وأخبره أن الترك قد أحدقوا بالملك وأنه في خطر عظيم فرجعنا، فأبصرنا بينا وبينه ما لا يقل عن ألف مملوك والملك قريبًا من النهر والمماليك يدفعون قواته ويضربون السيوف والصولجانات، وأرغموا القوات الأخرى على التقهقر[٥]، وقد وصفهم أحد المؤرخين في تلك المعركة بقوله: والله لقد

---

(١) تاريخ الأيوبيين ص٢٨٨ .
(٢) النجوم الزاهرة (٦/ ٣٦٤) تاريخ الأيوبيين ص٣٨٨
(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب (٢٩/ ٣٥٦).
(٤) السلوك (١/ ٤٥٥)
(٥) الجواري والغلمان في مصر، نجوى كمال ص٤٠٣ .

كنت أسمع زعقات الترك كالرعد القاصف، ونظرت إلى لمعان سيوفهم وبريقها كالبرق الخاطف، فلله درهم لقد أحيوا في ذلك اليوم الإسلام من جديد بكل أسد من الترك قلبه أقوى من الحديد، فلم تكن إلا ساعة وإذا بالإفرنج قد ولوا على أعقابهم منهزمين وأسود الترك لأكتاف خنازير الإفرنج ملتزمين(١)، وتضمنت انتصارات المماليك على الصليبيين أنهم استطاعوا الاستيلاء على ثمانين سفينة من سفن الصليبيين بعد أن قاموا بسحب بضعة سفن من سفن المسلمين إلى اليابسة ثم أنزلوها ثانية إلى الماء على بعد فرسخ من شمال معسكرهم، فاستحالت عودة الفرنج الذين ذهبوا إلى دمياط لجلب المؤنة، وتم قتل جميع بحارة الثمانين سفينة، كما استولوا على اثنين وثلاثين مركبًا مما أضعفهم وطلبوا الصلح(٢).

١- **بشائر النصر تعلن للمسلمين:** كتب تورانشاه في أعقاب المعركة إلى الأمير جمال الدين بن يغمور نائب دمشق كتاب بخطه نصه: من ولده تورانشاه، الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٠] ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٤] ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١] ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨] نبشر المجلس السَّامي الجمالي، بل نبشر المسلمين كافة بما منَّ الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين، فإنه استفحل أمره واستحكم شره، ويئس العباد من البلاد والأهل والأولاد، فنودوا لا تيئسوا من روح الله، ولما كان يوم الاثنين مستهل السنة المباركة، تمم الله على الإسلام بركتها، فتحنا الخزائن وبذلنا الأموال وفرقنا السلاح وجمعنا العربان والمطوعة وخلقًا لا يعلمهم إلا الله، فجاءوا من كل فج عميق ومكان سحيق، فلما كان ليلة الأربعاء تركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم، وقصدوا دمياط هاربين، وما زال السيف يعمل في أدبارهم عامة الليل، فيوحلَّ بهم الخزي والويل، فلما أصبحنا يوم الأربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفًا، غير من ألقى نفسه من اللجج، وأما الأسرى فحدِّث عن البحر ولا حرج، والتجأ الفرنسيس إلى المنية، وطلب الأمان فأمناه وأخذناه وأكرمناه وتسلمنا دمياط بعون الله وقوته وجلاله وعظمته، وذكر كلامًا طويلًا، وبعث المعظم مع الكتاب غَفَارة(٣) الملك لويسع التاسع فلبسها الأمير جمال الدين بن يغمور(٤).

٢- **لويس التاسع في الأسر وشروط الصلح:** لم يهتم المسلمون كثيرًا بعد انتصارهم بأمر دمياط، ونظروا إلى أبعد من ذلك، ففكَّروا باسترداد ما بأيدي الصليبيين في بلاد الشام، فاستغلوا وجود الملك الفرنسي في الأسر لتحقيق هذه الغاية، لكن لويس التاسع أجاب بأن هذه

---

(١) الجواري والغلمان في مصر ص٤٠٤، كنز الدرر (٧/ ٣٧٦).

(٢) الجواري والغلمان في مصر ص٤٠٥، ٤٠٦.

(٣) الغفارة: زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة.

(٤) السلوك (١/ ٤٥٦).

البلاد ليست في أملاكه، بل تخص الملك كونراد ابن الإمبراطور فريدريك الثاني[(١)]، وعبثًا حاول تورانشاه إرغامه على الاعتراف وأصرَّ لويس التاسع على رأيه وقال: إنه أسيرهم، ولهم أن يفعلوا به ما يشاءون[(٢)]، فبادر تورانشاه إلى إغفال هذا الموضوع لكنه قرَّر غزو بلاد الشام، وغالى في شروط الصلح إذ كان لزامًا على الملك الفرنسي أن:

- يفتدي نفسه بأن يؤدي مليون بيزنته وهذا مبلغ كبير.
- يُطلق سراح عدد كبير من الأسرى المسلمين.
- يسلم دمياط إلى المسلمين.
- يستمر الصلح مدة عشر سنوات[(٣)].

وافق الملك الفرنسي على هذه الشروط، وأقسم الطرفان على احترامها[(٤)]، وانتظر لويس لبعض الوقت حيث كانت زوجته تعاني آلام الوضع، وأرسل بعض رجاله إلى دمياط لتسليمها للمسلمين، ودخلت القوات المدينة في السابع من مايو بعد ما ظلت في أيدي قوات لويس ما يقرب من عام، ودفع لويس نصف الفدية حسبما اتفق عليه وأطلق سراح الصليبيين من البر الشرقي إلى جيزة دمياط، ثم تبعهم باقي الصليبيين، وفي (يوم الأحد الرابع من صفر عام ٦٤٨هـ/ الموافق الثامن من مايو عام ١٢٥٠م) أقلعت سفن الفرنج واتخذت طريقها إلى عكا حاملة فلول الحملة بعد أن أنهكتها الهزائم، وحلت بها الكوارث[(٥)].

سادسًا: أسباب الهزيمة:

ساهمت مجموعة من الأسباب في هزيمة الحملة الصليبية السابعة، والتي من أهمها:

١- التطوير العسكري في الجيش الأيوبي: فقد قام الملك الصالح أيوب بإصلاح عسكري في الدولة ووضع سياسة جديدة تقوم على استخدام الأتراك المماليك بشكل لم يسبق له مثيل من قبل أسلافه الأيوبيين، مكنته من متابعة حروبه الخارجية مع مملكة بيت المقدس والتصدي للحملة الصليبية السابعة[(٦)]، ورافق ذلك التطوير العسكري الاهتمام الديني به من حيث التربية والتعليم حتى أصبح كتائب المماليك تدافع عن عقيدة الإسلام، وأصبحت الدولة تحتفظ بجيش عقائدي ومنظم مدرب أحسن تدريب صناعته الحرب والقتال وأيدي من المهارة والبسالة في قتال القوات الصليبية، رغم هزيمتهم في بداية الأمر، وتميز القواد المسلمون بوضع الخطط

---

(١) مذكرات جوانفيل ص١٥٧، ١٥٩-١٦١ .
(٢) تاريخ الأيوبيين ص٣٨٩، حملة لويس التاسع على مصر ص٢٠٦ .
(٣) تاريخ الأيوبيين ص٣٨٩ .
(٤) المصدر نفسه ص٣٨٩ .
(٥) تاريخ الحروب الصليبية ، محمود سعيد ص٣١٥ .
(٦) الملك الصالح أيوب وإنجازاته السياسية والعسكرية ص١٥١ .

الحربية الممزوجة بالمكر والخدع الحربية، والمثال على ذلك الخطة التي وضعها تورانشاه عقب وصوله إلى المنصورة لقطع خطوط الإمدادات الصليبية عن الصليبيين المقيمين جنوب بحر أشموم، ثم مهاجمة القوات الصليبية في الوقت المناسب(١).

٢- **وحدة الصف الإسلامي**: فقد كانت مصر والشام تحت زعامة واحدة ولاحت بشائر النصر منذ وصول الجيوش الشامية إلى مصر(٢)، وكانت روح الجهاد تسري في قلوب المسلمين؛ حيث إن المتطوعين من المسلمين في مصر جاءوا من جميع أنحاء مصر وبدءوا يقاتلون العدو بالهجوم فيقتلون ويأسرون، ففي أول شهر ربيع الأول بدأت الأعمال الفدائية ضد العدو فوقع في يد الفدائيين ستة وثلاثون أسيرًا كان من بينهم اثنان من فرسان العدو أُرسلا إلى القاهرة مكبلين بالحديد(٣)، ثم تتابعت الأعمال الفدائية ضد العدو فتتابع أيضًا سقوط مزيد من الأسرى، فسقط في اليوم الخامس من نفس الشهر تسعة وثلاثون أسيرًا ثم اثنان وعشرون في اليوم السابع وخمسة وأربعون في اليوم السادس عشر من بينهم ثلاثة من فرسان العدو، وبلغ عدد الأسرى في شهر جمادى الأولى خمسين أسيرًا.

واستمر العمل الفدائي الشعبي في تكبيد العدو خسائر فادحة، وعندما أُعلن الجهاد المقدس من فوق منبر الجامع الأزهر في (٢٦ شعبان ٦٤٧هـ) سرعان ما انتشر نبأ الجهاد في أنحاء مصر كلها واشتد حماس الجماهير في مصر للتطوع للجهاد، فخرج الناس من القاهرة، وسائر المدن والقرى فاجتمع عالم عظيم لا يقع عليه حصر، واستطاع الفدائيون من عامة المسلمين أن يزعجوا الصليبيين ومنعوهم من الاستقرار والراحة(٤)، ويصف المقريزي هذا الدور العظيم الذي قام به الأهالي من العرب وغيرهم ضد الفرنج فيقول: وأبلى عوام المسلمين في قتال الفرنج بلاء كبيرًا، وأنكوهم نكاية عظيمة، وصاروا يقتلون منهم ويأسرون(٥)، وقد سقط الشهداء من عامة المسلمين والمماليك جنبًا إلى جنب دفاعًا عن مصر(٦).

٣- **هيبة القيادة الإسلامية**: كان السلطان الصالح أيوب يتمتع بنفوذ حقيقي على رجال دولته وقادة جيوشه، وكانت أهم صفة يتحلى بها الجند الإسلامي هي الطاعة لأوامر قائدهم، فقد كان للسلطان هيبة بالغة في نفوس مماليكه حتى أنهم كانوا يرتجفون رعبًا عن المثول في حضرته:

ملأ القلوب مخافة ومحبة ... فاليأس يرهب والمكارم تعشق(٧)

---

(١) الحروب الصليبية، محمود سعيد ص٣١٧ .
(٢) تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمماليك ص٩٥ .
(٣) المصدر نفسه ص٩١، بدائع الزهور (١/ ٦٩).
(٤) تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمماليك ص٩٣ .
(٥) المصدر نفسه ص٩٣ .
(٦) المصدر نفسه ص٩٤، الخطط (١/ ٢١٩-٢٢٢).
(٧) العدوان الصليبي على مصر، د/ جوزيف نسيم ص٢٥١ .

واستمرت هيبة القيادة بعد وفاة الملك الصالح أيوب بفضل الله ثم شجرة الدر، فقد قامت بدور مجيد في هذه المرحلة، وقد كتمت خبر موت زوجها وتحملت الموقف بكل شجاعة ورابطة جأش، وسارت الأمور كأن لم يحدث شيء، ودارت العمليات العسكرية كأن السلطان لم يمت، حتى وصل توران شاه الذي تولى القيادة في مصر، ولم تشر المصادر إلى وقوع أي خلل في الفترة الواقعة بين موت السلطان الصالح أيوب وحضور توران شاه(١)، وهذا يدل على نجاح مهمتها في ذلك الحدث الخطير.

٤- **نزول العلماء والفقهاء أرض الجهاد:** قام العلماء بدور كبير في تحريض الناس على القتال، وانضم إلى صفوف المجاهدين كوكبة مباركة من ألوان الطيف الإسلامي؛ كالعز بن عبد السلام، والشيخ محي الدين بن سراقة، والشيخ مجد الدين علي بن وهب القشيري، وكان كبار المتصوفة متواجدون في معركة المنصورة، ومن أشهرهم الشيخ أبو الحسن الشاذلي وكان يقضي وقته كله في المنصورة ولا تشغل باله وفكره إلا هذه الحرب الطاحنة بين عدو وافد وجيش مجاهد، وكان يثير روح الجهاد في نفوس أتباعه والناس، وبقي إلى أن تحقق نصر الله على الصليبيين وكان من أشد الناس فرحًا بهزيمة الصليبيين ورحيلهم عن مصر، وقد عاد بعد ذلك إلى الإسكندرية، وتابع سيرته الأولى في الحياة يدرس ويعظ ويتعهد أرواح تابعيه ومريديه بالتهذيب(٢)، وكان الشيخ الشاذلي من كبار متصوفة عصره وقد تميزت طريقته بالملامح الآتية:

- كانت دعوته عامة للناس جميعًا، وجدت في تونس، وفي مصر، وفي الجزائر، وفي المغرب، وفي اليمن، وفي الحجاز.

- كما أن أن المدرسة الشاذلية لم تعن بالتنظير الفكري بقدر ما عنيت بالأفكار من حيث تطبيقاتها في الحياة العملية.

- إن الدعوة الشاذلية لم تكن دعوة للانقطاع إلى العبادة، أو الانغمار في حياة الربط والتكايا، وإنما كانت دعوة إلى العبادة بمفهومها الشامل في الحياة(٣).

- كان الشيخ الشاذلي يدعو أتباعه بالتمسك بالكتاب والسنة، ومجانبة البدع المحدثة في الدين، وكان يلزم أتباعه بالصلوات الخمس في المساجد، وفي هذا يقول: إذا لم يواظب الفقير على الصلوات الخمس في الجماعة، فلا تعبأن(٤). ويقول أيضًا: كل علم تسبق إليك فيه الخواطر، وتميل إليه النفس وتلذ به الطبيعة، فارمِ به وخذ بالكتاب والسنة(٥).

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية ص٣١٨ .
(٢) أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي ص١٨٥ .
(٣) سيدي أبو الحسن الشاذلي، د/ عبد الوهاب فرحات ص٢٧٦ .
(٤) المصدر نفسه ص٢٧٦ .
(٥) المصدر نفسه ص٢٧٦ .

والشيخ الشاذلي رحمه الله عارضه مجموعة من العلماء منهم ابن تيمية رحمه الله الذي انتقده في بعض أحزابه زاعمًا بأن أقواله تفضي إلى تعطيل الأمر والنهي[1]، ونحب أن نشير إلى أن ابن تيمية لم يحمل على الشيخ حملته على ابن عربي وابن سبعين والقونوي وعفيف الدين التلمساني، والجربي، كما أنه لم يتهمه صراحة بأنه يقول بسقوط التكليف، ولكنه قال: بأن لوازم أقواله تقضي إلى ذلك[2]، وغير خافٍ لدى الفقهاء بأن لازم المذهب ليس مذهبًا لصاحبه[3]، وثمة ناقد آخر للشيخ الشاذلي هو المؤرخ الكبير شمس الدين الذهبي الذي يقول عنه: وله عبارات في التصوف مشكلة توهم، ويتكلف له في الاعتذار عنها[4]، ومنهم أيضًا المؤرخ ابن الوردي الذي قال عنه: له عبارات في التصوف مشكلة رد عليها ابن تيمية[5].

ومن أراد المعرفة المفصَّلة عن حياة الشيخ أبي الحسن الشاذلي، فليراجع الكتاب للدكتور عبد الوهاب فرحات والذي سمَّاه (سيدي أبو الحسن الشاذلي حياته ومدرسته في التصوف) وقد انتصر الدكتور عبد الوهاب إلى أن الشاذلي من أعلام مدرسة التصوف السني، وقد نقل لنا من أقوال الشاذلي الشيء الكثير في هذا المعنى، ولا بد من التفريق بين المؤسسة والأتباع الذين غلوا فيه بعد وفاته، ومما نقله الدكتور عبد الوهاب في هذا المعنى قول الشيخ الشاذلي رحمه الله: إذا ثقل الذكر على لسانك وكثر اللغو من مقالك، وانبسطت الجوارح في شهواتك، وانسد باب الفكرة في مصالحك، فاعلم أن ذلك من عظيم أوزارك أو لكمون إرادة النفاق في قلبك، وليس لك إلا طريق التوبة والإصلاح والاعتصام بالله، والإخلاص في دين الله، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٦] ولم يقل من المؤمنين فتأمل هذا القول، إن كنت فقيهًا، والسلام[6].

وكان يقول: إذا عارض كشفك الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف، وقل لنفسك: إن الله تعالى قد ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة، ولم يضمنها في جانب الكشف ولا الإلهام[7]. وممن مدح الشيخ الشاذلي سلطان العلماء الفقيه الكبير العز بن عبد السلام، فقد قال عندما سمعه يتحدث في مجلسه عن الأسرار العجيبة والعلوم الجليلة: اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله[8]، وكذلك السبكي وجلال الدين السيوطي، فقد كتب فيه كتيب صغير سمَّاه (تأييد الحقيقة العالية في تشييد الطريقة الشاذلية) دافع فيه عن الشيخ الشاذلي وعن طريقته مبرزًا فضائلها ومحاسنها وهو يقول: وكان الشيخ أبو الحسن يحضر عنده الأئمة مثل سلطان العلماء الشيخ عز الدين بن عبد السلام، والشيخ تقي الدين بن دقيق العيد، هذا مع ما

(١) الفتاوى (٨/ ٢٣٢).
(٢) المصدر نفسه (٨/ ٢٣٢).
(٣) سيدي أبو الحسن الشاذلي ص٨٥ .
(٤) العبر في أخبار من غبر (٥/ ٢٣٢، ٢٣٣).
(٥) سيدي أبو الحسن الشاذلي ص٨٦ .
(٦) المصدر نفسه ص٨٧ .
(٧) المصدر نفسه ص٨٧ .
(٨) المصدر نفسه ص٨٨ .

صح عن ابن دقيق من تشديد النكير على الاتحادية، وتضليل عقولهم، فلو رأى في كلام الشاذلي من ذرة من ذلك لكان أول مبادر إلى إنكارها[١]، بل إن الشيخ تقي الدين بن دقيق العبد قال: ما رأيت أعرف بالله من الشيخ[٢] الشاذلي، وقال الشيخ بدر الدين بن جماعة : إن بركة الشيخ حلت بالديار المصرية منذ أقام فيها[٣].

إن الشيخ الشاذلي في معركة المنصورة وهي من المعارك الكبرى التي خاضتها الأمة في الدفاع عن دينها وعقيدتها وأرضها وعرضها، كان حاضرًا في ساحة الوغى، فقد أبت عليه همته إلا أن يحضر إلى المنصورة ليحرِّض الجند والسلطان على القتال حينما تملك الرعب قلوب الأهلين، بعد ما استولى الفرنجة على ثغر دمياط، ولقد كان لهذه الوقفة أثرها المحمود في إذكاء الروح الإسلامية لدى مريديه وعامة الناس، فقد كان لموقف أبي الحسن الشاذلي أثره العميق، وعاقبته الطيبة في نفوس الجند، ومن ثم ندرك أن أبا الحسن الشاذلي شخص فعَّال في دنيا الناس، لا كشأن الكثيرين من علمائنا في هذا الزمان على اختلاف ألوان طبيعتهم[٤]، فحضوره في معركة المنصورة من الفضائل الكبرى التي سجلت بماء الذهب في صفحات تاريخه، كما أنني اطلعت على تسبيح ومناجاة وثناء على الله عز وجل للشيخ الشاذلي قمة في التوحيد، وعمق في التضرع والانكسار أمام الواحد الديان، فقد قال: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، ولقد شكا إليك يعقوب فخلصته من حزنه، ورددت عليه ما ذهب من بصره، وجمعت بينه وبين ولده، ولقد ناداك نوح من قبل فنجيته من كربه، ولقد ناداك أيوب من بعد فكشفت ما به من ضره، ولقد ناداك يونس فنجيته من غمه، ولقد ناداك زكريا فوهبت له ولدا من صُلْبه بعد يأس أهله وكبر سنه، ولقد علمت ما نزل بإبراهيم فأنقذته من نار عدوه، وأنجيت لوطًا وأهله من العذاب النازل بقومه، فهأنذا عبُدك: إن تعذبني بجميع ما علمت فأنا حقيق به، وإن ترحمني كما رحمتهم -مع عظيم إجرامي- فأنت أولى بذلك، وأحق من أكرم به[٥].

وقال أيضًا : ربِّ لمن أقصد، وأنت المقصود، وإلى من أتوجه وأنت الموجود، ومَن ذا الذي يعطي وأنت صاحب الكرم والجود، ومن ذا الذي أسأل وأنت الرب المعبود، وهل في الوجود ربُّ سواك فيُدعى، أم هل في الملك إله غيرك فيُرجى وإليه يُسعى، أم هل كريم غيرُك يطلب منه العطا، أم جواد سواك فيُسأل منه الرضا، أم هل حليم غيرُك فيُنال منه الفضل والنعمى، أم هل رحيم غيرك في الأرض والسماء، أم هل حاكم سواك فترفع إليه الشكوى، أم هل رءوف غيرك للعبد الفقير يعتمد عليه، أم هل مليك سواك تبسط الأكف بالدعاء إليه، فليس

(١) سيدي أبو الحسن الشاذلي ص٩١ .
(٢) أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي ص١٨١ .
(٣) المصدر نفسه ص١٨١، البطولة والفداء ص١٢٣ .
(٤) سيدي أبو الحسن الشاذلي ص٦٩ .
(٥) تسبيح ومناجاة وثناء على ملك الأرض والسماء للشيخ محمد بن حسن بن عقيل الشريف ص١٣٦ .

إلا كَرمُك وجودك لقضاء الحاجات، وليس إلا فضلك ونعمك لإجابة الدعوات، يا من لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه، يا من يُجير ولا يُجار عليه(١).

ربِّ إلى من أشتكي وأنت العليم القادر، أم إلى من ألتجئ وأنت الكريم الساتر، أم بمن أستنصر وأنت الولي الناصر، أم بمن أستغيث وأنت الولي القاهر، أم من ذا الذي يجبر كسري وأنت للقلوب جابر، أم من يغفر ذنبي وأنت الرحيم الغافر وأنت العليم فيما في السرائر، الخبير بما تخفيه الضمائر، على المطلع على ما تحويه الخواطر، يا من هو فوق عباده قاهر، يا من هو مطلع عليهم وناظر، يا من هو قريب وحاضر، يا من هو الأول والآخر، والباطن والظاهر، يا إله العباد، يا كريم يا جواد يا صاحب الجود والكرم والإحسان، يا ذا الفضل والنِعَم والغفران، يا من عليه يتوكل المتوكلون، يا من إليه يلجأ الخائفون، يا من بكرمه وجميل عوائده يتعلق الراجون، يا بمن سلطان قهره وعظيم قدرته يستغيث المضطرون، يا من بوسيع عطائه وسعة رحمته وجزيل فضله وجميل منته تُبسط الأيدي ويسأل السائلون، يا مفرج الكربات، وغافر الخطيئات، وقاضي الحاجات، ومستجيب الدعوات، وكاشف الظلمات، ودافع البليات، وساتر العورات، ورفيع الدرجات، وإله الأرض والسموات، يا من عليه المُتكل، يا من إذا شاء فعل، ولا يُسأل عما يفعل، يا من لا يُرْمه سؤال من سأل، يا من أجاب نوحًا في قومه، يا من نصر إبراهيم على أعدائه، يا من ردَّ يوسف على يعقوب، يا من كشف الضُّر عن أيوب، يا من أجاب دعوة زكريا، يا من قَبِل تسبيح يونس بن مَتىَّ.

إلهي قد وجدتك رحيمًا فكيف لا أرجوك، ووجدتك ناصرًا معينًا فكيف لا أدعوك، مَن لي إذا قطعتني، ومن ذا الذي يضرني إذا نفعتني، ومن الذي يعذبني إذا رحمتني، ومن ذا الذي يقْرَبُني بسوء إذا نجيتني، ومن ذا الذي يمرضني إذا عافيتني(٢).

بمثل هذا الدعاء والتسبيح والثناء على الله عز وجل يفتح الله رحماته على عباده، ويأتي نصر الله وتوفيقه، وتحفظ بيضة الإسلام من الأعداء، فوجود هذا الشيخ وأمثاله في معركة المنصورة من أسباب نصر الله للمسلمين، ويذكر بعض المؤرخين أن الشيخ أبا الحسن الشاذلي قام بعمل أوراد في تلك المعركة، وأوصى مريديه بقرائتها في الليل بعد ما تهدأ المعارك وهما: حزب النصر وحزب الطمس على عيون الأعداء(٣)، فأما حزب النصر فأوله: بسم الله الرحمن الرحيم، بسطوة جبروت قهرك وسرعة إغاثة نصرك، وبغيرتك لانتهاك حرماتك، وبحمايتك لمن احتمى بآياتك نسألك يا الله، يا قريب، يا سميع يا مجيب(٤)... وأما حزب الطمس، فأوله:

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) تسبيح ومناجاة وثناء على مَلكِ الأرض والسماء ص١٣٤- ١٣٧.

(٣) البطولة والفداء عند الصوفية ص١٢٣، ١٢٤.

(٤) سيدي أبو الحسن الشاذلي ص٧٩.

بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله السميع القريب المجيب، تجيب دعوة الداعي إذا دعاك، وتجيب المضطر وتكشف السوء[(١)].

٥- **جهل الفرنجة بجغرافية البلاد الإسلامية**: ومن الأسباب في هزيمة الصليبيين جهلهم بجغرافية البلاد المصرية، وطبيعة الطرق التي اتخذوها للوصول إلى القاهرة بعد احتلالهم لمدينة دمياط، فقد ارتكبوا نفس الخطأ الذي وقعت فيه حملة جان دي برين منذ ثلاثين سنة، إذا استخدم نفس الطريق المائي الوعر الذي استخدمه جان برين من قبله؛ أي الطريق من دمياط إلى القاهرة مارًّا بالمنصورة فبنها، وكان هذا الطريق يعترضه قنوات وترع تتفرع عن الفرع الشرقي للنيل هي أشبه بشبكة الصائد، وتصلح أن تكون أفخاخًا للإيقاع بالجيش الفاتح، وغير ذلك، فإنه يمر بعدد من مراكز الدفاع القوية التي يمكن للقوات المصرية استغلالها ضد الفرنج[(٢)]، وإن المصير الذي آلت إليه حملة لويس التاسع ومن قبلها حملة جان دي برين لهو دليل كافٍ على صحة ما نقول، فلم يستول قائد الحملة الصليبية الخامسة على دمياط إلا بعد حصار دام زهاء ١٧ شهرًا، وعندما تقدم داخل الدلتا كانت قواته قد أنهكت بعد هذا الحصار الطويل، وقد توقفت أمام بحر أشموم حيث كان يعسكر قبالته من الناحية الأخرى وأحسوا بخيبة الأمل عندما تبينوا أن الأرض التي كانت تفصل بينهم وبين قاعدتهم في دمياط قد غمرتهم مياه الفيضان، إذ كان النيل في ازدياد واستغل المسلمون هذه الفرصة وقطعوا السدود، فأسرع الفرنج بالتراجع صوب دمياط، لكن المياه كانت تحيط بهم من كل جانب، وتعقبهم المسلمون بشدهة ولكي ينجو الصليبيون بأنفسهم من المجاعة أو الغرق، اضطروا إلى طلب فتح باب المفاوضات وقد سمح لهم السلطان بالرحيل بعد أن أخلوا دمياط[(٣)].

أما مصير حملة لويس التاسع فكان أسوأ من تلك بكثير عندما اتبع نفس الطريق[(٤)]، ويبدو أن نابليون بونابرت في حملته على عام (١٧٩٨م) استفاد من أخطاء من سبقه، فاختار طريق أخرى، من خلال الرِّسو في الإسكندرية مع الاحتفاظ بخط سير على غربي فرع النيل الغربي (فرع رشيد) ويمر هذا الطريق بدمنهور والجيزة[(٥)]، ولذا يمكننا القول بحق: إن السبب الأكبر في فشل الحملة الصليبية السابعة يرجع إلى قلة المعلومات الجغرافية واختيار الطريق الوعر غير العملي، ولو أن القوات الصليبية اضطرت للقتال بعيدًا عن مجرى ماء كبحر أشموم وفي خلاء الصالحية أو بلبيس مثلًا لكانت هناك فرصة أكبر للنجاح وإن استحال هذا الطريق، فإن الطريق الآخر هو النزول في الإسكندرية ومتابعة خط سير بونابرت في (١٧٩٨م)[(٦)].

---

(١) المصدر نفسه ص٧٩ .
(٢) العدوان الصليبي على مصر، د/ جوزيف نسيم ص٢٤١ .
(٣) العدوان الصليبي على مصر ص٢٤٢ .
(٤) المصدر نفسه ص٢٤٢ .
(٥) المصدر نفسه ص٢٤٣ .
(٦) المصدر نفسه ص٢٤٥ .

٦- خطأ كبير في تقدير العامل الزمني: وكما أخطأ لويس التاسع في اختيار الطريق السليم إلى القاهرة، كذلك لم يقدر بوصفه قائد الحملة أهمية العامل الزمني في الحروب ودخله في تقرير مصير البلاد[١]، فالحروب عادة تقوم على السرعة والمباغتة؛ لأن هذه السياسة هي أحسن ما يمكن اتباعها لبث الاضطراب في معسكر العدو، ولكن حوادث الحملة أثبتت أن الصليبيين لم يراعوا على الإطلاق قيمة هذا العامل المهم وما يترتب على التباطؤ والتأخير من أضرار بالغة[٢]، فالوقت الذي أضاعه الصليبيون في قبرص كان سببًا في تسرب أنباء تحرك الحملة، والوقت الذي أضاعوه في دمياط كان سببًا في إعطاء الفرصة للقوات الإسلامية في التقاط أنفاسهم وإعادة تنظيم قواتها، وفضلًا عن ذلك فإن هذا الوقت الذي ضاع في قبرص ودمياط قد أدى إلى نفاذ المؤن والأموال ودفع بالقوات الصليبية إلى اللهو والانغماس في الملذات، مما أدى إلى إنهاك القوات الصليبية واختلال توازنها وانتشار الأمراض وموت عدد من الصليبيين، وكان على الصليبيين الاتعاظ من ضياع الوقت في قبرص ولكنهم عادوا وكرروه في دمياط دون قتال، واعتقادهم أن الطريق أصبح مفتوحًا أمامهم إلى القاهرة، وأنهم سيستولون على القاهرة بنفس السهولة التي استولوا بها على دمياط[٣].

٧- العصيان وعدم الطاعة: ومن العوامل التي تسببت في انهزام الصليبيين العصيان وعدم الطاعة، فلم يكن الملك لويس قائد هذه الحملة صاحب السلطة المطلقة، ومن ثم لم يكن قادرًا على فرض إرادته على قواده ورجاله، وإلزامهم باتباع أوامره[٤]، فكان رجال الحملة من جند وقواد على السواء يتصرفون حسبما يتراءى لهم ضاربين بأوامر قائدهم الأعلى عرض الحائط مما أضر بالقضية الصليبية، ويذخر تاريخ الحملة بالأمثلة التي تؤيد هذا، فعندما وصل الفرنج إلى قبرص، كان الملك شديد الرغبة في الزحف السريع إلى مصر دون التوقف بالجزيرة، لكنه اضطر إلى الإقامة بها فترة طويلة نزولًا عند رغبة قواد جيشه[٥]، وكذلك في فترة إقامة الجيش بدمياط انغمس رجال الحملة في الملذات على مرأى من مليكهم حتى أنه أصبح عاجزًا عن السيطرة عليهم ووضع حد لاستهتارهم[٦]، وعندما اغتصب روبرت كونت أرتوا من وليم كونت سالسبري الغنيمة التي كان قد استولى عليها، توجه الأخير إلى لويس متظلمًا من تصرفات شقيقه، راجيًا منه أن يعيد إليه ما اغتصبه روبرت منه، لم يسع الملك لويس التاسع أن يفعل شيئًا حتى أن الفارس الإنجليزي استشاط غضبًا وترك المعسكر هو ورجاله إلى عكا قائلًا للويس: إنه ليس ملكًا إلا بالاسم، وإنه ليس له أي سلطة فعلية على رجال جيشه.

---

(١) المصدر نفسه ص٢٤٥ .
(٢) المصدر نفسه ص٢٤٦ .
(٣) تاريخ الحروب الصليبية، محمود سعيد ص٣١٦ .
(٤) العدوان الصليبي على مصر ص٢٤٩ .
(٥) المصدر نفسه ص٢٤٩ .
(٦) المصدر نفسه.

ولعل أبلغ مثل على عصيان الأوامر الملكية ما فعله روبرت بعد عبوره بحر أشموم؛ إذ اندفع نحو المنصورة غير مبالٍ بأوامر أخيه، ولقد بذل الملك ما في وسعه لمنعه من التقدم، وأرسل إليه عشرة فرسان يأمرونه بالتوقف والانتظار، ولكن روبرت اختار أن يقوم بهجومه المتهور مخالفًا أوامر قائده، ذلك الهجوم الذي باء بالفشل وأودى بحياته هو ورجال المقدمة كلهم تقريبًا، وغير هذا وذاك فالحملة مليئة بالمعارك التي مات فيها كثير من الصليبيين نتيجة تمردهم وعصيانهم لأوامر مليكهم[1]، قد يفسر هذا العصيان بأنه لم يكن للفرنسيين جيشًا قويًا موحدًا، وأنهم كانوا ينظمون قواتهم على الطريقة الإقطاعية التي كانت متبعة في العصور الوسطى، وأن الملك ما زال هو الأول بين أقرانه، ليس له عليهم سلطة حقيقية ولكن كيفما كان الأمر فإن قائد جيش إقطاعي كلويس التاسع لم يكن يعقل أو يتوقع أن تتحطم خططه وتتكسر تعليماته من جراء عصيان كهذا[2].

٨- **انحلال الحملة السابعة خلقيًا**: ومن العوامل التي ساهمت في هزيمة الحملة الانحلال والتدهور الخلقي الذي كان متفشيًا في نفوس الصليبيين، مما أدى إلى انهماك قواهم وضعف الروح المعنوية عندهم، فقد انغمسوا في الملذات وحياة الفجور بدلًا من السعي في تنظيم صفوفهم وإعداد خططهم وإحكامها، وإن سلوك الفرنج وتصرفاتهم الشاذة في قبرص ودمياط وفي شتى مراحل الحملة لأبلغ دليل على ما نقول، كما أن هناك حادثة رواها جوانفيل في مذكراته تدل على مدى استهتار الفرنج وخلاعتهم، فقد حدث في (مساء الثلاثاء ٨ فبراير ١٢٥٠م) أن ورى التراب أحد فرسان جوانفيل وبينما هم في رقدته الأخيرة داخل تابوته، أخذ ستة من فرسان جوانفيل يتحادثون بصوت مرتفع حتى أنهم أزعجوا القس الذي كان يقوم بتلاوة الصلاة الجنائزية، فذهب إليهم جوانفيل راجيًا منهم أن يخلدوا إلى الهدوء والسكينة واحترامًا لروح زميلهم المتوفى، ولكنهم أخذوا يتضاحكون ويتغامزون فيما بينهم قائلين: إنهم إنما يبحثون عن زوج آخر لأرملته[3]، وهكذا نرى أنه في الوقت الذي كان فيه الفرنج منصرفين إلى اللهو والمرح، كان المسلمون منهمكين في تنظيم جيوشهم وإعدادها لمواجهة العدو والحيلولة بينه وبين التوغل في الأراضي المصرية[4].

٩- **فتور الروح الدينية عند الصليبيين**: وعلى الرغم من اتسام هذه الحملة الصليبية بالطابع الديني، فإننا نلاحظ فتور هذه الروح بين كثير من المقاتلين، وتدخل المصالح المادية في الحركة الصليبية، وإن موقف البحارة الجنوية والبيازنة وجماعة الرهبان الداوية لدليل كافٍ على ذلك، فقد غلبت على الجنوية والبيازنة الذين بقوا في دمياط لحراستها، عندما تقدم الجيش الفرنسي

---

(١) العدوان الصليبي على مصر ص٢٥٠ .
(٢) المصدر نفسه ص٢٥١ .
(٣) المصدر نفسه ص٢٥١ .
(٤) المصدر نفسه ص٢٥٤ .

جنوبًا صوب العاصمة -الصفة التجارية، ورأوا ألا يُعرِّضوا أنفسهم للخطر عندما علموا بوقوع لويس التاسع ورجاله في أسر المسلمين، فتراهم يقررون ترك دمياط والنجاة بأنفسهم ولم يعدلوا عن رأيهم إلا بعد أن ابتاعت لهم الملكة مرجريت كل ما هم في حاجة إليه، وأدخلتهم تحت نفقة الملك الخاصة، فقد كانت حرفتهم التجارة وهمهم الأول والأخير هو الكسب المادي، وأما الداوية الذين من مبادئهم الفقر والطاعة، فقد أظهروا جشعهم وأنانيتهم عندما رفضوا إقراض لويس التاسع المال اللازم لإتمام دفع الفدية للمسلمين، ولم يحصل الملك على المبلغ المطلوب إلا بعد مناقشات حامية بينه وبينهم اشترك فيها جوانفيل، وهكذا يمكن القول: إنه لم يكن لكثير من الصليبيين رغبة صادقة في القتال الديني، وإن إخلاص المسلمين لمبدأ الجهاد في سبيل الله كان يفوق إخلاص المسيحيين له[1].

١٠- **التهور وقصر النظر**: ومن العوامل في هزيمة الحملة السابعة؛ التهور وقصر النظر والإهمال الشديد من جانب الفرنج، فلولا تهور كونت أرتوا واندفاعه داخل المنصورة بعد عبوره قناة أشموم لما حدثت تلك الهزيمة المنكرة التي قضت على مقدمة الجيش المسيحي، أما قصر النظر وعدم التقدير لخواتيم الأمور، فيبدو جليًا في القرار الذي اتخذه مجلس الحرب الصليبي الذي عقد بدمياط بالتوجه جنوبًا صوب العاصمة بدلًا من التوجه إلى الإسكندرية، ذلك القرار الذي كان حلقة جديدة في سلسلة الأخطاء التي انتهت بفشل الحملة، وأما إهمال الفرنج وتهاونهم فيتضح في نسيانهم تحطيم الجسر الموجود على بحر أشموم عند تراجعهم من المنصورة إلى قاعدتهم في دمياط في (الخامس من إبريل ١٢٥٠م) مما ترتب عليه أسوأ النتائج بالنسبة للصليبيين الهاربين[2]، وإلى جانب هذا كله، فقد كان الشقاق والغيرة وتفرق الكلمة وعدم التعاون متوفرًا في الجانب المسيحي[3]، بينما كان الجانب الإسلامي متحد الكلمة ومتفق الرأي، فقد وقف المسلمون أمام القوات الصليبية كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا[4]. هذه أهم الأسباب التي ساهمت في فشل الحملة الصليبية السابعة.

سابعًا: نتائج الحملة الصليبية السابعة:

وقد ترتب على هزيمة لويس التاسع عام (١٢٥٠م/٦٤٨هـ) وفشل الصليبية السابعة مجموعة من النتائج من أهمها:

١- **عجز فرنسا عن تحقيق أهدافها**: والملاحظ أن فعاليات الدور الفرنسي في دعم الحركات الصليبية وفي التوجه إلى البعد الأفريقي نالها الخسران المبين، وعجزت فرنسا عن صنع واقع

---

(١) العدوان الصليبي على مصر ص٢٥٥ .
(٢) المصدر نفسه ص٢٥٦ .
(٣) المصدر نفسه ص٢٥٦ .
(٤) المصدر نفسه ص٢٥٦ .

حربي وسياسي في المنطقة على حساب الأيوبيين، وبذلك تأكد للدارسين كيف أن كافة المحاولات الصليبية لإخضاع مصر سواء في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين/ السادس والسابع الهجريين لم تحقق أدنى نجاح، ولا شك في أن صورة أسرة آل كايبه الحاكمة في فرنسا ضعف أمرها بين الأسر الحاكمة في أوربا بسبب الهزيمة الشنيعة التي تعرض لها لويس التاسع ووقوعه في الأسر(١).

٢- **السند التاريخي للمماليك للوصول للحكم:** تبين بوضوح الدور البارز الذي قام به المماليك في معركة فارسكور، وكيف أن جهادهم أعداء الإسلام كلل بالنجاح، وفي حقيقة الأمر أن ذلك الدور كان له أثره في ارتفاع شأنهم، وبذلك سيصبح لهم السند التاريخي في الوصول إلى العرش، وليس غريبًا أن العام الذي شهد الانتصار على الغزاة وهو عام (١٢٥٠/ ٦٤٨هـ) هو ذاته العام الذي شهد نهاية تورانشاه حريقًا غريقًا لتنتهي الدولة الأيوبية، ويتم إفساح الطريق لدولة المماليك المدافعة عن الإسلام(٢) بقوة وعزم ونشاط.

٣- **المرأة في صفوف المجاهدين:** فقد أثبتت لنا تلك الحملة دور المرأة المسلمة خلال ذلك الصراع العنيف بين المسلمين والصليبيين على أرض مصر، كما تجدر الإشارة إلى دور شجرة الدر التي حفظ لها التاريخ حكمتها في أصعب المواقف التي مرت بها الدولة الأيوبية حينذاك، ومن الممكن القول بأن المرأة المسلمة كانت تعمل في الجبهة الداخلية التي هي أساس نجاح جبهات الصراع الحربي مع الصليبيين وساهمن في صنع تاريخ الأمة الجهادي(٣).

٤- **تضرر الاقتصاد الأوربي:** تحدث بعض المؤرخين عن كلفة الحملة الصليبية السابعة، فقدرها بما يزيد على ١٣٠٠,٠٠٠ ليرة تورية (عملة نقدية مسكوكة في مدينة تور الفرنسية) موزعة كما يلي:

- ٢٠٠,٠٠٠ ليرة مصروفات ملكية.
- ٢١٠,٠٠٠ ليرة دفعها الملك فدية.
- ٧٥٠,٠٠٠ ليرة مصروفات عسكرية.
- ٤٠,٠٠٠ ليرة مصروفات لبناء السفن.
- ١٢٠,٠٠٠ ليرة مصروفات بناء تحصينات في الأراضي المقدسة.
- ١٣٠٠ ليرة تضاف نفقات لبعض الأسرى.

(١) الحروب الصليبية بين الشرق والغرب ص٣١٠.
(٢) المصدر نفسه ص٣١٠.
(٣) المصدر نفسه ص٣١٠، ٣١١.

وهذا المبلغ يعادل ٣٠ مليون مارك ذهبي ألماني أو ما يعادل تقريبًا ١٠٠ مليون مارك ألماني حالي، وهذا المبلغ يعادل دخل الخزينة الفرنسية بحسب تقديرات السنوات (١٢٥٦-١٢٥٩م) ما مقداره ميزانية إحدي عشرة إلى اثنتى عشرة سنة[١]، ولا شك أن هذا الحجم الهائل من الأموال الذي أنفق دون طائل؛ أي دون تحقيق الهدف الذي انطلقت من أجله الحملة الصليبية -كان مؤشرًا على أوضاع قطاعات واسعة من الأوربيين الذين تضرروا نتيجة السياسة التي اختطتها لهم الكنيسة مما جعلهم فيما بعد يتراجعون عن تأييد الكنيسة في الكثير من قراراتها، بل ويوجهون لها النقد في إدارتها للحروب الصليبية[٢].

٥- **حزن عظيم في فرنسا وأوربا**: عمَّ الحزن واليأس والجزع في فرنسا وأوربا الغربية، لما مُنيت به الحملة من هزيمة منكرة، فلم يقتصر الأمر على فشلها في تحقيق رسالتها التي قامت من أجلها، لكنها فقدت في مصر عددًا لا يستهان به من رجالها بين قتيل وأسير وجريح، وتروي بعض المراجع العربية أن النصارىٰ ببعلبك عندما بلغهم ما نزل بالجيش المسيحي من الهزائم سوَّدوا وجوه الصور في كنيستهم حزنًا على ذلك[٣]، ويصف المؤرخ الغربي المعاصر للحملة متى الباريزي حالة فرنسا حينذاك، فيقول: إنه شملها الحزن من أقصاها إلى أقصاها، وتحوَّل كل شيء في المملكة إلى أنين وبكاء، فالآباء والأمهات يندبون أبناءهم، والصغار واليتامى يبكون آباءهم، والأصدقاء ينوحون على أقاربهم وأصدقاءهم، ويستمر نفس المؤرخ في وصف هذه الحالة فيقول: إن عددًا كبيرًا من المسيحيين قد تزعزعت عقيدتهم وكانوا على وشك الارتداد عن دينهم لو لم يعمل رجال الدين على تهدئة خواطرهم وإقناعهم أن جميع الذين قتلوا في هذه الحملة الصليبية أصبحوا في مرتبة الشهداء[٤]، ويقول الكاتب الفرنسي لافيس: إن هذه الهزيمة تعتبر بحق من أشد الهزائم التي نزلت بالفرنج حتى أنهم انصرفوا تمامًا عن فكرة الاشتراك في حرب صليبية جديدة[٥].

٦- **تخريب مدينة دمياط**: ومن النتائج التي ترتبت على هذه الحملة أيضًا تخريب مدينة دمياط التي قاست الأمرين من حملات الفرنج المتتابعة عليها في عهد الدولة الأيوبية، حتى أن الملك المعز أيبك والمماليك البحرية اتفقوا على تخريبها في (شعبان ٦٤٨هـ/ نوفمبر ١٢٥٠م)؛ أي بعد نحو ستة أشهر من مغادرة الفرنج أرض مصر، وابتنوا دمياط الجديدة إلى الداخل بعيدًا عن شاطئ البحر، حتى تخلص من شر اعتداء الصليبيين عليها[٦]، ولم يكتفِ المسلمون بهذا، فعندما اعتلى الملك الظاهر بيبرس عرش مصر، نراه يلجأ إلى طريقة فعالة لحماية مدخل النيل

(١) دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك للعمادي وجبران ص٢٢٦ .
(٢) المصدر نفسه ص٢٢٧ .
(٣) نهاية الأرب عن العدوان الصليبي على مصر ص٢٦٦ .
(٤) العدوان الصليبي على مصر ص٢٦٦ .
(٥) المصدر نفسه ص٢٦٦ .
(٦) المصدر نفسه ص٢٦٧ .

عند دمياط من اعتداء الغزاة وهجماتهم، ففي السنة الثانية من حكمه وهي سنة (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م) أخرج من مصر عدة من الحجارين لردم فم بحر دمياط، فمضوا وقطعوا كثيرًا من القرابيص[١]، وألقوها في النيل الذي ينصب من شمال دمياط في البحر الملح حتى ضاق وتعذر دخول المراكب فيه[٢]، وهكذا نرى أن حملة لويس التاسع كانت سببًا في إزالة مدينة دمياط القديمة التي وصفها ابن واصل بأنها عقيلة الإسلام وثغر الديار المصرية[٣].

٧- **اضطرابات سياسية في أوربا:** أبحر الملك لويس من دمياط في مساء يوم السادس من مايو (١٢٥٠م) واتخذ طريقه إلى عكا فوصلها بعد سنة مخلِّفًا وراءه في مصر العديد من الأسرى الذين لم يتمكن الملك من دفع فديتهم، وفي عكا ساعدت الظروف الملك ليتولى عرش مملكة بيت المقدس الاسمية عن طيب خاطر من يوحنا إبلين الصغير سيد أرسوف وابن عم الملك هنري الأول ملك قبرص ونائبه في حكم المملكة الصليبية، وعقب وصول المَلك جاءته الأخبار من والدته الملكة بلانشي صاحبة قشتالة تستدعيه للرجوع إلى مملكته التي طمع الإنجليز في الوثوب عليها أثناء غيبته في الشرق، حينئذ عقد لويس مجلسًا حربيًّا من بارونات فرنسا ورجال الدين وجماعات الفرسان الداوية والأسبتارية والتيوتونية وبارونات مملكة بيت المقدس للتداول فيما يجب اتخاذه، وقد اجتمع المجلس ثلاثة آحاد متتالية (من ١٩ يونيو إلى ٣ يوليو ١٢٥٠م) وانقسم الأعضاء فريقين؛ فريق يتألف من غالبية الصليبيين يرى ضرورة العودة إلى فرنسا، وفريق آخر على رأسه جوانفيل يرى أنه يجب البقاء بالشام لحماية الإمارات الفرنجية بها من غائلة المعتدين، وبعد تمحيص الآراء قرر الملك لويس البقاء في فلسطين إلى أن يفك باقي الأسرى المسيحيين الذين لا يزالون في قبضة المصريين، كما رأى أن بقاءه قد يعود بالنفع على المسيحيين في الشرق خصوصًا بعد الخلاف الذي نشب بين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر بعد قتل المعظم توران شاه[٤]، لكنه على أي حال أنفذ أخويه كونت أنجو وكونت بواتييه إلى فرنسا، للدعوة إلى التئام القوى للقيام بحملة صليبية جديدة تمحو عار الهزيمة التي مُنِيَ بها في المنصورة وفارسكور[٥].

٨- **عدم الاستجابة للبابا أنوسنت الرابع:** لم تكن أوربا حينذاك في حالة تمكنها من إيفاد قوات إلى الشرق للقيام بحرب صليبية جديدة تعوض ما خسره الفرنسيون في مصر، فقد كان الصراع على أشده بين البابوية والإمبراطورية؛ إذ استمر الصدام بين البابا أنوسنت الرابع وبين كونراد الرابع ابن فريدريك الثاني بعد موت الأخير في (١٣ ديسمبر ١٢٥٠م) ودعا البابا إلى

---

(١) المصدر نفسه ص٢٦٧ .
(٢) خطط المقريزي(١/ ٢٢٣-٢٢٤)العدوان الصليبي ص٢٦٧ .
(٣) مفرج الكروب نقلًا عن العدوان الصليبي ص٢٦٧ .
(٤) العدوان الصليبي على مصر ص٢٦٩ .
(٥) المصدر نفسه ص٢٦٩ .

حرب صليبية ضد الإمبراطور الجديد وأعوانه، وقد شلَّ هذا النزاع حركة العالم المسيحي في أوربا بعامة، وفي كل من إيطاليا وألمانيا على وجه أخص، أما في إنجلترا فقد قيد مليكها هنري الثالث اسمه في سجل الحرب المقدسة متعهدًا بحمل الصليب لنجدة الأرض المقدسة، ولكنه انتهز فرصة غياب لويس التاسع عن مملكته للوثوب عليها وضم بعض أقاليمها إلى بلاده، ودفع إلى البابوية مبلغًا كبيرًا ليصبح في حِلٍّ من العهد الذي أخذه على نفسه بحمل الصليب.

لم يكتفِ هنري بكل هذا، بل فرض أيضًا حراسة شديدة على الموانئ والثغور الإنجليزية لمنع رعاياه الذين حملوا الصليب من الإبحار إلى الشرق[1]، كذلك كان المسيحيون في أسبانيا في قتال مستمر ضد المسلمين بها، مما حال بينهم وبين المساهمة في حرب صليبية خارج شبه الجزيرة[2]، أما في فرنسا فقدِ صادفت المجهودات التي بُذلت لجميع نجدات منها نجاحًا ضئيلًا، فقد قامت حركة شعبية كان يمكن أن تمد الملك الفرنسي بعدد كبير من المتطوعين لو أحسن تنظيمها وقيادتها وتوجيهها الوجهة الصحيحة، إذ ادَّعى أحد الرعاة أن المولى أناط إليه مهمة تحرير الأراضي المقدسة، وأطلق على نفسه لقب (سيد هنغاريا)؛ لأنه كان هنغاري المولد، وانتشرت حركته بسرعة في أنحاء فرنسا، وقد عرفت في التاريخ باسم صليبية الرعاة؛ لأن الذين اشتركوا فيها كانوا من المزارعين ورعاة الأغنام، لكن هذه الجموع الغفيرة غير النظامية أخذت تعيث فسادًا في البلاد التي مرت بها داخل فرنسا، مما دفع الملكة النائبة بلانشي صاحبة قشتالة إلى كبح جماحهم ووضع حد لأعمال العنف التي كانوا يقومون بها، فتعقبتهم وشتت شملهم وقبضت على الكثيرين منهم، حتى أن القليلين هم الذين تمكَّنوا من الإفلات والعودة إلى ديارهم سالمين[3].

٩- انقطاع الإمدادات: وعبثًا انتظر الملك لويس التاسع خلال وجوده بعكا وصول الإمدادات والنجدات التي بعث في طلبها من الغرب الكاثوليكي، فضلًا عن أنه كان في حاجة ماسة إلى المال للصرف على قواته؛ لأن الفدية التي دفعها للمصريين أرهقت موارده المالية، وقد أرسلت إليه الملكة بلانشي مبالغ كبيرة، لكن السفينة التي كان يوجد بها المال غرقت في طريقها إلى عكا، أضف إلى ذلك أنه لم يبقَ مع الملك الفرنسي من القوات التي هاجم بها الديار المصرية سوى بضع مئات من الفرسان، مما لا يكفي للقيام بأي عمل إيجابي حاسم[4].

١٠- عودة لويس التاسع: بقي لويس في الأراضي المقدسة مدة تقرب من أربع سنوات (مايو ١٢٥٠-إبريل ١٢٥٤) وساعد على بقاء لويس التاسع حالة الشرق الأدنى السياسية في ذاك

(١) العدوان الصليبي على مصر ص٢٧٠ .
(٢) المصدر نفسه ص٢٧٠ .
(٣) المصدر نفسه ص٢٧٠ .
(٤) المصدر نفسه ص٢٧١ .

الحين، بعد ثورة المماليك في مصر التي أدت إلى تغيُّر النظام وانتقاله من سلالة بني أيوب إلى المماليك البحرية، فكان من جزاء هذا نشوب الخلاف بين هؤلاء المماليك وأمراء بني أيوب في الشام الذين لم يقبلوا عليهم ملكًا من مماليك أسرتهم، وقد استغل الملك لويس التاسع هذا الخلاف الناشب بينهما لصالح القضية الصليبية؛ إذ كان كل من الفريقين يسعى إلى اكتساب ودِّه واجتذابه إلى جانبه في صراعه ضد خصمه، وكان لويس يطمع في اتساع هوة الخلاف بينهما حتى يخلو له الجو ويمكنه حينئذ تحقيق مطامعه التي أخفق في الحصول عليها عن طريق الحرب[١].

وباءت جهود لويس التاسع بالفشل في إثارة الفتنة بين الأيوبيين في الشام والمماليك بعد الصلح الذي تمَّ بينهم عام (٦٥١هـ/ ١٢٥٣م)، والواقع أن ذلك الصلح كان ضربة قاسية أصابت آمال الملك الفرنسي؛ إذ انهار ما كان يرجوه من وراء الشقاق الناشب بين القوتين من حيث إضعافهما معًا واستفادة الصليبيين وحدهم من ذلك، وأدرك أن مهمته في الأراضي المقدسة قد أذنت الانتهاء، كما أدرك أيضًا أن هذا الصلح عاد بالضرر على معاقل اللاتين وممتلكاتهم في الشام التي باتت مهددة بالخطر والضياع بعد أن خلا الجو للناصر يوسف باتفاقه مع من بيدهم السلطة في مصر[٢]، لذا نرى لويس التاسع يعمل على إصلاح وتقوية بعض المدن الساحلية والقلاع الداخلية خوفًا من هجوم مفاجئ قد يشنُّه عليه المسلمون، فكان مما حصنه عكا وقيصرية ويافا وصيدا، وفي الوقت الذي كان فيه الملك الفرنسي في صيدا يشرف بنفسه على العمليات الخاصة بتحصينها، بلغه النبأ الأليم بوفاة والدته الملكة بلانشي، التي كانت تنوب عنه في تدبير المملكة وحفظها سالمة من عواصف السياسة الأوربية في ذاك الحين، وأصبحت عودة لويس إلى فرنسا ضرورة تحتمها الظروف، فقد كانت البلاد مهددة من إنجلترا الطامعة فيها، كما سببت مطامع البابا أنوسنت الرابع ونزاعه مع الإمبراطورية بعض القلق في فرنسا.

وأخيرًا في (٢٤ أبريل ١٢٥٤م) غادر لويس بلاد الشام بعد أن ترك فيها مجموعة قليلة من الفرسان[٣]، وبعد أن نجح في عقد هدنة مع دمشق لمدة سنتين وسبعة أشهر ابتداء من الحادي والعشرين من فبراير (١٢٥٤م)، كما عقد لويس أيضًا هدنة مع القاهرة لمدة عشر سنوات بداية من عام (١٢٥٥م)، وعقب رحيل لويس في عام (١٢٥٤م) تجددت اشتباكات محدودة بين الصليبيين والمسلمون، ولكن الهدنة تجددت مرة أخرى لمدة عشر سنوات مع دمشق والقاهرة من جانب والصليبيون من جانب آخر[٤]، وعاد لويس إلى فرنسا مجروحًا في كرامته وعزته وكبريائه بعد هزيمة المصريين له في المنصورة وفارسكور، ولتنكيلهم بفرسانه ومشاته، ولكنه مع

(١) العدوان الصليبي على مصر ص٢٧٢ .
(٢) المصدر نفسه ص٢٧٩ .
(٣) المصدر نفسه ص٢٨٠ .
(٤) تاريخ الحروب الصليبية ص٣٢٢ .

ذلك لم يفقد الأمل الذي ظل يراود خياله منذ صغره في امتلاك المدينة المقدسة وضمها إلى حظيرة اللاتين، فنراه في سنة (١٢٦٧م) بعد ثلاثة عشر عامًا من انتهاء حملته على مصر والشام - يحمل الصليب مرة أخرى، ويقوم في سنة (١٢٧٠م/ ٦٦٠هـ) -بعد ثلاث سنوات أمضاها في الاستعداد- بحملته الصليبية الثالثة والأخيرة على تونس بقصد استمالة صاحبها محمد بن يحيى الملقب بالمستنصر إلى المسيحية، ومواصلة الزحف على مصر خط الدفاع الأول عن بلاد الشام وبيت المقدس وبلاد الشرق الأدنى آنذاك، وبالقضاء على هذا المعقل الأشب يمكنه استخلاص البيت المقدس بسهولة من أيدي المسلمين، ولكن شيئًا من هذا لم يحدث؛ إذ قضى لويس التاسع نحبه وهو على أبواب قرطاجنة دون أن يتأتى له أن يمحو عن جبينه عار هزيمته على ضفاف النيل وإخفاق محاولاته في بلاد الشام، وكان آخر ما هتف به وهو على فراش الموت - نقلًا عن شاهد عيان يدعى غليوم دي شارنز- هيا إلى أورشليم(١).

١١- **ضعف الروح الصليبية**: لقد عجل موت لويس التاسع بضعف الروح الصليبية، ويمكن الاستدلال على هذا الفتور الذي طرأ على الحركة الصليبية من قصيدة كتبها شاعر فرنسي معاصر لأحداث تلك الفترة يُدعى رتبوف، يقول فيها: إنه من الحماقة أن يخاطر الإنسان في حرب دينية خارج بلاده، طالما كان بوسعه أن يتصل بالله في وطنه ويعيش في نعمة وسلام، ويسخر الشاعر في القصيدة من رجال الدين الذين جعلوا من الحروب الصليبية وسيلة لابتزاز الأموال، ويعلق الكاتب جوستاف ماسون من علماء أواخر القرن التاسع عشر للميلاد على هذه القصيدة: بأن الشاعر كان يعبر تعبيرًا صادقًا عن موقف ذوي التعقل في ذاك العصر(٢).

وهكذا زال أمل الإمارات اللاتينية بالشام في أية مساعدة يقدمها لها أهل الغرب الكاثوليكي حتى يمكنها الدفاع عن نفسها وصد هجمات المسلمين، وما لبثت بعد ذلك بفترة وجيزة حتى تقلص ظلها ثم زالت في نهاية الأمر(٣) على يد المماليك كما سيأتي تفصيله في كتابنا القادم بإذن الله تعالى في بيان جهود المماليك للتصدي للمشروع المغولي والوجود الصليبي في ديار الإسلام.

ثامنًا: ما قيل من شعر في هزيمة الحملة الصليبية السابعة:

بعد أن انتصر المسلمون على الحملة الصليبية السابعة واعتقل لويس التاسع في دار ابن لقمان سنة (٦٤٨هـ) ووكل به خادم يُسمَّى صبيحًا، قال ابن مطروح أبو الحسن يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن مطروح وهو من شعراء عهد الملك الصالح أيوب هذه القصيدة:

---

(١) العدوان الصليبي على مصر ص٢٨١.

(٢) المصدر نفسه ص٢٨٢.

(٣) العدوان الصليبي على مصر ص٢٨٢.

قل للفرنسيس إذا جئته ... مَقَال صِدْقٍ من قئول فصيح
آجَرَكَ الله على ما جَرى ... من قَتْل عُبَّادِ يسوغ المسيح
قد جئتَ مِصرًا تبتغي أخذها ... تحسب أن الزَّمْرَ يا طَبْلُ ريح
فساقك الحين إلى أدهم ... ضاق به عن ناظريك الفسيح
رُحْتَ وأصحابك أودعتهم ... بقُبح أفعالِك بطن الضَّريح
خمسون ألفًا لا يُرى منهم ... إلا قتيل أو أسير جريح
ألهمك الله إلى مِثلِها ... لعلَّ عيسى منكم يستريح
إن كان باباكُمْ راضيًا ... فَرُبَّ غُبْنٍ قد أتى من نَصيح
فاتَّخِذُوهُ كاهنًا إنه ... أنصح من شِقٍّ لكم أو سطيح
وقل لهم إن أضمروا عودةً ... لأخذ ثأر أو لقصد صحيح
دار ابن لقمانٍ على عهدها ... والقيد باق والطَّواشي صبيح[1]

١- من شعر ابن مطروح في الاسترضاء والعتاب: قال ابن مطروح هذه الأبيات من قصيدة من قصائد الاسترضاء والعتاب التي نظمها عندما حدثت الجفوة بينه وبين الملك الصالح نجم الدين أيوب:

من مبلغ عني المليك الأروعا ... عن عبده يحيى مقالًا مُقْنِعا
يابن الملوك الأكرمين ومن لهم ... هِممٌ بها سَدُّوا الفضاء الأوسعا
وإذا النجومُ سعت لتدرِك مجدهم ... رجعت ولم تبلغ نداهم ضُلَّعا
أيجوز أن أبقى ببابك ظامئًا ... ونداكَ قد وسع الخلائقَ أجمعا
ولو ادعيت بأن ما لك ناصح ... مثلي شهدت بصدق ذاك المدَّعى
ومع النصيحة فالتخلُّقُ بالوفا ... خُلُقٌ خُلِقْتُ عليه لا متطبّعا
ومحبة لِدَمي ولحمي مازجَت ... وهوى حنيتُ عليه مني الأضْلُعا
ولطالما جرَّبتني فوجدتني ... أجدى من الملأ الكثير وأنفعا
وأَسَدَّ آراءً وأثقبَ فِكرة ... وأشدَّ عارِضةً وألطف موقِعا
ولكم ليالٍ بتُّ في ديجُورِها ... لله أدعو خاشعًا متضرعا
حتى رأيتك فوق كِسرَى رفعة ... ورأيت دونك في الجلالة تُبَّعا
فعلام بعد الاصطفاءِ نبذتني ... نبذ النَّواة بقوْلِ واشٍ قد سعى
وسمعت في حقِّي كلام معاشِر ... أقصى مُناهم أن أبيت مُضيَّعا
حقُّ العذولِ بأن يقول فيفتري ... لكن أُجِلُّك أن يقول فتسمعا

(١) السلوك (١/ ٤٦٠) والأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار ص١٠١ .

وإن كنت خنتك ظاهرًا أو باطنًا ... فخسرت دنيائي وآخرتي معًا
أأودُكم في عُنفُوان شبيبتي ... وأحول إذ عهدُ الشبيبة ودَّعا[١]

٢- نزل ببعض أسفاره بمسجد وهو مريض فقال:

ياربِّ قد عجز الطَّبيبُ فَدَاوني ... بلطيف صُنعك واشفني يا شافي
أنا من ضيوفك قد حُسِبتُ وإن ... من شيم الكرام البر بالأضياف[٢]

٣- وفاته: قال ابن كثير في وفيات سنة (٦٥٠هـ): وفيها كانت وفاة جمال الدين بن مطروح، وقد كان فاضلًا رئيسًا كَيِّسًا شاعرًا من خيار المتعمِّمين، ثم استنابه الملك الصالح أيوب في وقت على دمشق، فلبس لُبس الجند، ومن شعره في الناصر داود صاحب الكَرك لما استعاد القدس من الفرنج بعد أن سلمها الملك الكامل، قال هذا الشاعر ابن مطروح:

المسجد الأقصى له عادة ... سارت فصارت مثلًا سائرًا
إذا غدا للكفرِ مستوطنًا ... أن يبعث الله له ناصرًا
فناصرٌ طهَّره أوَّلًا ... وناصر طهَّره آخرًا

ولما عزله الصالح عن النِّيابة أقام خاملًا، وكان كثير البِّر بالفقراء والمساكين، وكانت وفاته بمصر[٣]، وتوفي ليلة الأربعاء مستهل شعبان ودفن بسفح المقطَّم، وأوصى أن يكتب عند رأسه بيت شعر نظمه في مرضه:

أصبحت بقُعرِ حفرتي مُرْتهنا ... لا أملك من دنيايَ إلا كَفَنَا
يا من وسعت عبادَهُ رَحمتُه ... من بعض عبادِكَ المُسيئين أنا[٤]

٤- وقال شاعر آخر لم تذكر المصادر اسمه قصيدة في هزيمة الحملة السابعة، نقتطف منها الأبيات التالية:

قل للفرنسيس إن كلًّا ... له من المسلمين شاكر
لأنه محسن إلينا ... يقوده نحونا العساكر
أركبهم أدهمًا خضمًا ... ورابح الشر فهو خاسر
ورام باباهمو أمورًا ... فأخلفت ظنه المقادر
وأذهل القوم هول حرب ... تشخص من خوفه النواظر
فإن يعد طالبًا لثأر ... من أرض دمياط فليبادر

---

(١) الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار ص١٠٢ .
(٢) الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار ص١٠٢ .
(٣) البداية والنهاية (١٧/ ٣١٧).
(٤) شذرات الذهب (٧/ ٤٢٩).

فذلك البحر تعرفوه والسيف ماض والجيش حاضر
أعاده الله عن قريب لمثلها إنه لقادر
بحيث لم يبق للنصارى من بعد كسر الصليب جابر
ويستريح المسيح منهم من كل علج[١] وكل كافر

ومن الطريف أنه عندما ترك لويس التاسع وجيشه على تونس في (١٢٧٠م/٦٦٨هـ) -وهي الحملة التي تسمى الثامنة- قال شاب من أهل تونس اسمه أحمد بن إسماعيل الزيات:

يا فرنسيس هذه أخت مصر فتأهب لما إليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبر وطواشيك منكر ونكير[٢]

ففي هذين البيتين تذكير لما لاقاه لويس التاسع في مصر من هزائم وضائقات، كما كان هذا فألًا حسنًا، فإنه مات وهو على محاصرة تونس[٣].

تاسعًا: مقتل تورنشاه وزوال الدولية الأيوبية:

تباينت الآراء واختلف المؤرخون حول شخصية تورانشاه، وتعددت أسباب قتله في نظرهم، ولكنهم اجتمعوا على قتله على يد مماليك أبيه البحرية[٤]، ويرى الدكتور قاسم عبده قاسم: بالرغم من الانتصار الإسلامي الرائع على الحملة الصليبية فإن السلطان الأيوبي تورانشاه كان إخفاقًا أيوبيًّا جديدًا مهد الطريق أمام نهاية الدولة الأيوبية وصعود الدولة الجديدة التي شادها المماليك، لقد فشل تورانشاه في الاستجابة للتحديات التي كانت تفرضها الظروف التاريخية، وبدلًا من تكريس جهوده لتوحيد المسلمين للقضاء على الخطر الصليبي تمامًا، بدأ يدبر للتخلص من (شجرة الدر) وكبار أمراء المماليك[٥]، وقد ذكر المؤرخون مجموعة من الأسباب أدَّت لقتل تورنشاه منها:

١- أن هؤلاء المماليك خدموه أتمَّ خدمة وانتظروا مجازاتهم، واعتقدوا أنه سيملأ فراغ والده ولكنه قدم أمراءه وتوعد مماليك أبيه -الذين رباهم كأولاده- وقطع أخبارهم ونهب أموالهم ولم يعمل بوصية أبيه تجاههم[٦].

٢- ومن الأسباب التي ذكرت في قتله أن مماليكه أشاروا عليه بصلح الفرنج بعد أن كان ملكهم في يديه حتى لا يحتاج إلى شجرة الدر أو مماليك أبيه؛ لأنهم مسيطرون على الحكم،

---

(١) المقصود بالعلج هنا: الكافر.
(٢) فوات الوفيات (١/ ٨٤، ٨٥) العدوان الضليبي ص٢٦٤ .
(٣) خطط المقريزي (١/ ٢٢٣) العدوان الصليبي ص٢٦٥ .
(٤) الخطط (٢/ ٢٣٦) النجوم الزاهرة (٦/ ٣٦٤).
(٥) في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص١٤٨ .
(٦) الجواري والغلمان في مصر ص٤٠٨، كنز الدرر (٧/ ٣٨١).

وسولوا له أن هؤلاء هم أعداؤه، وأن في صلح الملك وتركه وأخذ الأموال والجواهر صلاح الحال وتسليم دمياط، فشعر أمراء أبيه بتغيره عليهم واستهتاره بما قاسوه حتى وصلوا إلى هذا النصر على الصليبيين فدبروا قتله[١].

٣- وقيل: إن من أسباب قتله أنه كان قد وعد أقطاي حين ذهب إليه يستدعيه من حصن كيفا أن يُؤَمِّره ولم يفِ بوعده فحقد عليه أقطاي[٢]، ولما ذكَّره بوعده على لسان بعض خواصه ردَّ قائلًا: (أعطيه جبًّا مليحًا يليق به)[٣].

٤- وقيل: من أسباب قتل المماليك له أنه تعرض لحظايا أبيه[٤]، فلماذا حظايا أبيه وقد كان في عصر من الممكن الحصول فيه على أكبر عدد من المماليك والجواري والحظايا، وكان طبيعيًّا أن لكل سلطان حظايا، فلم تكن ثروة ثمينة لا يستطيع الحصول على مثلها[٥].

٥- وقيل: من أهم أسباب قتله أنه طالب زوجة أبيه شجرة الدر بمال أبيه والجواهر[٦]، وهدَّدها فخافت منه فتلاقت مخاوفها مع مخاوف زعماء المماليك وغضبهم بعد أن حرمهم السلطان الجديد من إقطاعاتهم، فاستقر الرأي على ضرورة التخلص من آخر السلاطين الأيوبيين في مصر[٧].

٦- وكان حبه لشرب الخمر أحد تصرفات تورانشاه التي أشارت حنق المماليك البحرية عليه وذكرها معظم من أرَّخ لتلك الفترة، فقد كان يشرب الخمر حتى تدور رأسه، ويأتي بالشموع ويسميها باسم مماليك أبيه ويطيح بها بسيفه، وقد حذره أبوه في وصيته بترك شرب الخمر، ولكن يبدو أنه لم يسمع النصيحة وقد جاء في الوصية: يا ولدي، قلدت إليك أمور المسلمين، فافعل فيهم ما أمرك به الله ورسوله، يا ولدي إياك والشراب، فإن جميع الآفات وما تأتي على الملوك إلا من الشراب[٨].

٧- وذكر ابن العبري أن أحد تصرفات تورانشاه التي أثارت حفيظة البحرية ضده حين علم أن الملكة زوجة الملك لويس التاسع المعتقل لديه ولدت له ابنًا في دمياط فسيَّر إليها المعظم عشرة آلاف دينار ذهبًا ومهدًا للطفل ذهبيًّا وحللًا ملكية[٩]، وغير ذلك من الأسباب، والمهم أن نعرف حقيقة مهمة وهي أنهم شعروا باختلاف شديد في معاملة السلطان لهم ومعاملة تورانشاه المختلفة، فقد كان الملك الصالح يحب مماليكه ويهتم بهم ويغدق عليهم الكثير من الإنفاق،

(١) السلوك نقلًا عن الجواري والغلمان ص٤٠٩ .
(٢) نهاية الأرب (٢٩/ ٣٦٠) الجواري والغلمان ص٤٠٩ .
(٣) كنز الدرر (٧/ ٣٨١، ٣٨٢) الجواري والغلمان ص٤٠٩ .
(٤) شفاء القلوب نقلًا عن الجواري ص٤٠٩ .
(٥) الجواري والغلمان في مصر ص٤٠٩ .
(٦) السلوك نقلًا عن الجواري والغلمان ص٤١٠ .
(٧) في تاريخ الأيوبيين والمماليك، قاسم عبده ص١٤٨ .
(٨) نهاية الأرب (٢٩/ ٣٤٧) الجواري والغلمان ص٤١٠ .
(٩) الجواري والغلمان ص٤١٠ .

وقد بلغ من شدة اهتمامه بهم أنه ذكرهم في وصيته لابنه تورانشاه: الولد يتوصى بالخدم محسن ورشيد، والخدام المقدمين لا تغيرهم، فما قدمتُ أحدًا من الخدام ولا من المماليك إلا بعد ما تحققت نصحه وشفقته، وأستاذ الدار وأمير جاندار تتوصى بهم، وكذلك الحسام لا تغيرهم فإني اعتمد عليهم في جميع أموري[١]

وقد عينت في ورقة عند الأخ فخر الدين عشرين من المماليك تقدمهم تعطي كل واحد كوسي[٢] وعلم وتحسن إليهم وتتوصى بالمماليك غاية الوصية، فهم الذين كنت اعتمد عليهم وأثق بهم، وهم ظهري وساعدي، تتلطف بهم وتطيب قلوبهم وتوعدهم بكل خير، ولا تخالف وصيتي، ولولا المماليك ما كنت قدرت أركب فرسي ولا أروح إلى دمشق ولا إلى غيرهم، فتكرمهم وتحفظ جانبهم[٣] وجاء في الوصية: والوصية بجميع الأمراء وأكرمهم واحترمهم وارفع منزلتهم فهم جناحك الذي تطير به وظهرك الذي تركن إليه، وطيِّب قلوبهم وزيد في إقطاعهم، وزيد كل أمير على ما معه من العدة عشرين فارسًا، وأنفق الأموال، وطيِّب قلوب الرجال يحبوك وتنال غرضك في دفع هذا العدو[٤]

ومن الراجح أن هؤلاء المماليك توقعوا بعد الانتصارات التي حققوها والصعاب التي واجهوها في سبيل تخليص البلاد من ذلك الخطر الصليبي، وحفظ البلاد للسلطان وحتى مجيئه وحلفهم له وتنصيبهم إياه سلطانًا على البلاد أن يقدر ذلك الجميل ويكافئهم كما تعودوا من أبيه[٥]، ويبدو أن الأمر كان مغايرًا تمامًا لما توقعوه، وبعد أن كان لهم الحل والعقد والأمر والنهي آثر مماليكه ودأب على تهديد هؤلاء ووعيدهم، فلم يستطيعوا تقبل الأمر كما هو فقتلوه[٦]، وكانت أكبر أخطاء تورانشاه أنه أقام بنيابة السلطنة الأمير جمال الدين أقوش النجيبي بدلًا من الأمير حسان الدين أبي علي الذي كانت له هيبة في عهد الصالح، وهو الذي كان قد أمر الخطباء بالدعوة لتورانشاه على المنابر يوم الجمعة بعد الدعاء لأبيه، وأن ينقش اسمه على السكة بعد اسم أبيه، وهو الذي حرَّض على استدعائه في سرعة حتى لا يتغلب الأمير فخر الدين على البلاد عقب وفاة الصالح[٧]، فكان من الممكن أن يسانده ويتقوى به[٨]

١- **كيفية مقتل تورانشاه**: ونتيجة لبعض التصرفات غير المسئولية وعدم أخذ الحيطة اللازمة من تورانشاه، قرَّر المماليك البحرية التخلص من تورانشاه وتزعم المؤامرة مجموعة من الأمراء البحرية منهم فارس الدين أقطاي، وبيبرس البندقداري، وقلاون الصالحي، وأيبك التركماني،

---

(١) المصدر نفسه ص٤١١، نهاية الأرب (٢٩/ ٣٥٠).

(٢) الكوس: من شعارات السلطنة والإمارة، وهي ضوج من نحاس.

(٣) نهاية الأرب (٢٩/ ٣٥١) الجواري والغلمان ص٤١١

(٤) نهاية الأرب (٢٩/ ٣٥١) الجواري والغلمان ص٤١١

(٥) مرآة الزمان نقلًا عن الجواري والغلمان ص٤١٣

(٦) الجواري الغلمان ص٤١٤

(٧) المصدر نفسه ص٤١٤

(٨) المصدر نفسه ص٤١٤

وتمَّ تنفيذ المؤامرة في (صباح يوم الاثنين ٢٨ محرم ٦٤٨هـ/ ٢ آيار ١٢٥٠م) وكان السلطان آنذاك في فارسكور يحتفل بانتصاره، ويتهيأ لاستعادة دمياط[(١)]، وجلس على عادته ليتناول طعامه، فتقدم إليه بيبرس البندقداري، وضربه بسيفه ضربة تلقاها بيده، فقطعت بعض أصابعه، فأسرع تورانشاه إلى البرج الخشبي الذي أقامه على النيل ليمضي فيه بعض وقته واحتمى به وهو يصبح، مَن جرحني؟ فقالوا: (الحشيشية)، فقال: لا والله إلا البحرية! والله لا أبقيت منهم بقية، وضمد جراحه، فاجتمع أمراء المماليك وقرروا قتله وقالوا: بعد جرح الحية لا ينبغي إلا قتلها، ودخل ركن الدين بيبرس وفارس الدين أقطاي وغيرهما من أمراء المماليك البحرية إلى البرج وهم شاهرون سيوفهم ففر تورانشاه إلى أعلى البرج، وأغلق بابه، والدم يسيل من يده، فأضرموا النار في البرج ورموه بالنشاب، فألقى تورانشاه نفسه من أعلى البرج، وهو يصيح مستنجدًا: ما أريد مُلْكًا، دعوني أرجع إلى الحصن يا مسلمين، أما فيكم من يصطعني ويجيرني[(٢)]، فلم يجبه أحد، وأخذ يركض نحو النيل ونبال المماليك تأخذه من كل جانب حتى ألقى بنفسه في الماء على أمل أن يسبح إلى إحدى سفنه الراسية ليعتصم بها، ولكن سرعان ما لحق به أقطاي فقتله وتركت جثته على شاطئ النيل ثلاثة أيام دون أن يتجاسر أحد على دفنه، إلى أن شفع فيه رسول الخليفة العباسي، فحمل إلى الجانب الآخر من النهر ودفن، بعد أن حَكَمَ واحدًا وستين يومًا[(٣)].

وقيل: كانت مدة سلطته بالمنصورة نحو أربعين يومًا، لم يدخل فيها إلى القاهرة ولا طلع قلعة الجبل ولم يعتلي سرير الملك[(٤)]، وبوفاة تورانشاه انقضت دولة بني أيوب بعد أن أقامت إحدى وثمانين سنة وسبعة عشر يومًا، وكان تورانشاه آخر من تولى السلطنة من بني أيوب[(٥)]، على أن بعض المصادر ذكرت أن الدولة الأيوبية انتهت بخلع شجرة الدر[(٦)]، فقد ذهب مجموعة من المؤرخين أنه بتولي عز الدين أبيك التركماني انتهى حكم الدولة الأيوبية من مصر، فقد اعتبر بعض المؤرخين حكم شجرة الدر استمرارًا للحكم الأيوبي، وأما في بلاد الشام فقد حكم الدولة الأيوبية لعدة سنوات أخرى[(٧)].

وسيأتي الحديث مفصلًا بإذن الله تعالى عن شجرة الدر والأيوبيين في بلاد الشام في كتابنا القادم عن المماليك وبيان جهودهم العظيمة للتصدي للمشروعين المغولي والصليبي، ودورهم في إحياء الحركة العلمية الكبيرة التي لا زالت الأمة عالة على علماء ذلك العصر.

---

(١) تاريخ الأيوبيين ص٣٩٠ .
(٢) النجوم الزاهرة-(٦/ ٣٧١).
(٣) كتاب الروضتين نقلًا عن الدولة الأيوبية، د/ دعكور ص٢٦٢ .
(٤) بدائع الزهور، ابن إياس (١/ ٢٨٥) الجواري ص٤١٦ .
(٥) بدائع الزهور نقلًا عن الجواري والغلمان ص٤١٦ .
(٦) عجائب الآثار للجبرتي (١/ ٥١) الجواري ص٤١٦ .
(٧) الدولة الأيوبية، د/ دعكور ص٢٦٦ .

المبحث الثالث

الشيخ عز الدين بن عبد السلام
من مشاهير عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب

أولًا: اسمه ونسبه:

هو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسن بن محمد بن مهذب السلمي المغربي أصلًا، الدمشقي مولدًا، ثم المصري دارًا ووفاة، والشافعي مذهبًا[١]، يكنى بأبي محمد، ولقب بعدة ألقاب؛ بعز الدين، وشاع بين الناس: الإمام العز، ولُقِّب بسلطان العلماء، لقَّبه به تلميذه ابن دقيق العيد، كما لُقِّب بشيخ الإسلام[٢]، واتفق أنه ولد في دمشق، واختلف في تحديد سنة ولادته، فقيل: بدمشق سنة (٥٧٧هـ).

ثانيًا: نشأته:

كان العز بن عبد السلام يعيش في أسرة فقيرة مغمورة لم يكن لها مجد أو سلطان أو منصب، أو علم، فقد ولد العز بن عبد السلام في دمشق الشام، وهي وقتئذ مركز مهم للعلم والمعرفة وقبلة للعلماء والفقهاء، وخط مواجهة أمامي مع الصليبيين الغزاة الذين احتلُّوا مدنًا وحصونًا عديدة في فلسطين وساحل بلاد الشام، كما كانت دمشق ممتلئة بنعم الله وخيراته الوفيرة؛ من ماء عذب وزراعة وصناعة وتجارة درت عليها الرزق الواسع والخير الوفير، في هذه المدنية العريقة ولد العز بن عبد السلام ونشأ في ربوعها وتنسم هواءها وترعرع في أجوائها، وقد انشغلت أسرته بطلب الرزق عن طلب العلم، إلا أن العز كان منذ نشأته الأولى عفيفًا شريفًا يملكُ نفسًا أبية؛ إذ لم يُعرف عنه أنه امتهن مهنة تزري بصاحبها، أو تحط من شأنه، وكان رحمه الله شابًا متدينًا، متعبدًا رغم فقره وكده على رزقه، ولا أدل على ذلك من مبيته في المسجد الليالي الطوال[٣]، ينتظر الصلاة كي لا تفوته الجماعة، أو يغيب عن الصلاة والعبادة فيه.

وقد ذكر السبكي (ت٧٧١هـ) قوة إيمان هذا الشاب وشدة فقره وتدينه حيث قال: سمعت الشيخ الإمام يقول: كان الشيخ عز الدين في أول أمره فقيرًا جدًّا، ولم يشتغل إلا على كبر، وسبب ذلك أنه كان يبيت في الكلاسة[٤] من جامع دمشق، فبات بها ليلة ذات برد شديد فاحتلم فقام مسرعًا، ونزل في بركة الكلاسة فحصل له ألم شديد، وعاد فنام فاحتلم ثانيًا، فعاد إلى

---

(١) مقاصد الشريعة عند الإمام العز بن عبد السَّلَام ص٤١ .
(٢) العز بن عبد السلام، محمد الزحيلي ص٣٩ .
(٣) النجوم الزاهرة (٧/ ٢٠٩) مرآة الجنان (٤/ ١٥٨).
(٤) الكلاسة: زاوية في الجانب الشمالي من جامع دمشق.

البركة لأن أبواب الجامع مغلقة وهو لا يمكنه الخروج، فطلع فأغمى عليه من شدة البرد . . . ثم سمع النداء في المرة الأخيرة: يابن عبد السلام، أتريد العلم أم العمل؟ فقال الشيخ عز الدين: العلم لأنه يهدي إلى العمل، فأصبح وأخذ التنبيه فحفظه في مدة يسيرة، وأقبل على العلم فكان أعلم أهل زمانه ومن أعبد خلق الله[١].

في هذه الرواية دلالة واضحة على تدين العز، وقوة إيمانه، ونشأته الصالحة التقية؛ حيث لا يحتمل مثل هذه المشاق إلا من عرف ربه، وسلك منهج الحق، وتعلق قلبه بالمساجد، لا يخرج منها إلا ليعود إليها، فكان مثال الشاب الذي نشأ في طاعة الله، عازفًا عن طيش الشباب، وهوى النفس، فالشاب الذي يتحرج من الاستسلام إلى دفء الفراش جُنُبًا في ليلة شديدة البرد، لا شك يعرف قيمة عمله، ويتحلى بوعي ديني كبير، وحس إيماني عميق يجعله يبادر إلى التطهر عقب اكتشاف الأثر دون تباطؤ أو كسل[٢].

ثالثًا: شيوخه في طلب العلم:

انقطع سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام للعلم والتعلم بعد ما ناهز الاحتلام كما تدل على ذلك حادثة مبيته في الكلاسة من جامع دمشق، وشمَّر عن ساعد الجد وشحذ الهمة، فحفظ المتون، ودرس الكتب، وتردد على كبار الشيوخ في عصره ليعوض ما فاته في صغره، كما أن كبر سنه وذكاءه أعاناه على التفوق في تحصيل العلم وإدراك مسائله الغامضة، وتحليل رموزه، والذي ساعده أيضًا على الاستزادة من العلم والمعرفة الجو العلمي الذي كانت تعيشه بلاد المشرق بصفة عامة ومدينة دمشق بصفة خاصة؛ حيث كانت موطنًا لعدد كبير من فحول العلماء ومشاهيرهم فنهل منهم العلم والمعرفة، وتحلى بمكارم أخلاقهم، واقتدى بحسن سلوكهم حتى أصبح كما قال السبكي رحمه الله: أعلم أهل زمانه ومن أعبد خلق الله تعالى[٣].

قال الداودي (ت٩٤٥هـ): كان العز بن عبد السلام يقول: ما احتجت في علم من العلوم إلى أن أكمله على الشيخ الذي أقرأ عليه، وما توسطته على شيخ من المشايخ الذين كنت أقرأ عليهم إلا وقال لي الشيخ: قد استغنيت عني، فاشتغل مع نفسك، ولم أقنع بذلك، بل لا أبرح حتى أكمل الكتاب الذي أقرؤه في ذلك العلم[٤]، وكان يقول: مضت لي ثلاثون سنة لا أنام حتى أمر أبواب الأحكام على خاطري[٥]. وقد تلقى العز رحمه الله علوم الحديث والفقه والأصول والتفسير والتصوف واللغة على أكابر وجهابذة علماء دمشق التي كانت قبلة طلاب العلم وموطن العلماء الأفذاذ، البارعين في شتى العلوم والفنون، فتردد عليهم الشيخ عز الدين فنهل من علمهم

(١) طبقات الشافعية.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) طبقات الشافعية الكبرى (٥/ ٨٣) فتاوى العز ص٦٩ .
(٤) طبقات المفسرين للداودي (١/ ٣١٣) المصدر نفسه ص٦٩ .
(٥) رفع الإصر عن قضاة مصر ص٧٠، فتاوى العز ص٧٠ .

الصافي الفياض، فانصقلت مواهبه، وتميزت شخصيته وتأثر بهم وسار على منهجهم في الورع والزهد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[١]، وقال ابن كثير: وسمع كثيرًا واشتغل على فخر الدين ابن عساكر وغيره، وبرع في المذهب، وجمع علومًا كثيرة، وأفاد الطلبة، ودرَّس بعدة مدارس بدمشق، وولي خطابتها، ثم سافر إلى مصر، ودرَّس وحكم وانتهت إليه رياسة الشافعية وقصد بالفتوى من الآفاق[٢].

رابعًا: شيوخ العز رحمه الله:

١- **فخر الدين ابن عساكر**: هو أبو منصور عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله الدمشقي، الملقب فخر الدين، المعروف بابن عساكر، شيخ الشافعية بالشام، وفقيه زمانه، وكان محدثًا صالحًا، زاهدًا كثير التهجد، حسن الخَلْق والخُلُق، كثير الأدب والذكر، منقطعًا للعلم والعبادة، وجمع بين العلم والعمل، وهو من أسرة اشتهرت بالعلم والفضل والحفظ، وكان قويًا في الحق لا يهاب سطوة ظالم، ولا يسكت على منكر أو مخالفة للشرع، وتوفي سنة (٦٢٠هـ) وطُلب للقضاء فامتنع، وعرضت عليه مناصب ولايات دينية فأباها، وأنكر على الملك المعظم بيع الخمور بدمشق، فمنعه من التدريس في أهم المدارس، وهو ابن أخي الحافظ أبي القاسم علي بن عساكر، صاحب (تاريخ دمشق) لازمه العز كثيرًا، وأخذ منه الفقه والحديث، وتأثر به في علمه وأخلاقه وسلوكه[٣].

٢- **جمال الدين الحرستاني**: هو عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل بن علي، قاضي القضاة، جمال الدين، أبو القاسم الخزرجي الأنصاري، الدمشقي، المعروف بابن الحرستاني، قاضي دمشق، من ذرية سعد بن عبادة رضي الله عنه، جمع الحديث، وسمَّاه الذهبي: مسند الشام، شيخ الإسلام، وكان إمامًا فقيهًا عارفًا بالمذهب، ورعًا، صالحًا، محمود الأحكام، حسن السيرة، كبير القدر ... وولي القضاء بدمشق نيابة... ثم إنه ولي قضاء القضاة استقلالًا في سنة (٦١٢هـ)[٤]، وكان عالمًا صالحًا زاهدًا على طريقة السلف في لباسه وعفته، وكان صارمًا، عادلًا، ولا تأخذه في الله لومة لائم، وله حكايات عظيمة مع الملك المعظم عيسى في أحكامه، ولم تفته صلاة بجامع دمشق في جماعة إلا إذا كان مريضًا، وعمَّر دهرًا طويلًا، وتوفي سنة أربع عشرة وستمائة وله ٩٥ سنة، وكان من أعدل القضاة وأقومهم بالحق، تتلمذ عليه الشيخ عز الدين بن عبد السلام وسمع منه الحديث وأخذ عنه الفقه.

---

(١) فتاوي شيخ الإسلام العز بن عبد السلام ص٧٠ .
(٢) البداية والنهاية (١٧/ ٤٤١).
(٣) وفيات الأعيان (٢/ ٣١٦) العز بن عبدالسلام للزحيلي ص٥٧ .
(٤) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٨٠-٨٢).

وقال فيه الشيخ عز الدين: إنه لم ير أفقه منه، وعليه كان ابتداء اشتغاله، ثم صحب فخر الدين ابن عساكر ورجح الشيخ عز الدين ابن الحَرستاني في علمه على ابن عساكر، وكان الحرستاني حفظ (الوسيط) للغزالي[١]، وقال سبط بن الجوزي: كان زاهدًا، عفيفًا، ورعًا، نزِهًا، لا تأخذه في الله لومة لائم، اتفق أهل دمشق على أنه ما فاتته صلاة بجامع دمشق في جماعة إلا إذا كان مريضًا، ثم ساق حكايات من مناقبه وعدله في قضاياه، وأتى مرة بكتاب، فرمى به وقال: كتاب الله قد حكم على هذا الكتاب، فبلغ العادل قوله، فقال: صدق، كتاب الله أولى من كتابي، وكان يقول للعادل: أنا ما أحكم إلا بالشرع، وإلا فأنا ما سألتك القضاء، فإن شئت فأبصر غيري[٢]

وقال أبو شامة: ابنه العماد هو الذي ألحَّ عليه حتى تولى القضاء، وحدثني ابنه قال: جاء إليه ابن عُنَيْن، فقال: السلطان يُسلِّم عليك ويوصي بفلان فإن له محاكمة، فغضب وقال: الشَّرع ما يكون فيه وصية[٣]، وقال المنذري: سمعت منه وكان مهيبًا، حسن السَّمت، مجلسه وقار وسكينة، ويُبالغ في الإنصات إلى من يقرأ عليه[٤]

٣- **سيف الدين الآمدي**: هو علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي، أبو الحسن المعروف بسيف الدين الآمدي أحد أذكياء العالم، وُلد بعد سنة (٥٥٠هـ) بيسير بمدينة آمد، وقرأ بها القرآن، وحفظ كتابًا في مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ثم قَدِم بغداد، فقرأ بها القراءات، وتفقه على أبي الفتح بن المنى الحنبلي، ثم انتقل إلى مذهب الشافعي، وصحب أبا القاسم بن فضلان، وبرع عليه في الخلاف، وتفنَّن في علم النظر، وأحكم الأصلين والفلسفة وسائر العقليات، ثم دخل مصر وتصدَّر للإقراء وتخرَّج به جماعة، ثم وقع التَّعصب عليه، فخرج من القاهرة متخفيًا ثم قدم دمشق، ودرس بالمدرسة العزيزية، ثم أخذت منه وتوفي بدمشق سنة (٦٣١هـ)، له تصانيف تربو على العشرين كلها منقَّحة حسنة، منها (الأبكار) في أصول الدين و(الأحكام) في أصول الفقه و(شرح جدل الشريف) وقد درس عليه العز الأصول واستفاد منه كثيرًا، وتأثر به، ويبدو ذلك في كتاب العزِّ (قواعد الأحكام في مصالح الأنام) وكان من المعجبين به، وبطريقة تدريسه ومناظرته، وقد نقلت عنه عبارات تشيد بذلك؛ منها قول العزّ: ما سمعت أحدًا يُلقي الدرس أحسن منه، كأنه يخطب، وإذا غيَّر لفظًا في (الوسيط) للغزالي كان لفظه أمسَّ بالمعنى من لفظ صاحبه، وقال: ما علمنا قواعد البحث إلا من سيف الدين الآمدي[٥] وقال: لو ورد على الإسلام متزندق يشكِّك ما تعيَّن لمناظرته غير الآمدي لاجتماع أهلية ذلك فيه[٦]

---

(١) المصدر نفسه (٢٢/ ٨٢).
(٢) سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٨٣).
(٣) المصدر نفسه (٢٢/ ٨٣).
(٤) المصدر نفسه (٢٢/ ٨٣).
(٥) العز بن عبد السلام سلطان العلماء، فاروق عبد المعطي ص١٨
(٦) طبقات السبكي (٨/ ٣٠٦-٣٠٨).

ولما توفي سيف الدين الآمدي خرج الإمام العز في جنازته وحضر دفنه في سفح جبل قاسيون[١].

٤- **القاسم بن عساكر**: هو القاسم بن علي بن الحسن بن هبة الله، وهو الحافظ أبو محمد ابن الحافظ أبي القاسم بن عساكر بهاء الدين، كتب الكثير حتى أنه كتب تاريخ والده (تاريخ دمشق) مرتين، وهو من أسرة علمية وله كتاب (فضل المدينة) و(فضل المسجد الأقصى) و(الجهاد) وتولى مشيخة دار الحديث النورية بعد والده، ولم يتناول أجرًا على ذلك، بل كان يدفعه للطلبة، وكان ناصر السنة في إماتة البدعة، سمع منه خلق كثير، وأملى كثيرًا، وحدَّث، ودخل مصر وانتفع به أهلها وعاد إلى دمشق ومات بها سنة (٦٠٠هـ) وكان يحب المزح، وكثير النوافل والذكر، معرضًا عن المناصب بعد عرضها عليه، وكان حسن المعرفة، شديد الورع، كثير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قليل الالتفات إلى الأمراء وأبناء الدنيا، سمع العز منه الحديث، وانتفع به في منهجه وسلوكه[٢].

٥- **عبد اللطيف بن شيخ الشيوخ**: ومن شيوخ العز رحمه الله عبد اللطيف بن شيخ الشيوخ، وهو عبد اللطيف بن إسماعيل بن شيخ الشيوخ أبي سعد، وكنيته أبو الحسن، ولقبه ضياء الدين، وهو أخو شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن إسماعيل الذي قدم رسولًا على صلاح الدين الأيوبي من بغداد مرارًا، سمع الحديث من شيوخ عصره ومن والده وآخرين، كان صالحًا، ثقة، رحل إلى مصر والقدس والخليل، وقدم دمشق ولقي شيوخها وأخذ عنه العز رحمه الله الحديث، وسمع منه، وتأثر بأخلاقه الفاضلة وهمته العالية، توفي رحمه الله في دمشق ودفن فيها سنة (٥٩٦هـ)[٣].

٦- **الخشوعي**: ومن شيوخ العز أيضًا أبو طاهر بركات بن إبراهيم بن طاهر الخشوعي عن مسند الشام في عصره وطال عمره، حتى شاخ تلامذته، وقد انتفع به خلق كثير منهم العز بن عبد السلام الذي تلقى العلم على يديه منذ أيامه الأولى، وقد اختلف في تاريخ وفاته، فذكر ابن كثير أنه توفي سنة (٥٩٧هـ)[٤]، وقال ابن تغْري بردي: توفي الخشوعي سنة (٥٩٨هـ)[٥].

٧- **حنبل الرصافي**: هو أبو علي حنبل بن عبد الله بن الفرج بن سعادة المكبر بجامع الرصافة، وكان فقيرًا جدًّا في أول حياته ثمَّ حصَّل مالًا طائلًا، وقد سمع مسند الإمام أحمد من ابن الحصين، وهو آخر من رواه عنه، وقد رحل إلى إربل والموصل ودمشق، وأسمع المسند

---

(١) النجوم الزاهرة (٦/ ٢٨٥).
(٢) طبقات الشافعية (٨/ ٣٥٢) الأعلام (٦/ ١٢).
(٣) النجوم الزاهرة (٦/ ١٥٩) فتاوى شيخ الإسلام عز الدين ص٧٤ .
(٤) البداية والنهاية نقلًا عن فتاوى شيخ الإسلام عز الدين ص٧٤ .
(٥) النجوم الزاهرة (٦/ ١٨١) فتاوى شيخ الإسلام عز الدين ص٧٤ .

بهذه البلاد، وقد سمع منه الملك المعظم عيسى بن العادل في جمع كثير في الجامع الأموي، وكان كثير الأمراض، توفي ببغداد سنة أربع وستمائة وله تسعون سنة، وآل ماله إلى بيت المال؛ لأنه لا وارث له، وقد سمع منه العز بن عبد السلام[(١)].

٨- **عمر بن طبرزد:** هو أبو حفص عمر بن محمد بن يحي المعروف بابن طبرزد الدّارقري، ولد سنة (٥١٦هـ) وسمع حديثًا كثيرًا من أبي غالب بن البنّاء وأبي القاسم بن الحصين وكان معلمًا للصبيان بدار القزّ ببغداد، وسافر مع حنبل إلى الشام، ثم عاد إلى بغداد وقد جمع مالًا كثيرًا وتوفي سنة (٦٠٧هـ) وعاد ماله إلى بيت المال؛ لأنه لا وارث له[(٢)].

٩- **شهاب الدين السُّهروردي:** ومن شيوخ العز الذين أثروا فيه وتأثر بهم الإمام العارف أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن عمويه بن سعيد بن الحسن السهروردي ينتهي نسبه إلى أبي بكر الصديق ﷺ، ولد سنة (٥٣٠هـ) بسهرورد، وقدم بغداد، فصحب عمه وأخذ عنه التصوف والوعظ، وسمع الحديث على شيوخ عصره، وتفقه على علماء بغداد، كما صحب الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت٥٦١هـ) رحمه الله، فكان عالمًا فاضلًا، ومحدِّثًا حافظًا، وعابدًا زاهدًا، أقبل على الله وسلك طريق الآخرة، واستغرق أوقاته بالعبادات والأوراد والأذكار، ولزم باب الله تعالى، ففتح الله عز وجل عليه حتى صار أوحد زمانه، وفريد عصره، دعا الخلق إلى الله تعالى، كان كلامه آخذًا بمجامع القلوب، ويدخل إلى زوايا النفوس، فيحرك مكامنها ... وإليه المنتهى في تربية المريدين، من أهم كتبه (عوارف المعارف) فانتفع به خلق كثير، منهم إمامنا العز بن عبد السلام؛ حيث لازمه وأخذ عنه العفة والورع والزهد والتصوف، توفي ببغداد سنة (٦٣٢هـ).

فهولاء هم أهم شيوخ العز بن عبد السلام الذين أخذ عنهم العلم والفقه والحديث والأصول والتفسير واللغة والتصوف، وتأثر بسلوكهم في الحياة، وهناك شيوخ آخرون سمع منهم العز، وأخذ عنهم، لا يمكن حصرهم لكثرتهم[(٣)]، وهذا الشيخ شهاب الدين السهروردي يختلف عن الذي قُتل في عهد صلاح الدين.

خامسًا: تلاميذ العز بن عبد السلام:

لقد قصد العز بن عبدالسلام تلاميذ نجباء، اجتمعوا عليه من شتى أقطار الأرض، لينهلوا من علمه، ويتعلموا من فقهه، وليشربوا من نبعه الفياض، حتى تخرج على يديه فحول العلماء، وجهابذة الفقهاء، وساعده على ذلك تفرغه للتدريس والتعليم في شتى فروع علم الشريعة، فألقى

(١) تاريخ دول الإسلام (٢/ ١١١).
(٢) النجوم الزاهرة (٦/ ٢٠١) العز بن عبدالسلام سلطان العلماء ص٢٠ .
(٣) فتاوى شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ص٧٥، ٧٦ .

دروسًا في الفقه والتفسير والأصول والتصوف، والوعظ والإرشاد، فتعلقت به العامة والخاصة، وطمع كل طالب علم أن يرى هذا الشيخ لينال من بركاته وفيوضاته، وعلومه الغزيرة في كل فن، فمن العسير أن نحيط علمًا بكل تلامذته وطالبي علمه، فيفترض أن كل طلاب العلم في مصر ومن حولها أو مرَّ بها في ذلك العصر تتلمذ على يد الشيخ؛ وذلك لذيوع وانتشار سمعته[(١)].

قال العماد: ورحل إليه الطلبة من سائر البلاد[(٢)]، ومن أهم تلاميذ العز بن عبدالسلام الذين نهلوا من علمه وتربوا على يديه هم:

١- **شيخ الإسلام ابن دقيق العيد**: هو تقي الدين أبو الفتح محمد بن مجد الدين علي بن وهب بن مطيع القشيري، وُلد في الخامس والعشرين من شعبان سنة (٦٢٥هـ) وتفقه ببلده قوص -إحدى مدن صعيد مصر- على والده وكان مالكي المذهب، ثم رحل إلى القاهرة، وتفقَّه على العزِّ بن عبد السلام، فحقَّق المذهبين، قال ابن السبكي في ترجمته: شيخ الإسلام الحافظ الزاهد الورع الناسك المجتهد المطلق ذو الخبرة التامَّة بعلوم الشريعة، الجامع بين العلم والدين، والسالك سبيل السادة الأقدمين، أكمل المتأخرين[(٣)]، وقد وُلِّي قضاء القضاة على مذهب الشافعي بمصر بعد تقي الدين عبد الرحمن بن عبد الوهاب ابن بنت الأعزِّ بعد إباءٍ شديد، وعزل نفسه أكثر من مرة ثم يُعاد[(٤)]، توفي في حادي عشر صفر سنة (٧٠٢هـ) وكان جريئًا في الحق متأثرًا بشيخه العز في هذا المجال؛ حيث كان ينادي عامة الناس السلطان فما دون: (يا إنسان) دون ألقاب ومقدمات.

وله مواقف مع ملوك عصره تدل على جرأته وصرامته وقوله الحق لا يخاف في الله لومة لائم، متشبهًا بشيخه العز بن عبد السلام، وكان يُجلُّه ويقتفي أثره ويسير على نهجه، توفي رحمه الله سنة (٧٠٢هـ) ودفن بالقرافة تاركًا خلفه ثروة علمية هائلة أهمها (الإلمام في أحاديث الأحكام) وغيره[(٥)]، وكانت له مواقف شجاعة من السلطان محمد بن قلاون حينما أراد أن يجمع المال من الرعيَّة لحرب التتار، وقد أفتاه بجواز ذلك ابن الخشَّاب، ولكن ابن دقيق العيد منعه من ذلك؛ لأن الأمراء لديهم الأموال والذهب، وأن فيهم من جهَّز ابنته لتُزَفَّ إلى زوجها وأنه عمل في شوارها الجواهر واللآلئ والحلي والذهب واتخذ فيها الأواني من الفضة، وأن منهم من رصَّع مدارس زوجته بالجواهر[(٦)]، وهذا شبيه بموقف العزِّ من الملك المظفر قطز حينما أراد أن يأخذ المال من الرعيَّة لحرب التتار فمنعه العزّ من ذلك حتى يحضر الأمراء ما عندهم من الذهب والفضة والسّروج المُذهَّبة[(٧)] وغيرها.

---

(١) فتاوى شيخ الإسلام عز الدين ص٨٥ .
(٢) شذرات الذهب (٧/ ٥٢٣، ٥٢٤).
(٣) طبقات الشافعية الكبرى (٩/ ٢٠٧).
(٤) العز بن عبد السلام، سلطان العلماء ص٢٣ .
(٥) فتاوى شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ص٨٥ .
(٦) العز بن عبد السلام، سلطان العلماء ص٢٤ .
(٧) المصدر نفسه ص٢٤ .

٢- القرافي: هو أحمد بن عبد الرحمن القرافي، أبو العباس، شهاب الدين الصنهاجي، من علماء المالكية، نسبته إلى صنهاجة من برابرة المغرب[١]، عالم زمانه، أحد الأعلام، انتهت إليه رياسة المالكية في عصره، وبرع في الفقه والأصول والعلوم العقلية والتفسير، ولا عجب فهو تلميذ العز بن عبد السلام النجيب الذي عاش فقيرًا ونشأ في أسرة مغمورة ثم بعلو همته وجدِّه وعزيمته التي لا تلين ملأ الدنيا علمه، تخرج على يديه عدد من العلماء الأفاضل، وكتب وألَّف حتى أصبحت كتبه أعلامًا للسالكين ومن أجلِّها: (الذخيرة) و(الفروق) و(شرح التهذيب) وغيرها.

(أ) وقد تأثر القرافي بالعز من خلال الموازنات الفقهية التي عقدها القرافي في الذخيرة بين المذهبين المالكي والشافعي، وحتى في كتابه الفروق، وكان منهج الإمام العزّ الذي تتلمذ على يديه عدد كبير من الطلبة مع اختلاف مدارسهم الفقهية، عدم الانسلاخ عن مذاهبهم التي يتمذهبون بها والأخذ بمذهبه الشافعي، بقدر ما كان يحاول رسم الطريق والمنهج في التعامل مع الأحكام الشرعية، والنصوص استنباطًا واجتهادًا وتعليلًا.

(ب) التفريق بين القواعد الفقهية: فكرة التفريق بين القواعد الفقهية أخذها القرافي من العز بن عبدالسلام -رحمهما الله- حيث يذكر في ثنايا كتابه (قواعد الأحكام) فروقًا بين الفروع الفقهية المتشابهة في الظاهر ولكن بينهما وجه مفارقة، ومثاله: من سقى الأشجار بماء مغصوب من حين غرسها حين بسَقَت ضَمِن الماء بمثله، ولا حقَّ لمالكه فيما استحال إلى صفات الأشجار؛ لأنه صار ملكًا لصاحب الشجرة، كما صار الغذاء ملكا لصاحب الحيوان لمَّا تعذر وصول مالكه إليه... حتى قال: فإن قيل: كيف يملك الغاصب ذلك بتعدِّيه بسقي الماء المغصوب للشجر، وإطعام الطعام المغصوب للحيوان، ومن مذهب الشافعي رحمه الله أن الغاصب لو أتلف أكثر منافع المغصوب لم يملكه؟ قلنا: الفرق بينهما إمكان الرَّدِّ إذا أُتلف معظم منافع المغضوب، وتعذر الردِّ هاهنا مع حدوث المالية فيما بقي بقوى الأشجار والحيوان المختصين بملك الغاصب[٢].

(ج) النظر إلى سبب تأليف القرافي للفروق: بالنظر إلى سبب تأليف القرافي للفروق على أنه في القواعد خاصة، التي نثرها في الذخيرة ثم جمعها في الفروق، وزاد في شرحها، وبيانها، والكشف عن أسرارها وحِكمها، وأمَّا كتاب قواعد الأحكام فقد صرَّح العز بسبب تأليفه فقال: الغرض بوضع هذا الكتاب بيان مصالح الطاعات والمعاملات، وسائر التصرفات ليسعى العباد في اكتسابها، وبيان مقاصد المخالفات ليسعى العباد في درئها، وبيان مصالح المباحات ليكون

(١) مقاصد الشريعة عند الإمام العز بن عبد السلام ص٦١ . (٢) قواعد الأحكام (١/ ٢٧٣).

العباد على خِيرَة منها، وبيان ما يُقَدَّم من بعض المصالح على بعض، وما يؤخر من بعض المفاسد عن بعض، مما يدخل تحت إكساب العباد، دون ما لا قدرة لهم عليه[١].

(ح) نبذ القرافي للتعصب المذموم للمذهب: تأثر القرافي رحمه الله بمنهج شيخه في نبذ التعصب المذموم للمذاهب، والدعوة إلى الاجتهاد المبني على أسس علمية متينة، فأصبغت آراؤه الاجتهادية بمحاربة التقليد، وضرورة مراقبة المذاهب الفقهية، خاصة الفتاوى المبنية على الأعراف والمصالح مما كانت في عصر الأئمة على اعتبار معين، ثم زال ذلك الاعتبار[٢]، قال الإمام العز رحمه الله: والفقيه من رأى الواضح واضحًا، والمُشكل مُشكلًا، ومن تكلف أن يجعل المُشكل واضحًا، فقد كلَّف نفسه شططًا، فإن كان عاقلًا كان أوّل ماقتٍ لنفسه، والتعصب للحق على الرِّجال أولى من التعصب للرِّجال على الحق[٣]، ووضَّح القرافي كلام شيخه غاية التوضيح فقال: تنبيه: كل شيء أفتى فيه المجتهد، فخُرِّجت فتياه فيه على خلاف الإجماع أو القواعد أو النَّص أو القياس الجلي السَّالم عن المعارض الرَّاجح لا يجوز لمقلِّده أن ينقله للنَّاس، ولا يفتي به في دين الله، فإن هذا الحكم لو حكم به حاكم لنقضناه، حتى قال: فعلى هذا يجب على أهل العصر تفقد مذاهبهم، فكل ما وجدوه من هذا النوع، يحرم عليهم الفتيا به ولا يعرى مذهب من المذاهب عنه، لكنه قد يَقِلُّ وقد يكثر[٤].

(خ) توظيف القواعد المقاصدية في الاجتهاد: لم يَضع القرافي رحمه الله كتابًا خاصًا بمقاصد الشريعة وأسرارها، بحيث يعرِّفها ويذكر فروعها ويُفصِّلُ القول في قواعدها ومباحثها، كما فعل شيخه العز بن عبد السلام، لكنه اتجه إلى توظيف هذه القواعد المقاصدية للاجتهاد، وتعليل الفروع الفقهية، وجزئيات الأحكام، ويكون بذلك قد فَعَّلَ من مُهمَّة هذه القواعد وأعطاها صفة عملية وأخرجها من النظرية إلى التطبيق، خاصة في الفروق عندما قصد إظهار هذه النظرة المصلحية بين القواعد الفقهية التي تُظهر عند المقارنة بينها مناسبات الأحكام وعللها، أكثر مما إذا كانت فروعًا جزئية، فإذا كان للشيخ العزِّ فضل السَّبق والتنظيم والتبويب فللقرافي رحمه الله شرف الاجتهاد والمواصلة والتفعيل:

وهو بسبق حائز تفضيلا مستوجبٌ ثنائي الجميلا
والله يقضي بهبات وافرة لي وَلَهُ في دَرَجَات الآخرة[٥]

(س) التمثيل للقاعدة بالفروع الفقهية: على عكس القرافي يكثر الشيخ عز الدين بن عبد السلام من التمثيل للقاعدة التي بصَدَدِ دراستها بالفروع الفقهية حتى يقرِّرها في ذهن

(١) قواعد المصلحة والمفسدة عند شهاب الدين القرافي ص٧٣ .
(٢) المصدر نفسه ص٧٣ .
(٣) قواعد المصلحة والمفسدة عند شهاب الدين القرافي ص٧٤
(٤) المصدر نفسه ص٧٤ .
(٥) المصدر نفسه ص٧٦ .

المطالع، ونجد القرافي يكثر من حشد القواعد التي تكون في محل الخلاف بين طرفين متنازعين أو تدعم فرقًا يعتقده أو يدافع عنه، فالعزُّ لما مثَّل لقاعدة رُجحان المصالح والمفاسد ذكر لها ٦٣ مِثالًا، ولما مثَّل لقاعدة اجتماع المصالح المجرَّدة عن المفاسد ذكر لها ٦٣ مثالًا، ولما مثَّل لأنواع الحقوق المتعلقة بالقلوب ذكر لها ٢٩ مثالًا، ولما مثل تساوي المصالح وتعذر جمعها ذكر لها مثالًا[١]

(ش) **حرص القرافي على نقل وتدوين آراء شيخه حتى لو خالفه في الرأي والاجتهاد**، ويظهر هذا التأثير البالغ من القرافي عند ما يذكر شيخه العزّ فيغدق عليه عبارات الثناء والإعجاب، فهو يقول مَثَلًا في الفرق الخامس والتسعين: ولم أرَ أحدًا حرَّره -هذا الفرق- هذا التحرير إلا الشيخ عز الدين بن عبدالسَّلام -رحمه الله وقدَّس روحه الكريمة- فلقد كان شديد التحرير لمواضع كثيرة في الشريعة؛ معقولها، ومنقولها، وكان يُفْتَحُ عليه بأشياء لا توجد لغيره رحمه الله رحمة واسعة[٢]، ورغم المكانة العظيمة التي أحلَّها القرافي شيخه من نفسه، فإنه في كثير من المواضع يناقشه في مسائل يختلف معه فيها كل ذلك بأدب وتواضع كبيرين[٣]

ومن القواعد التي ذكرها القرافي في كتاب الفروق:

- تصرف الولي منوطٌ بالمصلحة.

- اعتماد الأوامر المصالح، والنواهي المفاسد.

- خمس اجتمعت الأمم مع الأمة المحمدية عليها؛ وهي وجوب حفظ النفوس والعقول، والأعراض، والأنساب والأموال.

- درء المفاسد أولى من جلب المصالح.

- تقدم المفسدة الخاصة على العامة عند التعارض.

- إذا تعارضت مفسدتان رُوعي أعظمهما بارتكاب أخفهما.

- احتياط الشارع في الخروج من الحرمة إلى الإباحة أكثر من خروجه من الإباحة إلى الحرمة.

- الوسائل لها حكم المقاصد.

- الوسائل أخفض رتبة من المقاصد.

---

(١) قواعد المصلحة والمفسدة عند شهاب الدين القرافي ص٧٦

(٢) المصدر نفسه ص٧٧

(٣) المصدر نفسه ص٧٧

- الوسيلة إذا لم تقضِ إلى المقصود سقط اعتبارها.

- المقصد إذا كان له وسيلتان يُخيَّر بينهما.

- ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

- المشقة تجلب التيسير.

- الضرورات تبيح المحظورات.

- الأجر على قدر المصلحة، والعقاب على قدر المفسدة.

وقد قام الشيخ قندوز محمد الماحي بتقديم رسالة ماجستير اسمها: (قواعد المصلحة والمفسدة عند شهاب الدين القرافي من خلال كتابه الفروق) فتحدث عن القواعد المتعلقة بجلب المصالح ودرء المفاسد، فتحدث عن صياغة القاعدة وشرحها وأدلتها وضابط القاعدة وفروعها، ومستثنياتها، وتكلم عن قواعد الترجيح بين المصالح والمفاسد، وقواعد الوسائل وقواعد المشقة والتيسير، وقام بتعريف المشقة، وبيان القاعدة وأدلتها وأقسامها وضابطها وفروعها[(١)]... إلخ.

- إن ميراث الأمة الإسلامية في عهد العز بن عبدالسلام والقرافي ميراث علمي زاخر، مستمد من الأصول التشريعية المعتمدة عند علماء الشريعة ومجتهديها، كان منطلقهم الكتاب والسنة وما يلحق بهما من أصول اجتهادية؛ بحيث عاشوا واقعهم وتفاعلوا مع أحداث أزمانهم، ورسموا لمن يأتي بعدهم رُؤى ومعالم يسيرون عليها حتى لا يحيدوا عن الجادة المستقيمة والمحجة البيضاء الناصعة، فعلى خطاهم يسير الخلف من هذه الأمة، وعلى اجتهاداتهم يبنون، فأي محاولة لتخطي التراث العلمي الزاخر وتلك الاجتهادات الفقهية والمدونات العلمية تحت دعوى التجديد والتطوير؛ إنما هي ضرب من المسخ لهذه الأمة، وتجريد لها عن سلفها الذين جمعوا بين فقه الواقع وفقه التنظير، فواجهوا مستجدات عصرهم بالحلول الشرعية السليمة[(٢)].

- إن دراسة تاريخ الأمة الإسلامية وأوضاع كل قرن له دورُهُ الفَعَّال في الاستفادة من تاريخ السابقين وتجاربهم حتى لا نقع في نفس الأخطاء التي وقعوا فيها؛ لأن عدونا قد أحسن قراءة تاريخنا، وأمسك بمفاصل الضَّعف فينا، فأخذ يحرِّكها كيف يشاء، وواقعنا خير شاهد على ذلك.

- التركيز على الشخصيات التي كانت لها قدرات علمية كبيرة، وكانت متحرِّرة من ربقة التقليد والجمود؛ بحيث أثرت في واقعها التي عاشت فيه؛ إما بالجهاد القولي أو العملي، وهذا

(١) قواعد المصلحة والمفسدة عند شهاب الدين القرافي ص٣٤٤ .
(٢) المصدر نفسه ص٣٤٤ .

ما لمسناه في شخصية الإمام القرافي وشيخه العز بن عبدالسلام، فالأول كان قائد حركة علمية جهادية كبيرة في مصر، والثاني جمع بين الجهاد باللسان والبنان[(١)]

- كل اجتهاد فقهي عارٍ عن النظرة المصلحية والبعد المقاصدي ومرتكزات الواقع المعاش لا سبيل إلى التفاعل معه؛ لأنه أبعد ما يكون عن روح الشريعة ومقاصدها.

- الخروج عن النمط التقليدي في الدِّراسات الفقهية والأصولية، وهذا ما لمسناه في فروق القرافي؛ حيث ابتدع نمطًا تعقيديًّا في الدراسات الفقهية، نلمسه من خلال تفريقه بين القواعد الفقهية في حدِّ ذاتها، لا بين الفروع الجزئية، وفي هذه العملية تظهر أسرار الشريعة ومقاصدها الكلية.

- لقد جمع الإمام القرافي رحمه الله بين معارف عصره الفقهية، والأصولية، واللغوية والمادية والفلكية؛ بحيث أعطته زادًا علميًّا فاق به كثيرًا من أقرانه وتحرَّر من ربقة التقليد، وكانت فتاواه ملائمة ليسر التشريع وسماحته.

- لم يكتفِ القرافي بتقعيد القواعد الفقهية، بل تعدَّاها إلى تقعيد القواعد الأصولية والمقاصدية، واللغوية والمنطقية، وتفعيل هذه القواعد في عملية الاجتهاد والاستنباط.

- في التكوين العلمي لشخصية القرافي نلمس التحرُّر من المذهبية الضيِّقة، والعصبية الممقوتة، وهذا ما نعيشه في عصرنا من الانفتاح على الثقافات المختلفة ومحاولة إلزام قوم بمذهب واحد إعناتًا لهم، فلا بأس من الأخذ من المذاهب السنية؛ شرط أن يكون الأخذ له أهلية الأخذ والترجيح حتى لا تختلط الأحكام وتتسيب الفتاوى[(٢)]

- استخلاص القواعد الفقهية واستخراجها من بُطون الموسوعات الفقهية وإفرادها بالدِّراسة والتدليل لها وإيراد المستثنيات منها؛ يُسهِّل على الباحث الاطلاع على الفروع الفقهية في كل مذهب من المذاهب الفقهية المعتبرة.

- أهمية إدراج علم الفروق في المناهج الدِّراسية لطُلاب التخصصات الشرعية؛ لأنه يجمع بين التقعيد والتفريع والتقصيد[(٣)]

- **وفاة القرافي**: بعد حياة حافلة بالتدريس والتعليم والتأليف، توفي شهاب الدين القرافي رحمه الله بدير الطين؛ وهي قرية على شاطئ النيل قرب الفسطاط بظاهر مصر، وكان ذلك سنة (٦٨٤هـ) على أرجح الأقوال، ولنا عودة مع القرافي في حديثنا عن الصراع الثقافي في عهد الحروب الصليبية، بإذن الله تعالى.

---

(١) المصدر نفسه ص٣٤٤

(٢) قواعد المصلحة والمفسدة ص٣٤٥

(٣) المصدر نفسه ص٣٤٥

٣- جلال الدين الدشناوي: ومن تلاميذ العز بن عبد السلام الإمام أحمد بن عبد الرحمن بن محمد الكندي الدشناوي، الفقيه والأصولي، ولد سنة (٦١٥هـ) في صعيد مصر، وأخذ العلم والفقه والحديث والأصول على علماء عصره، وكان صديقًا لابن دقيق العيد، تلميذًا نجيبًا عند العز والمنذري وغيرهما من جهابذة العصر، حتى بلغ مرتبة الرياسة في المذهب الشافعي، كان ورعًا زاهدًا، عابدًا، تقيًا، له تصانيف عديدة أهمها كتاب في المناسك سماه: (مناسك الحج) كما صنَّف شرحًا على (التنبيه) وصل فيه إلى الصيام، ومقدمة في النحو، وغيرها، توفي رحمه الله سنة (٦٧٧هـ)[١].

٤- أحمد بن فرح الأشبيلي: هو الإمام أحمد بن فرح بن أحمد الأشبيلي، المحدِّث الفقيه، العالم العامل، ولد بأشبيلية سنة (٦٢٥هـ)، وأَسَرَه النصارى، ثم نجَّاه الله ورحل إلى دمشق، وأخذ من علمائها ثم ارتحل إلى القاهرة والتقى بسلطان العلماء فنهل من معينه، وأخذ من فقهه وعلمه حتى شاخ على أقرانه، ثم استوطن دمشق، كان له سكينة ووقار، قال الذهبي (ت٧٦٥هـ): حضرت مجالسه وأخذت عنه، ونعم الشيخ كان سكينة ووقارًا وديانة واستحضارًا، توفي سنة (٦٩٩هـ) رحمه الله[٢].

٥- شرف الدين أبو محمد الدمياطي: هو الإمام الحافظ عبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسين بن شرف بن الخضر الدمياطي، كان إمام أهل الحديث في عصره، ولد بدمياط سنة (٦١٣هـ) وقرأ فيها القرآن والأصول والفقه والفرائض على علمائها الأمجاد، ثم ارتحل إلى القاهرة، فلازم المنذري واستمع منه الحديث حتى صار إمامًا فيه، جمع بين الرواية والدراية بالسند العالي، وتتلمذ على سلطان العلماء، وأخذ منه الفقه والأصول وسائر العلوم، وخرَّج له أربعين حديثًا عوالي، ثم اشتغل بالتدريس وقصده الطلاب في الآفاق، وتتلمذ عليه طلاب العلم فنهلوا من علمه الغزير، وصنَّف الكتب المفيدة أهمها: (الصلاة الوسطى) و(قبائل الخزرج) وغيرها، توفي عام (٧٠٥هـ) رحمه الله[٣].

٦- شهاب الدين أبو شامة: هو الإمام عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان المكنى بأبي القاسم، وأبي شامة، الملقب بشهاب الدين المقدسي الشافعي، المقري النحوي الأصولي، المؤرخ الذي برع في فنون العلم، وقيل: بلغ رتبة الاجتهاد، ولد سنة (٥٩٩هـ) وختم القرآن وهو دون العشر سنوات، وتفقَّه على العز بن عبد السلام، ولازمه، وأحبه، وحفظ كثيرًا من أخباره، ورحل إلى مصر، وتفقَّه على علمائها، وعاد إلى دمشق وزار بيت المقدس، وحج

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى (٨/ ٢٠-٢٢) حسن المحاضرة (١/ ٤١٧).
(٢) طبقات الشافعية الكبرى (٢/ ٢٩١) النجوم الزاهرة (٨/ ١٩١).
(٣) تذكرة الحفاظ (٢/ ١١٨) فتاوى شيخ الإسلام ص٨٧ .

مرتين، له مصنفات عديدة مفيدة أهمها: (كتاب الروضتين في أخبار الدولتين)، و(الذيل على الروضتين) واختصر تاريخ دمشق، قال الأسنوي: كان عالمًا راسخًا في العلم، فقيهًا مقرئًا محدثًا نحويًا، يكتب الخط المليح المتقن، وفيه تواضع[١]، وقد امتحن في موته؛ بأن دخل عليه رجلان في صورة المستفتيين، فضرباه ضربًا مبرحًا، فاعتل به، إلى أن مات في سنة (٦٦٥هـ) وسجل في تاريخه هذه المحنة، وذكر تفويض أمره لله، وعدم مؤاخذة من فعل ذلك، رحمه الله[٢].

٧- **تاج الدين الفركاح**: هو الإمام عبد الرحمن بن إبراهيم بن ضياء، الشيخ تاج الدين المعروف بالفركاح، ولد سنة (٦٢٤هـ) وتفقَّه على العز، وسمع من ابن الصلاح وغيره من علماء عصره حتى أصبح فقيه الشام في عصره، وكان إمامًا مدققًا نظَّارًا، توفي سنة (٦٩٠هـ) رحمه الله[٣].

٨- **صدر الدين ابن بنت الأعز**: هو الإمام العادل الورع الصالح القاضي الصارم عمر بن عبد الوهاب بن خلف العلامي ابن قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز أخو تقي الدين سالف الذكر، ولد سنة (٦٢٥هـ) وسمع من المنذري وغيره من شيوخ عصره، وأخذ الفقه والأصول عن الإمام عز الدين وتأثر به وتخلَّق بأخلاقه، وسار سيرته في القضاء والشدة على الظلمة والطغاة، وعزل نفسه من القضاء واقتصر على التدريس، توفي سنة (٦٨٠هـ)[٤].

٩- **أبو أحمد بن زيتون**: هو أبو أحمد بن أبي بكر بن مسافر بن أبي بكر بن أحمد بن عبد الرفيع اليمني المالكي الشهير بابن زيتون، كان قاضي الجماعة بتونس، ورحل إلى المشرق مرتين، وتفقَّه على عز الدين بن عبد السلام، كما تفقَّه على علماء عصره، وولي قاضي القضاة فعظُم أمره وانتفع به الناس، توفي سنة (٦٩١هـ) ودفن في تونس[٥]. كما أن هناك الكثير من تلاميذ العز بن عبد السلام ذكرنا هؤلاء خوفًا من الإطالة.

خامسًا: مؤلفاته:

ترك الشيخ عز الدين بن عبد السلام ثروة من المصنفات والرسائل المفيدة، والفتاوى السديدة[٦]، تبيّن لنا منزلته الرفيعة، واطلاعه الواسع على حقائق الشريعة وغوامضها، وباعه الطويل في معرفة مقاصد الشريعة، وفهمه السليم لمعاني القرآن الكريم، ومراميه السامية التي رعاها الشارع الحكيم من أجل إسعاد البشرية عامة بإخراجها من ظلمات المفاسد ومضارها إلى

(١) طبقات الأسنوي (١١٨/٢) فتاوى شيخ الإسلام عز الدين ص٨٧ .
(٢) فوات الوفيات (٥٢٧/١) فتاوى شيخ الإسلام عز الدين ص٨٨ .
(٣) شذرات الذهب نقلًا عن فتاوى شيخ الإسلام ص٨٨ .
(٤) البداية والنهاية (١٧/ ٥٨٠).
(٥) الديباج ابن فرحون ص٩٩ .
(٦) مقاصد الشريعة عند الإمام العز بن عبد السلام ص٤٨ .

نور المصالح وخيراتها، فاستحق أن يكون من الذين قيل فيهم: علمهم أكثر من تصانيفهم، لا من الذين عبارتهم دون درايتهم، ومرتبته في العلوم الظاهرة مع الصادقين في الرعيل الأول، وأما في علوم المعارف والعلم بالله فهو معروف عند أهله، فصنَّف في شتى العلوم، منها ما طبع، ومنها ما لا يزال مخطوطًا، وقد أفاض المعاصرون في الحديث عن هذه المصنفات(١)، المؤلفات تنقسم إلى:

١- التفسير وعلومه: مما ألفه الإمام في التفسير:

(أ) مختصر تفسير (النكت والعيون) للماوردي، حققه الدكتور عبد الله الوهيبي كجزء لنيل أطروحته في الدكتوراه في التفسير، وقدم له دراسة عن العز بن عبد السلام؛ حياته وآثاره ومنهجه في التفسير، وقدم دراسة عن منهج العز في هذا المختصر(٢).

(ب) تفسير القرآن العظيم: بدأ فيه العز بتفسير الاستعاذة، والبسملة، ثم شرع في تفسير سور القرآن الكريم، سورة سورة، مع العناية الواضحة بالنحو والإعراب(٣)، ولا يزال هذا الكتاب مخطوطًا، ويوجد منه خمس نسخ خطية في تركيًا(٤).

(ج) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، ويختصر أحيانًا باسم (مجاز القرآن)، وطبع هذا الكتاب عدة مرَّات، واختصر هذا الكتاب ابن قيم الجوزية مع زيادات في كتابه (الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان)، كما لخص السيوطي كتاب العز مع زيادات عليه وسمَّاه (مجاز الفرسان إلى مجاز القرآن) ويعتبر كتاب العز هذا مع كتاب قواعد الأحكام أهم كتبه على الإطلاق(٥).

(ح) أمالي عز الدين بن عبد السلام: وهي تشمل: الأمالي في تفسير بعض آيات القرآن الكريم، والأمالي في شرح بعض الأحاديث المنتقاة، والأمالي في مناقشة بعض المسائل الفقهية، وهذه الأمالي كان العز يلقيها في دروس تفسير القرآن الكريم، ووجدت عدة مخطوطات لها وتجمع الأمالي الثلاث، بينما اقتصرت بعض النسخ الخطية على القسم الأول وبعنوان: (فوائد العز بن عبد السلام)، ولذلك قام الأستاذ رضوان الندوي بتحقيق هذا القسم في رسالته للدكتوراه ثم طبعته وزارة الأوقاف الكويتية سنة (١٩٦٧م)، ثم أعيد طبعه في دار الشروق بجدة سنة (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م) اعتمادًا على نسخ خطية بعنوان: (الفوائد في مشكل القرآن)(٦).

---

(١) المصدر نفسه ص٤٨ .
(٢) العز للوهيبي ص١٠، ١١٧ .
(٣) طبقات الشافعية (٨/ ٢٤٨).
(٤) شجرة المعارف للعز، مقدمة المحقق ص٢١ .
(٥) العز بن عبد السلام، الزحيلي ص١٣٦ .
(٦) العز بن عبد السلام للزحيلي ص١٣٨ .

٢- الحديث والسير والأخبار:

(أ) شرح حديث «لا ضرر ولا ضرار»، نسبه إليه رضوان الندوي[١].

(ب) شرح حديث (أم زَرْع) الذي روته أم المؤمنين عائشة ﵂، يوجد منه نسخة خطيَّة بمكتبة الفاتح بأسطنبول برقم (١١٤١م) ويقع في ثلاث ورقات ملحقة في آخر مجلد كبير لنسخة خطية عن (مختصر صحيح مسلم) للحافظ المنذري [٢].

(ج) مختصر صحيح مسلم: ذكره ابن السبكي في كتب العز، وذكره الداودي، ولم يرد له ذكر في فهارس المخطوطات الموجودة، فإما أنه لا زال ضمن المخطوطات الخاصة والمبعثرة في أنحاء العالم، أو فقد وضاع مع ما فقد من تراث المسلمين العظيم أيام المحن والنكبات والحروب والاحتلال لبلاد المسلمين.

(ح) بداية السول في تفضيل الرسول: وهو رسالة صغيرة طُبعت في مصر قديمًا، وعلق عليها الشيخ عبد الله بن محمد الصديق الغماري، ثم حققها الدكتور صلاح الدين المنجد، وطبعتها دار الكتاب الجديد ببيروت سنة (١٤٠١هـ)، ثم حققها الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، وطبعها المكتب الإسلامي ببيروت سنة (١٤٠٣هـ)، ثم حققها السيد محمد أديب كلكل، وطبعها بدار الدعوة بحماة، وساق العز اثنين وثلاثين وجهًا لتفضيل الرسول ﷺ، وهي تعداد الخصائص التي خصَّه الله بها[٣].

(س) قصة وفاة النبي ﷺ: وتوجد منها نسخة في مكتبة برلين برقم (٩٦١٤]([٤].

(ش) ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام: وفيها بيان فضل الشام والترغيب بالسكن فيها، وطبعت عدة مرَّات؛ الأولى في المطبعة التجارية بالقدس سنة (١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م) بعناية أحمد سامح الخالدي الديري، ثم طبعت ببغداد وعمان بتحقيق محمد شكور بن محمود الحاجي أمرير الميادني سنة (١٩٨٧م)، وقام الأستاذ الشاب إياد الطباع بتحقيقها أيضًا[٥]. هذه هي أهم الكتب والرسائل في الحديث والسيرة والأخبار.

٣- الإيمان والعقيدة وعلم التوحيد: ومن أهم هذه الكتب:

(أ) رسالة في علم التوحيد.

(ب) وصية الشيخ عز الدين.

---

(١) العز للندوي ص٧٥ .
(٢) العز بن عبد السلام للزحيلي ص١٣٨ .
(٣) المصدر نفسه ص١٣٩ .
(٤) المصدر نفسه ص١٣٩ .
(٥) العز بن عبد السلام للزحيلي ص١٣٩ .

(ج) نبذة في الرد على القائل بخلق القرآن.

(س) الفرق بين الإسلام والإيمان.

(ش) بيان أحوال الناس يوم القيامة.

(د) ملحمة الاعتقاد أو العقائد[١].

٤- **الفقه وأصوله**: أهم كتبه في هذه العلوم:

(أ) قواعد الأحكام في مصالح الأنام: هذا الكتاب اسمه في المصادر القديمة (القواعد الكبرى) ويوجد منه نسخ خطية كثيرة في مكتبات العالم، وموضوع هذا الكتاب بيان الأحكام الشرعية باعتبار جلب المصالح ودرء المفاسد، وقد أوضح العز مقاصد كتابه بقوله: الغرض بوضع هذا الكتاب بيان مصالح الطاعات والمعاملات وسائر التصرفات ليسعى العباد في تحصيلها، وبيان مقاصد المخالفات ليسعى العباد في درئها، وبيان مصالح العبادات ليكون العباد على خبر منها، وبيان ما يقدم من بعض المصالح على بعض، وما يؤخر من بعض المفاسد على بعض، وما يدخل تحت اكتساب العبيد دون ما لا قدرة لهم عليه ولا سبيل إليه[٢].

وقال في بيان حقيقة المصالح والمفاسد: المصالح أربعة أنواع: اللذات وأسبابها، وهي منقسمة إلى دنيوية وأخروية؛ فأما لذات الدنيا وأسبابها وأفراحها وآلامها وأسبابها وغمومها وأسبابها، فمعلومة بالعبادات، ومن أفضل لذات الدنيا لذات المعارف وبعض الأحوال، ولذات بعض الأفعال في حق الأنبياء، فليس من جعلت قرة عينه في الصلاة كمن جعلت الصلاة شاقة عليه، وليس من يرتاح إلى إيتاء الزكاة كمن يبذلها وهو كاره[٣]، وأما لذات الآخرة وأسبابها وأفراحها وأسبابها، وآلامها وأسبابها وغمومها وأسبابها، فقد دل عليه الوعيد والزجر والتهديد، وأما اللذات فمثل قوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الصافات: ٤٥، ٤٦].

وأما الأفراح ففي مثل قوله: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] وقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٧٠]، وفي مثل قوله: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ [آل عمران: ١٧١]، وأما الآلآم ففي مثل قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦]، وقوله ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧]، وأما الغموم ففي مثل قوله: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢].

---

(١) العز بن عبد السلام، سلطان العلماء، د/ فاروق عبد المعطي ص٥٢-٥٥.
(٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/ ١٠).
(٣) المصدر نفسه (١/ ١١، ١٢).

ثم شرع بعد ذلك يذكر قواعد في المصالح والمفاسد ويقررها بالشرح ثم يوضحها بالأمثلة الكثيرة المتنوعة، ومن أمثلة ذلك ما ذكره في اجتماع المصالح المجردة عن المفاسد فقال: إذا اجتمعت المصالح الأخروية الخالصة، فإن أمكن تحصيلها حصلناها، وإن تعذر تحصيلها حصلنا الأصلح فالأصلح، والأفضل فالأفضل؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]، ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥]، وقوله: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥] فإذا استوت مع تعذر الجمع تخيرنا، وقد يفرع وقد يختلف في التساوي والتفاوت، ولا فرق في ذلك بين المصالح والواجبات والمندوبات، لبيان الأفضل وتقديم الفاضل على المفضول[(١)]، وضرب أمثلة كثيرة نذكر منها مثالًا واحدًا، كتقديم كل فريضة على نوعها من النوافل؛ كتقديم فرائض الطهارات على نوافلها، وفرائض الصلوات على نوافلها، وفرائض الصدقات على نوافلها[(٢)]، واستمر يذكر أمثلة لتوضيح هذه القاعدة ويفرع عليها فروعًا حتى ذكر ثلاثة وعشرين مثالًا في تقديم الفاضل على المفضول[(٣)].

وقال في تساوي المصالح مع تعذر جمعها: إذا تساوت المصالح مع تعذر الجمع تخيرنا في التقديم والتأخير للتنازع بين المتساويين[(٤)]، ثم ذكر فصلًا في اجتماع المفاسد المجردة عن المصالح فقال: إذا اجتمعت المفاسد المحضة فإن أمكن درؤها درأنا، وإن تعذر درء الجميع درأنا الأفسد فالأفسد والأرذل فالأرذل، فإن تساوت فقد يتوقف وقد يتخير، وقد يختلف في التساوي والتفاوت، ولا فرق في ذلك بين مفاسد المحرمات والمكروهات[(٥)]، ثم ذكر فصلًا في اجتماع المصالح مع المفاسد فقال: إذا اجتمعت مصالح ومفاسد، فإن أمكن تحصيل المصالح ودرء المفاسد فعلنا ذلك امتثالًا لأمر الله تعالى فيهما لقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وإن تعذر الدرء والتحصيل فإن كانت المفسدة أعظم من المصلحة درأنا المفسدة ولا نبالي بفوات المصلحة، قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩] حرمهما لأن مفسدتهما أكبر من منفعتهما؛ أما منفعة الخمر فبالتجارة ونحوها، وأما منفعة الميسر فيما يأخذه المقامر من المقمور، وأما مفسدة الخمر فبإزالتها العقول، وما تحدثه من العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وأما مفسدة القمار فبإيقاع العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهذه مفاسد عظيمة لا نسبة إلى المنافع المذكورة إليها، وإن كانت المصلحة أعظم من

---

(١) العز بن عبد السلام؛ حياته وآثاره ومنهجه في التفسير ص١٣٦ .
(٢) المصدر نفسه ص١٣٦ .
(٣) المصدر نفسه ص١٣٦ .
(٤) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/٨٨).
(٥) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/٩٣).

المفسدة حصلنا المصلحة مع التزام المفسدة، وإن استوت المصالح والمفاسد فقد يتخير بينهما وقد يتوقف فيهما، وقد يقع الاختلاف في تفاوت المفاسد(١).

ثم ذكر فصلًا في بيان الوسائل إلى المصالح فقال: يختلف أجر وسائل الطاعات باختلاف فضائل المقاصد ومصالحها، فالوسيلة إلى المقاصد أفضل من سائر الوسائل، فالتوسل إلى معرفة الله تعالى ومعرفة ذاته وصفاته أفضل من التوسل إلى معرفة أحكامه، والتوسل إلى الجهاد أفضل من التوسل بالسعي إلى الجمعات، والتوسل بالسعي إلى الجمعات أفضل من التوسل بالسعي إلى الجماعات في الصلوات المكتوبات(٢)، ثم ذكر فصلًا في بيان وسائل المفاسد فقال: يختلف وزن المخالفات باختلاف رذائل المقاصد ومفاسدها، فالوسيلة إلى أرذل المقاصد، أرذل من سائر الوسائل، فالتوسل إلى الجهل بذات الله وصفاته أرذل من التوسل إلى الجهل بأحكامه، والتوسل إلى القتل أرذل من التوسل إلى الزنا، والتوسل إلى الزنا أقبح من التوسل إلى أكل بالباطل، والإعانة على القتل بالإمساك أقبح من الدلالة عليه، وكذلك مناولة آلة القتل أقبح من الدلالة عليه(٣).

وقال في آخر الجزء الثاني مؤكدًا ما سبق من أن الله أمر بكل خير ونهى عن كل شر، فالخير يعبر به عن جلب المصالح، والشر يعبر به عن جلب المفاسد، ومن المصالح والمفاسد ما لا يعرفه إلا كل ذي فهم سليم وطبع مستقيم(٤)، فقد قال: ولو تتبعنا مقاصد ما في الكتاب والسنة لعلمنا أن الله أمر بكل خير دِقّه وجُلّه وزجر عن كل شيء دِقّه وجُلّه، فإن الخير يعبر به عن جلب المصالح ودرء المفاسد، والشر يعبر به عن جلب المفاسد ودرء المصالح، وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، وهذا ظاهر في الخير الخالص والشر المحض، وإنما الإشكال إذا لم يعرف خير الخيرين وشر الشرين، أو يعرف ترجيح المصلحة على المفسدة، أو ترجيح المفسدة على المصلحة أو جهلنا المصلحة والمفسدة، ومن المصالح والمفاسد ما لا يعرفه إلا كل ذي فهم سليم وطبع مستقيم، يعرف بهما دق المصالح والمفاسد وجلهما وأرجحهما من مرجوحهما . . . إلى أن قال: وأجمع آية في القرآن للبحث على المصالح كلها والزجر عن المفاسد بأسرها(٥) قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾ [النحل: ٩٠].

وأسلوب الشيخ العز خالٍ من تعقيدات الفقهاء، وفيه سجع غير متكلف، وفي بعض المواضع يغلب عليه أسلوب الوعظ، ومن أمثلة ذلك ما قاله في كلام طويل نختصر منه: وعلى

---

(١) المصدر نفسه (١/٩٨).
(٢) المصدر نفسه (١/١٢٣).
(٣) المصدر نفسه (١/١٢٦).
(٤) العز بن عبد السلام؛ حياته وآثاره ومنهجه في التفسير ص١٣٨ .
(٥) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (٢/١٨٩).

الجملة فمن أقبل على الله أقبل الله عليه، ومن أعرض عن الله أعرض الله عنه، ومن تقرب إلى الله شبرًا تقرب منه ذراعًا، ومن تقرب منه ذراعًا تقرب منه باعًا، ومن مشى إليه هرول إليه، ومن نسب شيئًا إلى نفسه فقد زلَّ وضل، ومن نسب الأشياء إلى خالقها المنعم بها كان في الزيادة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، ﴿وَسَنَجْزِي ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وأفضل ما تقرب به التذلل لعزة الله والتخضع لعظمته والإيحاش لهيبته والتبرى من الحول والقول إلا به، وهذا شأن العارفين، ومن خرج عنه فهو طريق الجاهلين أو الغافلين، وقد تمت الحكمة وفرغ من القسمة وسينزل كل أحد في دار قراره حكمًا عدلًا وحقًّا وقصدًا وفضلًا، وما ثبت في القدم لا يخلفه العدم، ولا تغيره الهمم بعد أن جرى به القلم وقضاه العدل الحكم، فأين المهرب وإلى أين المذهب؟ وقد عزَّ المطلب، ووقع ما يذهب، فيا خيبة من طلب ما لم تجرِ به الأقدار، ولم تكتبه الأقلام، يا لها من مصيبة، ما أعظمها، وخيبة ما أفحمها، أين المهرب من الله، وأين الذهاب عن الله، وأين الفرار من قدرة الله؟ بينما يرى أحدهم قريبًا دانيًا إذ أصبح بعيدًا نائيًا لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا ولاحفظًا ولا رفعًا[(١)].

وروح العز بارزة في كتابه هذا، فالقارئ له يشعر كأن العز أمامه يناقش الأقوال ويرجح ويستدل ويرد قول المخالف، كما يلحظ القارئ سعة علمه وقوة جدله في بيان ما ترجح له، والكتاب يركز على الأحكام الفقهية يجمعها تحت قواعد أصولية، فهو من كتب الفقه والأصول، ولكنه أحيانًا يستطرد، فيبحث أمورًا في العقيدة أو التصوف[(٢)]، ويلاحظ في كتابه تكرار بعض الأمور في مواضع متعددة، وقد اعتذر عن ذلك بقوله: وإنما أتيت بهذه الألفاظ في هذا الكتاب التي أكثرها مترادفات، وفي المعاني متلاقيات حرصًا على البيان والتقرير في الجنان، كما تكررت المواعظ والقصص والأمر والزجر، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، وغير ذلك في القرآن، ولا شك أن في التكرير والإكثار من التقرير في القلوب ما ليس في الإيجاز والاختصار، ومن نظر إلى تكرير مواعظ القرآن ووصاياه ألقاها كذلك، وإنما كررها الإله لما علم فيها من إصلاح العباد، وهذا هو الغالب المعتاد، ولو قلت في حق العباد هو أن يجلب إليهم كل خير، ويدفع عنهم كل ضير -لكان ذلك جامعًا عامًّا، ولكن ما لا يحصل به من البيان ما يحصل بالتكرير وتنويع الأنواع، وكذلك لو قلت في حق الإله هو أن يطيعوه ولا يعصوه لكان مختصرًا عامًّا، ولكن لا يفيد ما يفيده الإطناب والإسهاب، وكذلك لو قلت في بعض حقوق المرء على نفسه هو أن ينفعها في دينها ودنياها ولا يضرها في أولاها وآخراها لكان ذلك شاملًا لجميع حقوق المرء، وقد يظن بعض الجهلة الأغبياء أن الإيجاز والاختصار أولى من الإسهاب والإكثار، وهو مخطئ في ظنه لما ذكرنا من التكرير الواقع في القرآن والعادة

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/ ١٣).
(٢) المصدر نفسه (١/ ١٤٠، ١٤١).

شاهدة بخطئه في ظنه، وما دلت العادة عليه وأرشد القرآن إليه أولى مما وقع للأغبياء الجاهلين الذين لا يعرفون عادة الله ولا يفهون كتاب الله، وفقنا الله لاتباع كتابه وفهم خطابه[١].

وخلاصة القول: أن العز بحث في كتابه هذا مصالح الطاعات والمعاملات وسائر التصرفات ليسعى العباد في تحصيلها، ومقاصد المخالفات ليسعى العباد في درئها، وطريقته في ذلك أنه يذكر القاعدة الأصولية في المصالح والمفاسد ويقررها بالشرح، ثم يوضحها بالأمثلة الفقهية الكثيرة المتنوعة، فهو من كتب الفقه التي تربط الفروع الفقهية بالقواعد الأصولية[٢].

(ب) **الإمام في بيان أدلة الأحكام**: وموضوع الكتاب بيان وجه دلالة آيات الأحكام على الأحكام من أمر ونهي وتخيير وإباحة، وهو من كتب أصول الفقه، وليس من كتب العقيدة، وقد قسَّم العز الأحكام إلى قسمين في هذا الكتاب فقال: والأحكام ضربان:

أحدهما: ما كان طلبًا لاكتساب فعل أو تركه.

والثاني: ما لا طلب فيه؛ كالإباحة ونصب الأسباب والشرائط والموانع، والصحة والفساد، وضرب الآجال، وتقدير الأوقات، والحكم بالقضاء والأداء، والتوسعة والتضيق، والتعيين والتخيير، ونحو ذلك من الأحكام الوضعية الخبرية.

ثم قسم أدلة الأحكام إلى قسمين، فقال: ثم أدلة الأحكام ضربان:

أحدهما: لفظي يدل بالصيغة تارة، وبلفظ الخبر أخرى.

والثاني: معنوي يدل دلالة لزوم إما بواسطة، وإما بغير واسطة، فكل فعل طلبه الشارع أو أخبر عن طلبه أو مدحه أو مدح فاعله لأجله أو نصبه سببًا لخير عاجل، أو آجل فهو مأمور به، وكل فعل طلب الشارع تركه أو أخبر أنه طلب تركه أو ذمه أو ذم فاعله لأجله أو نصبه سببًا لشر عاجل أو آجل فهو منهي عنه، وكل فعل خيَّر الشارع فيه مع استواء طرفيه أو أخبر عن تلك التسوية فهو مباح، عرض هذا الكلام بعشرة فصول؛ الفصل الأول في الدلالة اللفظية، أما الصيغة فقوله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف: ٣١] (فخذوا) أمر، (وكلوا واشربوا) إباحة، (ولا تسرفوا) نهي ... إلخ.

والفصل الثاني في تقريب أنواع الأمر: كل فعل كسبي عظمه الشرع أو مدحه أو مدح فاعله لأجله، أو فرح به أو أحبه أو أحب فاعله أو رضي به أو رضي عن فاعله أو وصفه بالاستقامة أو البركة أو الطيب أو أقسم به أو بفاعله، أو نصبه سببًا لمحبته أو لثواب عاجل أو آجل، أو نصبه

---

(١) المصدر نفسه (١/ ١٦١).

(٢) العز بن عبد السلام؛ حياته وآثاره ومنهجه في التفسير ص١٤٢ .

سببًا لذكره أو لشكره أو لهدايته أو لإرضاء فاعله أو لمغفرة ذنبه أو لتكفيره أو لقبوله أو لنصرة فاعله أو بشارته، أو وصف فاعله بالطيب أو وصفه بكونه معروفًا، أو نفى الحزن أو الخوف عن فاعله، أو وعده بالأمن أو نصبه سببًا لولاية الله تعالى أو وصف فاعله بالهداية أو وصفه بصفة مدح، كالحياة أو النور والشفاء، أو دعا الله به الأنبياء فهو مأمور به، فنذكر بعض الأمثلة على هذه الأنواع، وهي ثلاثة وثلاثون مثالًا؛ المثال الأول: تعظيم الفعل وتوقيره ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٧] وكذلك الإقسام بالفعل ضرب من تعظيمه وتوقيره ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [القلم: ٤] . . . إلخ.

وهكذا استمر في ذكر بقية الأمثلة والفصول، ويتخلل هذه الفصول فوائد كثيرة، ونلاحظ أن هذا الكتاب يدل على طول باع العز في أصول الفقه، وسعة علمه بمقاصد كتاب الله تعالى، ومعرفته لدلالة الألفاظ واختلافها وتمكنه من اللغة العربية (١).

(ج) **مقاصد الصلاة**: وموضوعها فضل الصلاة وبيان شرفها، وأنها أفضل العبادات بعد الإيمان بالله؛ لأنها قد اشتملت من أفعال القلوب واللسان والجوارح ندبًا وفرضًا ما لم تشتمل عليه عبادة أخرى، وفيها من الأعمال ما هو خاص لله تعالى وخاص بالعبد وخاص بالرسول ﷺ وبالمؤمنين، ثم فصَّل ذلك في سورة الفاتحة التي تقرأ في الصلاة، وتكلم عن أفعال الصلاة حتى ختمها (٢)، وقد حظيت هذه الرسالة النفيسة بعناية السلطان الملك الأشرف فكان يأمر بتلاوتها كلما دخل عليه أحد من خواصِّه، ونصح شمس الدين سِبط بنُ الجوزي الناس بها وهو على المنبر (٣)، قال ابن السبكي فيها: قرئت عليه -أي: السلطان الملك الأشرف- (مقاصد الصلاة) في يوم ثلاث مرات تقرأ عليه، وكُلَّما دخل عليه أحد من خواصِّه يقول للقارئ: قرأ (مقاصد الصلاة) لابن عبد السلام، حتى يسمعها فلان، ينفعه بسماعها.

-من كتب الشيخ: مقاصد الصوم، ومناسك الحج، وأحكام الجهاد وفضله، والغاية في اختصار نهاية المطلب في دراية المذهب لإمام الحرمين الجويني، والجمع بين الحاوي والنهاية (٤).

٥- **الفتاوى**: ومن أهم الكتب في هذا المجال:

(أ) الفتاوى الموصلية.

(ب) الفتاوى المصرية.

---

(١) العز بن عبد السلام؛ حياته وآثاره ص١٤٥ .
(٢) مقاصد الصلاة ص٣ .
(٣) المصدر نفسه ص٣ .
(٤) المصدر نفسه ص٤ .

٦- التصوف:

(أ) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال: وقد تكلم العز في هذا الكتاب على صفات الله وكيفية توحيده وتنزيهه، والوجه الأسلم في ذلك، وكيفية التخلق بصفات الله سبحانه وتعالى، وجاء هذا الكتاب في عشرين بابًا، وفصولًا تمهيدية[١]، وقد تحدث في هذا الكتاب عن كيفية التخلق بالأسماء والصفات، فقال:

- **التخلق بالقدوس:** فقال الشيخ عز الدين: القدوس: هو الطاهر من كل عيب ونقصان، وثمرة معرفته: التعظيم، والإجلال، والتخلق به بالتطهير من كل حرام ومكروه وشبهة وفضل مباح شاغل عن مولاك[٢].

- **التخلق بالسلام:** إن أُخِذَ من تسليمه على عباده فعليك بإفشاء السلام؛ فإنَّه من أفضل خِصال الإسلام، وإن أُخِذَ من السلامة من العيوب، فهو كالقدوس، وإن أُخِذَ من الذي سَلِمَ عباده من ظُلمه، فليسلم الناس من غشمك وظلمك وضَرِّك وشرِّكَ، فإن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده[٣].

- **التخلق بالإيمان:** المؤمن، إن أُخِذَ من تصديق الله نفسه فعليك بالإيمان بكل ما أنزله الرحمن، وإن أُخِذ من أمنه العباد من ظلمه فأظهر من بِرِّك وخيرك ما يؤمن الناس من شرك وضَيْرِك، وإنَ أُخِذ من خالق كل أمن فاسعَ لعباد الله في كل أمن[٤].

- **التخلق بالهيمنة:** المهيمن؛ هو الشهيد، فإن أُخِذَ من مشاهدته لعباده فهو كالبصير، وثمرته كثمرته، والتخلق به كالتخلق به، وإن أخذ من شهادته لعباده عليهم في القيامة، فثمرة معرفته خوفك وحياؤك من شهادته عليك إن عصيته، ورجاؤك شهادته لك إن أطعته، والتخلق به أن تقوم بالشهادة في كل ما نفع وضرَّ، وساء وسرَّ، ولو على نفسك أو الوالدين والأقربين.

- **التخلق بالعزَّة:** العزيز؛ إن أُخِذَ من الغلبة فهو كالقهار، وثمرة معرفته الخوف، وإن أُخِذ من الامتناع من الضَّيم فلا تخلق به إلا في بعض الضيُوم، كَضَيْم الكُفَّار الفُجَّار، وإن أُخذ من الذي يَعِزُّ وجود مثله فهو سالب للنظير، فلا تخلق به إلا بالتوحد بالطاعة والعرفان على حسب الإمكان، بالنسبة إلى أبناء الزمان[٥].

---

(١) العز بن عبد السلام؛ حياته وآثاره ومنهجه في التفسير ص١٥٣ .
(٢) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال ص٣٧ .
(٣) المصدر نفسه ص٣٨ .
(٤) المصدر نفسه ص٣٩ .
(٥) المصدر نفسه ص ٣٩ .

- **التخلق بالجبر**: الجبار، إن أُخِذ من جبرت العظم والفقير إذا أصلحتهما، فثمرة معرفته رجاءُ جبره وإصلاحه والتخلق به، بأن تعامل عباده بكلِّ خير وإصلاح تقدر عليه، أو تصل إليه، وإن أُخِذ من العُلُو فهو كالعَلي، وثمرة معرفته كثمرات معارف جميع الصفات، وإن أُخِذ من الإجبار فهو كالقهَّار[1].

- **التخلق بالتكبر عن الرَّذائل**: المتكبر؛ إن أُخِذ من تكبره عن النقائص فهو كالقدوس، فتكبَّر عن كل خُلُق دنيء، وإن جعل شاملًا لجميع الأوصاف فثمرة معرفته الإجلال والمهابة في جميع الأحوال الحادثات من سائر الصفات، وكذلك العظيم، والجليل والعلي والأعلى[2].

- **التخلق بالحلم**: الحليم؛ هو الذي لا يعجل بعقوبة المذنبين فاحلُم عن كلِّ من آذاك وظلمك، وسَبَّك وشتمك، فإنَّ مولاك صبور حليم، بَرٌّ كريم، يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون.

- **التخلق بالصبر**: الصبور؛ هو الذي يعامل عباده معاملة الصابرين، فعليك بالصبر على أذيَّةِ المؤذين، وإساءة المسيئين، فإن الله يحب الصابرين[3].

- **التخلق بالإعزاز**: المعز؛ خالق العِزّ وثمرة معرفته الطمعُ في إعزازه بالمعارف والطاعات والتخلق به، بإعزاز الدين ومن تبعه من عباد الله المؤمنين.

- **التخلق بالإذلال**: المذل؛ خالق الذُّل وثمرة معرفته خوف الإذلال بالمعاصي والمخالفات، والمعاملة به بإذلال الباطل، وأشياعه وإخمال العُدوان وأتباعه[4].

- **التخلق بالانتقام**: المنتقم؛ هو المعذب لما يشاء من عباده عدلًا، وثمرة معرفته الخوف من انتقامه والتخلق به لمن ابتُلي بشيء من الولايات بالانتقام من الجُناة بالحدود والتعزيرات والعقوبات المشروعات[5].

- **التخلق بالعدل**: الحكم، العدل، المقسِطُ، هو المنصف في وصله وقطعه وبذله ومنعه وضَرِّه ونفعه، وثمرة معرفته خوف الظالم من عدله، ورجاء المظلوم لفضله والتخلق به لمن ابتُلى في ذلك أن يَعْدِل فيما حكم به مسوِّيًا بين الفقير والغني، والضعيف والقوي، والقريب والأجنبي، والعدو والولي، وكذلك يعدل فيما يختص به من أهله وعياله ورقيقه وأطفاله.

- **التخلق باللطف**: اللطيف؛ إن أُخِذ من معرفة الدقائق، فثمرة معرفته خوفُك ومهابتُك وحياؤك من معرفته بدقائق أحوالك، وخفايا أقوالك وأعمالك؛ إذ لا يعزب عن خالق الأشياء

---

(١) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال ص٣٩ .
(٢) المصدر نفسه ص٣٩ .
(٣) المصدر نفسه ص٤١ .
(٤) المصدر نفسه ص٣٩ .
(٥) المصدر نفسه ص٤٣

مثقالُ ذرَّةٍ في الأرض ولا في السماء ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝﴾[الملك: ١٤]، وإن أُخِذ من الرفق فثمرةُ معرفته رجاءُ رفقهِ فيما قضاه ولطفه فيما أمضاه، والتخلق به بالرفق بكل من أُمِّرت به من عباد الله، فإنّ الله لطيف بعباده «**وما كان الرفق في شيء إلا زانه**»[1].

- **التخلق بالشكر**: الشكور؛ إن أُخِذ من ثنائه على عباده فثمرةُ معرفته رجاؤك الدُّخول في مدحته بطاعته ومعرفته والتخلق به بشكر مولاك وشكر أبويْك، وشكر كل من أحسن إليك[2]، «**من لا يشكر الناس لا يشكر الله**»[3].

- **التخلق بالحفظ**: الحفيظ؛ إن أُخِذَ من العلم فقد سبق، وإن أُخِذ من ضبط الأشياء وحفظها، فَثمرةُ معرفتِهِ رجاؤك حفظه في أولاك وأُخراك والتخلق به بحفظ ما أمرت به من الطاعات والأمانات، فإن الله قد مدح الحافظين لحدوده، وبشَّرَهُم بإنجاز وعوده، فقال: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝﴾[ق: ٣٢].

- **التخلق بالإقَاتة**: المُقيتُ؛ إن أُخِذ من القُدرة فلا تخلُّق به، وإن أُخِذ من إقاتة الأقوات، فثمرة معرفته رجاء الإقاتةِ والأرزاق والتخلق به بإقاتة كل محتاج تقدر على إقاتته من قريب أو أجنبي أو ضعيف أو قويَ، مقدّمًا لمن تلزمُك إقاتته الأقرب فالأقرب[4]، «**كفى بالمرء إثمًا أن يضيِّع من يقوت**»[5].

- **التخلق بالحِكمةِ والحُكم**: الحكيم؛ إن أُخِذَ من الحِكمة فثمرة معرفته المهابة والإجلال والتخلق به بمعرفة حُكم الكتَاب والسنة ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[البقرة: ٢٦٩]، وإن أُخِذ من الإحكام والإتقان فثمرة معرفته إجلال من غمّت الأشياء حكمته وحيَّرت الألبَّاءَ صنعته، والتخلق به بإتقان أحوالك وأعمالك، فيما يُصْلحك في عاجِلِك ومآلك.

- **التَّخلُّق بالقُوَّة**: القوي المتين؛ وثمرةُ معرفته مهابته وإجلاله والاعتماد على قُوَّتِهِ، والتخلق به بأن تكون قويًّا في دينك، متينًا في يقينك، مَليًّا بطاعة مولاك.

- **التَّخَلُّق بالتقديم والتأخير**: المُقدِّم والمؤخِّر، ثمرة معرفتهما المهابة والإجلال والاعتماد عليه في تقديمه وتأخيره، ورجاء أن يُقدِّمَك بطاعته، وخوف أن يؤخِّرك بمعصيته، والتخلق بهما بتقديم ما أمرت بتقديمه وتأخير ما أمرت بتأخيره، بأن تقدم الأماثل على الأراذل، وأن تقدم أوجب الطاعات على واجبها، وأفضلها على فاضِلِها، ومضيّقَها على موسّعها، وبأن تقدم القُرُبات والطاعات إلى أوائل الأوقات، فإنَّ الله مدح الذين يسارعون في الخيرات[6].

(١) مسلم رقم (٢٥٩٤).
(٢) شجرة المعارف والأحوال ص٤٥.
(٣) سنن أبي داود رقم (٤٨١١).
(٤) شجرة المعارف والأحوال ص٤٥.
(٥) مسلم رقم (٩٩٦).
(٦) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال ص٤٧.

- **التخلُّق بالبَرِّ**: البرُّ؛ هو المنعم وثمرة معرفته رجاءُ أنواع برِّه، والتخلق به بأن تبرَّ كُلَّ من تقدر على برِّه بأحبِّ أموالك إليك وأنفسِها لديك، فإنَّ مولاك يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران: ٩٢].

- **التخلق بالتوبة**: التَّواب، إن جُعل بمعنى الموفِّق للتوبة فثمرة معرفته رجاء توبته عليك، والتخلق بأن تَحُثَّ المسيءَ على التوبة وتحرِّضَهُ على الأوْبَة، وإن جُعل بمعنى قابل التوبة، فاقبل عذر من أساء إليك وندم على جرأته عليك[١].

- **التخلق بمعنى المغني**: والتخلق به بأن تُغني كلَّ محتاج بما تقدر عليه من علم وغيره، فتذكِّر الغافل وتُعلم الجاهل، وتُقيم المائل، وتُسيِّر العائل.

- **التَّخلُّق بالضُّر والنَّفع**: الضار والنافع، ثمرةُ معرفتهما خوف الضَّرر ورجاءُ النفع، والتخلق بهما بنفع كل من أُمرت بنفعه، وضرّ كل من أُمرت بضره، بحدٍّ أو قتل أو غيره، والخَلْق عيال الله، فأحبهم إليه أنفعهم لعياله، فعليك ببذل المنافع لكلِّ دانٍ وشاسِع[٢].

- **التَّخَلُّق بهداية الضال**: النور الهادي؛ ثمرة معرفتها رجاؤك أن يُنوِّرَ جَنَاتك بمعرفته، ويُزيِّنَ أركانك بآثار هدايته، والتخلق بهما بأن تكون نورًا من أنوار الله، هاديًا إلى صراط الله[٣]، «**فوالله لأن يهدي الله بك رَجُلًا واحدًا خيرٌ لك من أن تكون لك حُمرُ النَّعَم**»[٤].

- **التخلق بالقبض والبسط**: القابض الباسط؛ ثمرة معرفتهما الخوف من قبض منافع الدُّنيا والآخرة، ورجاء بسط الخيرات العاجلة والآجلة، والتخلق بالبسط بأن تبسط برَّك ومعروفك على كلِّ محتاج حتى على الدّواب والكلاب والذَّرِّ إذ[٥] «**في كل كبد رطبة أجر**»[٦]، والتخلق بالقبض بأن تقبض عن كل أحدٍ ما ليس له أهلًا، من مال وولاية وعلم وحكمة فلا تؤتوا السُّفهاء أموالهم فيتلفوها[٧].

- **التخلق ببذل الهبات**: الوهاب؛ ثمرة معرفته رجاء أنواع هباته وصلاته، والتخلق به بكثرة الهبات والصِّلات مُقَدّما للآباء والأُمهات، والبنين والبنات.

- **التخلُّق بالجود والكرم**: الجواد الكريم؛ ثمرة معرفتهما الطَّمعُ في آثار جودهِ وكرمه، والتخلق بهما لمن أرادَ الوصُول إليه بأن تَجُود بكلِّ ما تقدِرُ عليه من مال وجاه، وعلم وحكمة، وبِرٍّ ومساعدة.

---

(١) المصدر نفسه ص٤٧.
(٢) المصدر نفسه ص٤٨.
(٣) المصدر نفسه ص٤٨.
(٤) البخاري رقم (٢٩٤٢).
(٥) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال ص٤٨.
(٦) البخاري رقم (٢٣٦٣).
(٧) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال ص٤٩.

- **التخلق بالإجابة**: المجيب؛ ثمرةُ معرفته رجاء إجابةِ دعائك لعِلمه بافتقارك إليه واعتمادك عليه، وأنه سامعٌ لدعائك عالم ببلائِك، خابر لسرَّائِك وضرَّائِك، والتخلق به بإجابة مولاك فيما دعاك إليه من قُرُباته، وبإجابة كل داع إلى ما يُرضي مولاك في طاعاته وعباداته(١).

- **التخلق بالمجد**: المجيد الذي كثر شرفه، وتمَّ كماله وجلاله في ذاته وصفاته، وثمرة معرفته المهابة والإجلال، ويمكن التخلق به مما سبق ذكره، فإنه شامل لجميع الصفات كما شمِلَها ذو الجلال والإكرام(٢).

فهذه إشارات إلى كيفية التخلُّق بالصِّفات ولا يحصل التخلق بالصفات إلَّا لمن واظب على التحديق إليها والإقبال عليها، ولذلك أمرنا الله تعالى بإكثار ذكره لنُلابس ما يثمره ذكره من الأحوال والأقوال والأعمال(٣).

ومن أفضل التخلُّقات أن تُحسِن إلى عباد الله بمثل ما أَحسنَ به إليك، وأن تُنعم عليهم بمثل ما أنعم به عليك، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ [الضحى: ٩]؛ أي عامِلْه بمثل ما عامَلناك، فإنَّا وجدناك يتيمًا فآويناك، ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ [الضحى: ١٠]؛ أي عامل العائلَ السائلَ بمثل ما عاملناك، فإنا وجدناك عائلًا فأغنيناك، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى: ٧]؛ أي حَدِّثهم بما أنعمنا به عليك من هدايتنا ليهتدوا بذلك، فإنَّا وجدْناك ضالًّا فهديناك(٤).

وقد جاء كتاب شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأفعال في عشرين بابًا وفصولًا تمهيدية، وتكلم في الفصول التمهيدية عن القربات وآداب القرآن، وبيان فضائل الأعمال الظاهرة والباطنة، وبيان رتب الوسائل والأسباب وثمرات المعارف وفوائدها، وما يتفاضل به العباد، وهذه الفصول موجودة في مقدمة وخاتمة كتابه (قواعد الأحكام في مصالح الأنام)، ثم تكلم في الباب الأول عن التخلق بصفات الرحمن على حسب الإمكان، أما الباب الثاني، فقد تكلم فيه عن كل صفة من صفات الرب مع ذكر دليلها وثمرة معرفتها وكيفية التخلق بها، وفي الباب الرابع تكلم عما يتعلق بالقلوب والجوارح من الأحكام؛ من المأمورات والمنهيات والمعفوات والمباحات، وأما الباب الخامس ففي المأمورات الباطنية وفيه ستة وخمسون ومائة فصل، تتعلق بكل ما أمر الله به من الأعمال الباطنة؛ كالتوكل على الله والتعزز بالله، والتذلل لأولياء الله، وذكر الدليل على كل خُلق من هذه الأخلاق من القرآن والسنة.

وأما الباب السادس فقد تكلم فيه عن المنهيات الباطنية؛ كالجهل بما يجب تعلمه، وانشراح الصدر بالباطل، وفي محبة الكفار والأنداد، وما شابه ذلك، وتكلم فيه في ثلاثة ومائة فصل،

---

(١) المصدر نفسه ص٤٩ .
(٢) المصدر نفسه ص٤٩ .
(٣) المصدر نفسه ص٥٠ .
(٤) شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال ص٥١ .

وأما الباب الثامن عشر في تعرف المصالح والمفاسد وما يقدم فيها عند التعارض، وهذا تكرار لما هو موجود في أول كتاب (قواعد الأحكام)، وفي الباب التاسع عشر تكلم عن حسن العمل بالظنون الشرعية وهو تكرار لما هو موجود في قواعده أيضًا، وختم الكتاب بالباب العشرين في الورع في العبادات والمعاملات. انتهى باختصار(١).

هذه هي أهم مصنفات ومؤلفات الشيخ عز الدين بن عبد السلام.

٧- **سمات التأليف عند الإمام عز الدين بن عبد السلام**: يتسم التأليف عند الإمام بسمات أبرزها:

(أ) **تنوع الموضوعات التي ألَّف فيها الإمام**: كما مر معنا من ذكر مؤلفاته، ومن هذه المؤلفات ما هو مطوَّل؛ كتفسير القرآن العظيم، وقواعد الأحكام في مصالح الأنام، ومنها ما هو مختصر؛ كمختصر النكت والعيون، ومختصر الرعاية لحقوق الله للمحاسبي، والقواعد الصغرى، ومنها ما هو على شكل رسائل؛ كالفَرْق بين الإسلام والإيمان، وملحمة الاعتقاد، ومنها ما فتاوى؛ كالفتاوى الموصلية والمصرية.

(ب) **تنوع القضايا التي يتعرض لها الإمام**: في المؤلف الواحد من مؤلفاته -غير الرسائل والفتاوى- نجده أحيانًا يتطرق لبحث مسائل تتعلق بالعقيدة، أو التصوف، أو اللغة، أو البلاغة، وهذا النهج في الاستطراد من الأمور التي اشتهر بها الإمام في تأليفه وتدريسه.

(ج) **تكرير بعض الموضوعات في العديد من مؤلفاته**: ولعل ذلك من باب التأكيد عليها حتى تستقر في الأذهان، و حتى ترسخ في أضعف العقول، وقد يكون هذا نابعًا من دربته في صحبة القرآن الكريم، فأخذ عنه التكرير لما في التكرير من فوائد؛ كالتأكيد، وزيادة التنبيه، وتجديد العهد بالموضوع الأول إذا طال الكلام وخشي تناسيه(٢)، وها هو الإمام يوضح لنا الغرض من ذلك فيقول: حرصًا على البيان والتقرير في الجنان كما تكررت المواعظ والقصص والأمر والزجر، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، وغير ذلك في القرآن، ولا شك أن في التكرير والإكثار من التقرير في القلوب ما ليس في الإيجاز والاختصار(٣)، ولا يترك الإمام فرصة للمعترضين على أسلوبه هذا فيرد عليهم قبل أن يواجهوه بأنه: يظن بعض الجهلة الأغبياء أن الإيجاز والاختصار أولى من الإسهاب والإكثار وهو مخطئ في ظنه لما ذكرنا من التكرير في القرآن، والعادة شاهدة بخطئه في ظنه، وما دلت العادة عليه، وأرشد القرآن إليه أولى مما وقع للأغبياء الجاهلين الذين لا يعرفون عادة الله ولا يفهمون كتاب الله(٤).

---

(١) العز بن عبد السلام؛ حياته وآثاره ص٥٣ .

(٢) مقاصد الشريعة عند الإمام العز بن عبد السلام ص٥٢ .

(٣) قواعد الأحكام (١/ ١٣٦).

(٤) مقاصد الشريعة عند العز بن عبد السلام ص٥٢ .

(ح) **اهتمامه البالغ بالمقصد العام والأساس للشريعة**: وهو جلب المصالح ودرء المفاسد والتدليل عليه والإكثار من التمثيل له حتى يكون دومًا حاضرًا في أذهان المكلفين أثناء أقوالهم وأفعالهم وجميع تصرفاتهم، غير غافلين عنه في أي لحظة من لحظات أعمارهم، وهذه الروح -روح المقاصد- تسري في معظم كتبه مثل (قواعد الأحكام) واضحة وضوح الشمس، وكذلك في (شجرة المعارف) واضحة بما يعرضه من نماذج وأمثلة تكاد تكون في معظمها وسائل لتحقيق مقاصد الشريعة الغراء وإقامتها في واقع الناس، ولا يقتصر تحقيق المصلحة عند الشيخ العز على المسلم فقط، بل يتعداه إلى الكافر وحتى الحيوان [(١)]، عملًا بقوله ﷺ: «**في كل كبد رطبة أجر**» [(٢)]، قال الشيخ عز الدين: والتخلق بالبسط، أن تبسط بِرَّك ومعروفك على كل محتاج حتى على الدواب والكلاب، والذر [(٣)]، وأفرد الباب السابع في كتابه (شجرة المعارف) لبيان أن الإحسان عبارة عن جلب مصالح الدارين أو إحداهما، ودفع مفاسدهما أو مفاسد إحداهما [(٤)]، وتحدث فيه كذلك عن الإحسان القاصر والمعتدي، وبيَّن في كتابه (الإمام في بيان أدلة الأحكام) أن الترغيب في الفعل أو التحذير منه راجع إلى المنافع والمضار [(٥)]، وهذه نظرة كلية منه رحمه الله إلى مقاصد الشريعة التي جاءت لتحكم بسلطان الدين الحياة البشرية تحقيقيًا لمصالح العباد، ودرءًا للمفاسد عنهم [(٦)].

(خ) **كُتُبه في متناول العالم والجاهل**، ولا تحتاج إلى كبير عناء في فهمها لسلاسة تعابيرها وإشراقة عبارتها وكثرة التمثيل فيها مما يزيد معانيها توضيحًا وبيانًا، وبهذا يكون قد فاق الشاطبي الذي جعل كتابه (الموافقات) لفئة خاصة من الناس كما ذكره في المقدمة [(٧)].

(د) **توخي أسلوب الوعظ أحيانًا مع تجنب السجع المتكلف رغم فُشوِّه في عصره وقد تحاشاه الإمام حتى في خطبه**.

(ذ) **اعتماده في مؤلفاته على الكتاب والسنة** حرصًا منه على التلقي من النبع الصافي، وقلما نجده يعتمد على آراء من سبقه من العلماء اعتدادًا بملكته العلمية المستقلة، وبلوغه رتبة الاجتهاد، وتحرره من قيود المذهبية الضيقة، وقد نص بعض من ترجم له أنه كان في آخر عمره لا يتقيد بالمذهب، بل اتسع نطاقه وأفتى بما أدى إليه اجتهاده [(٨)]، وما ذلك إلا حرصًا منه على توحيد الأمة واجتناب الخلافات.

(س) **تمتاز كتبه بالطابع العلمي**، والتعليقات الدقيقة على النصوص، والنظرات العميقة فيها، استوحاها الإمام من مقاصد الشريعة وأهدافها النبيلة.

---

(١) المصدر نفسه ص٥٣ .
(٢) المصدر نفسه ص٥٣ .
(٣) المصدر نفسه ص٥٤ .
(٤) المصدر نفسه ص٥٤ .
(٥) المصدر نفسه ص٥٤ .
(٦) المصدر نفسه ص٥٤ .
(٧) المصدر نفسه ص٥٤ .
(٨) مقاصد الشريعة عند الإمام العز بن عبد السلام ص٥٥ .

(ش) **استقلاليته في التأليف،** وبروز شخصيته شخصية مميزة في استقلالها، مبرزة في نبوغها، قوية في تأثيرها في المجتمع، يظهر ذلك في نبذه للتقليد ودعوته للاجتهاد، واستفادات العز من غيره لم تُذهب بشخصيته(١).

ولقد تبوأت مؤلفات عز الدين بن عبد السلام مكانه عالية تجلت في اهتمام السابقين واللاحقين بها، ومن مظاهر هذا الاهتمام؛ إشادة السابقين واللاحقين بها، والحرص على نسخها في القديم وطبعها بعد تحقيقها في عهدنا، وتدريس مؤلفاته وتداولها والعمل على شرحها، وكثير من العلماء من ينقل من مؤلفاته عند الاستدلال، مثل: ابن كثير، والشاطبي، وابن حجر، والمناوي، والسيوطي والفتوحي(٢)، وغيرهم كثير.

٨- **الشيخ العز بن عبد السلام وتطوير الفقه السياسي والعلاقات الدولية:** رغم أن سلطان العلماء، الفقيه عز الدين بن عبد السلام لم يقصد عند كتابته لمؤلفاته تخصيصها للقانون الدولي والعلاقات الدولية إلا أن مطالعتها تبين لنا انشغاله -بطريقة أو بأخرى- بأمور تدخل في إطارها سواء تعلقت بها مباشرة، أو لكونها تمثل قواعد عامة أصولية تنطبق عليها أيضًا، وأهم الوسائل التي عالجها ابن عبد السلام تتمثل في الأمور الآتية:

(أ) **السلطة الحاكمة في نظر عز الدين بن عبد السلام:** عالج الإمام عز الدين بن عبد السلام السلطة الحاكمة، كعنصر من عناصر الدولة الحديثة من زوايا متعددة أهمها:

- **ضرورة توفر العدل لدى الحكام:** يقرر عز الدين بن عبد السلام أن العادل من الأئمة والولاة من الحكام أعظم أجرًا من جميع الأنام بإجماع أهل الإسلام؛ لأنهم يقومون بجلب كل صالح كامل، ودرء كل فاسد شامل(٣)، واشتراط العدالة يعد أمرًا لازمًا لتكون وازعة عن الخيانة والتقصير في الولاية، ولأن العدل -وهو التسوية لغة مع إعطاء كل ذي حق حقه- يعتبر عنصرًا لازمًا لحياة أي مجتمع، ومع ذلك يقرر العز بن عبد السلام أن اشتراط العدالة في الإمامة الكبرى فيها اختلاف لغلبة الفسوق على الولاة(٤)، فيقرر: ولو شرطناها لتعطلت التصرفات الموافقة للحق في تولية من يولونه من القضاء والولاة والسعادة وأمر الغزوات، وأخذ ما يأخذونه، وبذل ما يعطونه، وقبض الصدقات والأموال العامة والخاصة المندرجة تحت ولايتهم، فلم تشترط العدالة في تصرفاتهم الموفقة للحق لما في اشتراطها من الضرر العام، وفوات هذه المصالح أقبح من فوات عدالة السلطان(٥).

(١) المصدر نفسه ص٥٥.
(٢) المصدر نفسه ص٥٦-٦١.
(٣) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/ ١٤٣).
(٤) كتاب الإعلام بقواعد القانون الدولي (١٣/ ٢٧٨).
(٥) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/ ٧٩).

- **تولية الصالح أو الأصلح (مع عزل المريب)**: يعتبر الحاكم رأس الدولة أو الإقليم الذي يحكمه، وبالتالي بات من الواجب أن يكون أصلح من تتوافر فيه الشروط اللازمة للقيام بهذه المهمة، لذلك يرى سلطان العلماء أن على الإمام أن يعزل الحاكم إذا أرابه منه شيء، لما في إبقاء المريب من المفسدة، إذ لا يصلح في تقرير المريب على ولاية خاصة، لما يخشى من خيانته فيها، وإذا سلم تكن هناك ريبة، وجب التفرقة بين فروض ثلاثة:

الأول: أن يعزله بمن هو دونه، ففي هذا الفرض لا يجوز عزله لما فيه من تفويت المسلمين المصلحة الحاصلة من جهة فضله على غيره، ولأنه ليس للإمام تفويت المصالح من غير معارض.

الثاني: أن يعزله بمن هو أفضل منه، وهذا جائز لما فيه من تقديم الأصلح على الصالح، ولتحصيل المصلحة الصالحة للمسلمين.

الثالث: أن يعزله بمن يساويه، وهذا جائز في نظر البعض لما له من حق الاختيار عند تساوي المصالح، ولما له من حق التخير بينهما في ابتداء الولاية، بينما يرى آخرون عدم جوازه لما فيه من كسر العزل وعاره بخلاف ابتداء الولاية[1].

- **التصرفات الصادرة من غير ولاية صحيحة**: تعرض العز بن عبد السلام كذلك للتصرفات التي قد تصدر من أشخاص ليس لهم الحق في القيام بها، ولكن نظرًا لصدورها في ظروف معينة فإنها تعتبر صحيحة[2]، وقد تعرض لصنفين من التصرفات هما:

- **تصرفات الأئمة البغاة**: تعتبر هذه التصرفات نافذة مع القطع بأنه لا ولاية لهم، وإنما نفذت تصرفاتهم لضرورة الرعايا، كما أنه إذا نفذ ذلك مع ندرة البغي فأولى أن ينفذ تصرف الولاة والأئمة مع غلبة الفجور عليهم، وأنه لا انفكاك للناس عنهم[3].

(أ) تصرف الآحاد في الأموال العامة عند جور الأئمة: إذا كانت القاعدة العامة تقضي بأن الأموال العامة لا يتصرف فيها إلا الأئمة ونوابهم، فإنه إذا تعذر قيامهم بذلك وأمكن القيام بها بواسطة فرد أو أكثر جاز ذلك، على أن ذلك مشروط بصرفه إلى مستحقيه على الوجه الذي يجب على الإمام العادل أن يصرفه فيه؛ بأن يقدم الأهم فالأهم، والأصلح فالأصلح، فيصرف كل مال خاص في جهاته أهمها فأهمها، ويصرف ما وجد من أموال المصالح العامة في مصارفها أصلحها فأصلحها؛ لأنَّا لو منعنا ذلك لفاتت مصالح صرف تلك الأموال إلى مستحقيها، فكان تحصيل هذه المصالح ودرء هذه المفاسد أولى من تعطيلها.. وإذا جوز الشرع لمن جحد حقه

(١) المصدر نفسه (١/ ٨١).
(٢) كتاب الإعلام بقواعد القانون الدولي والعلاقات الدولية (١٣/ ٢٧٩).
(٣) المصدر نفسه (١٣/ ٣٧٩).

أن يأخذ من مال جاحده إذا ظفر به إن كان من جنسه، وأن يأخذه ويبيعه، إن كان من غير جنسه، مع أن هذه مصلحة خاصة فجواز ما ذكرناه مع عمومه أولى[١].

(ب) بعض القواعد التي يمكن تطبيقها في إطار العلاقات الدولية عند الإمام عز الدين بن عبد السلام: تتميز العلاقات الدولية الحالية بصفتها الاجتماعية وبترابط وتداخل أواصر العلاقات الموجودة بين مختلف أشخاص القانون الدولي، والعلاقات الدولية أو السياسية الخارجية لأي بلد معين تنبع -أو يجب أن تنبع- من المصلحة العليا لشعبه مع مراعاة ظروف البيئة التي يتم في داخلها اتخاذ القرار وسنجد -بإذن الله- أن الإمام عز الدين بن عبد السلام قد عالج بطريقة عامة ما قلناه، ويمكن أن نركز فكره حول ثلاث أفكار أساسية نطلق عليها المسميات الآتية، ترابط العلاقات الدولية، ونظرية تدرج العلاقات الدولية، وأخيرًا نظرية الضرورة[٢].

- **ترابط العلاقات الدولية:** تقوم العلاقات الدولية المعاصرة على أساس فكرة الترابط أو التداخل أو التشابك والتي يرجع تفسيرها أساسًا إلى حاجة أفراد المجتمع الدولي بعضهم لبعض، وإذا كان العز بن عبد السلام لم يتحدث عن المجتمع الدولي صراحة إلا أن ذلك يمكن استنباطه مما قاله في الفقرة الآتية: اعلم أن الله تعالى خلق الخلق وأحوج بعضهم إلى بعض لتقوم كل طائفة بمصالح غيرها، فيقوم بمصالح الأصاغر الأكابر، والأصاغر بمصالح الأكابر، والأغنياء بمصالح الفقراء، والفقراء بمصالح الأغنياء، والنظراء بمصالح النظراء، والنساء بمصالح الرجال، والرجال بمصالح النساء، والرقيق بمصالح السادات، والسادات بمصالح الرقيق، وهذا القيام منقسم إلى جلب مصالح الدارين أو أحدهما، أو إلى دفع مفاسدها أو أحدهما[٣].

- **ضرورة تدرج العلاقات الدولية لبلد ما:** نحن نعتقد أن العلاقات الدولية إذا كانت تتسم حاليًا بصفة الشمولية أو الكلية إلا أنها -بالنسبة لبلد معين- يجب أن يتم تخطيطها في إطار ظروف هذا البلد وعلى ضوء إمكاناته ومقدراته، والنتيجة اللازمة والمترتبة على ذلك المفهوم هو منع التهور أو التخبط في رسم أو اتخاذ سياسة خارجية معينة، ولعل ذلك ما قصده الإمام ابن عبد السلام حينما قرر أنه إذا اجتمعت المصالح فإن أمكن تحصيلها حصلناها، وإن تعذر تحصيلها حصلنا الأصلح فالأصلح والأفضل فالأفضل[٤]، ويضرب لذلك أمثلة دولية من بينها:

- أن الجهاد لو وجب في الابنداء لأباد الكفرة أهل الإسلام لقلة المؤمنين وكثرة الكافرين.

---

(١) المصدر نفسه (١٣/ ٣٨٠).
(٢) المصدر نفسه (١٣/ ٣٨٠).
(٣) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (٢/ ٦٨).
(٤) كتاب الإعلام بقواعد القانون الدولي (١٣/ ٣٨١).

- أن القتال في الشهر الحرام لو أحل في ابتداء الإسلام لنفروا منه لشدة استعظامهم لذلك، وكذلك القتال في البلد الحرام، كل ذلك دلالة قاطعة على أنه لا يجوز تقرير شيء أو اتخاذ قرار إلا على ضوء البيئة التي سيطبق فيها، ومع مراعاة كافة الظروف والمواقف، وأن اتخاذ قرار في إطار العلاقات الدولية قد تحتم الظروف ضرورة تدرجه [١].

- **نظرية الضرورة**: تعتبر حالة الضرورة من المبادئ المسلم بها في إطار النظرية العامة للقانون، وهي مبدأ مُطبَّق في مختلف النُّظم القانونية، بما في ذلك النظام القانوني الدولي [٢]، فالضرورات مناسبة لإباحة المحظورات جلبًا لمصالحها، ذلك أنه إذا اجتمعت المفاسد مع تعذر درئها جميعًا درأنا الأفسد فالأفسد والأرذل فالأرذل، ويضرب الإمام عز الدين بن عبد السلام مثالًا لذلك بما جرى في إطار العلاقات الدولية أيام الرسول ﷺ بخصوص صلح الحديبية: فإن قيل: لِمَ التزم في صلح الحديبية إدخال الضيم على المسلمين وإعطاء الدنية في الدين؟ قلنا: التزام ذلك دفعًا لمفاسد عظيمة وهي قتل المؤمنين والمؤمنات، فاقتضت المصلحة إيقاع الصلح على أن يُردَّ إلى الكفار من جاء منهم إلى المؤمنين وذلك أهون من قتل المؤمنين الخاملين [٣].

(ج) أسس العلاقات بين المسلمين وغيرهم مع الأعداء في تقدير الإمام عز الدين بن عبد السلام: تحدث الإمام عز الدين بن عبد السلام عن بعض الأسس التي تحكم العلاقة بين المسلمين وغيرهم وأهم هذه الأسس ما يلي:

- **الجزية**: اتَّهم كثير من غير المسلمين الإسلام بأنه دين يهدف إلى تقرير أمور مالية على غير المسلمين تعتبر وسيلة لإجبارهم على الدخول فيه؛ ومن بين هذه الوسائل الجزية التي يدفعها أهل الكتب السماوية، ويعتبر ما قال الإمام ابن عبد السلام في هذا الصدد ردًّا حاسمًا: ولا تؤخذ الجزية عوضًا عن تقريرهم على الكفر، وشتمه ونسبته إلى ما لا يليق بعظمته، ومن ذهب إلى ذلك فقد أبعد، وإنما الجزية مأخوذة عوضًا عن حقن دمائهم وصيانة أموالهم وحرمهم وأطفالهم، مع الذب عنهم إن كانوا في ديارنا، وليست مأخوذة عن سكن دار الإسلام؛ إذ يجوز عقد الذمة مع تقريرهم في ديارهم [٤].

- **مراعاة القواعد الإنسانية**: تلعب قواعد القانون الدولي الإنساني الآن دورًا مهمًّا في إطار المنازعات المسلحة، باعتبار أنها تهدف إلى تجنيب المشتركين فيها أو الذين قد يتورطون -بطريقة أو بأخرى- في إرتكابها أو يتعرضون لويلاتها لمظاهر المعاناة غير المفيدة باعتبار أنهم في النهاية كائنات بشرية يجب احترام آدميتها، لذلك يقرر مثلًا الإمام عز الدين بن عبد السلام: إذا اختلط قتلى

(١) المصدر نفسه (١٣/ ٣٨١).
(٢) المصدر نفسه (١٣/ ٣٨٢).
(٣) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/ ٩٥).
(٤) المصدر نفسه (١/ ١١٠).

المسلمين بقتلى الكفار فإنا نُغسِّل الجميع ونكفنهم؛ توسلًا إلى إقامة حقوق المسلمين من الغسل والدفن والتكفين، وكذلك إذا تعارضت شهادتان في كفر الميت وإسلامه فإنَّا نغسله ونكفنه ونصلي عليه وندفنه في قبور المسلمين (١).

ويضيف الإمام في موضع آخر عدم جواز قتل غير المشاركين في الحرب إلا إذا دعت إلى ذلك ضرورة، فيقول: قتل الكفار من النساء والمجانين والأطفال مفسدة، لكنه يجوز إذا تترس بهم الكفار بحيث لا يمكن دفعهم إلا بقتلهم (٢).

- **أسرى الحرب**: غالبًا ما يترتب على الحرب وقوع أسرى من الجانبين أو على الأقل من جانب واحد، ودائمًا ما تُبذل محاولات من أطراف محايدة لحمل الأطراف المتحاربة على إجراء عمليات تبادل الأسرى بالعدد وفي المكان المتفق عليه، وللإمام عز الدين بن عبد السلام رأي في هذا الصدد؛ إذ يقول: وقد تجوز المعاونة على الإثم والعدوان والفسوق والعصيان لا من جهة كونه معصية، بل من جهة كونه وسيلة إلى مصلحة، وله أمثلة منها ما يبذل في افتكاك الأسارى فإنه حرام على آخذيه مباح لباذليه، وليس هذا على التحقيق معونة على الإثم والعدوان والفسوق والعصيان، وإنما هو إعانة على درء المفاسد، فكانت المعاونة على الإثم والعدوان والفسوق والعصيان فيها تبعًا لا مقصودًا (٣).

(ح) استيلاء الأعداء على إقليم من أقاليم المسلمين:

- أثر تصرفات سلطة الاحتلال في مجال الإدارة والقضاء: من آثار الحرب المحتملة قيام أحد الطرفين بالاستيلاء على جزء من إقليم الطرف الآخر، وقد يقوم المحتل بإجراء تغييرات في الإدارة والقضاء والتشريع بما يتفق ونزعته الاحتلالية، وبما يضمن له الاستقرار والولاء، وقد عالج الإمام عز الدين أحد المظاهر بقوله: ولو استولى الكفار على إقليم عظيم فولوا القضاء لمن يقوم بمصالح المسلمين العامة، فالذي يظهر إنفاذ ذلك كله جلبًا للمصالح العامة ودفعًا للمفاسد الشاملة؛ إذ يبعد عن رحمة الشرع ورعايته لمصالح عباده تعطيل المصالح العامة وتحمل المفاسد الشاملة لفوات الكمال فيمن يتعاطى توليتها لمن هو أهل لها، وفي ذلك احتمال بعيد (٤).

- **موقف ابن عبد السلام من احتلال إقليم مسلم**: قَدِم العز بن عبد السلام سلطان العلماء سنة (٦٣٩هـ) إلى مصر من دمشق بسبب أن سلطانها الصالح إسماعيل استعان بالفرنج وأعطاهم مدينة

(١) المصدر نفسه (٢/ ٢٠).
(٢) كتاب الإعلام بقواعد القانون الدولي (١٣/ ٣٨٤).
(٣) المصدر نفسه (١٣/ ٣٨٤) نقلًا عن قواعد الأحكام في مصالح الأنام.
(٤) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١٣/ ٣٨٥).

صيدا وقلعة الشقيف، فأنكر عليه الشيخ عز الدين وترك الدعاء له في الخطبة، وساعده في ذلك الشيخ جمال الدين أبو عمر المالكي، فغضب منهما السلطان، فخرجا إلى الديار المصرية، فأرسل السلطان إلى الشيخ عز الدين وهو في الطريق قاصدًا يتطلف به في العودة إلى دمشق، فاجتمع به ولاينه، وقال له: ما نريد منك شيئًا إلا أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير، فقال له الشيخ: يا مسكين، ما أرضاه يقبل يدي فضلًا عن أن أقبل يده، يا قوم أنتم في وادٍ وأنا في وادٍ، والحمد لله الذي عافانا مما ابتلاكم به[١].

- **ضرورة الانشغال بالأعداء وعدم محاربة المسلمين:** هناك موقف آخر مشهور للعز بن عبد السلام يتمثل في المبدأ القاضي بضرورة: الانشغال بالأعداء، ومحاربتهم بدلًا من الالتفات للمسلمين ومعاداتهم، ذلك أنه لما مرض الملك الأشرف من بني أيوب أرسل للشيخ يتحلل ويسأله أن يعوده ويوصيه بما ينفعه، فأنعم الشيخ وكان السلطان قد وقعت بينه وبين أخيه الكامل وحشة فأمر وهو في مرضه أن ينصب دهليزه صوب مصر، فقال الشيخ للسلطان: إن الملك الكامل أخوك الكبير ورحمك، وأنت مشهور بالفتوحات، والتتار قد خاضوا بلاد المسلمين فتترك ضرب دهليزك إلى أعداء الله وأعداء الإسلام وتضربه صوب أخيك؟ غيِّر الحال ولا تقطع رحمك وانوِ مع الله نصر دينه، وإعزاز كلمته فإن منَّ الله بعافيتك رجونا من الله إدالتك على الكفار وكانت في ميزانك هذه الحسنة العظيمة، وإن قضى الله بانتقالك كان السلطان في خفارة نيتك، فقال: جزاك الله خيرًا عن إرشادك ونصيحتك، وأمر بنقل دهليزه صوب التتر[٢].

(س) حقوق الإنسان عند الإمام ابن عبد السلام: تعرض الإمام ابن عبد السلام للعديد من مسائل حقوق الإنسان، يمكن أن تجمعها في أمرين؛ مسئولية السلطة الحاكمة، وأنواع حقوق الإنسان.

- **مسئولية السلطة الحاكمة:** يقول ابن عبد السلام: وأما ولاة السوء وقضاة الجور فمن أعظم الناس وزرًا وأحطهم درجة عند الله؛ لعموم ما يجري على أيديهم من جلب المفاسد العظام ودرء المصالح الجسام، وإن أحدهم ليقول الكلمة الواحدة، فيأثم بها ألف إثم وأكثر على حسب عموم مفسدة تلك الكلمة، وعلى حسب ما يدفعه بتلك من مصالح المسلمين، فيا لها من صفقة خاسرة وتجارة بائرة[٣]. ويشير ابن عبد السلام إلى أمر مهم يعاجل نفوس كثير من الحكام، وهو وقوعهم في المظالم، فيحثهم على فعل العدل وترك الظلم؛ حيث يقول ابن عبد السلام: إن ما فوَّتوه من الأموال مضمون عليهم في الدين، فإن فنيت حسناتهم طرح عليهم من سيئات من ظلموه، وكذلك الحكم في الدماء والإبضاع والأعراض، وفيما أخروه من

---

(١) كتاب الإعلام بقواعد القانون الدولي (١٣/ ٣٨٥).
(٢) المصدر نفسه (١٣/ ٣٨٧).كتاب الإعلام بقواعد القانون الدولي (١٣/ ٣٨٧).
(٣) المصدر نفسه (١٣/ ٣٨٧).

الحقوق التي يجب تقديمها، أو قدموه من الحقوق التي يجب تأخيرها، فقد قال رب العالمين: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾.

- **تقسيمات الحقوق والأمور التي تتعلق بها**: يقسم ابن عبد السلام حقوق الرب وحقوق العباد أقسام؛ أحدها متساوي، وثانيها متفاوت، والثالث مختلف في تساويها وتفاوتها.

- فقد تطرق إلى تقديم حقوق بعض العباد على بعض لترجيح التقديم على التأخير في جلب المصالح ودرء المفاسد، مثال ذلك: تقديم نفقة زوجة وكسوتها وسكناها على نفقة أصوله وكسوتهم وسكناهم.

- وأشار ابن عبد السلام أيضًا إلى حالة التساوي في حقوق العباد، فيتخير فيه المكلف جمعًا بين المصلحتين ودفعًا للضررين، مثال ذلك: التسوية بين الزوجات في القسم والنفقات، وتسوية الحكام بين الخصوم في المحاكمات(١).

- وأشار كذلك إلى تقديم حقوق الرب على حقوق عباده إحسانًا إليهم في أُخراهم، مثال ذلك: التغرير بالنفوس والأعضاء في قتال من يجب قتاله.

- وأشار أيضًا إلى تقديم بعض حقوق العباد على حقوق الرب رفقًا بهم في دنياهم؛ كالأعذار المجوزة لقطع الصلوات ولترك الجهاد(٢).

وتعرض ابن عبد السلام لأمور أخرى تتعلق بحقوق الإنسان منها:

- قاعدة لا يجوز تعطيل الإنسان عن منافعه وأشغاله إلا ما استثنى؛ كاستدعاء الحاكم للمدعي بناء على طلب خصمه، أو استدعائه للشهود(٣).

- ويقول ابن عبد السلام: إنما شرعت القرعة عند تساوي الحقوق دفعًا للضغائن والأحقاد، وللرضا بما جرت به الأقدار وقضاء الملك الجبار(٤)، وتعليقًا على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ يقول ابن عبد السلام: وإذا كان هذا في حقوق اليتيم فأولى أن يثبت في حقوق عامة المسلمين فيما يتصرف فيه دائمًا من الأموال العامة؛ لأن اعتناء الشرع بالمصالح العامة أوفر وأكثر من اعتنائه بالمصالح الخاصة(٥).

- **قواعد ومبادئ أخرى قررها ابن عبد السلام**: يمكن إيجاز بعض القواعد والمبادئ التي قررها ابن عبد السلام، والتي يمكن الاستفادة منها في مجال القانون الدولي والعلاقات الدولية، كما يلي:

---

(١) المصدر نفسه (١٣/١٣/٣٨٧) نقلًا عن قواعد الأحكام.
(٢) المصدر نفسه (١٣/٣٨٧).
(٣) كتاب الإعلام بقواعد القانون الدولي (١٣/٣٨٩).
(٤) المصدر نفسه (١٣/ ٣٩٠) نقلًا عن قواعد الأحكام (٢/ ٨٩).
(٥) المصدر نفسه (١٣/ ٣٩١).

- **قاعدة:** وأما مصالح الدنيا وأسبابها ومفاسدها فمعروفة بالضرورات والتجارب والعادات والظنون المعتبرات، فإن خفي شيء من ذلك طلب من أدلته، ومن أراد أن يعرف المتناسبات والمصالح والمفاسد راجحها ومرجوحها، فليعرض ذلك على عقله بتقدير أن المشرع لم يرد به ثم يبني عليه الأحكام فلا يكاد حكم منها يخرج عن ذلك، وبذلك تعرف حسن الأعمال وقبحها.

- **الإمام والحكم:** إذ أتلف شيئًا من النفوس أو الأموال في تصرفها للمصالح فإنه يجب على بيت المال دون الحاكم والإمام ودون عواقلهما؛ لأنهما لما تصرفا للمسلمين صار كأن المسلمين هم المتلفون، ولأن ذلك يكثر في حقهما فيتضررون به ويتضرر عواقلهما..

- **ويرى ابن عبد السلام:** أن من أمثلة الأفعال المشتملة على المصالح والمفاسد مع رجحان مصالحها على مفاسدها؛ وجوب إجارة رسل الكفار مع كفرهم، لمصلحة ما يتعلق بالرسالة من المصلحة الخاصة والعامة، ولعل ابن عبد السلام يكون بهذه القاعدة الأخيرة قد أشار إلى مبدأ حصانة وحرمة السفراء والمبعوثين الدبلوماسيين، وهو مبدأ استقر عليه القانون الدولي المعاصر[(١)].

هذه بعض الخطوط العريضة فيما يتعلق في جهد الشيخ عز الدين في تطوير قواعد القانون الدولي والعلاقات الدولية.

سادسًا: أعماله في التدريس والإفتاء والقضاء والخطابة:

١- **في التدريس:** قام العز بن عبد السلام بالتدريس في مدارس دمشق ومساجدها، وهو أول عمل قام به العز رحمه الله، وأول مدرسة عمل بها هي المدرسة العزيزية؛ حيث كان للعز مجلس فيها يدرِّس فيه العلوم الشرعية، كما كان يدرِّس فيها الآمدي (ت٦٣١هـ) واستمر العز في التدريس مع أستاذه الآمدي وبعده، كما درَّس في المدرسة الشبلية، ثم تولى التدريس في الزاوية الغزالية وهي مكان صغير بجانب الجامع الأموي من جهة الغرب، وسميت بذلك نسبة إلى الإمام الغزالي (ت٥٠٥هـ)، كان يعتكف فيها، ثم استعملت للعبادة والتدريس والأذكار، وتولى العز التدريس فيها بعد وفاة شيخها جمال الدين الدولعي سنة (٦٣٥هـ)[(٢)]، ومع علمه ونبوغه وذيوع صيته وبروزه على الأقران، حتى إنه كان مفتيًا قبل هذا التاريخ، والتدريس مرحلة متقدمة على الإفتاء، فلا بد أن يكون العز قام بالتدريس قبل تولية الملك الكامل له في سنة (٦٣٥هـ)، وبعد هجرته إلى مصر ولَّاه السلطان التدريس في الصالحية (بالقاهرة)، وكانت مدرسة كبيرة

---

(١) طبقات السبكي (٨/٢٤٢) فتاوى شيخ الإسلام عز الدين ص١٣١ .
(٢) طبقات الفقهاء للأسنوي (٢/١٩٧).

خصصت لتدريس المذاهب الأربعة، فأسند تدريس المذهب الشافعي للإمام العز رحمه الله، فبقي إلى أن توفي (٦٦٠هـ)، ولم يكتف بالتدريس فيها، بل عقد حلقات العلم في المساجد وقصده الطلاب من الآفاق، وتخرج عليه في هذه الفترة معظم تلامذته الذين بزوا الأقران؛ كابن دقيق العيد، والدمياطي، وغيرهم ممن سبق ذكرهم.

وقد عرض عليه الملك الظاهر بيبرس بعد بنائه المدرسة الظاهرية أن يتولى أمر التدريس فيها إضافة إلى تدريسه في الصالحية، فأبى وقال: إن معي تدريس الصالحية، فلا أضيق على غيري، وسأله الملك أن يشترط في وقفها أن يكون التدريس لأولاده فقال: إن في هذا البلد من هو أحق منهم، فقال: لا بد أن يكون لهم فيها وظيفة بالشرط، ففكر وقال: إن كان لا بد فتكون الإمامة، فشرط لهم[(١)]، وقد عرض عليه الظاهر بيبرس أيضًا أن يعين مناصبه لمن يريد من أولاده، فقال: ما فيهم من يصلح، وهذه المدرسة الصالحية تصلح للقاضي تاج الدين ابن بنت الأعز[(٢)]، وكان أحد تلاميذه، فضرب مثلًا نادرًا في الحرص على الدين والورع، وعدم إيثاره أولاده على مصلحة المسلمين، فأسند الأمر إلى أهله ومن هو أهله.

وكان العز رحمه الله مجيدًا في تدريسه، جادًّا في عطائه، وقد أثنى أبو الحسن الشاذلي على مجلس العز بن عبد السلام فقال: . . . ما على الأرض مجلس في الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام[(٣)]. وكان مهيبًا وقورًا، مع حسن محاضرة وبشاشة، لا يهتم بمظهر ولا ملبس، فقد كان يلبس قبع لباد، ويحضر فيه المواكب السلطانية، وأحيانًا يلبس العمامة دون تكلف أو تصنع[(٤)]، ويعطي درسه مسترسلًا، وهو أول من درَّس التفسير في حلقاته، كما درَّس الفقه والأصول وغيرها من العلوم الشرعية، وفاق أقرانه حتى قال ابن الحاجب أحد أقرانه: ابن عبد السلام أفقه من الغزالي[(٥)].

٢- **الإفتاء**: لقد مارس الإمام العز الإفتاء بدون تعيين من ملك أو سلطان، بل إن هذا المنصب الرفيع لم يكن يخضع لمراسيم الملوك، وإنما هو مهمة يقوم بها العالم إذا رأى نفسه أهلًا لذلك، وقال العز رحمه الله في أيام محنته مع الملك الأشرف: أما الفُتيا فإني كنت والله متبرمًا منها وأكرهها وأعتقد أن المفتي على شفير جهنم، ولولا أني أعتقد أن الله أوجبها عليَّ لتعينها علي في هذا الزمان لما كنت تلوثت بها[(٦)]، والآن قد عذرني الحق، وسقط عني الوجوب وتخلصت ذمتي ولله الحمد والمنة. كان هذا الكلام قاله العز لمن جاء من طرف

(١) فوات الوفيات (١/ ٥٩٦). حسن المحاضرة (١/ ١٢٧) فتاوى عز الدين بن عبد السلام ص١٢٩ .
(٢) طبقات السبكي (٨/ ٢١٤) فتاوى عز الدين بن عبدالسلام ص١٢٩ .
(٣) طبقات السبكي (٨/ ٢١٤) المصدر نفسه ص١٢٩ .
(٤) طبقات السبكي (٨/ ٢٣٧) المصدر نفسه ص١٢٩ .
(٥) العز بن عبد السلام؛ حياته وآثاره ومنهجه ص٥٦ .
(٦) طبقات السبكي (٨/ ٢١٨) العز بن عبد السلام للوهيبي ص٥٦ .

السلطان يبلغه بعزله عن الإفتاء، وزاد العز فقال لرسول السلطان: يا غرز، من سعادتي لزومي لبيتي، وتفرغي لعبادة ربي، والسعيد من لزم بيته وبكي على خطيئته واشتغل بطاعة الله تعالى، وهذا تسليك من الحق، وهدية من الله تعالى إليَّ أجراها على يد السلطان وهو غضبان وأنا بها فرحان، والله يا غرز لو كانت عندي خلعة تصلح لك على هذه الرسالة المتضمنة لهذه البشارة لخلعت عليك، ونحن على الفتوح، خذ هذه السجادة صلِّ عليها، فَقبِلها وقبَّلها، وودعه وانصرف إلى السلطان، وذكر له ما جرى بينه وبينه، فقال لمن حضره: قولوا لي ما أفعل به، هذا رجل يرى العقوبة نعمة، اتركوه بيننا وبينه الله[١] وبقى العز على تلك الحال ثلاثة أيام.

ثم إن الشيخ العلامة جمال الدين الحصري شيخ الحنفية في زمانة ذهب إلى الأشرف فقال له: إيش بينك وبين ابن عبد السلام، وهذا رجل لو كان في الهند أو في أقصى الدنيا كان ينبغي للسلطان أن يسعى في حلوله في بلاده لتتم بركته عليه وعلى بلاده ويفتخر به على سائر الملوك، وكان لتدخل الشيخ جمال الدين الحصري أثر في احترام وتقدير الشيخ العز حتى أن السلطان قال: نحن نستغفر الله مما جرى، ونستدرك الفارطة في حقه، والله لأجعلنه أغنى العلماء، وأرسل إلى الشيخ واسترضاه وطلب محاللته ومخاللته[٢]، فكان بعد ذلك يأخذ بفتواه ومشورته، وقد طلبه في مرض موته -كما ذكرنا- وسأله محاللته ونصحه، فنصحه العز بأن يحوّل عسكره الذين استعدوا لقتال أخيه الملك الكامل حاكم مصر إلى جهة العدو المشرك التتار، وكانوا قد ظهروا في شرق بلاد الإسلام في ذلك الوقت، فأمر الأشرف بذلك، كما نصحه بإبطال المنكرات التي يرتكبها نوابه من الزنا وإدمان الخمور وتمكيس المسلمين، وظلم الناس، فأمر الأشرف بإبطال ذلك، كما باشر العز بنفسه تبطيل بعضها.

وبعد هذه النصيحة قال الأشرف: جزاك الله عن دينك وعن نصائحك وعن المسلمين خيرًا، وجمع بيني وبينك في الجنة بمنه وكرمه، وأطلق له ألف دينار مصرية، فردها عليه، وقال: هذه اجتماعة لله لا أكدرها بشيء من الدنيا[٣]، ثم لم يمض أخوه الصالح إسماعيل تبطيل المنكرات وكان نائبه يومئذ، ثم استقل بالملك بعد موته ثم لم يلبث إلا يسيرًا حتى قدم أخوه الملك الكامل من الديار المصرية بجيوشه إلى دمشق وحاصر أخاه إسماعيل، ثم اصطلح معه، وأكرم الكامل العز غاية الإكرام وقد اجتمع مع العز بحضور أخيه إسماعيل، فقال الكامل: إن هذا له غرام برمي البندق، فهل يجوز له ذلك؟ فقال الشيخ: بل يحرم عليه، فإن الرسول ﷺ نهى عنه، وقال: «**إنه يفقئ العين ويكسر العظم**»[٤].

---

(١) العز بن عبد السلام للوهيبي ص٥٧، طبقات السبكي (٨/ ٢٤١).

(٢) المصدر نفسه ص٥٧، نقلًا عن طبقات السبكي.

(٣) العز بن عبد السلام للوهيبي ص٥٧ .

(٤) الشيخ العز بن عبد السلام؛ حياته وآثاره ص٥٧ .

فيلاحظ أن ملوك بني أيوب كانوا يعزون الشيخ ويكرمونه غاية الإكرام ويحبون مجالسته والاستماع إلى نصحه، والعمل بمشورته، بما فيه خير الإسلام والمسلمين، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ولا يهابهم ولا يجاملهم(١)، وقد اشتهر العز بالإفتاء حتى أن الناس كانت تَرِدُ عليه من البلاد لتستفتيه، كما أن شهرته بذلك قد وصلت إلى مصر قبل أن يذهب إليها؛ بدليل أنه لما ذهب إليها سنة (٦٣٩هـ) امتنع مفتيها الحافظ المنذري من الفتيا وقال: كنا نفتي قبل حضور الشيخ عز الدين، وأما بعد حضوره فمنصب الفتيا متعين عليه(٢)، وقد بادله العز نفس الإكرام والتقدير فامتنع عن التحديث لوجود حافظ عصره المنذري، وكان كل منهم يجل الآخر ويحضر دروسه(٣).

وكان العز حريصًا كل الحرص في فتاويه، يتحرى الدقة فيها حتى أنه مرَّة أفتى بشيء ثم تبين أنه أخطأ فنادى في الأسواق في مصر والقاهرة على نفسه: أنه من أفتاه فلان بكذا فلا يعمل به فإنه خطأ(٤)، وهذا يدل على شدة ورعه ومراقبته لله وخشيته منه، وحرصه الشديد أن لا يضل أحد من عباد الله بسببه، ولم يأبه لمن سيوصمه بالجهل وعدم المعرفة؛ لأنه آثر الآخرة على الدنيا، وثواب الله على مدح الناس، لذلك أكرمه الله سبحانه وجعل له القبول في قلوب عباده، فقُصد بالفتوى من سائر البلاد(٥)، وسارت فتاويه مع الركبان وتحدث الناس بها وعملوا بها من الخلفاء والملوك والسلاطين إلى العامة والضعفاء والمساكين، وترك لنا تراثًا في الفتاوى، سميت بعضها بالفتاوى المصرية والأخرى بالفتاوى الموصلية، وقد قال عنه ابن كثير: انتهت إليه رئاسة المذهب، وقصد بالفتوى سائر الآفاق، ثم كان في آخر عمره لا يتعبد بالمذهب، بل اتسع نطاقه وأفتى بما أدى إليه اجتهاده(٦).

٣- **القضاء**: ذكر ابن السبكي عن رسالة ولد العز الشيخ عبد اللطيف في أخبار والده، أن الملك الكامل لما حاصر دمشق واستولى عليها من أخيه الملك الصالح إسماعيل ولى والده الشيخ تدريس زاوية الغزالي بجامع دمشق، وذكر بها الناس، ثم ولاه قضاء دمشق بعد ما اشترط عليه الشيخ شروطًا كثيرة ودخل في شروطه، ثم عينه للرسالة إلى الخلافة المعظمة، ثم اختلسته المنية رحمه الله في (٢٢ رجب سنة ٦٣٥هـ)، فكانت مدة ملكه دمشق شهرين ونصف تقريبًا(٧)، وذكر الداودي: أن الكامل وَلَّى الشيخ تدريس الزاوية الغزالية بجامع بني أمية وعزم على ولايته قضاء دمشق، وإرساله في الرسالة إلى بغداد، فمات دون إمضاء ذلك بدمشق(٨)، فعبارة الداودي

---

(١) فتاوى الشيخ عز الدين بن عبد السلام ص١٢٩ .
(٢) المصدر نفسه ص١٣٣ .
(٣) المصدر نفسه ص١٢٣، ١٣٠ .
(٤) البداية والنهاية (١٧/ ٤٤٢).
(٥) ذيل الروضتين لأبي شامة ص١٦٦، الشيخ العز بن عبد السلام للوهيبي ص٥٨ .
(٦) العز بن عبد السلام للوهيبي ص٥٨ .
(٧) المصدر نفسه ص٥٨ .
(٨) فتاوى شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ص١٢٧ .

تفيد أن الشيخ لم يتولَّ منصب القضاء، ولم يقم بالرسالة؛ لأن الكامل مات قبل تنفيذ ذلك الأمر، بينما عبارة ولده تخالف ذلك حيث أفادت أنه تولى القضاء، وليست قاطعة بذلك، فهي محتملة أنه عينه ولم يباشر؛ حيث مات الكامل بعد شهرين ونصف وجاء بعده أخوه الملك إسماعيل فلم ينفذ ذلك، وهذا الاحتمال هو الراجح ويقويه نص عبارة الداودي، ولو أن الدكتور رضوان اطلع على هذا النص لما قال: ولعل عز الدين بقي في منصب قضاء دمشق برهة من الزمن خلال هذه الفترة القصيرة من حكم الكامل لدمشق؛ إذ حكم بعده أخوه الصالح إسماعيل ولم يكن يعجب بالشيخ، ولا يرضى أن يبقيه في القضاء، وقد حرم عليه اللعب بالبندق ولعل قصر فترة بقائه بهذا المنصب جعل أصحاب التراجم وابن طولون لا يذكرونه بين قضاة دمشق [١].

ولما هاجر إلى مصر أسند إليه الملك نجم الدين أيوب الخطابة والقضاء حيث توفي قاضي قضاة مصر شرف الدين بن عين الدولة سنة (٦٣٩هـ) فولى السلطان العز القضاء مكانه، وحدَّد له قضاء مصر والصعيد وأبقى قضاء القاهرة والوجه البحري مع قاضي غيره، كما فوَّض إليه مع القضاء الإشراف على عمارة المساجد المهجورة في مصر والقاهرة، وسار بالعدل والإنصاف ورفع الجور والحيف مهما كلَّفه الثمن [٢].

٤- **الخطابة**: لما تولَّى الشيخ عز الدين الخطابة بدمشق أزال كثيرًا من البدع التي كان يفعلها الخطباء من دق السيف على المنبر، ولبس السواد، والسجع المتكلف، والثناء على الملوك بما ليس فيهم، بل كان يدعو لهم، وأبطل صلاتي الرغائب والنصف من شعبان، وقد وقع بينه وبين ابن الصلاح (ت٦٤٣هـ) خلاف ووحشة بسبب صلاة الرغائب؛ لأنه كان يؤيدها، واستمر العز في الخطابة بالجامع الأموي سنة ونيفًا حتى عزله الصالح إسماعيل بسب إنكاره عليه تحالفه مع الصليبيين سنة (٦٣٨هـ) [٣].

ولما هاجر إلى مصر استقبله صاحبها نجم الدين أيوب أعظم استقبال، وقرَّبه وأدناه وأكرمه وولَّاه خطابة جامع عمرو بن العاص، وقد قام بمهمته أعظم قيام، وأدى رسالة المسجد التي عاش من أجلها على أحسن وجه؛ آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، صادعًا بالحق، منكرًا للباطل، وكان حريصًا أن لا يعزل نفسه عن الخطابة، كما فعل في عزل نفسه عن القضاء؛ لأنه لا يخشى الحيف وظلم الناس في الخطابة خلافًا للقضاء، وكان الملك نجم الدين يخشى من سلاطة لسانه وجرأته، لذلك سارع إلى عزله عن الخطابة، عندما عزل نفسه عن القضاء بعد

---

(١) المصدر نفسه ص١٢٥ .
(٢) فتاوى شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ص١٢٧ .
(٣) المصدر نفسه ص١٢٧ .

حادثة إسقاط عدالة وزيره معين الدين بن شيخ الشيوخ[(١)]، وتولى الخطابة بعده المجد الأحميمي[(٢)]، كما سيأتي معنا بإذن الله تعالى.

سابعًا: أهم صفات العز بن عبد السلام:

تميزت شخصية الشيخ عز الدين بن عبد السلام بمجموعة من الصفات من أهمها:

١- **الشجاعة**: من الصفات التي لازمت العز بن عبد السلام طيلت حياته الشجاعة في الحق؛ ذلك لأنه كان مع الحق يدور حيث دار، وما قصته مع نائب السلطان عندما عزم على بيع المماليك إلا دليل ساطع على شجاعته وجرأته، وأنه لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يخشى سلطانًا، ولا يهاب الموت في سبيل الله، وقد ذكر ابن السبكي: أن جماعة من المفسدين قصدوه في ليلة معتمة وهو في بيت عالم في بستان متطرف عن البساتين وأحاطوا بالبيت، فخاف أهله خوفًا شديدًا، فعند ذلك نزل إليهم، وفتح باب البيت، وقال: أهلًا بضيوفنا، وأجلسهم في مقعد حسن، وأخرج لهم ضيافة حسنة فتناولوها وطلبوا منه الدعاء؛ إذ كان مهيبًا له موقع حسن في القلوب، فهابوه وعصم الله أهله وجماعته منهم بصدق نيته وكرم طويته وانصرفوا عنه[(٣)]، ومن المواقف التي تدل على شجاعته:

- **إنكاره على الملوك التنازل عن ديار المسلمين وعقد الصلح مع الصليبيين المعتدين**: لما تحالف الصالح إسماعيل مع الصليبيين، وأسلمهم قلعة صفد وقلعة الشقيف، وصيدا، وبعض ديار المسلمين؛ ليساعدوه على الصالح نجم الدين أيوب حاكم مصر، لأن الصالح إسماعيل خاف منه، فكاتب الفرنجة ليساعدوه ضد ابن أخيه حاكم مصر، فكان الثمن تسليم ديار المسلمين، وتطبيع العلاقات وفتح الحدود، فدخل الصليبيون دمشق[(٤)] وكان ذلك في عام (٦٣٨هـ)، وزيادة على ذلك أذن الصالح إسماعيل للصليبيين بدخول دمشق لشراء السلاح لقتال المسلمين في مصر، وهذه خيانة عظمى، واستسلام ذليل، وخروج عن الدين والشرع، وجاء دور الشيخ العز الذي يغضب لله، وينتصر لدينه، ويدافع عن أرض الإسلام وحقوق المسلمين، ويجاهر بالنهي عن المنكر، لا يخشى في الله لومة لائم، وتصدى كالأسد الهصور للمواجهة والنزال، وشق عليه ما حصل مشقة عظيمة، وبدأت الجولة الأولى باستفتاء الشيخ العز في مبايعة الفرنج للسلاح، فقال: يَحْرم عليكم مبايعتهم؛ لأنكم تتحققون أنهم يشترون، ليقاتلوا به إخوانكم المسلمين.

ثم صعد الشيخ العز منبر المسجد الأموي الكبير، وذمَّ موالاة الأعداء، وقبَّح الخيانة وذمَّ الأعمال المشينة التي حصلت، وشنَّع على السلطان، وقطع الدعاء له بالخطبة، وصار يدعو أمام

---

(١) طبقات السبكي (٨/ ٢٢٩) فتاوى شيخ الإسلام ص١٠٩ .
(٢) صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء ص١٩ .
(٣) طبقات الشافعية (٨/ ٢٤٣) العز بن عبد السلام للزحيلي ص١٧٦ .
(٤) المصدر نفسه (٨/ ٢٤٣) المصدر نفسه ص١٧٦ .

الجماهير بما يوحي بخلعه واستبداله، ويقول: اللهم أبرم لهذه الأمة أمرًا رَشَدًا، تُعِزّ فيه وليّك، وتذل فيه عدوك، وُيعمل فيه بطاعتك، ويُنهى فيه عن معصيتك، والناس يبتهلون بالتأمين والدعاء للمسلمين، والنصر على أعداء الله الملحدين[١]. وكان الملك الصالح إسماعيل خارج دمشق، فلما وصله الخبر أحسَّ بالخطر الذي يحدق به والثورة المتوقعة عليه، فسارع إلى إصدار الأمر الكتابي بعزل الشيخ العز من الخطابة والإفتاء وأمر باعتقاله واعتقال الشيخ ابن الحاجب المالكي الذي شاركه الإنكار على فعل السلطان، ولما قدم إسماعيل إلى دمشق أفرج عنهما، وألزم الشيخ العز بملازمة داره، وألا يفتي[٢].

- **العز يرفض المساومة، ولو قبَّل السلطان يده:** توجه الصالح إسماعيل إلى مصر، تحرسه الجيوش الصليبية الحاقدة، ليحارب الصالح أيوب، وكأنه تأسف لإطلاق الشيخ وأوجس في نفسه خيمته، فأرسل إلى سلطان العلماء بعض أعوانه وأمره أن يستنزله على وجه السياسة في زعمه، ليقع منه مداهنة، ولو في بعض الأوقات أو في بعض الأحوال، فقال السلطان لرسوله: تتلطَّف به غاية التلطُّف، وتستنزله وتعِدُه بالعودة إلى مناصبه على أحسن حال، فإن وافقك فتدخل به علي، وإن خالف فاعتقله في خيمنه إلى جانب خيمتي، فلما اجتمع رسول السلطان مع سلطان العلماء، شرع في مسايسته وملاينته، ثم قال له: بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وزيادة، أن تنكسر للسلطان وتقبِّل يده لا غير. فقال له: يا مسكين، ما أرضاه أن يقبل يدي، فضلًا أن أقبِّل يده، يا قوم، أنتم في وادٍ، وأنا في واد، والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به، فقال له: قد رسم لي إن لم تُوافق على ما يُطلب منك وإلا اعتقلتك، فقال: فعلوا ما بدا لكم، فأخذه واعتقله في خيمة إلى جانب خيمة السلطان[٣]، فأخذ سلطان العلماء رحمه الله يقرأ القرآن، والسلطان يسمع، فقال يومًا لملوك الصليبيين: أتسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن؟ قالوا: نعم. قال السلطان: هذا أكبر قسوس المسلمين، وقد حبسته، لإنكاره عليَّ تسليمي لكم حصون المسلمين، وعزلته عن الخطابة بدمشق، وعن مناصبه، ثم أخرجته، فجاء القدس وقد جددت حبسه واعتقاله لأجلكم[٤]. فقال ملوك الفرنجة: والله لو كان هذا قسيسنا؛ لغسلنا رجليه، وشربنا مرقتها[٥]، ولله در القائل:

ومَن يَهُن يَسْهُلُ الهوان عليه ما لجُرحٍ بميِّتٍ إيلام

ثم جاءت الجيوش الإسلامية من مصر، ففرَّقوا عساكر الصليبيين، ونصر الله أهل طاعته، وخذل المنافقين، ونجَّا الله الشيخ من كيد الشيطان وحزبه، ودخل مصر آمنًا[٦].

---

(١) صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء.
(٢) المصدر نفسه ص٢٧ .
(٣) المصدر نفسه ص٢٦ .
(٤) المصدر نفسه ص٢٦ .
(٥) صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء العز ص٢٨ .
(٦) المصدر نفسه ص٣١ .

- **نصحه للملوك**: دخل سلطان العلماء العز بن عبد السلام يوم العيد القلعة، والسلطان نجم الدين أيوب بن الكامل في زينته، وجنوده بين يديه، وأمراء الدولة تقبِّل الأرض له، فالتفت سلطان العلماء إليه مناديًا باسمه المجرَّد: يا أيُّوبُ؛ ما حُجَّتُك عند الله، إذا قال لك: ألم أُبَوِّئْك مصر، تبيح الخمور؟ فتجاهل أيوب حقيقة السؤال تجاهل العارف وتنمُّرَ المريب قائلًا: هل جرى هذا؟ فرفع الشيخ عز الدين بن عبد السلام صوته: نعم، الحانة الفلانية يُباع فيها الخمور، وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة. فقال: سيِّدي هذا أنا ما عملته، هذا من زمن أبي، فأجابه الشيخ عز الدين: أنت من الذين يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ ويتسلل الرعب إلى نفس السلطان؛ فيرسم بإبطال تلك الحانة، وبدأ الناس يتساءلون عن سرِّ هذه الجرأة، ويوجَّه هذا الاستغراب والتساؤل إلى سلطان العلماء على لسان تلميذه الباجي:

يا سيدي، كيف الحال؟ فقال الشيخ رحمه الله: يا بني، رأيته في تلك العظمة، فأردت أن أهينه، لئلا تكبر نفسه فتؤذيه، فقال تلميذه: أما خفته؟ قال الشيخ: والله يا بني، استحضرت هيبة الله، فصار السلطان قدَّامي كالقط[1].

- **سلطان العلماء وبيع الأمراء في المزاد**: رأى سلطان العلماء أن المماليك الذين اشتراهم نجم الدين أيوب ودفع ثمنهم من بيت مال المسلمين، واستعملهم في خدمته وجيشه، وتصريف شئون الدولة يمارسون البيع والشراء وهو تصرف باطل؛ لأن المملوك لا ينفذ تصرفه، فأخذ سلطان العلماء لا يمضي لهم بيعًا ولا شراءً، فضايقهم ذلك وشجر بينهم وبينه كلام حول هذا المعنى، فقال لهم بائع الملوك: أنتم الآن أرقَّاء لا ينفذ لكم تصرف، وإن حكم الرق مستصحب عليكم لبيت مال المسلمين، وقد عزمت على بيعكم فاحتدم الأمر، وبائع الملوك مصمم، لا يصحِّح لهم بيعًا ولا شراءً ولا نكاحًا، فتعطلت مصالحهم، وكان من جملتهم نائب السلطان الذي اشتاط غضبًا، واحمر أنفه، فاجتمع مع شاكلته، وأرسلوا إلى بائع الملوك فقال: نعقد لكم مجلسًا، ويُنادى عليكم لبيت مال المسلمين، ويحصل عتقكم بطريق شرعي، فرفعوا الأمر إلى السلطان، فبعث إليه، فلم يرجع، فخرجت من السلطان كلمة فيها غلظة، حاصلها الإنكار على الشيخ رحمه الله في دخوله في هذا الأمر، وأنه لا يتعلق به[2].

وهنا أدرك الشيخ العز أن أعوان الباطل تمالئوا عليه، ووقفوا في وجه الحق وتطبيق الشرع، وتنفيذ الأحكام التي لا تفرق -في الدين- بين كبير وصغير، وحاكم ومحكوم، وأمير ومواطن، فلجأ إلى سلاحه الضعيف الباهت في ظاهره، القوي الفعال المدمر في حقيقته وجوهره وسنده، وأعلن الانسحاب وعزل نفسه عن القضاء، وقرر الرحيل عن القرية الظالم أهلها، والتي ترفض

(١) صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء ص٣٣، ٣٤ . (٢) العز بن عبد السلام للزحيلي ص١٨٢ .

إقامة شرع الله، ونفذ العز قراره فورًا، وحمل أهله ومتاعه على حمار، وركب حمارًا آخر، وخرج من القاهرة، وما أن انتشر الخبر بين الناس في مصر، حتى تحركت جموع المسلمين وراءه، فلم تكد امرأة ولا صبي ولا رجل لا يؤبه إليه يتخلف، ولا سيما العلماء، والصالحين، والتجار، وأمثالهم ولسان حالهم يقول: لا خير في مصر إن لم يكن فيها العز بن عبد السلام وأمثاله، القائمون بالكتاب والسنة، والآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، المجاهدين في سبيل الله، لا يخافون لومة لائم، ولا شماتة شامت، ورُفِعَت التقارير حول هذه الظاهرة إلى القاهرة، وكانت التوصيات: متى راح ذهب ملكك، فركب السلطان بنفسه، ولحقه واسترضاه، وطيَّب قلبه، فرجع بشرط أن يُنادي على ملوك مصر وأمرائها وبيعهم، فأرسل إليه كبيرهم -نائب السلطان- بالملاطفة والشيخ لم يتغير؛ لأنه يريد إنفاذ حكم الله، عندئذ انزعج نائب السلطان، وأصدر قراره بتصفية الشيخ جسديًا، وقال: كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض، والله لأضربنَّه بسيفي هذا، بنفسه في جماعته، وجاء إلى بيت الشيخ، والسيف في يده صلتًا، فطرق الباب فخرج إليه ولد الشيخ، فرأى أمرًا جلدًا، فعاد إلى أبيه وأخبره الحال، فقال بائع الملوك ممتلئًا إيمانًا بربه، قائلًا لولده: يا ولدي، أبوك أقلُّ من أن يُقْتل في سبيل الله، فلما رآه نائب السلطان؛ اهتزت يده وارتعدت فرائصه وسقط أرضًا، فبكى، وسأل الشيخ أن يدعو له قائلًا:

يا سيدي! خيرًا، إيش العمل؟ فقال الشيخ: أنادي عليكم وأبيعكم. قال نائب السلطان: ففيم تصرف ثمننا؟ قال الشيخ: في مصالح المسلمين. قال نائب السلطان: من يقضيه؟ قال الشيخ: أنا. وأنفذ الله أمره على يد الشيخ رحمه الله، فباع الملوك مناديًا عليهم واحدًا تلو الآخر، وغالى سلطان العلماء في ثمنهم وقبضه وصرفه في وجوه الخير التي تعود بالنفع على البلاد والعباد[1].

ومن هنا عُرف الشيخ العز بأنه (بائع الملوك) واشتهر أمره في الآفاق، وسجل له التاريخ موقفًا فريدًا لم يشهده العالم أجمع، وعلا صوت الحق، وعزَّ العلماء، وتمَّ تطبيق شرع الله تعالى، وهُزم الباطل وطاشت سهام السلطة والقوة المادية أمام سلطان الله تعالى وأحكامه، وصدق على العز حديث رسول الله ﷺ: «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**»[2]، وعاد العز إلى عرينه في كنف الله تعالى ورعايته، وهو القائل: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨﴾ [الحج: ٣٨] والقائل: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

---

(١) العز بن عبد السلام للزحيلي ص١٨٣.

(٢) طبقات الشافعية (٨/ ٢١١) العز بن عبد السلام للزحيلي ص١٨٤.

العز يهدم قاعة المنكر، ويسقط عدالة الوزير: لم تمضِ سنة واحدة على حادثة بيع الأمراء في المزاد العلني حتى وصل إلى علم الشيخ عز الدين ما فعله أستاذ الدار عند السلطان، وهو ما يعادل اليوم (كبير أمناء الملك أو الرئيس)، وهو معين الدين بن شيخ الشيوخ، والذي كان يجمع في منصبه اختصاصات الوزير، وقائد الجيش في المعارك وفتح دمشق، لكنه كان متحللًا وعابثًا ومعتدًّا بقوته ومنصبه، ولذلك تجرأ على منكر كبير يخالف أحكام الدين ويسخر بالشرع، ويسيء في مشاعر المسلمين، فبنى فوق أحد مساجد القاهرة طبلخانة -أي: قاعة لسماع الغناء والموسيقى- وذلك سنة (٦٤٠هـ)، وما أن ثبت ذلك عند الشيخ العز وهو يتولى منصب قاضي القضاة، حتى غضب لله تعالى وإهانة بيت الله، وإعلان المنكر، وإرتكاب الفواحش، وأصدر أمره بهدم البناء، ولكنه خشي من جبن الناس في التنفيذ، أو المعارضة في الهدم، فقام بنفسه وجمع معه أولاده والموظفين عنده، وذهب إلى المسجد، وحمل معوله معهم، وقاموا بإزالة المنكر، وهدم البناء المستحدث فوق المسجد، ولم يكتفِ العز بهذا التحدي للوزير والسلطان معًا، بل أسقط عدالة الوزير بما يعني عدم قبول روايته وشهادته، وعزل نفسه عن القضاء، حتى لا يبقى تحت رحمة السلطان، وتهديده بالعزل أو غيره، وكان لهذا العمل دوي هائل، وأثر عجيب، وتنفس الناس الصعداء من تسلط الحكام، وإرتكاب المخالفات وممارسة التجاوزات الشرعية، ولم يجرؤ أحد أن يمس الشيخ العز بسوء، بل أدرك السلطان نجم الدين أنَّ الحق مع الشيخ وتلطف معه للعودة إلى القضاء، ولكن الشيخ أصرَّ على ذلك، وظن الوزير رسميًّا وشعبيًّا في ذلك، وأن كلام الشيخ العز سيذهب مع الرياح، ولكن الواقع غير ذلك، وطار الخبر في الآفاق حتى وصل إلى الخليفة في بغداد وأخذ صداه الواسع في العالم الإسلامي[(١)].

قال السبكي: واتفق أن جهَّز السلطان الملك الصالح رسولًا من عنده إلى الخليفة المستعصم ببغداد، فلما وصل الرسول إلى الديوان، ووقف بين يدي الخليفة، وأدى الرسالة، خرج إليه وسأله: هل سمعت هذه الرسالة من السلطان؟ فقال: لا، ولكن حملنِّيها عن السلطان معين الدين بن شيخ الشيوخ أستاذ داره، فقال الخليفة: إن المذكور أسقطه ابن عبد السلام فنحن لا نقبل روايته، فرجع الرسول إلى السلطان بمصر حتى شافهه بالرسالة، ثم عاد إلى بغداد وأدَّاها[(٢)].

- **معارضته لشجرة الدر سلطنتها على مصر**: قال ابن إياس: فلما وقع الاتفاق على سلطنتها حضر القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز، وبايعها بالسلطنة على كره منه، قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: لما تولت شجرة الدر على الديار المصرية، عملت في ذلك مقامة، وذكرت فيها بماذا ابتلى الله به المسلمين بولاية امرأة عليهم، وكانت سلطنتها يوم الخميس ثاني صفر سنة

---

(١) بدائع الزهور (١/ ٢٨٦).

(٢) طبقات السبكي (٨/ ٢١٥) فتاوى شيخ الإسلام العز ص ١٢٠ .

ثمان وأربعين وستمائة[١]، وفي هذا رد على من يزعم بأنه لا أحد من علماء الدين لم يبدِ اعتراضًا على ذلك[٢]، وسيأتي الحديث عن حكم تولي المرأة للسلطنة في كتابنا القادم بإذن الله تعالى عن المماليك.

- **في حرب التتار وفتاويه الشُّجاعة**: ومن مواقفه رحمه الله في حرب التتار الذين داهموا البلاد الإسلامية ودمروا بغداد، وأبادوا المسلمين وعظم خطرهم على العالم الإسلامي وجبن الناس عن ملاقاتهم وحربهم، وخاف أهل مصر، وضاقت بالسلطان وعساكره الأرض، عندها تدخل الشيخ رحمه الله وبث الهمة في نفوس الناس وذكَّرهم بضرورة الجهاد، وعندما استشاره السلطان قطز بأمر المملكة وحرب التتار قال رحمه الله: اخرجوا وأنا ضامن لكم على الله النصر، فقال السلطان له: إن المال في خزانتي قليل، وأنا أريد أن أقترض من أموال التجار ما أستعين به على قتال التتار[٣]، وكان في مجلس السلطان كبار العلماء والفقهاء والقضاة فكان الرأي ما ذهب إليه ابن عبد السلام حيث قال: إنه إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على الإمام قتالهم، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء، وتبيعوا ما لكم من الحوائص المذهبة، والآلات النفيسة، ويقتصر كل الجند على مركوبه وسلاحه ويتساووا هم والعامة، وأما أخذ الأموال من العامة مع بقائه في أيدي الجند من الأموال والآلآت الفاخرة فلا[٤].

فنفذ الملك والأمراء والجند فتوى العز وامتثلوا أمره، فقد أحضر الأمراء كافة ما يملكون من مال وحلي نسائهم، وأقسم كل واحد منهم أنه لا يملك شيئًا في الباطن، ولما جمعت هذه الأموال وضربت سكت ونقدًا وأنفقت في تجهيز الجيش، ولم تكفِ هذه الأموال نفقة الجيش أخذ السلطان قطز دينارًا واحدًا من كل رجل قادر في مصر، فجمع بذلك الأسلوب الفريد المال الحلال الذي لا ظلم ولا عدوان فيه، ومع الاستعداد النفسي الذي قام به العز وإخوانه من العلماء تنزَّل نصر الله على عباده المؤمنين، وهزم الله التتار في عين جالوت سنة (٦٥٨هـ)[٥].
ومن أساب النصر شعور الناس بقيمة العدل التي ساهمت في جعل روح جديدة تسري في كيان الشعب المسلم تحت قيادة السلطان قطز، من خلال الفتاوى الفذة التي أفتى بها الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وهكذا كانت مواقف العز بن عبدالسلام من حكام عصره، في حياته المديدة كلها آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، صادعًا بالحق، حربًا على الباطل وأهله، عاش أحداث عصره فأثر به وتفاعل معها، وتأثر بها، فجاهد باليد، كما جاهد بالقلم واللسان، حتى

(١) السلوك (١/٤٢٨) النجوم الزاهرة (٧/ ٧٢).
(٢) المصدر نفسه.
(٣) فتاوى شيخ الإسلام العز بن عبد السلام ص١٢٠ .
(٤) المصدر نفسه ص١٢٠ .
(٥) طبقات السبكي (٨/ ٢٣٠) وما بعدها.

كتب اسمه بأحرف من نور في سجل الخالدين، وترك خلفه مدرسة غنية لكل باحث، وسيرة عبقة يقتدي بها الباحثون عن الحق وأنصار الشرع والعدالة[١].

٢- زهده: لقد ضرب لنا العز مثلًا للزهد بسيرته ومواقفه، فكان رحمه الله زاهدًا في الدنيا مع مشاركته في أحداثها، وانخراطه في حل مشكلاتها ومعضلاتها، فلم يكن منعزلًا عن الناس، بل كان يعيش بينهم رافضًا دنياهم يذكرهم بأُخراهم، فكان أغنى الناس رغم فقره؛ إذ لم يكن يتطلع إلى ما في أيديهم بل كان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، عطاء الواثق بربه، يعطي الأغنياء والفقراء رغم فقره، ولا يرد سائلًا سأله رغم حاجته، فإذا لم يجد ما يعطي ما في جيبه خلع شيئًا من لباسه، أو جزءًا من عمامته، أو شيئًا من أثاث بيته وأعطى لسائله، كان زاهدًا في متاع الدنيا رغم أنه كان ملء سمعها وبصرها، يعمل فيها للآخرة رغم أنها جاءته تسعى راغمة، والدليل[٢] على ذلك مواقف كثيرة منها؛ عندما عرض عليه رسول الملك الصالح إسماعيل أن ينكسر للسلطان ويقبِّل يده ويعتذر إليه من موقفه من التحالف مع الصليبيين وتسليم حصون المسلمين لهم -كما مرَّ معنا- قال الشيخ: والله يا مسكين ما أرضاه أن يقبِّل يدي فضلًا أن أقبِّل يده، يا قوم أنتم في واد، وأنا في واد، والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به[٣].

ومن زهده وورعه رحمه الله أن نصح للملك الأشرف وهو في مرضه الذي مات فيه، امتثل أمره وعمل بنصحه وأمر له بألف دينار مصرية، فردَّها الشيخ عليه ولم يقبلها وقال: هذه اجتماعة لله لا أكدرها بشيء من الدنيا، وودع الشيخ السلطان ومضى[٤]. ولما هاجر الشيخ العز من دمشق وقد ناهز الستين لم يحمل شيئًا من حطام الدنيا ومتاع البيت، أو ما كدَّسه من مناصبه وأعماله، ولما استقال العز من القضاء عند فتواه ببيع الأمراء ورفض السلطان لذلك، خرج من القاهرة وكل أمتعته في الحياة مع أسرته حِمْل حمار واحد، مما يدل على قناعته بالقليل، وزهده في المال والمتاع، ولما مرض الشيخ العز وأحسَّ بالموت، أرسل له الملك الظاهر بيبرس أن يعيِّن أولاده في مناصبه وقال: . . . أن يكون ولدك مكانك بعد وفاتك (في تدريس الصالحية)، فقال العز: ما يصلح لذلك، قال له: فمن أين يعيش؟ قال: من عند الله تعالى، قال له: نجعل له راتبًا؟ قال: هذا إليكم[٥]، ثم أشار إلى تعيين تقي الدين بن بنت الأعز[٦]، والحقيقة أن ولد العز الشيخ عبد اللطيف كان عالمًا فقيهًا، يصلح للتدريس، ولكن ورع العز وزهده منعه من جعل منصب التدريس وراثة لأولاده[٧].

---

(١) المصدر نفسه (٨/ ٢٤٣).
(٢) طبقات الشافعية (٨/ ٢٤٠) العز بن عبد السلام للزحيلي ص١٠٧ .
(٣) طبقات الشافعية للأسنوي (٢/ ٨٤) العز بن عبد السلام للزحيلي ص١٠٧ .
(٤) العز بن عبد السلام للزحيلي ص١٠٧ .
(٥) المصدر نفسه ص١٠٨ .
(٦) طبقات الشافعية الكبرى (٨/ ٢١٤).
(٧) العز بن عبد السلام للزحيلي ص١٠٨ .

٣- **حبّه للصدقة**: كان كثير الصدقات، باسط اليد فيما يملك، يجود بماله ولو كان قليلًا، طمعًا بالأجر والثواب، وادخار ذلك إلى يوم الدين، حكى قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة رحمه الله: أن الشيخ لما كان بدمشق، وقع مرة غلاء كبير حتى صارت البساتين تباع بالثمن القليل، فأعطته زوجته مصاغًا لها وقالت: اشترِ لنا به بستانًا نَصِيفَ به، فأخذ ذلك المصاغ، وباعه وتصدق بثمنه، فقالت: يا سيِّدي اشتريت لنا؟ قال: نعم بستانًا في الجنة، إني وجدت الناس في شدة فتصدقت بثمنه، فقالت له: جزاك الله خيرًا[١] . فجدد سيرة أصحاب رسول الله والسلف الصالح[٢] .

وحكى ابن السبكي عن حب العز للتصدق: وحكي أنه كان مع فقره كثير الصَّدقات، وأنه ربَّما قطع من عمامته، وأعطى فقيرًا يسأله إذا لم يجد معه غير عِمامته[٣] .

٤- **ورعه وتقواه**: كان العز صاحب ورع متعدٍّ؛ إذ كان ورعًا ويُعلِّم الناس الورع بمواقفه أولًا، ثم بعلمه الفياض ثانيًا، ومما يدل على ذلك قوله: يجب على الخنثى المشكل أن يستتر في الصلاة كالتستر للنساء احتياطًا[٤] ، وقوله: من نسي ركعتين من السنن الرواتب، ولم يعلم أهي سنة الفجر أم سنة الظهر، فإنا نأتي بالسنتين لنحصل على المنسية، ولمن نسي صلاة من صلاتين مفروضتين أيضًا[٥] .

٥- **تواضعه وعدم التكلف**: كان الشيخ عز الدين بن عبد السلام متواضع النفس مع ربه، ومع الناس، ومع نفسه، ولا يتكلف لشيء في حياته ومعيشته، ولباسه وسلوكه مع الجميع، فعندما كتب له الملك الأشرف رسالته وفيها ما يَلْمزه بالاجتهاد لمذهب خامس في العقيدة: (إن كنت تدَّعي الاجتهاد، فعليك أن تثبت ليكون الجواب على قَدْر الدعوى لتكون صاحب مذهب خامس)، أجابه العز بكل تواضع، وقال عن هذه النقطة: وأمَّا ما ذُكِر من أمر الاجتهاد والمذهب الخامس فأصول الدين ليس فيها مذاهب، فإن الأصل واحد[٦] .

وعندما جاءه نائب السلطنة في مصر حاملًا سيفه ليقتل العز لفتواه ببيع الأمراء المماليك -كما مرَّ معنا- فقام لاستقباله، فاعترضه ابنه خشية عليه من القتل، فقال له: يا ولدي، أبوك أقلُّ من أن يقتل في سبيل الله، وكان العز يترك التكلف في لباسه، فكان يلبس مرة العمامة ومرة قبعة من لبّاد، بحسب ما يتيسر له، ويحضر بها المناسبات والمواكب، قال ابن السبكي بعد حكاية تصدقه بالعمامة: وفي هذه الحكاية ما يدل على أنه كان يلبس العمامة، وبلغني أنه كان يلبس قبّع

(١) المصدر نفسه ص١٠٨ .
(٢) فتاوى شيخ الإسلام العز بن عبد السلام ص١٠٦ .
(٣) قواعد الأحكام (٢/ ٢٥).
(٤) طبقات الشافعية الكبرى (٨/ ٢٣١، ٢٣٣).
(٥) العز بن عبد السلام للزحيلي ص١١٠ .
(٦) المصدر نفسه ص١١٠ .

العباد، وأنه كان يحضر المواكب السلطانية به، فكأنه كان يلبس تارة هذا، وتارة هذا، على حسب ما يتفق من غير تكلف[١] .

٦- **بلاغته وفصاحته:** كان العز بن عبدالسلام بليغًا فصيحًا قوي العبارة ذات المعاني المتعددة، وقد ترك لنا أقوالًا مأثورة منها:

(أ) في نصرة الحق: ينبغي لكل عالِم إذا أذل الحق وأخمل الصواب أن يبذل جهده في نصرهما، وأن يجعل نفسه بالذل والخمول أولى منهما، وإن عز الحق فظهر الصواب، أن يستظل بظلهما، وأن يكتفي باليسير من رشاش غيرهما.

(ب) الشرع هو الميزان: والشرع ميزان يوزن به الرجال، وبه يتيقن الربح من الخسران، فمن رجح في ميزان الشرع، كان من أولياء الله، وتختلف مراتب الرجحات، ومن نقص في ميزان الشرع، فأولئك أهل الخسران، وتتفاوت خفتهم في الميزان، وأخسها مراتب الكفار، ولا تزال المراتب تتناقص حتى تنتهي إلى منزلة مرتكب أصغر الصغائر، فإذا رأيت إنسانًا يطير في الهواء ويمشي على الماء، أو يخبر بالمغيبات، ويخالف الشرع بارتكاب المحرمات، بغير سبب محلل، أو يترك الواجبات بغير سبب مجوِّز؛ فاعلم أنه شيطان، نصبه الله فتنه للجهلة، وليس ذلك ببعيد من الأسباب التي وصفها الله للضلال، فإن الدجال يحيي ويميت فتنتة لأهل الضلال، وكذلك يأتي الخربة فتتبعه كنوزها كيعاسيب[٢] النحل، وكذلك يظهر للناس أن معه جنة ونارًا، فناره جنة، وجنته نار، وكذلك من يأكل الحيَّات، ويدخل النيران، فإنه مرتكب للحرام بأكل الحيات، وفاتن للناس بدخول النيران ليقتدوا به في ضلالته ويتابعوه على جهالته[٣] .

(ج) الطريق إلى حياة القلوب: والطريق في إصلاح القلوب التي تصلح الأجساد بصلاحها، وتفسد بفسادها؛ تطهيرها من كل ما يبعد عن الله، وتزيينها بكل ما يقرب إليه، ويزلفه لديه؛ من الأحوال، والأقوال، والأعمال، وحسن الآمال، ولزوم الإقبال عليه، والإصغاء إليه، والمثول بين يديه في كل وقت من الأوقات، وحال من الأحوال، على حسب الإمكان من غير أداء إلى السآمة والملال، ومعرفة ذلك هي الملقبة بعلم الحقيقة، وليست الحقيقة خارجة عن الشريعة، بل الشريعة طافحة بإصلاح القلوب بالمعارف والأحوال، والعزوم والنيات، وغير ذلك مما ذكرنا من أعمال القلوب، فمعرفة أحكام الظواهر معرفة بجلِّ الشرع، ومعرفة أحكام البواطن معرفة لدقِّ الشريعة، ولا ينكر شيئًا منهما إلا كافر أو فاجر، وقد يتشبه بالقوم من ليس منهم، ولا يقاربهم في شيء من الصفات، وهم شرٌّ من قطاع الطريق؛ لأنهم يقطعون طرق الذاهبين إلى الله

(١) المصدر نفسه ص١١٠ .
(٢) ذكور النحل.
(٣) قواعد الأحكام (٢/ ١٩٤) صفحات مطوية ص١٠٦ .

تعالى وقد اعتمدوا على كلمات قبيحات، يطلقونها على الله، ويسيئون الأدب على الأنبياء والرسل وأتباع الأنبياء من العلماء والأتقياء، وينهون من يصحبهم من السماع من الفقهاء، لعلمهم بأن الفقهاء ينهون عن صحبتهم وعن سلوك طريقهم[١].

كما أن للعز صفات كثيرة تحدثت عنها في ثنايا ترجمته؛ كالعلم والفقه، والتوكل والهيبة ... إلخ.

ثامنًا: أهم محاور التجديد عند الشيخ عز الدين بن عبد السلام:

ليس المراد بالتجديد تغيير حقائق الدين الثابتة القطعية لتلائم أوضاع الناس وأهواءهم، ولكنه تصحيح للمفاهيم المترسبة في أذهان الناس عن الدين، وتعديل لأوضاعهم وسلوكهم وفقًا لتعاليمه وإرجاعه غضًا طريًا بعد أن تراكمة عليه البدع والانحرافات، وكل هذا ينطبق على الشيخ عز الدين بن عبدالسلام، فقد أمات البدع، وأحيا السنن، كما حارب التقليد وأحيا الاجتهاد، ومارس دور العالم المجاهد في قيادة الأمة، فالتف الناس حوله، واتخذوه إمامًا بدون منازع، وهو جدير بذلك، فقد كان يدافع عن مصالح الأمة بيده وبلسانه وبقلمه، ويحفظ حقوقها، ويدرأ عنها كل المفاسد، ومن نقاط التجديد عند الشيخ عز الدين بن عبد السلام:

١- **سعيه لتقنين أصول الفقه**: يظهر سعي الشيخ عز الدين لتقنين أصول الفقه فيما نلاحظه أثناء دراسة كتابه (قواعد الأحكام في مصالح الأنام) من تفريعات واستثناءات، وشواهد وضوابط، انظر مثلًا حديثه عن النسيان، وما يتعلق به، وما يسقط به، وما لا يسقط به وضابطه[٢]، وكذلك في حديثه عن المشقة وأنواعها وضوابها[٣]، وكل ما يحتاج إلى ضابط، فإن الشيخ عز الدين لا يغفل عن تجديد ضابطه، فها هو يقول مثلًا: والضابط أن اختلال الشرائط والأركان إذا وقع لضرورة أو حاجة فإن لم يختص وجوبه بالصلاة كالستر، فإن كان في قوم يعمهم العري فلا قضاء عليه لما فيه من مشقة[٤]، ويواصل في تحديد ضابط ما يتدارك إذا فات بعذر، وما لا يتدارك مع قيام العذر.

وهكذا توجهت همة الإمام إلى تجديد بناء العقلية الإسلامية بالتأكيد على العقلية الأصولية التي لا ينبغي أن تفرق في الجزئيات وإنما تختصرها في كليات، وتضبطها في قواعد لمواجهة مستجدات الحياة مهما تعقدت وتشعبت، ويبدو هذا جليًا في الثروة الهائلة من القواعد التي خلفها الشيخ عز الدين متناثرة في كتبه، هذه القواعد التي تتوجه بالهمم والأنظار نحو المستقبل

---

(١) قواعد الأحكام نقلًا عن صفحات مطوية ص١٠٧ .
(٢) قواعد الأحكام (٢/٢ ، ٣) مقاصد الشريعة عند الإمام العز ص٥١٩ .
(٣) المصدر نفسه (٢/٧، ٨، ١٢) المصدر نفسه ص٥١٩ .
(٤) مقاصد الشريعة عند الإمام العز بن عبد السلام ص٥٢٠ .

لتواكب تطور الحياة عن وعي وإدراك، وتلبي احتياجات العصر المتغيرة عبر الزمان والمتنوعة عبر المكان، وأما الفروع فغالبًا ما تعنى بالماضي لتحكم له أو عليه، والقواعد التي ذكرها الشيخ عز الدين كثيرة نذكر منها نماذج:

(أ) القواعد الفقهية:

* في جلب المصالح ودرء المفاسد:

- تحصيل مصلحة الواجب أولى من دفع مفسدة المكروه.
- تصرف الولاة ونوابهم بما هو الأصلح للمَوْلِي عليه.
- لا يُقَدَّمُ في أي ولاية إلا أقوم الناس بجلب مصالحها ودرء مفاسدها.
- حفظ البعض أولى من تضييع الكل.
- حفظ الموجود أولى من تحصيل المفقود.
- تحمل أخف المفسدتين دفعًا لأعظمها.
- دفع الضرر أولى من جلب النفع.
- الأصل في الأموال التحريم ما لم يتحقق السبب المبيح(١).

ويمكن القول بأن الإمام ابن عبد السلام قد ألقى أوسع ما يمكن من الضوء على قاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد، وأظهر باستقرائه جريانها في مسائل لا تحصى، وأحكام لا تعد أصليها وفرعيها، حتى أستطاع أن يرجع الفقه كله إلى هذه القاعدة الشاملة الجامعة الأصيلة: اعتبار المصالح ودرء المفاسد.

*** في مراعاة التخفيف ورفع الحرج:**

- لا يسقط المقدور عليه بالمعجوز عنه.
- الأشياء إذا ضاقت اتسعت.
- قد وسع الشرع في النوافل ما لم يوسعه في الفرائض.
- الضرورات مناسبة لإباحة المحظورات جلبًا لمصلحتها.
- ما أُحِلَّ لضرورة يقدر بقدرها، ويزول بزوالها.

---

(١) مقاصد الشريعة عند الإمام العز بن عبد السلام ص٥٢١ نقلًا عن قواعد الأحكام.

*** في المقاصد والوسائل:**

- ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

-كل ما كان أقرب إلى تحصيل المقصود من العقود كان أولى بالجوز لقربه إلى تحصيل المقصود.

-لا تقدم التتمات والتكملات على مقاصد الصلاة.

-الوسائل تسقط بسقوط المقاصد.

-كل تصرف تقاعد عن تحصيل مقصوده فهو باطل.

-إذا كان المطلوب محرمًا فسؤاله حرام.

-يجوز في التابع ما لا يجوز في المتبوع [(١)].

*** في مقاصد المكلفين:**

- مقاصد الألفاظ على نية اللافظين ويستثنى من ذلك اليمين فإنه على نية المستحلف.

-من أطلق لفظًا لا يعرف معناه لم يؤاخذ بمقتضاه.

-العقود مبنية على مراعاة المقصود.

-الأغلب على الناس هو الجزم.

*** في أمور متفرقة:**

- المتوقع كالواقع.

-ما لا يمكن ضبطه يجب الحمل على أقله.

-القليل يتبع الكثير في العقود.

-من لا يمكن تصرفًا لا يملك الإذن فيه، وذكر لهذه القاعدة مستثنيات.

-من ملك الإنشاء ملك الإقرار.

(ب) القواعد الأصولية:

*** في الأحكام التكليفية:**

---

(١) المصدر نفسه ص٥٢٢ نقلًا عن قواعد الأحكام.

- لا تكليف بما لا يتعلق به قدرة ولا إرادة.

- لا يجوز تأخير حق يجب على الفور لأمر محتمل.

- إذا كان المطلوب محرمًا فسؤاله حرام.

- لا يترك الحق لأجل الباطل.

*** في تعليل الأحكام:**

- الأصل أن تزول الأحكام بزوال عللها.

- الضرورات مناسبة لإباحة المحظورات جلبًا لمصلحتها.

- في العموم والخصوص: دلالة العادات وقرائن الأحوال بمنزلة صريح الأقوال في تخصيص العموم وتقييد المطلق.

*** في الدلالات:**

- تقدير ما ظهر من القرآن أولى في بابه من كل تقدير.

- يقدم من المحذوفات أخفها وأحسنها وأفصحها وأشدها موافقة للغرض.

- الكلام الصريح لا يفتقر إلى نية؛ لأنه بصراحته منصرف إلى ما دلَّ عليه.

*** في سد الذرائع:**

- يحتاط لدرء مفاسد الكراهة والتحريم، كما يحتاط لجلب مصالح الندب والإيجاب، ولهذه القاعدة مستثنيات.

- تنزيل الموهوم من المصالح والمفاسد منزلة المعلوم[(١)].

*** في العرف والعادة:**

- دلالة العادات وقرائن الأحوال بمنزلة صريح الأقوال في تخصيص العموم وتقييد المطلق.

- ينزل الاقتضاء العرفي منزلة الاقتصاء اللفظي.

- دلالة العرف كدلالة اللفظ.

---

(١) مقاصد الشريعة عند الإمام العزبن عبدالسلام ص٥٢٥ بالاعتماد على كتب الشيخ عز الدين بن عبدالسلام وخصوصًا قواعد الأحكام.

*** في الاستصحاب:**

- استصحاب الأصول، مثاله: من لزمه طهارة أو . . . ثم شك في أداء ذلك، لزمه ذلك؛ لأن الأصل بقاؤه في عهدته.

- الأصل براءة الذمة، مثاله: من شك هل لزمه شيء؟ لا يلزمه شيء من ذلك؛ لأن الأصل براءة ذمته.

*** في الخروج من الخلاف:**

- الخروج من الخلاف مستحب.

*** في الاجتهاد:** ويعد الإمام أول من فتح باب التأليف في القواعد، ثم تبعه من جاء بعده.

٢- **النقطة الثانية من تجديدات الإمام:** ربط الأصول بأهدافها الحيوية، وإعادة دمج ثمارها في واقع الحياة، فقد اتجه الإمام بأصول الفقه اتجاها عمليًّا بعيدًا عن التكلُّف النظري؛ إذ إنه لا يؤمن بأن هناك قضايا فلسفية نظرية، لذا نجده يكثر من التمثيل والتطبيقات الفقهية في قواعد الأحكام ومصالح الأنام خاصة.

٣- **النقطة الثالثة:** تقسيم المصالح والمفاسد تقسيمات كثيرة، الواقف على كلام العز في كتابه قواعد الأحكام يجده أفاض في المصلحة (وكذلك المفسدة) تقسيمًا وتمثيلًا، وأتى في هذا الموضوع بما لم يأت به غيره ممن تكلموا فيها، بل كثير منهم اتخذوه قدوة ورائدًا في هذا الشأن[١].

ومما راعاه الإمام في تقسيمه عظم المصلحة وشر المفسدة، فقدم من المصالح ما هو أعظم خيرًا للمكلف، وأبعد من المفاسد ما هو أكثر شرًّا للمكلف، فجاء ترتيبه حسب نفع المكلف من حيث الإقدام على المصالح والإحجام عن المفاسد، فدفع الكفر -مثلًا- في أعلى المراتب، ودفع القتل بعده، ثم تترتب فضائل الدفع بمراتب المدفوع في سوئه وقبحه[٢]، وعدَّ هذا معروفًا بالعقل قبل ورود الشرع، ومن أراد أن يعرف المصالح والمفاسد راجحها من مرجوحها، فليعرض ذلك على عقله بتقدير أن الشرع لم يرد به[٣].

٤- **النقطة الرابعة:** إبراز تعدد الوسائل وتنوعها لتحقيق مقاصد الشريعة حتى لا يصيب المكلف ملل ولا ضيق، أو يعتريه فتور في تحقيقها والمحافظة عليها.

---

(١) مقاصد الشريعة عند الإمام العز بن عبد السلام ص٢٥٦ .
(٢) شجرة المعارف ص٢٢٧ .
(٣) قواعد الأحكام (٨/١) مقاصد الشريعة عند الإمام العز بن عبد السلام ص٥٢٧ .

٥- **النقطة الخامسة:** كثرة الطرق الموصلة إلى معرفة المصالح الدنيوية عند الإمام.

٦- **النقطة السادسة:** النظرة الشاملة من الإمام لتحقيق المقاصد العامة؛ إذ يرى إصلاح القلوب، وتزكية النفوس، والتخلق بصفات الله، والاتصاف بها عامل مهم في تحقيق المقاصد، لذا نجده يؤكد على ذلك كثيرًا في مؤلفاته، ويعُدُّ أن معيار التمييز بين قصد المكلف الصحيح وقصده السيئ هو مدى موافقة قصد المكلف لقصد الشارع.

٧- **النقطة السابعة:** تحريره تحريرًا شافيًا كافيًا لمسألة الثواب في المصائب، فكان بذلك أستاذًا لمن جاء بعده كالشاطبي.

٨- **النقطة الثامنة:** اتِّسام منهج الإمام بالتغيير والشمولية بحيث نجده يتراوح بين اللين والشدة، وبين الموعظة والقتال، ذلك بأن الإمام ينظر إلى كل الظروف التي يحتمل أن تواجه الداعية في دعوته لتطبيق شرع الله وتحقيق مقاصده[1].

دروس مهمة في مجال التجديد والإصلاح:

- لا بد من الاعتراف بجهود هذا الإمام، ولفت الأنظار إلى فضله العظيم في تأسيس المقاصد، واهتمامه بها، الأمر الذي مهَّد الطريق للذين جاءوا بعده، ويمكن القول بأن مشروعه هذا يُعدُّ مشروعًا تجديديًّا إحيائيًّا لترميم تصدعات الحياة الإسلامية، ولكن لم تتهيأ له الأجواء السياسية والثقافية والاجتماعية ليعطي ثماره الحضارية تجديدًا ونهضة، ذلك بأن عصره عصر انقسامات واستعانة بالكفار وإعانة لهم على المسلمين.

- محاربة التقليد والركود والجمود، والدعوة إلى الاجتهاد المتعمق الذي يستوعب كل الحياة بجميع تطوراتها ومتغيراتها الاجتماعية والسياسية -من أسباب نهوض الأمة- ولا يتوصل إلى ذلك إلا بالتعمق في فهم النصوص الشرعية في أبعادها الأصولية والفقهية والمقاصدية.

- المقاصد العامة ثابتة لا تتغير ولا تختلف باختلاف الأمم والعوائد والأزمنة، وإن اختلفت بعض مصالح الناس باختلاف الأمم والعوائد، وإن اختلفت بعض مصالح الناس باختلاف الأزمان والأعراف، ومن هنا كانت دعوة ابن عاشور لفهم مسائل أصول الفقه وإعادة ذوبها في بوتقة التدوين وتسميتها بمقاصد الشريعة[2].

- تعد مقاصد الشريعة الركن الثاني من أركان أصول الفقه -وركنه الأول هو: الفهم الذي يقوم على جانب الاستكشاف والتجريد والتعميم- وهي بمثابة تنزيل الأحكام المجردة على واقع الأحداث ومستجدات الأمور بمعطياتها الزمانية والمكانية وملابساتها الشخصية، فمثل ما

---

(١) مقاصد الشريعة ص٥٢٧.

(٢) مقاصد الشريعة الإسلامية ص٨.

يتوقف استنباط الأحكام الشرعية على الألفاظ، فإنه يتوقف على مقاصد اللافظ[١]، ومع كون المقاصد مبحثًا أصوليًا إلا أنه يكاد يكون مفقودًا في كتب الأصول، كمبحث مستقل قائم الذات إلا من بعض الإشارات في مباحث العلة أو المناسبة أو الاستصلاح، وإذا اعتبرنا أصول الفقه قانونًا يتوصل به إلى استنباط الأحكام، وكيفية التطبيق السليم، فإن الاهتمام اليوم بالمقاصد أكثر من ذي قبل يُعدُّ خطوة نحو تلبية متطلبات الحياة، ومسايرة قضاياها المستجدة لاستيعاب جميع متغيراتها، ومن المعلوم أن التشريع وليد الحاجة، فما قام تشريع في أمة ولا نشر فيها قانون إلا وقد قام في البلاد قبلهما حاجة تدعو إليهما، فيأتي التشريع، ويصاغ القانون على قدر تلك الحاجة الداعية[٢]، والقوانين في جميع أنحاء العالم لا تلبث بعد مدة من وضعها أن تصبح غير وافية بالنسبة لبعض الأحداث، فالاهتمام بالمقاصد يساعد على إيجاد الحلول المناسبة ومدخل في استنباط الأحكام أو تطبيقها، وقد بيَّن ابن عاشور شدة حاجة الفقيه إلى معرفة المقاصد في مثل هذه الحالة فقال: فاحتياجه فيها ظاهر، وهو الكفيل بدوام الشريعة الإسلامية للعصور والأجيال التي أتت بعد عصر الشارع، والتي تأتي إلى انقضاء الدنيا[٣].

- المقاصد العامة متداخلة لا يكاد ينفك بعضها عن بعض، ولقد تبين للدارسين أنها خادمة لبعضها، فقد يكون المقصد وسيلة مفضية إلى مقصد أعلى منه، كما أن المقاصد الجزئية للأحكام تتدرج بدورها في دوائر تنتهي إلى المقاصد الكلية التي تنتهي بدورها إلى المقصد الأعلى وهو تحقيق مصالح العباد في الدنيا والمعاد.

- للمقاصد العامة معانٍ حقيقية تهدف الشريعة إلى تحقيقها في واقع الحياة حتى تكون قادرة على تلبية حاجات المسلمين، وساعية نحو الأفضل في تنظيم مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وإلى تحقيق كل ما ينفع الأفراد والأمة من خير يعود على خدمة الضروريات والحاجات والتحسينيات.

- المقاصد العامة منسجمة مع الفطرة، وهي أساس مهم بني عليه هذا الدين؛ قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]، ومما يؤكد عليه الإمام أن تقديم الأصلح فالأصلح ودرء الأفسد فالأفسد مركوز في طبائع العباد نظرًا لهم من رب الأرباب[٤].

- ينبغي أن تكون الاجتهادات الفردية أو الجماعية المؤقتة أو الدائمة مرتبطة بواقع الحياة، وبمقاصد الشريعة الإسلامية كضابط لهذه الاجتهادات من الزيغ والانحراف، وليكون أقرب ما تكون إلى الصواب، وأجدر بالتطبيق العملي في الحياة[٥].

---

(١) مقاصد الشريعة عند الإمام العز بن عبد السلام.
(٢) المدخل إلى علم أصول الفقه ص٥ .
(٣) مقاصد الشريعة الإسلامية ص١٥ .
(٤) قواعد الأحكام (١/٥).
(٥) مقاصد الشريعة عند الإمام العز بن عبد السلام ص٥٣٠ .

- ولا بد من ربط الاجتهاد بالمقاصد، ولذلك قرَّر الإمام ابن عبد السلام: أن المقاصد مرجوع إليها، وأن كل غافل عنها في حكمه أو فتواه يلزمه أن ينقضي حكمه، ويرجع عن فتواه، وأما من أفتى على ما تقتضي قواعد الشريعة وإقامة مصالحها، فكيف يحتاج إلى نقل جزئي مخصوص من كلي اتفق على إطلاقه من غير استثناء[١]، وربط الاجتهاد بالمقاصد يؤدي إلى عدة أمور منها:

- إضفاء صفتي الشمولية والاستمرارية على الشريعة، فلا تعرف حدود الزمان ولا المكان.

- استعمال الأقيسة المعتبرة والاستنتاجات العقلية السليمة بشكل يتلاءم مع واقع الناس ويراعي ظروفهم دون إبطال للنص، أو تحريف له.

- تطلع المتعاملون فيما بينهم إلى أعلى مثل العدل والإحسان والتعاون لبلوغ المصلحة الشرعية من التعامل فيتوفر بذلك جو من الثقة؛ والنية الحسنة بين الناس، ويؤمن الغش والاحتكار، وأكل مال الغير بالباطل.

- الحد من الخلافات المذهبية بين المسلمين التي منشؤها -في الغالب- سوء فهم مقاصد الشريعة، أو عدم فهمها على الإطلاق وتوحيد المسلمين مقصد من مقاصد هذا الدين، وضرورة من ضرورياته.

- تحديد مفاهيم الحقوق، وتعيين مواقعها حتى لا يبقى للحق الشخصي المطلق، ولا للأنانية البغيضة مكان في نفوس الناس، ذلك بأن المقاصد العاملة شاملة، بحيث تندرج في مضمونها كافة الحقوق، ما كان منها ذا مضمون ديني، أو خلقي، أو سياسي، أو اقتصادي، وما إلى ذلك مما يتعلق بجميع نواحي الحياة ماديًا ومعنويًا، فكانت كل الحقوق الجديدة التي لم يعرفها العالم الغربي إلا في هذا العصر مقررة في الشريعة الإسلامية فيما رسم من مقاصدها وغاياتها، وشرع من وسائل علمية لتحقيقها، وتنميتها، والمحافظة عليها.

- تنظيم حياة المجتمع البشري، والموازنة بين حاجيات الناس فلا تطعن حاجة إنسان على آخر، ولا تصطدم حريته مع حرية غيره.

- إيجاد الحلول لكثير من المسائل الطارئة في حياتنا المعاصرة.

- علم المقاصد علم دقيق لا يخوض فيه إلا من لطف ذهنه، واستقام فهمه، لذا أكد الإمام العز بن عبد السلام على ضرورة الفهم السليم والطبع المستقيم[٢].

(١) فتاوى سلطان العلماء ص١٤٥.

(٢) مقاصد الشريعة عند العز بن عبد السلام ص٥٣٣.

- لا يزال فن المقاصد مهمة مطروحة تنتظر من ينجزها فعليًا، ويتوغل فيها إلى أقصى دلالاتها، فهي مادة ثرية لا غنى عنها لأي باحث أو مجتهد، إلا أن هذا الإنجاز يتطلب شيئًا من الإحاطة بثقافة العصر، وقيمة خاصة في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

- ضرورة معرفة المقاصد، وإيضاحها في نسق عقلي، ومنهج علمي سليم، وأن يجعل منها مادة تربوية علمية، يُرَبَّى عليها أبناء الأمة، وتقام على أساسها كياناتهم النفسية وغذائهم الفكري، ووضوح المقاصد يوفر لنا أمرين:

- الوضوح في أولويات العمل الإسلامي لتطبيق شرع الله في أرضه، وإعلاء كلمته.

- القضاء على الغبش، والتخبط مما لا يدع مجالًا ولا موضعًا يعتد به للنظر الجاهل بالنصوص، وأولوياتها، وغايتها.

الشريعة تعمل على تحقيق المقاصد العامة والمحافظة عليها فهي:

- تحافظ على المصلحة أبدًا وفق نظام ثابت لا يتأثر بوجود شخص أو موته[(١)]، قال تعالى: ﴿أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وسواء كانت هذه المصلحة عامة أم خاصة، صغيرة أم كبيرة، حفظًا للحق العام والحق الخاص في آنٍ واحد، وحتى إن الإنسان لا يعتبر حرًّا في نفسه وأعضائه، فلا يحق له أن يتصرف إلا وفق ما يُرضي الله؛ لأن الحق في ذلك مشترك بينه وبين ربه على حد قول الإمام[(٢)]، ومن هنا يمكن القول بأن المصالح متداخلة، فالمحافظة على المصلحة العامة محافظة على مصلحة الأفراد؛ بحيث يستطيع كل من يتمكن من الانتفاع بها أن ينتفع بها وفقًا للوجوه المعروفة شرعًا، وكذلك القول في المصلحة الخاصة بها يتحقق صلاح المجتمع تبعًا؛ فحفظ مال اليتيم -مثلًا- حتى سن الرشد فيه نفع لليتيم عند رشده؛ إذ يجد ماله كاملًا غير منقوص، وفيه نفع لغيره سواء كان وارثًا أم غير وارث بما يحققه ذلك المال من نفع عام بإقامة مشروعات أو صدقات خاصة أو عامة، ولعل هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾ [النساء: ٥]، فعدَّ أموال اليتيم كأنها أموال من يرعاها، وكذلك في حفظ النفس فإنها مصلحة خاصة، ولكن المحافظة عليها محافظة على النظام العام، وإذا نزلت بالأمة نازلة أو طرأت بعض الطوارئ وجب اعتبار مصالح هذه الأمة كلًّا متكاملًا لا كدويلات متفرقة.

وطريق المصالح أوسع طريق يسلكه الفقيه في تدبير أمور الأمة، عند نوازلها ونوائبها إذا التبست عليه المسالك، كما قال ابن عاشور[(٣)]، وتداخل المصالح يستدعي إيجاد قواعد وخطط

(١) المصدر نفسه ص٥٣٣.
(٢) قواعد الأحكام (١/ ١١١).
(٣) مقاصد الشريعة الإسلامية ص٨٧.

تشريعية يلتزمها المجتهد لإعطاء كل ذي حقٍّ حقَه فلا يظلم أحدًا، وأساس هذه القواعد هي: الموازنة بين ما يعود على صاحب الحق من نفع مشروع، وبين ما يلحق الغير من ضرر لازم أو فساد ممنوع، وفي هذه الموازنة يتفاوت نظر النُّظار، وتتعارض فيه الخواطر والأفكار، لذا أكد الإمام على الفهم السليم والطبع المستقيم، ولقد استطاع أن يستنبط من استقرائه للشريعة سلمًا للمصالح يندرج بحسب آثارها في دنيا الناس، فتحدَّث عن الضروري، والحاجي، والتحسين، وبنى على ذلك مواقف عملية حتى يتمكن الناس من الموازنة بين المصالح وترتيبها، فلا يقعوا أمام طريق مسدود يجعلهم مخيَّرين بين مصالح الدنيا أو الآخرة، ولو وضع المسلمون هذا السلم نصب أعينهم قبل اتخاذ بعض القرارات أو تَبَيُّن بعض المواقف لسلمت الأمة -الآن- من كثير مما هي فيه من المشاكل.

- كما أنها تراعي التخفيف والتيسير، وترفع الحرج عن الناس باعتبارها شريعة عملية واقعية تسعى إلى أن تكون واقعًا حيًّا في نفوس أتباعها، ولا يتم ذلك إلا بسلوك الرفق والتيسير، ذلك بأن اليسر من الفطرة، والنفوس مجبولة على حب الرفق، والنفور من الشدة والإعنات، ومن هنا كان الحرج مرفوعًا والمشقة منضبطة، وليس المراد بنفي المشقة أن لا مشقة ولا كلفة في شيء من التكاليف الشرعية أصلًا، بل المراد أن تكون المشقة في حدود طاقة المكلفين، كما أن الدعوة إلى التيسير ليست على إطلاقها، بل المراد أن يكون التيسير بقدر لا يفضي إلى انخرام مقاصد الشريعة، وإلا لزم ارتفاع جميع التكاليف أو أكثرها.

- وتقيم العدل، وتدعو إلى أن تكون إقامة العدل عن إدراك وتفهم عميق لأبعاده ومراميه، وللمسالك والوسائل المفضية إليه، فمن راعى ذلك وفق إلى جني ثماره؛ إذ لا ثمرة تجنى دون تصور سليم، وتنفيذ واعٍ حكيم، كما بيَّنت الشريعة أن عاقبة العدل كريمة، وعاقبة الظلم وخيمة[1]، ولهذا نرى أنَّ الله ينصر الدولة العدالة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة[2].

- شرعت الشريعة من الوسائل ما يتلاءم مع تحقيق مقاصدها ويحافظ عليها، ولولا ذلك لفات الكثير، ولذا كان اعتناؤها بالوسائل كاعتنائنا بالمقاصد أولى[3]، واعتبرت الوسائل بمثابة التتمات والتكملات[4]، وصارت كل وسيلة تخدم مقتصدًا مطلوبة التحصيل، وكل وسيلة لا تؤدي إلى ذلك مطلوبة الترك[5]، كما أنه قد تتحد الوسائل إلى المقصد الواحد، فيقدم أقواها تحصيلًا للمقصد المتوسل إليه؛ بحيث يحصل كاملًا ميسورًا يقدم على ما هو دونه في هذا التحصيل[6].

---

(١) مقاصد الشريعة عند الإمام العز بن عبد السلام ص٥٣٥ .
(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٦).
(٣) الفروق (٤/ ٣٥) مقاصد الشريعة عند الإمام العز ص٥٣٥ .
(٤) قواعد الأحكام (١/ ٨٦) مقاصد الشريعة ص٥٣٥ .
(٥) مقاصد الشريعة عند الإمام العز ص٥٣٥ .
(٦) المصدر نفسه ص٥٣٥ .

إن الله عز وجل قد أكرم الأمة بهذا العالم الجليل صاحب الفهم السليم، والطبع المستقيم، والعلم المتين في مرحلة حرجة من المراحل التي مرَّت بها الأمة الإسلامية؛ من تمزق سياسي، وصراع بين المشروعات؛ المشروع المغولي، والمشروع الصليبي، وبقايا المذهب الباطني، وكان الابتلاء الكبير بسقوط بغداد في يدي التتار عام (٦٥٦هـ)، فكان للاجتهادات المقاصدية وفقه المصالح ومراتبه والمفاسد ودراجته أثر كبير في نهوض الأمة من كبوتها وإعادة دورها الحضاري، فبفضل الله ثم جهود العلماء من أمثال العز بن عبد السلام، وسلاطين المماليك، استطاعت الأمة التصدي للمشروع المغولي والمشروع الصليبي ثم القضاء على المشروعين وانتصار الإسلام العظيم في عهد المماليك، وهذا ما سوف نعرف تفاصيله بإذن الله تعالى في كتابنا عن المماليك.

تاسعًا: التربية والآداب والتصوف عند العز بن عبد السلام:

١- نماذج من المبادئ التربوية عند العز: عرض العز -رحمه الله تعالى- رؤيته لمبادئ التربية الإسلامية المستقاة من كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ، وتمثل جانبًا من المنهج الفريد للتربية الإسلامية، وذكر العز هذه المبادئ في مختلف كتبه، ويمكن جمعها واستخلاص نظرية متكاملة منها، ونكتفي هنا بالإشارة إلى جانب منها للإرشاد إليها والعمل بها، فمن ذلك:

(أ) أصول التربية لمرحلة الحضانة: حيث يقول: وذلك بحسن التربية، واللطف، والرفق والحُنُو، ودفع المضار، وتحسين الحسن للصغير، وتقبيح القبيح، وتعليم الآداب، وتلقين الكتاب، وتعليم الخط والعلم إن كان متأهلًا لذلك، أو صناعة تليق بأمثاله، والأمر بالصوم والصلاة، والنهي عن كل خلق ذميم وعمل غير مستقيم، واجتناب الضرب إن تأدب بالقول والتهديد، والضرب الذي لا يصلح إلا به، إلا أنه لا يصلحُ بالضرب الشديد فيجتنب الخفيف والشديد[١].

(ب) تأديب الأهل بآداب الشرع: حيث يقول: تأديب الأهل إنعام عليهم، وإحسان إليهم، وفضيلة الدعاء إلى الآداب مأخوذة من فضل ذلك الأدب، فأفضل التأديبات التأديب بأفضل القربات، وأشرف الطاعات، وكذلك الأفضل فالأفضل، والأمثل فالأمثل[٢].

(ج) الوسائل التربوية مع الأطفال والتدرج في الأحوال: حيث يقول: وإذا تعلم الصبي ما ينبغي أن يتعلمه من غير زجر فلا يُزجر، وإن لم يتعلم إلا بالزجر زُجر، فإن لم ينجح فيه الزجر ضُرب ضربًا يحتمله مثله وتغلب فيه السلامة، وإن لم ينزجر إلا بالضرب المبرِّح حَرُم المبرِّح

(١) شجرة المعارف ص١٧٠، العز بن عبد السلام للزحيلي ص٣٠٥ .
(٢) العز بن عبد السلام للزحيلي ص٣٠٦ .

لأدائه إلى قتله، ولم يجز غير المبرِّح؛ لأنه إنما جاز لكونه وسيلة إلى الإصلاح، فإن لم يحصل الإصلاح حرم؛ لأنه إضرار غير مفيد[١].

(ح) **المزج بين قواعد الأصول ومبادئ التربية:** يقول في هذا المزج: إذا كان الصبي لا يُصلحه إلا الضرب المبرِّح، فهل يجوز ضربه تحصيلًا لمصلحة تأديبه؟ قلنا: لا يجوز ذلك، بل لا يجوز أن يضربه ضربًا غير مبرِّح؛ لأن الضرب الذي لا يبرِّح مفسدة وإنما جاز لكونه وسيلة مصلحة التأديب، فإن لم يحصل التأديب سقط الضرب الخفيف، كما يسقط الضرب الشديد؛ لأن الوسائل تسقط بسقوط المفاسد[٢].

(د) **مداعبة الصبيان والإحسان إلى البنات:** ومن هذه الأصول التربوية دعوة العز إلى مداعبة الصبيان، فقد قال: مداعبة الصبيان بَسْط لهم، وتطبيب لقلوبهم، وترويح عن نفوسهم، ومن هذه الأصول التربوية الدعوة إلى الإحسان إلى البنات، وإبطال عادات الجاهلية الجائرة، فقال العز: لما كان الحمقى ينفرون من البنات، ويكرهونهنَّ، عظَّم الله ثواب من خرج من عادة الناس في ذلك بالصبر عليهن والإحسان إليهن[٣]، ثم يرشد العز إلى أن من الإحسان إلى البنات المبادرة بهن إلى الأكفاء، فيقول: المبادرة إلى إنكاح الأكفاء، والرغبة فيهم، مسارعة إلى إحصان المرأة، ودفع العار عنها، بالتزويج بالكفؤ، مع أن البعل الصالح يدعوها إلى كل خير، ويزعها عن كل شر[٤]. وقام ببيان وظيفة المرأة وأثرها في التربية، فقال: شفقة المرأة على مال زوجها أداء للأمانة، وحُنُوها على طفلها حامل على اللطف به، والإحسان إليه بحسن التغذية والتربية[٥].

(ذ) **الوازع الفطري والشرعي:** وبيَّن أن قوة الوازع الفطري عند الإنسان، وأنه أقوى من الوازع الشرعي، لذلك جاءت الأحكام الشرعية منسجمة مع الفطرة، وأن الفطرة السليمة بها وازع في داخلها لا يحتاج إلى توجيه الشرع الذي جاء مطابقًا للواقع والفطرة، فأسقط العدالة في بعض الولايات، فعقد العز رحمه الله فصلًا: فيما تشترط فيه العدالة من الولايات، فقال: العدالة شرط في بعض الولايات، وإنما شرطت لتكون وازعة عن الخيانة والتقصير في الولاية، ولا تشترط العدالة في ولاية القريب على الأموات في التجهيز والدفن والتكفين والحمل، والتقدم في الصلاة؛ لأن فرط شفقة القريب ورحمته على المبالغة في الغسل والتكفين والدعاء في الصلاة، وكذلك إنكساره بالحزن على التضرع في دعاء الصلاة، فتكون العدالة في هذا

---

(١) شجرة المعارف والأحوال ص٢٦٤، العز بن عبد السلام للزحيلي ص٣٠٦.
(٢) قواعد الأحكام (١/ ١٢١).
(٣) شجرة المعارف ص٢٤١.
(٤) المصدر نفسه ص٣٠٧.
(٥) قواعد الأحكام (١/ ٧٧، ٧٨) فتاوى سلطان العلماء ص١٥١.

الباب من التتمات والتكملات، وكذلك ولاية النكاح لا تشترط فيها العدالة على قول؛ لأن العدالة إنما شرطت لتنزع الولي عن التقصير والخيانة، وطبع الولي في النكاح يزعه عن التقصير والخيانة في حق موليته؛ لأنه لو وضعها في غير كفء كان ذلك عارًا عليه وعليها، وطبعه يزعه عما يدخله على نفسه ووليته من الأضرار والعار، وكذلك لو كان الولي مستورًا صح النكاح في ظاهر الحكم اعتمادًا على العدالة الظاهرة مع قوة الوازع(١)، ولذلك أمثلة كثيرة في الشرع كقبول إقرار الشخص على نفسه ولو كان فاسقًا أو كافرًا.

(س) **من القواعد التربوية في الدعوة إلى الله**: وذكر العز بعض القواعد التربوية في الدعوة والتي سار عليها الأنبياء ويجب الاقتداء بهم، والالتزام فيها؛ لأنها المنهج الإلهي في الدعوة، فمن ذلك الموعظة الحسنة، فيقول العز: الموعظة الحسنة أدعى إلى قبول الحق من الموعظة المنفِّرة، وما أغلظ الأنبياء في مواعظهم إلا لمعاندٍ جريء على الله(٢)، ومن ذلك الدعوة باللين وعدم الغلظة، فيقول العز رحمه الله تعالى: للِّين مواطن لا يليق بها غيره، وللغلظة مواطن لا يُناسبها سواه، فمن استعمل أحد الأمرين في موضع الآخر فقد أخطأ . . . وفيه تأليف القلوب، وتطيب للنفوس، مُوجِب للاتفاق على مصالح الدارين(٣)، ويذكر العز الأدلة والأمثلة من القرآن الكريم ويؤكد العز أن الغضب لا يصح من الداعية إلا إذا انتهكت حرمات الله ومقدساته، فيقول: العاقل يعرف مظان الغضب لله، فيغضب فيها، ويعرف مظان التلطف، فيتلطف فيها، ألا ترى أن موسى تلطف في أول الأمر بفرعون بقوله: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [النازعات: ١٥٨]، ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٤] وغير ذلك من القول اللَّين الذي أمر به، فلما أصرَّ وأظهر العناد مع تيقنه صدق موسى لقوله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾، ثم قال لموسى: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١] فأجابه بما يقتضيه الحال في الجواب، فقال: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]؛ أي مُهْلكًا، ثم يقول العز: وكذلك جميع الرسل إذا استقرئ أمرهم في بَدء الإرسال وجدت فيه الرفق واللين والشفقة على قومهم، فإذا أصروا وعاندوا أغلظوا لهم حينئذ، لما ركَّب الله تعالى في رسله من العقول الوافرة، والأحلام الكاملة ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] بخلاف الغبي يلين في مواطن الإغلاظ، ويغلظ في مظان اللين، معتقدًا أنه مقتدٍ بالرسل في غلظتهم ولينهم، فنعوذ بالله من الجهل بمظان خطابه، ومن تحريف كلامه وتنزيله على غير مراده(٤).

---

(١) شجرة المعارف ص٣٦١، العز بن عبد السلام للزحيلي ص٣٠٨ .

(٢) شجرة المعارف ص٣٦١، العز بن عبد السلام للزحيلي ص٣٠٨ .

(٣) العز بن عبد السلام للزحيلي ص٣٠٩ .

(٤) العز بن عبد السلام للزحيلي ص٣٠٩ .

(ش) **تغيير الأحكام بتغير الزمان:** يمزج العز رحمه الله تعالى في الأحكام التي تؤدي إلى التطور فإنه يعتد به في تغيير الأحكام بتغير الأزمان، فيقول: فلو حكم الحاكم في محل يسوغ فيه الاجتهاد، ثم تغير اجتهاده فحكم بما أدى إليه اجتهاده ثانيًا كان ذلك قطعا لما حكم به أولًا، ولا يبطل الأول بذلك، بل ينقطع من حين تغير الاجتهاد، ويبقى الأول على ما كان عليه[١]. فالحكم الشرعي يتغير في نفس المجتهد ويشمل السابقة واللاحقة ولكن لا يبطل الحكم الأول إذا أفتى به المفتي أو حكم به القاضي، بل يبقى الحكم الأول لوقته فقط، وللسائل أو المحكوم عليه به؛ لأن الاجتهاد لا ينقض بمثله، وهذا ما قرَّره عمر بن الخطاب ﷺ في ميراث المسألة المشتركة بعدما تغير اجتهاده، وطلب أصحاب القضية الأولى بنقض اجتهاده السابق، أجابهم بقوله المشهور: تلك على ما قضينا، وهذه على ما نقضي، وهذا ما قرره الفقهاء في المذاهب الأربعة بعدم نقض الحكم السابق إذا كان مبنيًا على اجتهاد، ثم تغير الاجتهاد، وهو المقرر في جميع محاكم النقض في العالم[٢].

وهكذا نلاحظ المبادئ التربوية في فكر العز وذهنه وكتبه وكيف يراعى الفطرة الإنسانية، ويعتد بالوازع الفطري، وأنه أصيل في الإنسان، وله بواعثه الذاتية، ودوافعه الخفية التي تحرك صاحبها تلقائيًا في معظم الحالات، لذلك يخفف الشرع من توجيهه فيها، معتبرًا أن الوازع الفطري المطبوع عليه الإنسان داخليًا أقوى من الوازع الشرعي، لذلك اعتبر الشرع الحكيم تناول الطعام والشراب والشبع وغيرها مجرد أحكام مباحة أو مندوبة، مع أنها ضرورية للحياة، لأن الوازع الفطري كفيل بتأمينها ورعايتها، وهذا ما أكده الشاطبي فيما بعد في كتابه الموافقات[٣].

(ك) **إنسانية الإنسان عند العز بن عبدالسلام:** وضع الشيخ عز الدين نصب عينيه شيئًا واحدًا، جنَّد فقهه لتربيته وتهذيبه، وهو إنسانية الإنسان، فأحاطها بالرعاية والرفق والتستر، وأخيرًا .. بالجمال[٤]، ونذكِّر أيضًا بكتاب العز -رحمه الله تعالى-: أحوال الناس، فهو في التربية الإسلامية للروح والنفس ومراقبة الله تعالى، والخوف منه، والاستعداد لملاقاته، ومحاسبة النفس في أعمالها وخطواتها محاسبة ذاتية، ورقابة داخلية ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ [القيامة: ١٤] ليزن أعماله قبل أن توزن عليه، ويقدر نتائجه سلفًا، ليحتاط عند التقصير، ويرتدع عند الندم، ويزداد في العمل الطيب، ويقول العز فيه: ما من بَرٍّ ولا فاجر، ومؤمن وكافر إلا ينظر في البرزخ إلى منزله بكرة وعشية. إن كان من أهل النار فمن أهل النار، وإن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة[٥]. ويقول: من الغموم والآلام وأسبابها وأفراحها أفضل الأفراح،

---

(١) قواعد الأحكام (٢/٤٨).
(٢) العز بن عبد السلام للزحيلي ص٣١٠ .
(٣) المصدر نفسه ص٣١٠ .
(٤) عز الدين بن عبد السلام، بائع الملوك، لمحمد حسن ص١٤١ .
(٥) أحوال الناس ص٤٦، العز بن عبد السلام للزحيلي ص٣١١ .

ولذاتها أفضل اللذات، وأفضل لذة رضا الرب والنظر إليه، وسماع كلامه والأنس بقربه وجواره[(١)].

٢- التصوف عند العز بن عبد السلام: اتفقت آراء العلماء والكُتَّاب والمصنفين قديمًا وحديثًا على معظم أخبار العز وصفاته وأحواله وكتبه، ولكنهم اختلفوا اختلافًا واسعًا في وصفه بالتصوف أو براءته منه، وتشعب القول في ذلك، لاختلاف الناس في حقيقة التصوف، ومشروعيته، واتفاقه مع الإسلام أو مخالفته، واختلاف صورته في التاريخ الإسلامي، ووجود الجذور الأصيلة لمعانيه في القرآن والسنة من جهة، وخلطه بالمصطلحات والمبادئ الدخيلة من جهة ثانية، والتستر وراءه من ذوي النوايا الخبيثة والماكرين والحاقدين من جهة ثالثة، وهل تتفق هذه الأحوال مع حياة العز ومواقفه وكتبه؟ وذهب معظم المؤرخين القدامى وبعض المعاصرين إلى إثبات نسبة التصوف للعز، واتفاقه مع الكتاب والسنة، واستندوا إلى أدلة كثيرة، أهمها صلته بكبار علماء الصوفية في زمانه؛ كأبي الحسن الشاذلي والسهروردي وحضور مجالسهم وقراءة كتب الصوفية وممارسته لبعض أعمالهم[(٢)]، ونقل ابن السبكي: أن الشيخ عز الدين لبس خرقة التصوف من الشيخ السُّهروردي، وأخذ عنه وذكر أنه كان يقرأ بين يديه (رسالة القشيري)، ثم قال ابن السبكي: وقد كان للشيخ عز الدين اليد الطولى في التصوف وتصانيفه قاضية بذلك[(٣)]، وقال ابن العماد الحنبلي: وله مكاشفات، قال الذهبي: كان يحضر السماع، ويرقص[(٤)]، وقال السيوطي: وله كرامات كثيرة ولبس خرقة التصوف من الشهاب السُّهروردي، وكان يحضر عند الشيخ أبي الحسن الشاذلي، ويسمع كلامه في الحقيقة ويعظِّمه[(٥)].

وذهب فريق من المعاصرين إلى نفي التصوف عن العز بن عبد السلام -رحمه الله تعالى- وأن التصوف يتنافى مع عقلية العز الفكرية والاجتهادية، القائمة على إعمال العقل في النصوص، وتتعارض مع سيرة العز في الحياة ومواقفه وفتاويه وكتبه ومصنفاته، ومما يؤيد أصحاب هذا الرأي ما صدر عن العز -رحمه الله تعالى- من شدة وصراحة في بعض أمور التصوف، فمثلًا قوله عن بعض الدخلاء: قد يتشبه بالقوم من ليس منهم ولا يقاربهم في شيء من الصفات وهم شر من قطاع الطريق؛ لأنهم يقطعون طرق الذاهبين إلى الله تعالى، وقد اعتمدوا على كلمات قبيحة[(٦)]. ويندد العز رحمه الله بكثير من اصطلاحات الصوفية والرموز التي يستعملها المتصوفة ويُشكل ظاهرها، ويخفي باطنها فيقول: ولهم ألفاظ يستطعمها سامعها

---

(١) العز بن عبد السلام للزحيلي ص٣١١ .
(٢) العز بن عبد السلام للزحيلي ص٣١٨ .
(٣) العز بن عبد السلام للزحيلي ص٣١٨ .
(٤) شذرات الذهب نقلًا عن العز بن عبد السلام للزحيلي ص٣١٨ .
(٥) حسن المحاضرة (١/ ٣١٥) العز بن عبد السلام للزحيلي ص٣١٩ .
(٦) العز بن عبد السلام للزحيلي ص٣٢٣، قواعد الأحكام (٢/ ٢١٢).

منها: التحلي؛ وهو عبارة عن العلم والعرفان، وكذلك المشاهدة، ومنها: الذوق؛ وهو عبارة عن وجدات لذة الأحوال ووقع التعظيم والإجلال، ومنها: الحجاب؛ وهو عبارة عن الجهل والغفلة والنسيان، ومنها قولهم: قال لي ربي، وإنما ذلك عبارة عن القول بلسان الحال دون لسان المقال، كما قالت العرب: امتلأ الحوض، ومنها قولهم: القلب بيت الرب، ومعناه القلب بيت معرفة الرب، شبهوا حلول المعارف بالقلوب بحلول الأشخاص في البيوت، ومنها: القرب؛ وهو عبارة عن الأسباب الموجبة للإبعاد، ومنها: المجالسة، وهو عبارة عن لذة يخلقها الرب سبحانه وتعالى مجانسة للذة الأنس، وبمجالسة الأكابر[(١)].

ويقول: الفناء الناشيء عن الاستغراق ببعض هذه الأحوال، وحقيقة الفناء غفلة وغيبة[(٢)]، ويصل العز قمة الإنكار والاستهجان لما يصدر عن المتصوفة من الرقص والسماع فيقول: وأما الرقص والتصفيق فخفة ورعونة مشبهة لرعونة الإناث، لا يفعلها إلا راعن، أو متصنع كذاب، وكيف يتأتى الرقص المتزن بأوزان الغناء ممن طاش لبه، وذهب قلبه، وقد قال ﷺ: «**خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»! ولم يكن أحد من هؤلاء الذين يقتدي بهم يفعل شيئًا من ذلك، وإنما استحوذ الشيطان على قوم، يظنون أن طربهم عند السماع إنما هو متعلق بالله عز وجل ولقد مالوا فيما قالوا، وكذبوا فيما ادعوا . . . ومن هاب الإله وأدرك شيئًا من تعظيمه لم يتصور منه رقص ولا تصفيق، ولا يصدر التصفيق والرقص إلا من غبي جاهل ولا يصدران من عاقل فاضل[(٣)]، ولما سُئل العز عن الإنشاد والتواجد والرقص والسماع أجاب: الرقص بدعة، لا يتعاطاه إلا ناقص العقل، ولا يصلح إلا للنساء، وأما سماع الإنسان المحرك للأحوال السنية بما يتعلق بالآخرة، فلا بأس به، بل يندب إليه عند الفتور، وسآمة القلوب وهذا شبيه بما يعرف في يومنا هذا بالأناشيد الإسلامية؛ لأن الوسائل إلى المندوب مندوبة، والسعادة كلها في اتباع الرسول ﷺ واقتفاء أصحابه الذين شهد لهم بأنهم خير القرون، ولا يحضر السماع مَن قلبه هوى خبيث، فإن السماع يحرك ما في القلوب من هوى مكروه أو محبوب، والسماع يختلف باختلاف السامعين والمسموع منهم وهم أقسام[(٤)].

إن العز بن عبد السلام امتداد لمدارس التزكية السنية التي سبقه إليها كبار الصحابة وسادة التابعين، من أمثال: الحسن البصري، ومالك بن دينار، وأيوب السختياني، واستمرت مدرسة التصوف السني إلى يومنا هذا، فهي تهتم بالورع والتقوى والزهد والثقة بالله والاعتماد عليه ودوام الصلة به، وشدة مراقبة العبد لربه في الخلوة والجلوة، والسر والعلن ولا يقصد إلا

---

(١) قواعد الأحكام (٢/٢١٩، ٢٢٠) العز بن عبد السلام للزحيلي ص٢٢٣ .
(٢) المصدر نفسه (٢/٢١٤).
(٣) قواعد الأحكام (٢/٢٢٠-٢٢١) العز بن عبد السلام ص٣٢٤ .
(٤) فتاوى سلطان العلماء ص٣٢٤ .

مرضاته في كل ما يصدر عنه، ولقد ضرب العز بن عبد السلام في عصره أروع الأمثلة لهذه المعاني الإسلامية الثابتة في القرآن، والتي طبقها رسول الله ﷺ في حياته وعبادته وتربيته، وسار عليها معظم السلف الصالح وأولياء الله وعباده الأتقياء، ويوافق عليها كل مسلم يزداد في هذا المجال وازداد في هذا المجال تعلقًا والتزامًا وقربًا وشوقًا كلما تقدمت به السن وعرف حقيقة الحياة وجرب ما فيها، وأيقن مصيره إلى لقاء الله وحسابه وجنته ورضوانه، وهذه المعاني الإسلامية الثابتة والمهمة والجليلة يدعو إليها كل عالم عامل ومسلم صادق وداعية مخلص، ومن هذا الإطار صنف العز كتبه التي وصفت من غيره وصُنِّفت بعنوان (كتب التصوف) كما كثرت هذه المعاني في سائر كتبه في التفسير والعقيدة والفقه وأصول الفقه، والتربية، وفضائل الأعمال، وفي الأخلاق والآداب؛ لأنها انعكاس عن سريرته وما يكنه في قلبه، وما يلتزمه في حياته وسلوكه، كما أن المسلم الصادق يُقدِّر من يتصف بهذه المعاني الإسلامية السامية ويحترم أشخاصهم ويتقرب منهم، ويثني عليهم، ومن هذا المنطلق نعلل احترام العز لمعاصريه من علماء التصوف كالسُّهروردي والشاذلي، وأبي العباس المرسي، وصداقته لهم، والتقاءه معهم، وحضور مجالسهم ومشاركتهم في بعض الجوانب التربوية والسلوكية، بل حتى في قبول الشارات الشكلية التي يتعلقون بها، ما دامت لا تخالف الكتاب والسنة، ومن هذا المنطلق نقبل جميع ما ذكره مترجمو العز باعتباره متصوفًا، وأنه كان يقرأ (رسالة القشيري) في التصوف، وأن له اليد الطولى في التصوف وتصانيفه قاضية بذلك.

وإن أريد بالتصوف معناه الاصطلاحي، كمذهب وطريقة بحسب السائد والمعروف والمألوف في العصور المتأخرة، فنستطيع أن نجزم أن الشيخ العز لم يكن متصوفًا ولا صوفيًّا على الإطلاق، ونستدل على ذلك بأمور كثيرة وواضحة؛ منها أن كتب العز الموسومة بالتصوف هي بذاتها إما للردِّ على المفاهيم الباطلة التي تسربت باسم الصوفية إلى الإسلام، فهدم العز وجودها ونسبتها إلى الدين والإسلام كالقطب والأبدال، وإما لتقريب المتصوفة إلى الطريق الصحيح والإيمان السليم، والعمل بالشرع، مثل كتابه (مسائل الطريقة) إن صحت نسبته إليه، فلعله أراد أن يأخذ بيدهم -وهو يحبهم ويحترمهم- إلى الطريق الأقوم، والمنهج السديد، والالتزام بالكتاب والسنة والسيرة وأعمال السلف الصالح، وإما للتخفيف من غلواء المتصوفة، لبيان المعنى الصحيح للمصطلحات الشرعية التي عرضها الحارث المحاسبي في كتابه (مقاصد الرعاية) (١).

والخلاصة: إننا نرى أن العز كان صوفيًّا حسب قواعد الشرع ومن الناحية الفكرية والقلبية والروحية، وبحسب المعنى العام الوارد في الشرع عن هذا الجانب التربوي في الإسلام، وأنه

(١) العز بن عبد السلام للزحيلي ص٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨ .

ملتزم بكل ما جاء في القرآن والسنة من التربية الروحية والقلبية والتهذيب النفسي، ولم يكن متصوفًا بالمعنى الاصطلاحي والعرفي، ولم يتلزم بطريقة يلتزم طقوسها ومصطلحاتها وقواعدها، ولم يدخل في المتاهات الغامضة التي تحتمل الظاهر والباطن، والصحيح والفاسد، وفيها ركام طيب وخبيث، وغث وسمين، وبساطة وغموض، وشك وحقيقة وارتياب، وطعن أو سوء ظن بإطلاق الكلمات، مهما كان معناها، ومهما كان المراد منها... إلخ، فالعز مع الشرع والدين والنصوص والأحكام، فما أجازه الشرع قال بحِلِّه ولو كان سماعًا، وما حرمه الشرع قال بمنعه، ووقف بشكل صلب في وجه البدع والمنكرات، وفي وجه التطرف والمغالاة التي تسربت إلى المسلمين بصور عديدة[1]، فالصوفي عند الشيخ عز الدين بن عبدالسلام: من صفت سريرته، ونارت بصيرته، وعلت همته، ونطقت حكمته، وارتفعت رتبته، وتعلم العلم وعلَّمه وطلبه من الله لا من غيره، وأن يكون متصفًا بالرضا والسير في الطريق ومراعاة الرفيق، والهدى والتحقيق، وفعل الخيرات وترك المنكرات، وإقالة العثرات، وأن يكون مجتهدًا في العمل الصالح المرفوع، وأن يكون متأدبًا مع شيخه وإخوانه، حافظًا غالبًا على شيطانه[2].

وملخص القول في تصوف العز بن عبد السلام في النقاط الآتية:

- درس الشيخ عز الدين التصوف كعلم من علوم الشريعة في مرحلة الطلب واستفاد منه كثيرًا.

- قام العز بحركة إصلاح في التصوف عمومًا وصحح الكثير من المفاهيم الموهمة، وجعل مقياسه الشرع الإسلامي في قبول مفردات التصوف.

- رفض الشيخ عز الدين بعض السلوكيات التي يمارسها بعض مدعي التصوف؛ كالرقص وغيرها من الأمور.

- يعتبر تصوف العز بن عبد السلام امتدادًا للتصوف السني الذي مارسه الحسن البصري ومالك بن دينار وغيرهم كثير.

وقد قام الاستاذ محمد حسن عبد الله بدراسة جميلة عن عز الدين بن عبد السلام في كتابه عز الدين بن عبد السلام بائع الملوك وانتهى إلى القول بأن العز بن عبد السلام لم ينتسب إلى طريقة صوفية مما شاع في عصره، ولم يلبس خرقة الصوفية من السهروردي، ولم يبايع الشاذلي وإن كان صديقًا له؛ وإنما كان متصوفًا على طريقة السلف في التصوف، وكان بعيدًا عن الرقص

---

(١) العز بن عبد السلام للزحيلي ص٣٢٩ .

(٢) العز بن عبد السلام للوهيبي ص٩٧، مسائل الطريقة في علم الحقيقة ص٣٧ .

والتواجد والتصفيق لئن ذلك خفة ورعونة، لقد كان العز رجل كفاح ونضال، وكان يهتم بالتصوف السني من طهارة القلب وصفاء النفس وخلوص النية لله تعالى، وتخلية الذكر من غير الله وتحليته بذكره[١].

٣- جهاد العز بن عبد السلام: نال الشيخ العز بن عبد السلام شرف الجهاد، وكان يدعو إليه ويكتبه في كتبه ورسائله، وهو القائل في رسالة الاعتقاد: الجهاد ضربان؛ ضرب بالجدل والبيان، وضرب بالسيف والسنان. . . ولكن قد أمرنا الله بالجهاد في نصرة دينه، إلا أن سلاح العالم علمه ولسانه، كما أن سلاح الملك سيفه وسنانه، فكما لا يجوز للملوك إغماد أسلحتهم عن الملحدين والمشركين، لا يجوز للعلماء إغماد أسلحتهم عن الزائغين والمبتدعين، فمن ناضل عن الله، وأظهر دين الله كان جديرًا أن يحرسه الله بعينه التي لا تنام، ويُعِزّه بعزّه الذي لا يضام، ويحوطه بركنه الذي لا يُرام، ويحفظه من جميع الأنام، وعلى الجملة ينبغي لكل عالم إذا أُذل الحق، وأخمد الصواب أن يبذل جُهده في نصرهما، وأن يجعل نفسه بالذل والخمول أولى منهما. . . والمخاطرة بالنفوس مشروعة في إعزاز الدين، ولذلك يجوز للبطل من المسلمين أن ينغمر في صفوف المشركين، وكذلك المخاطرة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونصرة قواعد الدين بالحجج والبراهين مشروعة[٢].

قام العز بجهاد العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعرَّض نفسه للمخاطر الشديدة، والأهوال العجيبة -كما مرَّ معنا- وعُزل بسبب ذلك، وكان مجاهدًا جرئيًا، ومناظرًا قويًّا، ومدافعًا صلبًا عن دين الله وشرعه، مطبقًا حديث رسول الله ﷺ الذي رواه أبو الوليد عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العُسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أَثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم من الله تعالى فيه برهان، وعلى أن نقول الحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم[٣]، وجاهد الشيخ عز الدين في الحياة والمجتمع لإقامة شرع الله ودينه، وحارب البدع، ووقف في وجه الفرق المنحرفة والآراء الباطلة، والعقائد الضالة، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، ونصح أئمة المسلمين وعامتهم -كما مرَّ معنا- وجاهد أمام الظلمة والطغاة والمستبدين، وخاطر بنفسه تطبيقًا لما قال، وامتثالًا للحديث الشريف الذي رواه جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**سيِّدُ الشهداء حمزة بن عبدالمطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله**»[٤]، وقد قام الشيخ العز بن عبدالسلام بهذا الجهاد والنصح للحكام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يعلن الثورة عليهم، ولم يطلب العصيان ضدهم، ما داموا مسلمين ويقيمون الصلاة، ويطبقون الإسلام مع الخطأ أو الانحراف[٥].

---

(١) عز الدين بن عبد السلام، عبدالرحمن مراد ص٦٣-٦٥.
(٢) طبقات الشافعية الكبرى (٨/ ٢٢٣، ٢٢٦) وما بعدها.
(٣) البخاري، كتاب الفتن (٦/ ٢٥٨٨).
(٤) المستدرك، صحيح الإسناد (٣/ ١٩٥).
(٥) العز بن عبد السلام للزحيلي ص١٢٣.

ويطول بنا الحديث عن جهاد العز بعلمه وبيانه ولسانه وقلمه، فالعز رحمه الله لم يتأخر عن الدعوة إلى الجهاد والمشاركة في الإعداد له عندما يهدد العدو بلاد المسلمين وأرضهم وأنفسهم وأموالهم ودينهم، وقد رأيناه لبى دعوة قطز، وهو في الثمانين من عمره، للمشاورة في لقاء التتار، ودعوة المسلمين لذلك، وبيان الحكم الشرعي، وكان الاعتماد في الاجتماع على فتوى العز -رحمه الله تعالى- التي تحقق أثرها بالنصر المبين في عين جالوت على التتار، ولما كانت همة العز أقوى، وجسمه أصلب، وسنه أقل بقليل شارك عمليًا في الجهاد والقتال وملاقاة الصليبيين الذين اتجهوا لاحتلال دمياط وسائر مصر بعد أن وصلوا إلى المنصورة، واستظهروا على المسلمين، فهب الجيش المسلم في مصر لمواجهة الغزاة(١)، قال ابن السبكي: وكان الشيخ مع العسكر، وقويت الريح، فلما رأى الشيخ حال المسلمين نادى بأعلى صوته مشيرًا بيده إلى الريح، يا ريح خُذيهم عدة مرات، فعادت الريح، على مراكب الفرنج فكسرتها وكان الفتح وغرق أكثر الفرنج، وصرخ من بين يدي المسلمين صارخ: الحمد الله الذي أرانا في أمة محمد ﷺ رجلًا سُخِّر له الريح(٢)، وكان النصر المبين للمسلمين، واعتبر المؤرخون هذه الصيحة من كرامات العز رحمه الله(٣)، والكرامة في معتقد أهل السنة تظهر على يد أولياء الله الصالحين تكريمًا من الله تعالى لهم، ومصدر الكرامة هو الإيمان الصادق، والإخلاص الكامل، والعبودية التامة، والاعتماد الحقيقي على الله تعالى، والالتزام بشرع الله تعالى، وكثرة التقرب إليه وقال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

وهذا ما أكده رسول الله ﷺ في الحديث القدسي عن رب العزة فيما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى قال: من عاد لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**»(٤)، وكان العز بن عبد السلام رحمه الله لا يبغي إلا رضاء الله تعالى -نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحدًا- ولا يخاف إلا منه، ولا يتوكل إلا عليه، فكان الله معه وكان الله له حافظًا ومعينًا، وكان الله عنه مدافعًا من أذى المعتدين وتسلط الظالمين، وسطوة الحكام والأمراء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج: ٣٨]، وكفاه الله همَّ الدنيا والآخرة ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١]، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

---

(١) العز بن عبد السلام للزحيلي ص١٢٤.

(٢) حسن المحاضرة (٢/ ٣٥) العز بن عبد السلام للزحيلي ص١٢٤.

(٣) العز بن عبد السلام للزحيلي ص١٢٤.

(٤) صحيح البخاري (٥/ ٢٣٨٤)، كتاب الرقاق، باب التواضع.

وكان العز حريصًا على تطبيق شرع الله والسير على جادته وتنفيذ ما أمر به، فكان ينظر بنور الله، ويبصر ببصر الله، ويتكلم بقوة الله وجبروته، ويبطش بيد الله، ويمشي في سبيل الله، وعلى بركة الله، كما جاء في الحديث القدسي السابق، ومن هنا أكرمه الله تعالى بأمور خارقة للعادة، مر معنا قصته مع اللصوص في البستان، وقصته في تغيير اتجاه الريح بسبب دعائه في معركة دمياط ضد الفرنج، وقصته مع نائب السلطنة الذي جاء العز وهو شاهر السيف ليقتله، فحين وقع بصره على النائب يبست يد النائب، وسقط السيف منها وأرعدت مفاصله، فبكى وسأل الشيخ أن يدعو له[(١)]، ونضيف هنا قصة جديدة وطريفة، نقلها ابن السبكي فقال: كان في الريف شخص يقال له: عبد الله البلتاجي من أولياء الله، وكانت بينه وبين الشيخ عز الدين صداقة، وكان يُهْدي إليه في كل عام، فأرسل إليه مرة جمل هدية، ومن جملته وعاء فيه جُبْن، فلما وصل الرسول إلى باب القاهرة؛ انكسر ذلك الوعاء وتبدَّد ما فيه، فتألم الرسول لذلك، فرآه شخص ذمي، فقال له: لِمَ تتألم؟ عندي ما هو خير منه قال الرسول: فاشتريت منه بَدَله وجئت، فما كان إلا يقدر أن وصلت إلى باب الشيخ، ولم يعلم بي ولا بما جرى لي غير الله تعالى، وإذا بشخص نزل من عند الشيخ، وقال: اصعد بما جئت به فناولته شيئًا فشيئًا إلى أن سلمته ذلك الجبن، فطلع ثم نزل، فقلت أعطيته للشيخ؟ فقال: أخذ الجميع إلا الجبْن ووعاءه فإنه قال لي: ضعه على الباب، فلما طلعت أنا، قال لي: يا وليد لِيْش تفعل هذا؟ إن المرأة التي حَلَبت لبن هذا الجبن كانت يدها متنجسة بالخنزير، وردَّه وقال: سلِّم على أخي[(٢)].

٤- **وفاته**: بعد عمر مديد ناهز الثالثة والثمانين عامًا في الجهاد في سبيل الله ونصرة الإسلام ونشر دعوته، توفي العز بن عبد السلام في العاشر من جمادى الأولى سنة ستين وستمائة هجرية (٦٦٠هـ) وقد ذكر ابن السبكي عن ابن العز الشيخ عبد اللطيف أن وفاة والده في التاسع من جمادى الأولى (٦٦٠هـ) وذكر في رواية أخرى أنها في (١٠ جمادي ٦٦٠هـ)[(٣)]، وهو ما عليه عامة المؤرخين، وهناك رواية لتلميذ العز الدمياطي توفق بين الروايتين وهي قوله: توفي العز يوم السبت (٩ جمادى الأولى ٦٦٠هـ) ودفن من الغد في سفح المقطم، حضرت ذلك، وكان درسه الأخير الذي ألقاه على الناس تفسير قول الله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[(٤)].

قال أبو شامة وهو تلميذ العز أيضًا ومؤرخ حياته: يوم الأحد عاشر جمادى الأولى، أو حادي عشر جمادى الأولى توفي العز بن عبد السلام في مصر، وعمل عزاؤه في جامع العقيبة يوم الاثنين ٢٥ جمادى الأولى سنة (٦٦٠هـ)، حضر جنازته الخاص والعام، وصلى عليه الظاهر

---

(١) العز بن عبد السلام، للزحيلي ص١٢٧، طبقات الشافعية (٢١٧/٨).

(٢) طبقات الشافعية الكبرى (٢١٣/٨) العز بن عبد السلام ص١٢٨ .

(٣) طبقات السبكي (٢٤٨/٨) فتاوى الشيخ عز الدين بن عبد السلام ص١٥٤ .

(٤) العز بن عبد السلام، سلطان العلماء ص١٧٩ .

يبرس بالقرافة، ودفن في آخر القرافة مما يلي الجبل من ناحية البركة، وصُلِّي عليه صلاة الغائب في جامع دمشق وغيرها من الجوامع بالشام يوم الجمعة آخر جمادى الأولى، ونادى النصير المؤذن بعد الفراغ من صلاة الجمعة: الصلاة على عز الدين بن عبد السلام[١]، وقال ابن كثير: توفي في العاشر من جمادى الأولى وقد نيف على ٨٠ سنة، ودفن في الغد بسفح المقطم[٢].

وقال الذهبي: توفي بمصر في جمادى الأولى سنة (٦٦٠هـ) وحضر جنازته الخاص والعام، السلطان فمن دونه، ودفن بالقرافة في آخرها، ولما بلغ السلطان خبر موته قال: لم يستقر ملكي إلا الساعة؛ لأنه لو أمر الناس فيَّ ما أراد لبادروا إلى امتثال أمره[٣]، وقال السبكي نقلًا عن ولده الشيخ عبد اللطيف: وكانت وفاة الشيخ في تاسع جمادى الأولى في سنة ستين وستمائة، فحزن عليه الظاهر كثيرًا حتى قال: لا إله إلا الله ما اتفقت وفاة الشيخ إلا في دولتي، وشيَّع أمراءه وخاصته وأجناده لتشييع جنازته وحمل نعشه، وحضر دفنه[٤]، وقد اختلف في عمره على روايتين؛ إحداهما أن عمره: اثنتان وثمانون سنة، والأخرى: ثلاث وثمانون سنة، وهذا الاختلاف راجع إلى الخلاف في ولادته، فمن قال: إنه ولد سنة (٥٧٧هـ) جعل عمره ٨٣ سنة، ومن قال: إنه ولد سنة (٥٧٨هـ) جعل عمره ٨٢ سنة، وأما ما ذكره المقريزي من أن عمره اثنتان وستون فهو خطأ؛ لأنه مخالف لما ذكره عامة المؤرخين، ولعله تحريف من النساخ أو خطأ منهم والله أعلم، وبالجمع بين هذه الروايات أرى أن أقربها للصحة والصواب ما ذكره السبكي من أن عمر العز ثلاث وثمانون سنة[٥]، والله أعلم.

٥- أقوال العلماء فيه: لقد شهد العلماء قبل العامة للعز بن عبد السلام بالإمامة والرياسة وعلو المقام، يدل على ذلك مواقفه التي ذكرنا طرفًا منها ومؤلفاته وتلامذته الذين طبَّقت شهرتهم الآفاق، وقد شهد للشيخ علماء عصره ومن جاء بعدهم من جهابذة العلم ومشاهير الرجال، وهذه نبذة من أقوالهم[٦]:

(أ) ثناء المعاصرين له:

- قال العلامة ابن الحاجب صديق العز ومعاصره ورفيقه في السفر والرحلة عن العز: ابن عبد السلام أفقه من الغزالي[٧].

- **قال العلامة جمال الدين الحصري** (ت ٦٣٧هـ) شيخ الحنفية في زمانه مخاطبًا سلطان

(١) الذيل على الروضتين ص٢١٦، فتاوى شيخ الإسلام العز ص١٥٤.
(٢) البداية والنهاية (١٣/ ٤٤٢).
(٣) العبر (٥/ ٢٦٠).
(٤) طبقات الشافعية (٨/ ٢٤٥) فتاوى شيخ الإسلام ص١٥٥.
(٥) طبقات الشافعية (٨/ ٢٤٥) فتاوى شيخ الإسلام ص١٥٥.
(٦) فتاوى شيخ الإسلام ص١٥٦.
(٧) طبقات الشافعية الكبرى (٨/ ٢١٤) حسن المحاضرة (١/ ٣١٥).

دمشق عن العز: هذا رجل لو كان في الهند، أو في أقصى الدنيا، كان ينبغي للسلطان أن يسعى في حُلوله في بلاده لتتم بركته عليه وعلى بلاده، ويفتخر به على سائر الملوك[(١)].

- **وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي** (ت ٦٥٦هـ) معاصر العز يمدح مجلسه في الفقه: ما على وجه الأرض مجلس في الفقه أبهى من مجلس عز الدين بن عبد السلام[(٢)].

- **وقال الحافظ زكي الدين المنذري** (ت ٦٥٦هـ) مفتي الشافعية بمصر ومعاصر العز: كنا نفتي قبل حضور الشيخ عز الدين، وأما بعد حضوره فمنصب الفتيا متعين فيه.

(ب) ثناء بعض التلاميذ على العز:

- قال أبو بكر بن مسدي الأندلسي (٦٦٣هـ) تلميذ العز عن شيخه: أحد فقهاء هذا المذهب، ممن فرَّع على أصوله، وهذَّب، ورأس فقهاء بلده[(٣)].

- **قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة** (٦٦٥هـ) أحد تلامذة الشيخ: وكان أحق الناس بالخطابة والإمامة، وأزال كثيرًا من البدع التي كان الخطباءُ يفعلونها؛ من دقّ السيف على المنبر، وغير ذلك، وأبطل صلاتي الرغائب ونصف شعبان، ومنع منهما.

- **قال القاضي الفقيه الأصولي الأديب الحافظ ابن دقيق العيد** (٧٠٢هـ) تلميذ العز عن شيخه: كان ابن عبد السلام أحد سلاطين العلماء[(٤)].

- **قال عز الدين الحسيني** تلميذ العز عن شيخه: كان عالم عصره في العلم جامعًا لفنون متعددة، مضافًا إلى ما هو عليه من ترك التكلف مع الصلابة في الدين، وشهرته تغني عن الإطناب في وصفه[(٥)].

(ج) ثناء العلماء والمنصفين على العز:

- قال الذهبي (ت ٧٤٨هـ) عن العز: . . . بلغ رتبة الاجتهاد وانتهت إليه رئاسة المذهب، مع الزهد والورع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصلابة في الدين[(٦)].

- **وقال فخر الدين بن شاكر الكتبي** (ت ٧٦٤هـ) عن العز: شيخ الإسلام، وبقية الأعلام، الشيخ عز الدين . . سمع . . وتفقه . . ودرَّس وأفتى، وبرع في المذهب، وبلغ رتبة الاجتهاد،

---

(١) المصدر نفسه (٨/ ٢٣٧) العز بن عبد السلام للزحيلي ص١٩٥ .

(٢) حسن المحاضرة (١/ ٣١٥) العز بن عبد السلام للزحيلي ص١٩٥ .

(٣) تاريخ علماء بغداد ص١٠٥، العز بن عبد السلام للزحيلي ص١٩٥ .

(٤) حسن المحاضرة (١/ ٣١٥) العز بن عبد السلام للزحيلي ص١٩٥ .

(٥) شذرات الذهب نقلًا عن العز بن عبد السلام للزحيلي ص١٩٦ .

(٦) العبر في أخبار من غبر (٥/ ٢٦٠) العز بن عبد السلام ص١٩٦ .

وقصده الطلبة من البلاد، وتخرج به أئمة، وله الفتاوى السديدة، وكان ناسكًا ورعًا، وأمَّارًا بالمعروف، نهَّاءً عن المنكر، لا يخاف في الله لومة لائم[١].

- وقال اليافعي اليمني (ت ٧٦٤هـ) عن العز: سلطان العلماء، وفحل النجباء، المقدَّم في عصره على سائر الأقران، بحر العلوم والمعارف، والمعظم في البلدان، ذو التحقيق والإتقان والعرفان والإيقان . . . وهو من الذين قيل فيهم: علمهم أكثر من تصانيفهم، لا من الذين عبارتهم دون درايتهم، ومرتبته في العلوم الظاهرة مع السابقين في الرعيل الأول[٢].

- وقال العلامة تاج الدين ابن السبكي (ت ٧٧١هـ) في ترجمته للعز: شيخ الإسلام والمسلمين، وأحد الأئمة الأعلام، سلطان العلماء، إمام عصره بلا مدافعة، القائم بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في زمانه، المطَّلع على حقائق الشريعة وغوامضها، العارف بمقاصدها لم ير مثل نفسه، ولا رأى من رآه مثله، عِلْمًا وورعًا وقيامًا في الحق، وشجاعة وقوة جنان، وسلاطة لسان[٣].

- وقال العلامة الفقيه الشيخ جمال الدين عبد الرحيم الأسنوي (٧٧٢هـ) في ترجمة العز: الشيخ عز الدين . . . كان رحمه الله شيخ الإسلام علمًا وعملًا، وورعًا، وزهدًا وتصانيف، وتلاميذ، آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، يهين الملوك فمن دونهم، ويغلظ القول . . . وكان فيه مع ذلك حسن محاضرة بالنوادر والأشعار[٤].

- وقال المؤرخ الفقيه الأديب العماد الحنبلي عن العز: عز الدين، شيخ الإسلام . . . الإمام العلامة، وحيد عصره، سلطان العلماء، وبرع في الفقه والأصول والعربية، وفاق الأقران والأضراب، وجمع بين فنون العلم؛ من التفسير والحديث والفقه واختلاف الناس ومآخذهم، وبلغ رتبة الاجتهاد، ورحل إليه الطلبة من سائر البلاد، وصنف التصانيف المفيدة[٥].

(س) ثناء بعض المتأخرين على العز:

- قال الشيخ عبد الله مصطفى على العز: عبد العزيز . . . الملقب بعز الدين، المعروف بسلطان العلماء، شيخ الإسلام والمسلمين، وإمام عصره بلا مدافع، وفريد زمانه بلا منازع، كان ابن عبد السلام عَلَمًا من الأعلام، شجاعًا في الحق، آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، فقيها أصوليًا، محدِّثًا، خطيبًا، واعظًا، أديبًا شاعرًا، رقيق الحاشية، حاضر النادرة، محترمًا، وقورًا، تخشى السلاطين والأمراء صولته وسلطانه[٦].

---

(١) فوات الوفيات (١/ ٥٩٤، ٥٩٥) العز بن عبد السلام ص١٩٧ .

(٢) مرآة الجنان (٤/ ١٥٣) العز بن عبد السلام ص١٩٧ .

(٣) طبقات الشافعية الكبرى (٨/ ٢٠٩) العز بن عبد السلام ص١٩٧ .

(٤) طبقات الشافعية للأسنوي (٢/ ٨٤) العز بن عبد السلام ص١٩٧ .

(٥) شذرات الذهب نقلًا عن العز بن عبد السلام للزحيلي ص١٩٩ .

(٦) الفتح المبين في طبقات الأصوليين (٢/ ٧٣).

- وقال العلامة مصطفى السباعي بعد أن عرض العصر الذي سبق العز، وسكوت أكثر العلماء عن الجهر بالحق، أو مسايرة الحكام، أو اعتزال الحياة العامة قال: في هذا الوسط المضطرب نشأ العالم العظيم (سلطان العلماء) عز الدين بن عبد السلام، فكان وجوده نسمة من نسمات الرجاء تهبُّ على قلوب اليائسين، وعزمة من عزمات الإيمان تنبعث في أوساط المتخاذلين، وومضة من ومضات النور تضيء الطريق للمدلجين في دياجير الظلام، وسوطًا من سياط الحق يلهب الله به ظهور المتكبرين والمتجبرين والظالمين، إن العز بن عبد السلام من أعظم علماء الإسلام الذين تهزني دراسة آثارهم وسيرتهم هزًّا عنيفًا[1].

- وقال الأستاذ رضوان علي الندوي: ... وهناك جانب لشخصيته آخر مشرق .. وهو ملكته الأصيلة في فهم الشريعة وروحها ومقاصدها فهمًا راسخًا شاملًا عقليًّا دقيقًا مبتكرًا بعض الابتكار، وهو من السابقين الأُوَل في حركة (التقعيد) في الفقه الإسلامي وتطويره ... إلى أن قال في الخاتمة: انتهينا من البحث في حياة سلطان العلماء الشيخ العز بن عبد السلام، فرأيناه عالمًا جليلًا يُدرِّس ويؤلف ويفتي، وقاضيًا عدلًا يحكم ويقضي، وعرفناه عالمًا مجاهدًا يوجه ويرشد ويعترض وينتقد الملوك والأمراء والعامة على السواء، وهو في هذا يتحمل الأذى والمشقة، ويتعرض للخطر والاضطهاد، فلا يبالي ولا يقف ويواصل النشاط، ويدأب على العمل، ويقيم على الحق، ويحاول إقامته في المجتمع حتى قضى ... وكان بذلك رجل عصره وموجِّه زمانه وقدوة لمن بعده[2].

- وقال محمد حسن عبد الله في ختام بحثه عن عبد العزيز بن عبد السلام بائع الملوك: بعد معرفتنا بهذا كله ندرك أيَّ حياة الحركة كان هذا الرجل الذي زلزل قواعد الظلم في زمانه، وجدَّد حياة الحركة العلمية الإسلامية، وأعاد الدماء الحارة الحرة إلى شرايينها، فأعاد إلينا ذكر المصطفين الأخيار من علماء صدر الإسلام، وقادته الاجتماعيين، ومتصوفته العارفين[3].

- العز يُعرِّف نفسه: وقبل كل هذا الثناء من الآخرين، وبعد هذا الثناء، يأتي ثقة العز العالم الواثق بربه، والعارف لما أعطاه الله من علم وفقه، وحرصه على نشره بين الناس ابتغاء مرضاة الله تعالى، ولذلك لما هاجر من دمشق ورحل في طريقه إلى مصر، هرع إليه أمراء المدن لاستضافته في إماراتهم لكي يحظوا بوجوده عندهم، ويسابقوا غيرهم، ويفخروا به؛ ومن بين هؤلاء صاحب الكرك وهي قلعة قوية، ومدينة صغيرة فجاء سلطانها وسأل العز الإقامة عنده، فأجابه بصراحة الرجال وثقة: بلدك صغير على علمي، وقصدي نشره، وتابع سيره إلى أرض الكنانة، وعاصمة الأيوبيين في القاهرة.

---

(١) العز بن عبد السلام للندوي، تقديم: مصطفى السباعي ص٥، ٦.
(٢) المصدر نفسه ص١٧٧، ١٧٨.
(٣) من بائع الملوك ص١٩٧.

وصدق الشاعر عندما قال:

هم الرِّجال وعيبٌ أن يُقال لمن لم يتصف بمعاني وصفِهم رَجُلُ[١]

(ك) ما قيل فيه من شعر:

قال فيه تلميذه ابن الطباخ:

مجلسكم بحر وإني امرؤ لا أحسن العوم فأخشى الغرق

وقال يحيى بن عبد العظيم الجزار بمدح الشيخ، ذكر ابن السبكي بيتين من ذلك هما:

سار عبد العزيز في الحكم سيرًا لم يسره سوى ابن عبد العزيز
عمَّنا حكمه بفضل بسيط شامل للورى ولفظ وجيز

وقال قاضي أسوان عمر بن عبد العزيز يمدحه في مجلسه:

مولاي عز الدين عز بك العُلا فخرًا فدون حذاك منه الهام
لما رأينا منك علمًا لم يكن في الدرس قلنا إنه إلهام
جاوزت حد المدح حتى لم يطق نظمًا لفضلك في الورى النظام

وهذا فيض من غيض مما ذكره العلماء فيه[٢]، رحمه الله رحمة واسعة، وأعلى ذكره في المصلحين، وأسكنه فسيح جناته، وجمعنا به في دار الخلود مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين.

(١) العز بن عبد السلام، للزحيلي ص٢٠٣ .
(٢) فتاوى شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ص١٥٨ .

المبحث الرابع
الجدل الثقافي بين المسلمين والنصارى في عهد الحروب الصليبية

إن من خصائص الدعوة الإسلامية عالميتها، وقد وردت آيات كثيرة تدل على ذلك منها:

- بعض الآيات التي ورد فيها لفظ (العالمين):

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧] أي: وما أرسلناك يا محمد بالشرائع والأحكام إلا رحمة لجميع الناس(١).

وقال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١] أي: ليكون محمد لجميع الجن والإنس(٢).

وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وقال: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٦، ٢٧]، إلى غير ذلك من الآيات، ووجه الاستدلال لهذه الآيات ظاهر من جهة كون الإنس والجن هم المكلفون من العالمين، فالدعوة إذن متوجهة إليهما(٣).

- بعض الآيات التي ورد فيها لفظ (الناس):

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، أي: قل يا محمد للناس كلهم: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ لا إلى بعضكم دون بعض كما كان مَن قبلي من الرسل(٤)، وقال أبو السعود: لما حكي ما في الكتابين من نعوت رسول الله ﷺ وشرف من يتبعه من أهلها ونيلهم لسعادة الدارين، أُمر عليه الصلاة والسلام ببيان أن تلك السعادة غير مختصة بهم بل شاملة لكل من يتبعه كائنًا من كان، ببيان عموم رسالته للثقلين(٥).

ومن الآيات أيضًا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٤]، وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس: ١٠٨]، وقوله: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٥٢] إلى غير ذلك، ووجه الاستدلال بهذه الآيات هو توجيه الخطاب في عموم الناس(٦).

---

(١) فتح القدير، محمد علي الشوكاني (٣/٦١٦).
(٢) جامع البيان للطبري نقلًا عن دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٨٤٩).
(٣) دعوة المسلمين في عصر الحروب الصليبية (١/ ٥٠).
(٤) إرشاد العقل السليم (٢/ ٢٨٠).
(٥) المصدر نفسه.
(٦) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٨٥١) جُل هذا المبحث مختصر من هذا الكتاب.

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: ٢٨]، وغير ذلك من الآيات التي تدل على عموم الرسالة الإسلامية.

- الأحاديث التي تدل على عالمية الدعوة الإسلامية:

ورد الكثير من الأحاديث التي تدل على عالمية الدعوة الإسلامية؛ منها حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة»**[(١)]، وحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«وأرسلت إلى الخلق كافة وخُتم بي النبيُّون»**[(٢)]، وأيضًا حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله وسلم قال: **«والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»**[(٣)].

ودلت السنة كذلك على شمول دعوته ﷺ للجن، فمن ذلك ما ورد في الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها، فسكتوا، فقال: **«لقد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردودًا منكم، كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾ قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد»**[(٤)]. فهذا الحديث يدل على مخاطبة رسول الله ﷺ الجن، وقراءته القرآن عليهم، وإنصاتهم له، وإيمانهم بنعم الله سبحانه وتعالى عليهم والتي من أعظمها الإسلام[(٥)]، وفعله ﷺ كذلك يدل على عالمية الدعوة، فبعد دعوته عليه الصلاة والسلام لقومه وعشيرته الأقربين أخذ يعرض نفسه على القبائل في أسواق العرب وفي المواسم، فعن رجل من بني مالك بن كنانة قال: رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز يتخللها يقول: **«أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا»**[(٦)]، ثم إرساله الكتب والرسائل إلى الملوك والأمراء، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كتب إلى كسرى وإلى قيصر، وإلى النجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى[(٧)].

- فعل الصحابة رضي الله عنهم بعده ﷺ:

فبعد وفاته ﷺ واستلام أبي بكر رضي الله عنه الخلافة، وبعد قضائه على فتنة الرِّدَّة في السنة الحادية عشرة من الهجرة بدأ بالفتوحات الإسلامية نشرًا للدعوة؛ حيث أرسل الجيوش إلى العراق ضد الدول الفارسية، وإلى الشام ضد الروم، ثم متابعة ذلك من قِبَل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن بعده

---

(١) البخاري رقم (٣٣٥).
(٢) مسلم رقم (٥٢٣).
(٣) مسلم رقم (٥٢٣).
(٤) صحيح سنن الترمذي (٣/ ٣٤٢).
(٥) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٥٤)
(٦) مسند أحمد رقم (١٦٠٢٣) صحيح لغيره.
(٧) دعوة المسلمين للنَّصارى في عصر الحروب الصَّليبية (١/ ٥٤).

عثمان بن عفان ﷺ؛ حيث امتدت الدولة الإسلامية من حدود الصين إلى طرابلس شرقًا وغربًا، ومن أرمينية إلى اليمن شمالًا وجنوبًا، ولما ارتضى سبحانه وتعالى دين الإسلام للثقلين الإنس والجن، وكانت الدعوة الإسلامية متوجهة -كما سبق إيضاحه- لذلك، ميَّز جلَّ وعلا هذا الدين لكي يصلح لهذه العالمية بمميزات أهمها:

١- سلامته من التحريف بحفظ الكتاب والسنة: قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

٢- شموله الموضوعي والزماني والمكاني: والمقصود بالشمول الموضوعي؛ أي وفاؤه بجميع حاجات الإنسان الاعتقادية والعملية، قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣]، وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

٣- الوسطية: قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

٤- أنه دين الفطرة: فكل إنسان يولد مستعدًا لقبول الإسلام مهيًأ له، قال ﷺ: **«ما من مولد إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»**.

٥- الكمال، وكذلك الوضوح[(١)].

أولًا: أهمية دعوة النصارى إلى الإسلام:

يمكن أن نبرز أهمية دعوة النصارى خاصة من خلال النقاط الآتية:

١- توجيه الخطاب في القرآن في كثير من الآيات لأهل الكتاب وتخصيصهم في ذلك أمرًا لهم بالتوحيد أو الإيمان بمحمد ﷺ، أو بيانًا لتحريفهم الكلام عن مواضعه، أو ردًا على شبههم، أو غير ذلك، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [آل عمران: ٧١]، إلى غير ذلك من الآيات، ولا شك أن النصارى من أهل الكتاب.

٢- حث القرآن على مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] يعني: بالجميل من القول وهو الدعاء إلى الله بآياته والتنبيه على حججه[(٢)]، وذلك تقديرًا لما عندهم من بقية أثر الرسل[(٣)].

---

(١) المصدر نفسه (١/٥٦-٦١).

(٢) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٦٤).

(٣) المصدر نفسه (١/ ٦٤).

٣- تخصيص القرآن للنصارى وتوجيه الخطاب لهم وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٧]، قيل: هذا أمر للنصارى الآن بالإيمان بمحمد ﷺ[١].

٤- تخصيص النبي ﷺ أهل الكتاب في كثير من الأحاديث دعوة لهم، ومن ذلك قوله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»[٢]، وقوله ﷺ: «ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ. . . »[٣].

٥- تميز النبي ﷺ لأسلوب دعوة أهل الكتاب بمراعاة التدرج حسب الأهمية، وذلك في وصيته لمعاذ بن جبل حينما أرسله إلى اليمن حيث قال له ﷺ: «إنك ستأتي قومًا أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله . . . » إلى أن قال: «فإن هم أطاعوا لك بذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[٤].

٦- تخصيص النبي ﷺ للنصارى في الدعوة كما في قصة وفد نصارى نجران[٥].

٧- عناية الإسلام بمعاملة أهل الذمة سواء يهودًا أو نصارى، فقد بيَّن رسول الله ﷺ حرمة ذمة المعاهد، ووجوب الوفاء له، قال ﷺ: «من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عامًا»[٦]، وحرَّم الإسلام ظلم المعاهد أو تكليفه فوق طاقته أو أخذ شيء من ماله بغير طيب نفس؛ لقوله ﷺ: «ألا من ظلم معاهدًا أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة»[٧]، وأباح الزواج منهم وأحل الله طعامهم.

٨- إن دين النصارى دين عالمي؛ بمعنى أنه يعده أتباعه دينًا للبشرية جمعًا، ولذلك ينشطون في الدعوة إليه، بعكس كثير من الديانات والمذاهب الأخرى التي يراها أتباعها دينًا لهم وحدهم، ولذلك لا يسعون لنشرها؛ كاليهودية والهندوسية، وعلى ذلك ففي دعوة النصارى واهتداء البعض منهم حد لانتشار النصرانية في مجتمعات غير نصرانية، ومن ثم إتاحة الفرصة لنشر الإسلام في مثل هذه المجتمعات.

٩- كون النصارى ذوي قوة وكثرة وانتشار في الوقت الحاضر، وكثير من المجتمعات غير النصرانية تسعى لتقليدهم ومتابعتهم منخدعة بما بلغوه من حضارة مادية وقوة عسكرية، وبهداية هؤلاء النصارى أو البعض منهم وهم بهذا النفوذ بالنسبة للعالم سوف يكون في ذلك صلاح أقوام كثيرين كانوا يرونهم المثال لهم.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ١٣٦).
(٢) مسلم رقم (١٥٣).
(٣) البخاري رقم (٩٧).
(٤) البخاري رقم (١٤٩٦).
(٥) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٦٥)
(٦) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٦٦).
(٧) صحيح سنن أبي داود (٢/ ٢٦١).

١٠- أن أكثر الشُّبه التي تثار حول الإسلام خصوصًا في الوقت الحاضر إنما هي من قِبَلِهم وباهتداء البعض منهم فيه ردٌّ على مثل هذه الشُّبه.

١١- إن اهتداء بعض النصارى يساعد كثيرًا في فضح باطل إخوانهم السابقين في الديانة، لخبرتهم فيها، وما في ذلك من مساعدة للدعاة ودعم لجهودهم.

١٢- إن حروب المسلمين في أغلب فترات التاريخ الإسلامي كانت مع النصارى؛ كحروب المسلمين في الأندلس، وصقلية، والحروب الصليبية في الشام ومصر، بل لا تزال هذه الحروب مستمرة في بعض الجهات من العالم، وباهتداء بعض النصارى يساعد ذلك في كشف عدوان إخوانهم السابقين في الديانة، وربما يساعد في إزالة ذلك العدوان(١).

١٣- وبالإضافة إلى ما سبق، فإن النصارى أهل ملة سماوية قبل أن يطرأ عليه النسخ والتحريف، وهي آخر الملل قبل رسالة الإسلام، وفي كتبهم من البشارات بنبوَّة محمد ﷺ، فإذا تصدى المختصون لإبراز هذه البشارات وشرحها فربما يكون ذلك سببًا في إسلام الكثيرين منهم، بل ويكون هؤلاء أيضًا عونًا في دعوة بني ملتهم السابقة(٢).

ثانيًا: أهم موضوعات دعوة المسلمين للنصارى:

اتجهت جهود المسلمين في دعوتهم للنصارى في هذه الفترة إلى معالجة الموضوعات الأساسية في الدين الإسلامي، وذلك بالدعوة إلى أصول الدين وأسسه التي لا يتم إسلامهم إلا بها؛ كالتوحيد، والتصديق بالقرآن، وقبول الإسلام بعمومه، والإيمان بنبوة محمد ﷺ، والإقرار بنبوَّة عيسى عليه السلام ونفي ألوهيته، وإليك شيء من التفصيل:

١- الدعوة إلى التوحيد: كان أمر التوحيد أهم أمور العقيدة الإسلامية التي دعا المسلمون النصارى إليها في فترة الحروب الصليبية، وذلك من خلال الدعوة المباشرة بالحث على توحيد الله سبحانه وتعالى ونفي الشريك عنه، أو من خلال إبطال عقيدة التثليث، أو من خلال نفي الألوهية عن المسيح عليه السلام(٣)، وقد جعل العلماء دعوة النصارى إلى التوحيد هي أولى ما تُصرف فيه الهمم؛ حيث بيَّن ذلك القرآن وأكد على أهمية إقامة الأدلة على وحدانية الله سبحانه وتعالى، ولهذه الغاية ألف أحد العلماء كتابًا خاصًّا بذلك سماه: أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية(٤).

---

(١) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٦٧).
(٢) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٦٨).
(٣) المصدر نفسه (١/ ١٧٤).
(٤) أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية ص٢٠، ٢١ .

وكثيرًا ما تتكرر الدعوة إلى التوحيد في ثنايا مناقشات العلماء المسلمين للنصارى وردودهم عليهم، فمن ذلك مثلًا: دعوة القرطبي لصاحب كتاب تثليث الوحدانية إلى نبذ الشرك وتوحيد الباري سبحانه وتعالى، وبيان براءة عيسى عليه السلام من تثليث النصارى، وأنه ما بلغهم إلا أن الله واحد فرد صمد لا شريك له سبحانه وتعالى[(١)]. وفي هذا السياق وبعد أن عرض الجعفري شيئًا من الأدلة على توحيد الله سبحانه وتعالى من التوراة والإنجيل وجّه كلامه إلى النصارى قائلًا: ... فمن أشرك مع الله غيره فقد كفر بالتوراة والإنجيل[(٢)]، وكانت دعوة النصارى إلى التوحيد بالإضافة إلى الطريقة المباشرة من خلال دعوتهم الصريحة إلى توحيد الله سبحانه وتعالى ونفي الشريك عنه كانت أيضًا من خلال إبطال عقائدهم الشركية المنافية للتوحيد، وذلك بإبطال عقيدة التثليث لديهم وهدمها وإبراز تناقضها، وكذلك من خلال نفي الألوهية عن المسيح عليه السلام وإقامة الأدلة المختلفة على ذلك[(٣)].

٢- الدعوة إلى اعتناق الإسلام بشكل مجمل: كان من موضوعات دعوة المسلمين للنصارى في هذا الفترة دعوتهم إلى اعتناقه من خلال ذكر الأدلة على صحته وبيان محاسنه، أو من خلال ردّ الشُّبه عن تشريعاته.

(أ) الدعوة المباشرة إلى اعتناق الإسلام: ومن الأمثلة على ذلك دعوة صلاح الدين لأرناط الصليبي الذي نقض الصلح مع المسلمين، فغدر بقافلة مسلمة قادمة من مصر إلى الشام، فلما ناشده أصحابها الله وذكّروه بالصلح الذي بينه وبين المسلمين رد بكلام يتضمن الاستخفاف برسول الله ﷺ، لذلك لما علم صلاح الدين أقسم إن ظفر به ليقتلنه لاستخفافه برسول الله ﷺ، فلما جيء بهذا الصليبي مع الأسرى بعد معركة حطين في منتصف شوال سنة (٥٨٣هـ) ذكّره صلاح الدين بما صدر منه ثم عرض عليه الإسلام فأبى فقتله[(٤)]، والشاهد من ذلك هو عرض الإسلام على هذا القائد الصليبي ودعوته إلى اعتناقه، ومثل ذلك عرض الإسلام على صاحب صيدا وقد شهد ذلك ابن شداد حيث قال: ... ولقد رأيته وقد دخل عليه صاحب صيدا بالناصرة، فاحترمه وأكرمه، وأكل معه الطعام، ومع ذلك عرض عليه الإسلام فذكر له طرفًا من محاسنه، وحثه عليه[(٥)].

ومن نماذج عرض الإسلام على النصارى في هذه الفترة ودعوتهم إلى اعتناقه استغلال صلاح الدين للقاءاته بوفود الفرنج لإيضاح محاسن الإسلام ثم دعوتهم إليه[(٦)]، وقد بين الجعفري أن

---

(١) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص١٧٦ .
(٢) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ١٧٦).
(٣) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ١٧٦).
(٤) المصدر نفسه (١/ ١٧٨) النوادر السلطانية ص١٣٠، ١٣١ .
(٥) المصدر نفسه ص٦٦ .
(٦) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ١٧٩).

من أسباب تأليفه كتاب (تخجيل من حرَّف التوراة والإنجيل) هو دعوة النصارى إلى الإسلام، حيث قال: فعسى الله أن يقدر هداية بعضهم، ونحن مأمورون بدعائهم إلى سبيل ربنا بالحكمة والموعظة الحسنة [(١)]. وتكرر في ثنايا مناقشة القرطبي لكتاب أحد القساوسة النصارى دعوته لهذا القسيس إلى اعتناق الإسلام، ومن ذلك قوله: .. فالله الله، أدرك بقية نفسك قبل حلول رمسك، واستعمل عقلك، ولا تعول على تقليد فاسد، واتبع الدين القويم، دين الأب إبراهيم ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٦٧﴾ [آل عمران: ٦٧][(٢)]، وفي موضع آخر من مناقشته لهذا القسيس في كتابه (الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام) بيَّن له أنه لولا رجاء استنقاذه من الضلال إلى الهدى لما ناقشه، ولما أعطى الحكمة إلى غير أهلها، حيث يقول: ... فلعل مقلب القلوب يستنقذك من عبادة إله مصلوب، ويبدلك بها إخلاص العبادة لعلام الغيوب، ولولا رجاء ذلك لما كان ينبغي لي أن أعطي الحكمة إلى غير أهلها[(٣)].

(ب) **الدعوة إلى الإسلام من خلال بيان محاسنه:** اهتم العلماء المسلمون في عصر الحروب الصليبية ببيان محاسن الإسلام وسماحته، لعل ذلك يكون للهداية واعتناق الإسلام، ومن هؤلاء: القرطبي الذي عقد فصلًا في كتابه (الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام) مبينًا فيه محاسن الإسلام ومبرزًا الهدف من ذلك بقوله: الغرض من هذا الفن أن نبين فيه عقيدة الإسلام، وجملًا من أصوله وأحكامه، ومواضع من فروع دينه أنكرتها النصارى عليه، وإنما فعلنا ذلك لغرضين[(٤)]، ثم وضح أن أحد الغرضين هو: .. إنه لا يبعد أن يقف على هذا الكتاب نصراني أو يهودي لم يسمع قط من ديننا تفصيلًا ولا تصريحًا، بل إنما سمع له سبًّا وتقبيحًا، فأردت أن أسرده على الجملة، ليتبين حسنه لمن كان ذكي العقل، صحيح الفطرة، فلعل ذلك يكون سبب هداه، وجلاء عماه[(٥)]. وبعد ذلك عرض القرطبي شيئًا من محاسن الإسلام من خلال ثلاثة جوانب هي:

- **مراعاته لمصالح العباد في الآخرة:** حيث جاءت تشريعاته بإيضاح كل ما يتعلق بها مما يحتاج إليه العباد غاية الوضوح، وتعبدنا الله سبحانه وتعالى بعبادة محصنة؛ كالصلاة والحج وغير ذلك تعظيمًا له سبحانه وتعالى، وخضوعًا له بالظاهر والباطن[(٦)].

- **مراعاته لمصالح العباد الدنيوية:** فجاءت تشريعاته في هذا الجانب حماية للدين، والنفس والمال، والنسب، والعرض والعقل، ولأجل ذلك شرع العقوبات، وحرم كل ما يُؤثِّر على هذه

---

(١) تخجيل من حرَّف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين (١/ ١٠٣).
(٢) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص١٠١ .
(٣) المصدر نفسه ص١٠٦ .
(٤) دعوة المسلمين النصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ١٨٠).
(٥) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص٤٣٨ .
(٦) المصدر نفسه ص٤٣٩ .

ضرورات؛ كالغيبة، والقذف، وقول الزور، والغش والسرقة، وأكل أموال الناس بالباطل، وحرَّم الخمر؛ لأنها تذهب العقل الذي هو مناط التكليف، وغير ذلك من أنواع الفساد(١).

- **إتمامه لمكارم الأخلاق:** يقول القرطبي: . . . وأما مكارم الأخلاق التي تضمنها شرعنا فلا تخفى على متأمل، وذلك أن شرعنا أمرنا بها ظاهرًا وباطنًا، ونهانا عن رذائلها وسفاسفها(٢)، ثم وضَّح القرطبي أمثلة على مكارم الأخلاق في الإسلام، هذه المكارم التي تسعى للتحلي بها كل نفس ظاهرة للخير، مبغضة للشر، فمن المكارم الظاهرة عدد القرطبي النظافة والطهارة والتطيب وتحسين الهيئة وقص الشارب، وإعفاء اللحية، وغير ذلك، وبين أن من النظافة الباطنية التخلي عن مذموم الأخلاق؛ كالغضب، والحسد، والبخل، ومهانة النفس، والكبر، والرياء، والتحلي بالأخلاق المحمودة كالتوبة من المعاصي، وحسن الصحبة، والنصيحة والعدل، والتواضع، والإخلاص، والصبر، والصدق، والتوكل، ومحبة الله ورسله إلى غير ذلك(٣).

وأخيرًا أكد القرطبي على أن المتدبر لهذه المحاسن سيعلم من غير شك أنها حق من الله، وأن الذي جاء بها لا يجوز عليه الغلط والكذب، وعلى ذلك فلا يسعه إلا قبولها والإيمان بالذي دعا إليها وهو الإسلام(٤).

(ج) الدعوة إلى الإسلام من خلال رَدِّ الشُّبه عن تشريعاته: قد يكون سبب عدم قبول الحق شبهة في ذهن المدعو، وبإزالة هذه الشبهة تزول العقبة ويتحقق القبول، وهكذا الحال مع النصارى فإنما كانت كثير من الشُّبه التي يثيرها بعض مضليهم مانعة من العلماء في فترة الحروب الصليبية للذود عن الإسلام بدحض الشبه التي يروِّج لها أئمة الضلال من النصارى، ومن الأمثلة على ذلك رسالة أحد القساوسة إلى أبي عبيدة الخزرجي التي تتضمن الكثير من الشُّبه والمفتريات حول تشريعات الإسلام، ورد أبي عبيدة على هذا القسيس داحضًا شبه ومفترياته(٥)، ومثله القرافي الذي عرض كثيرًا من شُبه النصارى في هذه الفترة وأبطلها(٦).

٣- الدعوة إلى الإيمان بالقرآن: أدرك العلماء في عصر الحروب الصليبية الخطر الذي تتعرض له الأمة من جراء تكاليف أعدائها عليها، خصوصًا النصارى وما يقومون به من حرب عسكرية وفكرية ضد الإسلام في هذه الفترة، وبالتحديد ما يثيرونه حول القرآن رغبة منهم في

---

(١) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص٤٤١ .
(٢) المصدر نفسه ص٤٤٤ .
(٣) المصدر نفسه ص٤٤٥ .
(٤) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ١٨٢).
(٥) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ١٨٢).
(٦) المصدر (١/ ١٨٣).

زعزعة ثقة الأمة بكتابها، لذلك اشتد عنايتهم بكتاب الله دفاعًا عنه أولًا، ودعوة لهؤلاء النصارى ثانيًا، وذلك بتنفيذ مفترياتهم حوله، وتصحيح شبههم التي قد تمنع الكثيرين منهم من التصديق به، ولا شك أن التصديق بالقرآن والإيمان به يعني الدخول في الإسلام واعتناقه؛ إذ إن القرآن والسنة بيّنا كل ما يتعلق بهذا الدين من عقائد وتشريعات يجب على المسلم الالتزام بها، والقرآن قد أمر بالأخذ بالسُّنة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]، ومن ثمَّ فإن تسليم النصارى بصحة القرآن واقتناعهم بذلك، وقبولهم لأوامره ونواهيه، يعني نبذهم لما هم عليه من عقائد باطلة ودخولهم في الإسلام، وكانت عناية الأمة في هذه الفترة بدعوة النصارى إلى الإيمان بالقرآن من خلال ما يلي:

(أ) عناية القرآن بخدمة كتاب الله بشكل عام: من خلال المؤلفات في تفسيره، أو قراءته، أو إيضاح غريبه، أو بيان محكمه ومتشابهه، أو ما يتعلق بناسخه ومنسوخه، أو أحكامه أو إبراز فضائله، أو بلاغته، أو إعرابه إلى غير ذلك، ولا شك أن هذه المؤلفات حول كتاب الله سبحانه وتعالى تساعد على فهمه وإيضاحه، ولا يخفى أثر ذلك في زيادة ترسيخ إيمان المسلمين بكتاب ربهم، ومن ثم صمودهم أمام شبهات أعدائهم من النصارى وغيرهم، كما أن هذه الدراسات حول كتاب الله قد تزيل غشاوة الجهل عن كثير من النصارى فيفهمون كتاب الله سبحانه، وقد يكون ذلك سببًا في إسلامهم[(١)].

(ب) عناية العلماء ببيان إعجاز القرآن الكريم بشكل عام وإبراز ذلك للنصارى بشكل خاص: حيث اعتنى العلماء في هذه الفترة ببيان إعجاز القرآن بشكل عام، فظهرت مؤلفات قصرت الحديث على هذا الجانب؛ ككتاب البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن[(٢)]، وكتاب التنبيه على إعجاز القرآن[(٣)]، ولا يخفى أن إظهار إعجاز القرآن له أثر كبير في إقناع غير المسلمين، لذلك أبرز بعض العلماء هذا الجانب للنصارى من خلال عدة أمور منها:

- **إثبات إعجازه من خلال حفظه من التحريف والتبديل:** وهذا من أعظم الإعجاز، وما كان ذلك ليتحقق لو وُكِّل حفظه إلى البشر، حيث أشار القرافي إلى حفظ الله سبحانه وتعالى لكتابه، وذلك بتهيئة أسباب ذلك؛ من العناية بجمعه وألا يداخله غيره؛ حذرًا مما وقع لأهل الكتاب، ثم نقله من السلف إلى الخلف نقلًا متواترًا، فصدق الله إذ يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩][(٤)]. قال القرطبي حول هذه الآية: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من أن يزاد فيه

(١) المصدر نفسه (١/١٨٩).
(٢) لكمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني المتوفى سنة (٦٥١هـ).
(٣) لمحمد بن أبي القاسم البقالي الخوارزمي المتوفى سنة (٥٦٢هـ).
(٤) الأجوبة الفاخرة، أحمد بن إدريس القرافي ص٩٥.

أو ينقص منه[١]، وبين -رحمه الله تعالى- في كتابه (الإعلام) حفظ الله سبحانه وتعالى لكتابه مقابل التحريف والتبديل الذي جرى على التوارة والإنجيل[٢]، ثم أورد أمثله على ذلك[٣].

- **إثبات إعجازه ببيان فصاحته:** وفي ذلك قال الخزرجي مخاطبًا النصارى ومبينًا إعجاز القرآن بفصاحته، وأن العرب الأوائل -وهم الفصحاء- أقروا له بذلك: يلتفت إلى مقال العجم الجهلاء[٤]، ثم وضع أن العرب وقت نزول القرآن وهم أشد أعداء الرسول ﷺ، وقد كان منهم ما كان من سبِّ الرسول ﷺ وأصحابه وإيذائهم، بل وحربهم ما تكلموا في فصاحته، وقد جرى لهم التحدي أن يأتوا بمثله كما قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨﴾ [الإسراء: ٨٨]، فما استطاعوا ذلك، ثم كان التحدي بعشر سور كما قال سبحانه: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود: ١٣] حتى صار التحدي إلى سورة واحدة: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨]، ومع ذلك عجزوا ولن يستطيعوا لو حاولوا كما أخبر سبحانه: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾.

وفي مناقشة القرطبي للنصارى في كتابه (الإعلام) بيَّن أن فصاحة القرآن أمر لا يقبل الشك: حتى أن العاقل الفصيح إذا سمعه قال: ليس هذا من كلام البشر[٥]، ثم وضَّح نماذج من إعجازه، كقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ۝١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وكيف أن هذه الآية لما نزلت قال أبو جهل: إن رب محمد لفصيح[٦]، ثم لفت القرطبي النظر إلى جوانب من الفصاحة من هذه الآية، حيث تضمنت أحكامًا وتفسير الحلال والحرام، والإعراض عن أهل الجهل والاجترام، والأمر بالتزام أخلاق الكرام، مع ما هي عليه من اللفظ الموجز الجزل الرصين[٧]، ومثال آخر أورده القرطبي هو قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾ [النحل: ٩٠]، وكيف أن الوليد بن المغيرة لما سمع هذه الآية وهو من أفصح قريش وكان من أشد أعداء الرسول ﷺ قال: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق وأن أعلاه لمثمر مورق، وما يقول هذا بشر[٨].

وقد جرت مناظرة بين أحد قساوسة بلنسية بالأندلس وأبي علي بن رشيق التغلبي حول فصاحة القرآن؛ حيث بدأ القسيس يتكلم حول إعجاز القرآن، وأن العرب -وهم الفصحاء والبلغاء-

(١) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٥).
(٢) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص١٨٩.
(٣) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ١٩٠).
(٤) المصدر نفسه (١/ ١٩٠).
(٥) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص٣٢٧.
(٦) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ١٩١).
(٧) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص٣٢٩، ٣٣٠.
(٨) المستدرك للحاكم (٢/ ٥٠٦) صحيح الإسناد على شرط البخاري.

عجزوا عن الإتيان بشيء مثله، وأن هذا التحدي باقٍ إلى آخر الدهر، فوافقه ابن رشيق على ذلك، بعد ذلك أفصح القسيس عما يريد الوصول إليه، فذكر كتاب المقامات للحريري مدعيًا أن الأدباء والشعراء عجزوا عن معارضته، وأن الحريري قد أنشد بيتين اثنين في إحدى المقامات، وتحدى أن يعززهما أحد بثالث، وأن السنين انصرفت وما أتى أحد بثالث لهما رغم دَرْس الناس لتلك المقامات وتداولها بينهم، وانتهى إلى القول على ضوء ما سبق: أن ما أتى به الحريري كلام فصيح يصح أن يكون معجزة وليس هو بنبي، فإذا حصل ذلك فإن نبوة الرسول ﷺ لا تثبت بمسألة التحدى المنصوص عليه بالقرآن، فلما أخذ ابن رشيق يرد عليه بالأدلة والبراهين العلمية، أخذ القسيس يرد عليه بقوله: قد سمعت هذا وناظرني فيه فلان في تلك الأثناء، انقدح في ذهن ابن رشيق بيت ثالث على شاكلة بيتي الحريري، فساقه للقسيس، الذي راح يفهمه لمن معه، وعند ذلك انقطعت حجة القسيس، وكانت النتيجة كما يقول ابن رشيق: إنه انفصل عنهم وهم كالمسلمين في انقطاع شبهتهم(١).

- **إثبات إعجازه بلفت النظر إلى طريقة نظمه وأسلوبه الغريب**: وفي معرض مناقشة القرطبي للنصارى لفت أنظارهم إلى نظم القرآن وأسلوبه الغريب: ... والذي خالف به أسلوب كلام العرب، حتى كأنه ليس بينه وبينه نسب ولا سبب، فلا هو كمنظوم كلامهما فيكون شعرًا موزونًا، ولا كمنثوره فيكون نثرًا عريًّا عن الفواصل محرومًا، بل تشبه رءوس آيته وفواصله قوافي النظم، ولا تدانيها، وتخالف آية متفرقات النثر، وتناويها، فصار لذلك أسلوبًا خارجًا عن كلامهم، ومنهاجًا خارجًا لعادة خطابهم(٢)، ثم ضرب للقرطبي مثالًا على ذلك موجهًا إلى النصارى وهو قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ [مريم: ١٦] إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٣٣]، طالبًا منهم التأمل في معاني هذه الآيات، ولافتًا أنظارهم إلى نظمها البديع المنيف الذي عجزت العرب عن معارضته(٣).

- **إعجاز القرآن بإخباره عن بعض المغيبات فتقع كما أخبر**: ومن ذلك بيان الخزرجي لأحد القساوسة النصارى أن من إعجاز القرآن إخباره عن بعض المغيبات فتحصل كما أخبر، حيث أورد العديد من الأمثلة؛ منها قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ [الروم: ١-٦] فما كان بضع سنين حتى تحقق ذلك وغلبت الروم الفرس(٤).

---

(١) المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى إفريقية والأندلس (١١/ ١٥٧).

(٢) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص٣٣٣.

(٣) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص٣٣٣، ٣٣٤.

(٤) مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان ص٢٠٧.

ومثال آخر هو قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح: ٢٧] فصدق وعده فدخلوا مكة وتحقق الفتح القريب وهو فتح خيبر[١]، ومن الأمثلة التي أوردها الخزرجي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾﴾[٢] فيظفر المسلمون بالنصر على قريش في بدر، وما كذب خبر القرآن، وبعد عدة أمثلة ذكرها الخزرجي على ذلك خاطب النصارى متعجبًا من عدم تصديقهم بالقرآن، وبمن جاء به رغم إعجازه، وذلك بقوله: ومن أعجب الأشياء أنكم تؤمنون بنبوة مريم وحنة وهما امرأتان، بلا كتاب ومعجزة، ولا ذكرتا في صحف الأنبياء، وتكفرون بسيد المرسلين محمد ﷺ وله كتاب يعجز الإنس والجن[٣]، وأكد القرطبي في ردِّه النصارى في كتابه (الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام) أن الأخبار عن المغيبات في القرآن فتقع كما أخبر به من وجوه إعجازه[٤]، ثم عرض أمثلة كثيرة على ذلك[٥].

وفي هذا السياق قال ابن الأنباري: فإنه لما كان لا يجوز أن يقع ذلك على وجه الاتفاق دل على أنه من عند علام الغيوب[٦]، ثم أورده أمثلة عديدة على ذلك[٧].

- **إعجاز القرآن بإخباره عن بعض الأمم السابقة**: تحدث القرطبي عن وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وهو ما تضمنه من الأخبار عن الأمم السالفة التي يشهد العلماء بصحتها مع أن النبي ﷺ لم ينل ذلك بتعليم بشري[٨]، حيث أورد في ردِّه على النصارى أمثلة على ذلك، خصوصًا ما كان يثيره أهل الكتاب في عهده ﷺ من أسئلة ينزل القرآن مجيبًا عليها، فما ينكرون منها شيئًا، مع شدة عداوتهم لرسول الله ﷺ وحرصهم على تكذيبه، ومن ذلك: سؤالهم عن الروح وعن ذي القرنين، وعن أصحاب الكهف، وعن عيسى عليه السلام، وعن حكم الرجم، وعما حرم إسرائيل على نفسه، وغير ذلك من أمورهم، التي نزل القرآن مجيبًا عنها فلم ينكروا منها شيئًا[٩].

(ج) الدعوة إلى الإيمان بالقرآن من خلال ردِّ الشبه التي أثيرت حوله:

وما أكثر الشُّبه والمفتريات التي أثارها ويثيرها أعداء الإسلام على القرآن عبر التاريخ الإسلامي، وأعداء الإسلام من النصارى في فترة الحروب الصليبية ردَّدوا شُبه من كان قبلهم،

---

(١) مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان ص٢٠٨ .
(٢) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ١٩٥).
(٣) مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان ص٢١٣ .
(٤) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص١٩٥ .
(٥) الداعي إلى الإسلام ص٤٢٤ .
(٦) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ١٩٦).
(٧) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص٣٤٣ .
(٨) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ١٩٦).
(٩) المصدر نفسه.

وافتروا غيرها؛ طعنًا في الدين، وإضعافًا للمسلمين، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، وقد تصدى علماء الأمة في فترة الحروب الصليبية للرد على مطاعن النصارى ومفترياتهم حول كتاب الله؛ كالقرافي، والخزرجي، وابن الأنباري، وابن رشيق التغلبي، وغيرهم[(١)]. ولا يخفى أثر إزالة الشُّبه في قبول الحق لدى من يمنعه من الهدى سوء فهم، أو تضليل معاند، يقول القرطبي في مقدمة نبذة كتبها عن محاسن الإسلام: .. إنه لا يبعد أن يقف على هذا الكتاب نصراني أو يهودي لم يسمع قط من ديننا تفصيلًا، ولا تصريحًا، بل إنما سمع له سبًّا وتقبيحًا فأردت أن أسرده على الجملة؛ لتبيين حسنه لمن كان ذكي العقل صحيح الفطرة، فلعل ذلك أن يكون سبب هداه وجلاء عماه[(٢)].

(س) الدعوة إلى الإيمان بنبوة محمد ﷺ:

نبوة محمد ﷺ كانت ولا تزال أساس الحوارات والمناظرات التي تجري بين المسلمين وغيرهم، ففي الوقت الذي يسعى الدعاة المسلمون إلى الإقناع بصدقه ﷺ وصحة رسالته يسعى المعاندون إلى تكذيب ذلك، بل وإثارة الشُّبه حول شخصه ﷺ وحول رسالته، لذلك ما ترك علماء الأمة صغيرة ولا كبيرة في حياته ﷺ إلا كتبوا عنها، وما غادروا شيئًا من أقواله وأفعاله إلا قيدوه وميَّزوا صحيحه من ضعيفه، فكتبوا في سيرته، ومغازيه، وأخلاقه، وشمائله، ومناقبه، وفضائله، وحقوقه ودلائل نبوته، ومعجزاته، وهديه وصنَّفوا في أقواله وأفعاله فظهرت الموسوعات الحديثية كالصحيحين والسنن والمسانيد، والمصنفات، وغيرها من كتب الحديث، فصار القارئ في أي جانب من هذه الجوانب المتعلقة به ﷺ كأنه عاش معه لدقة ما نُقِل عنه، وفي عصر الحروب الصليبية كان من أهم الأمور التي دعا المسلمون النصارى إليها الإيمان بنبوة محمد ﷺ، ولا شك أن تصديق النصارى بذلك وإيمانهم به يعني بالضرورة نبذهم لما هم عليه من الكفر والضلال والدخول في الإسلام، وقد كانت الدعوة إلى الإيمان بمحمد ﷺ من خلال إثبات نبوته ﷺ، ورد الشُّبه التي يثيرها النصارى حول شخصه أو نبوته[(٣)].

وقد اتجه العلماء في هذه الفترة إلى إثبات نبوَّته عليه الصلاة والسلام من خلال ما يلي:

- من خلال تأليف الكتب عنه ﷺ بشكل عام، خاصة ما يتعلق بدلائل نبوَّته ومعجزاته، وشمائله وأخلاقه ومناقبه وفضائله، والمؤلفات في ذلك كثيرة والحمد لله على ذلك.

- من خلال المؤلفات الموجهة إلى النصارى وفي ثناياها الحديث عن نبوَّته ﷺ، وكانت طريقة العلماء في ذلك على النحو التالي:

---

(١) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ١٩٦).

(٢) المصدر نفسه (١/ ١٩٦).

(٣) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ١٩٩).

- إثبات نبوّته ﷺ من خلال دعواه النبوّة؛ حيث وضّح الجعفري في كتابه الرد على النصارى أن مجيء محمد ﷺ ودعواه النبوة أمر مقطوع به، قد ثبت عن طريق التواتر فلا يسوغ النزاع فيه، وأن من أنكر ذلك كمن جحد وجود بغداد ومكة[(١)].

- إثبات نبوّته من خلال ذكر البشارات به ﷺ من التوراة والإنجيل؛ حيث أسهب العلماء في هذه الفترة بذكر البشارات بمحمد ﷺ من التوراة والإنجيل، وذلك إلزامًا للمعاندين من النصارى بما لا يستطيعون إنكاره وإيضاحًا لمن يجهل ذلك منهم، أو حال بينه وبين فهمه تضليل مبطل من قساوستهم؛ حيث ساق الجعفري -مثلًا- أربعًا وثمانين بشارة بنبوة محمد ﷺ من التوراة والإنجيل، ويسرد القرافي إحدى وخمسين بشارة في كتابه الأجوبة الفاخرة، وقد أسهب الخزرجي والقرطبي والمتطبب في معرض ردودهم على النصارى بذكر البشارات به ﷺ من التوراة والإنجيل[(٢)].

وقد انبرى كثير من علماء عصر الحروب الصليبية للرد على علماء النصارى الذين جعلوا رسول الله ﷺ ونبوّته غرضًا لهم، فاستفرغوا الوسع في تفنيد شبههم ورد باطلهم؛ انتصارًا لرسول الله ﷺ، وطمعًا في هداية من كانت مثل هذه الشُّبه حجابًا بينه وبين قبول الحق[(٣)].

(ك) الدعوة إلى الإيمان بنبوة المسيح عليه السلام:

اعتنى الإسلام بالمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام بصفته أحد أولي العزم من الرسل، فجاء القرآن بتكريمه وأمه وحتى عائلته، وصحح الأخطاء ورد الاتهامات والافتراءات الباطلة التي كان يوجهها اليهود والنصارى للمسيح وأمه، فمن تكريم القرآن للمسيح عليه السلام أن جاءت إحدى السور باسم عائلته وهي سورة آل عمران، وسورة أخرى هي سورة مريم باسم أمه التي ورد اسمها في القرآن في مواضع كثيرة، كلها تتحدث عنها بكل التقدير والاحترام والتبجيل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران: ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزخرف: ٥٩].

وتحدث القرآن عن حياة المسيح منذ ولادته وحتى رفعه إلى السماء فهو بشر مخلوق عبد للخالق عزَّ وجل، قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزخرف: ٥٩]، وهو نبي ورسول من عند الله عز وجل، قال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [المائدة: ٧٥]، والمسيح بارٌّ بوالدته وليس بجبار ولا شقي، قال تعالى: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم: ٣٢].

(١) المصدر نفسه (١/ ٢٠١).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٢٠١).
(٣) المصدر نفسه (١/ ٢٢٢).

وهو قدوة صالحة في العبادة والإخلاص لله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١﴾ [مريم: ٣٠، ٣١].

وقد أرسله الله إلى بني إسرائيل وأيده بالمعجزات التي منها إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، ونزول المائدة من السماء، وغير ذلك، قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٤٩﴾ [آل عمران: ٤٩].

ولما بلغ رسالة ربه وأراد به أعداؤه كيدًا نجاه الله من كيدهم فتوفاه ورفعه إليه[(١)]: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ﴾ [النساء: ١٥٧].

هذا هو مجمل اعتقاد المسلمين بالمسيح عليه السلام، وقد ضلَّ النصارى في ذلك ضلالًا بعيدًا بجعلهم المسيح عيسى عليه السلام ابنًا لله، تعالى الله عن ذلك، قال سبحانه: ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ﴾ [التوبة: ٣٠]، بل ادَّعوا أن الله سبحانه هو المسيح ابن مريم قال جلَّ وعلا: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ﴾ [المائدة: ١٧]، وقد كانت نبوَّة المسيح عليه السلام منذ ظهور الإسلام إلى الوقت الحاضر من القضايا الرئيسية التي تناولها العلماء المسلمين في مناقشاتهم مع النصارى رجاء هدايتهم للحق في ذلك، وقد اعتنى العلماء في عصر الحروب الصليبية بيان ذلك للنصارى ودعوتهم إلى الإيمان بنبوته عليه السلام، ونبذ معتقداتهم الباطلة حوله، وذلك من خلال ما يلي:

- الدعوة إلى الإيمان بنبوَّة المسيح عليه السلام من خلال بيان معتقد المسلمين فيه على الإجمال، فما كتب أحد من علماء عصر الحروب الصليبية في مناقشة النصارى إلا ووضَّح معتقد المسلمين في المسيح ﷺ، ونعى على النصارى ضلالهم في ذلك، قال ابن الجوزي عند قوله تعالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ﴾ [المائدة: ٧٥]: فيه رد على اليهود في تكذيبهم رسالته، وعلى النصارى في ادعائهم إلهيته، والمعنى: أنه ليس بإله وإنما حكمه حكم من سبق من الرسل[(٢)].

وقال البغوي: أي ليس بإله بل هو كالرسل الذين مضوا لم يكونوا آلهة[(٣)].

---

(١) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٢٤).
(٢) زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٣٠٦).
(٣) معالم التنزيل (٣/ ٨٢).

وقال الرازي: أي ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبل[١]، وعند قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]. قال: واعلم أن المقصود من ذلك الاستدلال على فساد قول النصارى[٢]؛ أي نفيهم نبوَّته وادعائهم الألوهية له، وهكذا كل مفسري هذا العصر لم يغفلوا بيان عقيدة المسلمين في المسيح عليه السلام وفضح ضلال النصارى فيه، وذلك في تفسيرهم للآيات التي تتحدث عن عيسى عليه السلام أو النصارى بشكل عام[٣].

وبعد أن بيَّن القرطبي حيرة اليهود والنصارى في عيسى عليه السلام، وتضارب أقوالهم حوله، وضَّح أن من رحمة الله سبحانه وتعالى ومنِّه علينا -نحن المسلمين- وعلى النصارى بأن بعث سيد المرسلين لينزه الله المسيح وأمه على لسان نبيه مما قالته اليهود فيهما، ويشهد ببراءتهما مما نُسب إليهما، قال سبحانه: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥]، ثم ذكَّر القرطبي النصارى بموقف النجاشي من عقيدة المسلمين بعيسى عليه السلام حينما أخبره بها جعفر بن أبي طالب ﷺ بقوله: نقول فيه -أي: المسيح عليه السلام- الذي جاء به نبينا ﷺ، وهو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، فلما سمع النجاشي ذلك ضرب بيده الأرض، وأخذ عودًا منها وقال: ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود، فتناخرت بطارقة حوله فقال: وإن نخرتم والله[٤].

ثم خاطب القرطبي النصارى بعد ذلك قائلًا: ... فهذا -أي: رأي النجاشي- قول أهل العلم من قبلكم، العارفين بشريعتكم، وما عدا ذلك فشجرته غثاء ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم: ٢٦].

وقد دعا الخزرجي القسيس الذي طلب منه الإيمان بألوهية عيسى إلى الإيمان بنبوَّته بعد إيضاح عقيدة المسلمين فيه عليه السلام حيث قال: ونحن بالمسيح ابن مريم رسول الله أولى، قدرناه حق قدره، وقلنا بفضله المعلوم وفخره، واعتقدناه بمنزلة تقبلها الأفهام وتليق بالعقول... ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾ [النساء: ١٧٥]، وتبرأنا من قوم غدوا فيه على طرفي نقيض: مفتون به ضال، وظالم بغيض[٥]... ثم دعاه إلى الإيمان بنبوة المسيح عليه السلام قائلًا: ... ما أزين بك أن تقول: إن الله خلق عيسى وأمه آية للناس، عبدًا ورسولًا، وهي صديقة مباركة وكانا يأكلان الطعام[٦].

---

(١) التفسير الكبير (٦/ ٥١، ٥٢).
(٢) المصدر نفسه (٦/ ٥٢).
(٣) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٢٦).
(٤) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، ص٢٥٦.
(٥) مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان ص١٢٨.
(٦) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٢٨).

- الدعوة إلى الإيمان بنبوّة المسيح عليه السلام من خلال ذكر الأدلة على ذلك من كتب النصارى:

- تصريح المسيح نفسه في الإنجيل بأنه نبيٌّ مُرسل من الله سبحانه وتعالى، حيث أورد ابن الأنباري نقولًا من الأنجيل صرح فيها المسيح بعبوديته ونبوته، ومن ذلك قول المسيح للحواريين: .. أخرجوني من هذه المدينة، فإنه ما أكرم نبيٌّ في مدينته، حيث أورد هذا النص مع شيء من الاختلاف اليسير الخزرجي في إثباته لنبوَّة المسيح عليه السلام[(١)].

- شهادة بعض أنبياء بني إسرائيل له بالنبوَّة، ومنهم أشعيا، قال لوقا: جاء يسوع إلى الناصرة حيث تربى، ودخل كعادته في مجامعهم يوم السبت ليقرأ فدفع إليه سفر أشعيا النبي، فلما فتحه إذا فيه مكتوب: روح الرب عليّ من أجل هذا مسحني وأرسلني لأبشر المساكين، وأشفي منكسري القلوب، وأنذر المأسورين بالتخلية، والعميان بالنظر، وأبشر بالسنة المقبولة ثم طوى السفر ودفعه إلى الخادم فجعلوا ينظرون إليه، فقال: اليوم كمل هذا المكتوب في سماعكم[(٢)]، قال الجعفري معلقًا على ذلك: فهذه نبوءة من أشعيا على تصديق ودعوى النبوة والرسالة[(٣)].

- شهادة بعض تلامذته وحوارييه له بالنبوَّة: فهذا يوحنا الإنجيلي تلميذ المسيح عليه السلام وحبيبه وأحد مدوني الإنجيل يقول: كان الناس إذا رأوا يسوع وسمعوا كلامه يقولون: هذا النبي حقًّا[(٤)]. قال الجعفري: هذا هو يوحنا الإنجيلي الذي سمي حبيب المسيح يشهد بنبوته، وهو أحسن أقوال أهل زمانه فيه[(٥)].

- اعتراف أهل زمانه له بالنبوة، وإقراره لهم وعدم الإنكار عليهم، ومن ذلك قول متَّى في إنجيله: لما دنا المسيح وأصحابه من أورشليم، أرسل من جاءه بأتان وجحش، فركب وفرش الناس له ثيابهم، وارتجَّت المدينة لدخوله، فقال الجميع: هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الخليل[(٦)]. وقد وضَّح الجعفري وجه الدلالة من هذا النص، وهو الشهادة للمسيح من أصحابه وأهل زمانه بالنبوة وعدم إنكاره عليهم، وذلك رضا بما يقولون[(٧)].

ثم توجَّه الجعفري باستفهام إلى النصارى غايته دعوتهم إلى الإيمان بنبوة المسيح عليه السلام وذلك بقوله: كيف يسمع -أي: المسيح- آلافًا من الناس يشهدون أنه النبي الآتي من الناصرة

---

(١) مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان ص١٣١ .
(٢) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٢٨).
(٣) تخجيل من حرَّف التوراة والإنجيل للجعفري (١/ ١٩٨).
(٤) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٢٩).
(٥) تخجيل من حرَّف التوراة والإنجيل (١/ ٢٠٧).
(٦) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٣٠).
(٧) الرد على النصارى، صالح بن الحسين ص٨٨ .

ويقرهم على ذلك، ولا تقوم به الحجة؟ أفيظن متأخرو النصارى يومنا هذا أنهم أعلم بالمسيح ممن رآه وشاهده وصحبه؟ [١] وقد ورد في الإنجيل: أن امرأة رأت المسيح فقالت له: أنت ذاك النبي الذي كنا ننتظر مجيئة؟ فقال لها المسيح: صدقت، طوبى لك أيتها المرأة[٢]، فهذه المرأة تسأل المسيح هل هو النبيُّ المنتظر؟ ويصدقها المسيح إذ أقرت له بالنبوة، حيث أورد هذا النص المتطبب مستدلًا به على نبوّة المسيح وذلك في مناقشته للنصارى في كتابه النصيحة الإيمانية[٣].

- الدعوة إلى الإيمان بنبوة عيسى عليه السلام من خلال نفي الألوهية عنه، وإثبات عبوديته لله سبحانه وتعالى، وتفنيد شبه النصارى وأدلتهم على ألوهيته، حيث أسهب علماء هذه الفترة في بحث هذه القضايا ومناقشاتها من خلال ما أورده من أدلة نقلية وعقلية على ذلك[٤].

ثالثًا: مناقشة عقائد النصارى:

تصدى علماء المسلمين في عصر الحروب الصليبية لمناقشة معتقدات النصارى إبطالًا لها وتفنيدًا لحجج النصارى عليها، وبيانًا للحق الذي ضلَّ عنه هؤلاء في ديانتهم، وقيامًا بواجب الدعوة الذي حصلت به الخيرية لهذه الأمة ومن أهم هذه المعتقدات:

١- **نقض الأمانة:** وثيقة الأمانة، أو ما يعرف بقانون الإيمان عند النصارى، هو أصل عقيدتهم، وهو الذي لا يتم إيمان نصراني إلا باعتقاده، ونص هذه الأمانة ما يلي: نؤمن بالله الواحد الأب ضابط الكل، مالك كل شيء، صانع ما يرى وما لا يرى، وبالرب الواحد يسوع المسيح ابن الله الواحد بكر الخلائق كلها، الذي ولد من أبيه قبل العوالم كلها، وليس بمصنوع، إله حق من إله حق من جوهر أبيه الذي بيده أتقنت العوالم وخلق كل شيء، الذي من أجلنا معشر الناس ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس وصار إنسانًا، وحبل به وولد من مريم البتول، وأوجع وصلب أيام فيلاطس[٥] النبطي، ودفن وقام في اليوم الثالث -كما هو مكتوب- وصعد إلى السماء وجلس عن يمين أبيه وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء، ونؤمن بروح القدس الواحد روح الحق الذي يخرج عن أبيه روح محبته وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا، وبجماعة واحدة قديسية جاثليقية[٦]، وبقيامة أبداننا وبالحياة الدائمة إلى أبد الآبدين[٧].

---

(١) دعوة المسلمين للنّصارى في عصر الحروب الصبيبة (١/ ٢٣٠).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٢٣٠).
(٣) النصيحة الإيمانية ص١٠٩ .
(٤) دعوة المسلمين للنّصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٣١).
(٥) المصدر نفسه (١/ ٢٣١).
(٦) الجاثليقية: والجمع: جثقالة، وهو متقدم الأساقفة (يونانية).
(٧) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٣٦).

ولقد اهتم علماء المسلمين في فترة الحروب الصليبية بهذه الأمانة لمكانتها في الديانة النصرانية؛ حيث ناقشوها مبينين تناقضها وتهافتها، ومن ثم هدم ما يقوم عليها من معتقدات في الديانة النصرانية، ومن وجوه التناقض التي بيَّنها هؤلاء العلماء في هذه الأمانة ما يلي:

- إن فيها الإقرار بوحدانية الله سبحانه ثم نقض ذلك بالشرك، فقولهم فيها: نؤمن بالله الواحد الأب ... يناقض قولهم أيضًا: ... وبالرب الواحد يسوع المسيح(١).

- إقرارهم فيها بأن الله صانع ما يرى وما لا يرى، ثم قولهم عن المسيح: .. الذي بيده أتقنت العوالم، وخلق كل شيء(٢).

- قولهم في الأمانة: إن يسوع المسيح ابن الله بكر الخلائق الذي ولد أبيه، مشعر بحدوثه، فلا معنى لكونه ابن الله إلا إذا تأخر عنه؛ إذ كونهما معًا كما يقر به النصارى مستحيل ببداهة العقول(٣).

- قولهم فيها: إن يسوع بكر الخلائق كلها. لا يفهم منه إلا أن المسيح خلقه الله قبل كل الخلائق؛ أي أنه مخلوق مصنوع، وهذا مناقض لما في أمانتهم وهو: ... وليس بمصنوع إله حق من إله حق(٤).

وقد ذكر العلماء وجوه من التناقض كثيرة فصلها الدكتور سليمان بن عبد الله الرومي في كتابه القيم (دعوة المسلمين للنّصارى في عصر الحروب الصليبية)(٥)، وقد أبرز العلماء المسلمون كالجعفري والمتطبب والقرافي تهافت هذه الأمانة التي يعدها النصارى أساس ديانتهم، والتي لا يصلح إيمان أحدهم إلا باعتقادها، فأصبحوا بذلك -كما وصفهم القرافي- هزًّا للناظر ومصنفة للمناظر(٦).

٢- **اختلاف الأناجيل**: الإنجيل: من اللفظ اليوناني (أونجيلون) ومعناه خبر طيب(٧)، وتأتي بمعنى الحلوان؛ وهو ما يعطى لمن يأتي بالبشرى، ثم أريد بها البشرى عينها، واستعملوها على الكتاب الذي يتضمن هذه البشرى عند النصارى منذ أواخر القرن الأول إلى الوقت الحاضر(٨)، حيث يشمل الكتاب العهد القديم والعهد الجديد، فالعهد القديم يعني التوراة والكتب الملحقة بها؛ حيث تضم تسعًا وثلاثين سفرًا(٩)، والعهد الجديد يعني الأسفار التاريخية والأناجيل الأربعة ورسالة أعمال الرسل والأسفار التعليمية حيث يبلغ تعدادها جميعًا سبعًا وعشرين سفرًا،

---

(١) المصدر نفسه (١/ ٢٣٧).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٢٣٧).
(٣) المصدر نفسه (١/ ٢٣٧).
(٤) المصدر نفسه (١/ ٢٣٧).
(٥) المصدر نفسه (١/ ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩).
(٦) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٤٠).
(٧) نخبة من علماء اللاهوت النصارى ص١٢٠ .
(٨) المسيحية، د/ أحمد ص٢٠٤ .
(٩) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصَّليبية (١/ ٢٤١).

والعهد القديم أو التوراة على الرغم من إيمان النصارى به إلا أنهم يفسرون كثيرًا من نصوصه تفسيرًا يوافق عقائدهم الباطلة كالتثليث وألوهية المسيح وغير ذلك، لعدم استطاعتهم التصرف بنصوصه كالإنجيل؛ لأنه محفوظ عند أعدائهم اليهود[(١)].

والإنجيل في الأصل هو الكتاب الذي أُنزل على عيسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة: ٤٦]، لكن هذا الإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام ليس هو الذي بين النصارى اليوم؛ إذ بين أيديهم الآن أربعة أناجيل انتخبت من عدد غير محدود من الأناجيل، حيث اعتمدت الكنيسة هذه الأربعة بما يسمى بالأناجيل القانونية من بين أناجيل كثيرة تم استبعادها أطلق عليها الأناجيل غير القانونية[(٢)]، وقد كان ذلك سنة (١٧٠م) وقد بيَّن صاحب قصة الحضارة هذه القضية بقوله: أما الأناجيل فليس أمرها بهذه السهولة، وذلك أن الأناجيل الأربعة التي وصلت إلينا هي البقية من عدد أكبر منها كثيرًا كانت في وقت ما منتشرة بين المسيحيين في القرنين الأول والثاني[(٣)].

وإذا كانت هذه الأناجيل الأربعة قد تم اختبارها من بين أناجيل كثيرة فلا يستبعد أن يكون الإنجيل الصحيح من بين ما تم استبعاده، وحتى هذه الأربعة المعتمدة لم تسلم من الاختلاف فيما بينها بل والتناقض الذي لا يمكن التوفيق فيه، وقد تساءل ابن القيم[(٤)]: كيف يكون في الإنجيل الذي أنزل على عيسى قصة صلبه وما جرى له من الألم ثم الموت والقيام من القبر إلى غير ذلك مما هو من كلام شيوخ النصارى[(٥)]؟! وفيما يلي نبذة على ما يسمى عند النصارى بالأناجيل الأربعة القانونية التي أقروها لتوافق التحريفات التي أدخلوها على ديانتهم في مجامعهم المختلفة، مثل: إنجيل متَّى، وإنجيل مرقس، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا[(٦)].

هذه هي أناجيل النصارى التي عليها عماد ديانتهم، وهي في اعتقاد المسلمين لا يمكن أن تكون الإنجيل الذي أنزله الله عزَّ وجل على عبده عيسى عليه السلام، وأحسن أحوالها أن تكون متضمنة لبعض ما أنزله الله جلَّ وعلا على عيسى، وكثير مما فيها حرّف بلفظه أو بمعناه قال: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣]. قال القرطبي: أي يتأولونه على غير تأويله ويلقون ذلك إلى العوام[(٧)]. ولمكانة الأناجيل عند النصارى، لكونها عماد ديانتهم، وأساس ضلالهم

---

(١) المسيحية، د/ أحمد شلبي ص٢٠٤ .
(٢) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٤١).
(٣) المصدر نفسه (١/ ٢٤٢).
(٤) دعوة المسلمين للنَّصارى في عصر الحروب الصَّليبية (١/ ٢٤٢).
(٥) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٤٨ .
(٦) دعوة المسلمين للنَّصارى في عصر الحروب الصَّليبية (١/ ٢٤٢).
(٧) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٧٧).

بما حرَّفوا فيها، فقد اهتم بعض من العلماء المسلمين في عصر الحروب الصليبية بدارستها مبينين تناقضها وعدم الطمأنينة إلى ما فيها، وإظهار ذلك للنصارى هدمًا لأساس عقائدهم الباطلة، ورغبة في هداية من شاء الله هدايته منهم، فهذا الجعفري يوضح أن مَن وقف على التناقض في الإنجيل، ومصادمة بعضه بعضًا يشهد بأنه ليس هو الإنجيل الحق المنزل من عند الله، وأن أكثره من أقوال الرواة وأقاصيصهم، وأن نقلته أفسدوه ومزجوه بحكاياتهم وألحقوا به أمورًا غير مسموعة من المسيح ولا من أصحابه.

وهو ليس إنجيلًا واحدًا بل أربعة أناجيل كُتِب كل واحد منها في قطر من الأقطار، بقلم غير قلم الآخر، وتضمن كل كتاب أقاصيص وحكايات أغفلها الكتاب الآخر، وإذا كان الأمر كذلك فقد انخرمت الثقة بهذا الإنجيل، وعدمت الطمأنية بنقلته[١]، ثم أورد الجعفري نماذج عديدة تبين تحريف الإنجيل وتناقضه، ومن ذلك:

- قال متَّى: من يوسف خطيب مريم -وهو الذي يسمى يوسف النجار- إلى إبراهيم الخليل اثنتان وأربعون ولادة[٢]، وقال لوقا: لا ولكن بينهما أربع وخمسون ولادة[٣]. ثم عقب الجعفري على ذلك بقوله: وهذا تكاذب قبيح[٤]..

- نصان آخران أحدهما عند لوقا يصف المسيح عليه السلام بأنه سيملك على بني إسرائيل[٥]، ونص آخر عند يوحنا يصف المسيح عليه السلام بأنه الضعيف الذليل[٦]، حيث عقب عليهما الجعفري بقوله: وهذا تكاذب قبيح؛ لأن أحدهما يقول: إن يسوع يملك على بني إسرائيل، والآخر يصفه بصفة ضعيف ذليل[٧].

وهكذا استطرد الجعفري بذكر نماذج من تحريف الإنجيل وتناقضه في اثنين وخمسين موضعًا، عقب بعد عرضها بقوله: فهذا كتاب قد تلاعبت به بنيات الطرق وتزاحمت به تراجمة الفرق، وولد من لسان إلى لسان، وعبث به التحريف والتصحيف في كل زمان[٨]، وخاطب الخزرجي أحد قساوسة النصارى بقوله: ... أناجيلكم إلا حكايات، وتواريخ، وكلام كهنة، وتلاميذ وغيرهم، حتى إني أحلف بالذي لا إله إلا هو أن تاريخ الطبري عندنا أصح نقلًا من الإنجيل، ويعتمد عليه العاقل أكثر، مع أن التاريخ عندنا لا يجوز أن ينبني عليه شيء من أمر الدين[٩].

(١) دعوة المسلمين للنّصارى في عصر الحروب الصّليبية (١/ ٢٤٦).
(٢) الكتاب المقدس، إنجيل متى، الإصحاح (١/ ١٦).
(٣) الكتاب المقدس، إنجيل متى، الإصحاح (١/ ١٦).
(٤) المصدر نفسه، إنجيل لوقا، الإصحاح (٣/ ٢٣-٣٤).
(٥) تخجيل من حرَّف التوراة والإنجيل (١/ ٢٨٥).
(٦) الكتاب المقدس، إنجيل يوحنا (١٩/ ١-١١).
(٧) دعوة المسلمين للنّصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٤٦).
(٨) المصدر نفسه (١/ ٢٤٨).
(٩) المصدر نفسه (١/ ٢٤٨).

ثم أورد الخزرجي في نقاشه مع القسيس أمثلة على تناقض الإنجيل مبتدئًا لها بقوله: وفي الإنجيل الذي بأيديكم كثير من المتناقضات[(١)]، ثم ذكر كثيرًا من الأدلة على ذلك ثم وجه خطابه للقسيس قائلًا: أخبرني أيها المغرور عن هذا الخلاف، أتعده تتميمًا أو نقصًا لشريعة من سبقه[(٢)]؟ وأخيرًا بعد أن انتهى الخزرجي من سرد الأمثلة الكثيرة على تناقض الإنجيل وبيَّن أن فيها الكفاية على تهافت الأناجيل، والدليل على ما اشتملت عليه من الزلل والأباطيل، بعد ذلك تساءل قائلًا: فليت شعري أين هذا الإنجيل المنزل من عند الله؟ وأين كلماته من بين هذه الكلمات؟[(٣)].

وقد بيَّن القرافي أنه لكثرة التحريف والتبديل من الإنجيل وكثرة كَتَبَتِه واختلاف طوائف النصارى فيه فلا يمكن والحال هذه تمييز الكلام الذي أنزله الله عن غيره حيث قال: وأما النصارى فلا يتعين لهم شيء مما أنزل الله تعالى أبدًا[(٤)]، وفي موضع آخر وصف القرافي كتب النصارى بقوله: . . . ومن طالع كتبهم وأناجيلهم وجد فيها من العجائب ما يقضي له بأن القوم تفرقت شرائعهم وأحكامهم، ونقولهم. . . وأن القوم لا يلتزمون مذهبًا، والعجب أن أناجيلهم حكايات، وتواريخ ومجريات وكلام كفرة وكهنة[(٥)]، ثم أورد بعد ذلك خمسة عشر مثالًا من تناقضات الأناجيل تدل على تغييرها وتبديلها وعدم الوثوق بشيء منها[(٦)]، وهكذا من إبراز العلماء المسلمين لاختلاف الأناجيل وتناقضها ومصادمة بعضها بعضا وإيراد الأمثلة على ذلك إيضاح بما لا يدع مجالًا للشك لضعف ما بنى عليه النصارى عقائدهم الذي يعدونه أساس ديانتهم[(٧)].

٣- مناقشة قولهم في المسيح عليه السلام: المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام بشر مخلوق ليس بإله ولا ابن إله، قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزخرف: ٥٩]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [المائدة: ٧٥]، وما ادَّعى عليه السلام الربوبية ولا الألوهية، ولم يأمر أحدًا باتخاذه إلهًا، بل إنه عبد الله ورسوله كما قال الله سبحانه فيما حكاه عنه: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

وقد عاش المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام يدعو إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده، وكان قدوة صالحة في ذلك، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾

(١) المصدر نفسه (١/ ٢٤٨).
(٢) مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان ص١٥٥ .
(٣) مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان ص١٥٧ .
(٤) الأجوبة الفاخرة ص٢٧ .
(٥) المصدر نفسه ص٢٧ .
(٦) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٥٠).
(٧) المصدر نفسه (١/ ٢٥٠).

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم: ٣٠، ٣١]، ولما بلَّغ رسالة ربه وأراد به أعداؤه كيدًا نجاه الله منهم، وذلك برفعه إليه، قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ﴾ [آل عمران: ٥٥].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]، وقد ضلَّ النصارى في المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ضلالًا بعيدًا؛ إذ اعتقدوا فيه الألوهية، وجعلوه ابنًا لله نزل ليصلب ويقتل فداءً للبشرية، وتكفيرًا لخطيئة أبيهم آدم[(١)]، ولقد ناقش العلماء المسلمون في عصر الحروب الصليبية عقيدة النصارى بالمسيح نقاشًا مستفيضًا، فضحًا لباطل النصارى في ذلك، وبيانًا للحق الذي لُبس على عامتهم فأسهبوا في ردودهم على النصارى في إبطال اتخاذهم المسيح أحد ثلاثة آلهة، ورد ادعائهم فيه الاتحاد والتجسد، ونفي الألوهية عنه، وهدم زعمهم بنوته لله -تعالى الله عن ذلك- وتفنيد ما ادَّعوه من قتله وصلبه، وفيما يلي عرض لبعض جهودهم في ذلك:

(أ) إبطال التثليث: اتخذ النصارى المسيح عليه السلام إلهًا بجعله واحدًا من ثلاثة، وقد بدأ بذرة التثليث في النصرانية بولس بعد المسيح عليه السلام؛ حيث استقرت فرقها المختلفة على هذه العقيدة بعد ذلك في مجمع نيقية عام (٣٢٥م) بتأليه الأب وتأليه الابن، ثم تأليه روح القدس في مجمع القسطنطينية عام (٣٨١م)، وعرفت هذه العقيدة بالتثليث، وكان النصارى قبل مجمع نيقية مختلفين بين موحدين ومشركين على ديانة بولس حتى جمعهم قسطنطين[(٢)] على الشرك بالله في هذا المجتمع[(٣)]، وإيمان النصارى بالتثليث سماعًا وتقليدًا بما ورثوه عن آبائهم مع هدم الخوض في كنه هذه العقيدة أو التعمق فيها، قال أحدهم: وهذه -أي: التثليث- حقيقة تفوق الإدراك البشري عن إدراكها[(٤)]، وقال أحد القساوسة: إن الثالوث سر يصعب فهمه وإدراكه كمن يحاول وضع مياه المحيط كلها في كفه[(٥)]. ولهذا التعقيد في فهم عقيدة التثليث لدى النصارى اختلفوا في تحديدها وفي المراد منها[(٦)].

وقد عرض بعض العلماء المسلمين في عصر الحروب الصليبية عقيدة التثليث لدى النصارى كما يعتقدونها؛ حيث قال نصر بن يحيىٰ المتطبب: إن الله سبحانه وتعالى جوهر واحد وثلاثة أقانيم؛ أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم روح القدس، وأنها -أي: الذات الإلهية- واحدة في الجوهر مختلفة الأقانيم[(٧)]. وقال القرافي في عرض عقيدة التثليث عند النصارى: ...

(١) دعوة المسلمين للنّصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٥١).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٢٥٢).
(٣) مجموعة الشرع الكنسي، حنانيا، إلياس كساب ص٤٠ .
(٤) حقائق أساسية في الإيمان المسيحي ص٥٣ .
(٥) دعوة المسلمين للنّصارى في عصر الحروب الصّليبية (١/ ٢٥٣).
(٦) المصدر نفسه (١/ ٢٥٣).
(٧) النصيحة الإيمانية، محمد الشرقاوي ص٥٦، ٥٧ .

النصارى مجمعون على القول بالثالوث، وهو أن ربهم أب، وابن، وروح، فالأب الذات، والابن النطق الذي هو الكلام النفساني، والروح الحياة، فالأب جوهر، واختلفوا في الكلام والحياة هل هما صفتان للأب أو ذاتان قائمتان بأنفسهما، أو خاصيتان لذلك الجوهر؟[(١)] وبعد عرض هؤلاء العلماء لعقيدة التثليث لدى النصارى تصدوا لمناقشتها وتفنيد أدلتهم عليها على النحو التالي:

- بيان فساد هذه العقيدة وكفر من يعتقدها ابتداءً: ففي تفسير قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة: ٧٣، ٧٤]. قال ابن عطيه بعد أن بيَّن أن هذا القول لبعض فرق النصارى: . . . وهم على اختلاف أحوالهم كفار من حيث جعلوا في الإلهية عددًا، ومن حيث جعلوا لعيسى عليه السلام حكمًا إلهيًّا . . . ثم توعد تبارك وتعالى هؤلاء القائلين هذه المقولة الكفرية العظيمة بمس العذاب بالدنيا من القتل والسبي، وبعذاب الآخرة بعد لا يفلت منه أحد[(٢)]، وبعد أن وضَّح الرازي تثليث النصارى عقب لقوله: . . ولا يرى في الدنيا مقالة أشد فسادًا وأظهر بطلانًا من مقالة النصارى[(٣)].

وقال الجعفري: . . . عند النصارى ثلاثة ألهة قديمة أزلية . . . وذلك باطل وكفر[(٤)]. وقال القرطبي: . . . وفيه -أي: التثليث- خروج عن التوراة والإنجيل والمزامير والنبوات وسائر الكتب[(٥)].

- إيراد الأدلة من كتب النصارى على وحدانية الله: حيث ساق كثير من العلماء في معرض مناقشتهم للنصارى وإبطالهم لعقيدة التثليث لديهم الأدلة من التوراة والإنجيل التي تثبت وحدانية الله سبحانه وتعالى وتنقض التثليث الذي يعتقدونه، فمما أورده الجعفري من ذلك قول الله في التوراة: يا موسى أنا الله، أنا إله غيور، أنا الله وحدي، وليس معي غيري[(٦)]. وقوله لموسى عليه السلام: لا يكن لك إله غيري[(٧)].

ومن الأدلة التي أوردها القرافي من التوراة على التوحيد وإبطال التثليث قول الله سبحانه وتعالى لبني إسرائيل: أنا الله ربكم الذي أخرجتكم من أرض مصر من بيت العبودية لا يكون لكم إله غيري[(٨)]. ومن الإنجيل قول يوحنا: إن المسيح رفع بصره إلى السماء وتضرع إلى الله

(١) الأجوبة الفاخرة ص١١١ .
(٢) المحرر الوجيز (٥/ ١٦١، ١٦٢).
(٣) تفسير الرازي (٦/ ٥١).
(٤) تخجيل من حرَّف التوراة والإنجيل (٢/ ٥٨٢).
(٥) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ١٦١).
(٦) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٥٦).
(٧) المصدر نفسه (١/ ٢٥٦).
(٨) المصدر نفسه (١/ ٢٥٦).

وقال: إن الحياة الدائمة تجب للناس أن يعلموا أنك أنت الله الواحد الحق، وأنك أرسلت يسوع المسيح[١]، ثم علق القرافي على ذلك بقوله: وهذا هو التوحيد المحض[٢]

- **إبطال عقيدة التثليث من خلال بيان اختلاف النصارى في تفسير هذه العقيدة اختلافًا شديدًا**، حتى أن بعض فرقهم تكفر البعض الآخر، وفي مناقشة القرافي لذلك وضَّح أن اختلافهم في أصل ديانتهم دليل على أنهم ليسوا على دين، ولا في شيء من أمرهم على يقين[٣]، وقال القرطبي في ثنايا عرضه لعقيدة التثليث لدى النصارى، وسياقه لاختلافاتهم فيها: وهم مع ذلك فيما ذكرناه من الأقانيم مختلفون، وبالحيرة عمون[٤] وقال: وإذا وقفت على هذه الأقاويل الضعيفة والآراء السخيفة لم تشك في تخبطهم في عقائدهم وحيرتهم في مقاصدهم[٥]

- **إبطال عقيدة التثليث من خلال تفنيد أدلة النصارى عليها**: حيث عرض بعض العلماء المسلمين أمثلة من أدلة النصارى على عقيدة التثليث؛ بيانًا لهشاشتها، وإيضاحًا لضعفها ومن ثم إبطالًا لهذه العقيدة المعتمدة عليها[٦]

- **بيان فساد عقيدة التثليث بالأدلة العقلية**: وقد توسع العلماء المسلمون في عصر الحروب الصليبية في إبطالة عقيدة التثليث من خلال طلبهم من النصارى عرض هذه العقيدة على العقل السليم المجرد من الهوى وتحكيمه فيها، وسيظهر لهم فساد ما هم عليه، ومن ذلك أنه قد كتب أحد علماء النصارى في الأندلس كتابًا سماه (تثليث الوحدانية) وبعث به إلى المسلمين في قرطبة، فرد عليه القرطبي منتقدًا عنوان الكتاب، وموضحًا أن قوله: تثليث الوحدانية مركب من مضاف ومضاف إليه، فالتثليث تعدد وكثرة والوحدانية مأخوذة من الوحدة، ومعناها راجع إلى نفي التعدد والكثرة، فمعنى هذا القول (تكثير ما لا يتكثر) وتكثير ما لا يتكثر باطل بالضرورة[٧]، وألزم الجعفري النصارى بلوازم لا مفر لهم منها في قولهم بالتثليث، فإن كانوا يقولون: إن الثلاثة بمجموعها إله واحد، وإن كل واحد على انفراده ليس بإله فإنهم حينئذ يخالفون أمانتهم التي هي أصل إيمانهم والتي يقولون فيها: إن الأب إله واحد، وإن الابن إله واحد، وإن روح القدس إله واحد[٨] وإن قالوا: إن الإله أحدهم والباقي صفات له أبطلوا ثالوثهم، وفسدت أمانتهم ووافقوا المسلمين في أن الإله تعالى واحد وله صفات من العلم والقدرة والإرادة والحياة والسمع والبصر والكلام، وإن شيئًا من الصفات ليس بإله وإنما الإله ذات موصوفة

(١) المصدر نفسه (١/ ٢٥٧).
(٢) أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية ص٥٩
(٣) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٥٨).
(٤) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص٨٠
(٥) المصدر نفسه ص٨١
(٦) دعوة المسلمين للنّصارى (١/ ٢٥٩).
(٧) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص٤٧
(٨) الرد على النصارى ص٧٨، ٧٩

بالصفات[١]، وإن أثبتوا الإلهية لكل واحد من الثلاثة فإنهم حينئذ كالثنوية من المجوس الذين يقولون بأصلين قديمين مدبرين للعالم، حيث وضع ابن الأنباري استحالة ذلك، وأن الله سبحانه وتعالى بيَّن هذا الأمر بقوله جلَّ وعلا: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٣][٢]

(ب) **إبطال الاتحاد والتجسد:** بقصد بالاتحاد والتجسد: أن الأقنوم الثاني الابن قد صار جسدًا لأجل بني الإنسان وتخليصهم من خطيئة أبيهم، فاتخذ طبيعة البشر وحل بين الناس بصورة إنسان هو المسيح، فقبل الله اتخاذ الحالة البشرية والتقى الإنسان مباشرة بهذه الصورة[٣]، حيث صار في السيد المسيح طبيعتان: طبيعة لاهوتية، التي هي طبيعة كلمة الله وروحه، وطبيعة ناسوتية التي اتخذت من مريم العذراء واتخذت به[٤]، قال الجعفري:
وزعم النصارى أن ربهم عبارة عن لاهوت وناسوت واتحدا فصارا مسيحًا، وكثيرًا ما يقولون: اتحد اللاهوت بالناسوت، ويعبرون عن ذلك بالتأنس والتجسد[٥]، وكلام النصارى في دعوى اتحاد اللاهوت بالناسوت متناقض ومضطرب، ولهذا يقال: لو اجتمع عشرة من النصارى لتفرقوا على أحد عشر قولًا بل إن الأمر بلغ في ذلك أن كل فرقة منهم تكفر الأخرى[٦]، ومن خلال ردود العلماء المسلمين على النصارى في فترة الحروب الصليبية، ناقشوا هذه العقيدة إما بشكل مستقل، أو ضمن مناقشتهم لقضايا أخرى كألوهية المسيح عليه السلام، أو بنوته لله، أو في ردهم لعقيدة التثليث، وكان من إبطالهم لدعوى الاتحاد والتجسد ما يلي:

- إن الاتحاد الذي يدعونه لم يشاهدوه بالعيان، ولم يدعيه أوائلهم، حيث وضَّح الجعفري أنهم إن ادَّعوا شيئًا من ذلك فقد تحامقوا وأكذبهم عقلاؤهم[٧]

- إن أقوال المسيح عليه السلام بأنه إنسان تكذبهم في هذه الدعوى، ومن ذلك قوله لليهود: لِمَ تريدون قتلي وأنا إنسان من بني آدم كلمتكم بالحق الذي سمعته من الله؟[٨]، وقوله: للثعالب أحجار، ولطير السماء أوكار، وابن الإنسان ليس له موضع يسند رأسه[٩] فبيَّن الجعفري أن المسيح عليه السلام بهذه النصوص وغيرها أثبت أنه إنسان، وذلك تكذيب لمن يقول: إنه إنسان وإله[١٠]

---

(١) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٦٣).
(٢) الداعي إلى الإسلام للأنباري ص٣٦٢
(٣) دعوة المسلمين للنّصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٦٤).
(٤) الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح لابن تيمية (٤/ ٧٦).
(٥) الرد على النصارى ص٦٥
(٦) الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح (٤/ ٧٦).
(٧) الرد على النصارى ص٦٥
(٨) دعوة المسلمين للنّصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٦٥).
(٩) المصدر نفسه (١/ ٢٦٥٤).
(١٠) المصدر نفسه (١/ ٢٦٥).

- وأشار الجعفري إلى تصريح الإنجيل بأن المسيح عليه السلام جاع وشبع وتألم واعترضته عوارض البشر، فذلك كله يبطل الاتحاد الذي يزعمه النصارى؛ لأن هذه الأوصاف تنافي الألوهية[1]. وأما من أبرز حجج النصارى على الاتحاد قول المسيح عليه السلام: أنا بأبي وأبي بي[2]، حيث يقولون: إن هذا تصريح من المسيح بأنه متحد بالله والله متحد به[3]، فبعد أن أورد الجعفري هذه الحجة لهم رد عليهم بقول يوحنا: تضرع المسيح إلى الله في تلاميذه فقال: أيها القدوس، احفظهم باسمك ليكونوا هم أيضًا شيئًا واحدًا كما أنا شيء واحد، قد منحتهم من المجد الذي أعطيتني ليكونوا شيئًا واحدًا، فأنا بهم وأنت بي[4]، ثم وضح معنى ذلك بأنك يا إلهي معي وأنت لي، وأنا أيضًا مع أصحابي وأنا لهم، وكما أنك أرسلتني لأدعو عبادك إلى توحيدك فكذلك أنا أرسلتهم ليدعو إليك، فكن لهم كما كنت لي[5]. ثم أكد الجعفري أن هذا هو التأويل الصحيح لقول المسيح، وإن عدل عنه فيلزم منه حلول الله سبحانه في رجل من خلقه، وأن يكون التلاميذ أيضًا متداخلين مع المسيح ويكون المسيح متداخلًا معهم، ومعنى ذلك أن الله أيضًا حالٌّ في التلاميذ حالون في الله، وهذا ما لا يقول به النصارى[6].

(ج) نفي الألوهية عن المسيح: قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧] وتأليه المسيح قد بدأت بوادره في حياته عليه السلام، واستمر هذا الانحراف بتأثير الفلسفات القديمة والديانات الوثنية السائدة في المناطق التي انتشرت فيها النصرانية حيث تسربت إليها مع بولس اليهودي الذي قام بدور كبير في هذا الانحراف بديانة النصارى وإفسادها عقيدة وشريعة[7]، وبذلك انقسم النصارى بعد المسيح عليه السلام إلى قسمين: طائفة جنحت للشرك بالله بتأليه المسيح وبنوته، وقد استمر هذا الوضع والنزاع في طبيعة المسيح عليه السلام حتى مطلع القرن الرابع الميلادي حين حمل لواء التوحيد أريوس المصري[8]، الذي أنكر معتقدات بولس وقرر أن المسيح ليس إلهًا ولا ابن إله[9]، واشتد الصراع لذلك بين أتباع وثنية بولس وتوحيد أريوس، حتى دخل قسطنطين حاكم الرومان بالنصرانية فأمر بعقد مجمع ديني ضخم لجميع الكنائس، وذلك للفصل في أمر الخلاف بين أريوس ومعارضيه، حيث عقد مجمع نيقيه سنة **٣٢٥**م الذي حضره ألف وثمانمائة وأربعون من الأساقفة الذين اشتد الخلاف بينهم في طبيعة المسيح حتى انسحب أكثرهم ولم يبق إلا ثلاثمائة وثمانية عشرة أسقفًا، وكان قسطنطين لخلفيته الوثنية يميل إلى رأي تأليه المسيح عليه السلام،

---

(١) المصدر نفسه (١/٢٦٦).
(٢) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٦٨).
(٣) تخجيل من حرَّف التوراة والإنجيل (١/ ٤١٢).
(٤) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٦٩).
(٥) تخجيل من حرَّف التوراة والإنجيل (١/ ٤١٣).
(٦) دور بولس في إفساد النصرانية ص٢١٦ .
(٧) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٦٩).
(٨) المصدر نفسه (١/ ٢٧٠).
(٩) المصدر نفسه.

فأيد هذا الرأي وانتهى هذا المجمع إلى قرارات أهمها القول بألوهية المسيح وتكفير أريوس وأتباعه[١].

وقد تصدى العلماء المسلمون في فترة الحروب الصليبية إلى مناقشة دعوى ألوهية المسيح عليه السلام وتفنيد أدلة النصارى وشبههم التي يعتمدون عليها في ذلك، وكان إبطال هذه العقيدة على النحو التالي:

- بيان كفر من يؤمن بهذه العقيدة ابتداءً: إذ وضَّح القرطبي كفر النصارى؛ إذ غلوا بالمسيح عليه السلام حتى جعلوه إلهًا[٢]. وذكر ابن الجوزي أن الذين كفروا من النصارى هم المقيمون على اعتقاد الألوهية بالمسيح[٣] عليه السلام. وقال عطية عن النصارى: ... إنما الحق أنهم على اختلاف أحوالهم كفار من حيث جعلوا في الإلهية عددًا، ومن حيث جعلوا لعيسى عليه السلام حكمًا إلهيًا[٤]. وقال الجعفري: وأما النصارى فإنهم مجمعون على ألوهية المسيح واعتقاد ربوبيته، وأنه الإله الذي خلق العالم وجبل بيده طينة آدم[٥]، ثم ناقش فساد هذه العقيدة مبينًا كفرهم وبطلان معتقدهم، ومنزهًا الله عن كفرهم وضلالهم، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا[٦].

- عدم ذكر عقيدة الألوهية في المسيح من الأنبياء السابقين: حيث وضَّح القرافي ذلك فقال: وعليه فالنصارى إما أنهم يكفرون بهؤلاء الأنبياء المذكورين في كتبهم لنسبتهم الجهل بخالقهم، وإما أنهم يكذبون بكتبهم؛ إذ ليس فيها حرف واحد يدل على أن أحدًا من هؤلاء الأنبياء قال: إن المسيح إله[٧].

- نفي المسيح عليه السلام الألوهية عن نفسه، وتصريحه بذلك في التوراة والإنجيل؛ حيث استشهد عدد من العلماء بنقول منها توضح ذلك، منها ما أورده القرافي من أن الشيطان قال ليسوعَ: اسجد لي وأعطيك ملك الأرض، قال له يسوع: اذهب عني يا شيطان، إن الله أمر في التوراة ألا يُسجد لغيره، ولا يعبد إله سواه[٨]، فدل ذلك على أنه كان متعبدًا بأحكام التوراة ولا متعبد إلا مكلف مربوب[٩].

---

(١) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٧٠).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ١٧٦).
(٣) زاد المسير (٢/ ٣٠٦).
(٤) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٧١).
(٥) تخجيل من حرَّف التوراة والإنجيل (١/ ١٦٥).
(٦) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٧١).
(٧) المصدر نفسه (١/ ٢٧١).
(٨) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٧٢).
(٩) أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية ص٦٠ .

- **إبطال ألوهية المسيح عليه السلام بأدلة عقلية منها:**

- حاجة المسيح عليه السلام إلى الأكل والشرب واتصافه بالصفات البشرية الأخرى التي تستحيل على الإله.

قال البوصيري:

أسمعتم أن الإله لحاجة ... يتناول المشروب والمأكولا
وينام من تعب ويدعو ربه ... ويروم من الحر الهجير مقيلا
ويمسه الألم الذي لم يستطع ... صرفًا له عنه ولا تحويلا(١)

وقال نصر بن يحيى المتطبب: تقولون -أي: النصارى- إنه بقي مدة الحمل في أحشاء مريم، واغتذى بدم طمثها ورضع لبنها، وأكل، وشرب، ويخضع، ويذل، ويمتهن، ويعذب بكل أنواع العذاب، ويتألم . . . وهذه جميعها من صفات البشر وليس من صفات من يُدَّعى له بالألوهية.

وبمثل ذلك احتج الجعفري على النصارى في نفي الألوهية عن المسيح(٢).

- عجز المسيح عليه السلام عن المدافعة عن نفسه حينما صلب -بزعمهم- ينفي عنه الألوهية: حيث وضَّح الرازي أنه إذا كان إلهًا، أو ابن إله، أو كان جزء من الإله حالًّا فيه، فلِمَ لم يدافع عن نفسه، ولم يُهلك أعداءه المتربصين به مع قدرته على ذلك؟ وأي حاجة له بإظهار الجزع واحتمال الألم والتعرض للإهانة(٣).

- وقرر الخزرجي النصارى بما يعتقدونه من أن الرب صعد فصار على يمين الرب وآثر الصلب، ثم ناقشهم متسائلًا عن هذين الربين أيهما خلق صاحبه؟ فالمخلوق إذن ضعيف عاجز ليس بإله، وهل هذان الربان إذا أرادا أمرًا فلمن الحكم منهما؟ فالذي له الحكم هو الرب القادر، والآخر عاجز ليس بإله(٤)، ثم خاطب الخزرجي النصارى بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: ٩١].

- وعرض الجعفري قول النصارى: إن المسيح عليه السلام هو إله العباد وخالقهم ورازقهم وبارئهم ومدبرهم في جميع أحوالهم، ثم تساءل: كيف كان حال الوجود والإله في اللحود(٥)؟ومن الذي كان يقوم برزق العباد ويدبر شئونهم وإلههم مصلوب؟(٦).

---

(١) منظومة البوصيري في الرد على النصارى ص٦٠ .
(٢) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٧٣).
(٣) المصدر نفسه ص٢٨٤، ٢٨٥ .
(٤) مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان ص١٧٨، ١٧٩ .
(٥) تخجيل من حرَّف التوراة والإنجيل (١/ ٣٩٦).
(٦) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٧٥).

- وبيَّن الجعفري زعم النصارى أن المسيح خلق آدم وذريته أجمعين، ثم اعترض عليهم بقوله: . . . فمريم من خلقها؟ فإن قالوا: ليست من خلقه نقضوا مقالهم، وإن زعموا أنه خلقها فيقال لهم: كيف تلد المسيح وهو خالقها؟ أم كيف ترضعه وهو رازقها؟ أسمعتم يا معشر العقلاء بامرأة ولدت خالقها، وأرضعت ثديها رازقها؟

- وسأل القرافي النصارى: هل الإله يعلم الغيب أم لا؟ فإن قالوا: لا كذبتهم كتبهم لإثباتها ذلك، وإن قالوا: نعم بطل اعتقادهم الألوهية بالمسيح؛ لأن نصوص الإنجيل توضح عدم علمه بالمغيبات[(١)].

إبطال ألوهية المسيح عليه السلام من خلال تنفيذ شبه النصارى التي يستدلون بها على ذلك:

- مما يستدل به النصارى في إثباتهم الألوهية للمسيح عليه السلام أنه نفخة من روح الله بعد أن سواه من تراب[(٢)].

ثم قال مخاطبًا أحد قساوسة النصارى: . . . فلماذا أوجبت الألوهية لعيسى ولم توجبها لآدم وأنت تقر له بروح من الله في حجاب من تراب[(٣)].

- مما يعتمد عليه النصارى في إثباتهم الألوهية للمسيح عليه السلام معجزته التي أجراها الله على يديه تأييدًا له، وتصديقًا لنبوته، وقد ناقش نصر بن يحيى المتطبب ذلك مبينًا أن يلزمهم في إثباتهم الألوهية للمسيح بسبب معجزاته إثباتها أيضًا لبقية الأنبياء الذين أجرى الله سبحانه وتعالى على أيديهم مثل هذه المعجزات، ثم أورد أمثلة لمعجزات الأنبياء السابقين لعيسى عليه السلام من التوراة والإنجيل، ومع ذلك لم يكن أحد منهم بها إلهًا أو ينسبه أحد إلى الألوهية، ففي سفر الملوك ورد أن إلياس أحيا ابن الأرمل، واليسع أحيا الإسرائيلية، وحزقيال أحيا خلقًا كثيرًا، وأخبرت التوراة أن يوسف أبرأ عين أبيه يعقوب بعد أن ذهبت، وموسى طرح العصا فصارت حية لها عينان تبصران بها، وفي إنجيل لوقا ورد أن اليسع أبرأ أبرصًا وأبرص صحيحًا، وهذا أعظم من فعل المسيح، ولم يكن واحد من هؤلاء الأنبياء بمعجزاته إلهًا، فلِمَ تثبت الألوهية بها للمسيح فقط؟[(٤)] ووضّح القرافي بطلان جعل المعجزة دليلًا على الألوهية من خلال إيراده مجموعة من معجزات الرسل عليه السلام ولم يكونوا بها آلهة أو يدعيها أحد لهم[(٥)].

- **نفي بنوة المسيح لله سبحانه وتعالى:** مما يعتقده النصارى بنوة المسيح عليه السلام لله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾ [التوبة: ٣٠]، وأن الابن مساوٍ للأب في

---

(١) المصدر نفسه (١/ ٢٧٥).
(٢) الأجوبة الفاخرة ص١٠٦، ١٠٧ .
(٣) مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان ص١٢٩ .
(٤) النصيحة الإيمانية ص١٠٤، ١٠٥ .
(٥) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٧٦).

الوجود وأن الأب خلق العالم بواسطة الابن الذي نزل بصورته البشرية فداء لبني آدم، وهو الذي يتولى محاسبة الناس يوم القيامة، ويصرحون بذلك بأمانتهم التي لا يتم إيمان نصراني إلا بها: نؤمن بالله الواحد الأب ضابط الكل، مالك كل شيء، صانع ما يرى وما لا يرى، وبالرب الواحد يسوع المسيح ابن الله الواحد بكر الخلائق كلها، الذي ولد من أبيه قبل العوام كلها، وليس بموضوع إله حق من إله حق(١). وقد تصدى علماء المسلمين في عصر الحروب الصليبية إلى مناقشة هذه العقيدة الضالة وبيان فسادها وكان ذلك على النحو التالي:

- بيان فساد هذه العقيدة وكفر من يعتقدها ابتداء: قال القرطبي: وظاهر قول النصارى أن المسيح ابن الله إنما أرادوا بنوة النسل، كما قالت العرب في الملائكة.. هذا أشنع الكفر(٢). وقال الجعفري بعد أن عرض عقيدة النصارى في بنوة المسيح لله: واعلم أن هذه دعوى ملفقة وعقيدة هامتها بسيوف أدلة الإسلام معلقة، والدليل على فسادها المعقول والمنقول(٣)، وقد بيَّن الرازي: أن نسبة المسيح عليه السلام إلى البنوة لله سبحانه وتعالى أفحش أنواع الكفر، وأن ذلك من دسائس بولس في ديانة النصارى بعد رفع عيسى عليه السلام(٤).

- ذكر الأدلة من كتب النصارى على نفي بنوة المسيح: حيث أورد بعض العلماء مجموعة من الأدلة من كتب النصارى تدل دلالة صريحة على نفي بنوة المسيح لله كما يدعيها النصارى، ومن ذلك ما أورده الجعفري من إنجيل مرقص حيث قال: خرج المسيح وتلاميذه إلى البحر وتبعه جمع كثير، فأبرأ أعلالهم وشفاهم، فجعلوا يزدحمون عليه ويقولون: أنت ابن الله، فكان ينهاهم(٥)، ونص آخر أورده الجعفري وهو أن لوقا قال: كان كل من له مريض يأتي به إلى يسوع فيضع يده عليه فيبرأ فيقول: أنت ابن الله، فكان ينهرهم ولا يدعهم ينطقون بهذا(٦). ثم علق الجعفري بعد هذه النصوص بقوله: فهذا الإنجيل يكذب من يدعي ذلك على السيد المسيح؛ أي أنه ابن الله(٧).

وقد وضح العلماء بعض الأدلة العقلية في نفي بنوة المسيح لله عز وجل والتي منها:

- عجز المسيح عليه السلام عن المدافعة عن نفسه حينما أراد به أعداؤه كيدًا؛ حيث وضح الرازي أنه لو كان إلهًا أو ابن إله، أو كان جزء من الإله حالًا فيه لم يهلك أعداءه المتربصين به مع قدرته على ذلك، وأي حاجة إلى إظهار الجزع واحتمال الألم والتعرض للإهانة(٨)، بل أين

---

(١) تخجيل من حرَّف التوراة والإنجيل (٢/ ٥٠١).
(٢) الجامع لأحكام القرآن نقلًا عن دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٢٧٧).
(٣) الرد على النصارى ص٥٧.
(٤) تفسير الرازي (٨/ ٢٨).
(٥) إنجيل لوقا، الإصحاح (٣/ ٧-١٢).
(٦) إنجيل لوقا، الإصحاح (٤/ ٤١).
(٧) الرد على النصارى للجعفري ص٦١.
(٨) دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٢٧٨).

والده عنه وهو القادر على كل شيء؟! حيث ساق القرافي أبيات شعرية ضمن مناقشته للنصارى متسائلًا فيها عن ضعف ابن الإله وعدم مدافعة والده عنه:

عجبي للمسيح بين النصارى ... وإلى أي والد نسبوه
أسلموه إلى اليهود وقالوا ... إنهم بعد قتله صلبوه
وإذا كان ما يقولون حقًا ... وصحيحًا فأين كان أبوه[1]

- ولعجز المسيح وهو ابن الله -بزعم النصارى- عن المدافعة عن نفسه، فالأولى لهم عقلًا أن يعبدوا عدوه الذي استطاع -بزعمهم- قتله وصلبه، فهم يقولون: إن المسيح بعد إيذائه وقتله وقيامه من بين الأموات صعد ليجلس على يمين أبيه يستريح ثم سيعود لمحاربة عدوه[2]. وعلق القرافي على ذلك قائلًا: وما أجدرهم بأن يعبدوا الآن عدوه ويتركوه، فإن الغلب الآن لعدوه والمتوقع في المستقبل لا يدري كيف هو، ولعل الكسرة في النوبة الثانية تكون أعظم[3].

- أن المسيح وهو ابن الله -بزعم النصارى- معترض على قضاء الله متبرم من لقائه، وهو أولى الناس بالرضاء والرغبة في لقاء الله؛ إذ وضح القرافي أن النصارى مقرين أن المسيح تألم وتبرم عند قتله وصلبه وقال: إلهي إلهي لِمَ خذلتني؟[4]، ويعتقدون أنه نزل ليصلب إيثارًا للعالم بنفسه تخليصًا لهم من الشيطان ورجسه، ثم تساءل القرافي: كيف لا يرضى ابن الله بقضاء الله، وهو سوف يذهب للقاء والده، فينبغي أن يكون ولد الرب الأثبت عند المصائب، والأكثر رغبة في لقاء والده[5].

- وقد نفى نصر بن يحيى المتطبب بنوة المسيح عليه السلام لله سبحانه وتعالى باعتراضه على النصارى من خلال أمانتهم التي يعتقدونها؛ إذ يقولون فيها: إن المسيح مولود من أبيه أزلي... وأنه خالق الخلائق كلها... فإذا كان الأمر كما يقول النصارى، فالمسيح ليس أزليًا؛ لأنه حادث بولادته، وإذا كان هو خالق الخلائق كلها، فأي فضل للأبِّ على الابن[6].

- وقد عمل العلماء على إبطال بنوة المسيح لله سبحانه من خلال تفنيد أدلة النصارى على ذلك، فقد استدل النصارى على بنوة المسيح لله أنه ولد من غير أب، وقد ردَّ القرافي على ذلك بأن الأولى إثباتها لآدم لأنه وجد من غير أب، ولم يباشر الأرحام، ولا تطور في أطوار البشر[7].

---

(١) الأجوبة الفاخرة ص٥٩ .
(٢) المصدر نفسه ص١١٧ .
(٣) المصدر نفسه ص١١٧ .
(٤) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٧٩).
(٥) المصدر نفسه (١/ ٢٧٩).
(٦) المصدر نفسه (١/ ٢٧٩).
(٧) الأجوبة الفاخرة ص١٠٢ .

- وقد بين العلماء إبطال بنوة المسيح من خلال إيضاح المعنى الصحيح للبنوة والأبوة اللتين وردتا في كتب النصارى: فبعد أن أورد الجعفري مجموعة من النصوص التي فيها لفظة البنوَّة كما في النصوص السابقة، وضح أنه إن كان النقل لها فاسدًا فلا بنوَّة، وإن صح فإن معناها العبودية والخدمة والاجتباء والاصطفاء، فقول الله في الإنجيل: (هذا ابني) أي عبدي، والدليل أنها لم ترد في كتب النصارى في الغالب إلا مقرونة بالعبودية والخدمة، وإن وردت مطلقة فيحمل المطلق على المقيد، مثال ذلك في التوراة قول الله تعالى: (يا موسى قل لفرعون: يقول لك الرب الإله: إسرائيل ابني بكري، أرسله يعبدني)[(١)] ففسر البنوَّة بالعبودية[(٢)].

ووضح القرافي أن معنى الأبوة لله إحسانه لخلقه إحسان الآباء للأبناء، وهو المراد من قول المسيح: إني ذاهب إلى أبي وأبيكم، وإلهي وإلهكم. والأبوة على هذا المعنى أمر مشترك بين عيسى وبقية الخلق وهو معنى قول اليهود في القرآن: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]. ثم إن النصارى يحكمون بأبوة الولادة بصدر الكلام وهو قوله: أبي، ويغفلون عن قوله: وأبيكم، وعن قوله: وإلهي، وتصريحه عليه السلام بأنه مخلوق مربوب، له إله يعبده[(٣)].

(س) **إبطال عقيدة الصلب الفداء:** تعد قضية الصلب والفداء من أهم عقائد النصارى؛ إذ يعتقدون أن هناك خطيئة ملازمة لكل إنسان يولد على هذه الأرض، وهذه الخطيئة موروثة منذ زمن آدم عليه السلام الذي أخطأ في حق ربه بأكله من الشجرة التي نُهي عن الأكل منها فاستحق لذلك العقوبة، وأورث هذه الخطيئة لذريته من بعده، ومن رحمة الله إنهاء الخطيئة المتوارثة بأن أنزل ابنه ليقتل ويُصلب فداء للبشرية وتكفيرًا لخطيئة أبيهم آدم[(٤)]، وقال القرطبي في عرضه لعقيدة الصلوبية عند النصارى: لا خلاف عند النصارى أن إنكار صلب المسيح كفر، ومن شك فيه فهو كافر[(٥)].

وفي رسالة أحد القساوسة إلى أبي عبيدة التي عرض عليه فيها دين النصرانية، ودعاه إلى الدخول فيه وضَّح له عقيدة الصلب بقوله: حمدًا لله الذي هدانا لدينه، وأيدنا بيمينه وخصنا بابنه ومحبوبه، ومد علينا رحمته بصلب يسوع المسيح إلهنا الذي خلق السموات والأرض وما بينهن، والذي فدانا بدمه المقدس، ومن عذاب جهنم وقانا، ورفع عن أعناقنا الخطيئة التي كانت في أعناق بني آدم بسبب أكله من الشجرة التي نُهي عنها، فخلصنا المسيح بدمه[(٦)].

وقد ناقش العلماء المسلمون هذه القضية موضحين عدم وقوع الصلب على المسيح عليه السلام ومبطلين أساس هذه العقيدة -وهو الفداء بسبب الخطيئة- وذلك بتفنيد أدلة النصارى ومزاعمهم حولها، وفيما يلي عرض لذلك:

(١) التوراة، سفر الخروج، الإصحاح (٤/ ٢١).
(٢) الرد على النصارى ص٦١.
(٣) الأجوبة الفاخرة ص١٠١.
(٤) الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح (٢/ ١٠٧، ١٠٨).
(٥) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص٢٨٢.
(٦) مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان ص٥٩، ٦٠.

- **إبطال الصلب**: وقد كان إبطال هذه العقيدة على النحو التالي:

- بيان عقيدة المسلمين في أن عيسى عليه السلام لم يُقتل ولم يصلب فعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]، وضَّح ابن الجوزي أقوال العلماء في ذلك مبينًا فيها أن الذي قُتل وصُلب ليس المسيح عليه السلام، وإنما هو شخص منهم ألقي عليه شبه المسيح، أما المسيح فقد رفعه الله إليه[(١)]، وبين القرطبي أن هذه الآية ردٌّ على النصارى وأنهم لم يقتلوا المسيح عليه السلام، بل ألقي شبه على غيره[(٢)].

وعند قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] وضَّح القرطبي أن مكر الله هو إلقاء شبه عيسى على غيره، ورفعه عليه السلام إليه، حيث رفعه جبريل إلى السماء وذلك في كوة البيت الذي لجأ إليه، وألقي شبه عيسى على يهوذا الذي دخل في أثره فأُخذ وقتل وصلب[(٣)]. وقال أيضًا: والصحيح أن الله تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم، كما قال الحسن وابن زيد وهو اختيار الطبري، وهو الصحيح عن ابن عباس[(٤)]. ومعنى الوفاة في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ أي: قابضك إليَّ[(٥)]. وفي مناقشة القرطبي لعقيدة الصلب لدى النصارى قال: . . . إن عيسى ابن مريم لم يقتله اليهود ولا غيرهم، بل رفعه الله إليه من غير قتل ولا موت[(٦)].

وبعد أن عرض الجعفري قصة صلب المسيح عليه السلام في رأي النصارى ختم بقول الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

وذِكْر الأدلة من كتب النصارى على عدم وقوع الصلب كثيرة، فمن ذلك:

- ما أورده الجعفري أن متَّى قال في إنجيله: إن رئيس الكهنة أقسم بالله الحي على المأخوذ: أما قلت لنا إن كنت المسيح ابن الله الحي؟ فقال له: أنت قلت[(٧)]. حيث عقب الجعفري على ذلك بقوله: وذلك من أدل الدلالة على أن المأخوذ ليس هو السيد المسيح، ولو كان هو المسيح نفسه لم يوارِ في الجواب . . . وكيف المسيح ويقسم عليه بالله تعالى: أين المسيح؟ فلا يقول له: أنا المسيح[(٨)].

(١) زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٢١٧، ٢١٨).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٦٤).
(٣) المصدر نفسه (٢/ ٦٥).
(٤) المصدر نفسه (٢/ ٦٤).
(٥) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٨٤).
(٦) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص٢٨٤ .
(٧) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٨٥).
(٨) الرد على النصارى ص٧٤ .

- إن مستند النصارى في إثبات الصلب هو من نصوص الإنجيل، والإنجيل قابل للتحريف والتبديل وفيه من التناقض الشيء الكثير، والأدلة على ذلك أكثر من أن تحصر.

- إن النصوص التي يستدل بها النصارى على صلب المسيح ليست قاطعة في ذلك، بل يتطرق إليها الاحتمال الكبير في أن المصلوب غير عيسى ومن شوهد ذلك:

- جاء في الأنجيل أن المصلوب استسقى اليهود ماءً فأعطوه خلًّا ممزوجًا، والأناجيل كلها مصرحة بأنه كان يطوي أربعين يومًا وليلة ويقول للتلاميذ: إن لي طعامًا تعرفونه، وبعد أن أورد الخزرجي ذلك عقب عليه متسائلًا: كيف بمن يستطيع الصبر أربعين يومًا على الجوع والعطش بأن يظهر الحاجة والمذلة لأعدائه بسبب عطش يوم واحد؟ وهذا لا يفعله أدنى الناس فكيف بخواص الأنبياء؟ لذلك فإن المدعي للعطش غير المسيح عليه السلام(١).

- إن المسيح عند صلبه في زعم النصارى قال: إلهي إلهي، لِمَ خذلتني؟ وقد ناقش الخزرجي ذلك بأن هذا القول من عيسى عليه السلام فيه اعتراض على قضاء الله، وهذا مما ينزه عنه، خصوصًا وإن النصارى يذكرون أن الصلب كان لتخليص الناس من الخطيئة، فكيف يفديهم بنفسه راضيًا مختارًا وهذا القول منه فيه تبرم وعجز ورغبة في الخلاص من قبضة من أراد به السوء، مع ما يضاف إلى ذلك من أن النصارى يروون في كتبهم أن الأنبياء إبراهيم وإسحاق ويعقوب كانوا مستبشرين عند الموت بلقاء الله ولم يهابوا مذاقه مع أنهم عبيد الله، والمسيح ابن الله -بزعم النصارى- فينبغي أن يكون أثبت منهم، ذلك كله يدل على أن المصلوب غير عيسى ابن مريم(٢).

وقد تصدى العلماء لعقيدة الصلب وهو الفداء بسبب الخطيئة وبينوا بطلانها وكان ذلك على النحو التالي:

- إيضاح مبدأ الإسلام في أن الإنسان لا يؤاخذ بذنب غيره، فبعد أن وضَّح الجعفري أن التوبة تكفر الذنب، وأن الإنسان لا يؤاخذ بخطيئة غيره، ثم أورد على ذلك نصوصًا من كتب النصارى عقب بعدها بقوله: . . . وذلك موافق لقول ربنا جلَّ اسمه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

- ذكر الأدلة من كتب النصارى والتي تنفي أن يعاقب الإنسان بذنب غيره، حيث أورد الجعفري مجموعة من النصوص من كتب النصارى تهدم أساس اعتقادهم بالصلب، وأنه كان تكفيرًا لخطيئة آدم عليه السلام، فمن ذلك ما جاء في التوراة: أن الله قال لقابيل: إنك إن

---

(١) مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان ص٢٨٦ .

(٢) مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان ص١٦٤ .

أحسنت تقبلت منك، وإن لم تحسن فإن الخطيئة رابضة ببابك[(١)]. وقوله: لا آخذ الولد بخطيئة والده، ولا الوالد بخطيئة ولده، طهارة الطاهر له تكون، وخطيئة الخاطئ عليه تكون[(٢)].

- وقد وضَّح كثير من علماء عصر الحروب الصليبية الذين ناقشوا النصارى ومنهم على سبيل المثال: الخزرجي والقرطبي أن الصلب الذي وقع على عيسى تكفيرًا لخطيئة آدم يتنافى مع عدل الله، وأن هذا من الظلم الذي ينزه الله عنه، فلا يأخذ سبحانه وتعالى أحدًا بذنب غيره[(٣)].

- وعلى زعم النصارى أن البشرية غارقة في خطيئة أبيهم آدم عليه السلام، ثاوية بالجحيم حتى جاء عيسى عليه السلام وخلصهم من ذلك بصلبه، تساءل كل من الخزرجي والقرطبي: هل من هؤلاء الثاوين بالجحيم أنبياء الله إبراهيم وموسى وغيرهم؟ ثم يجيبان على ذلك التساؤل: بأن هذا لو كان لصرَّحت به التوراة ونطقت به الأنبياء السابقين لعيسى عليه السلام[(٤)].

- وبعد أن وضَّح القرافي أن صلب المسيح على قول النصارى إنما كان لخلاص العالم من خطيئة أبيهم آدم، سألهم: ما معنى هذا الخلاص الذي يريدونه؟ هل هو من شرور الدنيا وآفاتها؟ فهاهم مشاركون لسائر البشر في الخير والشر، أو من تكاليف العبادة؟ فهاهم مخاطبون بالمبادرة. أو من أهوال يوم القيامة؟ فيكذبهم الإنجيل الذي ورد به قول الله: إني جامع الناس في يوم القيامة عن يميني وشمالي، فأقول لأهل اليمين: فعلتم خيرًا، فاذهبوا إلى النعيم، وأقول لأهل الشمال: فعلتم شرًّا، فاذهبوا إلى الجحيم[(٥)]، وبناء على ذلك فما فائدة الصلب والفداء إذن[(٦)]؟

- وبعد أن قرر الجعفري النصارى بقولهم: إن سبب الصلب هو التكفير من خطيئة آدم عليه السلام، ثم قولهم بتوبة آدم من هذه الخطيئة كما تصرح بذلك كتبهم ألزمهم بلازمين لا مفر لهم منهما:

- إن اعترفوا بتوبة آدم فما فائدة الصلب الذي يعتقدونه؟

- إن قالوا بعدم توبته كذبتهم، وكلا اللازمين ببطلان عقيدة الفداء من الخطيئة[(٧)].

رابعًا: مناقشة شعائر النصارى وطقوسهم:

تعد النصرانية فقيرة في تشريعاتها وأحكامها والعناية الكبرى فيها بالروحانيات التي أهملها

---

(١) سفر التكوين، الإصحاح (٤/ ٧).
(٢) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٨٧).
(٣) مقامع الصلبان ص١٨٣ .
(٤) مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان ص١٧٤، ١٧٥ .
(٥) الأجوبة الفاخرة ص١٠٩ .
(٦) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٨٨).
(٧) تخجيل من حرَّف التوراة والإنجيل (١/ ٣٦٩).

اليهود حينما أفرطوا في ماديات الحياة، وهذا ما يؤكد أنها تكملة لأديان بني إسرائيل[١]، وقد عبر أحد العلماء المسلمين في عصر الحروب الصليبية عن ذلك بقوله: ليس للنصارى شيء من الأحكام والفرائض والسنن المحتاج إليها في المعاملات والمناكحات، والأناجيل التي بأيديهم ليس فيها سوى مواعظ ووصايا قد خلطت بكفر بواح . . . وأي شيء استحسنوه بعقولهم شرعوه وحكموا به[٢]. وقد كان النصارى الأوائل يوجبون على أنفسهم ما أوجبته التوراة والإنجيل، ويحرمون على أنفسهم ما حرمته، ولا يستثنون من ذلك إلا ما صرح المسيح نفسه بنسخه أو تعديله، واستمروا على ذلك حتى رُفع المسيح حيث أخذ بعد ذلك دعاة النصرانية يغيرون ويبدلون في التشريع حسب أهوائهم، وكان حجتهم في ذلك جذب أكبر عدد ممكن من الأمميين إلى الدخول في النصرانية[٣]، ولذلك فغالب الشعائر والطقوس النصرانية اليوم من وضع بولس، ولا ينكر دور المجامع في الإلغاء أو الإضافة فيها، ثم لما أثبتت العصمة للبابا صار له الحق في إصدار القرارات والأحكام، ما تسرب للنصرانية من طقوس وعبادات وثنية انتقلت إليها من المناطق والشعوب التي امتدت إليها النصرانية في عهودها الأولى[٤].

ومما يجدر ذكره أن الطقوس والشعائر النصرانية المبتدعة كثيرة جدًّا، وتناول العلماء المسلمين في عصر الحروب الصليبية لها ليس على سبيل الحصر، وإنما أمثلة توضح تحريف النصارى لديانتهم وابتداعهم فيها وبطلان ما استندوا عليه من إثباتها، وقال القرطبي في مقدمة مناقشته لبعض عبادات النصارى وطقوسهم: غرضنا من هذا الفن أن نجمع مسائل من قواعد أديانهم، ونبين فسادها، وأنهم ليسوا على شيء فيها، بل تركوا نصوص التوراة والإنجيل وعملوا لخلافها من غير حجة ولا دليل[٥]. وفيما يلي عرض لبعض جهود علماء المسلمين في عصر الحروب الصليبية في مناقشتهم لبعض عبادات النصارى وطقوسهم[٦]:

١- **المعمودية**: المعمودية أو التعميد شعيرة من شعائر النصرانية لا يُقبل إيمان نصراني إلا بها، وهو عند النصارى يعني الغطس بالماء باسم الأب والابن وروح القدس إشارة إلى التطهير من أدران الخطيئة بدم المسيح[٧]. وقد حل التعميد عند النصارى محل الختان في اليهودية[٨]، ومستندهم فيه قول المسيح عليه السلام: فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن وروح القدس[٩]، وإن يوحنا عمد المسيح في وادي الأردن فخرج منه روح القدس

---

(١) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٨٩).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٢٩٠).
(٣) الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح (١/ ٣٤١-٣٤٤).
(٤) موقف ابن تيمية من النصرانية (٢/ ٧٦٤).
(٥) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص٤٠٢ .
(٦) دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٢٩١).
(٧) حقائق أساسية في الإيمان المسيحي ص٢٤٠ .
(٨) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٩٢).
(٩) الكتاب المقدس، إنجيل متَّى، الإصحاح (٢٨/ ١٩).

كالحمامة على الماء[١]. ومن علماء المسلمين في عصر الحروب الصليبية الذين ناقشوا المعمودية لدى النصارى القرطبي؛ حيث وضَّح صفتها عند نصارى الأندلس بقوله: إن الذي يريد أن يدخل في دينهم، أو التائب منهم تتقدم الأقسة منه فيمنعونه من اللحم والخمر أيامًا ثم يعلمونه اعتقادهم وإيمانهم، فإذا تعلم ذلك اجتمع له القسيسون فتكلم بعقيدة إيمانهم أمامهم، ثم يغطسونه في ماء يغمره، وقد اختلفوا هل يغطسونه مرة واحدة أو مرتين أو ثلاثًا؟ فإذا خرج من ذلك الماء دعا له الأسقف بالبركة ووضع يده على رأسه[٢]، ثم بيَّن القرطبي بعد ذلك أنه ربما اختلفت صفتها، لكنها عندهم عبادة مؤكدة ومن لا يقبلها عندهم فهو كافر[٣]، ثم أبطل القرطبي هذه المعمودية التي ابتدعوها على النحو التالي:

- أنه لم يرد ذكرها في التوراة، ولم يشرعها الله لنبيه موسى عليه السلام.

- أن مستند النصارى في هذه المعمودية هو فعل يحيى عليه السلام والحواريين، فإذا صح ذلك من يحيى والحواريين فلِمَ لا يكون خصوصية لهم؟ وإن قلتم أيها النصارى: إنه ليس بخصوصية فأتوا بالدليل ولن تقدروا[٤].

وزاد القرافي على ذلك بقوله: ولو سلمنا عموم شرعيتها فَلِمَ زدتم العدد، ووضع اليد على الرأس، أو النفخ في الوجه ولم يُنقل ذلك عمن تقدم منكم؟ ولِمَ تكفرون مخالفيها من غير دليل[٥]؟

- وبيَّن القرطبي أنه لعل يحيى والحواريين عمدوا الناس؛ لأن ماءهم كان مقدسًا ودعاءهم متقبلًا، فيحيى نبي والحواريون أنبياء بزعمكم أيها النصارى، أما أنتم فَلِمَ تعمدونهم؟ فلستم أنبياء وماؤكم ليس مقدسًا، فلستم إذن مثلهم[٦].

- وناقش كل من القرطبي والقرافي النصارى في أصل المعمودية لديهم، هل كان عيسى عليه السلام قبل أن يعمده يحيى مقدسًا أم لم يكن؟ فإن كان مقدسًا فلا فائدة من فعل يحيى، ولماذا لم ينزل عليه روح القدس قبل التعميد؟ وإن كان غير مقدس فكيف يكون من ليس بمقدس إلهًا أو ابن إله؟[٧] ثم ختم القرافي مناقشته للنصارى في مسألة المعمودية بقوله: وهل هذا كله إلا هذيان، وضرب من الخذلان؟ وهذا -أي: المعمودية- على أظهر أحكام شريعتهم وأقواها مستندًا فكيف بأضعفها؟![٨].

---

(١) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٩٢).
(٢) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص٤٠٣ .
(٣) المصدر نفسه ص٤٠٣ .
(٤) المصدر نفسه ص٤٠٣ .
(٥) المصدر نفسه ص٤٠٥، دعوة المسلمين للنّصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٩٤).
(٦) المصدر نفسه.
(٧) المصدر نفسه ص٤٠٥، دعوة المسلمين للنّصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٩٤).
(٨) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٩٤).

٢- الاعتراف وصكوك الغفران: الاعتراف في النصرانية يعني أن يأتي المذنب ويعترف بخطاياه وذنوبه أمام القس أو الكاهن في الكنيسة ثم يمسحه هذا الكاهن فتغفر ذنوبه[(١)]، وقد استخدمت الكنيسة في أوربا الغفران من الذنوب وسيلة من وسائل التشجيع على الحروب الصليبية ضد المسلمين سواء كان ذلك في المشرق أو في الأندلس[(٢)]، ومن علماء عصر الحروب الصليبية الذين ناقشوا هذه القضية القرطبي؛ إذ وضَّح أنه لا بد للمذنب ليغفر له من كفارة، وتلك الكفارة بحسب ما يظهر لقساوستهم ويرونه موافقًا لغرضهم، فتارة يوجبون على المذنب خدمة الكنيسة وتارة لا يدخلها بل يقف عندها متذللًا، وتارة يوجبون عليه مالًا لملكهم، أو لهم ولكنائسهم[(٣)]، ثم ضرب القرطبي أمثلة على بعض الذنوب وما شرعه قساوستهم لغفرانها منكرًا عليهم أن يجعلوا أنفسهم مشرعين وينزلوا أنفسهم منزلة رب العالمين في التشريع والغفران، على الرغم من أن كثيرًا من هذه الذنوب له حكم في التوراة التي يؤمنون بها[(٤)].

ووضَّح القرافي أن قسس النصارى أنزلوا أنفسهم منزلة الله سبحانه وتعالى في غفران الذنوب، وهم بهذا الابتداع الذي هو من عند أنفسهم يبعثون العصاة على المجاهرة ويشيعون الفاحشة وينشرون الفضيحة في الذراري والأعقاب، وأي مفسدة أعظم من هذه؟![(٥)]، ثم ذكر القرافي مشاهدته لذلك وآثاره في المدن الصليبية النصرانية كعكا وغيرها من سائر مدن النصارى[(٦)]، وبيَّن الجعفري أن هذه البدعة لدى النصارى وسيلة للتحكم في حال المذنب وماله لصالح أكابرهم، ثم أبرز خطرها على الشخص وعلى المجتمع بإشاعة الفاحشة ونشر الفضيحة، مختتمًا ذلك بالإشارة إلى أن هذه البدعة لا أصل لها في شريعة أو نصَّ عليها موسى، لكنها مختلقة من جهلة مشايخ النصارى[(٧)].

٣- أعياد النصارى: أعياد النصارى كثيرة جدًا، فكل حدث ذو أهمية بالنسبة لهم يعظمونه ويحتفلون به، ثم يتحول لدى الأجيال اللاحقة إلى عيد يحتفل به إحياءً لذكراه، فابتدعوا لذلك أعيادًا كثيرة ما أنزل الله بها من سلطان، وفي فترة الحروب الصليبية كان الاحتفال بهذه الأعياد وغيرها منتشرًا بين النصارى، بل وربما شاركهم بعض المسلمين فيها، ففي الأندلس مثلًا كان من أعياد النصارى عيد ميلاد عيسى عليه السلام والمحدد بالخامس والعشرين من شهر ديسمبر، ويناير سابع ولادته، ويوم ختنه وهو أول السنة الميلادية، والعنصرة والذي يعتقد أنه يوم مولد

---

(١) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص٤٠٩ .
(٢) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٩٤).
(٣) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص٤٠٥ .
(٤) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٩٥).
(٥) الأجوبة الفاخرة ص١٢٧ .
(٦) المصدر نفسه ص١٢٧ .
(٧) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٩٥).

يحيى بن زكريا عليه السلام ويوافق اليوم الرابع والعشرين من يونيه، وخميس إبرايل الذي يرمز عند النصارى إلى يوم صلب المسيح في اعتقادهم[١]، وفي معرض مناقشة كل من الجعفري والقرافي لأعياد النصارى عدَّدا أهمها ومنها:

– عيد ميكائيل في مصر وتخومها، وكان النصارى في فترة الحروب الصليبية تحتفل به وتعظمه، وسبب إحداث هذا العيد أنه كان في الإسكندرية صنم يعظمه أهلها، ويعدون له عيدًا عظيمًا، فولي بطركة الإسكندرية الأكصيدروس فرام إبطال هذا العيد فلم يقدر من العوام فصرفهم لذلك بأن يجعلوا هذا العيد لميكائيل الملك وليس للصنم، فيذبحون له ذبائحهم ليشفع لهم عند الله فأجابوه لذلك[٢].

– وعيد الصليب وسبب إحداثه: أن اليهود اتخذوا المقبرة التي دفن فيها الشبه مزبلة يطرحون فيها الأوساخ تحقيرًا لشأن المصلوب، فأقامت على ذلك نحوًا من ثلاثمائة سنة إلى أن جاءت زوجة قسطنطين الملك فأمرت بالكشف عن المقبرة فظهرت لها فإذا هي ثلاثة صُلُب وهي صليب اللعين والشبه فقالت: كيف لنا أن نعلم خشبة ربنا التي صلب عليها؟ وكان هناك مريض قد أشرف على الوفاة فوضع عليها الصليب الأول فلم يقم، فأمسته الثاني فلم يقم، فأمسته الثالث فقام فعلمت النصارى أنه صليب الرب فعلقته بالذهب وبعثت به إلى الملك[٣].

– ومن أعيادهم التي ذكرها القرطبي: يوم بشارة جبريل مريم بالمسيح، ثم يوم ميلاده، ويوم ختنه، ويوم الفصح وهو قيامه من القبر، ثم يوم رقيه إلى السماء، وبعد ذكر الجعفري والقرافي لبعض أعياد النصارى وضَّحا أن لا أصل لها في شرعهم البتة، وأنها مما أحدثوه وابتدعوه في دينهم[٤]، ثم بيَّن الجعفري أن لا حجة لإبطال البدعة ببدعة مثلها، وذلك أن هذا الراهب أراد أن يبطل تعظيم العامة لهذا الصنم فابتدع عيد ميكائيل، حيث قال: والشيء الضعيف لا يزيده الأمر الباطل إلا ضعفًا، والحق مستغن بنفسه عن أن يقوى بأمثال هذه الترهات[٥]، وأشار كل من الجعفري والقرافي إلى أن الأولى للنصارى أن يمقتوا الصليب لا أن يعظموه ويتخذوا له عيدًا، وذلك أنه صلب عليه إلههم بزعمهم، وإن كان هذا التعظيم من أجل أن الصليب مس المسيح فلماذا لا يعظم النصارى الحُمُر ويسجدوا لها، فقد أخبر لوقا أن المسيح ركب حمارًا عند دخوله المدينة[٦].

وبيَّن القرطبي أن هذه الأعياد التي يعظمها النصارى ليست واجبة بالشرع وإذا كان هذا مستندهم فمن أخبرهم من الأنبياء بأن مثل هذه الأحوال تتخذ عيدًا؛ إذ ليس في كتبهم شيء من

(١) جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى خلال عصر المرابطين والموحدين، د/ محمد إبراهيم بن صالح، أبا الخيل ص٤٤٣-٤٤٤ .
(٢) تخجيل من حرَّف التوراة والإنجيل ص١٣٠ .
(٣) تخجيل من حرَّف التوراة والإنجيل ص١٣٠ .
(٤) تخجيل من حرَّف التوراة والإنجيل (٢/٥٩٨).
(٥) المصدر نفسه (٢/٥٩٨).
(٦) الأجوبة الفاخرة ص١٣٠، ١٣١ .

ذلك، ثم إن أيام عيسى كلها شريفة فلا يخلو يومًا له من كرامة يكرمه الله بها، فإذا كان الأمر كذلك فعلى النصارى أن يبحثوا عن أيام عيسى وعن عددها ويتخذوها أعيادًا، وإلا لما خصصوا البعض وتركوا البعض الآخر[(١)].

٤- صلاة النصارى وصيامهم:

(أ) الصلاة: من العلماء المسلمين الذين ناقشوا شعيرة الصلاة لدى النصارى القرافي الذي ذكر أن عدد صلواتهم في اليوم والليلة ثمان صلوات؛ حيث أورد الأدعية التي يرددونها في كل صلاة منتقدًا لها ومبينًا تناقضها[(٢)]، وقد أورد الجعفري أيضًا طرفًا من أدعيتهم في بعض صلواتهم مبينًا تناقضها وفسادها بما تقتضيه من عقيدة التثليث والصلب والخطيئة وغير ذلك من عقائدهم الباطلة[(٣)]، والصلاة عند النصارى في زعمهم تقربهم إلى الله عن طريق المسيح، وهي عبارة عن أدعية وترانيم يرددونها ويؤكدون على بعض الأوقات أكثر من غيرها؛ وهي صلاة الساعة الثالثة والسادسة والتاسعة من النهار عند بداية الليل ونهايته وعند تناول الطعام[(٤)].

(ب) الصوم: والصوم عند النصارى يعني الامتناع عن الطعام مدة من النهار قد تصل إلى الظهر أو العصر أو الغروب حسب مقدرة الصائم، يتناول بعدها الصائم أطعمة خالية من الدسم الحيواني[(٥)]، وفي مناقشة العلماء المسلمين في عصر الحروب الصليبية لصيام النصارى وضحوا أصل وجوبه عندهم ثم ما ابتدعوه فيه زيادة ونقصًا؛ حيث بيَّن كل من القرطبي والقرافي في مناقشتهما لذلك أن صيام النصارى حسب قول أحد أكابرهم أنه أربعون يومًا التي صامها موسى عليه السلام ثم صامها المسيح، وجعلها علماء النصرانية ثلاثة وأربعين يومًا عُشر أيام السنة كما وضع لهم ذلك بولس[(٦)].

ثم يوضحان أن هذه الثلاثة أيام التي صاموها زيادة على ما افترض عليهم، إما أن الأنبياء تركوا أمر الله سبحانه وتعالى بعدم صيامها وذلك محال، أو أنهم لا يعرفون وجوب صيامها، وأنتم أيها النصارى الذين علمتم ذلك وهذا محال؛ لأن الأحكام إنما تُسند إلى أقوال الأنبياء وكتبهم، والذي شرع لكم ذلك إنما هو بولس، وهو الذي أفسد عليكم دينكم، فكيف تأخذون بقوله وتتركون فعل موسى وعيسى وإلياس وغيرهم؟[(٧)]، وبيَّن الجعفري نماذج من زيادات النصارى وابتداعهم في صيامهم، ومن ذلك زيادتهم جمعة في صيامهم الكبير[(٨)]، لأجل هرقل

---

(١) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص٤٢٥ .

(٢) النصارى في الوقت الحاضر لا يلتزمون في صلواتهم بأدعية معينة، وربما حكي القرافي ما كان سائدًا في وقته عند بعضهم.

(٣) دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٢٩٩).

(٤) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٢٩٩).

(٥) المجتمع القبطي في مصر في القرن التاسع عشر ص٢٢٨ .

(٦) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص٤٢٢ .

(٧) المصدر نفسه ص٤٢٢، ٤٢٣ .

(٨) النصرانية والإسلام، محمد عزت طهطاوي ص٨٢ .

حينما قتل اليهود نصرة لهم وذلك تكفيرًا لخطيئته[١]، ثم عقب على ذلك بقوله: ولا شك أن هذا وشبهه من باب التلاعب بالدين، وقد صار هذا النمط سجية للنصارى وخُلُقًا[٢]، وأشار الجعفري إلى ترك النصارى أكل اللحم في صيامهم وتحريمه وذلك مما أحدثوه بالرأي بعد المسيح[٣].

٥- **تشريع النصارى في الزواج**: ترغِّب الأناجيل عمومًا بالعزوبة وتدعو إلى الزهد وترك الزواج إلا من خاف على نفسه الزنا فله الزواج بواحدة فقط، يقول بولس: ... إذا من زُوج فحسنًا يفعل، ومن لا يزوج يفعل أحسن[٤]. وقال: فحسن للرجل ألا يمس امرأة[٥]، وقال: .. ولكن أقول لغير المتزوجين وللأرمل إنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا، ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا[٦]، وأما القسيس والرهبان فمحرم عليهم الزواج اقتداءً بالمسيح بزعمهم[٧]، وقد ناقش بعض العلماء المسلمين في عصر الحروب الصليبية مسألة الزواج عند النصارى ومنهم الجعفري والقرافي وكان ذلك على النحو التالي:

(أ) بيان ضلالهم في ذلك، وأن الأمر بترك الزواج مما لا يصح نسبته إلى المسيح.

(ب) إن ما تمسك به النصارى من نصوص في الإنجيل ظاهرها الترغيب بترك الزواج من أجل الله كقول المسيح عليه السلام: ... من ترك زوجة من أجلي، فإنه يعطى للواحد مائة ضعف ويرث الحياة الدائمة[٨]. ولا يجوز إجراؤه على ظاهره، إذ المقصود من ذلك -إن صح- ترك الزوجة إذا طلبت فراقه لعجزه أو لأي سبب آخر[٩]. ثم إن في الإنجيل أيضًا نصوصًا تعارض ذلك منها قول المسيح: إن الذي زوَّجه الله لا يقدر أحد على تفريقه[١٠]، وقوله: من طلق زوجته باطلًا فقد عرَّضها للزنا[١١].

(ج) والزواج سنة المرسلين وخواص الأولياء، ودأب النجباء الأقوياء، ومن رغب عن سنة الأنبياء التحق بالأغبياء[١٢].

(د) إن في ترك الزواج سدًّا لباب الذرية الصالحة، وقطعًا للتناسل، وانقراضًا لجنس الآدميين.

---

(١) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٣٠٢).
(٢) تخجيل من حرَّف التوراة والإنجيل (٢/ ٥٩٧).
(٣) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٣٠٢).
(٤) الكتاب المقدس، رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنتوس، الإصحاح (٧/ ٣٨).
(٥) المصدر نفسه (٧/ ١).
(٦) المصدر نفسه (٧/ ٨، ٩).
(٧) قصة الحضارة، ول ديوانت، ترجمة: محمد بدران (٤/ ٣٨٣).
(٨) الأجوبة الفاخرة ص١٣٢، الإصحاح (١٩/ ٢٩) إنجيل متَّى.
(٩) الأجوبة الفاخرة ص١٣٢ .
(١٠) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٣٠٣).
(١١) المصدر نفسه (١/ ٣٠٤).
(١٢) المصدر نفسه (١/ ٣٠٤).

(هـ) إن في تركه تعريضًا للرجال والنساء للزنا والفساد، والوقوع في الآثام.

(و) إن الزواج يشتمل على قربات كثيرة؛ منها عفاف الزوجين، والتسبب في حياة عبد صالح يعبد الله ويرغم الشيطان، وغير ذلك[١]، ثم يعقب القرافي موضحًا أن المنافع المترتبة على الزواج أفضل مما انقطع له الرهبان من العبادة والصلوات[٢].

٦- **مناقشة النصارى في تركهم الختان:** كان الختان معروفًا قبل زمن إبراهيم عليه السلام، فإن المصريين القدماء كانوا يختتنون[٣]، وقد جاء في إنجيل برنابا ما يدل على أن أصل فريضة الختان منذ ابتداء الخليقة[٤]، وقد نصَّت التوراة على أن إبراهيم أُمر بالختان هو ونسله، فخُتن هو ابن ثمانين، وجاء في السنة ما يدل على ذلك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«اختتن إبراهيم عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم»**[٥]، وصار الختان في اليهود فرضًا من الفروض الدينية فاختتن موسى عليه السلام وكذلك عيسى عليه السلام لإكماله شريعة التوراة، بل إنه لدى النصارى صلاة يؤدونها تذكرة لختان عيسى عليه السلام[٦]، وقد استطاع بولس أن يصرف النصارى عن سنة الختان حتى اتخذوا قرارًا بتركه في مجمع أورشليم المنعقد بعد رفع المسيح بثنتين وعشرين سنة[٧].

والحجة في ترك الختان جلب الأمم الوثنية في ذلك الوقت من إغريق ومصريين ورومان في الدخول بالنصرانية وكان يشق عليهم الختان[٨]، وفسَّروا الأمر بالختان في التوراة بأنه نقاوة القلوب وصفاء النية وذهاب الغلوف من القلوب[٩]، ومن ضمن ما ناقشه العلماء المسلمون من تشريعات النصارى في فترة الحروب الصليبية إبطالهم سنة الختان؛ إذ بيَّن القرطبي أن هذه السنة ثابتة بالتوراة، وإبطال النصارى لها لا أصل له، ثم وضَّح أنهم بذلك تركوا ما حكم الله اتباعًا للهوى، ثم كذبوا على الله بتفسيرهم الختان المأمور به في التوراة بأنه إزالة غلوفة القلوب، وتسفيههم أحكام الله لقولهم: إنه لا فائدة من الختان. ثم شرح القرطبي فوائد هذه السنة بكونها عبادة لله سبحانه، والنظافة المترتبة على القيام بها؛ إذ وجود هذه الغلفة مدعاة لتراكم كثير من الأقذار إلى غير ذلك[١٠].

وبعد أن بيَّن القرافي مشروعية الختان في اليهودية وعند النصارى وضَّح أثر بولس في إبطال هذه السنة[١١]، وبعد أن ذكر الجعفري مشروعية الختان في التوراة وأن تاركه يقتل قال: فقد

---

(١) المصدر نفسه (١/٣٠٤).
(٢) الأجوبة الفاخرة ص١٣٢ .
(٣) معجم الحضارات السامية ص٣٨١ .
(٤) قاموس الكتاب المقدس ص٢٧٢ .
(٥) البخاري رقم (٣٣٥٦) مسلم رقم (٢٣٧٠).
(٦) نظرية النسخ في الشرائع السماوية ص٥٠ .
(٧) دعوة المسلمين للنصارى في عهد الحروب الصليبية (١/٣٠٦).
(٨) المصدر نفسه (١/٣٠٦).
(٩) المصدر نفسه (١/٣٠٦).
(١٠) المصدر نفسه (١/٣٠٦).
(١١) الأجوبة الفاخرة ص١٢٠ .

وضح كفر من خالفه من النصارى وغيرهم، وقد ترك الروم والفرنج وغيرهم الختان، ولم يزل النصارى يختتنون بعد رفع المسيح إلى أن أتاهم رجل يدعى عندهم بولس بعد المسيح بمدة متطاولة فقال لهم: إن الختان ليس بشيء، وإن العزلة ليس شيء(١).

٧- **تعظيم النصارى للصور والتماثيل**: من الشعائر الوثنية التي انتقلت إلى النصرانية عبادة الصور والتماثيل وتبجيلها حتى امتلأت كنائسهم وأديرتهم بتماثيل للمسيح ولأمّه وللقديسين وغيرهم، وقد وضَّح ابن تيمية أن اتخاذ الصور والتماثيل مما أحدثه النصارى، فلم يَرِدْ ذلك عن أحد من الأنبياء(٢).

وليس في التوراة ما يستند عليه النصارى في اتخاذهم هذه الصور والتماثيل وعبادتها، بل إن فيها النهي الصريح عن ذلك، ومنه ما جاء في سفر التثنية: لا تصنع لك تمثالًا منحوتًا صورة مما في السماء من فوق، وما في الأرض من أسفل، وما في الماء من تحت الأرض، لا تسجد لهن ولا تعبدهن؛ لأني أنا الرب إلهك غيور(٣). وقد كانت هذه الشعيرة لدى النصارى محدودة النطاق، ثم ما لبثت أن نمت تدريجيًّا وانتشرت انتشارًا واسعًا ثم أصبحت من ضمن الشعائر النصرانية وذلك عن طريق إقرارها في مجامعهم، خاصة في المجتمع النيقاوي الثاني نسبة إلى المدينة التي عقد فيها وهي نيقية عام (٧٨٧م) حيث أصدر قرارًا أيد فيه تعظيم صور المسيح وأمه والقديسين واتخاذها ليس فقط في الكنائس بل وفي البيوت(٤)، ولا شك في خطورة اتخاذ الصور والتماثيل وتعظيمها على عقيدة التوحيد؛ إذ كانت السبب الأول لانحراف البشرية من التوحيد إلى الشرك، ففي الحديث عن ابن عباس ﵄ في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣]. قال: أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عُبدت(٥).

وقد كان من ضمن الشعائر الوثنية النصرانية التي ناقشها العلماء المسلمون في عصر الحروب الصليبية هذه الشعيرة، قال القرافي: وأكثر النصارى يسجد للتصاوير في الكنائس وهو من كفرهم القبيح، وأي فرق بين عبادة الأصنام والسجود للتصاوير(٦)، ثم وضَّح أن ذلك لو كان مشروعًا في النصرانية لسجد التلاميذ للمسيح في حال حياته، والنصارى بتعظيمهم لهذه الصور والتماثيل مخالفون لتعاليم المسيح ومخالفون لكتبهم؛ حيث ليس فيها ما يدل على مشروعية

---

(١) تخجيل من حرَّف التوراة والإنجيل (٢/ ٥٨٩).
(٢) الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح (١/ ٣٤٦-٣٥٠).
(٣) الكتاب المقدس، التوراة، سفر التثنية، الإصحاح (٥/ ٧، ٨)
(٤) مجموع الشرع الكنسي ص٦٩، ٧٠ .
(٥) البخاري، كتاب التفسير رقم (٤٩٢٠).
(٦) الأجوبة الفاخرة للقرافي ص١٣١ .

ذلك[١] ، وأشار الجعفري إلى أنه لا تكاد تخلو كنيسة من كنائسهم من الصور والتماثيل متسائلًا عن مستند النصارى في ذلك، وما هو في الحقيقة إلا العناد وعبادة الأنداد؛ إذ الأناجيل ليس فيها ما يدل على مشروعية ذلك، بل إن التوراة تُكفِّر عابد الصور، والمسيح مصرح بأنه لم يأت على التوراة بل جاء لإكمالها[٢] .

٨- حقيقة خوارق العادات لدى النصارى والتي يلبسون: وفي عصر الحروب الصليبية ناقش بعض العلماء المسلمين ذلك لدى النصارى؛ إيقاظًا للعقول الغافلة وكشفًا لتلبيس ضُلَّالهم؛ أملًا في إزالة عقبة من العقبات المانعة من الهداية، وما في ذلك من إقامة للحجة عليهم بزوال ما قد يتعلقون به من هذه الخزعبلات، حيث قال الخزرجي مبينًا سبب كثرة هذه الخزعبلات لدى النصارى وموجهًا الخطاب لبعض قساوستهم في الأندلس: إن حذاقكم وعقلاءكم لما علموا أن دينهم ليس له قاعدة ينبني عليها، ولا أصل يُرجع إليه، جمعوا عقول الأمة بتخيلات موهمة وأباطيل مزخرفة وضعوها في الكنائس والمزارات[٣] ، ومن خزعبلاتهم أنهم وضعوا صورًا من الحجارة إذا قرئ الإنجيل عندها تبكي وتجري دموعها، ويشاهدها الخاص والعام، فيعتقد العامة أن ذلك لما علمته من أمر الإنجيل، ثم وضح حقيقة ذلك وهي أن لهذه الصورة مجارٍ دقيقة في أجوافها متصلة من ورائها بزقٍّ مملوء بالماء فيعصره بعض الموكلين بذلك فيندفع الماء في تلك المجاري وتخرج من عيون تلك الأصنام على هيئة دموع[٤] .

وبعد أن سرد الخزرجي صورًا من هذا القبيل مبينًا أنه شاهد بعضها وسمع عن البعض الآخر قرر أن هذه الهذيان لا تجوز إلا عليكم أيها النصارى، ولا يتعبد بها من جهال العالم غيركم[٥] ، ومن خزعبلاتهم التي ذكرها القرافي دعواهم أن مريم أم المسيح عليه السلام تنزل على دار المطران بطليطلة في يوم معروفٍ من السنة وهم جازمون بذلك، ثم تساءل القرافي مفنِّدًا ذلك: هل نزول أم المسيح بإذن الأب أو بغير إذنه؟ فإن نزلت بإذنه فلِمَ لا يرسل ملائكته ويوقر أم ولده ويصونها عن التبذلِ لرجل أجنبي؟ وإن كان بغير إذنه فكيف اصطفى الأب لنفسه من يتفرق بغير إذنه[٦] ؟ وتتلخص هذه القصة في أنه لما اشتدت الحال بالصليبيين المحاصرين في أنطاكية، جاءهم الغوث من السماء بأن رأى أحد قساوستهم أن أحد الحواريين جاءه في المنام ليريه مكانة الحربة التي طعن بها السيد المسيح وأنها في كنيسة أمير الحواريين، حيث فتشوا عنها حتى وجدوها[٧] : فطرحوا عنهم ما كان بهم من الفزع، وتنفسوا الصعداء، وأحسوا أنه قد عاودهم بأسهم من جديد[٨] .

---

(١) الأجوبة الفاخرة ص١٣١ .
(٢) تخجيل من حرَّف التوراة والإنجيل (٢/ ٦٠١، ٦٠٢).
(٣) مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان ص٢٦٧ .
(٤) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٣١٠).
(٥) مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان ص٢٦٨ .
(٦) الحروب الصليبية، وليم الصوري (١/ ٣٢٦، ٣٣٧).
(٧) دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٣١١).
(٨) المصدر السابق (١/ ٣١١).

بل إن هناك البعض لأجل هذه الحربة رأى رأي العين أشباح الملائكة والرسل[(١)] ، وعرض ابن الأثير هذه القصة مبينًا أنها من حيل أحد القساوسة التي لبس بها على العامة وصدقوه بها، ثم وضح أنه مما زاد فتنتهم بهذه الحربة أن ظهروا على المسلمين في هذه الموقعة[(٢)] ، وهكذا ناقش علماء هذه الفترة شعائر النصارى وطقوسهم مبينين تحريفها وابتدعهم لها، وبطلان ما استندوا عليه في إثباتها، بحيث يتضح لكل عاقل منهم ضلال ما هم عليه بالتمسك بها وممارستها، ويدركون مدى تلبيس علمائهم عليهم في تزيينها لهم والادعاء أنها من صلب ديانتهم[(٣)] .

خامسًا: أهم الشُّبه التي أثارها النصارى في عصر الحروب الصليبية:

منذ أن بُعث النبي ﷺ إلى عصرنا الحاضر وأعداء الإسلام يثيرون الشبهات حول هذا الدين، كأحد أسلحتهم في محاربته والحد من انتشاره، ولن يفلحوا أبدًا كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨﴾ [الصف: ٨]، ولذلك فليس غريبًا أن يكون هذا الأمر مما حرص عليه النصارى في عصر الحروب الصليبية، ولا سيما أن هذه الفترة كانت من أشد فترات الصراع العسكري بينهم وبين المسلمين، وكثير من هذه الشبه التي أثارها النصارى في هذه الفترة سبق وأن أثارها أعداء الإسلام قبلهم من المشركين أو اليهود أو غيرهم، ولا شك أن الشبهات حجاب يمنع قبول الحق خصوصًا عند قوم مثل النصارى الذين اتخذوا أحبارهم أربابًا من دون الله، فالقول عندهم ما قاله القسيس، لذلك حجب ضلال قساوستهم الحق عن عامتهم، ولهذا من أهم طرق إرشادهم إلى الحق هو إزالة هذه الشُّبه المانعة من قبوله عن الكثيرين منهم، ولذلك حرص كثير من العلماء في عصر الحروب على دحض شبهات النصارى حول هذا الدين حماية له من تشويه ضلالتهم، ورجاء أن يصل إلى عامتهم على الوجه الصحيح فيكون ذلك أدعى في قبوله لديهم، وفيما يلي عرض لأهم الشُّبه التي أثارها النصارى في هذه الفترة، ونماذج من تفنيد بعض العلماء المسلمين لها[(٤)] :

١- دعوى خصوصية رسالة النبي ﷺ بالعرب:

مما يتحدث به النصارى قديمًا وحديثًا أن محمدًا ﷺ نبي العرب خاصة وعلى ذلك قد شملهم رسالة الإسلام، وفي عصر الحروب الصليبية أثيرت هذه الشبهة وتصدى لها بعض العلماء المسلمين مفندين لها موضحين الحق في عموم رسالة النبي ﷺ إلى الناس كافة[(٥)] ، فقد

(١) الكامل في التاريخ نقلًا عن دعوة المسلمين (١/ ٣١١).
(٢) دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٣١٢).
(٣) المصدر نفسه.
(٤) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٣١٤).
(٥) المصدر نفسه (١/ ٣١٥).

ورد في رسالة لأحد كتاب النصارى موجهة إلى المسلمين في هذه الفترة: .. إن محمدًا ﷺ لم يُبعث إلينا، فلا يجب علينا اتباعه[١]، حيث استدل هذا النصراني بآيات من القرآن إلى ما ذهب إليه منها قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٣]، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الجمعة: ٢]، وقوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]، ثم قال هذا النصراني: لا يلزمنا إلا ما جاء بلساننا، وأتانا بالتوراة والإنجيل بلغتنا[٢]، وكان ردُّ القرافي على هذه الشبهة على النحو التالي:

(أ) إن الحكمة من إرسال الرسل عمومًا بألسنة أقوامهم ليكون ذلك أبلغ في الفهم بينه وبينهم حتى تقوم الحجة وتزول الشبهات ويحصل البلاغ، ليكون ذلك أدعى إلى فهم غيرهم[٣].

(ب) أن هناك فرقًا بين قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤] وبين أن يقال: (وما أرسلنا من رسول إلا لقومه) فالقول الثاني هو المفيد لاختصاص الرسالة بهم لا الأول.

(ج) أنه لو صح ما احتج به هذا النصراني من كون القرآن عربيًا والنبي ﷺ يتكلم العربية فهو مرسل إلى العرب، لكان النصارى كلهم مخطئين في اتباع أحكام التوراة، فإنها نزلت بغير لسانهم، وكذلك القبط والحبشة ما علموا التوراة والإنجيل إلا كما يعلم الروم اللسان العربي بطريق التعليم[٤].

(د) أنه وردت آيات كثيرة تدل على عموم الرسالة، فإذا كان النصارى يعتقدون أصل الرسالة لكنها مخصوصة بالعرب، يلزمهم التعميم لهذه الآيات، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقد بيَّن بعض العلماء المسلمين المعنى الصحيح للآيات التي استدل بها هذا النصراني على خصوصية الرسالة للعرب، فكون القرآن باللغة العربية ومحمد ﷺ أرسل بلسان قومه العرب لا يفهم منه اختصاص رسالته ﷺ؛ حيث وضَّح كل من البغوي والرازي أن سبب إرسال الرسل بألسنة أقوامهم ليكون ذلك أدعى للفهم عنهم وأبعد عن الغلط[٥]، ثم قال البغوي: كيف هذا -أي إرسال النبيِّ ﷺ بلسان قومه- وقد بعث إلى كافة الخلق؟ قيل: بعث إلى العرب بلسانهم والناس لهم تبع، ثم بعث الرسل إلى الأطراف يدعونهم إلى الله عز وجل، ويترجمون لهم بألسنتهم[٦].

---

(١) المصدر نفسه (١/ ٣١٥).
(٢) الأجوبة الفاخرة للقرافي ص٩ .
(٣) المصدر نفسه ص١٠ .
(٤) المصدر نفسه ص١٠ .
(٥) معالم التنزيل للبغوي (٤/ ٣٣٥).
(٦) معالم التنزيل للبغوي (٤/ ٣٣٥).

وبيّن الرازي أنه لا يفهم من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤] خصوصية رسالة النبي ﷺ بالعرب، وذلك للآيات الكثيرة الدالة على إرساله إلى الناس كافة، ولاحتمال أن المراد من (قومه) في الآية أي أهل بلده وليس أهل دعوته، ولأن التحدي بالقرآن وقع لجميع الثقلين الإنس والجن ولم يكن للعرب خاصة، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨](١). وقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [القصص: ٤٦] لا يفهم منه خصوصية رسالته ﷺ بالعرب الذين لم يأتهم نذير قبله، ولا يعني ذلك عدم إرساله لأهل الكتاب الذين جاءتهم الرسل، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ [يس: ٦].

وبعد أن أورد الرازي هذه الشبهة وضّح أن المراد بالآية أي: تنذر قومًا ما أنذروا بعد ما ضلوا عن رسالة الرسول المتقدم فيدخل في ذلك اليهود والنصارى، لأن ذلك دليل على أن النبي ﷺ مبعوث إلى الخلق كافة(٢)، وأما قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

فبعد أن بيّن ابن الجوزي أن المراد بالأميين العرب نقل عن بعض العلماء في معنى الآية التي بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣] فدلت الآية بذلك على عموم الرسالة وليس خصوصيتها للعرب دون غيرهم، وبعد أن أورد الرازي احتجاج أهل الكتاب بهذه الآية على خصوصية رسالة محمد ﷺ للعرب رد على ذلك بقوله: إنه لا يلزم من تخصيص الشيء بالذكر نفي ما عداه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] أنه لا يفهم منه أنه يخطه بشماله(٣)، وللآيات الدالة على عموم الرسالة كقوله تعالى: ﴿كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سورة سبأ: ٢٨]، ثم إن قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٣] أن المراد كل من دخل الإسلام بعد النبي ﷺ إلى يوم القيامة، فيكون المراد بالأميين العرب وبالآخرين سواهم من الأمم(٤).

ولا يدل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤] على خصوصية الرسالة بهم دون سواهم؛ حيث وضّح القرافي أن تخصيصهم لكونهم أولى الناس بالدعوة لقرابتهم منه ﷺ(٥)، وذكر الرازي أن تخصيصهم بالإنذار في هذه الآية بالإضافة إلى قرابتهم منه ﷺ جاء أيضًا لعظم شركهم كتكذيبهم بالحشر الذي تجاوز كفر أهل الكتاب المكذبين بنبوته ﷺ(٦).

وختم القرافي ردَّه على استدلال هذا النصراني بهذه الآيات وما شابهها على خصوصية رسالة المصطفى صلى عليه بالعرب بقوله: فهذه الألفاظ ألفاظ لغتنا ونحن أعلم بها، وإذا كان عليه

(١) تفسير الرازي (١٠/٦٣).
(٢) المصدر نفسه (١٣/٣٨).
(٣) المصدر نفسه (١٥/٥).
(٤) المصدر نفسه (٥/٥).
(٥) الأجوبة الفاخرة ص١٢ .
(٦) تفسير الرازي (١٣/١٤٦).

السلام هو المتكلم بها ولم يفهم تخصيص الرسالة ولا إرادته، بل أنذر الروم والفرس وسائر الأمم، والعرب لم تفهم ذلك، وأعداؤه من أهل زمانه لم يدعوا ذلك ولا فهموه، ولو فهموه لأقاموا به الحجة عليه، ونحن أيضًا لم نفهم ذلك فما فهمه إلا هذا النصراني الذي ساء سمعًا فساء إجابة(١)، وخاطب القرطبي النصارى مبينًا أنه لا يسعهم أن يستدلوا ببعض ما جاء به محمد ﷺ ويتركوا البعض الآخر، فيجب عليهم أن يقبلوا ما جاء به إذا قبلوا بعضه، وذلك باستدلالهم بهذه الآيات وما شابهها على خصوصية الرسالة، وهو القائل ﷺ أنه مرسل إلى الناس كافة وقد ظهر صدقه في قوله(٢).

عدَّ ابن الجوزي هذه الدعوى من النصارى أنها من تلبيس إبليس عليهم وإلا فمتى أثبتوا لمحمد ﷺ أصل الرسالة والنبوَّة، فإن النبيَّ لا يكذب، وقد بيَّن ﷺ أنه بعث إلى الناس كافة، وكتب إلى قيصر وكسرى وسائر ملوك الأعاجم(٣)، وهكذا من خلال ما سبق لم يُبق العلماء المسلمون للنصارى ما يتعلقون به في دعواهم خصوصية رسالة النبي ﷺ بالعرب، فلم يبق لهم بعد ذلك إلا قبول الحق واتباع المصطفى ﷺ وترك العناد والمكابرة وانتحال الحجج(٤).

٢- دعوى أن القرآن ورد بتعظيم النصارى والثناء عليهم:

ففي رسالة لأحد الكتاب النصارى كتبها على لسانهم موجهة إلى المسلمين في عصر الحروب الصليبية كان من ضمن ما أورده من الشُّبه فيها أن القرآن ورد بتعظيم النصارى والثناء عليهم متمثلًا في ذلك ما يلي:

(أ) تقديم بيع النصارى وصوامعهم على مساجد المسلمين في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾ [الحج: ٤٠].

(ب) تعظيم القرآن الكريم للإنجيل كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ١٨٤﴾ [آل عمران: ١٨٤] والكتاب هنا هو الإنجيل، وقوله تعالى: ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٦﴾ [المائدة: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ

(١) الأجوبة الفاخرة ص١٢ .
(٢) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص٤٤٧ .
(٣) تلبيس إبليس ص٧٣ .
(٤) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٣٢٠).

ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: ٤٨].

(ج) مدح القرآن للنصارى كما في قوله تعالى: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المائدة: ٨٢]، وقوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦][١].

وقد فنَّد القرافي هذه الشبهة مبينًا أن المراد بقوله: ولولا الأشرار في كل زمان بوجود الأخيار، فزمن موسى عليه السلام يسلم أهل الأرض من بلاء يعمهم بسبب من فيهم من أهل الاستقامة وإلا لعمهم الهلاك وهدمت صوامع يعبد الله فيها على الدين الصحيح حسب الشريعة الموسوية، وكذلك زمان عيسى وزمان محمد ﷺ[٢].

وقال البغوي في معنى الآية: أي ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدم في شريعة كل نبي مكان صلاتهم، لهدم في زمن موسى الكنائس، وفي زمن عيسى البيع والصوامع، وفي زمن محمد ﷺ المساجد[٣]، وأما وجه تقديم الصوامع والبيع على المساجد فوضَّح القرافي أن ذلك ليس لأفضليتها بل على العكس، فتأخيرها لأفضليتها ومكانها نظير قول القائل: فلان يغالب المائة والألف[٤]، وقولهم: لا أبخل عليك بالدرهم والدينار، فالترتيب من الأدنى إلى الأعلى، وتأخير المسجد لشرفها، وأن هدمها أعظم من هدم غيرها[٥].

ووضَّح الرازي سبب تقديم الصوامع والبيع في الذكر كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[٦]، وزاد القرافي أن هذه الآية خصت المساجد بمزيد فضل؛ إذ بينت أنه يذكر اسم الله فيها كثيرًا، حيث أن الضمير في اللغة العربية يعود إلى أقرب مذكور، وأقرب مذكور في الآية إلى هذا الوصف هو المساجد[٧]، ووضَّح القرطبي أن من أسباب تقديم مساجد أهل الذمة ومصلياتهم على مساجد المسلمين أنها أقدم بناء من المساجد[٨].

وأما ما يتعلق بتعظيم القرآن للإنجيل كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ [آل عمران: ١٨٤] فقد بين القرافي أن (أل) لاستغراق الجنس إشارة إلى جميع الكتب المنزلة المتقدمة[٩]؛ أي الكتب النيرة بالبراهين

---

(١) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٣٢٢).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٣٢٢).
(٣) معالم التنزيل للبغوي (٥/ ٣٨٩).
(٤) دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٣٢٣).
(٥) الأجوبة الفاخرة ص١٨، ١٩.
(٦) تفسير الرازي (١٢/ ٣٦، ٣٧).
(٧) الأجوبة الفاخرة ص١٨، ١٩.
(٨) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٤٩).
(٩) الأجوبة الفاخرة ص٢١.

والحجج[(١)]، والمقصود بها الكتب المنزلة لا المبدلة التي بأيدي النصارى؛ إذ هي غاية الوهن والضعف وسقم الحظ والرواية وانقطاع السند بحيث لا يوثق بشيء منها[(٢)]، ووضح الرازي أن في هذه الآية زيادة فضل للقرآن على الكتب المتقدمة، وذلك أن المراد بالبينات المعجزات، وعطف الزبر والكتاب عليها يقتضي المغايرة؛ أي أن معجزات الأنبياء السابقين كانت مغايرة لكتبهم، وذلك يدل على أن أحدًا من الأنبياء ما كانت كتبهم معجزة لهم كالتوراة والإنجيل والزبور والصحف، بعكس القرآن فهو وحده معجزة، وهذا من خصائص رسول الله ﷺ[(٣)].

وأما قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦]، فقد بيَّن الرازي معنى هذه الآية بما هو حجة على النصارى، وذلك أن الهدى الذي في الإنجيل هو اشتماله على الدلائل على توحيد الله وتنزيهه عن الصاحبة والولد والند والمثل، أما كونه مصدقًا لما بين يديه؛ أي مبشرًا بمبعث محمد ﷺ ومقدمه، كذلك كونه هدى مرة أخرى؛ لاشتماله على البشارة بمحمد ﷺ فيكون ذلك الإنجيل سببًا لاهتداء الناس إلى نبوة محمد ﷺ، ولا شك أن أشد وجوه المنازعة بين المسلمين وبين اليهود والنصارى هي إنكار نبوة محمد ﷺ، ولذلك نبَّه سبحانه وتعالى في هذه الآية أن الإنجيل يدل دلالة ظاهرة على نبوَّته، فكان الإنجيل هدى في هذه المسألة التي هي أشد المسائل احتياجًا إلى البيان والتقرير[(٤)]، ولذلك قال سبحانه وتعالى بعد هذه الآية: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٧] أي: ليقرأ أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه على الوجه الذي أنزله الله فيه من غير تحريف ولا تبديل، ومن ذلك الإيمان بما أنزله الله فيه من الدلائل على نبوة محمد ﷺ[(٥)].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] وضَّح القرافي أن المراد تصديق الكتب المنزلة لا المبدلة وهذا لا يمتري فيه عاقل[(٦)]، وأما ما يتعلق بمدح القرآن للنصارى ففي قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ [المائدة: ٨٢] قال القرطبي: هذه الآية نزلت في النجاشي وأصحابه لما قدم عليه المسلمون في الهجرة الأولى[(٧)]. وقال البغوي: لم يرد به جميع النصارى؛ لأنهم في عداوتهم المسلمين كاليهود في قتلهم المسلمين وأسرهم وتخريبهم بلادهم وهدم مساجدهم وإحراق مصاحفهم، لا ولاء ولا كرامة لهم، بل الآية فيمن أسلم منهم مثل النجاشي وأصحابه[(٨)]. وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، بيَّن القرافي أن في ذلك دليلًا على أنهم على الباطل، ولو كانوا على الحق ما احتاج المسلمون إلى جدالهم[(٩)].

---

(١) دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٣٢٤).
(٢) الأجوبة الفاخرة ص٢١ .
(٣) تفسير الرازي (٥/ ١٠١).
(٤) المصدر نفسه (٦/ ١٠).
(٥) المصدر نفسه (٦/ ١٠).
(٦) الأجوبة الفاخرة ص٢١ .
(٧) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ١٦٥).
(٨) معالم التنزيل، للبغوي (٣/ ٨٥).
(٩) الأجوبة الفاخرة ص٢٩ .

وهكذا فنَّد العلماء المسلمون في عصر الحروب الصليبية شبه النصارى حول هذه الآيات وأمثالها، والتي تعلقوا بها زعمًا منهم أن فيها ثناء عليهم وإقرارًا لباطلهم موضحين المعنى الصحيح لها؛ إزالة للشبهة وإقامة للحجة[(١)].

٣- شبهات تعدد الزوجات في الإسلام: وفي عصر الحروب الصليبية كان من ضمن كتاب لأحد القساوسة النصارى إلى أبي عبيدة الخزرجي الإشارة إلى أن المسلمين خالفوا فعل آدم عليه السلام أبي البشر الذي لم تكن له إلا زوجة واحدة، وخالفوا التوراة وذلك بإباحة التعدد، وقد أشار القرطبي إلى تعريض أحد كبارهم بإباحة التعدد في الإسلام بقول هذا النصراني عن النبي ﷺ: ... ثم أمر بالإكثار من النساء ورخص في طلاقهن، وأحل تزويج المطلقات الفاجرات[(٢)]. وقد كان رد بعض العلماء المسلمين في عصر الحروب الصليبية على هذه الشبهة على النحو التالي:

(أ) التعدد تشريع إلهي يجب التسليم له حيث قال الخزرجي: فإن الذي أمرنا الله به من النكاح، وسنَّ لنا الطلاق ليس لعاقل انتقاده؛ لأن قبولنا لذلك إنما هو بعد ثبوت الأصل[(٣)]. وقال القرطبي في رده على أحد قساوسة الأندلس : فذلك -أي: التعدد- ما لا ينبغي أن ينكره أحد من العقلاء، فإنه من مجوزات العقول وقد ورد بذلك الشرع الصادق المنقول[(٤)].

(ب) إن التعدد كان لدى بني إسرائيل ونصت عليه التوراة، بل إن فيها الجمع بين القريبات المحرم الجمع بينهن في الإسلام، قال القرطبي في رده على القسيس النصراني: .. ألم يجئ في التوراة أن إبراهيم كانت له سارة وهاجر، وكذلك ما ورد فيها أن يعقوب بين ليئة وراجيل، وقد ثبت أيضًا أن سليمان كانت لها مائة امرأة أو تسع وتسعون[(٥)]، ثم ألزم القرطبي هذا النصراني بما لا مفر له منه وذلك بقوله: فإن كذبتم شرعنا لأجل أنه اشتمل على جواز نكاح نساء كثيرة فلتكذبوا بنبوة إبراهيم ويعقوب وسليمان ولا فرق بين نبيِّنا وبين هؤلاء الأنبياء في أن كل واحد منهم رسول يُبلِّغ حكم الله[(٦)].

(ج) أن التعدد ليس فيه مخالفة لفعل آدم أبي البشر؛ حيث وضح الخزرجي أن اقتصار آدم عليه السلام على زوجة واحدة ضرورة لعدم وجود أخرى، ولذلك زوج ابنه بنته[(٧)].

---

(١) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٣٢٧).
(٢) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٣٢٧).
(٣) مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان ص٢٦٢ .
(٤) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص٤٥٤ .
(٥) دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٣٣٠).
(٦) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٣٣٠).
(٧) مقامع الصلبان ص٢٦٣ .

(د) أن التعدد فيه من الحكم العظيمة ما يجل عن الحصر؛ حيث أشار القرطبي إلى جانب من هذه الحكم والتي من أعظمها تكثير النسل، وعمارة الدنيا بالذرية الصالحة[(١)].

(هـ) أن التعدد في الإسلام مشروط بالعدل بين الزوجات، فبعد أن وضَّح ابن الجوزي بعض أحكام التعدد في تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النساء: ٣]. قال: ... فإن خفتم ألا تعدلوا بين هؤلاء الأربع فانكحوا واحدة[(٢)]. وهكذا بين العلماء المسلمون في هذه الفترة أن تعدد الزوجات تشريع إلهي ليس في الإسلام فحسب، بل ولدى الأنبياء السابقين، وأبطلوا كذلك ما تعلق به النصارى من شبه حول هذا الأمر القصد منها تشويه الدين الإسلامي والتنفير منه، ليظهر جليًّا عناد النصارى في هذا الأمر وانحرافهم عن الفطرة البشرية والسنة الإلهية اتباعًا لأهوائهم وطاعة لكبرائهم[(٣)].

٤- دعوى انتشار الإسلام بالسيف: من أقدم الشبه التي أثارها أعداء الإسلام وما زالوا يثيرونها انتشاره بالسيف، وقد علقوا عن أهداف الجهاد السامية في الإسلام والتي منها؛ رد اعتداء المعتدين على المسلمين، وإزالة الحجب والحواجز والعراقيل التي تقف أمام الدعوة الإسلامية كي لا تصل إلى الناس، وحراسة الدين وحمايته من أهل الباطل، وتأديب ناكثي العهد من المعاهدين وإغاثة المظلومين والمستضعفين من المسلمين[(٤)]، وفي عصر الحروب الصليبية كان من ضمن ما أثاره النصارى ضد الإسلام دعوى انتشاره بالسيف؛ إذ قال أحد قساوستهم في رسالة له إلى أبي عبيدة الخزرجي: ... ودين الصليب فشا في الأرض دون سيف ولا قهر، ودينكم إنما ظهر بالسيف والقهر في الأرض[(٥)].

وقد تصدى علماء المسلمين للرد على النصارى في هذه الدعوى وكان ذلك على النحو التالي:

(أ) بيان أن انتشار النصرانية ما كان إلا بسبب القتال، ولولا ذلك لما بقي منها أثر، قال الخزرجي حول ذلك في رده على أحد قساوسة النصارى: ... فكأنك قد غفلت عما كتبه مؤرخوكم وغيرهم من أن ابتداء دينكم إنما كان بأسباب القتال مع اليهود وكنتم تحرقونهم بالنيران، وتغرقونهم في البحار، وتعملون فيهم جميع أنواع الذل والهوان، ولولا ذلك لم يبقِ لكم اليهود أثرًا[(٦)]. وقال القرافي حول هذه الشبهة من قِبل النصارى: فلو التزموا شريعتهم في المسألة لم تقم لهم قائمة، ولم يبق منهم باقية[(٧)].

---

(١) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص٤٠٥ .
(٢) زاد المسير (٢/ ٨٢).
(٣) دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٣٣١).
(٤) المصدر نفسه (١/ ٣٣٣).
(٥) مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان ص١١٥ .
(٦) مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان ص٢٨٥ .
(٧) الأجوبة الفاخرة ص٨٩ .

(ب) أن النصارى في واقع أمرهم مخالفون لشريعتهم التي تحثهم على الصلح والمسالمة وعدم القتال والابتعاد عن المنازعة إلى أن تقوم الساعة، حيث أورد الخزرجي نصوصًا من الإنجيل في ذلك منها: لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضًا[١]. وقوله: ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضًا، ومن سخرك ميلًا واحدًا فاذهب معه اثنين... أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم[٢]، ثم عقب الخزرجي على ذلك بقوله: ... ومع ذلك فإنا نراكم -أي: النصارى- أشد الناس تكالبًا وحرصًا على القتل والقتال وبسط الأيدي بالاعتساف في أقطار الأرض، تقتلون النفوس وتسلبون الأموال ... مع تحريم إنجيلكم ذلك عليكم وإيجابه الاستسلام لأعدائكم، ومن استحل حرمات الله تعالى فهو أشد الناس كفرًا بالله وكتبه وأحكامه.

وقال القرطبي في مناقشته لهذه الدعوى: وأعجب من ذلك -أي: دعواهم انتشار الإسلام بالسيف- تلبسهم بالقتال والإكثار منه أبد الدهر إلى اليوم، وهم مع ذلك يدَّعون أن القتال غير مشروع لهم ويذمون الشريعة التي جاءت به، فهم قد ناقضت أفعالهم أقوالهم، وشهدت على كذبهم أحوالهم[٣].

(ج) إن كان القتال في الإسلام عيبًا فهو كذلك في الأمم السابقة؛ إذ قال الخزرجي في مناقشة للقسيس النصراني حول هذه الدعوى: فإن كنت قلت ذلك لتعيب به الإسلام، فإنك عبت موسى بن عمران ويوشع بن نون ومن قبلهما ومن بعدهما من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنهم حاربوا الأمم الطاغية ببلادهم[٤].

(د) إن القتال سنة أهل الحق مع أهل الضلال والمسلمون على هذه السنة؛ حيث وضَّح كل من الخزرجي والقرافي ذلك، ومن ثم فالقتال من مناقب المسلمين وحسناتهم، لا من معائبهم وسيئاتهم[٥].

(هـ) إن الجهاد في الإسلام من أسباب حماية الدعوة؛ حيث وضَّح الخزرجي ذلك بأن النبيَّ ﷺ ظل في قومه زمنًا يدعوهم إلى عبادة الله وحده ونبذ الأصنام والأوثان فحاربه قومه وآذوه وضيقوا عليه وأصحابه، فكان الجهاد رافعًا لهذا الأذى ومكسبًا قوة وهيبة للمسلمين، وممكنًا لدعوة الحق، وبسبب عدم وجود ذلك في النصرانية فإن الدين الصحيح الذي جاء به المسيح عليه السلام ظل أهله مستضعفين بعده فترة فتلاشى وحُرِّف وبُدِّل، وما عليه النصارى اليوم إنما

(١) الكتاب المقدس، إنجيل متى، الإصحاح (٥/ ٣٩).
(٢) مقامع الصلبان ص٢٨٦ .
(٣) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص٤٥٢ .
(٤) مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان ص٢٨٥ .
(٥) الأجوبة الفاخرة ص٩٠ .

أفشاه قسطنطين ابن هلانة بالقهر والغلبة[١]، فكان عدم تشريع الجهاد في بداية النصرانية من أسباب ضعفها ومن ثم تحريفها وتبديلها.

(و) إن القتال في الإسلام لا يكون إلا بعد قيام الحجة؛ حيث وضح ابن المتطبب أن جهاد النبي ﷺ كان بعد صبر دام أكثر من ثلاث عشرة سنة من الدعوة باللين وإقامة الحجة، ثم كان الأمر بالقتال بعد ظهور المعجزة، وقيام الحجة، ووضوح الدلالة، وما كان إشهار السيف أبدًا إلا بعد الإنذار والإعذار[٢].

٥- دعوى عدم جزم المسلمين بصحة القرآن لاختلاف الصحابة في جمعه وتعدد قراءاته: مما أثاره النصارى حول كتاب الله في هذه الفترة ادعائهم عدم جزم المسلمين بصحته لمخالفة عبد الله بن مسعود رضي الله عليه عثمان بن عفان رضي الله عنه في جمعه[٣]، وأن تعد القراءات على سبعة قراء أشد من اختلاف الأناجيل عن أربعة رجال[٤]، وقد رد القرافي على هذه الدعوى مبينًا أن خلاف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه للصحابة ليس في إثبات شيء ليس من القرآن أو حذف شيء فيه؛ إذ القرآن معلوم لجميع الصحابة بالتواتر، وإنما الخلاف في أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كان يقرأ القرآن ويضم إليه تفسيره، وكان يقرؤها فصام ثلاثة أيام متتابعات، فنازعه الصحابة لذلك حرصًا منهم ألا يضاف إلى القرآن مما ليس منه، وكان الصواب معهم، وهذا من حفظ الله عز وجل لكتابه كما وعد بذلك: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات: ٩][٥].

وقال القرطبي في جمع القرآن: وكان هذا من عثمان رضي الله عنه بعد أن جمع المهاجرين والأنصار وجُلَّة أهل الإسلام وشاورهم في ذلك فاتفقوا على جمعه بما صح وثبت في القراءات المشهورة عن النبي ﷺ، وإطراح ما سواها، واستصوبوا رأيه وكان رأيًا سديدًا موفقًا[٦]، وفيما يتعلق بتعدد القراءات فقد وضَّح بأنها جميعًا متلقاة عن النبي ﷺ بالتواتر، ثم إن هذا التعدد من رحمة الله بعبادة؛ إذ قبائل العرب حين نزول القرآن كانت مختلفة اللهجات بين التضخيم والمد والقصر والإخفاء والإمالة وإعمال العوامل الناصبة والرافعة والجارة، ولو كُلِّفوا كلهم بلهجة واحدة لشق عليهم[٧].

وأما فيما يتعلق بتشبيه النصارى اختلاف القرآن باختلاف الأناجيل فقد ردَّ القرافي على ذلك مبينًا الفرق الواضح بين الأمرين؛ إذ الأناجيل لم تنقل إلينا بالتواتر كالقرآن الكريم، بل نكاد نجزم بأن أكثرها ليس منزلًا وما هو إلا تواريخ وكلام كهنة وملوك حشرها النصارى في الإنجيل

---

(١) النصيحة الإيمانية ص١٤٢.
(٢) الأجوبة الفاخرة ص٩٤، ٩٥.
(٣) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٣٣٨).
(٤) المصدر نفسه.
(٥) الأجوبة الفاخرة ص٩٨.
(٦) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٣٩).
(٧) الأجوبة الفاخرة ص٩٨.

وزعموا أنها من الكتاب المنزل، ولذلك لم يُجز المسلمون أن يجعلوا شيئًا من الأحاديث مع صحتها مختلطة بالقرآن ولا قول أحد من الصحابة(١)، ثم خاطب القرافي النصارى بقوله: . . . فلا تشبهوا أنفسكم بنا، فوالله ما اجتمعنا في شيء من هذا، بل أنتم في غاية الإهمال، ونحن في غاية الاحتفال(٢). وقد تحدث العلماء المسلمون في تلك الفترة في إبراز وجوه إعجاز القرآن وبيان خصائصه التي تفرد بها عن سائر الكتب(٣) مع إيضاح تناقض الأناجيل وبيان عدم صحتها(٤).

٦- **انتقادهم الطلاق في الإسلام:** في كتاب لأحد القساوسة النصارى في الأندلس بعث به إلى المسلمين من مدينة طليطلة إلى قرطبة ينال فيه من الإسلام بما أورده من شبهات فيه، كان من ضمنها انتقاده للطلاق في الإسلام، وكيف أنه إذا بانت المرأة من زوجها لا يحل له أن يراجعها إلا بعد أن تنكح زوجًا غيره، وأن ذلك من الأمر بالزنا وهو مخالف لقول المسيح: لا ينبغي للرجل طلاق زوجته إلا أن تزني، وإن زنت فعلًا فلا يحل له مراجعتها، ومن طلق امرأته فقد جعل لها سبيلًا إلى الزنا -أعني: من طلقها بدون سبب- ومن زوج مطلق فهو فاسق بها(٥). وقد ردَّ القرطبي على هذا القسيس مبينًا أن عدم قبوله للطلاق إما يكون من جهة العقل أو من جهة الشرع، فإن كان من جهة العقل فإن العقل لا يحيل وقوع الطلاق، وإذا كان الأمر كذلك فكيف ينبغي لمن ينتسب إلى العقل أن ينكر نبوة من قامت الأدلة القاطعة على صدقه من حيث إنه حكم بشيء يصح في العقل أن يوجد، وإن كان عدم قبوله من حيث إنه ممنوع من جهة الشرع، فإما أن يكون من جهة الشرائع كلها أو من بعضها، والأول باطل ففي التوراة التصريح بالطلاق، والثاني جائز لجواز اختلاف الشرائع في بعض الأحكام لما يعلمه الله من اختلاف الأحوال والمصالح(٦)، ثم وضح القرطبي بعض المصالح التي لا تكون إلا بالطلاق والتي لا سبيل لعلاجها في الحياة الزوجية إلا به(٧).

وقال ابن قدامة بعد أن ساق الأدلة من الكتاب والسنة على مشروعية الطلاق: وأجمع الناس على جواز الطلاق، والعبرة دالة على جوازه، فإنه ربما فسدت الحال بين الزوجين فيصير بقاء النكاح مفسدة محضة، وضررًا مجردًا بإلزام الزوج النفقة والسكن وحبس المرأة مع سوء العشرة والخصومة الدائمة من غير فائدة، فاقتضى ذلك شرع ما يزيل النكاح، لتزول المفسدة الحاصلة منه(٨). وكونه بيد الرجل ولم يعط المرأة الحق في ذلك لما علمه الشارع من ضعف المرأة

(١) المصدر نفسه ص٩٨، ٩٩ .
(٢) المصدر نفسه ص٩٩ .
(٣) دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٣٤٠).
(٤) المصدر نفسه (١/ ٣٤٠).
(٥) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص٢١٦ .
(٦) المصدر نفسه ص٢٢٢ .
(٧) المصدر نفسه ص٢٢٢ .
(٨) المغني (١٠/ ٣٢٣).

وتقديمها العاطفة على العقل في كثير من الأحيان، وما يحصل من جراء ذلك من الضرر لا ينسى ولا يتدارك[١]، ووضح ابن قدامة أن للمرأة الحق في مفارقة زوجها إن خشيت ألا تؤدي حق الله في طاعته، فتخالعه بعوض تفتدي به نفسها منه، وقد ورد في الحديث أنه جاءت امرأة ثابت بن قيس إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ما أنقم على ثابت في دين ولا خلق، إلا أني أخاف الكفر، فقال رسول الله ﷺ: «**أتردين عليه حديقته؟**» قالت: نعم، فردتها عليه وأمره أن يفارقها[٢].

وبيَّن القرطبي أنه مع تشريع الطلاق في الإسلام إلا أنه مكروه، فعلى المسلم أن يتحاشاه قدر استطاعته، وإذا كان لا بدَّ منه فلا يكثر ويتمادى فيه[٣]، وأما كون المطلقة ثلاثًا لا تحل لزوجها الأول إلا بعد زوج، فوضَّح القرطبي في رده على هذه الشبهة: أن ذلك من رحمة الله إذ جعله عقوبة للرجل الذي يتمادى في إيقاع الطلاق، فإذا علم الزوج أنه إذا أكثر من هذا المكروه الذي هو الطلاق عوقب بتفويت زوجته عليه ارتدع عن التمادي فيه[٤]، واشتد القرطبي في رده على القسيس النصراني في تشبيه نكاح المرأة من الزوج الثاني بالزنا بوصفه بالكذب والافتراء والجهل وذلك بقوله: واعلم يا هذا المفتري الكذاب، والمشنع المرتاب، أن العقلاء لا يرضون بما فعلت، ولا يأتون بمثل ما أتيت به، وذلك أنك جهلت شرعنا وكذبت عليه، وعميت عليك مقاصده فنسبت الزور والفحش إليه[٥].

ثم وضَّح القرطبي بعد ذلك الفرق بين الزنا والنكاح، وأن نكاحها من الزوج الثاني صحيح وفق شريعة صحيحة، وأنه نكاح اكتملت شروطه وأركانه وانتفت موانعه، وتشبيه هذا القسيس له بالزنا من العناد والتمويه والتزوير الذي قصد به استزلال العامة وتنفيرهم من دين الإسلام، وإلا لم يقل أحد من المسلمين بإجبار الزوج الثاني على طلاقها حتى يرجع إليها الأول، بل إنه يملك منها ما يملكه الأول، فإن شاء طلقها وإن شاء أمسكها، وإن كان زواجه منها لأجل أن يحللها للزوج الأول كان نكاحًا فاسدًا[٦]، وفي تفصيل ابن قدامة لشروط عودتها إلى زوجها الأول أكد فساد النكاح من الزوج الثاني إذا كان القصد منه تحليلها للزوج الأول[٧].

٧- **دعوى أن المسلمين وثنيون وكفار:** قال أكبر دعاة الحروب الصليبية في أوربا البابا أوربان الثاني في خطابه أمام مجمع كليرمونت في فرنسا والذي دعا فيه إلى القيام بالحروب الصليبية: . . . إني أخاطب الحاضرين وأعلن لأولئك الغائبين، كما أن المسيح يأمر بهذا، إن

(١) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص٢٢٣.
(٢) البخاري رقم (٥٢٧٦) المغني (١٠/ ٢٦٧).
(٣) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص٢٢٤.
(٤) المصدر نفسه (١/ ٣٤٥).
(٥) المصدر نفسه (١/ ٣٤٥).
(٦) المصدر نفسه (١/ ٣٤٥).
(٧) المغني (١٠/ ٥٥١).

ذنوب أولئك الذاهبين إلى هناك سوف تغفر إذا انتهت حياتهم بأغلالها الدنيوية سواء أثناء مسيرتهم على الأرض أو عند عبورهم البحر، أو في خضم قتالهم ضد الوثنيين . . . يا له من عار إذ قام جنس خسيس مثل هذا، جنس تستعبده الشياطين بهزيمة شعب يتحلى بإيمان عظيم بالرب[(١)]، ووصف فوشيه شارتر أحد مؤرخي الحروب الصليبية الفرنج وأبرز قساوستهم وممن اشترك في كثير من أحداث هذه الحروب وصف المسلمين بهذه الصفة في كتابته لتاريخ حملات النصارى الأولى في هذه الحروب، ففي ثنائه على البابا أوربان الثاني الداعي الأول للحروب الصليبية قال: . . كذلك بذل جهودًا قوية لطرد الوثنيين من أراضي المسيحيين[(٢)]، ومؤرخ صليبي آخر عاصر أحداث الحروب الصليبية وتولى بعض المهام الدينية للصليبيين في فترة هذه الحروب وصف المسلمين وهو يكتب تاريخ الحروب الصليبية بالكفر، ومن ذلك قوله وهو يتحدث عن بعض المواقع العسكرية بين المسلمين والصليبيين : . . . ورغم ما كان يبدو من تأهب الكفار للقتال إلا أن أملهم في النصر أو حتى الصمود طويلًا كان أملًا واهيًا، ومن ثم كان هدفهم الوحيد هو شغل الصليبيين بالقتال[(٣)].

وها هو أحد قادتهم وهو بلدوين أمير الرها في أحد خطاباته يصف المسلمين بهذه الصفة وذلك بقوله: . . لقد استطاع شعب الفرنجة بإيحاء وتوجيه علويين أن يحرر مدينة القدس الطاهرة من انتهاكات الكفار[(٤)]، واتهام النصارى للمسلمين بالوثنية ليس إلا كما ورد في المثل: رمتني بدائها وانسلت؛ إذ الوثنية الصريحة والكفر بالله سبحانه وتعالى هو دين النصارى المحرف فهي تهمة ظاهرة البطلان، وكتب العلماء المسلمين في العقيدة بشكل عام تضمنت الكثير مما يبطل هذه الدعوى، ومن خلال الجهود الدعوية للمسلمين تجاه النصارى في فترة الحروب الصليبية ومناقشتهم للعقائد النصرانية الباطلة والردود على شبههم يمكن استخلاص تفنيد هذه الدعوى على النحو التالي:

(أ) أن الدين الإسلامي دين التوحيد، والنصرانية أساسها الشرك والكفر بالله، وتوحيد الله سبحانه وتعالى وتنزيهه عن الشرك والمثل والصاحبة والولد من مسلمات الدين الإسلامي الذي بُعث النبي ﷺ لتقريره والدعوة إليه، وهو عقيدة المسلمين الراسخة التي لا يتطرق إليها الشك، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١-٤]، لذلك انطلق العلماء المسلمون في ردودهم ودعوتهم ونقاشاتهم مع النصارى في هذه الفترة من مبدأ مُسلَّم به لديهم؛ وهو أن الإسلام دين التوحيد

(١) الوجود الصليبي في الشرق العربي، فوشيه الشارتي ص٩٣ .
(٢) المصدر نفسه ص٩٦ .
(٣) الحروب الصليبية، وليم الصوري، ترجمة: د/ حسن حبشي (٢/ ٢٥١).
(٤) الحروب الصليبية، وليم الصوري، ترجمة: د/ حسن حبشي (٢/ ٢٥١).

والنصرانية -المحرفة- دين الكفر والشرك مع الله، ففي مستهل كل كتاب أورد أو نقاش للعلماء المسلمين في هذه الفترة مع النصارى تكون بدايته تقرير توحيد الله جلَّ وعلا وتنزيهه عن شرك النصارى فيه، ومن ذلك قول الجعفري في بداية كتاب التخجيل: الحمد لله الذي لا يتكثر بالأعداد، الماجد الذي لا تضارعه الأشكال والأنداد، المقدس عن الشريك والصاحبة والأولاد، المنزه عن الذات والصفات عما يقول أهل الإلحاد(١). وفي مستهل رد أبي عبيدة الخزرجي على رسالة أحد القساوسة قال: بسم الله الرحمن الرحيم إله فرد صمد، لم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، سلام على المهتدين، والحمد لله رب العالمين ... فضلنا على جميع الأجناس ... نوحد الله بموجبات توحيده، ونمجده سبحانه حق تمجيده(٢).

(ب) بيان تأكيد الإسلام على لزوم التوحيد ونبذ الشرك: ومن اهتمام بعض علماء عصر الحروب الصليبية لهذا الأمر قول القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]: أجمع العلماء على أن هذه الآية من المُحْكم المتفق عليه، ليس منها شيء منسوخ وكذلك هي في جميع الكتب، ولو لم يكن كذلك لعرف ذلك من جهة العقل وتصفيتها من شوائب الرياء وغيره(٣)، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

(ج) بيان أن الشرك محبط للعمل: ففي تفسير قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥] قال القرطبي: لئن أشركت يا محمد ليحبطن عملك، وهو خطاب للنبي ﷺ خاصة، وقيل: الخطاب له والمراد أمته ... والإحباط الإبطال والفساد(٤).

(ح) بيان أن الشرك أعظم الذنوب وأن الله لا يغفره: قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١١٦]: هذا من المحكم المتفق عليه الذي لا اختلاف فيه بين الأمة(٥). وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨] بيَّن البغوي أن الشرك موجب للنار حيث أورد حديث جابر ﷺ قال: أتى النبيَّ ﷺ رجل فقال: يا رسول الله، ما الموجبتان؟ قال: **«من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله دخل النار»**(٦).

(س) إظهار نبذ الإسلام لكل مظاهر الوثنية؛ من أصنام وصور، وتماثيل وبناء على القبور، وكل ما هو وسيلة للشرك: ففي تفسير قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ

(١) تخجيل من حرَّف التوراة والإنجيل (١/ ٨٧).
(٢) مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان ص١٢ .
(٣) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٣٤٩).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ١٨٠).
(٥) المصدر نفسه (٣/ ١٥٩).
(٦) مسلم، كتاب الإيمان، رقم (٩٣).

عِندَ رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ [الحج: ٣٠]، قال القرطبي: الرجس: الشيء القذر، والوثن: التمثال من خشب أو حديد أو ذهب أو فضة، والنصارى تنصب الصليب وتعبده وتعظمه فهو كالتمثال أيضًا، وسمي الصنم وثنًا؛ لأنه ينصب ويركز في مكان فلا يبرح عنه، يريد اجتنبوا عبادة الأوثان(١)، وقد أمر النبي ﷺ عدي أن يزيل الصليب عنه وقال: «**أطرح هذا الوثن عنك**»(٢).

وقال الرازي: ثم إن لما حثَّ سبحانه وتعالى على تعظيم حرماته وحمد من يعظمها أتبعه بالأمر باجتناب الأوثان(٣)، وسمى الأوثان رجسًا للتأكيد على وجوب تجنبها؛ لأن عبادتها أعظم من التلوث بالنجاسات(٤)، وقد أبرز كثير من العلماء في هذه الفترة موقف النبي ﷺ من أصنام المشركين التي كانت عند الكعبة عند فتح مكة حيث كان يكسرها صلى الله عليه وهو يتلو قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١]، فبعد أن عرض القرطبي ذلك بيَّن أن معنى مجيء الحق؛ أي الإسلام، وزهوق الباطل؛ أي الشرك(٥).

(و) فضح النصارى بإبراز مظاهر الوثنية والشرك لديهم: وذلك بتبجيلهم الصور والتماثيل والصلبان وإشراكهم في عبادة الله، ففي مناقشة بعض العلماء المسلمين لعقائد النصارى وشعائرهم كان من ضمن ما ناقشوه تبجيلهم للصور والتماثيل مبينين أن ذلك ما هو إلا وثنية انتقلت إلى النصرانية واتخذها النصارى في مجامعهم دينًا وعبادة محرفين بذلك ما نزل عليهم من الحق؛ حيث وضَّح هؤلاء العلماء أن هذا من كفرهم القبيح الذي ابتدعوه في ديانتهم(٦)، مع إبرازهم لشركيات النصارى وكفرهم بالله من خلال نقض قانون الأمانة لديهم الذي هو أصل إيمانهم، وإبطال عقيدة التثليث وتفنيد ما اعتقدوه من الألوهية في عيسى عليه السلام(٧).

سادسًا: القائمون على دعوة النصارى في عصر الحروب الصليبية:

١- القادة والولاة: ومن أبرزهم عماد الدين زنكي الذي ولَّاه السلطان السلجوقي محمود بن محمد بن ملكشاه الموصل سنة (٥٢١هـ)، فعَظُم أمره بعد ذلك وتوسعت دولته لشجاعته وإقدامه وحرصه على جمع كلمة المسلمين في مواجهة النصارى، قال عنه الذهبي: كان بطَلًا شجاعًا مقدامًا كأبيه. وقد كان من أبرز جهوده في مواجهة الفرنج ودعوتهم وضعه أساس الوحدة الإسلامية في الموصل والشام، والتي كانت من أهم الأسباب التي مكَّنت المسلمين من المواجهة وصدِّ زحف النصارى على البلاد الإسلامية؛ حيث دخلت في طاعته مجموعة من

(١) تفسير القرطبي (٦/ ٣٧).
(٢) تفسير القرطبي (٦/ ٣٧).
(٣) تفسير الرازي (١٢/ ٢٨).
(٤) المصدر نفسه (١٢/ ٢٨).
(٥) تفسير القرطبي (٥/ ٢٠٤).
(٦) دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٣٥٤).
(٧) المصدر نفسه (١/ ٣٥٤).

المدن المستقلة والمتناحرة بينها، وكان قد بدأ بجزيرة ابن عمر سنة (٥٢١هـ) وغير ذلك، وبعد أن حقق هذه الوحدة بدأ بجهاد الصليبيين حيث هزمهم في مواقع كثيرة، وكان من أبرز إنجازاته في ذلك فتحه لإمارة الرها الصليبية سنة (٥٣٩هـ)(١)، وقال أحد الكتاب الأوربيين عن أهمية هذا الفتح: وسقوط الرها في يد زنكي يعتبر نقطة تحول في الشرق اللاتيني، كما يعتبر بداية النهاية(٢).

وبعد مقتله عام (٥٤١هـ) تولى ابنه نور الدين محمود زنكي وكان ذا ديانة وورع ومداومة للجهاد، محبًا للسنة، مظهرًا لها، مزيلًا للمناكير، ممكّنًا لأهل الخير في دولته(٣)، قال عنه ابن الأثير: طالعت السير فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته، ولا أكثر تحريًا منه للعدل(٤)، وقال ابن كثير: كان آمرًا بالمعروف وناهيًا عن المنكر، محبًا للعلماء والفقراء والصالحين، مبغضًا للظلم، صحيح الاعتقاد... وكان قد قمع المناكر وأهلها، ورفع العلم والشرع، وكان مدمنًا لقيام الليل(٥)، وقال أبو شامة المقدسي: ... كان يعظم العلماء ويجمعهم عنده للبحث والنظر، واستقدمهم إليه من البلاد الشاسعة(٦)، قال رحمه الله مبينًا دور الفقهاء والعلماء في ظهور دولته، ونصره على أعدائه الفرنج: هؤلاء جند الله وبدعائهم ننصر على الأعداء، ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيهم، فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا(٧).

وكان رحمه الله متمسكًا بالسنة وقّافًا عند حدود الله، أظهر في بلاده السُّنة وأمات البدعة(٨)، وكان أكثر القادة المسلمين في هذه الفترة مواجهة للنصارى، فمن جهوده المباشرة في دعوتهم مراسلاته مع بعض قادتهم بشأن العلاقات بينهم وبين المسلمين، وما تحقق من جراء ذلك للأمة من المصالح، كمراسلاته مع ملك الروم، والتي تمخضت عن هدنة مكّنت المسلمين من مواجهة أعداء آخرين، ومراسلاته مع ملك الأرمن حيث أدت هذه المراسلات إلى استمالته في صف المسلمين ضد أبناء ملته(٩)، ومن جهوده المباشرة أيضًا في دعوتهم جهاده المستمر لهم والذي أثمر عن تقلص نفوذهم في بلاد الشام وظهور دولة المسلمين بعد ضعف وفرقة، وقد قال ابن الجوزي عن ذلك: .. وجاهد وانتزع من الكفار نيفًا وخمسين مدينة وحصنًا(١٠)، بل وأسر

---

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ٣٦).
(٢) الحروب الصليبية، أرنست باركر، ترجمة: السيد الباز العريني ص٥٢ .
(٣) دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٣٦٥).
(٤) الكامل في التاريخ (٩/ ٣٩٤) دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٣٦٥).
(٥) البداية والنهاية (١٢/ ٣٠٦) دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٣٦٥).
(٦) كتاب الروضتين (١/ ٩).
(٧) دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٣٦٦).
(٨) المصدر نفسه (١/ ٣٦٦).
(٩) كتاب الروضتين نقلًا عن دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٣٦٧).
(١٠) المنتظم (١٨/ ٢٠٩).

بعض قادتهم؛ كصاحب طرابلس وصاحب الروم وابن جوسلين وغيرهم، ولهذه الانتصارات الكبيرة على الفرنج والتمكين للمسلمين بعد ضعفهم في الشام مع قلة العسكر في مواجهة تكالب النصارى على المسلمين، وأدرك بعض النصارى سبب هذه الانتصارات وأنه لا يرجع إلى القوة العسكرية فحسب، بل إلى صبر نور الدين واحتسابه وصدقه وإنابته إلى الله سبحانه مع الأخذ بالأسباب حيث قال بعضهم: .. وابن القسيم له مع الله سر، فإنه لا يظفر علينا بكثرة جنده وعسكره، وإنما يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل، فإنه يصلي بالليل ويرفع يده إلى الله ويدعو، فالله سبحانه وتعالى يستجيب له دعاءه ويعطيه سؤاله وما يرده خائبًا فيظفر علينا[(١)].

ومن جهوده غير المباشرة في دعوة النصارى تحقيقه للوحدة بين المسلمين في الموصل والشام ومصر مما كان له أثره الكبير في نجاح عملية الجهاد[(٢)]، يضاف إلى ذلك اهتمامه بالعلم والعلماء؛ حيث بنى المدارس في حلب وحماة ودمشق، وشيَّد دار الحديث في دمشق، ولا يخفى أثر ذلك في نشر العلم وتثقيف المسلمين مما ساعد على مواجهة شُبه النصارى بل ودعوتهم، وهكذا كان نور الدين عزًّا للمسلمين في الشام ومصر بعد ضعف وظهور النصارى، وكانت جهوده في مواجهة النصارى ودعوتهم الأساس لنجاح جهود من بعده من الولاة والقادة؛ كصلاح الدين والظاهر بيبرس وغيرهما[(٣)].

قال ابن كثير موضحًا الانسجام التام بين الراعي والرعية: .. وفيها -أي: سنة **٥٥٢هـ**- مرض نور الدين فمرض الشام بمرضه، وعُوفي ففرح المسلمون فرحًا شديدًا[(٤)]، وبعد حياة حافلة بالجهاد والدعوة تُوفي نور الدين (٥٦٩هـ) في دمشق، رحمه الله رحمة واسعة[(٥)]، ومن أراد التوسع فليراجع كتابي عن الزنكيين.

(أ) جهود صلاح الدين في دعوة النصارى: كان خليقًا للإمارة، مهيبًا، شجاعًا، حازمًا، مجاهدًا، كثير الغزو، عالي الهمة[(٦)]، أمضى حياته في جهاد الفرنج والنصارى ودعوتهم إلى الإسلام، فكان خلال لقاءاته بقادتهم ومحادثاته معهم يستغلها في إبراز محاسن الإسلام لهم ودعوتهم إليه، ومن ذلك مثلًا ما فعله مع صاحب صيدا الإفرنجي حيث قال ابن شداد عن ذلك: ... ولقد رأيته وقد دخل عليه صاحب صيدا بالناصرة فاحترمه وأكرمه وأكل معه الطعام، ومع ذلك عرض عليه الإسلام فذكر له طرفًا من محاسنه وحثه عليه[(٧)]، وكان يستغل علاقاته الحسنة مع بعض قادتهم من أجل التمكين للدعوة، ومن ذلك تفاهمه مع صاحب طرابلس الصليبي بأن

(١) كتاب الروضتين (١/ ١٤) دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٣٦٨).
(٢) دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٣٦٨).
(٣) المصدر نفسه (١/ ٣٦٨).
(٤) البداية والنهاية (١٢/ ٢٥٤) دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٣٦٨).
(٥) دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٣٦٨).
(٦) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٢٧٩).
(٧) النوادر السلطانية ص٦٦ .

يوعز الأخير لأتباعه باعتناق الإسلام حيث أدركته المنية قبل إتمام ذلك[١]، ولأجل هذا الغرض النبيل كان يتألف كثيرًا من قادتهم بالمال والهدايا طمعًا في إسلامهم، وكان نبله وحسن خلقه من أبرز الأسباب التي جعلت الكثير من النصارى في هذه الفترة يغيرون ما علق بأذهانهم عن الإسلام من صورة مشوهة، بل ويعتنق أعداد كبيرة منهم الإسلام، ومن ذلك مثلًا ما حدث بعد معركة حطين ومنّه على كثير من أسرى الصليبيين، ورحمته لنسائهم وضعفائهم مما جعل أعداد كبيرة منهم يعتنقون الإسلام[٢]، ولنبله في كثير من المواقع انضمت أعداد كبيرة منهم إلى معسكر المسلمين بعد إسلامهم لتقاتل معه ضد أقوامهم[٣]، بل إن كثيرًا منهم كانوا على نصرانيتهم، ومع ذلك انضموا إليه ضد بني ملتهم[٤].

أما الجهاد في سبيل الله -أهم وسائل الدعوة- فله اليد الطولى فيه، ووقعاته مشهورة معهم، وعلى يده كان طردهم من الغالبية العظمى من بلاد الشام، ومن أعظم ذلك استرداده بيت المقدس من أيديهم بعد معركة حطين المشهورة عام (٥٨٣هـ)[٥]، وكان رحمه الله حريصًا في كل وقعة معهم أن يعرض الإسلام عليهم، فبعد كل معركة يعرض الإسلام على الأسرى قبل اتخاذ أي إجراء معهم، ومن ذلك مثلًا ما حدث بعد معركة حطين وقد كان طموحه تتبع النصارى في بلادهم حتى لا يبقى منهم من يكفر بالله، وهذا ما صرح به لقاضي عسكره ابن شداد، وذلك بقوله: أما أحكي لك شيئًا؟ قلت: بلى، قال: في نفسي أنه متَّى يسَّر الله تعالى بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتتبعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت[٦].

ومن جهوده المباشرة في الدعوة للنصارى حرصه على تحقيق الوحدة بين المسلمين والعمل على ذلك لتقوية الجبهة الإسلامية ضد النصارى، وجهوده في مجال تحقيق الأمن والضرب على أيدي العابثين[٧]، وقد اهتم صلاح الدين بالعلماء والفقهاء واتخذهم بطانة له، بل وأسند كثيرًا من المهمات الإدارية والقيادية إليهم وهم قادة الرأي في الأمة، وهداتها إلى طريق الحق، وحراسها من الغواية والضلال، ودعاتها بعلمهم وعملهم، ومن أبرز هؤلاء العلماء القاضي ابن شداد الذي تولى قضاء عسكره وقام بكثير من السفارات له[٨]، وكان صاحب ديوان الإنشاء لديه وأحد أهم مستشاريه القاضي الفاضل وقد تحدثت عنهم بالتفصيل في كتابي عن صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس، ومما يضاف إلى جهوده

(١) الدعوة إلى الإسلام، توماس آرنولد ص١١١ .
(٢) دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٣٧١).
(٣) الروضتين في أخبار الدولتين (٢/ ٧٤).
(٤) دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٣٧١).
(٥) النوادر السلطانية ص٥٥ .
(٦) دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٣٧٢).
(٧) النوادر السلطانية ص١٣٩ .
(٨) دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٣٧٤).

غير المباشرة في دعوة النصارى توسعه في إنشاء المدارس خصوصًا في مصر، والتي كان لعلمائها والدارسين فيها دور كبير في دعوة النصارى في هذه الفترة، ولقد تأثر الكثير من قادة النصارى بأخلاق صلاح الدين وتسامحه وعفوه وحِلْمه، وقد بيَّن صاحب قصة الحضارة بعد أن نقل نماذج من نبل صلاح الدين وكرمه وأخلاقه إعجاب كثير من المؤرخين النصارى بهذا البطل المسلم بل ودهشتهم، كيف يخلق الدين الإسلامي -الخاطئ في ظنهم- رجلًا من العظمة إلى هذا الحد؟![١]، وبعد حياة حافلة بالجهاد والدعوة توفي رحمه الله في صفر سنة (٥٨٩هـ) ودفن في دمشق[٢].

(ب) جهود الملك العادل: وممن له جهود واضحة في مواجهة النصارى ودعوتهم في هذه الفترة من الولاة والقادة الملك العادل محمد بن أيوب بن شادي بن مروان بن يعقوب الدويني التكريتي أخو صلاح الدين، الذي ولد سنة (٥٣٤هـ) في بعلبك؛ إذ كان والده نائبًا فيها لزنكي بن آقسنقر، وعندما شبَّ خدم أخاه صلاح الدين في كثير من المهام فولاه نيابة مصر ثم دمشق، وبعد موت صلاح الدين ونشوب الصراع بين ولديه الملك الأفضل والملك العزيز استطاع أن يستولي على الحكم الأيوبي، قال ابن كثير: كان العادل حليمًا صفوحًا صبورًا على الأذى، كثير الجهاد بنفسه ومع أخيه، حضر معه مواقفه كلها أو أكثرها في مقاتلة الفرنج[٣]، وقال أيضًا: .. من خيار الملوك وأجودهم سيرة، ودينًا، وعقلًا، و كان صبورًا وقورًا أبطل المحرمات، والخمور والمعازف من مملكته، وقد كانت ممتدة أقصى بلاد مصر واليمن والشام والجزيرة إلى هَمْذان كلها[٤]، وكانت له جهود واضحة في مواجهة الفرنج ودعوتهم، قال ابن كثير عن ذلك: فقد كان كثير الجهاد بنفسه ومع أخيه[٥]، ثم جهاده بعد ذلك النصارى وهزيمته لهم في عدة مواقع كما في مرج عكا وفتح يافا سنة (٥٩٣هـ) وغير ذلك.

يضاف إلىٰ جهوده في هذا المجال محادثاته ومراسلاته واجتماعاته الكثيرة مع قادة الفرنج ورسلهم خصوصًا في حكم أخيه صلاح الدين، وما أسفرت عنه هذه الجهود لصالح الإسلام والمسلمين، ومن ذلك مثلًا لقاءاته الكثيرة،بملك الإنجليز ممثلًا لأخيه صلاح الدين وقيامه بمساعي الصلح معه وفق الشروط التي وضعها المسلمون[٦]؛ حيث أسفرت هذه اللقاءات والمحادثات عن تنازل الصليبيين عن القدس وعدم مطالبتهم بها والاكتفاء بالزيارة والحج إلى بعض الأماكن المقدسة لديهم فيها[٧]، وكذلك لقاؤه بابن الهنفري وهو من أكابر ملوكهم وأولاد

---

(١) المصدر نفسه (١/ ٣٧٤).
(٢) البداية والنهاية (١٣/ ٨٦، ٨٧) دعوة المسلمين (١/ ٣٧٥).
(٣) البداية والنهاية (١٣/ ٨٦، ٨٧) دعوة المسلمين (١/ ٣٧٥).
(٤) همذان: بتسكين الميم مدينة باليمن في شماله الغربي قرب صعدة.
(٥) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٣٧٦).
(٦) النوادر السلطانية ص٢٧٤ .
(٧) النوادر السلطانية ص٢٩٠ .

ملوكهم وكان يجيد اللغة العربية، وغيرهم من قادتهم، ومحادثاته الكثيرة مع رسلهم وما أسفرت عنه مجموعة هذه اللقاءات والمراسلات والمحادثات من تغير فكرة كثير من النصارى الفرنج للمسلمين، والتخفيف من روحهم العدائية الشديدة تجاه المسلمين، مما كان له أثره في إزالة بعُض عوائق الدعوة الموجهة إليهم، وكانت وفاة الملك العادل -كما مرَّ معنا- سنة (٦٢٥هـ) حيث دُفن في دمشق(١). هؤلاء من أشهر القادة ممن قام بالدعوة إلى الإسلام في عصر الحروب الصليبية وغيرهم كثير.

(ج) **جهود يوسف بن تاشفين في المغرب الإسلامي**: قال عنه ابن الأثير: وكان يوسف بن تاشفين حليمًا، كريمًا، دينًا خيِّرًا، يحب أهل العلم والدين ويُحكِّمهم في بلاده(٢)، وقد تزعم دولة المرابطين وكان من أبرز أعماله في مواجهة النصارى نجدته للمسلمين في الأندلس إثر زحف النصارى على الممالك الإسلامية هناك نتيجة لتناحر الطوائف وضعف المسلمين، فكان له مع النصارى الوقائع المشهورة، وكان على يديه إعادة توحيد الأندلس ودفع الخطر النصراني الزاحف، ومن أشهر وقائعه معهم معركة الزلاقة سنة (٤٧٩هـ) التي هزم فيها الأذفونش ملك الإفرنج في الأندلس، وأظهر الله الإسلام وأعز أهله(٣)، قال الذهبي عن هذه المعركة: ثارت الفرنج بالأندلس فعبر ابن تاشفين ينجد المسلمين فطعن العدو(٤)، ثم تتالت بعد ذلك معاركه مع النصارى، والتي وحَّد بها الأندلس وأعاد بها هيبة المسلمين هناك، ولتأكيد عزمه على إعادة نشر الإسلام في الأندلس وجهاد الإفرنج هناك كتب على عملته قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥](٥) وكانت وفاته في مراكش (٥٠٠هـ)(٦).

(د) **جهود عبد المؤمن بن علي في عهد دولة الموحدين**: ومن الولاة في غرب الدولة الإسلامية الذين كان لهم جهد في دعوة النصارى وجهادهم الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي بن يملي بن مروان من قيس عيلان(٧)، والذي تولى الخلافة سنة (٥٢٤هـ) وكان عاقلًا حازمًا، سديد الرأي، حسن السياسة للأمور، كثير البذل للأموال(٨)، كان له اهتمام كبير لمراقبة عُمَّاله ونصحهم ومعاقبة المسيء منهم، مع حثه إياهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأخذ على أيدي السفهاء حتى أنه عزل ابنه عن ولاية العهد لما ظهر عليه من أمور مُخلَّة بالكرامة(٩)، ومن جهوده في مواجهة الفرنج ودعوتهم مهاجمته بعض حصونهم في الأندلس على

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك (١/ ١٩٠).
(٢) الكامل في التاريخ (٩/ ٥٣١).
(٣) الأنيس المطرب ص١٤٥ .
(٤) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٢٥٣).
(٥) الأنيس المطرب ص١٥٧ .
(٦) المصدر نفسه ص١٣٧، دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٣٨٦).
(٧) دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٣٨٨).
(٨) الكامل في التاريخ (٩/ ٢٩٩) دعوة المسلمين (١/ ٣٨٩).
(٩) البيان المغرب، قسم الموحدين ص٧٨ .

يد أحد قواده سنة (٥٥٠هـ) واسترداده للمرية[١] من أيديهم بعد زحفهم عليها إثر تضعضع أحوال المرابطين في الأندلس وذلك سنة (٥٥٢هـ)، كذلك طرد الفرنج من المهدية سنة (٥٥٨هـ)، وإحسانه إلى أسراهم وترغيبهم بالإسلام ودعوتهم إليه[٢]، وقد كانت وفاته في سلا[٣]سنة (٥٥٨هـ) حيث حُمل إلى تيفل[٤] ودُفن بها.

وكان لحفيده يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الذي ولد سنة (٥٥٣هـ)[٥] جهود واضحة في هذا المجال، فمن جهاده للنصارى قدومه بنفسه إلى الأندلس سنة (٥٩١هـ)، ومواجهة النصارى في عدة مواقع ثم هزيمته للفرنج في معركة الآراك التي شبهها بعض المؤرخين بمعركة الزلاقة لقوتها وأهميتها وأثرها في إعادة هيبة المسلمين في الأندلس، ثم ما تلاها من غزوات قام بها رحمه الله سنة (٥٩٢هـ) قال صاحب البيان المغرب عن أثر بعض جهود المنصور في نشر الإسلام بالأندلس: .. واصطكت في هذه الحصون المذكورة دعوة الإسلام، وتقوضت في أسبوع واحد ملة الكفر بشريعة محمد عليه الصلاة والسلام[٦]، ولذلك لما رأى فرنج الأندلس تقدم أبي يوسف واكتساحه لكثير من حصونهم وعدم توانيه في ذلك كفوا أذاهم عن المسلمين، بل طلبوا الصلح على ما اشترطه أبو يوسف[٧]، ولشعوره رحمه الله بحال المسلمين في الأندلس في مقابل النصارى، وخشيته على الأندلس من زحفهم عليها، وحرصه على مجاهدتهم فيها - أوصى مَن بعده في مرض وفاته بالاهتمام بذلك وإبلائه القدر الأكبر من العناية، فكان من قوله: .. أوصيكم بالأيتام واليتيمة: الأندلس، والأيتام: هم المسلمون فيها مقابل النصارى، وكانت وفاته رحمه الله في مراكش سنة (٥٩٥هـ)[٨].

وهكذا كان لبعض الولاة والقادة في غرب الدولة الإسلامية دور مهم في الحفاظ على الكيان الإسلامي وتوحيد كلمة المسلمين هناك، ودعم المسلمين في الأندلس، وإيقاف زحف النصارى عليها، إضافة إلى جهودهم غير المباشرة والمتمثلة في التمكين للعلماء ونشر العلم، ولا يخفى أثر ذلك في نجاح الجهود الدعوية بشكل عام، ومنها الجهود الموجهة إلى النصارى[٩].

٢- العلماء: في عصر الحروب الصليبية كان العلماء يقومون بهذه المهمة خير قيام، فنبغ الكثير من العلماء في مختلف العلوم وشعروا بمسئوليتهم في الدعوة بشكل عام، ودعوة النصارى

---

(١) المرية: مدينة في جنوب شرق أسبانيا على البحر المتوسط.
(٢) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٣٩٠).
(٣) سلا: مدينة مغربية، تقع حاليًا على ساحل المحيط الأطلسي.
(٤) تيفل وتسمى حاليًا تافيلت؛ مدينة تقع في الوسط الشمالي لدولة المغرب.
(٥) البيان المغرب، قسم الموحدين ص٧٩ .
(٦) دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٣٩١).
(٧) المصدر نفسه (١/ ٣٩١).
(٨) المصدر نفسه (١/ ٣٩٢).
(٩) المصدر نفسه (١/ ٣٩٢) نقلًا عن دعوة المسلمين للنصارى.

على وجه الخصوص، فبذلوا جهودًا مشكورة في سبيل ذلك من خلال الجهاد، والتعليم، والتأليف، والكتابة، والردود، وغير ذلك[1]، وممن له جهود في دعوة النصارى في عهد الحروب الصليبية:

(أ) نصر بن يحيى بن عيسى بن سعيد المتطبب: والذي عاش بعد سنة (٤٤٩هـ) ومن خلال كتابه النصيحة الإيمانية وبعض الترجمات اليسيرة عنه يتضح أنه نصراني يعمل بالطب، ثم أسلم بعد بحث ونظر، ويرجح أحد الباحثين أن نصر هذا هو نفسه الذي ترجمت له بعض المصادر باسم يحيى بن يحيى بن سعيد المتطبب النصراني، المتوفى بالبصرة سنة (٥٨٩هـ) وقد تمثل جهد نصر بن يحيى بعد إسلامه في دعوة النصارى شعوره بمسئوليته في دعوة قومه، فاستغل معرفته بدياناتهم واطلاعه على تحريفاتهم وشبهاتهم فألّف كتابًا في ذلك: وحيث أنقذني الله من الشريعة التي نُسخت والملة التي طُمست، وشرفني الله بدين الإسلام ... أحببت أن أذكر نبذًا من أحوال النصارى[2]، حيث ذكر في هذا الكتاب نبذًا من أحوال النصارى وفرقهم ومذاهبهم وأناجيلهم، وأبرز معتقداتهم التي أوضح أنه لا يعوّل عليها، وليس لها أصل أو برهان أو حجة تقوم عليها[3]، ثم وجه هذا الكتاب ابتداء إلى علمائهم ومقدميهم لعلهم يرجعون عن ضلالهم وغيِّهم وطغيانهم[4].

(ب) محمد بن عمر بن الحسين بن علي الرازي: وكان من جهوده في دعوة النصارى في هذه الفترة مناظراته الكثيرة معهم، والتي منها مناظرته المشهورة مع أحد قساوسة أصبهان، وكان في مناظراته مع النصارى ظاهر الحجة واضح البرهان، لا يجرؤ كثير منهم لذلك على التصريح بمعتقده أمامه حتى قيل عنه: وما من نصراني رآه إلا وقال: أيها الفرد لا نقول بالتثليث بين يديك[5]. ومما يضاف إلى جهوده في هذا المجال عرضه لعقائد النصارى وبيانها والرد عليها وذلك في بعض كتبه، وإسهامه في ذلك في تفسيره بعض الآيات التي تتحدث عن النصارى حيث يعرض الكثير من عقائدهم وشبهاتهم مبطلًا ومفندًا لها، وقد كانت وفاة الرازي يوم عيد الفطر سنة (٦٠٦هـ).

(ج) صالح بن الحسين بن طلحة الجعفري: كان مولده بمصر سنة (٥٨١هـ)[6]، وكان الجعفري كثير المناظرة لرهبان النصارى؛ حيث يدل على ذلك بعض الإشارات في كتبه، ومن ذلك مثلًا قوله: ولقد فاوضني بعض الرهبان ممن يدعي بيانًا في البيان[7]، قوله: لقد فاوضت

(١) دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٣٩٣).
(٢) النصحية الإيمانية ص٥١، دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٤٠٢).
(٣) دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٣٩٤).
(٤) المصدر نفسه (١/ ٤٠٣).
(٥) طبقات الشافعية للسبكي (٨/ ٨٤).
(٦) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٥٠١).
(٧) النجوم الزاهرة (٦/ ٩٨).

بعض النصارى فيما يتعلق بألفاظ النبوة[(١)]، وقوله قلت لنصراني من عقلائهم[(٢)] ومن جهود الجعفري في هذا المجال اهتمامه بما يصدر عن نصارى الفرنج تجاه المسلمين وتصديه لشبههم والرد عليها وتفنيدها، ففي كتابه (الرد على النصارى) أشار إلى الدافع له لتأليفه أسئلة وردت من الفرنج يمتحنون بها المسلمين؛ إذ يقول: وقفت على مسائل ذُكر أن الفرنج بعثوا بها يمتحنون أهل الإسلام، فنظرت فيها، فإذا هي خالية من الفوائد الدينية عاطلة عن المنافع الدنيوية[(٣)]

أما التأليف في هذا المجال فكان للجعفري الجهد الواضح فيه دعوة لهم، وردًّا على شبههم، وبيانًا للحق الذي اشتبه على كثير من عامتهم؛ حيث استشعر هذه المهمة الجليلة في دعوة النصارى، فبين أن من أسباب تأليفه مثلًا لكتاب تخجيل من حرَّف التوراة والإنجيل هو رجاء هدايتهم، فعسى الله أن يقدر هدية بعضهم، ونحن مأمورون بدعائهم إلى سبيل ربنا بالحكمة والموعظة الحسنة[(٤)]، ومما دفعه إلى التأليف أيضًا تعليم الحجة في الرد عليهم، وإلزامهم بمقتضى أصولهم، وهذا مما يعين على دعوتهم[(٥)]، مع ما في ذلك من ترسيخ لإيمان المسلم بإظهار الآيات من كتبهم التي توافق القرآن، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧][(٦)]، وكثرة الأدلة توجب الطمأنينة وتثلج الصدر[(٧)]، ولهذا الغرض الجليل المتمثل في دعوة النصارى إلى الإسلام وردِّ شبههم، وكشف باطلهم لمن حجب عنه الحق منهم أن يعرفه -قام الجعفري بتأليفه عدد من الكتب منها: تخجيل من حرّف التوراة والإنجيل، وكتاب الرد على النصارى، وكتاب الواضح المشهود في فضائح النصارى واليهود، ومما يضاف إلى جهود الجعفري في دعوة النصارى إلى الإسلام اعتماد الملك الكامل عليه في بعض الأحيان للرد على أسئلة النصارى ومناقشتهم، فعندما أرسل ملك الروم رسالة إلى الملك الكامل سنة (٦١٨هـ) متضمنة بعض الأسئلة للمسلمين كان ممن كُلِّف بالإجابة عليها الجعفري[(٨)]، وقد كانت وفاته رحمه الله سنة (٦٦٨هـ) بالقاهرة، حيث دُفن بالمقطم[(٩)]

(س) أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن الضهاجي القرافي: كانت له جهود كبيرة في مناظرته الكثيرة معهم والرد على شبههم ودعمه للسلطة في وقته في مواجهتهم، ومما يدل على كثرة مناظرته مع النصارى قوله في أحد كتبه: اتفق لي مع كثير منهم في المناظرة أني أطالبه

(١) تخجيل من حرّف التوراة والإنجيل (١/ ٢٥٠).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٢٣٣).
(٣) المصدر نفسه (١/ ٣٥٣).
(٤) الرد على النصارى ص٥٦
(٥) دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٤١٠).
(٦) دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٤١٠).
(٧) المصدر نفسه (١/ ٤١٠).
(٨) دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٤١١).
(٩) المصدر نفسه (١/ ٤١١).

بتصوير مذهبه كيف يمكن إقامة الدليل عليه[١]، وقد اعتنى رحمه الله بالرد على شبههم، ومن ذلك تخصيص الباب الثاني في كتابه الأجوبة الفاخرة في الرد عليها وتفنيدها حيث قال: الباب الثاني في أسئلة لأهل الكتاب النصارى واليهود عادتهم يتولعون بإيرادها ... والجواب عنها[٢]، ومن مشاركته ودعمه للسلطة في وقته في مواجهة النصارى ودعوتهم تأليفه كتاب (أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية) وإهدائه للملك الكامل الذي كان الصراع العسكري والفكري في وقته على أشده مع الصليبيين، وقد قال القرافي في ذلك: ... فرأيت أن أؤلف لمولانا السلطان -أعزه الله تعالى- في الرد عليهم كتابًا أتحفه فيه بغريبه وأنفرد فيه بطريقة عجيبة، أجمع فيه مذاهبهم على جليتها وأخاطبهم بنصوص نصوصهم وأجادلهم بها مجادلة الأقران، وأبارزهم على نقضها مبارزة الشجعان[٣].

والقرافي كان مستشعرًا لأهمية الدعوة إلى الإسلام بشكل عام، وأن الذبَّ عن الدين والدعوة إليه أسمى ما تصرف فيه الهمم؛ حيث قال: أجلت طرف الفكر ميدان النظر أي فن أقصد إليه، وأرجو من الله أن يثيب عليه، فظهر لي أن أولى ما تصرف إليه الهمم، وتتفاوت فيه القيم، وتتنافس فيه الأفاضل، وتتميز به المفضول من الفاضل -الذب عن حوزة الدين وحراسة بقية المسلمين بالبحث في الملل والأديان، وإقامة الدليل على وحدانية الملك الديان[٤]، ثم وضح القرافي أن أولى مَن يُدعى إلى ذلك هم النصارى حيث قال: فنظرت في أهل الشرائع والمذاهب، وتفكرت فيمن هو فيها عن التوحيد ذاهب، فلم أجد سوى مذهب النصارى الضالين الحيارى[٥]. ومن الكتب أيضًا التي ألفها القرافي في هذا المجال كتاب (الأقوال القديمة في حكم النقل من الكتب القديمة)، وبعد حياة حافلة بالعلم والدعوة تُوفي القرافي في جمادى الآخرة من سنة (٦٨٤هـ)[٦] بالقاهرة، رحمه الله رحمة واسعة.

(ش) **أحمد عبد الصمد بن أبي عبيدة الخزرجي**: عرف منذ شبابه بالذكاء والحفظ وكانت له عناية بالحديث والتواريخ[٧]، وله جهود مشكورة في دعوة النصارى من خلال كتاباته في عقائدهم ومناظراته معهم، والرد على شبههم، ومن ذلك أنه كان أحد قساوسة طليطلة الإفرنج يثير الشُّبه ويلقيها بين المسلمين لزعزعة ثقتهم في دينهم، وكانوا يحارون في الإجابة عنها حتى هيَّأ الله لهم أبا عبيدة، فكان المسلمون يأتون إليه ليجيب على أسئلة القسيس وشُبهه، فيتصدى أبو عبيدة لذلك، فتزول شبهتهم ثم يحملون الإجابة ليلقمونه حجرًا ويفندون حججه ويبطلون إدعاءاته[٨]، وكانت لأبي عبيدة جهود مباشرة في النقاش والردود والدعوة لقساوسة النصارى في

(١) الأجوبة الفاخرة ص١١١ .
(٢) الأجوبة الفاخرة ص٣ .
(٣) أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية ص٤١٤ .
(٤) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٤١٤).
(٥) المصدر نفسه (١/ ٤١٤) أدلة الوحدنية ص٢٠ .
(٦) الديباج المُذهَّب في معرفة أعيان المَذْهب (١/ ٢٣٩).
(٧) المصدر نفسه (١/ ٢١٥، ٢١٦).
(٨) مقامع هامات الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان ص٥٣ .

الأندلس، منها على سبيل المثال: رسالته إلى أحد قساوسة طليطلة ردًّا على رسالة بعث بها هذا القسيس إليه يدعوه فيها إلى النصرانية ويثير فيها بعض الشبه حول الإسلام، حيث أرسل له أبو عبيدة رسالة يدعوه فيها إلى الإسلام ويظهر له مثالب النصرانية وتحريفها، ويزيل الشبه التي تعلق بها هذا القسيس للطعن في الدين الإسلامي(١).

ومما يضاف إلي جهود أبي عبيدة في هذا المجال تأليفه للكتب التي توحي عناوين بعضها بأنها مجابهة لحرب فكرية أثارها النصارى في الأندلس ضد الإسلام والمسلمين في وقته، ومن هذه الكتب: مقامع هامات الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان(٢)، وكتاب مقام المدرك في إفحام المشرك، وكتاب مقصد السبيل في معرفة آيات الرسول، وكتاب آفاق الشموس وأعلاق النفوس، والأخير في أحكام النبي ﷺ، وكانت لأبي عبيدة رحمه الله مشاركة في الجهاد العسكري ضد النصارى حتى أنه أُسر في طليطلة سنة (٥٤٠هـ) وبقي في الأسر إلى سنة (٥٤٢هـ)، وكان خلال فترة أسره يحاور النصارى ويناقشهم ويملي الحجة على المسلمين الذين في الأسر معه لمواجهة شُبه النصارى وإدعاءاتهم، وبعد فكاك أبي عبيدة من الأسر ودعمًا منه للجهود المبذولة في مواجهة النصارى جمع بعض ردوده ومناقشاته معهم في عدة نسخ ووضعها بأيدي المسلمين الذين لا يزالون تحت الأسر في طليطلة، حيث قال صاحب كتاب الذيل والتكملة عن ذلك: . . . وتركه في نسخ بأيدي جماعة من المسلمين المبتلين بالأسر هناك لما يسَّر الله في تخلصه(٣). وقد كانت وفاة أبي عبيدة في فاس سنة (٥٨٢هـ)(٤).

(ع) **محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي**: كان من علماء المغرب الإسلامي الذين لهم جهود في دعوة النصارى، نشأ في قرطبة بالأندلس وأخذ من علمائها، ثم هاجر إلى المشرق واستوطن مصر حيث كانت وفاته في منية الخصيب بصعيد مصر سنة (٦٧١هـ)(٥)، وكان القرطبي محدِّثًا، فقيهًا، مفسِّرًا، متبحرًا في كثير من العلوم، وكان ورعًا زاهدًا، متعبدًا، عمَّر أوقاته بين العبادة والتصنيف؛ حيث خلف العديد من المؤلفات القيمة، من أشهرها: كتابه في التفسير: الجامع لأحكام القرآن، والأسنى في أسماء الله الحسنى، والتذكار في أفضل الأذكار، والتذكرة بأحوال الموتى وأحوال الآخرة، إلى غير ذلك(٦).

وفيما يتعلق بدعوة النصارى فله اهتمام كبير في هذا الجانب يتمثل في حرصه على الرد عليهم وكشف ضلالهم وإزالة شبهاتهم، ومن ذلك رده على قسيس طليطلة الذي بعث بكتاب إلى

---

(١) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٤٢٠).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٤٢٠).
(٣) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، القسم الأول ص٢٤٠ .
(٤) فاس: مدينة في شمال المغرب أسسها إدريس الثاني سنة (١٩٣هـ).
(٥) نفح الطيب من غصن الأندلس الطيب (٢/ ٢١٠-٢١٢).
(٦) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٤٢١).

المسلمين في قرطبة أسماه (تثليث الوحدانية)[١] بالإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، حيث ناقش القرطبي في كتابه الإعلام فصلًا بيَّن فيه أن السبب الذي دفعه إلى ذلك هو خشيته من تلبيس قسوسهم الذين يكتبون حول بعض تشريعات الإسلام وهم لا يحسنون ذلك فيقرأها إخوانهم في الديانة فيفهموا الإسلام على غير وجهه الصحيح[٢]، إضافة إلى أنه وضع هذا الفصل ليطلع عليه النصارى فيفهمون الإسلام على الوجه الصحيح ليكون أدعى إلى اعتناقهم إياه[٣].

سابعًا: وسائل الدعوة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية:

تنوعت وسائل الدعوة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية إلى وسائل متنوعة منها:

١- **الكتب**: في فترة الحروب الصليبية كان الكتاب من أهم وسائل الدعوة الموجهة إلى النصارى، وكان له أثره في إبطال شبههم، وفضح ضلالاتهم، وكشف تلبيس مبطليهم، وبيان الحق الذي عُمّي على عامتهم، ومن الأمثلة على ذلك كتاب (الأجوبة الفاخرة على الأسئلة الفاخرة) للقرافي؛ حيث كان السبب الأول الذي دفعه لتأليف هذا الكتاب رسالة بعث بها أحد النصارى يقيم الحجج فيها على صحة دينه[٤]، ومثله كتاب القرطبي (الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام وإثبات نبوَّة محمد عليه الصلاة والسلام)؛ حيث كان الدافع الأول لتأليف القرطبي هذا الكتاب كتاب بعث به أحد قساوسة النصارى في طليطلة بالأندلس أسماه (تثليث الوحدانية)[٥] فحرك ذلك القرطبي لتأليف كتابه ردًّا على كتاب القسيس متتبعًا له ومناقشًا ما أورده فيه من شبه، ومبطلًا ما اعتمدوا عليه في ديانتهم وعقائدهم، ومن الكتب التي كان السبب المباشر في تأليفها كتابات لبعض النصارى بعثوا بها إلى المسلمين، كتاب الرد على النصارى لصالح بن الحسين الجعفري[٦]، وكذلك من الكتب ردّ أبي عبيدة الخزرجي على شبهات قسيس طليطلة وتفنيدها، وردود بعض علماء الأندلس على رسالة ابن غورسيه النصراني في ذم العرب والمسلمين والتي كثر تداوالها في الأندلس في هذه الفترة؛ حيث ألف بعض العلماء في الرد عليه منهم: محمد بن مسعود بن طيب بن أبي الخصال، وكان رده بعنوان (خطف البارق وقذف المارق في الرد على ابن غورسيه المارق)[٧].

وهناك نوع آخر من الكتب التي ألفها علماء هذه الفترة بمبادرة منهم وذلك دعمًا للسلطة في مواجهة النصارى ودعوتهم، ومن هذه الكتب كتاب أدلة التوحيد في الرد على النصرانية

---

(١) المصدر نفسه (١/ ٤٢١).
(٢) دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٤٢٢).
(٣) المصدر نفسه (١/ ٤٢٢).
(٤) الأجوبة الفاخرة ص٣ .
(٥) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص٤٣ .
(٦) دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٤٤٨).
(٧) المصدر نفسه (١/ ٤٥٠).

لأحمد بن إدريس القرافي، ومن الكتب في هذه الفترة من ألَّفها بعض العلماء ابتداء رجاء هداية النصارى من خلال مناقشة عقائدهم وبيان بطلانها وإيضاح الحق الذي اشتبه على كثير من عامتهم بسبب تلبيس قساوستهم، ومن الأمثلة على هذا النوع من الكتب كتاب تخجيل من حرَّف التوراة والإنجيل لصالح بن الحسين الجعفري[١]، وغيرها من الكتب الكثيرة التي ناقشت قادة الرأي ورجال الدين النصارى كرسالة أبي عبيدة الخزرجي إلى قسيس طليطلة، وكتاب الواضح المشهود، ولها أثرها أيضًا من جهة أن بعضها كان ردًّا مباشرًا على قضايا معينة أثارها النصارى في هذه الفترة وكان لها رواج، فكان الرد على مثل هذه القضايا له انتشاره وأثره على العامة من النصارى الذين راجت عندهم، فوصل إليهم الرد والشبه عالقة في أذهانهم، فكان أدعى إلى تفنيدها وإزالتها، وذلك مثل ردِّ أبي الخصال وغيره على رسالة ابن غورسيه، ورد القرافي في كتابه الأجوبة الفاخرة على أسئلة تعوَّد النصارى إثارتها وترويجها في هذه الفترة.

ولهذه الكتب أيضًا أثرها في عمق التأثير في القارئ بل وفي طبقات المجتمع النصراني بشكل عام في هذه الفترة، وذلك لكونها أطول بقاءً وأوسع انتشارًا وأسهل تداولًا، فالمحاضرة والخطبة والمناظرة وغيرها في ذلك الوقت يبقى تأثيرها محدودًا من حيث وصول أثرها للحاضرين في وقتها، أما الكتاب وإن كان تأثيره بطيئًا فإن أثره عميق، لكونه يتُداول في المجتمع النصراني بمختلف طبقاته فيتسرب لذلك أثره إلى هذه الطبقات؛ إما بإسلام البعض، أو بإزالة شبهة قائمة حول الإسلام، أو بتشويش ما لديهم من قناعات حول معتقدهم[٢].

٢- **وسيلة الجهاد**: وفي عصر الحروب الصليبية كان الجهاد في سبيل الله من أهم وسائل الدعوة الموجهة إلى النصارى، وقد تحدثت في كتبي السابقة عن السلاجقة والزنكيين وصلاح الدين عن هذه الوسيلة بنوع من التفصيل، ولقد ساهمت وسيلة الجهاد لإتاحة أعداد كبيرة من النصارى الأوربيين المقاتلين في الجيوش الصليبية الاحتكاك بالمسلمين ومعرفة بعض معتقداتهم وأخلاقهم، وما يتميز به كثير من القادة المسلمين؛ من عدل ورحمة وعطف، هذه الصفات التي تعكس الأخلاق الإسلامية وتعطي صورة صادقة عن سماحة الإسلام، الأمر الذي جعل أعدادًا كبيرة من أفراد هذه الحملات يعتنقون الإسلام، بل إن بعض قادتهم أقسم ألا يقاتل المسلمين لما رآه من عدل وإنصاف لدى بعض القادة، وكثيرون منهم تبدلت عدواتهم إلى محبة للمسلمين بسبب حسن المعاملة التي وجدوها من قِبل الجيوش الإسلامية.

وللجهاد أثر واضح في دعوة النصارى من ناحية كونه أتاح الكثير من الاتصالات بين قادة الفريقين سواء عن طريق الرسل أو من خلال الرسائل والمكاتبات أو الاجتماعات المباشرة[٣]،

---

(١) دعوة المسلمين النصارى (١/ ٤٥١).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٤٥٢).

(٣) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٤٦٥).

ومن أعظم آثار وسيلة الجهاد في هذه الفترة تجاه النصارى أنها أظهرت عزة المسلمين وقوتهم أمام أعدائهم، وجعلتهم أمة مرهوبة الجانب تحطمت على صمودها وقوتها حملات الصليبيين المتعاقبة، مما جعل كثيرًا من عامة النصارى خاصة في أوربا تتزعزع قناعاتهم بصحة ما هم عليه، ويفقدون الثقة برجال دينهم الذين وعدوهم بالنصر والغفران والسعادة(١)، فحينما عاد جماعة من النصارى المشاركين في إحدى الحملات الصليبية أخذوا يدعون إلى التحرر من سلطة رجال الدين لديهم وأعلنوا أنه: لو اجتمعت الباباوات والكرادلة من أولهم إلى آخرهم على أن يضعوا عن مخلوق ذنبًا واحدًا ما قدروا، بل الله يغفر الذنوب(٢)، بل إن أعدادًا كثيرة من النصارى في أوربا أخذوا يصرحون أن إخفاق الحملات الصليبية يدحض ما يدعيه البابا من أنه نائب عن الله أو ممثل له في أرضه(٣).

ولما أخذ الرهبان في أوربا يدعون إلى إحدى الحملات الصليبية المتأخرة ويسألون الناس بذل المال دعمًا لها، كان كثير من النصارى يسخرون منهم حتى أنهم أخذوا يوزعون المال على الفقراء باسم محمد ﷺ من قبيل السخرية بالرهبان؛ لأن محمدًا ﷺ قد ظهر أنه أعظم قوة من المسيح في هذه الحروب(٤)، وقد بيَّن أحد الكتاب الغربيين أن من أهم نتائج فشل الحملات العسكرية الصليبية -والتي كان الجهاد في سبيل الله السبب المباشر في ذلك- أن هذا الفشل بعث كثيرًا من العقول في أوربا على التفكير، وكان سببًا في إضعاف العقائد الدينية المستقرة لدى النصارى في القرنين الثالث والرابع عشر(٥).

٣- **وسيلة الرسل**: في عصر الحروب الصليبية اعتمد المسلمون كثيرًا على الرسل في اتصالاتهم مع النصارى خصوصًا مع الصليبيين، فمن خلالهم نُقلت وجهات النظر الإسلامية إلى النصارى حيال كثير من الأمور التي كانت مدار خلاف بين الطرفين في هذه الفترة، وعن طريقهم تبدلت مواقف كثير من النصارى العدائية تجاه الإسلام والمسلمين، ولدورهم الفعال تحققت الكثير من المصالح للمسلمين في مواجهة النصارى ودعوتهم خصوصًا إذا كان لهؤلاء الرسل مجال في المفاوضة والمحاورة والنقاش(٦).

٤- **وسيلة المسجد**: في عصر الحروب الصليبية كانت المساجد من وسائل الدعوة الموجهة إلى النصارى؛ حيث يظهر ذلك من خلال كونها معلمًا من معالم المدن الإسلامية، فمن أول ما يلفت نظر غير المسلم الزائر للمدينة الإسلامية هذه المساجد التي لم يعتد رؤيتها في بلاده،

---

(١) المصدر نفسه (١/ ٤٦٧).
(٢) أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوربي خلال الحروب الصليبية ص١٤٥ .
(٣) قصة الحضارة (٤/ ٦٧).
(٤) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٤٦٧).
(٥) دعوة المسلمين للنّصارى (١/ ٤٦٧).
(٦) المصدر نفسه (١/ ٤٧٠).

فيطرح ذلك بعض الأسئلة في ذهنه والتي ربما تقوده إلى البحث ومحاولة التعرف على الإسلام، فالمساجد من هذه الناحية أول منادٍ يدعو إلى الإسلام لغير المسلم الذي يشاهدها لأول مرة، وهذا هو حال كثير من النصارى القادمين مع الحملات الصليبية الذين لم يعتادوا رؤية المساجد من قبل في بلادهم، وفي المساجد يرفع الأذان الذي يتضمن تمجيدًا لله سبحانه وتعالى وتوحيدًا له وإعلانًا بنبوة محمد ﷺ، وفي ذلك نقض لعقيدة التثليث لدى النصارى، ورد على تكذيبهم بنبوة محمد ﷺ، ولا شك أن سماع النصارى للأذان وتكراره في اليوم خمس مرات على مسامعهم فيه دعوة مباشرة لهم بالتوحيد والإيمان بنبوَّة محمد ﷺ بغض النظر عن الاستجابة(١)، وكانت هناك مساجد كثيرة بأيدي المسلمين منفردين في الصلاة فيها وهي تحت الحكم النصراني، وقد بقيت على حالها، وهذا ما أشار إليه ابن جبير في مدينة صور وهي تحت الحكم الصليبي حينما زارها حيث قال: وكانت راحتنا مدة مقامنا بصور بمسجد بقي بأيدي المسلمين، ولهم فيها مساجد أخرى(٢).

كذلك ارتياد النصارى لبيت المقدس واختلاطهم بالمسلمين فيه وتعودهم رؤية المسلمين يؤدون صلاتهم فيه، أدى إلى تبدل نظرة الكثيرين منهم إلى المسلمين من نظرة متعصبة حاقدة إلى نوع من المودة والاحترام، وقد أشار أسامة بن منقذ إلى شيء من ذلك فبينما كان يؤدي الصلاة في بيت المقدس متجهًا إلى مكة وحوله بعض الفرنج تقدم إليه أحدهم وصرفه عن القبلة، فمنعه آخرون منهم واعتذروا لأسامة، وأن هذا الرجل قدم حديثًا من البلاد ولم يتعود أن يرى مسلمًا يصلي متجهًا إلى مكة(٣)، لذلك استنتج هذه الملاحظات أسامة بنفسه حيث قال: فكل من هو قريب بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقًا من الذين قد تبلدوا وعاشروا المسلمين(٤).

وقد كان لبعض المساجد في بلاد المسلمين شأن وذكر، بل إنها استحوذت على بعض القادة المسلمين، وكون العناية بمثل هذه المساجد وسيلة لكسب المسلمين الخاضعين لسيطرتهم، ومن ذلك مثلًا مسجد القسطنطينية الذي دارت بشأنه العديد من السفارات بين صلاح الدين وإمبراطور الروم والذي كان يبدي اهتمامه وعنايته بهذا المسجد؛ حيث أرسل صلاح الدين من أجل ذلك سفارة تضم إمامًا وخطيبًا للمسجد، وكان لذلك أثره في إبراز صورة الإسلام في معقل من معاقل النصرانية، وقد قال ابن شداد عن ذلك: .. وكان يوم دخولهم -أي: سفارة صلاح الدين إلى القسطنطينية- يومًا عظيمًا من أيام الإسلام شاهده جمع كثير من التجار، ورقى

(١) المصدر نفسه (١/٤٧٧).
(٢) رحلة ابن جبير ص٢٧٩، دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٤٧٨).
(٣) الاعتبار، لابن منقذ ص١٣٤، ١٣٥ .
(٤) المصدر نفسه ص١٣٤، دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٤٧٨).

الخطيب المنبر، واجتمع إليه المسلمون المقيمون بها والتجار، وأقام الدعوة الإسلامية العباسية[١]. لقد قامت المساجد بدورها في دعوة النصارى إلى الإسلام العظيم.

٥- وسيلة الرسائل: في عصر الحروب الصليبية استطاع كثير من قادة المسلمين وعلمائهم إيصال الحق إلى النصارى من خلال الرسائل، وقد اختلفت موضوعات هذه الرسائل إلا أنها في النهاية في مجموعها لصالح المسلمين، فهي إما دعوة مباشرة للإسلام، أو بحث في أمر يهم المسلمين في مواجهة النصارى، أو أنها رسائل تحمل نوعًا من التلطف واللين مع قادة النصارى ومقدميهم درءًا لشرهم وكسبًا لقوة بعضهم ضد بعض، ومن الأمثلة على استخدام الرسائل من قِبل المسلمين تجاه النصارى في هذه الفترة رسائل صلاح الدين الكثيرة إلى بعض قادة الفرنج، والتي منها رسائله إلى ملك القسطنطينية في شأن إقامة خطبة الجمعة في القسطنطينية، وترتيب إقامة الصلاة فيها، وما يتعلق ببناء مسجد للمسلمين هناك؛ حيث تمَّ ذلك وكان قد أنفذ رحمه الله مع إحدى رسائله في هذا الشأن خطيبًا ومنبرًا وجمعًا من المؤذنين[٢].

ومن رسائل صلاح الدين إلى النصارى رسالته إلى ملك الإنجليز ردًّا على رسالة بعث بها الأخير إليه متضمنة المطالبة بتنازل المسلمين عن القدس وبعض البلاد الشامية، واسترجاع صليب الصلبوت المعظم عندهم، والذي غنمه المسلمون منهم في معركة حطين، فكان جواب صلاح الدين في رسالته على رسالة الملك الصليبي الرفض التام للحديث في شأن القدس أو التنازل عن شيء من أراضي المسلمين، أما تسليم صليب الصلبوت للنصارى فإن ذلك لا يكون إلا لمصلحة راجحة للإسلام[٣]، حيث قال في هذه الرسالة: ... هو عندنا -أي: القدس- أعظم مما هو عندكم، فإنه مسرى نبيِّنا ومجتمع الملائكة، فلا يتصور أن نتزل عنه ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين، وأما البلاد فهي أيضًا لنا في الأصل واستيلاؤكم كان طارئًا عليها لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت ... وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة ولا يجوز أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجحة إلى الإسلام هي أوفى منها[٤]. وهكذا كانت وسيلة الرسائل في هذه الفترة من الوسائل التي استخدمها المسلمون في إيصال الدعوة إلى النصارى[٥].

ثامنًا: أساليب دعوة المسلمين للنصارى:

في عصر الحروب الصليبية اهتم الدعاة المسلمون في جهودهم الدعوية المباركة الموجهة إلى

---

(١) النوادر السلطانية ص٢٠٢، دعوة المسلمين للنصارى (١/ ٤٧٩).

(٢) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (١/ ٤٨٥).

(٣) المصدر نفسه (١/ ٤٨٥).

(٤) النوادر السلطانية ص٢٩٠ .

(٥) دعوة المسلمين للنصارى (٣/ ٤٨٨).

النصارى بجانب الأساليب اهتمامًا كبيرًا؛ حيث ظهر ذلك جليًا من خلال تنوع هذه الأساليب وتعدد أشكالها واختلاف عرضها[١]:

١- الأساليب العقلية: غلب على العلماء المسلمين في عصر الحروب الصليبية استخدام الأساليب العقلية من سبر وتقسيم وأقيسة ومحاكمات عقلية وغيرها، ومن أبرز الأساليب العقلية التي استخدمها العلماء المسلمون في مناقشاتهم وردودهم ومناظراتهم مع النصارى:

(أ) أسلوب السبر والتقسيم: والسبر والتقسيم في الاصطلاح هو أن يحصر المعترض جميع الأوصاف المناسبة للحكم في الأصل ثم يبين إلغاءها وعدم صلاحيتها للتعليل[٢]، وقد كان هذا الأسلوب العقلي من أبرز الأساليب وأكثرها استخدامًا من قِبل العلماء المسلمين في نقاشاتهم وحواراتهم ومناظراتهم مع النصارى في عصر الحروب الصليبية، وذلك لما يتميز به من شمولية في تتبع الاحتمالات والاعتراضات التي يمكن أن يتعلق بها النصارى وإبطالها، وذلك في القضايا التي كانت مدار النقاش والبحث بين الفريقين، ومن الأمثلة على استخدام هذا الأسلوب مع النصارى إبطال الخزرجي في مناقشته لقسيس طليطلة حجة هذا القسيس على تجسيد الله في شخص المسيح؛ حيث ذكر هذا القسيس أن علة تجسد الله في شخص المسيح هي من أجل أن ينزل إلى الأرض ويكلم الخلائق بدون واسطة حتى تنقطع حجتهم[٣]، فأبطل الخزرجي هذه الحجة من خلال السبر والتقسيم بأن حصر الاحتمالات التي يمكن أن يكون من أجلها نزل الإله إلى الأرض متجسدًا في شخص المسيح، وبين عدم صحتها، الأمر الذي يهدم أساس هذه العقيدة التي يدين بها النصارى، فلا يخلو سبب هذا التجسد من أن الله -تعالى عما يقولون علوًّا كبيرًا- لم يحط علمه بما فعله أنبياؤه فهبط ليطلع على فعلهم وهذا محال، أو كان الأنبياء متهمين بمخالفة أمره سبحانه عمدًا فلم يؤدوا أمانة التبليغ وهذا محال، أو أنهم عجزوا عن أداء ما حُمِّلوا وضعفوا عن إظهار ما يؤكد صدقهم فنزل مؤيدًا لهم وهذا محال[٤]، فإذا انتفت هذه الاحتمالات التي يمكن أن تكون علة للتجسد انتفى معها حدوث التجسد الذي يدعيه النصارى ومن ثم بطلت هذه العقيدة التي يدينون بها ولم يبق لهم مستند فيها إلا الكذب بعد تهافت حججهم عليها[٥].

وفي مفاوضات صلاح الدين مع ريتشارد قلب الأسد عن طريق أخيه الملك العادل بيَّن الملك الإنجليزي لرسول الملك العادل أن ما جاء به بجحافله من بلاده إلا ثلاثة أمور إذا تحققت له رجع وترك بلاد المسلمين، وهذه الأمور هي القدس والصليب والبلاد التي زحف

(١) المصدر نفسه (١/ ٤٩٢).
(٢) شرح مختصر الروضة (٣/ ٤٩٢).
(٣) مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان ص٤٩٦ .
(٤) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٤٩٦).
(٥) المصدر نفسه (٢/ ٤٩٦).

عليها المسلمون بعد معركة حطين، ولما عُرض ذلك على صلاح الدين كان ردُّه على دعاوى الملك الإنجليزي -وهو رحمه الله يقود الجيوش الإسلامية للوقوف في وجه أطماعه- ردًّا عقليًّا يفند ادعاءاته وحججه التي تعلق بها في قدومه للبلاد الإسلامية، موضحًا أن لا حجة له على الحقيقة تدعوه إلى القدوم والاعتداء على المسلمين، وأن الأولى أن يعود من حيث أتى، فمن خلال أسلوب السبر والتقسيم حصر صلاح الدين دعاوى الملك الإنجليزي وفنَّدها، ففيما يختص بالقدس بيَّن -رحمه الله تعالى- مكانته لدى المسلمين بكونه مسرى النبي ﷺ، ولن يوافق أي مسلم على التنازل عنه فلا مجال للخوض في أمره، وفيما يختص بالبلاد التي زحف عليها المسلمون بعد معركة حطين فهي في الأصل للمسلمين واستيلاء النصارى طارئ عليها لضعف من بها من المسلمين، فلا حق على ذلك لهم فيها، والصليب الذي يطالب به النصارى غنمه المسلمون منهم لما قدموا للبلاد الإسلامية محاربين للمسلمين، فكيف يفرط به المسلمون وهو بهذه المنزلة لدى النصارى الذين هم في الوقت نفسه معتدون عليهم؛ ولذلك فلا يكون التنازل عنه إلا لمصلحة ظاهرة للإسلام[(١)]، وهكذا بجانب المواجهة العسكرية التي يقودها صلاح الدين ضد الملك الإنجليزي تصدى لدعاويه وشبهه الفكرية التي يتذرع بها في عدوانه على المسلمين، فمن خلال هذا الأسلوب العقلي فنَّدها جميعًا ولم يبق للملك الإنجليزي إلا أن يوقف عدوانه على المسلمين ويعود من حيث أتى[(٢)].

(ب) **أسلوب قياس الأولى**: هو ما يكون معناه في الفرع زائدًا على معنى الأصل[(٣)]، أو هو ما قطع فيه بنفي الفارق ويسمى القياس الجلي[(٤)]، وهذا الأسلوب استخدمه العلماء المسلمون لدحض حجج النصارى وشبهاتهم التي أقاموا عليها اعتقاداتهم وبنوا عليها أصول ملتهم[(٥)]، ومن الأمثلة على ذلك إبطال الخزرجي في نقاشه مع قسيس طليطلة لحجة النصارى في اتخاذ المسيح عليه السلام ابنًا لله بدعوى ولادته من غير أب، حيث قرر الخزرجي أنه إذا كانت هذه هي العلة التي سوغت للنصارى أن يجعلوا المسيح ابنًا لله سبحانه وتعالى فإنها متحققة في شأن آدم بشكل أكبر من المسيح، إذ إنه وجد من غير أب أو أم، فهو أولى بالألوهية من المسيح لهذه العلة[(٦)]، وبالأسلوب نفسه أبطل القرطبي هذه الحجة للنصارى على اتخاذ المسيح ابنًا لله -تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا- حيث قال: بل لو أمكن لأحد أن يقول: إن بشرًا يتصور أن يكون إلهًا لكونه من غير أب لكان آدم أولى بذلك من حيث إنه لم تشتمل عليه أوصار الرحم، فقد شارك المسيح في كونه من غير أب وزاد عليه أنه من غير أم[(٧)].

---

(١) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٥٠٠).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٥٠٠).
(٣) البحر المحيط للزركشي (٥/ ٣٦).
(٤) شرح مختصر الروضة (٣/ ٢٢٣).
(٥) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٥٠١).
(٦) مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان ص١٣٠ .
(٧) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص١٣٦ .

ومن خلال هذا الأسلوب أيضًا طالب الخزرجي في نقاشه مع قسيس طليطلة النصارى بالإيمان بنبوّة محمد ﷺ للمعجزات الكثيرة التي جاء بها ﷺ دالة على صدقه -حيث عرض كثيرًا منها- وذلك قياسًا على إيمانهم ببعض الأنبياء، وهم لم يكن لهم معجزات أو آيات تؤيدهم كداود وحزقيال وغيرهم(١)، فإذا كان إيمان النصارى بمثل هؤلاء الأنبياء لإخبارهم عن أنفسهم بالنبوة فحسب، فإن من أخبر عن نفسه وجاء بالمعجزات المصدقة له من باب أولى، فمن خلال قياس الأولى بيَّن الخزرجي أن النبي ﷺ اشترك هو وهؤلاء الأنبياء الذين يؤمن بهم النصارى بدعوى النبوة وزاد عليهم بالآيات والمعجزات، فوجب الإيمان بنبوَّته ولزمكم أيها النصارى الإيمان بذلك أكثر من إيمانكم ببعض أنبيائكم اعتمادًا على دعواهم النبوة فقط.

وفي مناظرة للزاهدي مع أحد علماء النصارى وإثبات هذا النصراني للنبوات السابقة عن طريق التواتر وظهور المعجزات بيَّن الزاهدي أن إثبات نبوَّة محمد ﷺ على هذا الأساس أولى من غيرها من النبوَّات السابقة؛ إذ التواتر في حقه ﷺ أولى بالقبول؛ لأن عصره أقرب من عصر موسى وعيسى، ومتى كان المخبر به أقرب زمانًا كان الثقة به والاعتماد عليه أكثر وأقوى؛ لأن الوسائط في البعيد أكثر وطول العهد منسي، حيث انقطع النصراني وأسلم وحسن إسلامه(٢).

(ج) **أسلوب القياس المساوي**: وهو ما يكون معناه في الفرع مساويًا لمعنى الأصل، ويسمى القياس الخفي(٣)، والقياس المساوي من الأساليب التي استخدمها العلماء المسلمون كثيرًا في مناقشاتهم وردودهم على النصارى في هذه الفترة، ففي مناقشة نصر بن يحيى المتطبب لعقائد النصارى والتي منها زعمهم أن المسيح استحق الألوهية؛ لأن الله سماه ابنًا، وأبطل نصر هذه الحجة بقياس حال الأنبياء الآخرين على حال عيسى؛ حيث ورد في كتب النصارى تسمية بعضهم أبناءً لله كداود وإسرائيل وغيرهما، فلماذا لم تجعلوهم أيها النصارى بناءً على ذلك أبناء لله(٤)، فإذا كانت علة الألوهية للمسيح تسميته ابنًا لله فهؤلاء إذن أبناء لله على الحقيقة؛ لأنه سماهم أبناء، وإلا فلتكن البنوة للجميع على سبيل الرحمة، وهكذا فلا سبيل للنصارى بناء على هذا القياس العقلي إلا صرف الألوهية عن المسيح واعتقاد نبوّته، أو إثبات الألوهية لغيره من الأنبياء، أو انقطاع حجتهم وتمسكهم بضلالهم على سبيل العناد والمكابرة(٥).

ومن حجج النصارى على إثبات الألوهية للمسيح أيضًا أنه نفخة من روح الله في رحم مريم فذلك يدل على ألوهيته، وقد أبطل هذه الحجة القرطبي من خلال أسلوب القياس المساوي،

(١) مقامع الصلبان ص٢١٠، دعوة المسلمين للنصارى (١/٥٠١).
(٢) دعوة المسلمين للنصارى (٢/٥٠٣).
(٣) البحر المحيط (٥/٣٦) دعوة المسلمين للنصارى (٢/٥٠٣).
(٤) دعوة المسلمين للنصارى (٢/٥٠٣).
(٥) المصدر نفسه (٢/٥٠٤).

حيث قاس حال آدم عليه السلام على حال المسيح؛ إذ هو نفخة من روح الله في تربة من الأرض، فتربة بمنزلة لحمة، ونفخة بمثابة نفخة فبناءً على هذا القياس لا فرق بين الحالين في المسيح وآدم عليه السلام، فإثبات الألوهية للمسيح لكونه نفخة من روح الله في رحم مريم يماثلها حال آدم لكونه نفخة من روح الله في تربة من الأرض، فإما إثبات الألوهية للاثنين لهذه العلة أو نفيهما عنهما.

ومن شُبه النصارى التي أثاروها حول رسالة النبي ﷺ كونها ناسخة لما قبلها والنسخ بُداء، والبُداء على الله الذي هو عالم الغيب والشهادة محال، وقد أبطل الزاهدي هذه الشبهة من خلال أسلوب القياس المساوي حيث طالبهم أن يقيسوا حال محمد ﷺ في ذلك بحال موسى وعيسى حيث جاءا ونسخا ما قبلهما، ولم تعدوا ذلك أيها النصارى بُداءً[١].

(د) قياس الخلف: وهو إثبات نقيض الحكم في غيره لافتراقهما في علة الحكم[٢]، وقيل: هو إثبات المطلوب بإبطال نقيضه[٣]، ومن استخدامات هذا الأسلوب من قِبل العلماء المسلمين في جهودهم الدعوية الموجهة إلى النصارى في هذه الفترة رد القرطبي اعتراض النصارى على المسلمين في نسبة الهدى والضلال إلى الله؛ حيث بيَّن القرطبي أن الهدى والضلال مخلوقات، وإذا أُنكر نسبتهما إلى الله تعين وجود خالق لهما مما يعني وجود خالقين وهذا محال، فلم يبق إلا أن يكون الفاعل هو الله إذ لا خالق إلا هو ولا مبدع سواه[٤]، فأثبت القرطبي من خلال قياس الخلف المطلوب وهو نسبة الهدى والضلال إلى الله بإبطال النقيض وهو عدم نسبتهما إليه سبحانه، لاستحالة وجود خالق آخر محدث لهما[٥].

(ذ) أسلوب المحاكمات العقلية: والمقصود طلب تحكيم العقل المجرد من الهوى في قضايا مُسلَّم بها؛ إظهارًا للحق وتقريرًا له[٦]، وقد استخدم هذا الأسلوب العلماء المسلمون كثيرًا ومن ذلك: طلب نصر بن يحيى المتطبب من النصارى تحكيم عقولهم في إثباتهم الألوهية للمسيح؛ إذ كيف يكون إله وهو المولود من امرأة بشرية قد نالته العلل والآفات، وجرى عليه ما يجري على الآدميين؛ من غذاء وتربية وصحة وسقم وأمن وخوف وتعلم وتعليم، فكيف تجتمع هذه النقائض مع مقام الألوهية، ثم قال: . . . فيجب على ذوي العقول أن يزجرهم عقلهم عن عبادة إله ولدته امرأة بشرية آدمية[٧].

---

(١) الرسالة الناصرية ص٤٤، ٤٥، البحر المحيط (٥/٤٦).
(٢) البحر المحيط (٥/٤٦) دعوة المسلمين للنصارى (٢/٥٠٥).
(٣) مناهج الجدل في القرآن الكريم، د/ زاهر الألمعي ص٧٧ .
(٤) دعوة المسلمين للنصارى (٢/٥٠٦).
(٥) المصدر نفسه (٢/٥٠٦).
(٦) النصيحة الإيمانية ص٧٢ .
(٧) مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان ص٢٩٤ .

وفي مناقشة الخزرجي لقسيس طليطلة وبعد عرضه جملة من الصفات البشرية للمسيح قال في نهايتها: وهذه كلها صفات إنسان مهين لا إله قوي متين[١]، وذلك لفتًا منه لعقل هذا القسيس وتنبيهًا له ليحكم هو على نفسه ويقر أن المسيح عبدٌ لله وأحد أنبيائه، وليس له من خصائص الألوهية شيء، ثم قال الخزرجي بعد ذلك: ... ومن جرى في المناظرة هذه المجرى ثم طرح الهوى فنظر بعين الإنصاف كان الحق له أبين من فلق الصبح[٢]. وفي مناقشة القرافي لعقائد النصارى بيَّن عدم قبول العقل ألوهية مولود رضع وفُطِم ومرض وصلب وذلك استثارة لعقولهم في الحكم على هذه القضية حيث قال: ... فيا معشر النصارى، كيف أتيتم بما تحيله العقول... وجعلتم ذا الملك والملكوت والعزة والجبروت خرج من رحم امرأة ووضع وفُطم وصُلب على صليب الصلبوت بعد أن وصل إليه من الذل والقتل ما لم يصل إلى أحد من المخلوقين[٣].

(س) أسلوب القلب: وهو أن يبين القالب أن ما ذكره المستدل يدل عليه لا له، أو يدل عليه وله[٤]، ففي مناقشة الجعفري مثلًا لعقيدة الصلب لدى النصارى وبأسلوب القلب أثبت أن المصلوب غير المسيح، وذلك من خلال قصة صلبه التي يسوقها النصارى في أناجيلهم إثباتًا لصلب المسيح، فمن خلال هذه القصة أثبت الجعفري أن المصلوب شخص آخر غير المسيح -كما هي عقيدة المسلمين- وذلك أن المصلوب حسب هذه القصة اشتكى العطش وطلب الماء وقال حين صلبه: إلهي إلهي، لم تركتني وخذلتني؟[٥]، فاستدل الجعفري بذلك على أن المصلوب غير المسيح من حيث إنه ثبت في الإنجيل أن المسيح كان يطوي أربعين يومًا لا يحتاج إلى الماء، فلِمَ لم يصبر هذه اللحظات مما يدل على أن المصلوب غيره، كذلك قوله: إلهي لِمَ تركتني؟ فيه تبرم من القضاء والقدر لا يليق بالصالحين فضلًا عن الأنبياء، مما يدل على أن المصلوب شخص آخر؛ إذ لا يمكن أن يصدر هذا القول من المسيح عليه السلام[٦].

(ش) أسلوب تناقض الخصوم: هذا الأسلوب من أبرز الأساليب العقلية التي تهدم ما لدى الخصم من قناعات وتزعزع ثقته في اعتقاداته وما يؤمن به ويناقش فيه، وقد استخدم العلماء المسلمون هذا الأسلوب كثيرًا في جهودهم الدعوية الموجهة إلى النصارى إبرازًا لتهافت الديانة النصرانية وإثباتًا لتحريفها، ومما أبرزه علماء هذه الفترة إظهار تناقض كتب النصارى حيث أسهبوا في ذلك إثباتًا لتحريفها وتأكيدًا على عدم الاعتماد على شيء منها، ومن ذلك مثلًا ما أورده الأنباري من نماذج منها قولهم في إنجيل متَّى: إنه صلب ومعه لصان أحدهما عن يمينه

(١) دعوة المسلمين للنصارى (٢/٥٠٧).
(٢) المصدر نفسه.
(٣) أدلة الوحدانية ص٦٤.
(٤) البحر المحيط (٥/٢٨٩).
(٥) الكتاب المقدس، إنجيل متى، الإصحاح (٢٧/٤٦).
(٦) تخجيل من حرَّف التوراة والإنجيل (١/٣٤٩).

والآخر عن شماله، وكانا يشتمانه ويتناولانه محركين رءوسهما ويقولان له: سلم نفسك إن كنت ابن الله[(١)]، وفي إنجيل لوقا: وكان أحد اللصين المصلوبين معه يسبه ويقول: إن كنت أنت المسيح فسلم نفسك وسلمنا[(٢)]. حيث علق الأنباري على ذلك بقوله: وهذا تناقض، فإن في إنجيل متى أن اللصين كانا يسبانه، وفي إنجيل لوقا أن أحدهما كان يسبه[(٣)].

وأفرد الجعفري بابًا في كتابه التخجيل لإبراز مواضع التحريف والتناقض في الإنجيل، حيث أورد نماذج في اثنين وخمسين موضعًا وقد قال في مقدمته: . . . ونبين بعون الله في هذا الباب من تناقض إنجيل النصارى وتعارضه وتكاذبه وتهافته ومصادمة بعضه بعضًا ما يشهد معه من وقف عليه أنه ليس هو الإنجيل الحق المنزل من عند الله[(٤)]، وفي رد الخزرجي على قسيس طليطلة أورد الكثير من تناقضات الإنجيل إظهارًا لعدم الاعتماد عليه وإبرازًا لتهافت حجج القسيس، ومما أورده من ذلك قوله مخاطبًا القسيس: وفي الإنجيل الذي بأيديكم عنه -أي: المسيح- أنه قال: إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي غير مقبولة وغيري يشهد لي[(٥)]. ثم في موضع آخر من الإنجيل أنه قال: إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق لأني أعلم من أين أتيت وإلى أين أذهب[(٦)]، وقد علق الخزرجي على ذلك قائلًا للقسيس: أخبرني كيف تكون شهادته حقًا وباطلًا؟ ومقبولة وغير مقبولة؟ وكيف يجمع بين هذين في كتاب منسوب إلى الله تعالى[(٧)].

ومن الأمثلة على ذلك استخدام القرافي لهذا الأسلوب في مناقشته لبعض عقائد النصارى حيث أظهر جانبًا من تناقضهم في أصل إيمانهم وهي الأمانة التي يعتقدونها؛ إذ فيها قولهم: ونؤمن بمعمودية واحدة لغفران الخطايا. . . يناقضه اعتقادهم أن خطيئة آدم عليه السلام عمت ذريته وما تخلصوا منها إلا بصلب المسيح وقتله، حيث بيَّن القرافي أن ذلك ظاهر التناقض؛ فإما أن تكون المعمودية توجب غفران الخطايا وحينئذ لا حاجة إلى الصلب، أو يكون هو الذي أوجب الغفران وزالت به الخطيئة فلا حاجة إذن إلى المعمودية[(٨)].

(ر) أسلوب المقارنة: هو قرن النظر إلى قضيتين لإبراز وجوه التفاضل بينهما[(٩)]، وكان هذا الأسلوب من الأساليب العقلية المستخدمة من قِبل العلماء المسلمين في جهودهم الدعوية الموجهة إلى النصارى في هذه الفترة، ومن ذلك مثلًا: مقارنة القرطبي حفظ الله سبحانه وتعالى للقرآن وعناية الأمة مقابل تبديل التوراة والإنجيل وتحريفهما واختلاطهما بالكذب والدجل

---

(١) الكتاب المقدس، إنجيل متى، الإصحاح (٢٧/ ٣٩-٤٣).
(٢) الكتاب المقدس، إنجيل لوقا، الإصحاح (٢٣/ ٣٩).
(٣) الداعي إلى الإسلام ص٣٨٦ .
(٤) تخجيل من حرَّف التوراة والإنجيل (١/ ٢٨٣).
(٥) الكتاب المقدس، إنجيل يوحنا، الإصحاح (٥/ ٣١).
(٦) مقامع الصلبان ص١٤٦ .
(٧) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (٢/ ٥١٣).
(٨) المصدر نفسه (٢/ ٥١٤).
(٩) المصدر نفسه.

والتزوير على الله سبحانه وتعالى وأنبيائه الكرام؛ حيث عرض القرطبي نماذج من التحريف فيهما وعلق على ذلك بقوله: . . . وكتابنا منزه عن أمثال تلك الآفات، فإن الله تولى حفظه، وأجزل من كل صيانة حظه، فصار بنظمه الذي لا يقدر الجن والإنس على آية منه، فلا يختلط به كلام متكلم، ولا يقبل وَهْم متوهم؛ إذ ليس من جنس كلام البشر وهو معدود الآي والسور، ثم صانه بأنه يسَّره للحفظ والاستظهار فيستوي في نقله الكبار والصغار[1]، وبعد هذه المقارنة التي وضعها القرطبي أمام صاحب كتاب تثليث الوحدانية قال: فأين اللؤلؤ من الخذف والياقوت من الصدف؟![2].

وفي موضع آخر قارن القرطبي بين حال النبي ﷺ وشجاعته وصموده أمام قريش وتحمله الأذى وصبره على الشدائد في سبيل تبليغ الدعوة وبين حال المسيح -وهو إله بزعم النصارى- وأنه لما استشعر وثوب اليهود عليه قال: قد جزعت نفسي الآن، فماذا أقول يا أبتاه؟ فسلمني من هذا الوقت، وأنه كذلك لما رفع على خشبة الصلب صاح صياحًا عظيمًا: إلهي إلهي لِمَ أسلمتني وتركتني؟[3] وقد علق القرطبي على ذلك بقوله: فتأمل إن كنت منصفًا فرق ما بين نبينا عليه السلام وبين ما يحكيه النصارى عن المسيح في إنجيلهم[4]، ولا شك أن هاتين الصورتين -وعرضهما في وقت واحد- صورة النبيّ ﷺ وشجاعته وصبره وعدم جزعه وصورة المسيح -ابن الإله بزعم النصارى- وقد خار وجزع، تدعوان النصراني إلى التدبر والتفكير، كيف أن من يتصف بالألوهية يجزع ويضعف أمام أعدائه في مقابل من يدعي النبوة كيف يصبر ويواجه أعداءه بشجاعة في سبيل تبليغ دعوته، فهذه الصورة الحسنة للنبي ﷺ في مقابل الصورة السيئة للمسيح -حسب اعتقاد النصارى- ربما توقظ في نفس النصراني تساؤلات كثيرة تدعوه إلى إعادة النظر فيما هو عليه وربما تقوده إلى الإسلام.

(ك) **أسلوب الاستدلال بمسلمات الخصم**: وقد استخدم العلماء في هذه الفترة هذا الأسلوب في جهودهم الدعوية الموجهة إلى النصارى خاصة في نفي الألوهية عن المسيح والدلالة على نبوَّة محمد ﷺ، ومن ذلك مثلًا ما أورده المتطبب من نصوص الإنجيل الدالة على بشرية المسيح وعدم الألوهية التي يدعونها فيه، ومنها قوله عن نفسه: من عند الله أرسلت معلمًا. وقوله لأصحابه: اخرجوا بنا من هذه المدينة، فإن النبي لا يلح في مدينته وأقاربه، وأخبر الإنجيل كذلك أن امرأة رأت المسيح فقالت له: أنت النبي الذي كنا ننتظر مجيئه؟ فقال لها المسيح: صدقت، طوبى لك أيتها المرأة[5]، وقد علق المتطبب على بعض النصوص الكثيرة التي أوردها من الإنجيل مبينًا دلالتها على عبودية المسيح، وأنه مربوب مبعوث من عند الله لا يستطيع أن يفعل شيئًا إلا بإذنه سبحانه وتعالى[6].

---

(١) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص١٩٣، ١٩٤ .
(٢) المصدر نفسه ص١٩٤ .
(٣) المصدر نفسه ٣١٩، ٣٢٠ .
(٤) النصيحة الإيمانية ص١٠٩ .
(٥) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٥١٧).
(٦) الكتاب المقدس، العهد القديم، الإصحاح (٣٣/ ١-٣).

ومما استدل به القرطبي على صحة نبوَّة محمد ﷺ من كتب النصارى ما ساقه من البشارات به ﷺ، ومن ذلك ما ورد في سفر التثنية وهو قول الله سبحانه: جاء الله من سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران ومعه جماعة من الصالحين[(١)]. حيث شرح ذلك القرطبي مبينًا أن مجيئه من جبل سيناء أن الله أنزل فيه التوراة على موسى، وإشراقه من جبل ساعير أن دين المسيح إنما أشرق من جبال ساعير قرب القدس، واستعلاؤه من جبال فاران أن الله تعالى بعث فيها محمد ﷺ وأوحى إليه فيهما لاختلاف أن فاران هي مكة، وقد قال في التوراة: إن الله أسكن هاجر وابنها إسماعيل فاران[(٢)]، وقد علق القرطبي على ذلك بتوجيه الخطاب إلى صاحب تثليث الوحدانية وحثه على التفكير في إنصاف وتثبت، وقبول هذه البشائر الظاهرة بنبوة محمد ﷺ[(٣)].

ومن بشائر الأنجيل أيضًا بنبوَّة محمد ﷺ والتي أوردها القرطبي قول المسيح: إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، وسأرغب إلى الأب في أن يبعث إليكم البرقليط ليكون معكم إلى الأبد[(٤)]، حيث بيَّن القرطبي معنى البرقليط وهو لفظة رومية معناها بالعربية محمد[(٥)]، وأورد الجعفري أربعًا وثمانين بشارة في التوراة والإنجيل بنبوَّة محمد ﷺ مبينًا وجه الاستدلال بكل منها وحاثًا النصارى على التصديق بها، ثم قال في نهايتها: .. فهذه أربع وثمانون بشارة عن الأنبياء وأتباع الأنبياء وقد تضمنها كتب الله المنزلة من لدن إبراهيم الخليل إلى أتباع المسيح منوهة باسم محمد ﷺ صريحًا واسم أرضه التي يخرج منها وبلده التي نشأ بها[(٦)]، ثم قال: وإنما نقلت قليلًا من كثير، ويسرًا من خطير، ولو استوعبت ما في كتب الله من الإشادة بذكر المصطفى ﷺ وذكر أمته لأطلت وخرجت إلى حد الإسهاب[(٧)].

وهكذا كان لمجموع هذه الأساليب العقلية استخدامًا واسعًا مع هؤلاء النصارى الذين لا يؤمنون بالقرآن ولا ينفع معهم الأمر والنهي والترغيب والترهيب وظهر عمق أثرها عليهم[(٨)].

٢- الأساليب العاطفية: والمقصود بالأساليب العاطفية هي تلك الأساليب التي تعتمد في تأثيرها على مخاطبة العاطفة وإثارة المشاعر للحث على أمر ما أو المنع منه[(٩)]، ولأهمية الأساليب العاطفية في الدعوة، فقد كانت من أبرز أساليب الرسل عليهم الصلاة والسلام في دعوة أقوامهم، ومن ذلك مثلًا: ترغيب الرسل لأقوامهم بالمغفرة حال الإيمان؛ كقوله تعالى:

---

(١) دعوة المسلمين للنصارى (٢/٥١٨).
(٢) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص٢٦٥ .
(٣) الكتاب المقدس، إنجيل يوحنا، الإصحاح (١٤/١٥-١٨).
(٤) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص٢٦٨ .
(٥) تخجيل من حرَّف التوراة والإنجيل (٢/ ٧٢٢).
(٦) المصدر نفسه (٢/ ٧٢٢).
(٧) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٥٢٠).
(٨) المصدر نفسه (٢/ ٥٢١).
(٩) المصدر نفسه.

﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٠﴾ [إبراهيم: ١٠].

ودعوة نوح عليه السلام لقومه من خلال ترغيبهم بالخير حال الاستجابة، قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢﴾ [نوح: ١٠-١٢]، وكانت الأساليب العاطفية من أبرز أساليب القرآن سواء في دعوة المشركين إلى الإيمان أو حث المؤمنين على الزيادة في الخير[(١)]، وفي عصر الحروب الصليبية كانت بعض الأساليب العاطفية من ضمن الدعوة الموجهة إلى النصارى ومن تلك الأساليب:

(أ) أسلوب الترهيب: ومن ذلك مثلًا ما كان يتخلل به القرطبي نقاشه وردوده على القسيس صاحب كتاب تثليث الوحدانية من تخويف له بالنهاية السيئة إذا مات على معتقده وترهيبه باليوم الآخر وعند الوقوف للحساب، وذلك كقوله للقسيس بعد تفنيد بعض ما أورده في كتابه من عقائد كفرية: . . . وإذا انتهى إنسان إلى هذه المخازي فقد كفر بموسى، وبإله موسى، نعوذ بالله من أنظار تقود في الدنيا إلى الفضيحة والعار، وفي الآخرة إلى الخلود في عذاب النار[(٢)]. وفي موضع آخر وبعد مطالبته القسيس الاستعداد للحساب وذلك بالتوبة عن تأليه عيسى واعتقاد بنوته، خوَّفه بعاقبة إصراره على اعتقاده في ذلك اليوم: فكأني والله بك إن مت على ما أنت عليه يؤخذ بناصيتك وقدمك، وتحيط بك ملائكة ربك ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، فتنادى فتقول: يا عيسى، يا سيدي، يا إلهي يا ولد الله، فيقول لك: كذبت ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، ولست بإله، ولم أقل لك كذلك . . فكيف ترى خجلتك بين يديه . . فذلك المقام لا ينفعك فيه ملك مقرب ولا نبي مُرسل إلا مما قدمت يداك من حسن إيمان وصالح عمل . . فإن الملائكة والنبيين لا يشفعون إلا لمن ارتضى رب العالمين، فالله الله. انظر في خلاص نفسك لتجني ثمار غرسك[(٣)].

(ب) أسلوب الاستهزاء والتهكم: في الجهود الدعوية الموجهة إلى النصارى في عصر الحروب الصليبية كثر استخدام هذا الأسلوب من قبل بعض العلماء، وربما كان من أسباب ذلك ما صدر من بعض النصارى ورجال دينهم من كلمات فيها شيء من السخرية والتهكم سواء في كتاباتهم أو مناقشاتهم أو مناظراتهم مع المسلمين وذلك تجاه الإسلام ورسوله ﷺ؛ كتداول رسالة ابن غورسيه في الأندلس، والقصيدة التي قيلت على لسان ملك الروم في سبِّ الإسلام

(١) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٥٢٢).
(٢) المصدر نفسه (٢/ ٥٢٤).
(٣) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص١٢٣ .

ورسوله ﷺ وتداولها في هذه الفترة في الأندلس، وعبارات الحقد والسب والاستهزاء في كتابات بعض مؤرخيهم ورجال دينهم كفوشيه شارتر، وإشارة أحد القساوسة في رسالته لأبي عبيدة الخزرجي إلى كثرة مؤلفات النصارى التي تطعن بالإسلام ورسوله ﷺ وتستخف بهما، ومن مظاهر استخدام هذا الأسلوب من قِبل بعض العلماء المسلمين في هذه الفترة تجاه النصارى ما جاء في ثنايا مناقشة نصر بن يحيى المتطبب لبعض عقائد النصارى من عبارات الاستهزاء بعقولهم والاستخفاف بحججهم وطريقة استدلالهم كقولهم: ليس لاعتقادهم أصل يعول عليه، ولا برهان يستند إليه، قد اقتدوا بقوم لا يعقلون، واغتروا بجهال لا يفقهون[١]. وقوله: لكني أقول: لا إله إلا الله تعجبًا منكم يا ذوي العقول الضعيفة، كيف تعتقدون الألوهية في إنسان لا يقدر على تخليص نفسه من الأعداء . . فأين قدرته أيها الغافلون؟ وأين تمكنه أيها المبطلون؟ بئس والله ما تعتقدون، إنما أنتم في طغيانكم تعمهون، حدتم عن الرشاد، وسلكتم طريق العناد، وكفرتم بالرحمن واتبعتم سنن الشيطان[٢].

ومن مظاهر استخدام هذا الأسلوب لدى القرافي في مناقشته لبعض عقائدهم قوله: . . فأي ضرورة تدعوكم إلى إثبات أنواع الإهانة والعذاب في حق رب الأرباب على زعمكم أيها الدواب الذي يفضي من ضعف عقولهم العجب العجاب[٣]، وفي رد الخزرجي على قسيس طليطلة كان في قوله في صدر رسالته إليه: أما بعد، أيها الأعجمي الألكن، الطاعن على كتاب الله جهلًا، ولا يُعرف لخطابه فصلًا، والملتمس له تأويلًا، وأنت لم تؤت من العلم كثيرًا ولا قليلًا[٤]. واشتد القرطبي في استهزائه وتهكمه في بعض حجج ألوهية المسيح لدى النصارى بقوله: وعلى الجملة فهؤلاء القوم أغبياء جاهلون، وعن التوفيق معزلون، فهم عن المعقولات معرضون وبها مستهزئون، لا يستحيون من خالقهم، ولا يتأدبون مع مالكهم ورازقهم، فسبحان الله عما يقول الجاهلون[٥].

ولا شك أن استعمال أسلوب التهكم والاستهزاء في السخرية من قِبل بعض العلماء المسلمين في جهودهم الدعوية الموجهة إلى النصارى قد يجدي في لفت أنظار البعض منهم إلى ضلال ما هم عليه، وأن ما يقوم عليه اعتقادهم وأساس ديانتهم حقًّا محل السخرية والتهكم، فربما يكون ذلك دافعًا لتنفيرهم منه وبحثهم عن الحق ومن ثم قبوله[٦].

(ج) **أسلوب اللين والتلطف بالخطاب:** كان من أبرز أساليب النبي ﷺ في دعوته بشكل عام اللين والرفق والتلطف بالخطاب؛ فتح الله عز وجل به قلوبًا غلفًا وآذانًا صمًّا، قال تعالى: ﴿فَبِمَا

(١) النصيحة الإيمانية ص٥٢ .
(٢) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٥٢٨).
(٣) الأجوبة الفاخرة ص٥٨ .
(٤) مقامع هامات الصلبان ص١٢٧ .
(٥) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٥٢٩).
(٦) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٥٣٠).

رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال ﷺ: «**إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف**»[١]. وقال: «**إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه**»[٢]. وعندما أرسل الله سبحانه وتعالى موسى وأخاه هارون إلى فرعون قال لهما جلَّ وعلا: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤].

ولم تخلُ الجهود الدعوية الموجهة إلى النصارى في فترة الحروب الصليبية من استخدام هذا الأسلوب وإن كان ذلك بشكل أقل من الأساليب الأخرى، ومثال على ذلك: رسالة العزاء من صلاح الدين إلى بولدوين الخامس بعد وفاة والده في بيت المقدس، وفي مطلع الرسالة: . . . خص الله الملك المعظم حافظ بيت المقدس بالجد الصاعد، والسعد الساعد، والحظ الزائد، والتوفيق الوارد[٣]، وكان أيضًا يتخلل بعض ردود العلماء ومناقشاتهم مع النصارى في هذه الفترة شيء من اللين والرفق والتلطف في الخطاب، ومن ذلك مثلًا: الدعاء لهم بالهداية، كقول الخزرجي في نقاشه مع قسيس طليطلة: . . . ونحن نسأل الله سبحانه أن يكشف ما بكم من بشع الضلالة ويتلقاكم بالهداية، فهو فعَّال لما يريد[٤]، وقول القرطبي في رده على كتاب تثليث الوحدانية: . . . فالله يعلم أني أنظر إليك وإلى كافة خلق الله بعين الرحمة، وأسأله هداية من ضلَّ من هذه الأمة، وأتأسف على الأباطيل التي ينتحلون، فإنا لله وإنا إليه راجعون[٥]، وفي موضع آخر وبلين عبارة خاطب القرطبي صاحب كتاب التثليث حاضًا له على اعتقاده بنبوَّة المسيح عليه السلام بقوله: . . . فما أجل بكم لو قلتم فيهما الحق الذي ينبغي لهما: إن الله جعل عيسى وأمه آية للناس، هو عبدًا ورسولًا وأمه صديقة مباركة[٦].

(س) **أسلوب القسم**: وقد ورد استعمال هذا الأسلوب كثيرًا في القرآن الكريم، فأقسم الله سبحانه وتعالى بنفسه وآياته وببعض مخلوقاته، والقسم في كلام الله يزيل الشكوك ويحبط الشبهات ويقيم الحجة، ويؤكد الأخبار، ويقرر الحكم في أكمل صورة[٧].

وما أكثر الأحاديث التي كان يبدؤها النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده**»[٨]، وقد استخدم هذا الأسلوب في فترة الحروب الصليبية ومن ذلك قول الخزرجي في نقاشه مع قسيس طليطلة بعد حديثه عن تحريف الإنجيل: . . حتى أني أحلف بالذي لا إله إلا هو أن تاريخ الطبري عندنا أصح نقلًا من الإنجيل، ويعتمد عليه العاقل أكثر، مع أن التاريخ عندنا لا يجوز أن ينبني عليه

---

(١) مسلم رقم (٢٥٩٣).
(٢) مسلم رقم (٢٥٩٤).
(٣) صبح الأعشى (٧/ ١١٥، ١١٦) دعوة المسلمين (٢/ ٥٣٢).
(٤) مقامع الصلبان ص٢٩٤، دعوة المسلمين (٢/ ٥٣٢).
(٥) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص١٠١ .
(٦) المصدر نفسه ص١٣٧ .
(٧) المصدر نفسه ص١٣٧ .
(٨) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٥٣٤).

شيء من أمر الدين[١]. وبعد حض القرطبي صاحب كتاب تثليث الوحدانية على نبذ ما يعتقده في عيسى عليه السلام أقسم بالله على سوء عاقبته إن مات على هذه النهاية وذلك بقوله: .. فكأني والله بك إن مت على ما أنت عليه يؤخذ بناصيتك وقدمك وتحيط بك ملائكة ربك، ملائكة ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

٣- **الأساليب الفنية**: هي تلك الأساليب المتعلقة بجمال التعبير وتحسينه من الناحية اللفظية ليكون أكثر تأثيرًا في السامع[٢]، وفي عصر الحروب الصليبية كان كتاب الله عز وجل هدفًا لمطاعن النصارى وشبههم والتي كان من ضمنها الطعن في بلاغته وفصاحته، لذلك اعتنى العلماء المسلمون عناية كبيرة في التصدي لذلك في جهودهم الدعوية الموجهة إلى النصارى[٣]، وقد تمثل ذلك من خلال إبرازهم لفصاحة القرآن وبلاغته وعجز العرب عن معارضته، أو من خلال استعمالهم لبعض الأساليب الفنية التي تظهر جوانب من فصاحة العربية وبلاغتها وجمالها وقوة تأثيرها مع عدم التوسع فيها كثيرًا بجانب الأساليب الأخرى؛ لنظرتهم إلى أن غالبية النصارى وهم من العجم أقل وأحقر من أن يتحدث عن بلاغة القرآن وفصاحته بعد ما عجز عنها العرب الأوائل وهم أرباب البيان والفصاحة، ولذلك قال الخزرجي حينما بيَّن إقرار العرب الأوائل بفصاحة القرآن وبلاغته: فكيف يلتفت إلى مقال العجم الجهلاء[٤]، وفي مقدمة رسالته في الرد على قسيس طليطلة قال: أيها الأعجمي الألكن الطاعن في كتاب الله جهلًا[٥]. وذلك إشارة إلى قصوره لعجميته عن فهم بلاغة القرآن وفصاحته[٦]، ومن الأساليب الفنية التي استخدمت:

(أ) أسلوب ضرب الأمثال: وضرب الأمثال من الأساليب التي استخدمها العلماء المسلمون في مناقشاتهم وكتاباتهم ومناظراتهم مع النصارى في عصر الحروب الصليبية، فمن الأمثال السائرة التي استخدمها القرطبي في رده على القسيس قوله: لا يستوي الظل والعود أعوج[٧]، وذلك بعد ما عرض مذاهب النصارى واختلافهم في تفسير الأقانيم، ومحاولة كل فرقة إصلاح خلل الأخرى في ذلك، وقصد القرطبي في هذا المثال أنه مهما حاولوا تقويم الخلل في تفسيراتهم لهذه العقيدة الباطلة فلن تستقيم كحال الذي يريد إقامة ظل لعود أعوج، فلن يستقيم الظل ما دام العود على اعوجاجه، وهذه حال تفسيراتهم لن تستقيم وتصح الخلل ما دام أصل العقيدة باطل.

---

(١) المصدر نفسه (٢/ ٥٣٤).
(٢) المصدر نفسه (٢/ ٥٣٤).
(٣) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٥٣٧).
(٤) مقامع الصلبان ص١٩٧ .
(٥) المصدر نفسه ص١٢٧ .
(٦) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٥٣٧).
(٧) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص٨٠ .

وفي موضع آخر وبعد رده على النصراني ومناقشته لما طرحه من تفسير لعقيدة الاتحاد وإبطال هذه التفسيرات التي جاء بها ختم ذلك بإيراد هذا المثل وهو قوله: فإن الفتق اتسع على الراقع[١]، ففي هذا المثل قصد القرطبي أنه مهما جئت أيها النصراني بتفسير لهذه العقيدة الباطلة -عقيدة الاتحاد- تفسير يقبله العقل فلن تفلح، فكلما أجبت على سؤال ثارت عليك أسئلة كمن يريد أن يرقِّع ثوبًا اتسع فتقه. ومن استخدام الأمثلة السائرة لدى القرافي أنه بعد وصفه لرجال الدين النصارى بالجهل الشديد وعدم تفريقهم بين الحلال والحرام وغفلتهم وبلاهتهم التي حجبت عنهم عقل الحق والأخذ به ختم بقوله: حتى أن أحدهم لا يفرق بين كوعه من بوعه[٢].

(ب) أسلوب القصة: وفي عصر الحروب الصليبية استخدم كثير من العلماء أسلوب القصة في جهودهم الدعوية الموجهة إلى النصارى لكونها من أنسب الأساليب مع النصارى لكشف باطلهم وبيان ما في كتبهم من تحريف وتبديل، وإظهار مواقفهم من أنبيائهم، ومن هذه القصص ما قام به الخزرجي في رده على قسيس طليطلة في قوله: إنه لا ينكر صلبه -أي: عيسى- إلا كافر[٣]، عرض قصة الصلب كاملة حسب رواية النصارى مستنبطًا منها الأدلة على وقوع الصلب على الشبه وليس على عيسى كما يدعيه النصارى[٤]، وعرض القرطبي قصة قسطنطين ومجمعه الذي ابتدعت فيه كثير من شرائع النصارى الباطلة ومنها الصلب، وذلك دليلًا على عدم اعتمادهم على شيء في هذه العقائد وأنها من وضع ضلالهم وليس من أصل ديانتهم الصحيحة[٥]، وحينما عرَّض القسيس للقرطبي في هاجر أم إسماعيل عليه السلام وفي معرض الرد عليه ساق القرطبي قصة هاجر مع سارة من التوراة كاملة لبيان افتراء هذا القسيس[٦].

وفي معرض إثبات القرطبي لنبوَّة عيسى عليه السلام سرد قصة بولس اليهودي وأثره في تحريف النصرانية والقول بألوهية المسيح ثم أثر قسطنطين بعد ذلك[٧]، ثم عقب بقوله: ... ولتعلم أن هذه الأخبار التي ذكرناها لا يمكنهم إنكار جملتها، وإن أنكروا بعض تفاصيلها لكون هذه القصص معروفة على الجملة عندهم، فإنهم لا يقدرون على جحد محاربة بولس اليهودي وإجلائهم من الشام ودخول بولس في دينهم، وكذلك ملك قسطنطين مما لا ينكرون إشهاره لكتبهم[٨]، وساق القرافي أيضًا قصتي بولس وقسطنطين في معرض بيان أثرهما في تحريف النصرانية وإضلال النصارى[٩]، ثم عقب على ذلك بقوله: وكفى بهذه الثلمة في دين النصارى خللًا عظيمًا لم تترك لهم عقلًا مستقيمًا ولا قلبًا سليمًا[١٠].

---

(١) المصدر نفسه ص٩٢.
(٢) الأجوبة الفاخرة ص٦.
(٣) مقامع الصلبان ص١٥٨.
(٤) المصدر نفسه ص١٥٨-١٦٨، دعوة المسلمين (٢/٥٤٥).
(٥) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص١٦٩-١٧٢.
(٦) المصدر نفسه ص٢٣٠-٢٣٢.
(٧) المصدر نفسه ص٢٤١-٢٤٦، دعوة المسلمين للنصارى (٢/٥٤٦).
(٨) دعوة المسلمين للنصارى (٢/٥٤٦).
(٩) الأجوبة الفاخرة ص١١٩-١٢٤.
(١٠) المصدر السابق ص١٢٤.

ونوع آخر من القصص ورد الاستشهاد به كثيرًا في مناقشات العلماء المسلمين وردودهم على النصارى في هذه الفترة، وهي القصص التي تتعلق بالتاريخ الإسلامي وحياة النبي ومناقبه، ومن ذلك مثلًا قصة كفالة جده ثم عمه، ورضاعة من حليمة، والبركة التي حلَّت عليها بسبب ذلك، وقصة رحلته إلى الشام ولقائه[(١)] ببحيرا الراهب وشهادته له بالنبوة، ثم سرد القرطبي الكثير من القصص أيضًا حول معجزات النبي ﷺ وذلك في سياق الحديث عن دلائل نبوَّته، ومن ذلك مثلًا: قصة نبع الماء من بين أصابعه في إحد غزواته، وتكثير الطعام في غزوة الخندق وغيرهما، وقصص أخرى كثيرة أبرز فيها القرطبي حماية الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ كرد المشركين عنه ليلة الهجرة وخبر سراقه وغير ذلك، وهكذا إيراد القصص في الجهود الدعوية الموجهة إلى النصارى بالإضافة إلى كونه يزيد من جمال التعبير ويضفي عليه شيئًا من التشويق، فإن له أثره في التمهيد لقبول المحتوى لدى السامع وإيصال المعنى المراد له من خلال استغلال ذلك[(٢)].

(ج) أسلوب التكرار: ومن الأساليب الفنية أسلوب التكرار والذي قد يكون تكرارًا لكلمة بعينها، أو لمعنى، أو لعبارة، أو لفكرة، أو لموضوع، ويكون التكرار عيبًا لموضوع إذا كان عاريًا عن الفائدة ولا يكون له معنى بلاغيًّا إلا إذا كان الهدف معينًا كأن يكون القصد منه التأكيد، أو المبالغة أو الإيضاح، أو بيان الأهمية، أو إبراز المعنى الواحد في صور مختلفة إلى غير ذلك[(٣)]، والتكرار من الأساليب التي استخدمها العلماء المسلمون في كتاباتهم ومناقشاتهم مع النصارى في فترة الحروب الصليبية، فمن ذلك مثلًا: تكرار نصر بن يحيى المتطبب الإشارة إلى تحريف الأناجيل حيث فصَّل في الموضع الأول وذلك في سياق ذكره لواضعي الأناجيل الأربعة حيث ذكر شواهد على الاختلافات فيما بينها، ثم اختصر ذلك في موضع آخر وذلك في سياق ذكره لتاريخ كتابة الأناجيل والتي كانت كثيرة جدًّا، فاختصرت إلى أربعة منها في المجمع الذي دعا إليه الملك الروماني قسطنطين حيث تساءل نصر بن يحيى: ما حال عشرات الأناجيل المستبعدة؟ وعلى أي أساس تم انتقاء هذه الأربعة فقط[(٤)]؟ حيث يظهر الوجه البلاغي للتكرار في الموضعين إلى اختلاف الهدف من إيرادها، ففي الموضع الأول إبراز التناقض بين الأناجيل الأربعة المعتمدة لدى النصارى، وفي الموضع الثاني الطعن في أصل الأناجيل بشكل عام وطريقة اعتمادها لدى النصارى، وعلى أي أساس كان اختيارها؟ ولم يكن في غيرها من عشرات الأناجيل الأخرى المستبعدة ما هو أفضل منها[(٥)]؟

(١) البداية والنهاية (٢/ ٢٦٣) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٥٤٦).
(٢) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٥٤٨).
(٣) الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن وعلم البيان ص١٦٣-١٧٠.
(٤) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٥٤٩).
(٥) المصدر نفسه (٢/ ٥٥٠).

وكذلك كرر الخزرجي الإشارة إلى حفظ القرآن وعدم تحريفه، فمن ذلك مثلًا ذكره لذلك مجملًا في سياق المقارنة مع تحريف كتب النصارى[١]، ثم تفصيل ذلك في سياق الحديث عن إعجاز القرآن وكونه من أدلة صدق رسالة النبي ﷺ والإسهاب في عرض وجوه إعجازه وضبطه[٢].

(س) **أسلوب الاستفهام**: والاستفهام هو طلب شيء لم يكن معلومًا من قبل بأدوات خاصة، وهو من أنواع الإنشاء الطلبي[٣]، وقد تخرج ألفاظ الاستفهام عن معناها الأصلي إلى معانٍ تُفهم من السياق؛ كالنفي والنهي والتقرير والأمر، والإنكار والتشويق والتعجب والوعيد إلى غير ذلك[٤]، وهذه المعاني تضفي على التعبير جمالًا وتزيد من تأثيره في السامع، ففي مناقشة نصر بن يحيى المتطبب لعقيدة الاتحاد بين اللاهوت والناسوت التي يدعيها النصارى في المسيح، وأن الناسوت حين الصلب مات واللاهوت لم يمت، تساءل نصر بن يحيى على سبيل الإنكار قائلًا: فكيف يكون ميتًا لم يمت في حال واحد؟[٥]، فالمتطبب لم يلقِ هذا السؤال طالبًا الإجابة عليه، وإنما للإنكار على النصارى الذين أدى بهم اعتقاد الاتحاد إلى هذه النتيجة التي لا يقبلها العقل، فهذا السؤال يثبتُ فساد نتيجة هذا الاعتقاد عليهم مما قد يؤدي بالعقلاء منهم إلى الإقرار بفساده والإقلاع عنه، وبعد بيانه لبعض تناقضات النصارى في تفسير الاتحاد وجَّه هذا السؤال لهم على سبيل الإنكار لِمجمل اعتقادهم في المسيح عليه السلام وذلك بقوله: فكيف يصح لذي عقل عبادة المولود من امرأة بشرية قد مات ونالته العلل والآفات[٦]؟ وهكذا في مواضع أخرى بعد مناقشة المتطبب لبعض عقائد النصارى يلقي عليهم أسئلة على سبيل الإنكار لباطلهم[٧].

(ش) **أسلوب التعجب**: وهو دهشة المتحدث واستغرابه في أمر ليس له تفسير في نفسه أو أن تفسيره غير متوقع لديه[٨]، وبعد إيراد الجعفري لبعض تناقض الإنجيل قال: فانظر -رحمك الله- ما أفسد هذا الكلام وأقربه من كلام المجانين[٩]، وفي السياق نفسه وفي موضع آخر قال: فانظر -رحمك الله- ما أقبل عقول هؤلاء القوم إلى الترهات التي تمجها الأسماع وتأباها الطباع[١٠]، وفي موضع آخر من السياق نفسه قال: ما أقبح هذا التكاذب وأوضح هذا التناقض[١١]. وهكذا في مواضع كثيرة، وبعد تفنيد القرطبي لعقيدة الفداء لدى النصارى،

---

(١) المصدر نفسه (٢/ ٥٥٠).
(٢) مقامع الصلبان ص٣٢٣ .
(٣) جواهر البلاغة ص٧٠، دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٥٥١).
(٤) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ص١١٤-١١٨ .
(٥) النصيحة الإيمانية ص٦٢ .
(٦) المصدر نفسه ص٧٢، دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٥٥٣).
(٧) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٥٥٣).
(٨) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٥٥٤).
(٩) تخجيل من حرَّف التوراة والإنجيل (١/ ٢٩١).
(١٠) المصدر نفسه (١/ ٢٩٨).
(١١) المصدر نفسه (١/ ٣١١).

وتهافت أدلتهم عليها ختم ذلك بقوله متعجبًا من عقولهم الضعيفة التي قبلت مثل ذلك [(١)]: . . . قاتلكم الله ما أسخف عقولكم[(٢)].

(ر) أسلوب استخدام الشعر في تأدية بعض المعاني: وفي عصر الحروب الصليبية لم تخلُ ردود العلماء ومناقشاتهم مع النصارى من استخدام الشعر، فمن الأمثلة على ذلك قصيدة البوصيري في الرد على النصارى واليهود والتي مطلعها:

جاء المسيح من الإله رسولًا فأبى أقل العالمين عقولا

حيث ناقش فيها الكثير من عقائدهم وانتقدها مبيِّنًا بطلانها وعدم اعتمادهم على دليل فيها[(٣)]، ومن هذا القبيل أرجوزة لأبي طالب عبد الجبار المرواني تعرض فيها لبطلان ما عليه النصارى، ومنها:

وصانع العالم فرد صمد والصنع لم يشركه فيه أحد

إلى قال:

وللنصارى القول في التثليث أفظع به من مذهب خبيث[(٤)]

ومن ذلك مثلًا ما أورده القرطبي في مقدمة ردِّه على صاحب الكتاب وتناقضاته وأنه بكتابته فضح نفسه حيث استشهد على ذلك بهذا البيت:

وإن لسان المرء ما لم تكن له حصاة على عوراته لدليل[(٥)]

فالقرطبي بهذا البيت عبر باختصار بليغ كيف فضح هذا النصراني لسانه ودل على جهله وركاكة أسلوبه، وفي موضع آخر حينما حاول هذا النصراني إظهار فصاحته بجمل ساقها ردَّ عليه القرطبي بقول الشاعر:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

وذلك كناية عن قصوره وعجزه وعدم أهليته لهذا الأمر، وحينما استدل النصراني ببعض الآيات القرآنية على بعض باطله مؤولًا معناها الصحيح كان من إجابة القرطبي قول الشاعر:

ألق السلاح فلست من أكفائنا واقعد مكانك في الحضيض الأسفل[(٦)]

وذلك كناية على أن المسلمين هم أهل المعرفة بالقرآن وعلومه وتفسيره وليس هذا لك أيها النصراني، ولا شك أن معنى هذا البيت أغنى القرطبي عن مقال طويل في بيان أحقية المسلمين وقدرتهم على تفسير القرآن ومعرفة علومه وعجز أمثال هذا النصراني عن ذلك[(٧)].

---

(١) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٥٥٥).
(٢) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص٤١٨ .
(٣) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٥٦٠).
(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (١/ ٩٢٤، ٩٢٥).
(٥) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص٤٤ .
(٦) المصدر نفسه ص١٢٦ .
(٧) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٥٦٣).

وفي موضع آخر وفي مناقشة تناقض أمانة النصارى وقولهم فيها: إن المسيح الذي صلب سيعود لفصل القضاء بين الأحياء والأموات، ردَّ الجعفري على ذلك بقول الشاعر:

لألفينك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادني[١]

وقصد الجعفري بهذا البيت بيان عجز المسيح عن خلاص نفسه من القتل والصلب بزعم النصارى، فكيف يقدر على خلاصهم بجملتهم، وهذا المعنى لا شك يستغرق صفحات لو أراد الجعفري التفصيل في شرحه، وهكذا في مواضع كثيرة استغني الجعفري بأبيات شعرية تؤدي المعنى الذي يقصده دون إسهاب في تفصيل ذلك المعنى نثرًا[٢]، وكان القرافي في كتابه الأجوبة الفاخرة يستشهد أيضًا ببعض الأبيات الشعرية اختصارًا بها عن تفصيل ما يريد بيانه نثرًا قد يستغرق صفحات منه في بعض النقاط[٣].

تاسعًا: آثار دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية:

١- **دخول أعداد كبيرة من النصارى في الإسلام**: فمن ذلك مثلًا على مستوى القادة والعلماء النصارى إسلام أحد ملوكهم في شرق الدولة الإسلامية على يد الشيخ مختار بن محمود الزاهدي[٤]، وإسلام كاتب الديوان في بغداد واسمه جبرائيل بن منصور (ت٦٢٦هـ)[٥] ويحيى بن عيسى بن جزلة الطبيب البغدادي المتوفى سنة (٤٩٣هـ)[٦]، وكاتب الإنشاء للملك العادل ويقال له: ابن النحال حيث أسلم على يديه في حلب[٧]، وشيخ نصراني ذو أتباع أسلم على يد أبي شامة المقدسي سنة (٦٦١هـ)[٨]، ومن مقدمي الصليبيين الذين اعتنقوا الإسلام عدد من فرسانهم انضموا إلى جيش صلاح الدين معلنين اعتناقهم الدين الإسلامي[٩]، وفارس صليبي يدعى روبرت أوف سانت ألبانس أحد مقدمي فرسان المعبد أسلم سنة (١١٨٥م/ ٥٨٠هـ) وتزوج بإحدى حفيدات صلاح الدين[١٠]، بل إن ابني أخت الملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد هربا من معسكر الفرنج، والتحقا بجيش صلاح الدين معلنين اعتناقهم الإسلام وذلك سنة (٥٨٧هـ) ... حيث أكرمهما، وفارس صليبي مشهور يدعى رانيود أسلم وانضم بفرقته العسكرية إلى المسلمين[١١]، وكان سفير سلطان مصر إلى الملك الصليبي لويس إفرنجيا اعتنق الإسلام وصار ذا مكانة عند السلطان[١٢].

---

(١) تخجيل من حرَّف التوراة والإنجيل (١/ ٢٩٧).
(٢) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٥٦٣).
(٣) الأجوبة الفاخرة ص٣٣، ٧٤، ٩٧ .
(٤) الرسالة الناصرية ص٥٦، دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٤٤)
(٥) البداية والنهاية (١٣/ ١٣٥) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٤٤).
(٦) سير أعلام النبلاء (١٩/ ١٨٨).
(٧) كتاب الروضتين (٢/ ٥٢) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٤٤)
(٨) الدعوة إلى الإسلام، توماس آرنولد ص١١١ .
(٩) المصدر نفسه ص١١١، دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٤٤).
(١٠) الدعوة إلى الإسلام ص١٠٨، دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٤٤).
(١١) مذكرات جوانفيل ص١٦٨ .
(١٢) البداية والنهاية (١٣/ ١٠٠، ١٠١).

أما اعتناق رجال الدين النصارى للإسلام فإن هناك إشارات تدل على كثرتهم في هذه الفترة، فمن ذلك مثلًا: إسلام الراهب عبدالله الأرمني على يد الشيخ عبد الله اليونيني المتوفي سنة (٦١٧هـ) وكان زاهدًا ورعًا فيه تصوف(١)، حيث أسلم أيضًا على يد عبد الله الأرمني راهب آخر كان معتزلًا في صومعة له(٢)، وإسلام أحد علماء النصارى على يد الشيخ مختار بن محمود الزاهدي في خوارزم(٣)، وإسلام عبد الواحد الصوفي (ت٦٣٩هـ) والذي كان قسًّا في كنيسة مريم بدمشق نحوًا من سبعين سنة(٤)، وكذلك إسلام دانيال أسقف خابور في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي(٥)، وقد أشار توماس آرنولد نقلًا عن بعض المصادر اللاتينية إلى خلو كثير من الأسقفيات القبطية في بداية القرن الثالث عشر الميلادي في مصر من الأساقفة فمثلًا: في دير القديس مكاريوس وحده لم يبق غير أربعة من القسس بعد أن كان عددهم تجاوز الثمانين في عهد البطريق السابق(٦)، بل إن بعض رجال الدين الصليبيين المبشرين الفرنسيسكان الذي أرسل إلى إفريقية لهذه المهمة فعاد مسلمًا(٧)، وقد ذكر توماس آرنولد نقلًا عن بعض المصادر الغربية كثرة اعتناق القساوسة الصليبيين الإسلام في هذه الفترة(٨).

أما اعتناق الإسلام من قِبل عامة النصارى فإنه لا إشكال أن العراق وبلاد الشام ومصر وشمال إفريقيا والأندلس وغيرها من البلاد كانت الديانة الغالبة فيها قَبل ظهور الإسلام هي النصرانية، ومع انتشار الإسلام دخل الناس فيه من أهل هذه البلاد أفواجًا حتى أصبح الإسلام دين الغالبية، وأصحاب الديانات الأخرى أقلية بالنسبة إليه(٩)، وفي عصر الحروب الصليبية كانت هناك تحولات كبيرة من هذه الأقلية النسبية خاصة من النصارى إلى الإسلام حيث يدل على ذلك الإشارات المتناثرة في المصادر والمراجع المختلفة، فمن ذلك مثلًا قول سبط بن الجوزي: سمعت جدي على المنبر يقول: بأصبعي هاتين كتب ألفي مجلدة، وتاب على يدي مائة ألف، وأسلم على يدي عشرون ألفًا(١٠). وأسلم على يدي نحو مائتين من أهل الكتاب(١١).

---

(١) المصدر نفسه (١٣/ ١٥٢، ١٥٣) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٤٥).

(٢) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٤٥).

(٣) البداية والنهاية (١٣/ ١٦٩) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٤٥).

(٤) الدعوة إلى الإسلام ص١٠٧، دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٤٥).

(٥) الدعوة إلى الإسلام ص١٠٧، دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٤٥).

(٦) الدعوة إلى الإسلام ص٦٢٩ دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٤٥).

(٧) الأوضاع الحضارية في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية ص٢٣٣ .

(٨) الدعوة إلى الإسلام ص١١٢ دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٤٦).

(٩) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٤٦).

(١٠) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٢٧٠).

(١١) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٤٦).

في عهد صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، ولحسن معاملته لأقباط مصر تحول أعداد كبيرة منهم إلى الإسلام كما ذكر ذلك أحد مؤرخيهم[١]، وقد قال توماس آرنولد عن كثرة اعتناق القبط للدين الإسلامي: ولكثرة عدد القبط الذين كانوا يعتنقون الإسلام من حين إلى حين أخذ أتباع النبيّ يعتبرونهم أشد ميلًا لقبول الدين الإسلامي من أية طائفة أخرى[٢]، وبيَّن أنه حتى القرن التاسع عشر الميلادي لم تخلُ سنة من السنوات لم يتحول فيها القبط إلى الإسلام[٣]، أما إسلام العامة من النصارى الصليبيين فكان كثير جدًّا في هذه الفترة، ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره توماس آرنولد نقلًا عن بعض المصادر الغربية أنه في الحملة الصليبية الأولى انفصلت جماعة كبيرة من الألمان وغيرهم من الطائفة الرئيسية لتنضم إلى الجيش السلجوقي المسلم معتنقة الإسلام[٤]، وفي الحملة الصليبية الثانية انضمت فرقة كبيرة من الجيش الصليبي قوامها أربعة آلاف مقاتل تقريبًا إلى جيش المسلمين وذلك بعد فشل هذه الحملة، ولحسن المعاملة التي قوبلت بها هذه الفرقة اعتنق عدد كبير من أفرادها الإسلام بمحض إرادتهم وذلك سنة (٥٤٢هـ/ ١١٤٨م)[٥].

وكذلك كانت أخلاق صلاح الدين -رحمه الله تعالى- وحسن معاملته للنصارى الصليبيين دافعًا لأعداد كبيرة منهم إلى اعتناق الإسلام كما حدث بعد معركة حطين[٦] بشكل خاص، وقد قال أحد الكتاب الغربيين عن ذلك: .. حتى أن نفرًا من الفرسان المسيحيين بلغ من قوة انجذابهم إليه أن هجروا ديانتهم المسيحية[٧]، ونقل توماس آرنولد عن بعض المصادر الغربية أنه في الحملة الصليبية الثالثة انضمت أعداد كبيرة من الجيش الصليبي إلى المسلمين حيث اعتنق البعض منهم الإسلام، وقد ساق توماس شهادة مؤرخ غربي على ذلك رافق هذه الحملة، حيث قال هذا المؤرخ: وفريق من رجالنا .. تراهم يهجرون بني جلدتهم ويفرون إلى الأتراك فلم يترددوا أن يصبحوا في زمرة المرتدين، ولكي يطيلوا أعمارهم الموقوتة زمنًا قصيرًا اشتروا موتًا أبديًّا بهذا الكفر المفزع[٨].

وقد أشار توماس نفسه إلى كثرة تحول الصليبيين إلى الإسلام في فترة الحروب الصليبية حيث قال: ولكن بانتهاء القرن الحادي عشر الميلادي انضم إلى أهالي الشام وفلسطين من المسيحيين عنصر جديد يتألف من هذه الجموع الهائلة من الصليبيين الذين كانوا يدينون بشعائر الأمم

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ص١٣٠ دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٤٦).
(٢) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٤٧).
(٣) المصدر نفسه (٢/ ٧٤٧).
(٤) الدعوة إلى الإسلام ص١٠٨، دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٤٧).
(٥) المصدر نفسه ص١٠٩، دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٤٧)
(٦) شفاء القلوب في أخبار بني أيوب ص١٢١ .
(٧) الدعوة إلى الإسلام ص١١١، دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٤٧).
(٨) الدعوة إلى الإسلام، توماس آرنولد ص١١١ .

اللاتينية . . . وظلت تعيش مهددة قرابة قرنين من الزمن، وفي غضون هذه الفترة كانت تحدث من حين لآخر تحولات إلى الإسلام من بين هؤلاء المهاجرين الغرباء[١]، وقال أيضًا: . . . وكان عدد المرتدين عن المسيحية في القرن الثالث عشر الميلادي كثيرًا كثرة نلاحظها في سجلات الصليبيين القانونية التي يطلق عليها مجالس قضاء بيت المقدس[٢]. ومما يدل على كثرة اعتناق النصارى من الصليبيين الإسلام في هذه الفترة فزع أحد قساوستهم في الشام من ذلك وإرساله رسائل إلى البابا ورجال الدين في أوربا يطلب فيها ألا يرسلوا الضعفاء والفقراء؛ لأنهم أكثر عرضة لأن يفتنهم المسلمون فيعتنقوا الإسلام[٣].

٢- **تأثر النصارى بعادات المسلمين وأخلاقهم وتقاليدهم**: فمن ذلك مثلًا ما يتعلق باللباس والذي كان في غالب الأحيان لدى نصارى البلاد الإسلامية لا يختلف عن لباس المسلمين، فقد كان أحد الأساقفة الصليبيين والذي بعث إلى عكا قد أرسل إلى البابا في روما اشتكى فيها تشبه النصارى الصليبيين بالمسلمين في زيهم وطريقة حياتهم[٤]، وحتى بعض النصارى من الصليبيين كانوا يتشبهون بالمسلمين بالزي واللباس، فمن ذلك مثلًا تقليد النساء الصليبيات لنساء المسلمين بالحجاب واللباس المحتشم؛ حيث قال أحد الكتاب الأوربيين في ذلك: . . . وكانت النساء الصليبيات يقلدن المسلمات في لبس الحجاب الذي يضفي على المرأة الحشمة والوقار[٥]. ومن عادات المسلمين التي اكتسبها النصارى الصليبيون في هذه الفترة النظافة وكانت ليست بذات أهمية لديهم، وقد نقل أحد الباحثين رأيًا في ذلك لمؤرخ أوربي معاصر لفترة الحروب الصليبية وهو قوله: ولكنهم -أي: الصليبيين- يعيشون كالحيوانات، لا يغسلون أبدانهم ولا ثيابهم التي لا ينزعونها إلا إذا تمزقت[٦]، وبعد مخالطة الصليبيين للمسلمين اكتسبوا هذه العادة الحميدة فتردد الكثيرون منهم على الحمامات العامة المنتشرة في الشام ومصر حتى الرهبان والراهبات الذين يعتكفون في كنائسهم وأديرتهم، مما جعل أحد مقدميهم واسمه جاك دوفتري يحتج على الراهبات لخروجهن من الأديرة مخالفات بذلك تعاليم شريعتهم لينهبن إلى الحمامات العامة[٧].

وقد ساق أسامة بن منقذ نماذج على استغرابهم اهتمام المسلمين بالنظافة ومحاولتهم التشبه في ذلك وترددهم على الحمامات العامة للمسلمين رجالًا ونساءً لهذا الغرض[٨]، ومن العادات

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ص١١٢، دعوة المسلمين للنصارى (٢/٧٤٨).
(٢) الدعوة إلى الإسلام ص١١٠، دعوة المسلمين للنصارى (٢/٧٤٨).
(٣) الدعوة إلى الإسلام ص١١٠، دعوة المسلمين للنصارى (٢/٧٤٨).
(٤) الأوضاع الحضارية في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية ص٩٧، ٩٨ .
(٥) تاريخ الحروب الصليبية (٢/٥٠٩).
(٦) دعوة المسلمين للنصارى (٢/٧٥١).
(٧) المصدر نفسه (٢/٧٥١).
(٨) الاعتبار ص١٣٦، ١٣٧، دعوة المسلمين للنصارى (٢/٧٥٢).

الإسلامية التي اكتسبها الصليبيون النصارى الغيرة على النساء، وكانت هذه الغيرة مفقودة جدًّا لديهم؛ حيث قال أسامة بن منقذ في سياق عرضه لمشاهداته وقائع في حياتهم وعرضه لنماذج منها تدل على ذلك بقوله: ... ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة، يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدثا معا والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث فإذا طولت عليه خلالها مع المتحدث ومضى[1]. وقد أشار أحد الباحثين إلى تغير هذه العادة القبيحة نسبيًّا في الجيل الثاني من الصليبيين بعد إقامتهم في البلاد الإسلامية[2]، ومن الصليبيين من تشبه بالمسلمين حتى في الطعام فترك أكل الخنزير مثلًا[3].

ومن أهم ما أكتسبه بعض الصليبيين النصارى من المسلمين لين الطباع وحسن التعامل وهذا ما لاحظه أسامة بن منقذ من خلال تعامله معهم وسبره لهذا الجانب فيهم بين من قدموا حديثًا من بلادهم وبين من عاشروا المسلمين وتعاملوا معهم واكتسبوا شيئًا من أخلاقهم؛ حيث قال أسامة عن ذلك: فكل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقًا من الذين تبلدوا وعاشروا المسلمين[4]. ومن المعروف في النصرانية تحريم التعدد بزعمهم، ومع ذلك فبعضهم قلد المسلمين وتزوج أكثر من واحدة خاصة بعض زعمائهم وقوادهم[5]، ومن مظاهر تأثر كثير من النصارى بالمسلمين في هذه الفترة اتجاه كثير منهم إلى تعلم اللغة العربية[6]، فالصليبيون في الشام اهتموا بذلك فكان بعض قادتهم يتحدث العربية كريموند صاحب طرابلس، وبعضهم وضع له قارئًا بها كصاحب صيدا[7]، وحرص بعض قادتهم كذلك بأن يتعلم موظفوه ومن تحت يده في بعض الأعمال اللغة العربية كما في موظفي الجمارك في عكا والذين قابلهم ابن جبير في زيارته للشام في هذه الفترة[8]، وأسامة بن منقذ كان يربطه مع بعض فرسان الفرنج نوع من الصداقات، وكان يتعامل معهم وهو لا يجيد لغاتهم مما يدل على أن منهم أعدادًا تتحدث باللغة العربية[9].

وفي الأندلس كان تأثر النصارى باللغة العربية -لغة المسلمين- أكثر وضوحًا؛ إذ صارت هي لغة الحياة العامة في المجتمع الأندلسي[10]، وهكذا فكما أن الشخص لا يتأثر بشيء ويقلده إلا من باب الإعجاب به والاقتناع بقيمته، فإن بعض النصارى بتشبههم بالمسلمين في بعض الصفات وتأثرهم بها دليل على الإعجاب بها والرضا عنها والاعتراف الضمني بقيمة الدين الذي جاء بها وحثَّ عليها[11].

---

(١) المصدر نفسه ص١٣٥، المصدر نفسه (٢/ ٧٥٢).
(٢) العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ص١٩٢ .
(٣) الاعتبار ص١٤٠، دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٥٢).
(٤) المصدر نفسه (٢/ ٧٥٣).
(٥) المصدر نفسه (٢/ ٧٥٣).
(٦) المصدر نفسه (٢/ ٧٥٣).
(٧) المصدر نفسه (٢/ ٧٥٣).
(٨) رحلة ابن جبير ص٢٧٥، ٢٧٦ .
(٩) الاعتبار ص٨٧، دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٥٣).
(١٠) المسلمون في تاريخ الحضارة ص٧٩ .
(١١) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٥٤).

٣- تحسن نظرة كثير من النصارى للإسلام والمسلمين: وقد نقل توماس آرنولد عن بعض الكُتَّاب الغربيين ما يؤيد ذلك، كقول أحدهم : ... ومن المؤكد أن المسيحيين من أهالي هذه البلاد قد آثروا حكم المسلمين على حكم الصليبيين[1]، وقول أحدهم: ... ويظهر أن أهالي فلسطين من المسيحيين لما وقع بيت المقدس في أيدي المسلمين نهائيًا سنة (٦٤١ هـ/ ١٢٤٤م) رحَّبوا بالسادة الجدد واطمأنوا إليهم ورضوا بحكمهم[2]، كذلك الحال بالنسبة لكثير من نصارى آسيا الصغرى في هذه الفترة الذين فضلوا حكم السلاجقة المسلمين على سيطرة إخوانهم من النصارى من البيزنطيين[3]، أما بالنسبة للنصارى الصليبيين فقد تغيرت نظرتهم للإسلام والمسلمين نتيجة للجهود الدعوية المختلفة الموجهة إليهم في هذه الفترة، فمثلًا أن أحد رسلهم ويدعى بركارد حينما قابل صلاح الدين سنة (٥٨٠هـ/ ١١٧٥م) عاد إلى قومه وأخبرهم بما لاحظه من أن المسلمين يؤمنون بإله واحد خالق كل شيء، وأن محمدًا ﷺ نبيٌّ مُرسل من الله جلَّ وعلا.

ومن مظاهر تغير هذه النظرة الحاقدة لدى النصارى تجاه المسلمين وجود نوع من الصداقات بين المسلمين والنصارى، ومن ذلك مثلًا ما كان لأسامة بن منقذ من أفراد منهم يعدهم أصدقاء له وكانوا يمكنونه من الصلاة في المسجد الأقصى حينما كان تحت سيطرة النصارى[4]، وابن جبير الذي زار المنطقة في هذه الفترة رأى عرسًا إفرنجيًا حضره جمع من المسلمين، وكان من مشاهداته أن بعض النصارى إذا رأى أحدًا من المسلمين انقطع للعبادة أتوه بالماء والزاد[5]، بل إنه في بعض جبهات القتال لطول المخالطة والمواجهة بين الفريقين أنس البعض بالبعض، بل وتجري في بعض الأحيان ألعاب ومسابقات على سبيل الترفيه بين الطرفين[6].

وكان التجار المسلمون والنصارى على حال من الاختلاط والمعاملة التي أزالت كثيرًا من الحدة والحقد والعداء الشديد الذي كان يحمله غالب الصليبيين في بداية قدومهم، وقد قال ابن جبير عن ذلك: ... واختلاط القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين إلى عكا كذلك ... والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال، وأهل الحرب مشغلون في حربهم... ولا تعترض الرعايا ولا التجار فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلمًا وحربا[7]. وقال أحد الكتاب الغربيين مبيِّنًا تبدل النظرة لدى متأخري الصليبيين عن سابقيهم: ... ولقد تحدث بعض المؤرخين أمثال وليم كبير أساقفة صور عن الحضارة

(١) الدعوة إلى الإسلام ص١١٦ .
(٢) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٥٤).
(٣) المصدر نفسه (٢/ ٧٥٥).
(٤) الاعتبار، أسامة بن منقذ ص١٣٤، ١٣٥ .
(٥) رحلة ابن جبير ص٢٥٩، ٢٦٠ .
(٦) النوادر السلطانية ١٦٩، ١٧٠ .
(٧) رحلة ابن جبير ص٢٥٩، ٢٦٠ .

الإسلامية حديثًا ملأه الإجلال بل الإعجاب في بعض الأحيان لو سمعه المحاربون في الحملة الصليبية الأولى لهزمهم وصدم مشاعرهم وكبرياءهم[١]، ولا أدل على تبدل هذه النظرة من سماح الصليبيين للمسلمين الخاضعين لحكمهم من ممارسة شعائرهم الدينية كما في عكا وطرابلس، وأنطاكية وجبلة وغيرها، وكان أسلاف هؤلاء في حملتهم الأولى حينما رأوا لأول مرة مسجدًا في القسطنطينية تقام فيه الصلاة أحرقوه بما فيه[٢]، وقد بيَّن توماس آرنولد هذه الحقيقة وهي أنه ليس عامة الصليبيين فحسب هم الذين تغيرت نظرتهم إلى المسلمين، بل إن علماء اللاهوت المسيحي قد أدى اختلاطهم بالمسلمين إلى تكوين رأي أكثر إنصافًا عن الإسلام[٣].

٤- نجاح المسلمين في كسب بعض النصارى الصليبيين: كان من حسن سياسة نور الدين محمود -مثلًا- مع بعض القادة النصارى أن كسبهم إلى جانبه ضد بني ملتهم، ودرأ بذلك خطرًا عظيمًا عن الإسلام بعدما كادوا أن يتفقوا ضد المسلمين وذلك سنة (٥٤٤هـ)[٤]، وكذلك صلاح الدين حينما صالح صاحب صيدا حتى جعله يقاتل في صف المسلمين ضد بني ملته وكان له أثر موجع عليهم وكذلك صاحب صور الذي جاهر بعداء بني ملته[٥]، وبعد معركة حطين وما ظهر من نبله وكرمه وصفحه عن بعض قادة الصليبيين أن أقسم بعضهم ألا يواجهه في قتال[٦].

٥- حسن معاملة النصارى لمن تحت أيديهم من المسلمين: ومن مظاهر التحسن -مثلًا- أنه في بعض القرى الواقعة تحت النفوذ الصليبي يتمتع أهلها المسلمون بحكم ذاتي لهم يحكمهم واحد منهم كما هي الحال في جبلة، وقد لمس الأحوال المعيشية الهادئة التي تعيشها بعض القرى والمدن الإسلامية تحت الحكم الصليبي ابن جبير حتى أنه خشي على أهلها من الفتنة مقابل بعض الاضطهاد الذي يلاقيه إخوانهم من قِبل بعض الولاة المسلمين في بعض المناطق الإسلامية، حيث قال: ... وطريقنا كله ضِياع متصلة وعمائر منتظمة سكانها كلها مسلمون، وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه -نعوذ بالله من الفتنة- ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم، وكل ما بأيدي الفرنج من المدن بساحل الشام على هذا السبيل، ثم وصف ابن جبير استقرار أحوالهم وخشيته عليهم من الفتنة بالنصارى لذلك حيث قال: .. وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه إخوانهم من أهل الرساتيق المسلمين وعمالهم؛ لأنهم ضد أحوالهم في الترفيه والرفق، وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين[٧].

---

(١) قصة الحضارة (٢٢/٦٥).
(٢) المصدر نفسه (٤/ ٥٠) دعوة المسلمين للنصارى (٢/٧٥٨).
(٣) دعوة المسلمين للنصارى (٢/٧٥٨).
(٤) كتاب الروضتين (١/ ١٢٣) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٥٨).
(٥) النوادر السلطانية ص٢٩٨، المصدر نفسه (٢/٧٥٩).
(٦) قصة الحضارة (٤/٣٨) المصدر نفسه (٢/٧٥٩).
(٧) رحلة بن جبير ص٧٤، ٧٥، دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٦١).

٦- ظهور عزة الإسلام وتغير التكتيك الصليبي: كان من أهم آثار الجهود الدعوية هو أن يكون الدين كله لله، وذلك بإقامة شرعه على أرضه وإرشاد الناس إلى سبيله، وكان من أهم آثار الجهود الدعوية المختلفة خاصة الجهاد في سبيل الله في هذه الفترة إزالة الحكم الصليبي النصراني من المناطق التي زحف عليها وطرده كليًا وإعادة الحكم الإسلامي فيها، وما ترتب على ذلك من إظهار لعزة الإسلام وقوة المسلمين[١]، وهذا ما جعل الأعداء المتربصين من النصارى الصليبيين يعيدون تخطيطهم ويغيرون أساليبهم في محاربة المسلمين وفتنتهم عن دينهم، فقرروا لذلك التركيز على الناحية الفكرية بعد ما لم تنجح الجحافل العسكرية في صرف المسلمين عن دينهم وإقامة دولة نصرانية في قلب البلاد الإسلامية، لذلك تكونت بدايات ما يسمَّى بالغزو الفكري للشعوب الإسلامية، فاتجهت الجهود إلى إرسال جحافل من المبشرين الذين يتسللون إلى الشعوب الإسلامية بشكل سلمي ليفتنوهم عن دينهم بالإقناع والتفاهم تحت ستار العمل الخيري، فكان لذلك تأسيس المدارس النصرانية والجماعات التنصيرية لتحقيق هذا الهدف بعد ما عجزت عنه القوة العسكرية، وقد كان من أول هذه المؤسسات التبشيرية الرهبنة الكرملية التي تأسست في عام (٥٤٨هـ/ ١١٥٤م) في طرابلس لبنان، ثم الفرنسيسكان والدومنيكان في مطلع القرن الثالث عشر[٢]، ومنذ ذلك الوقت تتابع الدعاة لبث أفكارهم التنصرية في العالم الإسلامي، وقد قال أحد الكتاب الأوربيين عن ذلك: إذ حدث في القرن الثالث عشر أن بدأ نشاط تبشيري ضخم، وهذا النشاط إنما نجم عن الحروب الصليبية والاتصال بالمسلمين[٣]، وكانت البداية العملية المنظمة لهذا العمل على يد ريموندل وهو أسباني تعلم اللغة العربية وكرَّس حياته لتنظيم العمل التبشيري على أرضهم بواسطة دراسة لغتهم والتنصير بينهم، ثم إرسال الجيوش العسكرية بعد ذلك[٤].

٧- تأجيل إخراج المسلمين من الأندلس: ساءت أحوال المسلمين في الأندلس من جراء ضعف الخلافة الأموية فيها ومن ثم انتهاؤها سنة (٤٢٢هـ) حين أعلن أهل قرطبة إلغاءها وعلى رأسهم جهور بن محمد بن جهور[٥]، فقامت على أنقاضها ما يسمى بدول الطوائف التي بلغت عشرين دولة تقريبًا، حيث تغلب كلٌّ على جهة وتلقب بالإمارة، بل والخلافة، فمنهم من تسمى بالمعتضد، وبعضهم تسمى بالمأمون، وآخر تسمى بالمستعين والمقتدر والمتوكل والموفق إلى غير ذلك من الألقاب التي قال عنها الشاعر الحسن بن رشيق:

مما يزهدني في أرض أندلس ... سماع مقتدر فيها ومعتضد

(١) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٦٢).
(٢) الأوضاع الحضارية في بلاد الشام ص١٣٦ .
(٣) الحروب الصليبية، آرنست باركر ص١٤٢ .
(٤) البيان المغرب في أخبار الأندلس نقلًا عن دعوة المسلمين (٢/ ٧٦٣).
(٥) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٦٣).

ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخًا صولة الأسد[١]

ومع هذا الوضع المتردي لدول الطوائف أخذت الممالك النصرانية تتوسع على حسابها، فسقطت طليطلة بيد الأذفونش ملك قشتالة وليون وذلك سنة (٤٧٨هـ)[٢]، ولم تلق المساندة الكافية لصد العدوان النصراني عليها من قِبل أمراء الدويلات الإسلامية الأخرى التي كانت تتصارع فيما بينها وتطلب ودَّ النصارى حفاظًا على الطموحات الشخصية لبعض أمرائها الذي بلغ الحال بعدد منهم أن استعانوا بالنصارى ضد إخوانهم المسلمين، لذلك ساد الفزع بين مسلمي الأندلس لسرعة تقدم النصارى وما يتوقعونه من نهاية سيئة لهم من جراء ذلك، حتى عبر أحد الشعراء عن هذه الحالة بعد سقوط طليطلة بقوله:

يأهل أندلس شدُّوا رحالكم فما المقام بها إلا من الغلط
السلك ينثر من أطرافه وأرى سلك الجزيرة منثورًا من الوسط
من جاور الشر لا يأمن بوائقه كيف الحياة مع الحيات في سفط[٣]

ولهذا الوضع المفزع في الأندلس دبَّت الغيرة في بعض أمراء الطوائف وبعض العلماء لحماية المناطق الإسلامية من النصارى، فكانت الدعوة للمرابطين لدخول الأندلس حيث تغيرت الكِفَّة وانحصر نفوذ النصارى، فكان قدوم المرابطين منقذًا للمسلمين في الأندلس من طمع النصارى ومحافظًا على بقائهم فيها بعد أن أوشك على الزوال، وقد قال عن ذلك أحد المؤرخين الأندلسيين بعد ما وصف الأوضاع المضطربة فيها قبل النجدة المرابطية: . . . إلى أن جمع الله الكلمة ورأب الصدع ونظم الشمل، وحسم الخلاف، وأعز الدين، وأعلى كلمة الإسلام، وقطع طمع العدو بيمن نقيبة أمير المسلمين وناصر الدين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين[٤]. وعبور المرابطين لنجدة إخوانهم مسلمي الأندلس كان في سنة (٤٧٩هـ) حيث جرت معركة الزلاقة المشهورة مع النصارى والتي انتصروا فيها واندحر الزحف النصراني على المناطق الإسلامية آخذًا بالتقهقر[٥]، ومنذ ذلك الحين عمل المرابطون على تثبيت سلطانهم في الأندلس وتوحيد الطوائف فيها تحت سيطرتهم والوقوف في مواجهة النصارى وجهادهم في البلاد الأندلسية حتى كان تضعضعهم وضعف سلطانهم إثر سقوط عاصمتهم في المغرب مدينة مراكش سنة (٥٤١هـ) وبعد اضطراب أحوال الأندلس طمع النصارى في استغلال ذلك فاجتاز الموحدون إليها وكان لهم الجهد المشكور في مواجهتهم وكبح جماحهم ومن ثم الحفاظ على البقاء الإسلامي في

---

(١) المصدر نفسه (٢/ ٧٦٣).
(٢) نفح الطيب (٤/ ٣٥٢-٣٥٤).
(٣) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض (١/ ٤٦).
(٤) المعجب في تلخيص المغرب ص١٤٧، دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٦٤).
(٥) الكامل (٨/ ٣٠٧ -٣١٠).

الأندلس[١]. حتى ضعف سلطانهم ثم سقوط دولتهم في سنة ٦٦٨هـ[٢]، فورثها مجموعة من الدويلات التي تساقطت في أيدي النصارى الواحدة تلو الأخرى حتى كان آخرها سقوط غرناطة سنة (٨٩٧هـ)[٣]، وهكذا فإن جهاد المرابطين ثم الموحدين في فترة الحروب الصليبية كان من أبرز العوامل، بل أهمها في الحفاظ على الوجود الإسلامي في الأندلس وتأخير إخراج المسلمين منها[٤].

عاشرًا: آثار الدعوة الإسلامية في أوربا:

لم تقتصر آثار الجهود الدعوية التي بذلها المسلمون في عصر الحروب الصليبية تجاه النصارى على البلاد الإسلامية فحسب، بل امتدت آثارها إلى أوربا نفسها منطلق العدوان الصليبي الحاقد على البلاد الإسلامية، حيث تفاوتت هذه الآثار قوة وضعفًا بين الجهات الأوربية؛ فبينما كانت أكثر وضوحًا في الجهات الجنوبية من أوربا وفي الممالك النصرانية المحاذية للمسلمين في الأندلس فإنها أقل وضوحًا من الجهات الشمالية والغربية من أوربا، وفيما يلي عرض لشيء من هذا الآثار:

١- تأثر بعض الأوربيين بشيء من العادات والتقاليد الإسلامية: ففي صقلية مثلًا -وكانت السلطة والدولة للنصارى فيها بعد أن كانت للمسلمين- امتدت آثار الجهود الدعوية المختلفة إلى نصارى هذه البلاد، فمنها على سبيل المثال: تقليد بعضهم للمسلمين في اللباس والنظافة بل وصل الأمر بالبعض منهم إلى اعتناق الإسلام، فمما شاهده ابن جبير في حاضرة صقلية من ذلك قوله: ... وزي النصرانيات في هذه المدينة زي نساء المسلمين، فصيحات الألسن، ملتحفات منقبات[٥]. ومما يتصل بذلك انتشار بعض الأزياء الإسلامية في أوربا في تلك الفترة والتي منها ما يحتفظ باسمه العربي إلى وقتنا الحاضر كأنواع من القمصان والمعاطف والعباءات وغيرها[٦]، بل إن بعض القادة الأوربيين كانوا يقلدون قادة المسلمين في اللباس وبعض العادات؛ كروجر الثاني، وفريدريك الثاني في صقلية[٧]، وألفونسو السادس ملك قشتالة، وغيرهم[٨].

ومن الشعائر الإسلامية التي تشبَّه النصارى بالمسلمين فيها كذلك غسل الميت خاصة في الممالك النصرانية بالأندلس[٩]، ولذلك فإن بعض الكُتَّاب الأوربيين عدَّ الحروب الصليبية من

(١) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٦٥).
(٢) نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب (١/ ٤٤٦).
(٣) التاريخ الأندلسي ص٥١٣ .
(٤) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٦٥).
(٥) رحلة ابن جبير ص٣٠٧ .
(٦) أثر الحروب الصليبية في الحضارة الأوربية ص٨٠ .
(٧) رحلة ابن جير ص٢٩٨، دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٦٧).
(٨) الإسلام في أسبانيا ص٩٨، دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٦٧).
(٩) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٦٨).

أهم أسباب امتداد النفوذ الإسلامي في أوربا واكتساحه الكامل آسيا الصغرى وبلاد الشام، وقد كان قبل هذه الفترة جزء كبير من آسيا الصغرى ينتمي إلى الكنيسة اليونانية مع وجود بعض الدويلات النصرانية في الشام(١).

٢- إعجاب بعض القادة الأوربيين بالحضارة الإسلامية: ومن الأمثلة على هؤلاء القادة: روجر الثاني أحد ملوك صقلية الذي استحضر كثيرًا من الكتب العربية وأمر بترجمتها وكان يجل العلماء المسلمين ويقدرهم، فكان الإدريسي إذا جاء إلى مجلسه أكرمه واحترمه ووسع له(٢)، ومن ملوك صقلية المعجبين بالحضارة الإسلامية كذلك الإمبراطور فريدريك الثاني الذي كان متأثرًا بكل ما هو عربي، وكان يجيد اللغة العربية كما لو كانت لغته الأم، وخلال طفولته كان على علاقة بقاضي المسلمين في مدينة بالرمو الذي قدم له عددًا من الكتب العربية في مختلف العلوم(٣)، وكان الإمبراطور فريدريك كثير الاتصال بالملك الكامل في مصر بشأن بعض المسائل العلمية، ومن ذلك مثلًا إرساله بعض الأسئلة إليه ليجيب العلماء المسلمون عليها(٤)، ثم محاوراته العلمية مع أحد سفراء الملك الكامل إليه والذي كان من العلماء المسلمين في مصر(٥)، ومن القادة النصارى الذين أعجبوا بالحضارة الإسلامية بعض ملوك الدول النصرانية في الأندلس، فقد كان ألفونسو السادس في طليطلة يحب العلماء المسلمين، بل إن أكثر مستشاريه ومعاونيه من المسلمين(٦)، وكذلك ألفونسو العاشر ملك قشتالة كان مقربًا للعلماء المسلمين ومستخدمًا لهم في كثير من المهام(٧).

٣- حسن معاملة بعض قادة أوربا للمسلمين الخاضعين لحكمهم: ومن ذلك -مثلًا- ما لقيه المسلمون في صقلية من تسامح وهدوء تحت سلطة بعض حكامها كروجر الثاني الذي قال عنه ابن الأثير: فسلك طريق ملوك المسلمين .. وجعل له ديوان المظالم ترفع إليه شكوى المظلومين، فينصفهم ولو من ولده، وأكرم المسلمين وقربهم ومنع عنهم الإفرنج فأحبوه(٨)، وشاهد ابن جبير جانبًا من الأوضاع الحسنة للمسلمين في صقلية تحت حكم فريدريك الثاني، ففي حاضرة صقلية قال ابن جبير عن أوضاع المسلمين: . . . وللمسلمين بهذه المدينة رسم باقٍ من الإيمان؛ يعمرون أكثر مساجدهم ويقيمون الصلاة بأذان مسموع، قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى(٩)، وقال: وأما المساجد فكثيرة لا تحصى وأكثرها محاضر لمعلمي القرآن(١٠)،

---

(١) المصدر نفسه (٢/ ٧٦٩).

(٢) الوافي بالوفيات ص٦٥٧، دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٦٩).

(٣) شمس العرب تسطع على الغرب ص٤٣٣ .

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك (١/ ٢٣٢).

(٥) تاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رانسيمان (٣/ ٣٢٧).

(٦) الإسلام في أسبانيا، د/ لطفي عبد البديع ص١٦٨ .

(٧) فضل الإسلام على الحضارة الغربية ص٧٦ .

(٨) رحلة ابن جبير ص٣٠٥ .

(٩) المصدر نفسه ص٣٠٥ ، ٣٠٦ دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٧٢).

(١٠) رحلة ابن جبير ص٣٠٢، دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٧٢)

وعن حسن معاملة النصارى للمسلمين في هذه المدينة قال ابن جبير: ... وطوائف النصارى يتلقوننا فيبادروننا بالسلام علينا ويؤنسوننا، فرأينا من سياستهم ولين مقصدهم مع المسلمين ما يوقع الفتنة في نفوس أهل الجهل[١].

وكان المسلمون المقيمون في القسطنطينية في هذه الفترة ينعمون بشيء من الحرية وإظهار شعائرهم الدينية وكان لهم جامع يؤذن ويصلى فيه[٢]، ولم يقتصر الأمر على تمتع المسلمين في بعض الدول النصرانية بالحرية والأمن، بل إن أعدادًا منهم بلغت حظوة ومكانة لدى بعض القادة النصارى[٣]، ومن ذلك -مثلًا- ما ذكره ابن الأثير عن روجر الثاني صاحب صقلية من أنه اتخذ رجلًا من أهل الصلاح يستشيره ويقدمه على الرهبان ويكرمه ولذلك يُتَّهم بأنه مسلم[٤]، وكان ابن غليام الأول يُحاط بحرس من المسلمين[٥]، وأما فريدريك الثاني فقد قال عنه ابن جبير: وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم في أحوالهم والمهم من أشغاله[٦]، وقال عنه أيضًا: أما فتيانه الذين هم عيون دولته وأهل عمالته في ملكه فهم مسلمون، ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوعًا وتأجرًا ويتصدق إلى الله تزلفًا[٧].

وهكذا، فإن هذه الأوضاع الحسنة للمسلمين في بعض الدول النصرانية قد كان للجهود الدعوية المبذولة من المسلمين في هذه الفترة أثر كبير في تحقيقها[٨]، كما كان للنموذج الإسلامي الأخلاقي في التعامل والحكمة الذي قدمها المسلمون أثر واضح.

٤- اهتمام كثير من علماء الغرب بثقافة الشرق: تأثر كثير من علماء الغرب بالمستوى الراقي للحضارة الإسلامية، وتعرَّفوا على علماء أفذاذ في مختلف العلوم واستفادوا منهم فائدة عظيمة، ومن هؤلاء أديلا رادوف بات الذي زار الأندلس في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي ثم سافر إلى مصر وآسيا الصغرى واطلع على كثير من العلوم في البلاد الإسلامية، وانتقلت بواسطته إلى الغرب معلومات مهمة عن الشرق الإسلامي[٩]، وكذلك لبونارد فيوناش الذي زار مصر والشام وكان معاصرًا لفريدريك الثاني ملك صقلية[١٠]، وجيرارد الكريموني الذي قدم من إيطاليا سنة (٥٤٥هـ) وبقي في طليطلة حتى وفاته سنة (٥٨٢هـ/ ١١٨٧م) وكان له جهود كبيرة في الترجمة[١١]؛ حيث ترجم أكثر من مائة كتاب من الكتب الإسلامية إلى

(١) رحلة ابن جبير ص٣٠٣، دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٧٢).
(٢) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٧٣).
(٣) الكامل في التاريخ (٩/ ١٣٣) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٧٣).
(٤) العرب في صقلية ص١٤٦ .
(٥) رحلة ابن جبير ص٢٩٨ .
(٦) رحلة ابن جبير ص٢٩٨ .
(٧) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٧٤).
(٨) فضل الإسلام على الحضارة الغربية ص٨٥ .
(٩) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٧٥).
(١٠) فضل الإسلام على الحضارة الغربية ص٨٤ .
(١١) الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس ص٥٤٢ .

اللاتينية[١]، وكان للأسقف رايموند الذي تولى أسقفية طليطلة بين سنتي (٥٢٦هـ، ٥٤٧هـ) دور كبير وجهود بارزة في ترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية والتشجيع على ذلك، بل إنه كان يتولى رئاسة طائفة من المترجمين عرفت بمدرسة المترجمين الطليطيين[٢]، وكانت هناك أعداد كبيرة من العلماء الأوربيين اهتمت بالترجمة من الثقافة العربية الإسلامية إلى اللغات الأوربية في الحياة الفكرية في أوربا الغربية[٣].

وقد قال كاتب غربي عن أثر ما نقله هؤلاء العلماء الأوربيين عن المسلمين عن طريق الترجمة: وقد أحدثت هذه التراجم كلها في أوربا اللاتينية ثورة عظيمة الخطر، ذلك أن تدفق النصوص العلمية من بلاد الإسلام واليونان كان له أعمق الأثر في استثارة العلماء الذين بدءوا يستيقظون من سباتهم[٤]، وقال: . . كذلك أثارت هذه التراجم عقل أوربا وحفزته إلى البحث والتفكير[٥]. ولقد أثرت المفاهيم الإسلامية في الأوربيين وكان لا بد من أن يحدث توسعًا في علوم الدين وفي تعديل أفكار العلماء عن الإله[٦]، وشاع لدى النصارى في بعض مناطق أوربا خاصة في الممالك النصرانية في الأندلس بعض الكلمات العربية ذات المدلول الديني الإسلامي، ومن ذلك مثلًا قولهم: DIS DIOS QUIERE ومعناه: قول المسلم: إن شاء الله[٧]، ويتردد كثيرًا في أحاديثهم OJALA للتعبير عن العجب أو الدهشة وما شابه ذلك ومعناه الحرفي: ما شاء الله، كذلك بعض ألفاظ التحية والسلام وغير ذلك[٨]، وفي صقلية وجنوب إيطاليا انتشرت عملات نصرانية كُتب عليها آيات قرآنية منها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف: ٩] وكانت علامة أحد ملوك صقلية: (الحمد لله شكر لأنعمه) ولا شك أن هذه العبارات والمفاهيم وأمثالها وهي تتردد بين عامة النصارى الأوربيين لها أثرها على المدى الطويل[٩].

٥- تأثر النصارى باللغة العربية: كان البعض من الصليبيين الذين قدموا من أوربا وعاشوا فترة في البلاد الإسلامية قد اكتسبوا اللغة العربية[١٠]، ولا شك أن هؤلاء عند عودتهم إلى بلدانهم لم ينسوا اللغة العربية التي اكتسبوها في البلاد الإسلامية وما نقلته مفرداتها إليهم من بعض المفاهيم الدينية عن الإسلام والتي كان يجهلونها قبل ذلك فنقلوها هم بدورهم إلى أفراد مجتمعاتهم في البلاد الأوربية، ولكثرة المتحدثين باللغة العربية في بعض البلاد الأوربية، ولكثرة

(١) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٧٥).
(٢) فضل الإسلام على الحضارة الغربية ص٨٦.
(٣) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٧٨) نقلًا عن قصة الحضارة (٤/ ٢١).
(٤) قصة الحضارة (٤/ ٢٢) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٧٨).
(٥) الإسلام في أسبانيا، د/ لطفي عبد البديع ص٩٥.
(٦) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٧٩).
(٧) الإسلام في أسبانيا، د/ لطفي عبد البديع ص٩٥.
(٨) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٧٩).
(٩) المصدر نفسه (٢/ ٧٧٩).
(١٠) العرب في صقلية، د/ إحسان عباس ص١٤٦.

المقبلين على تعلمها اتخذت لغة رسمية في بعض المناطق بجانب اللغات الغربية، ففي صقلية كانت اللغة العربية إحدى اللغات الثلاثة التي أقرتها الدولة في سجلاتها بجانب اليونانية واللاتينية[(١)]، وفي بعض المناطق التي زحف عليها النصارى في الأندلس كطليطلة وقرطبة والمناطق الشمالية والغربية وغيرها كانت هناك لغتان الأسبانية والعربية، بل إن بعض المفكرين الأوربيين المتعصبين تأسف كثيرًا على هجر كثير من النصارى لغتهم اللاتينية وولعهم باللغة العربية وثقافتها[(٢)].

ولم يقتصر الإقبال على اللغة العربية من عامة الناس في أوربا، بل إن أعدادًا من القادة الأوربيين تعلموها وتحدثوا بها رغبة منهم في الاطلاع على الحضارة الإسلامية، ومن أبرز هؤلاء روجر الثاني وفريدريك الثاني في صقلية، وقد قال ابن جبير عن الأخير: ومن عجب شأنه المتحدث عنه أنه يقرأ ويكتب بالعربية[(٣)]، ولذلك فإن شيوع اللغة العربية نسبيًّا في المجتمعات الأوربية وكثرة الإقبال على تعلمها جعل أحد رجال الدين النصارى في مجتمع فينا (٧١٠هـ/ ١٣١١م) يدعو إلى إنشاء ست مدارس لتعليم اللغات الشرقية في أوربا[(٤)]، ولهذا الانتشار للغة العربية في أوربا -كان للجهود الدعوية المختلفة التي بذلها المسلمون في هذه الفترة تجاه النصارى دور في ذلك- تسللت مئات الكلمات العربية إلى اللغة الأوربية خاصة اللغتين الإنجليزية والأسبانية[(٥)].

٦- **فقدان الثقة بالبابا ورجال الدين:** كانت الكنيسة مهيمنة على الحياة العامة في أوربا، محاربة لكل ما يهدد هذه الهيمنة من الملوك أو المفكرين، فالبابا -وهو رأس الكنيسة- أصبحت بيده السلطة الدينية وحتى السياسة في هذه الفترة، مما جعل المعاصرين يعتبرونه ملك الملوك وأمير الأمراء[(٦)]؛ لنفوذه القوي على ملوك أوربا في تلك الفترة، فكان من حق البابا أن يفرض الضرائب على رعايا الملوك وأن يحولها إلى روما، وكانت صكوك الغفران وصكوك الحرمان أداة للضغط بيده في مواجهة معارضيه[(٧)].

وهذه الهيمنة الدينية والسياسية لسلطة الكنيسة تضاءلت كثيرًا في أوربا بعد نهاية الحرب الصليبية، وقد قال أحد الكُتَّاب الغربيين عن ذلك: ... وعظم سلطان الكنيسة وعلت مكانتها إلى أبعد حدٍّ بسبب الحملة الصليبية الأولى، ثم أخذت تضعف بالتدرج بسبب الحملات التي

---

(١) الإسلام في أسبانيا ص١١٠، دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٨٠).

(٢) رحلة ابن جبير ص٢٩٨، دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٨٠).

(٣) الحروب الصليبية، آرنست ص١٥٠ .

(٤) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٨٠).

(٥) أوربا في العصور الوسطى (٢/ ٢١٦).

(٦) قصة الحضارة (٤/ ٦٦).

(٧) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٨٢).

تلتها[(١)]، وما من شك أنه كان للجهود الدعوية المختلفة التي بذلها المسلمون في هذه الفترة من سفارة ورسائل ورسل ومخالطة وكتابة ولقاءات وجهاد أثر كبير في ذلك[(٢)]، ومع مرور الوقت قلَّت هيبة الكنيسة ومكانتها في نفوس العامة وأدركت الشعوب الأوربية كذب ما يدعيه البابا من أنه نائب عن الله في الأرض وأنه معصوم عن الخطأ؛ فقلَّت الثقة به وسائر رجال الدين النصارى، ومن الشواهد على ذلك مثلًا: أنه عندما دعا بعض الرهبان في أوربا إلى حملة صليبية جديدة سخر الناس منه وعمِد بعضهم إلى توزيع الصدقات على الفقراء باسم محمد ﷺ على سبيل السخرية من هؤلاء الرهبان، وذلك أن محمدًا ﷺ تفوق على المسيح في هذه الحروب[(٣)]، بل إن بعض المثقفين والكتاب وحتى رجال الدين الذين بدءوا بنقد بعض معتقدات الكنيسة الخاصة بالتثليث والعشاء الرباني وصكوك الغفران وغيرها اعتمادًا على شيء من أقوال علماء المسلمين في ذلك[(٤)].

كذلك ظهرت بعض الجماعات والفرق الدينية في أوربا التي تنادي بمحاربة الفساد المستشري بالكنيسة، بل والدعوة إلى معاداة رجال الدين وانتقاد بعض الطقوس النصرانية، ومن ذلك مثلًا: قيام أحد رجال الدين في جامعة إكسفورد في بريطانيا في هذه الفترة بحملة ضد بعض العقائد النصرانية حيث كان له أتباع ومؤيدون، وكان من أقواله: إنه ليس ثمة ما هو أشبه بالوثنية من القربان عند المذبح[(٥)]، ورجل آخر يُدعى أبلار في الفترة نفسها نحى منحى عقليًّا في تفسير بعض المعتقدات النصرانية، وكان له أتباع ومؤيدون، الأمر الذي أغضب رجال الكنيسة في عصره حتى كفَّروه[(٦)]، وكان قد ألَّف كتابًا عن التثليث خالف فيه الاعتقاد السائد في عصره بيَّن في مقدمته أنه كتبه لطلابه قائلًا: لأنهم كانوا على الدوام يبحثون عن المعقول وعن الشروخ الفلسفية، ويسألون عما يستطيعون فهمه من الأسباب لا عن الألفاظ دون غيرها، ويقولون: إن من العبث أن ينطق بألفاظ لا يستطيع العقل تتبعها، وأنه لا شيء يمكن تصديقه إلا إذا أمكن فهمه أولًا، إن من أسخف الأشياء أن يعظ إنسان غيره بشيء لا يستطيع هو نفسه أن يفهمه، ولا يستطيع من يسعى لتعليمهم أن يفهموه[(٧)].

وقد أشار صاحب قصة الحضارة إلى كثرة المشككين في هذه الفترة في صحة بعض المعتقدات الكنيسية وطقوس الديانة النصرانية، وأن ذلك مرده بشكل كبير إلى تأثير ما تُرجم من الكتب العربية إلى اللغات الأوربية[(٨)]، وقال أيضًا في موضع آخر عن ذلك: . . . ولقد لاحظنا

(١) المصدر نفسه (٢/ ٧٨٢).
(٢) المصدر نفسه.
(٣) قصة الحضارة (٤/ ٦٧).
(٤) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٨٣).
(٥) قصة الحضارة (٤/ ١٠٥).
(٦) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٨٣).
(٧) المصدر نفسه (٢/ ٧٨٣).
(٨) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٨٤).

من قبل وجود نزعة عدم الإيمان بين أقلية ضئيلة من سكان أوربا وزادت هذه الأقلية في القرن الثالث عشر على أثر اتصال الأوربيين بالمسلمين عن طريق الحروب الصليبية وتراجم الكتب العربية، ولما تبين الأوربيون وجود دين عظيم أخرج رجالًا عظامًا مثل صلاح الدين . . . كان ذلك في حد ذاته كشفًا اضطربت له نفوسهم[1].

وإشارة إلى شدة ضعف الكنيسة وانحسار نفوذها في المجتمع الأوربي بعد الحروب الصليبية قال أحد الكُتَّاب الغربيين : . . . لقد فشل البابا نقولا في إثارة الغرب بعد سقوط طرابلس، كما أنه كان بالغ العجز بعد الكارثة الكبرى التي حلَّت بعكا[2]. وبطبيعة الحال فإن هذا العجز راجع إلى اضمحلال مكانة الكنيسة ورجال الدين لدى طبقات المجتمع الأوربي مقارنة بالقوة التي كانت عليها الكنيسة عند بدايات الحروب الصليبية، وتأثيرها البالغ في حشد مختلف قوى المجتمع الأوربي ضد المسلمين[3].

الحادي عشر: أهم الدروس والعبر والفوائد من دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية:

كانت هذه الفترة من تاريخ الأمة فيها الكثير من الدروس والعبر والتي يمكننا أن نستفيد منها في واقعنا المعاصر، ونجملها في النقاط الآتية:

١- وجوب الحذر من كيد أعداء الإسلام في كل زمان ومكان، وإن اختلفت الوسائل وتنوعت الأساليب.

٢- أهمية العلماء في نهوض الأمة ووجوب الدعوة إلى الله على بصيرة.

٣- أهمية العمل الدءوب وعدم استعجال النتائج خاصة في المجال الدعوي.

٤- إن المقاومة الهادئة للغزاة على منهج سليم أساس النجاح والانتصار على الأعداء وتحصين الصف الداخلي.

٥- للأقليات الإسلامية في ديار الغرب رسالة مهمة، ولذلك وجب الاهتمام بها لتحقيق الأهداف المرجوة على المدى الطويل.

٦- إن بقاء المسلمين في أوطانهم وعدم تركها أمام زحف العدو من أهم أسباب بقاء الإسلام فيها ومن ثمَّ رحيل العدو منها.

٧- إن التصميم على المطالبة بالحق وعدم التنازل عنه حتى في حالات الضعف من أهم أسباب تحصيله.

(١) المصدر نفسه (٢/ ٧٨٦).
(٢) تاريخ الحروب الصليبية (٣/ ٧٢١).
(٣) دعوة المسلمين للنصارى (٢/ ٧٨٥).

٨- أهمية تأليف الكتب العلمية لإحياء الأمة وتقرير العقيدة، وبيان السُّنة، وإبراز محاسن الإسلام، وإبطال شبهات الأعداء حوله بمختلف اللغات.

٩- ضرورة إعداد المتخصصين بمعرفة شبهات الأعداء حول الإسلام وأساليبهم، وطرق الرد عليهم، وتعميم الثقافة الإسلامية.

١٠- أهمية التزام المسلمين بأحكام دينهم وأثر ذلك في نشر الإسلام وقبوله لدى الآخرين.

١١- خطورة الاختلاف والتناحر على الأمة، وأثر الوحدة في عزَّتها وقوتها.

١٢- عدم القنوط واليأس مهما كبرت الرزايا وكثرت الفتن، ومن أراد التوسع في هذه الدروس والعبر والفوائد والجدل الثقافي بين المسلمين والنصارى في عهد الحروب الصليبية، فليراجع الكتاب القيم للدكتور سليمان بن عبد الله بن صالح الرومي بعنوان: (دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية)[1].

ونحب أن نؤكد أنه في الوقت الذي كانت تجرى فيه رُحى المعارك الحربية بين المسلمين والصليبيين، كان هناك معارك أخرى بين الطرفين في صورة السجال الديني والجدل الثقافي والردود المتبادلة، ومحاولة كل طرف إثبات أفضلية معتقده الديني، وقد برز في هذا الجدال والسجال أعلام وقادة من أشهرهم: القرطبي والخزرجي والقرافي، وغيرهم، فدافعوا عن ثقافة الأمة وعقيدتها، وخلَّد الله ذكر مساعيهم وأعمالهم الحضارية الرائعة التي لا تزال آثارها إلى يومنا هذا.

---

(١) دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية (٢/ ٧٨٩-٨١٨).

المبحث الخامس

أسباب سقوط الدولة الأيوبية

إن أسباب سقوط الدولة الأيوبية كثيرة، جامعها هو الابتعاد عن تحكيم شرع الله في أمور الحكم وغيرها، فقد وقع الظلم على الأفراد، وتورط بعض السلاطين في الترف وحدث بينهم نزاع عظيم، سفكت فيه الدماء وأدى ذلك إلى زوالهم، فعندما يغيب شرع الله في أمور الحكم - كما حدث في الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين- يجلب للأفراد والدولة تعاسة وضنكًا في الدنيا، وإن آثار الابتعاد عن شرع الله لتبدو على الحياة في وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وإن الفتن تظل تتوالى وتترى على الناس حتى تمس جميع شئون حياتهم[(١)]، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، لقد كان في ابتعاد سلاطين الأيوبيين بعد وفاة صلاح الدين عن تحكيم الشرع في نزعاتهم وخلافاتهم آثار على أفراد البيت الأيوبي والدولة، فقد أصيبوا بالقلق والجزع والخوف، والشقاق والخلاف، ونُزع منهم الأمن وأصبحوا في ضنك من الحياة.

إن هلاك الأمم وسقوط الدول وزوال الحضارات لا يحدث عبثًا في حركة التاريخ، بل نتيجة لممارسة هذه الأسرة الحاكمة، أو الدولة، أو الأمة الظلم والانحراف، وبعد أن يعطوا الفرصة الكافية حتى تحق عليهم الكلمة، فيدفعوا ثمن انحرافهم وإجرامهم وطغيانهم وفسقهم والآيات صريحة في ذلك، فالله إذا أنعم على دولة نعمة أيًا كانت فهو لا يسلبها حتى يكفر بها أصحابها[(٢)]، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]، والآيات في هذا كثيرة سواء ما يخص الفرد أو الأمة، بل إن القرآن الكريم ليذكر أن بعض ما يصيب الأمم والأفراد من استدراج حين يمهلهم الله تعالى وتواتيهم الدنيا، وتفتح عليهم خيراتها، فينسوا مهمتهم وما خلقوا له، بل ينسون المنعم جل جلاله وينسبون ما عندهم لجهدهم وذكائهم، وقد يفلسفون الأمر فيقولون: لو لم نكن نستحق هذه النعم لما منحت لنا، وفي هؤلاء يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

لقد نسي هؤلاء أن الله يمنح خيرات الدنيا لمن يطلبها ويجدُّ فيها، قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٤٥]، ولكن هناك من يريد

(١) الدولة العثمانية للصَّلَّابي ص٥٢٠، الدولة الأموية كذلك (٢/٥٦٨).
(٢) في التفسير الإسلامي للتاريخ، نعمان السامرَّائي ص٨٨ .

الآخرة بحق ويسعى لذلك فهو الفائز: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ١٨-٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [النحل: ١١٢، ١١٣]، ولنستمع لهذه الدعوة الكريمة: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود: ٥٢].

وهناك آيات كثيرة تحاول قطع الطريق على بعض المتفلسفين من أهل الكتاب: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩]، فكل إنسان وكل مجتمع وكل أمة مسئولة عما يصدر عنها، ولا يتحمل أحد جريمة غيره[١] ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة: ١٣٤]، المهم أن الله تعالى لا يحجب نعمة عن أحد، بل يوزعها على المؤمن والكافر ثم يراقب تصرف الكل فيها، فمن طغى وظلم، ومن كفر بها واستعملها استعمالًا سيئًا فإن العقاب العادل سينزل به في الوقت المناسب، وقد يطول ذلك العهد قبل نزول العقاب، ولكنه يكون في الطريق وبعد هذا وذلك فإنه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ومثل هذا في الأمم والمجتمعات وعلى مستوى الأفراد فإن الله خلق النفوس مُلهِمًا إياها طريق الخير والشر يقول تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧-١٠]، وقال: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ١٠].

ومن الملاحظ في دراسة أسباب سقوط الدول والحضارات بأنها لا تسقط بسبب واحد، كما لا تقوم بسبب واحد، بل تتجمع عدة أسباب لقيامها، وعدة أسباب لتدهورها وسقوطها، بعضها يعمل ببطء، بينما يعمل البعض بسرعة أكبر.. ولا تسقط الدولة أو الحضارة بضربة واحدة، بل بتضافر جملة من العوامل[٢]، وهذا ما حدث للدولة الأيوبية التي زالت من الوجود في مصر عام (٦٤٨هـ) وأهم هذه الأسباب في نظري:

أولًا: توقف منهج التجديد الإصلاحي:

كان صلاح الدين رحمه الله رجل المرحلة، وجدت فيه صفات عظيمة، ساعده على ذلك الأجواء التي هيأها نور الدين محمود من حبِّه للجهاد والعلم وتقريب العلماء وإشاعة العدل،

(١) التفسير الإسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل ص٤٧ .
(٢) أيعيد التاريخ نفسه؟ ص١٣٤ .

وسرى هذا في الأمراء والوزراء، ولكن المعضلة الرئيسية التي بقيت هي أن التجديد لم يتحول إلى مؤسسات راسخة وإلى اتجاه عام في الدولة لا ينقطع بوفاة القائد أو المؤسس(١) وذلك يرجع إلى أمور منها:

١- **نقص الفقه الحركي وجه نشاطات المدارس الإصلاحية**: فإن مدارس الإصلاح في هذا العصر ركزت نشاطاتها على تحقيق عنصر (الإخلاص) في العمل؛ أي أنَّها ركزت على التربية أكثر من الاستراتيجية، ولذلك لم تفرز (فقه الحكمة) اللازم لتنظيم مؤسسات السياسة والإدارة والاقتصاد وتنظيم مسئوليات العاملين فيها وأدائهم، وحسن استثمار الموارد البشرية والمادية بما يناسب حاجات المكان والزمان، وإنما اكتفت بـ(فقه الآباء) الذي يركز على (المظهر الديني للعبادة) دون (المظهر الاجتماعي) وصار شيوخها ومتعلموها يسلكون طريق (الزهد) وينتمون إلى مذهب من المذاهب الفقهية التقليدية في آن واحد، ولهذا يوصف الواحد منهم بأنه مثلًا (قادري السلوك) و(شافعي المذهب)، كذلك لم تطرق هذه المدارس ميادين (الفقه) المتعلق بالمظهر الكوني للعبادة والمؤدي إلى تطور العلوم الطبيعية وتسخير تطبيقاتها في ميادين الحضارة المادية المختلفة، وهذا النقص في الفقه السياسي والإداري جعل المنجزات التي حققها جيل صلاح الدين تعتمد على صلاح الشخصيات أكثر من فاعلية المؤسسات، فلما غابت الشخصيات القيادية عن مسرح الحياة برز تأثير العالم الثاني؛ أي أثر قيم العصبيات الأسرية والقبلية التي عادت لتوجِّه مؤسسات الحكم والإدارة بما فيها مدارس الإصلاح نفسها، وهذا التطور السلبي أفرز ظواهر سلبية منها:

(أ) حين لم يجد جيل الأبناء فقهًا سياسيًّا وإداريًّا ينظم عملية تعيين الحاكم ومؤسسات الحكم والإدارة؛ ارتدَّ إلى تقاليد العصبية الأسرية والقبلية وروابط الدم التي تعتبر الحكم وقيادة المؤسسات التربوية والعلمية ميراثًا يرثه الأبناء عن الآباء، الأمر الذي أدَّى إلى تفكك الدولة وانقسامها حيث تقاسم الأبناء ما وحَّده جيل الآباء، وأداروه طبقًا لتقاليد العصبيات الأسرية التي سبقت جيل الإصلاح والتي كانت تعتبر أراضي الدولة ومدنها وسكانها إقطاعات يتصرف فيها الحكام ويتبادلونها بالبيع والشراء وصفقات الحرب والصلح.

(ب) أدى النقص في الفقه السياسي الإداري إلى انفجار الفتن بين الملوك وأمراء الجيش من ذلك ما حدث بين الملك الكامل وبين عماد الدين أحمد بن المشطوب الكردي الهكاري الذي يصفه ابن خلكان بأنه كان صلاح الدين قد أقطعه وهو شاب إقطاع نابلس إكرامًا لوالده سيف الدين أبي الهيجاء المشطوب الهكاري الذي كان من كبار أمراء الجيش الصلاحي وقادته، فقد

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص٣٢١ .

اتفق عماد الدين بن المشطوب مع الأكراد الهكارية على خلع الملك الكامل وتمليك أخيه الفايز، ولكن المحاولة لم تنجح ودبَّ الاضطراب في معسكر الجيش الذي كان في مواجهة الصليبيين، وانسحب عماد الدين إلى قلعة تلغفر بين الموصل وسنجار وانتهى أمره بالقبض عليه واعتقاله في قلعة حران، حيث بقي فيها حتى وفاته عام (٦١٠هـ)[١]، والخلاصة أن الجدب في الفقة السياسي والإداري أفرز -بعد جيل صلاح الدين- قيادات وإدارات متسلطة فردية، عملت على أن تحكم الأمة بقيم: القوة فوق الشريعة، والفردية بدل العمل الجماعي، والتسلط بدل الشورى، والارتجال بدل التخطيط[٢].

(ج) قامت الدولة الأيوبية على تبني فكرة الجهاد وكانت التعبير العملي على مدى أصالة فكرة الجهاد الإسلامي وعن مدى عمق هذه الفكرة في نفوس المسلمين في كل من مصر والشام، وقد انعكس هذا العمق وتلك الأصالة في الصفحات المشرِّفة التي سجلها بجهاده صلاح الدين، إذا انتقلنا إلى الصورة التي كانت عليها الدولة الأيوبية في سنواتها الأخيرة نجد أنها قد صارت بعيدة إلى حد كبير عن الصورة التي كانت لها في سنواتها الأولى، وهذا يعني أنها قد أصبحت في وادٍ والفكرة التي قامت عليها في وادٍ آخر، ولو قدر واستمرت الدولة الأيوبية بالصورة التي كانت عليها في سنواتها الأخيرة لكان معنى ذلك نهاية أو سقوط فكرة الجهاد الإسلامي وترك الساحة للصليبيين يرسمون مستقبلها ومقدرات شعوبها كما يريدون، وإذن فإن اختفاء الدولة الأيوبية وقيام المماليك مقامها كان التعبير العملي لرفض فكرة الجهاد، ونخلص من هذا إلى القول بأن اختفاء الدولة الأيوبية، وقيام دولة المماليك مقامها كان رفضًا عمليًّا لأن تسقط فكرة الجهاد، كما كان أيضًا تأكيدًا عمليًّا لقوة هذه الفكرة وضرورة استمرارها حتى تحقق أهدافها كاملة، وخير للأجيال أن تستمر الفكرة حتى ولو على حساب سقوط الدولة والرجال مهما كانت درجة التعاطف مع هذه الدولة وهؤلاء الرجال[٣].

٢- **ومن الظواهر السلبية التي ساهمت في توقف حركة التجديد والإصلاح:** تسلل قيم العصبية الأسرية إلى مدارس الإصلاح نفسها؛ إذ يستفاد مما كتبه مؤرخو تلك الفترة كابن الوردي وابن المستوفي، أن الأبناء والأحفاد تسلموا مشيخات هذه المدارس بعد وفاة المصلحين الآباء دون أن يكون لأولئك الأبناء والأحفاد المؤهلات العلمية والدينية والأخلاقية، الأمر الذي أحال مدارس الإصلاح إلى إقطاعات دينية، وعصبيات مذهبية، وأدى إلى انصراف النابهين المثقفين من صفوفها واجتماع العامة فيما عرف باسم (الطرق الصوفية) التي اشتقت أسماءها من أسماء الآباء المؤسسين؛ كالطريقة القادية، والطريقة البيانية، والطريقة الرفاعية التي راحت تركز على الطقوس والأشكال بدل التربية والعلوم والأعمال[٤].

---

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص٣٢٢ .

(٢) المصدر نفسه ص٣٢٢ .

(٣) الجبهة الإسلامية في مواجهات المخططات ص٣٩٥ .

(٤) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص٣٢٣ .

ثانيًا: الظلم:

إن الظلم في الدولة كالمرض في الإنسان يعجل في موته بعد أن يقضي المدة المقدرة له وهو مريض، وبانتهاء هذه المدة يحين أجل موته، فكذلك الظلم في الأمة والدولة يعجل في هلاكها بما يحدثه فيها من آثار مدمرة تؤدي إلى هلاكها واضمحلالها من خلال مدة معينة يعلمها الله هي الأجل المقدر له؛ أي الذي قدره الله بموجب سنته العامة التي وضعها لآجال الأمم بناء على ما يكون فيها من عوامل البقاء كالعدل، أو من عوامل الهلاك كالظلم الذي يظهر أثرها وهو هلاكها بعد مضي مدة محددة يعلمها الله[1]، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٤﴾ [الأعراف: ٣٤]. قال الألوسي رحمه الله في تفسير هذه الآية: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي: لكل أمة من الأمم الهالكة أجل، أي وقت معين مضروب لاستئصالهم، ولكن هلاك الأمم وإن كان شيئًا مؤكدًا ولكن وقت حلوله مجهول لنا؛ أي أننا نعلم يقينًا أن الأمة الظالمة تهلك حتمًا بسبب ظلمها حسب سنة الله تعالى في الظلم والظالمين، ولكننا لا نعرف وقت هلاكها بالضبط، فلا يمكن لأحد أن يحدد بالأيام ولا بالسنين وهو محدد عند الله تعالى[2]: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۝١٠٠ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝١٠١ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾ [هود: ١٠٠-١٠٢]. إن الآية الكريمة تبين أن عذاب الله ليس مقتصرًا على من تقدم من الأمم الظالمة، بل إن سنته تعالى في أخذ كل الظالمين سنة واحدة، فلا ينبغي أن يظن أحد أن هذا الهلاك قاصرًا بأولئك الظلمة السابقين؛ لأن الله تعالى لما حكى أحوالهم قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ [هود: ١٠٢]، فيبين الله تعالى أن كل من شارك أولئك المتقدمين في أفعالهم التي أدت إلى هلاكهم فلا بد أن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد، فالآية تحذر من خطورة الظلم[3].

إن الدولة الكافرة قد تكون عادلة؛ بمعنى أن حكامها لا يظلمون الناس، والناس أنفسهم لا يتظالمون فيما بينهم فهذه الدولة مع كفرها تبقى؛ إذ ليس من سنته إهلاك الدولة بكفرها، ولكن إذا انضم إلى كفرها ظلم حكامها للرعية وتظالم الناس فيما بينهم[4]، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ۝١١٧﴾ [هود: ١١٧] قال الإمام الرازي رحمه الله في تفسيره: إن المراد من الظلم في هذه الآية: الشرك، والمعنى: أن الله تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم، يعامل بعضهم على

---

(١) السنن الإلهية، د/ عبدالكريم زيدان ص١٢١ .
(٢) المصدر نفسه ص١٢١ .
(٣) الدولة الأموية للصَّلَّابي (٢/ ٥٧١).
(٤) السنن الإلهية ص١٢١ .

الصلاح وعدم الفساد[1]، وفي تفسير القرطبي رحمه الله قوله تعالى: ﴿بِظُلْمٍ﴾ أي: بشرك وكفر، ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾، أي: فيما بينهم في تعاطي الحقوق، ومعنى الآية: أن الله تعالى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى يضاف إليه الفساد، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان وقوم لوط باللواط[2].

قال ابن تيمية رحمه الله في هلاك الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة: وأمور الناس إنما تستقيم مع العدل الذي يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق، وإن تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال: إن الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام، وذلك أن العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت، وإن لم تقم بالعدل لم تقم، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة[3]، ولقد حدثت مظالم عظيمة في عهد الأيوبيين؛ فقد سفكوا الدماء فيما بينهم، فقاتل الأخ أخاه، والعمُّ بني أخيه ظلمًا وجورًا وتسلطًا على العباد والبلاد، وحوصرت دمشق وتعرض أهلها للمجاعة بسبب الأهواء والنزوات وإسراف بعض سلاطينهم في المال العام، وتمَّ الاعتداء في بعض الأحوال على أموال الرعية بدون وجه حق، وقد بيَّنا ذلك في مناسبات عديدة في هذا الكتاب.

ثالثًا: الترف والانغماس في الشهوات:

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [هود: ١١٦]، قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أراد بالذين ظلموا: تاركي النهي عن المنكرات؛ أي لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكرات، وإنما اهتموا بالتنعم والترف والانغماس في الشهوات، والتطلع إلى الزعامة والحفاظ عليها والسعي لها، وطلب أسباب العيش الهنيء[4]، وقد مضت سنة الله في المترفين الذين أبطرتهم النعمة وابتعدوا عن شرع الله بالهلاك والعذاب، قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأنبياء: ١١-١٣].

ومن سنة الله تعالى هلاك الأمة بفسق مترفيها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦]. وجاء في تفسيرها: وإذا دنا وقت

---

(١) تفسير الرازي (١٨/١٦).
(٢) تفسير القرطبي (٩/١١٤).
(٣) رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن تيمية ص٤٠.
(٤) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد ص١٨٦.

هلاكها أمرنا بالطاعة مترفيها؛ أي: متنعميها وجباريها وملوكها ففسقوا فيها، فحق عليها القول فأهلكناها، وإنما خص الله تعالى المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة إلى الجميع؛ لأنهم أئمة الفسق ورؤساء الضلال، وما وقع من سوئهم إنما وقع باتباعهم وإغوائهم، فكان توجه الأمر إليهم آكد[1].

إن أمر بني أيوب ما زال مستقيمًا في عهد صلاح الدين حتى أفضى أمره إلى أبنائه، فوقع بعضهم في الترف وآثروا الشهوات وأقبلوا على اللذات والدخول في المعاصي والتعرض لسخط الله، والشواهد على ذلك كثيرة نذكر منها ما كان في عهد الملك الأفضل وفي عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب، ما فعله أستاذ الدار وهو كبير أمناء الملك أو الرئيس والذي كان يجمع إلى منصبه اختصاصات الوزير وقائد الجيش في المعارك وفتح دمشق وكان متحللًا وعابثًا ومعتدًّا بقوته ومنصبه وتجرأ على منكر كبير، يخالف أحكام الدين ويسخر بالشرع ويسيء إلى مشاعر المسلمين، فبنى فوق أحد مساجد القاهرة طبلخانة -أي: قاعة لسماع الغناء والموسيقى- وقد تصدى لذلك سلطان العلماء العز بن عبد السلام -كما بينا ذلك- ومن صور الترف في عهد الدولة الأيوبية التوسع في المآكل والمشارب وما يترتب على ذلك من آفات، وحب التكثر من المال ،والتوسع في الركوب وفي المسكن والملبس والنكاح، ولقد رأينا ذلك كله في بعض أمراء وملوك البيت الأيوبي.

٤- **تعطيل الخيار الشوري**: ضرب الأيوبيون نظام الشورى في الحكم عرض الحائط، ذلك النظام القائم على حرية الانتخاب وحرية المعارضة والذي كانت القيادة الراشدة نفذته التزامًا بمعطيات القرآن والسنة في هذا المجال، ولقد ولَّدت خطوة الأيوبيين هذه ردود أفعال خطيرة في الدولة الأيوبية، بل أصبح التسلط والغلبة هو الطريق للسلطة والحكم، فهذا الملك العادل بعد أن تغلب على بني أخيه قال لوزرائه ومعاونيه: إنه قبيح بي أن أكون أتابكًا مع الشيخوخة والتقدم مع أن الملك ليس هو بالميراث وإنما هو لمن غلب، ولقد كان يجب أن أكون بعد أخي السلطان الملك الناصر رحمه الله صاحب الأمر، غير أني تركت ذلك إكرامًا لأخي ورعاية لحقه، فلما حصل من الاختلاف ما حصل خفت أن يخرج الملك من يدي ويد أولاد أخي، فمشيت الأمر إلى آخره[2].

ثم إن الملك العادل ورَّث أبنائه من بعده وحدث قتال بينهم ورجع إلى نظام التوريث الذي كان له سلبيات خطيرة ساهمت في سقوط الدولة الأيوبية منها:

(أ) أن هذا النظام قد سيطرت فيه عاطفة الأبوة والأقرب نسبًا وقوة العصبية على عملية التولية بصفة عامة، وقد أدى ذلك إلى الآتي:

---

(١) تفسير الألوسي (١٥/ ٤٢).

(٢) في التأصيل الإسلامي للتاريخ ص٦٠ .

- تقييد حق الأمة في اختيار الخليفة بحصره في أسرة معينة.

- تقييد مبدأ الشورى بحصره في أهل عصبية وشوكة الأسرة الحاكمة.

- دفعة المفضول إلى تولي السلطنة مع وجود الأفضل، بل وبمن افتقد بعض شروط السلطنة مع وجود المستجمعين لهذه الشروط وفقًا لما سلف ذكره.

- وضع الحكام موضع تهمة وشبهة، كما أثار الشك -عند بعض الناس- حول مشروعية البيعة بولاية العهد والبيعة للسلطان.

- أدى إلى ظهور العداوة والبغضاء بين البيت الأيوبي، وذلك مما أدى في النهاية إلى ضمور قوتهم وزوال شوكتهم(١).

٥- **النزاع الداخلي في الأسرة الأيوبية**: إن سُنة الله تعالى ماضية في الشعوب والأمم لا تتبدل ولا تتغير ولا تجامل، وجعل الله سبحانه وتعالى من أساب هلاك الأمم وزوال الدول الاختلاف، قال رسول الله ﷺ: «**فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا**». وفي رواية: «**فأهلكوا**»، وعند ابن حبان عن ابن مسعود ﷺ: «**فإنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف**»(٢).

إن من الدروس المهمة في هذه الدراسة التاريخية أن نتوقى الهلاك بتوقي أسباب الاختلاف المذموم؛ لأن الاختلاف كان سببًا من الأسباب في ضياع الدولة الأيوبية وهلاكها واندثارها، وكان لهذا الاختلاف الذي وقع في البيت الأيوبي أسبابه منها: ضعف الوازع الديني عند بعض الأمراء الأيوبيين، الأنانية وحب الذات والتكالب على المصالح الدنيوية والتناحر من أجلها، والحرص على السلطة والجاه والمناصب، وتحكيم بعض الملوك الأيوبيين أهواءهم في الأمور، فهذه الأسباب كانت وقودًا للمنازعات والخلافات التي وقعت بين أفراد البيت الأيوبي، فكانت من أكبر معاول الهدم وأسباب الضعف وتلاشي الدولة، وقد استقرأ هذه الحقيقة ابن خلدون؛ حيث ذكر أن من آثار الهرم في الدولة انقسامها وأن التنازع بين القرابة يقلص نطاقها كما يؤدي إلى قسمتها ثم اضمحلالها(٣).

لقد بدأ الخلاف المؤثر في الأسرة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين وسرعان ما انغمس الأيوبيون في صراعاتهم الداخلية فلم يحترم الأخ أخاه والعم بني أخيه، واستغل الملك العادل الأيوبي الجهل والطيش الذي اتسم به أبناء صلاح الدين؛ إذ إنه استخدم علاقاته القديمة ومكانته لتحقيق هزيمة سياسية وعسكرية لجش الملك العزيز قبل أن يستل جندي واحد سيفه من غمده؛

(١) نظام الحكم في الإسلام ص٣٠٧.

(٢) صحيح البخاري بشرح العسقلاني (٩/١٠١، ١٠٢).

(٣) الضعف المعنوي وأثره في سقوط الأمم ص١١٨.

إذ كانت المنافسة قائمة بين الأمراء الصلاحية (أمراء صلاح الدين) والأمراء الأسدية (أمراء أسد الدين شيركوه) الذين ورثهم صلاح الدين في جيشه ونجح العادل في الإيقاع بين الفريقين[١]، وقد وصف القاضي الفاضل الخلاف في البيت الأيوبي بقوله: أما هذا البيت، فإن الآباء منه اتفقوا فملكوا، وإن الأبناء منهم اختلفوا فهلكوا، وإذ غرب نجم فما الحيلة في تشريقه، وإذا بدأ تخريق في ثوب فما يليه إلا تمزيقه، وهيهات أن يسد على قدر طريقه وقد قدر طروقه، وإذا كان الله مع خصم على خصم فمن كان الله معه فمن يطيقه[٢]. واستمر الصراع في الأسرة الأيوبية بعد وفاة الملك العادل؛ حيث اشتد النزاع بين أولاده الملك المعظم والملك الكامل أبناء البيت الأيوبي كما رأينا في هذا الكتاب.

لقد أقدم الأيوبيون على عمل خطير، فهم قد انتحروا عندما تقاتلوا فيما بينهم وتبادلوا مواقع الموت، لقد أجهزوا على أنفسهم بنزاعهم الداخلي.

٦- **موالاة النصارى**: من لوازم الإيمان الصحيح الولاء والبراء فكانت الدولة في عصر صلاح الدين عاملة بقول الله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ۝٢٨﴾ [آل عمران: ٢٨] وقول الله تعالى: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥١﴾ [المائدة: ٥١] وقال رسول الله ﷺ: **«أوثق عُرى الإيمان: الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله»**[٣]، أما في عصر الملك الكامل فضعف الولاء والبراء، ويظهر ذلك في تسليم القدس للإمبراطور فريدريك الثاني على طبق من ذهب وبدون إراقة للدماء، وقد استعظم المسلمون ذلك وأكبروه ووجدوا له من الغم والهم والتألم ما لا يمكن وصفه، وكان الملك الكامل لديه استعداد للتحالف مع النصارى لقتال أخيه المعظم الذي تحالف مع الخوارزميين، كما أن الملك الصالح نجم الدين إسماعيل الذي دخل في صلح مع الصليبيين وسلَّم لهم أحد الحصون وتصدى الشيخ عز الدين بن عبد السلام وابن الحاجب فاعتقلهما مدة ثم أطلقهما وألزمهما منازلهما، وتحالف الصالح إسماعيل مع الصليبيين لقتال الملك الصالح نجم الدين أيوب في مقابل تسليم القدس وإعادة مملكة بيت المقدس الصليبية إلى ما كانت عليه قديمًا بما فيها الأردن، ولكي يبرهن صاحب دمشق على صدق نيته تجاه الصليبيين بادر فورًا بتسليم القدس وطبرية وعسقلان، فضلًا عن قلعة الشقيف وأرنون وأعمالها، وقلعة صفد وبلادها ومناصفة صيدا وطبرية وأعمالهم وجبل عاملة وسائر بلاد الساحل، وأمام هذا السخاء العجيب ثار الرأي العام الإسلامي في مصر

---

(١) في تاريخ الأيوبيين والمماليك قاسم عبده ص٨٢، ٨٣.
(٢) دور الفقهاء ص١٧٤.
(٣) صحيح الجامع الصغير.

والشام على الصالح إسماعيل، حتى إن حاميات بعض القلاع رفضت طاعة الأوامر الصادرة إليها من الصالح إسماعيل، في تلك الأثناء أسرع الصليبيون إلى تسلم بيت المقدس، وأعادوا تعمير قلعتي طبرية وعسقلان، ثم رابطوا بعد ذلك بين يافا وعسقلان استعدادًا للخطوة التالية وهنا وعدهم الصالح إسماعيل بأنه إذا ملك مصر أعطاهم جزءًا منها، فسال لعابهم لذلك واتجهوا صوب غزة عازمين على غزو مصر[١].

وسار الصالح إسماعيل صاحب دمشق، والملك المنصور إبراهيم الأيوبي صاحب حمص على رأس جيوشهما في مهمة غزو مصر[٢]، ولكن قادة القوات الشامية رفضوا طعن إخوانهم المصريين فما كادوا يلتقون بجيش الملك الصالح أيوب قرب غزة حتى تخلوا عن الصالح إسماعيل والمنصور إبراهيم وساقت عساكر الشام إلى عسكر مصر طائعة ومالوا جميعًا على الفرنج فهزموهم وأسروا منهم خلقًا لا يحصون[٣]، وهكذا تحالف الملك الصالح إسماعيل مع الصليبيين وتنازل لهم على مدن المسلمين من أجل الحكم والسلطان. إن بعض ملوك بني أيوب أمعنوا في موالاة النصارى الصليبيين وألقوا إليهم بالمودة، وركنوا إليهم واتخذوهم بطانة من دون المؤمنين، وعملوا على إضعاف عقيدة الولاء والبراء في الأمة وأصابوها وفقدت أبرز مقوماتها وسهل بعد ذلك زوالها من الوجود.

٧- **فشل الأيوبيين في إيجاد تيار حضاري**: حاول صلاح الدين بإيمان صادق وذكاء متميز حمل لواء المشروع الإسلامي الحضاري الذي تزعمه نور الدين محمود زنكي وحرص على الفتوحات العسكرية والدعوية؛ بحيث لا تطغى الأرض على الحضارة ولا الدولة على الدعوة، ولا تصبح اعتبارات السياسة أهم مبادئ الدين، فقد عمل على إيجاد تيار حضاري عقدي يملأ أركان الحياة، ومهما يكن من أمر فإن الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين لم تستوعب قانون الامتداد الحضاري، فبعد الامتداد والانتصارات كان عليها أن تمتد بالدعوة وتطور المدارس الإصلاحية حتى تواكب احتياجات العصر العلمية والتربوية والثقافية والحضارية إلا أن خلفاء صلاح الدين لم يستطيعوا أن يقدموا مشروعًا حضاريًا يجدد حيوية الدولة ويرسم أهدافها ويدفعها بقوة نحوها، وإنما دخلوا في أنفاق مظلمة انتهت بزوال دولتهم.

لقد فشل ملوك بني أيوب بعد صلاح الدين في إيجاد تيار حضاري ولم يستطيعوا أن يحققوا التوازن بين الدولة والدعوة والأرض والعقيدة والسياسة والفكر، وكانت هذه رسالة سامية تأخر فيها الأيوبيون وغلبتهم الظروف والتحديات فأصبحوا أمام قانون التاريخ الحضاري الذي لا يجامل ولا يحابي؛ إما أن يتقدموا أو يزولوا من الوجود فلا سكون في تاريخ البشرية.

---

(١) النجوم الزاهرة (٦/ ٣٢٢) الدولة الأيوبية، د/ دعكور ص٢٣٣ .
(٢) النجوم الزاهرة (٦/ ٣٢٣).
(٣) السلوك (١/ ٣٠٥) الدولة الأيوبية ص٢٣٣ .

٨- **ضعف الحكومة المركزية:** قسَّم صلاح الدين دولته إلى أقاليم إدارية يتمتع كل منها بإمكاناته الخاصة وطابعه المميز، مثل: مصر والشام وشمالي العراق والنوبة والمغرب واليمن والحجاز، وقضى أكثر سنين حكمه في ميادين القتال يمارس سياسة التخطيط والتنفيذ والإشراف، وتوجيه سياسة الدولة العليا، ثم يترك حرية التنفيذ في الأمور المحلية في الاستعداد والدفاع للولاة وفقًا لظروف وإمكانات كل إقليم، وهو ما يُعبَّر عنه في مفهومنا الحديث (اللامركزية الإدارية) [(١)]، والحقيقة أن صلاح الدين لم يضع كافة السلطات في يده عل الرغم من أنه كان الحاكم الذي يدير دفة الحكومة المركزية، والراجح أنه أدرك أن توزيع السلطات يجعل من كل سلطة رقيبة على السلطة الأخرى، وموازنة لها في ممارسة اختصاصاتها، كما أن تقسيم العمل بين عدة أشخاص أكفاء يحقق عدة مزايا تتعلق بإجادة العمل وسرعة إنجازه[(٢)].

وقد ارتبطت الدولة الأيوبية التي بناها صلاح الدين الأيوبي بصفاته وسجاياه وشخصيته الفذة، فحين توارت هذه الشخصية من على مسرح التاريخ في المنطقة حدث فراغ كبير أضرَّ بالجانب الإسلامي وعاد بالفائدة على الجانب الصليبي؛ إذ كانت شخصيته ومواهبه وأداؤه السياسي والعسكري هو الذي حفظ الدولة من التفكك، ولم تكن هناك مؤسسات تضمن استمرار بقاء هذه الدولة الكبرى من ناحية، كما أن صلاح الدين قسَّم دولته، كما يُقسّم الإرث، بين أبنائه وإخوته وبني عمومته على نحو ما كان مألوفًا في تلك العصور، وكان طبيعيًّا أن تعود المنطقة إلى الوراء مرة أخرى نتيجة المنازعات والتشرذم السياسي الناجم عن الخلاف بين ورثة صلاح الدين.

لقد كان خليفة صلاح الدين في مصر ابنه أبو الفتوح عثمان وكان وقت وفاة أبيه مقيمًا بالقاهرة، وعنده جُل العساكر والأمراء من الأسدية والصلاحية والأكراد[(٣)]، وتولى أخوه الأفضل نور الدين على حكم دمشق، على حين تولى الملك العادل الكرك والشوبك، وولي الظاهر غازي حكم بلاد الشام الشمالية وكانت حلب عاصمته، وتولى بقية أجزاء الدولة غير المهمة أبناء عمومته؛ ففي حمص حكم أفراد سلالة أسد الدين شيركوه، وفي حماة تولى الحكم أفراد من أسرة تقي الدين عمر بن شاهنشاه[(٤)]، وهكذا تفككت عُرى الدولة الإقليمية الكبرى التي جاهدت ثلاثة أجيال في إقامتها بمنطقة العراق والشام ومصر (عماد الدين زنكي، نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي)، لقد كان لتقسيم الدولة على نحو تقسيم التركات الخاصة سببًا

(١) تاريخ الأيوبيين، طقوش ص٢١٠ .
(٢) المصدر نفسه ص٢١١ .
(٣) السلوك (١/ ١١٤) في تاريخ الأيوبيين والمماليك، د/ قاسم ص٨٠ .
(٤) تاريخ مصر الإسلامية (٢/ ٩٦) جمال الشيال.

في انهيار الوحدة السياسية للمنطقة وإطالة عمر الكيان الصليبي من ناحية أخرى[١]، فتفتت دولة صلاح الدين، وضعفت الحكومة المركزية بعد وفاته، وقامت الحروب بين ملوك بني أيوب بدافع التملك والتوسع.

٩- **ضعف النظام الاستخباراتي**: كانت مؤسسة البريد والاستخبارات في عهد صلاح الدين قد اشتهرت بالتفوق الدائم على ما كان عند الصليبيين واتصفت بالدقة والسرعة حتى أن أخبار العدو كانت تتواصل إليه ساعة فساعة إلى الصبح، لا سيما في حصار عكا، وكانت استخباراته تضم بعضًا من الصليبيين الذين استأمنهم السلطان في مناسبات مختلفة، وتكمن أهمية هؤلاء أنهم كانوا يعرفون لغة العدو، ولا يشك فيهم أنهم رجال صلاح الدين، بسبب من سحنتهم ومظهرهم الخارجي، فكانوا يزودون الجيش الأيوبي بأخبار العدو التي يصعب عليها عن طريق رجال استخباراته المسلمين، فذات مرة أخبروا صلاح الدين ما ينوي العدو القيام به؛ من كبس العسكر الإسلامي ليلًا[٢]، وأخبروه عن المنجنيق الصليبي الهائل الذي أنفقوا عليه ألفًا وخمسمائة دينارًا والذي أعدوه للهجوم على عكا، وكذلك زودوا صلاح الدين بأخبار الحملة الألمانية إلا أن بعد ذلك ضعف جهاز الاستخبارات، بل نجد أن الحملة الصليبية الخامسة تصل إلى دمياط ولم يعلم بها الملك العادل إلا بعد وصولها ولم تكن اختراقات الجهاز الاستخباراتي بعد صلاح الدين بالمستوى الذي كان عليه، فكان ضعف الجهاز الاستخباراتي للدولة الأيوبية بعد صلاح الدين من أسباب سقوطها.

١٠- **غياب العلماء الربانيين عن القرار السياسي**: مع مجيء الملك الأفضل لحكم الدولة الأيوبية تغيرت بعض الوسائل الاستراتيجية التي كان يعتمد عليها صلاح الدين بعد الله تعالى في إدارة الحكم وحركة الجهاد؛ وهي اعتماده على العلماء الربانيين، فأبعد الملك الأفضل القاضي الفاضل وأقصى أمراء والده ومستشاريه، بتأثير الوزير ضياء الدين ابن الأثير أخ المؤرخ المشهور، فهربوا إلى القاهرة مستنجدين بالعزيز عثمان الذي رفعهم وأعزهم فالتفوا من حوله، وهيمن ابن الأثير على إدارة الدولة في عهد الملك الأفضل، ولم يكن مُوفَّقًا أبدًا بل جرَّ البلاء والسخط والغضب على الملك الأفضل، وأصبح القاضي الفاضل من المبعدين عن القرار السياسي وهو الذي قال فيه صلاح الدين: ما فتحت بلدًا بسيفي ولكن بقلم القاضي، ولم تكن مكانة العلماء والفقهاء بعد صلاح الدين بالمكانة التي كانوا عليها في عهد نور الدين وصلاح الدين، ولقد خسر الأيوبيون الكثير بإبعاد القاضي الفاضل ومن على شاكلته من دائرة القرار السياسي، وقد قال أبو شامة عن القاضي الفاضل: كان ذا رأي سديد وعقل رشيد، ومعظمًا عند

(١) في تاريخ الأيوبيين والمماليك، د/ قاسم عبده ص٨٠ .
(٢) صلاح الدين الأيوبي للصَّلَّابي ص٣٨١، ٣٨٢ .

السلطان صلاح الدين، يأخذ برأيه ويستشيره في الملمات، والسلطان له مطيع، وما فتح السلطان الأقليم إلا بأقاليد آرائه وكان كتائبه كتائب النصر[(١)].

١١- **وفاة الملك الصالح نجم الدين وعدم كفاءة وريثه:** استطاع الملك الصالح نجم الدين أيوب أن يدخل تشكيلات جديدة على القوة العسكرية التي كانت يتكون منها جيش السلطان الأيوبي، والتي ساهمت في تقوية الجيش وانعكس ذلك على الدولة، ومن أهم الإجراءات التي اتخذها الملك الصالح نجم الدين أيوب؛ اهتمامه الكبير بشراء المماليك والغلمان والأتراك بشكل لم يسبق له نظير في تاريخ السلطنة الأيوبية، فخلال مدة حكمه أضاف إلى الجيش في دفعه واحدة أكثر من ألف مملوكًا تركيًا، وعمل منهم جيشًا قويًا سانده في فرض إرادته على الأقاليم والقضاء على حركات التمرد الداخلية، وكان ولاء المماليك للملك الصالح نجم الدين أيوب مطلقًا، واستطاع إعادة هيبة الدولة الأيوبية من جديد ونجح إلى حد كبير في إعادة قوتها وسلطانها إلا أنه توفي أثناء الحملة الصليبية السابعة وكان عمره عند وفاته ٤٤ سنة، وعهد لولده الملك المعظم تورانشاه وقامت شجرة الدر زوجة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ومن معها من الوزراء والأمراء بتثبيت الملك المعظم تورانشاه إلا أنه لم يكن رجل المرحلة وفشل في التحديات التي كانت تفرضها الظروف التاريخية، وبدلًا من تكريس جهوده لتوحيد المسلمين للقضاء على الخطر الصليبي تمامًا بدأ يدبر للتخلص من (شجرة الدر) وكبار أمراء المماليك فاحتقر خصومه، واستبد برأيه، وأبعد الأولياء ولم يلجأ إلى استخدام المال والسياسة في تفتيت خصومه، وضعفت الشقة بينه وبين رجاله، وفشل في كسب ولاء قادة الجيش فتم قتله وزالت الدولة الأيوبية بموته.

هذه هي أهم الأسباب في زوال الدولة الأيوبية.

---

(١) كتاب الروضتين (٢/ ٢٤١).

الخلاصة

١- بعد وفاة صلاح الدين كانت الأُمَّة في مسيس الحاجة إلى شخصية متميزة، وإيمانه الكبير، وعبقريته العسكرية الفذة، وقد ترك دولة مترامية الأطراف تشمل مصر والجزيرة العربية وبلاد الشام والجزيرة الفراتية، وخلَّف فراغًا لم يستطع أحد من أبنائه السبعة عشرة أو إخوانه أن يملأه، وظهر خلفاء صلاح الدين الأيوبي على مسرح الأحداث التاريخية وكانوا مختلفين عنه سلوكًا وخُلقًا، وكان مستواهم العسكري والسياسي لا يرقى إلى مستواه، ومن هنا ترك صلاح الدين الأيوبي فراغًا سياسيًّا كبيرًا بموته.

٢- استمر الفقهاء والعلماء في دورهم القيادي البارز في الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين ولم ينقطعوا عن العطاء وواصلوا مسيرتهم لمساندة أبناء صلاح الدين وتأييدهم ونصحهم لتخطي العقبات التي تعترض طريقهم؛ حفاظًا على وحدة الدولة الأيوبية وسلامتها، لتقف صامدة متماسكة أمام التحدي الصليبي بعد فقد قائدها صلاح الدين.

٣- كان القاضي الفاضل في بداية الأمر مقيمًا بدمشق عند الملك الأفضل، وقد رأى في تصرفاته ما استنكره مثل وضعه لكل ثقته في وزيره الجديد القاضي ضياء الدين ابن الأثير، الذي حسَّن للملك الأفضل إبعاد أمراء أبيه وأكابر أصحابه، ولكن الملك الأفضل لم يستجب لنصح القاضي الفاضل وعندئذ عزم القاضي الفاضل عن ترك دمشق والتوجه إلى الديار المصرية فاستأذنه وتوجه إلى الملك العزيز عثمان بمصر الذي أحسن استقباله وجعله عنده في محل والده؛ احترامًا وتعظيمًا له لما يعرفه من مكانته، وصار الملك العزيز لا يصدر أمرًا إلا عن رأيه ومشورته.

٤- حدثت صراعات عنيفة بين الأيوبيين، وبعد وفاة الملك العزيز استولى الملك العادل أخو صلاح الدين على الدولة الأيوبية وتمكن من السلطنة.

٥- يعتبر النزاع الداخلي في الأسرة الأيوبية من أسباب ضعفها واضمحلالها وزوالها، فمن سنة الله تعالى في الشعوب والأمم وأسباب زوالها وهلاكها؛ الاختلاف.

٦- إن حوادث الخلاف والمنازعات الداخلية بين أبناء البيت الأيوبي حول تقسيم التركة التي خلفها صلاح الدين تملأ معظم تاريخ الدولة الأيوبية، ويرجع ذلك إلى تطبيق مبدأ اعتبار المملكة إرثًا خاصًّا بتقسيم أنصبة متساوية وغير متساوية بين أبناء البيت المالك، كما يرجع إلى صلاح الدين نفسه الذي فضَّل أبناءه وأثرهم على أخيه العادل على الرغم من أنه أقدر القادرين على امتلاك ناصية الدولة بعده، فبينما حرص صلاح الدين على أن تكون أهم أقاليم المملكة

لأبنائه، عين أخاه العادل على أطراف مبعثرة مثل الكرك والشوبك، على أن عوامل الانقسام ما لبثت أن دبت بين أبناء صلاح الدين أنفسهم.

٧- انتهز الملك العادل الفرصة ورأى أن يجمع هذا الشتات تحت إمرته، فلم يتردد في فرض سلطانه على مصر إلى جانب أملاكه في الشام، وهكذا لم يمض على وفاة صلاح الدين سوى سبع سنوات حتى طوى العادل معظم أولئك الأبناء، فحل محلهم في دولة موحدة، وقد سلك العادل في سبيل تحقيق هذا الهدف الطرق المشروعة وغير المشروعة، ولم يترك وسيلة إلا اتخذها ما دامت توصله إلى مأربه، وتظهر لنا سياسته بوضوح في تصريحه الخطير الذي ألقاه على من حوله من أمراء الدولة الأيوبية بمصر، مبررًا خلعه الملك منصور بن العزيز صلاح الدين: إنه قبيح بي أن أكون أتابك صبي مع الشيوخة والتقدم والملك ليس هو بالإرث وإنما هو لمن غلب.

٨- كان ملوك بني أيوب يقومون بكل واجباتهم المعنوية تجاه منصب الخليفة، وكان ملوك بني أيوب يُجدِّدون الولاء للخلفاء العباسيين عبر أداء قسم الولاء أو ما كان يعرف بالتحليف، ولم تنقطع الرسل بين ملوك بني أيوب وبين ديوان الخلافة، فكان يندر أن يخلو عام من رسل تتردَّد برسائل وغيرها أيام الدولة الأيوبية.

٩- ساهم الصراع بين الأسرة الأيوبية على إضعاف تنفيذ مشروع الدولة النورية ودولة صلاح الدين في تحرير بلاد الشام من الوجود الصليبي، وحاول الصليبيون الاستفادة من الصراع في البيت الأيوبي، وبالمقابل لم تخلُ هذه الفترة من ردود أيوبية على اعتداءات الصليبيين التي كانت تزج بهم البابوية إلى ساحات الشرق الإسلامي بهدف إعادة السيطرة الصليبية على بيت المقدس.

١٠- حرص الصليبيون على إبقاء الروح الصليبية فاعلة على الساحة الأوربية، وقد تمثل ذلك بنجاحهم في العمل على جعل الغرب الأوربي يرسل حملات صليبية جديدة.

١١- عملت القوى الصليبية في هذه الفترة على تركيز جهودها على الجبهة المصرية؛ استمرارًا للاستراتيجية الصليبية التي بدأت تتبلور بعد هزائمهم منذ أيام صلاح الدين، هذه الاستراتيجية التي ترى ضرورة السيطرة على مصر، بما يشكل للصليبيين ضمانًا لاستمرار وجودهم في بلاد الشام.

١٢- كان الصراع محتدمًا بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني، بل كانت بينهم فجوة حضارية كبيرة، وظل البيزنطيون ينظرون إلى الغرب الأوربي نظرة ازدراء واحتقار، لقد شعروا بأنهم خلفاء الرومان وحتى الإمبراطور الروماني، ولم تكن بيزنطة تعترف بوجود إمبراطور آخر

في الغرب الأوربي، ومعنى ذلك أن كلًا من الجانبين افتقد القدرة على الاعتراف بالآخر، وهذه زاوية محورية من أجل فهم أبعاد الصدام الذي حدث عام (١٢٠٤م/ ٦٠٢هـ) ولم تكن الهوَّة الحضارية هي كل ما في الأمر، بل إن الصراع العقائدي لعب دورًا بارزًا هو الآخر من أجل تعميق التباعد بين الجانبين.

١٣- في الحملة الصليبية الثالثة كان هناك تحالفًا قد تمَّ بين السلطان الأيوبي صلاح الدين والإمبراطور البيزنطي إسحاق الثاني إنجليوس، ومن المنطقي تمامًا أن تسعى تلك الإمبراطورية إلى إيجاد توازن ما مع القوى الإسلامية المجاورة، فلم تكن لتقبل بانتصار ساحق للصليبيين على المسلمين في بلاد الشام، على نحو يؤدي إلى زيادة قوتهم وبالتالي يواجهون تلك الإمبراطورية بشراسة أكبر، لقد أرادت بيزنطة أن تجعل كافة الأطراف تحتاجها سلميًّا أو حربيًّا من خلال لعبة توازن القوى التي برعت فيها في أحيان عديدة، وقد كشفت الحملة الصليبية الثالثة على مدى العداء الذي كفته الجيوش الصليبية لبيزنطة.

١٤- تغير مسار الحملة الصليبية الرابعة وتوجهت إلى القسطنطينية واحتلتها وحدث بالمدينة أكبر عمليات السلب والنهب التي شهدتها القرون الوسطى، وتعرضت للمصير المأساوي الذي تعرضت له مدينة بيت المقدس منذ ما يزيد على القرن من الزمان.

١٥-إن سقوط القسطنطينية على مثل هذه الصورة كان بمثابة كارثة على فكرة الحملات الصليبية، كأن الحركة تنتحر، فمن قبل كان الإعلان عن ميلادها موجهًا لحرب (الكفار) وقصد بهم البابا حينذاك المسلمين، وأما الآن فإن نطاق (الكفار) امتد ليشمل المخالفين لكنيسة روما في المعتقدات الدينينة.

١٦- إننا لأول مرَّة منذ إعلان مشروع أوربان الثاني (١٠٩٥م/ ٤٨٩هـ) نجد أن الحركة الصليبية تتجه إلى تلك الوجهة وتسقط عاصمة أكبر إمبراطورية مسيحية في المنطقة على مدى المرحلة الواقعة من القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري إلى القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري، وطول هذه القرون لم تسقط بيزنطة على أيدي الفرس والروس والنورمان والمسلمين وغيرهم، إلا أن سقوطها كان على يد قوة مسيحية ممثلة في الغرب الأوربي، ولذلك لا عجب والأمر كذلك أن نعتبر عام (١٢٠٤م/ ٦٠٢هـ) عامًا فارقًا في تاريخ الحملات الصليبية.

١٧- من الأهمية بمكان التقرير بأن مسئولية العاصمة البيزنطية موزعة بين البنادقة، والبابا أنوسنت الثالث، والبيزنطيين أنفسهم، ويتصور البعض أن البيزنطيين هم الضحية في كافة تلك الأحداث التي وقعت على أرض إمبراطوريتهم، غير أن الواقع التاريخي يؤكد أن بيزنطة سقطت من الداخل قبل سقوطها من الخارج، فالصراع على المنصب الإمبراطوري الذي سمح بالتدخل

الأجنبي مثَّل فرصة ذهبية أمام الغرب الأوربي أحسن استغلالها من أجل توجيه ضربة قاضية لبيزنطة، ثم إن الضعف العام لتلك الإمبراطورية شجع أعداءها على الانقضاض عليها في غير هوادة.

١٨- كانت للحملة الصليبية الرابعة تأثير بالغ على مسار المشروع الصليبي بأكمله، ويكفي أنه نتج عنه سقوط القسطنطينية لأول مرة في تاريخها منذ أن شيَّدها قسطنطين الكبير وافتتحها عام (٣٣٠م) وبالتالي فقد أدت الحملة الصليبية الرابعة إلى تغيير خريطة التوزيعات السياسية لشرق أوربا إلى حد كبير، وأزالت السيادة البيزنطية وقسَّمتها إلى عدة مناطق، وأعادت تركيب المنطقة على أساس المصالح الاقتصادية والسياسية الجديدة.

١٩- إن النكبة التي نكبت بها الإمبرآطورية البيزنطية عام (١٢٠٤م/ ٦٠٢هـ) أدت إلى التمهيد -بصورة أو بأخرى- لحدوث الانهيار النهائي لها على أيدي الأتراك العثمانيين عام (١٤٥٣م/ ٨٥٧هـ) في عهد قسطنطين الحادي عشر (١٤٤٩م-١٤٥٣/ ٨٥٣-٨٥٧هـ) بقيادة السلطان محمد الفاتح، ونستطيع وصف مرحلة القرنين والنصف قرن بين التاريخين المذكورين بأنها مرحلة احتضار بيزنطي طويل الأجل انتهى بأن خرجت بيزنطة بعده من التاريخ بجدارة مثلما دخلته من قبل بجدارة أيضًا، وأصبحت عاصمة الدولة العثمانية وعادت إلى مركز الريادة العالمي من جديد، وساهمت في إشعاع نور الحضارة والعلم والمعرفة في أنحاء المعمورة.

٢٠- كانت الحملة الصليبية الرابعة التي وجهت أصلًا إلى مصر قد انحرفت عن مسارها إلى القسطنطينية بفعل دوافع اقتصادية ودينية وسياسية، فإن الحملة الصليبية الخامسة جُدِّد لها أن تغزو مصر بعد أن اقتنع القادة الصليبيون بضرورة ضرب مصر لتأمين ممتلكاتهم في بلاد الشام واستعادة السيطرة على بيت المقدس.

٢١- كان الملك العادل قد تمكن من السيطرة على مقاليد الأمور وصار الشخصية البارزة في البيت الأيوبي واتبع سياسة سلْميَّة تجاه الصليبيين بصفة عامة، وفضَّل الحلول الدبلوماسية أو التلويح باستخدام القوة دون استخدامها فعليًا، وفي الحقيقة أن العادل الأيوبي بتلك السياسة ابتعد كثيرًا عن سياسة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، ويبدو أنه كان يخشى أن يؤدي تعامله العسكري مع الصليبيين إلى قدوم حملة صليبية بنفس الثقل العسكري والسياسي للحملة الصليبية الثالثة.

٢٢- أدَّت البابوية دورًا مهمًّا في الحملة الصليبية الخامسة؛ فقد قام البابا أنوسنت الثالث (٥٩٤هـ-٦١٣هـ/ ١١٩٨-١٢١٦م) بعمل صليبي ضخم، وسعى جاهدًا طوال مدة جلوسه على البابوية أن يفرض سيطرته على الممالك النصرانية في أوربا ويوجِّهها وفق المصلحة النصرانية

العامة، وقد نجح في ذلك إلى حد كبير لدرجة أنه أصبح سيدًا على كل ربوع أوربا تقريبًا، كما أن انتصار النصارى على المسلمين في موقعة (٦٠٩هـ/ ١٢١٢م) في أسبانيا شجعه على الدعوة للحملة الصليبية الخامسة، فأراد أن يتبع هذا الانتصار في الغرب آخر في الشرق، ورحبت المدن الإيطالية التجارية بدعوة البابا نظرًا لما يعود عليها من منافع تجارية، على الرغم من أن العادل منح هذه الجمهوريات بعض الامتيازات في بعض الموانئ، وهناك عامل اجتماعي آخر أدَّى دورًا بارزًا في الاستجابة للدعوة البابوية؛ ذلك أن الحملات الصليبية كانت متنفسًا للعامة في أوربا ووسيلة للتخلص من الظلم الاجتماعي، ومن دفع الديون وفوائدها، فضلًا عن البحث عن مناخ أفضل للحياة، بالإضافة إلى التكفير عن خطاياهم للقيام بالحملة المنتظرة.

٢٣- شجع العلماء والفقهاء أولي الأمر على التصدي للصليبيين ونزلوا إلى ميدان الجهاد مقاتلين في سبيل الله، خالعين العمائم متزينين بزي الجند، حاملين السلاح دفاعًا عن الإسلام والمسلمين، فكان في مقدمتهم الفقيه شهاب الدين بن البلاعي الذي كان أحد الجنود المقاتلين في صد الضربات العنيفة التي وجهها الصليبيون بغتة ضد مدينة حماة عام (٦٠١هـ/ ١٢٠٤هـ) ناقضين الهدنة المنعقدة بينهم وبين صاحب حماة في العام الماضي.

٢٤- في عصر الممالك الأيوبية كانت إيطاليا تتشكل من جمهوريات مستقلة، وكانت كل جمهورية منها تقوم في مدينة كبرى، مثل: البندقية، بيزا، جنوة، وأمالفي، ولكنها كلها تتبع نمطًا اقتصاديًّا واحدًا، يقوم على التجارة البحرية، وقد تمكَّنوا جميعًا بفضل الأساطيل المتنوعة الضخمة من أن يحققوا أرباحًا خيالية، وأن تصل هذه المدن إلى مستويات عالية من الثروة.

٢٥- أدركت الدولة الأيوبية حاجتها لكسب التجار الإيطاليين فلوَّحت لهم بالمكاسب وعقدت معهم الاتفاقات على أساس الفائدة المشتركة فتحدوا كلَّ قرارات المنع وكل التزام ديني ونقلوا البضائع من وإلى الموانئ الإسلامية وخاصة موانئ مصر.

٢٦- كان للملك العادل دور كبير في تشجيع التجارة عبر مصر، ففي سنة (٦٠٨هـ/ ١٢١١م) كان يجتمع في مدينة الإسكندرية وحدها ثلاثة آلاف تاجر من الفرنج ما عدا مرافقيهم ومساعديهم، وعمَّالهم وبحَّارة سُفُنهم مما شكَّل حركة تجارة نشطة، كانت الدولة الأيوبية بأمس الحاجة إليها لحاجتها إلى كثير من المواد المجلوبة وللرسوم.

٢٧- في سنة (٥٩٧هـ) اشتد الغلاء بأرض مصر جدًّا، فهلك خلق كثير جدًّا من الفقراء والأغنياء، ثم أعقبه فناء عظيم حتى حكى الشيخ أبو شامة في الذيل: أن العادل كفَّن من ماله في مدة شهر من السنة نحوًا من مائتي ألف وعشرين ألف ميِّت، وأُكلت الكلاب والميتات في هذه السنة بمصر، وأُكل من الصِّغار والأطفال خلق كثير يشويه والداه ويأكلانه.

٢٨- كان البيت السلجوقي في الصراع الداخلي إذا ظفر واحد منهم بأخيه أو ابن عمه أعدمه، وأحسن أحواله أن يعتقله حتى يموت، وكان بنو أيوب يتحاربون وتجري بينهم العداوة الشديدة، ثم يجتمع بعضهم ببعض، وربما صعد بعضهم إلى قلاع بعض، ثم يفارقه بعد المقام عنده على حال جميلة والعداوة والمنافرة باقية بحالها.

٢٩- عندما تولى الملك الكامل السلطنة تصدى للغزاة الصليبيين في الحملة الصليبية الخامسة وكانت جهوده مشكورة، وعمل على استنزاف القوات الصليبية وحرمها من الراحة والهدوء، وطلب المدد والعون من إخوانه، فوصل الملك المعظم من الشام فقوي قلب الملك الكامل.

٣٠- بدأ الصليبيون بإحكام الحصار حول مدينة دمياط من البر والبحر وضيَّقوا على أهلها، ومنعوا وصول الأقوات إليهم، وبدأت حاميتها بالانهيار، ولكن سكان المدينة استمروا في قتال الصليبيين وثبتوا مع قلة الأقوات، وكان الملك الكامل يرسل بعض العوَّامين ليتحسس أخبار الأهالي في دمياط ويطمئنهم على وصول النجدات إليهم.

٣١- شدَّد الصليبيون الحصار على دمياط وضيَّقوا على أهلها، ومنعوا وصول الأقوات إليها، وفي المقابل كانوا متحصنين داخل معسكراتهم المحاطة بالخنادق والأسوار، وتعذر على الكامل محمد إمداد المدينة بالرجال والمؤن، وبدأت حاميتها بالانهيار، وأخيرًا سقطت دمياط في (٢٥ شعبان ٦١٦هـ/ تشرين ١٢١٩م).

٣٢- كان أسلوب الصليبيين في دمياط بربريًّا همجيًّا، متخلفًا بعيدًا عن الحضارة والقيم الإنسانية النبيلة.

٣٣- ظل الملك الكامل مرابطًا في المعسكر الذي أطلق عليه فيما بعد المنصورة، وقد اتخذ كثيرًا من الإجراءات لإشغال الصليبيين ووقف زحفهم على القاهرة، فوضع بعض السفن الإسلامية في بحيرة تنيس لمناوشته الصليبيين وكلَّف الكثير من الفرسان والعربان بالإغارة على القوات الصليبية باستمرار، وشجع على أسر أو قتل الصليبيين وخصص المكافآت لكل مسلم يأسر عدوًّا، وقد نجح المسلمون في أسر الآلاف من العساكر الصليبية أثناء هذه المناوشات والغارات.

٣٤- عندما زحف الصليبيين نحو القاهرة جعل الملك الكامل من المنصورة محور الارتكاز لجميع خططه، واستطاع أن ينزل قوات خلف الجيش الصليبي المتقدم فقطع عليه خط الرجعة وعزله عن دمياط، كما أجهز على سفنه الراسية بين المقدمة والمؤخرة، وحاصره برًّا وبحرًا، ثم أرسل قوة عسكرية عبرت إلى الأراضي التي يعسكر فيها الصليبيون ففجَّروا سدود المياه فلم يشعر هؤلاء إلا وقد غرقت أكثر الأراضي المحيطة بهم، وأحكم الملك الكامل خططه وسيطر المسلمون على الموقف واضطر الصليبيون للصلح.

٣٥- ولما فتحت دمياط دخلها الملك الكامل وفي خدمته إخوته وملوك أهل بيته، وكان يوم دخوله إليها يومًا مشهودًا، ثم توجه إلى القاهرة وأذن للملوك في الرجوع إلى بلادهم.

٣٦- كشفت الحملة الصليبية الخامسة بجلاء أن الصليبيون لديهم الإصرار على التوسع جنوبًا في مصر، وكشفت الطابع التنصيري للحركة الصليبية؛ حيث كان حرصهم واضحًا على تحويل مسلمي المنطقة إلى مسيحيين يتبعون الكنيسة الأم في روما، وبذلك يكونون قد استهدفوا الهوية الدينية ذاتها.

٣٧- كشفت تلك الحملة العلاقة الأبدية بين مصر والشام إذ إن كلًا منهما عمق استراتيجي للآخر، وعندما تعرضت أرض الكنانة للخطر قدم إليها الدعم والعون الحربي من شقيقتها الجغرافية والتاريخية بلاد الشام، وهكذا وجد الخطر الصليبي المشترك تاريخ المنطقتين المتجاورتين بصورة أكدتها مراحل التاريخ السابقة وكذلك التالية.

٣٨- كشفت قصر نظر الملك الكامل الأيوبي فيما يتعلق بالعروض البالغة السخاء، والسذاجة للصليبيين وقد توافر لديه إصرار مثير للعجب على تقديم بيت المقدس للغزاة في مقابل خروجهم من مصر.

٣٩- كان رد الفعل الإسلامي عظيمًا إزاء هذه النتيجة التي أسفرت عنها الحملة الصليبية الخامسة، فكانت فرحة المسلمين عظيمة بعودة دمياط إليهم، خاصة الفقهاء والعلماء والشعراء الذين أخذوا يتبارون في إنشاد قصائد التهاني بهذا النصر الكبير معبرين فيها عن مدى فرحتهم ومدى إحساسهم بأهمية عودة دمياط إلى المسلمين.

٤٠- أبرم الملك الكامل اتفاقية مع الصليبيين مدتها ثمان سنوات نصَّت على إطلاق كل فريق ما عنده من الأسرى، وتمَّ للأيوبيين القضاء على الحملة الخامسة نتيجة لتعاونهم وخطتهم المحكمة.

٤١- كثرت محاولات خلع الملك الكامل والتمرد عليه بالرغم من شجاعته، وحسن تدبيره، فكثر عنده الشك في مدى إخلاص العاملين من القادة والوزراء، فكان كلما شكَّ في إخلاص بعضهم عزلهم وصادر أموالهم.

٤٢- كان الملك الكامل يتمتع بجميع السلطات؛ إذ كان يشرف على جميع شئون الدولة الداخلية والخارجية ويرسم سياستها، فهو الذي يعين ويعزل ولي العهد، ونائب الملك والوزير وأمراء الجيش والقضاة ونظارين الدواوين وكبار الموظفين، ويعقد المعاهدات ويعلن الحرب، يساعده عدد من القادة والوزراء، ونواب الولايات والولاة، وكان يساعد الملك الكامل نائب له في كل ولاية، وكان النائب يقوم مقام الملك في شئون ولايته كافة؛ فهو النائب وقائد الجيش

وينفذ القوانين ويوقع المراسيم، وحافظ الملك الكامل على التقسيمات الإدارية التي كانت سائدة في عهد والده العادل.

٤٣- حرص الملك الكامل على توفير الأمن الداخلي في البلاد، وأقام في كل طريق خضراء (حراسًا) للمحافظة على سلامة المسافرين، وضرب على أيدي اللصوص بيد من حديد، فاطمأن الناس في سفرهم ولا سيما أثناء أدائهم فريضة الحج، ونقل تجارتهم، وقد عرف الملك الكامل بأنه كان حازمًا سديد الرأي حسن التدبير.

٤٤- تحفظ الملك الكامل عن بعض أفراد طائفة الإسماعيلية ولا سيما عن أبناء الخليفة الفاطمي العاضد، وحصر نشاطهم، فعندما توفي الأمير داود ابن العاضد استأذن بعض عناصر الطائفة لندب الأمير المتوفى والنواح عليه، أذن الكامل لهم فخرجت النساء حاسرات الرأس في ثياب الصوف وأخذت في ندبه والنياحة عليه، واجتمع دعاة الإسماعيلية في السر، فلما تكامل عددهم وجمعهم، أرسل الملك الكامل إليهم مجموعة من الجند قبضوا على المشهورين منهم وصادروا أموالهم، ففر من بقي منهم ولم يجسر أحد بعدها على أن يتظاهر بمذهب الإسماعيلية الرافضية الباطنية.

٤٥- اهتم الملك الكامل بالقضاء، وقد اعتمدت أصول المحاكمات والقضاء على التشريع الإسلامي في عهده، واشتهر معظم القضاة بالنزاهة والعدل، وتابع الملك الكامل الدواوين لوقف الفساد فيها، ومنع الرشوة، والسرقة؛ حفاظًا على جودة الدواوين وسيرها.

٤٦- توخى الملك الكامل رعاية مصالح أهل الذمة وتابع مشاكلهم وعاملهم معاملة جيدة، وحاول حل الأزمة التي تعرضت لها الكنيسة القبطية عندما خلا مركز البطركية إثر وفاة بطريك اليعاقبة شوروس أبي غالب عام (٦١٢هـ / ١٢١٥م).

٤٧- حاول الملك الكامل إضفاء نوع من الاستقرار على العملة، فعندما انتهت الحملة الخامسة بالصلح بين المسلمين والصليبيين استقرت الأوضاع الاقتصادية وسرعان ما ازدهرت العلاقات التجارية مع أوربا بعد صلح يافا الذي عقد بين الملك الكامل والإمبراطور فردريك الثاني، فتدفق الذهب إلى مصر؛ إذ جلبه التجار الأوربيون لاستخدامه لأغراض التجارة، فازدادت شهرة الدينار الكاملي.

٤٨- سلَّم الملك الكامل القدس للإمبراطور فردريك الثاني بعد صلح يافا ومجيء ما يسمى بالحملة الصليبية السادسة، وقد أثارت هذه المعاهدة موجة عارمة من السخط والأسى في الرأي العام الإسلامي كله، وعند الفقهاء والعلماء بوجه خاص، وقد اعتبر المسلمون أن تسليم بيت

المقدس للصليبيين بهذه السهولة يعتبر تفريطًا في حق الإسلام والمسلمين، وأصبحت هذه المعاهدة وصمة عار في جبين البيت الأيوبي بصفة عامة وللملك الكامل بصفة خاصة.

٤٩- كانت وفاة صلاح الدين الأيوبي نهاية مرحلة تاريخية وبداية مراحلة جديدة، وثمة مراحل تاريخية ترتبط فيها أمور البلاد والعباد بالشخصية الكارزمية للحاكم أو الصفوة الحاكمة، وتتمثل خطورة مثل هذه المراحل في أن غياب الحاكم ذي الصفات الأخلاقية السامية، وعدم وجود خليفة له يحمل نفس صفاته، يؤدي بالضرورة إلى تدهور المشروع الذي كرَّس نفسه له، أو سير الأمور في اتجاه معاكس للاتجاه الذي يسير فيه، والناظر في تواريخ الأمم والشعوب يجد أن هذه الحقيقة تصدق على كافة شعوب الأرض، ولم تنجُ منها غير الشعوب التي تمكَّنت من أن تقيم المؤسسات الدستورية والقانونية.

٥٠- تطورت المشروعات الصليبية في الغرب الأوربي وانتهج خلفاء صلاح الدين سياسة مهادنة إزاء الصليبيين تقوم على رد الفعل أكثر مما تقوم على المبادأة والمبادرة، فقد كان لانشغال الأيوبيين بمنازعتهم من جهة واهتمامهم بالهدنة مع الفرنج وتجديدها من جهة أخرى أثر إيجابي على الصليبيين الذين وجدوا الفرصة لالتقاط أنفاسهم وحشد المساعدات من الغرب الأوربي لمساعدتهم، ولم يحدث تطور عسكري أو فكر سياسي متقدم عند الأيوبيين وغابت روح الحسم العسكري التي أقامت الدولة الأيوبية، بل تلاشت وخصوصًا في عهد الكامل، وظهرت بعض الملامح العسكرية التي أقامتها الممالك الأيوبية بعد صلاح الدين.

٥١- إن النتيجة الكبرى للحملة السادسة تمخضت عنها عودة بيت المقدس دون إراقة الدماء ومن خلال حملة صليبية عجيبة خرجت ولعنات البابا تلاحق زعيمها فردريك الثاني.

٥٢- ما كاد الصالح أيوب يتولى ملك مصر حتى أبدى أمراء الأيوبية في الشام استياءهم ورفضوا الخضوع لسلطانه، وكان أشدهم تصلبًا عمه إسماعيل صاحب دمشق.

٥٣- تحالف الملك الصالح أيوب مع الخوارزمية الذين أعادوا فتح بيت المقدس وتمكنوا مع جيش الملك الصالح أيوب من إلحاق هزيمة ساحقة بالتحالف الشامي الصليبي.

٥٤- كانت سياسة الملك الصالح نجم الدين أيوب تجاه الخلافة العباسية تتسم بنفس التوجيهات التي تبناها أسلافه السلاطين الأيوبيين من حيث الاعتراف بمؤسسة الخلافة، وشرعية سيادتها على العالم الإسلامي، والالتزام بتطبيق ذلك في الخطبة وسك النقود الرسمية الأخرى.

٥٥- ينسب إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب إدخال تشكيلات جديدة على القوَّة العسكرية التي كان يتكون منها جيش السلطان الأيوبي، فقد اتخذ جملة من الإجراءات العسكرية

تبناها السلطان الملك الصالح نجم الدين لتقوية الجيش الذي كان يترأسه ومن أهمها؛ اهتمامه الكبير بشراء المماليك والغلمان والأتراك بشكل لم يسبق له نظير في تاريخ السلطنة الأيوبية.

٥٦- اهتم الأيوبيون بتربية المماليك وتعليمهم ما يحتاجون إليه من القرآن الكريم، ولكل طائفة فقيه يأتيها كل يوم، ويأخذ في تعليمها القرآن ومعرفة الخط والتمرين بآداب الشريعة الإسلامية وملازمة الصلوات والأذكار، وصار الرسم إذ ذاك لا يجلب التجار إلا المماليك الصغار ويتربون دينيًا ويتدربون عسكريًّا على جميع أصناف القتال، ويتدرجون في الرتب العسكرية بعد ذلك، وينتقل في أطوارها رتبة بعد رتبة إلى أن يصير من الأمراء، فلا يبلغ هذا إلا وقد تهذَّبت أخلاقه وكثر أدابه وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه، واشتدَّ ساعده في رماية النشاب، وحسن لعبه بالرمح، ومرن على ركوب الخيل.

٥٧- تبنى البابا أنوسنت الرابع الحملة الصليبية السابعة وأعلن تأييده لها، وكانت دعواه عاملًا فعالًا في إعدادها، فضلًا عن لويس التاسع الذي أخذ على عاتقه مهمة النهوض بالحملة وقد استغرق إعداد الحملة ثلاث سنوات، وفُرضت ضرائب استثنائية على الجميع.

٥٨- عندما قرَّر الصليبيون الزحف نحو القاهرة توفي الملك الصالح أيوب وكانت محنة عظيمة ألمَّت بالمسلمين، وكان عمره عند وفاته ٤٤ سنة، وقد عهد لولده الملك المعظم توارنشاه.

٥٩- قرّر الصليبيون الزحف صوب القاهرة بعد ما وصلت إليهم بعض الإمدادات، ورتب الملك لويس حراسة قوية لحراسة المدينة بعد تحرك القوات الصليبية، وظهرت على مسرح الأحداث شجرة الدر وقررت إخفاء خبر وفاة زوجها الملك الصالح أيوب.

٦٠- عندما وصل تورانشاه ابن الملك الصالح أيوب مصر أعلنت شجرة الدر وفاة زوجها وسلَّمت مقاليد الأمور للسلطان الجديد، فأعدَّ خطة عسكرية كفُلت له النصر النهائي على الصليبيين ووقع لويس التاسع في الأسر.

٦١- ساهمت مجموعة من الأسباب في هزيمة الحملة الصليبية السابعة والتي من أهمها؛ التطوير العسكري الذي حدث في الجيش الأيوبي ورافق هذا التطوير الاهتمام الديني به من حيث التربية والتعليم حتى أصبحت كتائب المماليك تدافع عن عقيدة الإسلام، وأصبحت الدولة تحتفظ بجيش عقائدي ومنظم ومدرب، ومن الأسباب أيضًا وحدة الصف الإسلامي، فقد كانت مصر والشام تحت زعامة واحدة ولاحت بشائر النصر منذ وصول الجيوش الشامية إلى مصر، وكان السلطان الصالح أيوب يتمتع بنفوذ حقيق على رجال دولته وقادة جيوشه، وكانت أهم صفة يتحلى بها الجند الإسلامي هي الطاعة لأوامر قائدهم، كما كان لنزول العلماء والفقهاء أثر في

سحق الأعداء والانتصار عليهم، فقد انضم إلى صفوف المجاهدين كوكبة من العلماء؛ كالعز بن عبد السلام وغيره، كما ساهم في الهزيمة عوامل أخرى.

٦٢- كان من نتائج الحملة الصليبية السابعة؛ عجز فرنسا عن تحقيق أهدافها، إتاحة فرصة لظهور المماليك ووصولهم للحكم، تضرر الاقتصاد الأوربي، تخريب مدينة دمياط، حزن عظيم في فرنسا وأوربا، واضطرابات سياسية تسببت في عودة لويس التاسع إلى أوربا، ضعف الروح الصليبية.

٦٣- تباينت الآراء واختلف المؤرخون حول شخصية تورانشاه وتعددت أسباب قتله في نظرهم، ولكنهم اجتمعوا على قتله على يد مماليك أبيه البحرية.

٦٤- من شيوخ عهد الملك الصالح نجم الدين الشيخ العز بن عبد السلام، وقد ترك للأمة ثروة من المصنفات والرسائل المفيدة والفتاوى السديدة بيَّنت لنا منزلته الرفيعة واطلاعه الواسع على حقائق الشريعة وغوامضها، وباعه الطويل في معرفة مقاصد الشريعة، وفهمه السليم لمعاني القرآن الكريم ومراميه السامية التي رعاها الشارع الحكيم من أجل إسعاد البشرية عامة، بإخراجها من ظلمات المفاسد ومضارها إلى نور المصالح وخيراتها.

٦٥- حدث حوار ثقافي وجدل عقائدي، ومناظرات فكرية بين المسلمين والنصارى في عهد الحروب الصليبية، وكانت من أهم موضوعات الجدل والحوار الثقافي: الدعوة للتوحيد، وإلى اعتناق الإسلام بشكل مجمل، والإيمان بالقرآن، وبشرية المسيح عليه السلام ونبوَّته، وتمَّ مناقشة عقائد النصارى والتي من أهمها: نقض الأمانة، واختلاف الأناجيل، وقول النصارى في المسيح، وإبطال التثليث، وإبطال الاتحاد والتجسد، ونفي الألوهية عن المسيح، ونفي بنوة المسيح لله سبحانه وتعالى، وإبطال الصلب، وحقيقة التعميد، وقضية صكوك الغفران، وأعياد النصارى وصلاتهم وصيامهم وتشريعهم في الزواج، وتركهم الختان، وتعظيمهم للصور والتماثيل.

٦٦- من الشبه التي أثارها النصارى في عصر الحروب الصليبية: دعوى خصوصية رسالة النبي ﷺ بالعرب، ودعوى أن القرآن ورد بتعظيم النصارى والثناء عليهم، وشبهات تعدد الزوجات في الإسلام، ودعوى انتشار الإسلام بالسيف، وانتقادهم للطلاق في الإسلام، ودعوى أن المسلمين وثنيون وكفار.

٦٧- كان القائمون على دعوة النصارى في عصر الحروب الصليبية القادة والولاة والعلماء، وكانت وسائل الدعوة الإسلامية: الكتب، والجهاد، والرسل، والمسجد، والرسائل، وقد استخدم المسلمون وسائل دعوية متعددة منها؛ العقلية، كالسبر والتقسيم، وقياس الأولى،

والقياس المساوي، وقياس الخلف، والمحاكمات العقلية، وتناقض الخصوم والمقارنة، كما استخدمت الأساليب العاطفية؛ كالاستهزاء والتهكم، واللين والتلطف، والقصة، والتكرار والاستفهام والتعجب، واستخدام الشعر في تأدية بعض المعاني.

٦٨- كان لدعوة المسلمين للنصارى آثار ملموسة؛ كدخول أعداد كبيرة من النصارى في الإسلام، وتأثرهم بعادات المسلمين وأخلاقهم وتقاليدهم، وتحسن نظرة كثير من النصارى للإسلام والمسلمين، ونجاح المسلمين في كسب بعض النصارى الصليبيين، وحسن معاملتهم لمن تحت أيديهم من المسلمين، وظهور عزة الإسلام، وتغير التكتيك الصليبي، وتأجيل إخراج المسلمين من الأندلس، وغير ذلك من الآثار.

٦٩- نلاحظ أن فكرة صراع المشروعات لا زالت مستمرة معنا وظهر المشروع المغولي على مسرح الأحداث الدولية لذلك العصر.

٧٠- إن هذا الكتاب من سلسلة موسوعة الحروب الصليبية قابل للنقد والتوجيه، وما هو إلا محاولة جادة هدفها معرفة تاريخ الأمة والوقوف على عوامل النهوض، وفقه المقاومة الذي مارسه المسلمون، وبيني وبين الناقد قول الشاعر:

إن تجد عيبًا فسد الخللا ... جلَّ من لا عيب فيه وعلا

وقول الشاعر:

وما بها من خطأ ومن خلل ... أذنت في إصلاحه لمن فعل
لكن بشرط العلم والإنصاف ... فذا وذا من أحسن الأوصاف
والله يهدي سبل السلام ... سبحانه بحبله اعتصامي

وأسأل الله العلي العظيم رب العرش الكريم أن يتقبل هذا الجهد قبولًا حسنًا، وأن يبارك فيه، وأن يجعله من أعمالي الصالحة التي أتقرب بها إليه، وأن لا يحرم إخواني الذين أعانوني على أكماله والقارئ الكريم من الأجر والمثوبة، وأختم هذه الخلاصة بقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

ويقول الشاعر:

أنا الفقير إلى رب البريات ... أنا المسكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي ... والخير إن يأتينا من عنده يأتي
لا أستطيع لنفسي جلب منفعة ... ولا عن النفس لي دفع المضرَّات
والفقر لي وصف ذات لازم أبدًا ... كما الغني أبدًا وصف له ذاتي

وهذه الحال حال الخلق أجمعهم وكلهم عنده عبدله آتي

«سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك».

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أهم المصادر والمراجع

١- الدولة الخوارزمية؛ نشأتها، علاقاتها مع الدول الإسلامية، نظمها العسكرية والإدارية، جامعة بغداد، رسالة ماجستير عام (١٩٧١م).
٢- أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوربي خلال الحروب الصليبية، عبدالله عبدالرحمن الربيعي، الرياض (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م).
٣- أثر العامل الديني في توجيه الحركة الصليبية، د/ محمد صالح منصور، منشورات جامعة قاريوس، بنغازي، الطبعة الأولى (١٩٩٦م).
٤- أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، د/ أحمد حطيط، د/ فهمي سعد، عالم الكتب، الطبعة الأولى (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م).
٥- أدلة الوحدنية في الرد على النصرانية، أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق: عبد الرحمن دمشقية، الطبعة الأولى (١٤٠٨/ ١٩٨٨م).
٦- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، محمد بن محمد العمادي (أبو السعود)، دار إحياء القرآن، بيروت.
٧- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، أحمد بن محمد المقري، نشر صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة، الرباط (١٩٧٨م).
٨- إظهار الحق، العلامة/ رحمة الله الكيرانوي، وزارة الشئون الدينية بدولة قطر.
٩- أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي، د/ جمال الدين الشيال، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى (١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م).
١٠- الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة في الرد على اليهود والنصارى للإمام شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، دراسة وتحقيق: مجدي محمد الشهاوي، مكتبة القرآن.
١١- الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار، د/ جودت الركابي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م).
١٢- الأدب في العصر الأيوبي، د/ محمد زغلول، منشأة المعارف بالإسكندرية.
١٣- الإسلام في أسبانيا، لطفي عبد البديع، مكتبة النهضة العصرية، القاهرة، الطبعة الأولى (١٩٥٨م).
١٤- الاعتبار لابن منقذ، أسامة بن مرشد بن منقذ، حرره فليب جتي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
١٥- الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: د/ أحمد حجازي السقا، مكتبة الحرمين، الرياض.
١٦- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، علي بن عبد الله بن أبي زرع، دار المنصور، الرباط (١٩٧٢م).
١٧- الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، محمود محمد علي الحويري، دار المعارف، القاهرة (١٩٧٩م).
١٨- البحر المحيط للزركشي.

١٩- البداية والنهاية للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، الطبعة الأولى (١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م).
٢٠- البطولة والفداء عند الصوفية -دراسة تاريخية، أسعد الخطيب، الطبعة الثانية، مطبعة الشام.
٢١- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، أحمد بن محمد بن عذاري، تحقيق: د/ إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت (١٩٨٣م).
٢٢- التاريخ الأندلسي، د/ عبد الرحمن علي الحجي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة (١٤٠٧هـ).
٢٣- التاريخ الباهر لابن الأثير.
٢٤- التاريخ المنصوري للحموي.
٢٥- التفسير الكبير لفخر الدين الرازي.
٢٦- التنصير؛ مفهومه، جذوره، أهدافه، أنواعه، وسائله وصولاته، الشيخ أكرم كساب، مركز التنوير الإسلامي.
٢٧- الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، محمد بن محمد بن الأثير، تحقيق: مصطفى جواد وزميله، المجمع العلمي العراقي (١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م).
٢٨- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الخامسة (١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م).
٢٩- الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات الصليبية، جبهة الشام وفلسطين ومصر، د/ حامد غنيم أبو سعيد، دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى (١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م).
٣٠- الجهاد الإسلامي ضد الصَّليبيين في العصر الأيوبي، د/ فايد حماد محمد عاشور، دار الاعتصام، الطبعة الأولى.
٣١- الجهاد الإسلامي ضدَّ الصَّليبيين والمغول في العصر المملوكي، د/ فايد محمد عاشور، جرّوس برس، طرابلس، لبنان، الطبعة الأولى (١٩٩٥م/ ١٤١٥هـ).
٣٢- الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح لابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، تحقيق: د/ علي بن حسن بن ناصر وآخرين، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الثانية (١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م).
٣٣- الجواري والغلمان في مصر في العصرين الفاطمي والأيوبي، نجوى كمال كيرة، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى (٢٠٠٧م).
٣٤- الحركة الصليبية، سعيد عاشور، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الرابعة (١٩٨٦م).
٣٥- الحروب الصليبية -العلاقات بين الشرق والغرب، د/ محمد مؤنس عوض، الطبعة الأولى (١٩٩٩/ ٢٠٠٠م) عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.
٣٦- الحروب الصليبية، وليم الصوري، ترجمة: د/ حسن حبشي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة (١٩٩١م).
٣٧- الحروب الصليبية، أرنست باركر، نقله إلى العربية الدكتور السيد الباز العريني، دار النهضة للطباعة، بيروت.

٣٨- الحرية أو الطوفان، د/ حاكم المطري، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى (٢٠٠٤م) بيروت، لبنان.
٣٩- الخلافة العباسية، السقوط والانهيار، د/ فاروق عمر فوزي، طبعة (١٩٩٨م)، دار الشروق، عمان، الأردن.
٤٠- الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، د/ قاسم عبده قاسم، الطبعة الأولى (١٩٩٩م) عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.
٤١- الداعي إلى الإسلامي، عبد الرحمن بن محمد الأنباري، تحقيق: سيد حسين باغجوان، دار البشائر، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٩هـ).
٤٢- الدبلوماسية الإسلامية، عبد الرحمن محمد عبد الرحمن، دار اليقين، مصر، المنصورة.
٤٣- الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، د/ علي الصَّلَّابي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م).
٤٤- الدولة الأيوبية في مصر الإسلامية، د/ عبد المنعم ماجد، طبعة (١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م) دار الفكر العربي.
٤٥- الدولة الأيوبية، تاريخها السياسي والحضاري، د/ عرب دعكور، دار المواسم، طبعة سنة (٢٠٠٦م) بيروت، لُبنان.
٤٦- الدولة الأيوبية، سمير فراج ابن الشاطئ، مركز الراية للنشر والإعلام، الطبعة الأولى (٢٠٠٥م).
٤٧- الدولة الخوارزمية، د/ نافع العبود.
٤٨- الدولة الخوارزمية والمغول، غزو جنكيز خان للعالم الإسلامي، حافظ أحمد، دار الفكر العربي.
٤٩- الدولة العثمانية -عوامل النهوض والسقوط، د/ علي محمد الصَّلَّابي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة (١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م).
٥٠- الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي، د/ عبد الجبار ناجي، د/ صلاح عبد الهادي، طبعة أولى (٢٠٠٣م) مركز الإسكندرية للكتاب.
٥١- الديباج المُذَهَّب في معرفة أعيان المَذْهَب، تأليف: ابن فرحون المالكي، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة.
٥٢- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، على بسام الشنتريني، تحقيق: د/ إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م).
٥٣- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، لأبي عبد الله بن عبد الملك المراكشي، تحقيق: إحسان عباس ومحمد بن شريفه، دار الثقافة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (١٩٧٣م).
٥٤- الرد على النصارى، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق: د/ محمد حسانين، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م).
٥٥- الرسالة الناصرية، مختار بن محمد الزاهدي، تحقيق: محمد المصري، منشورات مركز المخطوطات والتراث، الكويت (١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).
٥٦- السلاطين في المشرق العربي -معالم دورهم السياسي والحضاري، السلاجقة، والأيوبيون، د/ عصام محمد شبارو.

٥٧- السلطان المظفر سيف الدين قطز بطل معركة عين جالوت، د/ قاسم عبده قاسم، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى (١٤١٩هـ/١٩٩٨م).
٥٨- السلطان محمد الفاتح، علي محمد الصَّلَّابي، دار المعرفة، لبنان.
٥٩- السلوك لمعرفة دول الملوك، أحمد بن علي المقريزي، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة (١٩٧١م)، دار الكتب، القاهرة (١٩٧٢م).
٦٠- السنن الإلهية، د/ عبد الكريم زيدان، دار الرسالة.
٦١- الشرق الأدنى في العصور الوسطى، الأيوبيون، د/ السيد الباز العريني، دار النهضة العربية.
٦٢- الضعف المعنوي وأثره في سقوط الأمم، د/ حمد بن صالح السحيباني، كتاب المنتدى، الطبعة الأولى (١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م).
٦٣- العِبَر في أخبار من غَبَر للذهبي.
٦٤- العدوان الصليبي على مصر، هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور، د/ جوزيف نسيم يوسف، دار النهضة العربية، طبعة عام (١٩٨١م).
٦٥- العز بن عبد السلام؛ حياته وآثاره ومنهجه في التفسير، د/ عبد الله بن إبراهيم الوهيبي، المكتبة السلفية، القاهرة، الطبعة الأولى (١٩٧٩م).
٦٦- العز بن عبد السلام، د/ محمد الزحيلي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م).
٦٧- العز بن عبد السلام، سلطان العلماء، د/ فاروق عبد المعطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م).
٦٨- العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية، د/ منذر الحايك، الطبعة الأولى (٢٠٠٦م) الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا.
٦٩- الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، د/ علي عبد الحليم محمود، دار التوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة الأولى (١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م).
٧٠- الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق: محمد محمود، الدار القومية للطباعة والنشر (١٩٦٥م).
٧١- الفتوح الإسلامية عبر العصور، د/ عبدالعزيز بن إبراهيم العمري، مركز الدراسات والإعلام، دار أشبيليا، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م).
٧٢- الفروق، لأحمد بن إدريس القرافي، عالم الكتب، بيروت.
٧٣- الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن وعلم البيان، الكتاب منسوب إلى محمد بن أبي بكر (ابن القيم) دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م).
٧٤- القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني دوره التخطيطي في دولة صلاح الدين وفتوحاته، هادية دجاني شكيل، مؤسسة الدراسات الفلسطينية.
٧٥- القدس بين أطماع الصليبيين وتفريط الملك الكامل الأيوبي، د/ إبراهيم ياسين الخطيب، دار المناهج الأردن، الطبعة الأولى (١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م).
٧٦- القدس تاريخ وحضارة، علية المهتدي، الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م)، دار نعمة للطباعة، بيروت، لبنان.

٧٧- القلائد الجوهرية لابن طولون.

٧٨- الكامل في التاريخ لعز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، تحقيق: الشيخ خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م).

٧٩- اللمعان البرقية في النكت التاريخية، شمس الدين محمد بن علي بن طولون الصالحي، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، الطبعة الأولى (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م).

٨٠- المجتمع القبطي في مصر في القرن التاسع عشر، رياض سوريال، مكتبة المحبة، القاهرة.

٨١- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: المجلس العلمي بفاس، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٨٢- المختصر لأبي الفداء.

٨٣- المدخل إلى علم أصول الفقه، د/ محمد بن عمر الرازي، مطابع الفرزدق، الرياض، الطبعة الأولى.

٨٤- المستدرك للحاكم على الصحيحين، الحاكم النيسابوري وبذيله التخليص للحافظ الذهبي، دار الكتاب العربي، بيروت.

٨٥- المسلمون في تاريخ الحضارة، سنانو دكب، ترجمة: د/ محمد فتحي عثمان، الدار السعودية، جدة، الطبعة الثانية (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).

٨٦- مسند أحمد بن حنبل الشيباني، حققه جماعة من الباحثين بإشراف: د/ عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٣هـ).

٨٧- المسيحية، د/ أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثامنة (١٩٨٤م).

٨٨- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد بن علي المراكشي، تحقيق: محمد سعيد العريان وزميله، مطبعة الاستقامة، القاهرة، الطبعة الأولى (١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م).

٨٩- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، أحمد بن يحيى الونشريسي، خرَّجه جماعة من الفقهاء، بإشراف: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).

٩٠- المغني، عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، تحقيق: د/ عبد الله التركي وزميله، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الثانية (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م).

٩١- المغول في التاريخ، د/ فؤاد عبد المعطي الصيَّاد، دار النهضة العربية للطباعة، بيروت.

٩٢- الملك الصالح أيوب وإنجازاته السياسية والعسكرية، فاطمة زبار الحمداني، كلية الآداب، جامعة بغداد، رسالة ماجستير عام (١٩٩٥م).

٩٣- الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، الأستاذ الدكتور سهيل زكّار، دار الفكر، دمشق، سوريا (١٩٩٩م).

٩٤- النبراس في خلفاء بني العباس، صححه وعلق عليه: عباس العزاوي، مطبعة المعارف، بغداد (١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م).

٩٥- النصرانية والإسلام، محمد عزت طهطاوي.

٩٦- النصيحة الإيمانية، نصر بن يحيى المتطبب، تحقيق: د/ الشرقاوي، دار الصحوة، القاهرة (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م).
٩٧- النظم الإسلامية، فاروق عمر.
٩٨- النظم الدبلوماسية لصلاح الدين المنجد.
٩٩- النقود الصليبية، رأفت النبراوي.
١٠٠- الوافي بالوفيات، خليل بن أيبك الصفدي، إصدار جمعية المستشرقين الألمانية، بعناية جماعة من العرب والمستشرقين، بيروت (١٩٦٢م/ ١٩٨٣م).
١٠١- الوجود الصليبي في الشرق العربي، فوشيه الشارتي، ترجمة: د/ قاسم عبده قاسم، ذات السلاسل، الكويت، الطبعة الأولى (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م).
١٠٢- الوسيط في تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي، أ.د/ فاروق عمر فوزي، أ.د/ محسن محمد حسين، دار الشروق (١٩٩٩م).
١٠٣- الوعي بالتاريخ وصناعة التاريخ، د/ محمد عمارة، دار الرشد، الطبعة الثانية (١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م) الأولى للدار.
١٠٤- إمارة الكرك الأيوبية، يوسف غوانمه.
١٠٥- أوربا في العصور الوسطى، سعيد عبد الفتاح عاشور، مكتبة الإنجلو مصرية، القاهرة، الطبعة العاشرة (١٩٨٦م).
١٠٦- أيعيد التاريخ نفسه؟ محمد العبده، الطبعة الثالثة (١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م).
١٠٧- بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس، أبي البركات الناصري محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، الطبعة الأولى (١٩٧٥م).
١٠٨- بلاد الشام قُبيل الغزو المغولي للغامدي.
١١٠- بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، د/ عبد الجليل حسن عبد المهدي، دار البشير، الأردن، الطبعة الثانية (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م).
١١١- تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة، د/ محمد سهيل طقوش، دار النفائس، الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م).
١١٢- تاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رنسيمان، ترجمة: د/ السيد الباز العريني، الطبعة الثالثة (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م).
١١٣- تاريخ الحروب الصليبية، سعيد عبد الله البيشاوي، محمد مؤنس عوض، طبعة عام (٢٠٠٤م) الطبعة الأولى.
١١٤- تاريخ الحروب الصليبية، محمود سعيد عمران، دار النهضة العربية، الطبعة الثانية (١٩٩٩م).
١١٥- تاريخ الدولة البيزنطية، د/ جوزيف نسيم يوسف، دار المعرفة الجامعية.
١١٦- تاريخ الدولة البيزنطية، عمر كمال توفيق.
١١٧- تاريخ الزمان لابن العنبري.

١١٨- تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، د/ محمود السيد، مؤسسة شباب الجامعة (١٩٩٨م).
١١٩- تاريخ المغول، عبَّاس إقبال.
١٢٠- تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، د/ خاشع المعاضدي، د/سوادي عبد محمد، دريد عبد القادر نوري، الطبعة الثانية (١٩٨٦م).
١٢١- تاريخ بيت المقدس من الفتح العُمري حتى نهاية العهد الأيوبي، محمد الحافظ النصر، دار البشائر الإسلامية، لبنان، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).
١٢٢- تاريخ جزيرة ابن عمر منذ تأسيسها حتى الفتح العثماني، د/ محمد يوسف غندور، دار الفكر اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى (١٩٩٠م).
١٢٣- تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب، د/ أحمد فؤاد سيد، مكتبة مدبولي، القاهرة (٢٠٠٢م).
١٢٤- تاريخنا المُفترى عليه، يوسف القرضاوي، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م).
١٢٥- تخجيل من حرَّف التوراة والإنجيل، صالح بن الحسين الجعفري، تحقيق: د/ محمود قدح، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى (١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م).
١٢٦- تذكرة الحفاظ للذهبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٢٧- تسبيح ومناجاة وثناء على ملك الأرض والسماء، محمد حسن عقيل الشريف، دار الأندلس الخضراء، الطبعة الأولى (١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م).
١٢٨- تفسير الألوسي المسمى روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، إدارة الطباعة بالهند بدون ذكر سنة الطبع.
١٢٩- جامع البيان للطبري، محمد بن جرير الطبري، المكتبة التجارية، مكة المكرمة (١٤٠٨هـ).
١٣٠- جامع شروح العقيدة الطحاوية، صالح آل الشيخ، دار ابن الجوزي، القاهرة، الطبعة الأولى (١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م).
١٣١- جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى خلال عصر المرابطين والموحدين، محمد بن إبراهيم أبا الخيل، دار أصدقاء المجتمع، المملكة العربية السعودية، بريدة، الطبعة الأولى (١٤١٩هـ).
١٣٢- جهود علماء السلف في القرن السادس الهجري في الرد على الصوفية، د/ محمد أحمد علي الجوير، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م).
١٣٣- جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين، زيادة أبو غنيمة، دار الفرقان، الطبعة الأولى (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).
١٣٤- جواهر البلاغة، السيد أحمد الهاشمي، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٣٥- جواهر السلوك في أمر الخلفاء والملوك، لابن إياس، الدار الثقافية للنشر، الطبعة الأولى (١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م).
١٣٦- حسن المحاضرة، جلال الدين السيوطي، دار إحياء الكتب، الطبعة الأولى (١٣٨٧هـ).

١٣٧- حقائق أساسية في الإيمان المسيحي، القس فايز فارس، دار الثقافة المسيحية، القاهرة.
١٣٨- خطط الشام، محمد كرد علي، دار الملايين، بيروت (١٣٩٠هـ).
١٣٩- خلاصة الذهب المسبوك للإربلي.
١٤٠- دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، د/ نعمان، د/ محمد حسن العمادي، الطبعة الأولى (٢٠٠٠م) مؤسسة حمادة، الأردن، أربد.
١٤١- دراسة في تاريخ الأيوبيين والمماليك، د/ السيد عبد العزيز سالم، د/ سحر السيد عبد العزيز سالم، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.
١٤٢- دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية، د/ عبدالحليم عويس، دار الصحوة، دار الوفاء، الطبعة الثالثة (١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م).
١٤٣- دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية، د/ سليمان بن عبد الله بن صالح الرومي، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى (١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م).
١٤٤- دمشق في العصر الأيوبي، د/ أحمد الأوتاني، الطبعة الأولى (٢٠٠٧م) دمشق، حلبولي، دار التكوين.
١٤٥- دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى في الجهاد ضد الصليبيين خلال الحركة الصليبية، د/ آسيا سليمان نقلي، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى (١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م).
١٤٦- دولة الأتابكة في الموصل، رشيد الجميلي.
١٤٧- دولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي، د/ علي محمد الصَّلَّابي، دار المعرفة، لبنان، الطبعة الأولى (١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م).
١٤٨- رحلة ابن جبير، أبو الحسن محمد أحمد الكناني الأندلسي، دار صادر، بيروت (١٩٦٤م).
١٤٩- رحلة ابن جبير، محمد بن أحمد الكناني، دار صادر، بيروت (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).
١٥٠- رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن تيمية.
١٥١- رسوم دار الخلافة للصابئ.
١٥٢- روما وبيزنطة، إسحاق عبيد.
١٥٣- زاد المسير في علم التفسير لابن القيم.
١٥٤- زبدة الحلب من تاريخ حلب، كمال الدين أبو القاسم ابن العديم، تحقيق: سامي الدهان، طبعة دمشق (١٩٥٤م).
١٥٥- سكب العبرات للموت والقبر والسكرات، سيد بن حسين العفاني، مكتبة معاذ بن جبل، الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م).
١٥٦- سياسة الخليفة الناصر لدين الله الداخلية، أحلام حسن مصطفى النقيب، كلية الآداب، جامعة بغداد عام (١٩٨٨م).
١٥٧- سيد أبو الحسن الشاذلي؛ حياته ومدرسته في التصوف، د/ عبدالوهاب فرحات، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى (٢٠٠٣م).

١٥٨- سير أعلام النبلاء للذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة (١٤١٠هـ / ١٩٩٠م).
١٥٩- سيرة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية)، بهاء الدين ابن شداد، دار الأوائل، الطبعة الأولى (٢٠٠٣م).
١٦٠- سيف الدين الآمدي وآراؤه الاعتقادية في الله وصفاته، د/ إحسان عبد الغفار مرزا، الطبعة الأولى (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م).
١٦١- شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال للعزّ بن عبد السلام، بيت الأفكار الدولية، الرياض.
١٦٢- شذرات الذهب في أخبار من ذَهَب، لابن العماد الإمام شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي أحمد بن محمد العكري الحنبلي الدمشقي، دار بن كثير، دمشق، الطبعة الأولى (١٤١١هـ/ ٢٠٠٤م).
١٦٣- شرح مختصر الروضة، سليمان بن عبد القوي الطوفي، تحقيق: د/ عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).
١٦٤- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب لأحمد إبراهيم الحنبلي، مكتبة الثقافة الدينية، طبعة سنة (١٩٩٦م/ ١٤١٥هـ).
١٦٥- شمس العرب تسطع على الغرب، زيغريد هونكه، ترجمة: فاروق بيضون وزميله، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الخامسة (١٩٨١م).
١٦٦- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تأليف: أحمد بن علي القلقشندي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي بمصر.
١٦٧- صحيح البخاري، عبد الله بن محمد بن إسماعيل البخاري، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الرياض (١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م).
١٦٨- صحيح الجامع الصغير للألباني، المكتب الإسلامي.
١٦٩- صحيح سنن أبي داود، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى (١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م).
١٧٠- صحيح سنن الترمذي، للعلامة محمد ناصر الدين الألباني.
١٧١- صحيح مسلم، مسلم بن حجاج القشيري، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الرياض (١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م).
١٧٢- صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء العزّ بن عبد السلام، سليم عيد الهلالي، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).
١٧٣- صلاح الدين الأيوبي قاهر العدوان الصليبي، د/ محمد رجب البيومي، دار القلم دمشق، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م).
١٧٤- صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس، د/ علي الصّلّابي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م).

١٧٥- صلاح الدين الأيوبي، قدري قلعجي، قصة الصراع بين الشرق والغرب خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، الطبعة الثالثة (١٩٩٧م).
١٧٦- صلاح الدين والصليبيون، تاريخ الدولة الأيوبية، د/ أحمد الشامي، الطبعة (١٩٩١م)، مكتبة النهضة العربية.
١٧٧- صلاح الدين وتحرير القدس، عبلة المهتدي، الزبدة، الطبعة الأولى (١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).
١٧٨- طبقات الشافعية للسبكي، عبد الوهاب بن علي السبكي، تحقيق: عبد الفتاح الحلول وزميله، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
١٧٩- عجائب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن الجبرتي، القاهرة، الطبعة (١٩٥٨م).
١٨٠- عز الدين بن عبد السلام، عبد الرحمن محمد مراد، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
١٨١- عصر الدولة الزنكية للصَّلَّابي، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م).
١٨٢- فتاوى شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام، محمد جمعه كردي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى (١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م).
١٨٣- فتح القدير، محمد علي الشوكاني، تعليق: سعيد بن محمد اللحام، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، الطبعة الثانية (١٤١٣هـ).
١٨٤- فضل الإسلام على الحضارة الغربية، مونتجمري وات، ترجمة: حسين أحمد أمين، دار الشروق، بيروت، الطبعة الثانية (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م).
١٨٥- فوات الوفيات لابن شاكر.
١٨٦- في التاريخ الأيوبي والمملوكي، د/ أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.
١٨٧- في التأصيل الإسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل.
١٨٨- في التفسير الإسلامي للتاريخ، نعمان السامرائي، مكتبة المنار، الأردن، الطبعة الأولى (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م).
١٨٩- في تاريخ الأيوبيين والمماليك، د/ قاسم عبده قاسم، طبعة (٢٠٠٧م) عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.
١٩٠- قاموس الكتاب المقدس، نخبة من علماء اللاهوت النصارى، دار الثقافة المسيحية، الطبعة الثانية.
١٩١- قذائف الحق، الشيخ محمد الغزالي، المكتبة العصرية، بيروت.
١٩٢- قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة: محمد بدران.
١٩٣- قضايا العالم الإسلامي ومشكلاته السياسية بين الماضي والحاضر، فتحية النبراوي، الطبعة الأولى (١٩٨٣م).
١٩٤- قضايا من تاريخ الحروب الصليبية، د/ رأفت عبد الحميد، الطبعة الأولى (١٩٩٨م) عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.
١٩٥- قواعد الأحكام في مصالح الأنام، عبد العزيز بن عبد السلام، دار الكتب العلمية، دار الطباع للطباعة، دمشق، الطبعة الأولى سنة (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م).

١٩٦- قواعد المصلحة والمفسدة عند شهاب القرافي من خلال كتابه (الفروق)، قندوز محمد الماحي، دار ابن حَزم، الطبعة الأولى (١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م).
١٩٧- قوانين الدواوين لابن مماتي.
١٩٨- كتاب الإعلام بقواعد القانون الدولي والعلاقات الدولية في شريعة الإسلام، د/ أحمد أبو الوفا، الطبعة الأولى (١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م).
١٩٩- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية لأبي شامة، شهاب الدين إسماعيل بن إبراهيم المقدس الدمشقي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ/ ٢٠٠٥م).
٢٠٠- كنز الدرر وجامع الغرر، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري، تحقيق: صلاح الدين المنجد، القاهرة (١٩٦١م).
٢٠١- لمع القوانين للنابلسي.
٢٠٢- ما هية الحروب الصليبية، الأيديولوجية، الدوافع، النتائج، د/ قاسم عبده قاسم، الطبعة الثانية (١٩٩٣م) دار ذات السلاسل، الكويت.
٢٠٣- مآثر العرب العلمية أساس حضارة الغرب، تأليف: فؤاد جميعان، الطبعة الأولى (٢٠٠١م/ ١٤٢٢هـ) المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
٢٠٤- مجموعة الشرع الكنسي، حنانيا، إلياس كساب، منشورات النور، بيروت.
٢٠٥- مذكرات جوانفيل، جان جوانفيل، ترجمة: د/ حسن حبشي، دار المعارف، مصر (١٩٦٨م).
٢٠٦- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، شمس الدين أبو المظفر بن قزاوغلي التركي، سبط بن الجوزي، دائرة المعارف العثمانية لحيدر آباد، الدكن، الهند (١٩٥٢م).
٢٠٧- مصر في العصور الوسطى، د/ محمود محمد الحويري، الطبعة الثانية (٢٠٠٢م) المكتب المصري لتوزيع المطبوعات.
٢٠٨- مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، د/ سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان.
٢٠٩- معارك العرب ضد الغزاة، محمد عمارة.
٢١٠- معالم التنزيل، الحسن بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرين، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م).
٢١١- معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، مدخل لدراسة التاريخ السياسي والحربي، محمود سعيد عمران، دار المعرفة الجامعية، طبعة (٢٠٠٦م).
٢١٢- معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج خطاب جديد في العجز الإسلامي والعربي والمشروع النهضوي الغربي الوحدوي، د/ يوسف غوانمه، دار الفكر، الطبعة الأولى (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م).
٢١٣- معجم الحضارات السامية، هنري بن عبودي، جروس برس، طرابلس، لبنان، الطبعة الثانية (١٤١١هـ/ ١٩٩١م).
٢١٤- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جمال الدين محمد بن سالم بن واصل.

٢١٥- مقاصد الشريعة عند الإمام العز بن عبد السلام، د/ عمر بن صالح عمر، دار النفائس، الأردن، الطبعة الأولى (١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م).

٢١٦- مقاصد الصلاة، تأليف: سلطان العلماء العز بن عبدالسلام، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دمشق، سوريا، الطبعة الثانية (٢٠٠٠م).

٢١٧- مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان، أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، تحقيق: د/ محمد شامه، تحت عنوان: بين الإسلام والمسيحية، مكتبة وهبة، مصر، الطبعة الثانية (١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م).

٢١٨- مملكة حماة الأيوبية في مواجهة الحملات الصليبية والزحوف المغولية، عدنان سعد الدين، الطبعة الأولى (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م).

٢١٩- مناهج الجدل في القرآن الكريم، د/ زاهر الألمعي، الرياض، مطابع الفرزدق، الطبعة الثالثة (١٤٠٤هـ).

٢٢٠- منظومة البوصيري في الرد على النصارى واليهود، محمد بن سعيد الأبوصيري، تحقيق: د/ أحمد حجازي السقا، مطبعة دار البيان، القاهرة، الطبعة الأولى (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م).

٢٢١- منهج ابن قدامة في تقرير عقيدة السلف وموقفه من المخالفين لها، د/ علي بن محمد بن سعيد الشهراني، بيت الأفكار الدولية، العودية.

٢٢٢- موسوعة الآداب الإسلامية، عبدالعزيز بن فتحي السيد نداء، دار طيبة، الطبعة الأولى (٢٠٠٣م).

٢٢٣- موسوعة تاريخ العرب، العصر الأيوبي، طبعة (٢٠٠٦م) دار البحار، بيروت.

٢٢٤- موسوعة تاريخ مصر، أحمد حسين.

٢٢٥- موقف ابن تيمية من النصرانية، مريم عبد الرحمن زامل، نشر جامعة أم القرى، مكة المكرمة، (١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م).

٢٢٦- موقف فقهاء الشام وقُضاتها من الغزو الصَّليبي، جمال محمد سالم عطيه، الجماهيرية الليبية، الطبعة الأولى (٢٠٠٠م) مركز جهاد الليبيين للدراسات.

٢٢٧- نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية -دارسة وتحليل، د/ عمر عبد الرحمن السارسي، دار المنارة، جدة، السعودية، الطبعة الأولى (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).

٢٢٨- نظام الحكم في الإسلام بين النظرية والتطبيق، د/ أحمد عبدالله مفتاح، دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٢٩- نظرية المسيح في الشرائع السماوية، شعبان إسماعيل، مطابع الدجوي، القاهرة.

٢٣٠- نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تأليف: أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق: د/ إحسان عباس، طبع دار صادر، بيروت (١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م).

٢٣١- نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد عبدالوهاب النويري، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة (١٣٩٥هـ).

٢٣٢- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، محمد بن أبي بكر (ابن القيم)، مطبوعات الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.

٢٣٣- هكذا ظهر جيل صلاح الدين، وهكذا عادت القدس، د/ ماجد عرسان الكيلاني، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الأولى (١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م).
٢٣٤- واقدساه، د/ سيد حسين العفاني، مكتبة معاذ بن جبل، دار العفاني، الطبعة الأولى (١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م) العصر للطباعة.
٢٣٥- وصايا وعظات قيلت في آخر الحياة، زهير محمود الحمودي، دار ابن حزم، الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م).
٢٣٦- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر خلكان، دار الفكر.

فهرس

الإهداء ٤

الفصل الأول

الأيوبيون بعد صلاح الدين

المبحث الأول: خلفاء صلاح الدين ١٥
أولًا: تقسيم أقاليم الدولة: ١٥
ثانيًا: النزاع بين خلفاء صلاح الدين: ١٦
ثالثًا: النزاع بين الأخوين الأفضل والعزيز: ١٧
رابعًا: تآمر الملك العادل على الأفضل: ٢٠
المبحث الثاني: عهد الملك العادل ٤٣
أولًا: الأحلاف السياسية ضد الأيوبيين في الجزيرة: ٤٣
المبحث الثالث: الحملة الصليبية الرابعة وسقوط القسطنطينية ٧١
أولًا: جهاد الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر: ٧٢
ثانيًا: جذور الصراع بين الإمبراطورية البيزنطية وبابا الفاتيكان: ٧٤
ثالثًا: التفكير في الحملة الصليبية الرابعة: ٧٩
خامسًا: محاولة الصليبيين السيطرة على بلاد الشام: ٨٩
سادسًا: الحملة الصليبية الخامسة في عهد الملك العادل: ٩٠
سابعًا: أهم الدروس والفوائد والعبر: ١٠٦

الفصل الثاني

عهد الملك الكامل بن العادل الأيوبي

المبحث الأول: الحملة الصليبية الخامسة ١٢٣
أولًا: جهود الملك الكامل للتصدي للغزاة: ١٢٣
ثانيًا: مساومات الملك الكامل على القدس: ١٢٧
ثالثًا: إعداد الملك الكامل مصر والشام لقتال الصليبيين: ١٣٠
رابعًا: سقوط مدينة دمياط: ١٣٣
المبحث الثاني: السياسة الأيوبية الداخلية في عهد الملك الكامل ١٤٨
أولًا: تولي الملك الكامل السلطنة ومحاولات خلعه: ١٤٨
ثانيًا: محاولات خلع الملك الكامل: ١٤٩
ثانيًا: سياسة الملك الكامل الإدارية والأمنية والقضائية: ١٥٣
ثالثًا: سياسة الملك الكامل الاقتصادية والمالية: ١٥٦
رابعًا: ثقافة الملك العادل وسياسته التعليمية: ١٦٠
خامسًا: أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة من مشاهير عصر الدولة الأيوبية في عهد الملك العادل والملك

الكامل (توفي سنة ٦٢٠هـ): ١٦٦
سادسًا: الملك الكامل وسياسته العمرانية والحياة الاجتماعية: ١٧٩
سابعًا: وفاة خاتون بنت الملك العادل (٦١٦هـ): ١٨٤
ثامنًا: وفاة ست الشام بنت أيوب (٦١٦هـ): ١٨٥
تاسعًا: وفاة صاحب إربل مظفر الدين أبو سعيد كُوكبري (٦٣٠هـ): ١٨٥
عاشرًا: بعض رجالات الملك الكامل: ١٨٦
المبحث الثالث: سياسة الملك الكامل مع الممالك في عصره ١٩٠
أولًا: موقف الملك الكامل محمد من الملوك الأيوبيَّة: ١٩٠
ثانيًا: علاقة الملك الكامل مع الخوارزميين: ٢٠٥
ثالثًا: علاقة الملك الكامل مع سلاجقة الروم: ٢٠٧
رابعًا: علاقة الملك الكامل مع الأراتقة: ٢٠٩
خامسًا: علاقة الملك الكامل باليمن: ٢١١
سادسًا: الملك الكامل والتتار: ٢١٤
سابعًا: وفاة الخليفة العباسي الناصر لدين الله في عهد الملك الكامل (٦٢٢هـ): ٢١٧
ثامنًا: خلافة الظاهر بن الناصر لدين الله عام (٦٢٢هـ): ٢٣٢
تاسعًا: الخليفة المستنصر بالله (٦٢٣هـ-٦٤٠هـ): ٢٣٤
عاشرًا: وفاة كاتب الديوان في عهد المستنصر (ت ٦٢٦هـ): ٢٣٦
المبحث الرابع: الحملة الصليبية السادسة ٢٣٨
أولًا: شخصية الإمبراطور فردريك الثاني وطموحاته: ٢٤٠
ثالثًا: المفاوضات بين الملك الكامل والإمبراطور فردريك الثاني: ٢٤٣
رابعًا: صلح يافا: ٢٤٥
خامسًا: ردود فعل الأمة الإسلامية من تسليم بيت المقدس: ٢٤٩
سادسًا: رفض الصليبيين للصلح: ٢٥٣
سابعًا: تحليل شخصيتي الملك الكامل والإمبراطور فردريك الثاني: ٢٥٦
ثامنًا: القدس بعد المعاهدة ونتائج الحملة السادسة: ٢٥٧
تاسعًا: سياسة فريدريك تجاه مسلمي صقلية: ٢٥٨
عاشرًا: هل الملك الكامل رجل سياسة قدير سبق عصره؟ وهل كان محقًّا في فكرة تدويل القدس في ذلك العصر؟ ٢٥٩
الحادي عشر: استمرار العلاقة بين الملك الكامل والإمبراطور فردريك: ٢٦٦
الثاني عشر: حروب الملك الكامل بعد انتهاء الحملة الصليبية السادسة: ٢٦٦
الثالث عشر: وفاة الطاغية جنكيز خان سنة (٦٢٤هـ) في عهد الملك الكامل: ٢٦٧
الرابع عشر: فوائد متفرقة وتراجم مهمة قبل وفاة الملك الكامل: ٢٧١

الفصل الثالث
عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب

المبحث الأول: اسمه ونسبه والخطوات التي اتخذها للوصول للسلطنة ٢٧٧
أولًا: ماذا حدث بعد وفاة الملك الكامل؟ ٢٧٧
ثانيًا: الأيوبيون بالشام يستعينون بالصليبيين: ٢٨٢
ثالثًا: الخوارزمية واسترداد بيت المقدس: ٢٨٣
رابعًا: الصالح أيوب وتوحيد الدولة الأيوبية: ٢٨٥
خامسًا: علاقة الملك الصالح أيوب بالخلافة العباسية: ٢٨٩
سادسًا: تطوير الملك الصالح أيوب للجيش الأيوبي: ٢٨٩
المبحث الثاني: الحملة الصليبية السابعة ٢٩٤
أولًا: أسبابها: ٢٩٤
ثانيًا: الإعداد للحملة: ٢٩٧
ثالثًا: رحيل الحملة إلى مصر: ٢٩٧
رابعًا: احتلال دمياط: ٣٠٠
خامسًا: معركة المنصورة وتورنشاه يقود المعركة النهاية: ٣٠٦
سادسًا: أسباب الهزيمة: ٣١٠
سابعًا: نتائج الحملة الصليبية السابعة: ٣١٩
ثامنًا: ما قيل من شعر في هزيمة الحملة الصليبية السابعة: ٣٢٥
تاسعًا: مقتل تورنشاه وزوال الدولية الأيوبية: ٣٢٨
المبحث الثالث: الشيخ عز الدين بن عبد السلام
من مشاهير عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ٣٣٢
أولًا: اسمه ونسبه: ٣٣٢
ثانيًا: نشأته: ٣٣٢
ثالثًا: شيوخه في طلب العلم: ٣٣٣
رابعًا: شيوخ العز رحمه الله: ٣٣٤
خامسًا: تلاميذ العز بن عبد السلام: ٣٣٧
خامسًا: مؤلفاته: ٣٤٥
سادسًا: أعماله في التدريس والإفتاء والقضاء والخطابة: ٣٦٨
سابعًا: أهم صفات العز بن عبد السلام: ٣٧٣
ثامنًا: أهم محاور التجديد عند الشيخ عز الدين بن عبد السلام: ٣٨٢
تاسعًا: التربية والآداب والتصوف عند العز بن عبد السلام: ٣٩٢
المبحث الرابع ٤٠٨
الجدل الثقافي بين المسلمين والنصارى في عهد الحروب الصليبية ٤٠٨

أولًا: أهمية دعوة النصارى إلى الإسلام: ٤١٠
ثانيًا: أهم موضوعات دعوة المسلمين للنصارى: ٤١٢
ثالثًا: مناقشة عقائد النصارى: ٤٢٥
رابعًا: مناقشة شعائر النصارى وطقوسهم: ٤٤٣
خامسًا: أهم الشُّبه التي أثارها النصارى في عصر الحروب الصليبية: ٤٥٣
سادسًا: القائمون على دعوة النصارى في عصر الحروب الصليبية: ٤٦٧
سابعًا: وسائل الدعوة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية: ٤٧٨
ثامنًا: أساليب دعوة المسلمين للنصارى: ٤٨٢
تاسعًا: آثار دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية: ٤٩٩
عاشرًا: آثار الدعوة الإسلامية في أوربا: ٥٠٨
الحادي عشر: أهم الدروس والعبر والفوائد من دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية: .. ٥١٤
المبحث الخامس: أسباب سقوط الدولة الأيوبية ٥١٦
أولًا: توقف منهج التجديد الإصلاحي: ٥١٧
ثانيًا: الظلم: ٥٢٠
ثالثًا: الترف والانغماس في الشهوات: ٥٢١
الخلاصة ٥٢٩
أهم المصادر والمراجع ٥٤٣
فهرس ٥٥٧

الأيوبيون



بعد صلاح الدين

والحملات الصليبية من الرابعة إلى السابعة

دار ابن الجوزي

جمهورية مصر العربية - القاهرة
٥ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر
هاتف: ٠٠٢٠٢/٢٥٠٦١٩٠٣ تليفاكس: ٠٠٢٠٢/٢٥٠٦١٦٢٠
جوال: ٠٠٢٠١٠١٧٦٧٣٩٨ - ٠٠٢٠١٠٣٣٥٠٦٩٧
E-mail:dar_ebnelgawzy@yahoo.com

6 222011 501251